

ابراهيم أحد عيسى

بادي



أشودة سودان

إِبْرَاهِيمُ أَحْمَدُ عَيْتَنِي

يَلْحَى

أشوَّدَةُ سُودَانٍ



رواية

باري

أنشودة سَوْدَان

إهداءً إلى ذلك الجزء النقيّ بنفوسنا... اثبُتْ!

(1)

ابتلَعَ الغِيمُ شَمْسَ الْعَشِيَّةِ، وَتَلَاحَمَتْ سُحبُه مِنْ مَجْرَةِ بَرَدٍ يَنْذِرُ بِصَبَبٍ قَرِيبٍ، قَدْ يَرَوِي ظَمَاءً غَابَةً لِمَ تَوَدَّعُ ضَوْءُ النَّهَارِ الْأَخِيرِ. أَسْدَلَتِ الْأَشْجَارُ ظَلَالَهَا مَهِينَةً عَلَى فَرَاغِ الْغَابَةِ، وَتَوَقَّفَ الْهَزِيمُ، لِيَسُودَ السُّكُونُ مَرَّةً أُخْرَى، إِلَّا أَنْ يَقْطَعَ الصَّمْتُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ شَدَوْ كَرْوَانٍ يَتَرَنَّمُ بَيْنَ الْأَغْصَانِ.

كَانَتْ مُنْهَمَّةً فِي اسْتِشَاقِ هَوَاءِ بَارِدٍ، قَادِمٌ مِنْ نَاحِيَةِ السَّفَحِ حَامِلًا مَعَهُ رَاهِنَةَ الْمَطَرِ، بَيْنَمَا رَاحَتْ تُدَاعِبُ بَعْضَ الْأَغْصَانِ الْبَيَانِعَةِ. رَفَعَتْ إِلَى بَقَائِيَ الشَّمْسِ عَيْنَاتِ مَكْتَحِلَةٍ بِالشَّجَنِ، تُنْصَتَ إِلَى غَنَاءِ الْكَرْوَانِ يُؤْنِسُ وَحْدَتَهَا وَيَمْنَحُهَا سَكِينَةً تَحْتَاجُهَا. يَوْمِيَا تَفَرُّ مِنَ الْمَوْتِ.. تَفَلَّتْ مِنْ بَيْنَ بَرَاثَنِ مَنْ يَشْتَهِيهَا، لَتَرَوْغُ ذِئَابَ الْغَابَةِ، فَتَمْنَحُ فَرَصَةً لِلْحَيَاةِ لِيَوْمِ آخِرٍ. أَرْهَفَ السَّمْعُ.. أَهَنَّاكَ شَيْءٌ يَرِبَّضُ بَيْنَ الْأَغْصَانِ الْمَرْتَفَعَةِ؟.. أَلْقَتْ نَظَرَةً، قَبْلَ أَنْ تَعُودَ لِلْعَبَثِ بِالْحَشَائِشِ. لَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدْعُو لِلْخُوفِ، الْهَوَاءُ يَعْبُثُ بِالشَّجَبِرَاتِ، هَذَا كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ. اعْتَصَرَتْ مَطْمَئِنَةً بَضَعَ حَبَّاتٍ مِنْ تَوْتٍ صَبِغَ فَمَهَا بَلُونَ أَحْمَرَ قَانِ، تَسْيِيلَ عَصَارَتِه بَيْنَمَا تَلُوكُهَا فِي تَلَذِذٍ بِبَطْءِهِ. مَرَّةً أُخْرَى عَادَ الصَّوْتُ الْخَافِتُ مِنْ بَيْنَ الْأَشْجَارِ، فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا فِي حَذْرٍ، وَدَارَتْ عَيْنَاهَا فِي الْمَكَانِ.

ثُمَّ رَأَتِهِ يَقْفُ عَلَى مَقْرَبَةِ مِنْهَا.. ظَهَرَ مِنَ الْعَدَمِ وَقَدْ ضَاقَتْ حَدْقَاتُ عَيْنِيهِ، وَهُوَ يَرْمِقُهَا بِظَفَرِهِ، بَيْنَمَا تَشَدَّدَ أَصَابِعُهُ وَتَرَقَّسُ يَمِينُهُ مِنْ قَسْوَةِ قَبْضَتِهِ. اِنْتَفَضَتْ مَعَ دُوَيِّ الرَّعدِ، لَتَمْنَحَ أَقْدَامَهَا مَحاوِلَةً بِائِسَةً لِلْهَرْبِ، وَلَكِنْ لَا مَفْرَرَ، فَقَدْ أَصَابَ ضَلْعَهَا الْأَيْسِرَ سَهْمًا أَسْقَطَهَا أَرْضًا. حَاوَلَتْ النَّهْوَضُ فَخَانَتْهَا قُوتَهَا.. تَعْثَرَتْ، وَأَدْرَكَتْ أَنْ لَا حُولَ لَهَا وَلَا قُوَّةَ إِلَّا.. إِنَّهَا النَّهَايَةُ الْمَحْتَوْمَةُ. الْأَلَمُ كَانَ أَقْوَى مِنْ حَبَّ الْحَيَاةِ، أَلْقَتْ رَأْسَهَا فِي أَحْضَانِ عُشْبَ مَلْطَخِ بَقَطَرَاتِ مَنْ دَمَاهَا، وَعَيْنُهَا تَرْمَقُ سَمَاءً تَكَدَّسَتْ بِسَحْبٍ تَذَرَّفُ قَطَرَاتٍ لِفَرَاقِهَا. حَرَّكَتْ أَذْنِيَّهَا تَسْتَشَعِرُ صَوْتُ أَقْدَامِهِمْ وَضَحْكَاتِهِمْ يَقْتَرِبُونَ أَكْثَرًا. تَمَنَّتْ أَنْ

يُجعل الموت بها قبل أن تراهم. أرخت جفنها، وقد حق القدر لها ما تمنت. انتفض ذيلها، وتبعه رجفةأخيرة ثم زفرة.. وسكن الجسد.

"لم أَمْهَرْ مِنْكَ يَا سَوْدَانْ"

نطق بها شعيب وهو يشير إلى صديهما. تجاوزه مرافقه وهو يُزِّحُ الأغصان عن طريقه: ألم أقل لك إن رحلة الصيد هذه ستكون موفقة.. ظبية كبيرة، أليس كذلك؟

أخرج شعيب خجره وهو ينحني نحوها قائلاً:

- يبدو أنها تاهت عن القطيع وقت العاصفة.

تفحصها سودان بعينيه:

- أسلمت الروح؟

أجابه شعيب وهو يشرع في إخراج السهم من ضلعها:

- نعم.. هل يجب ذبحها بعد موتها؟

النقط سودان السهم الملوث بدمائهما:

- إذا أدرك الصياد الصيد وفيه حياة، لم يحل أكله إلا بذبحه. أما إذا لم يكن فيه حياة، فهو كالبذبح لا تجب التذكرة والذبح إذن، فالسلاط هو ذكاوه. أما إذا جرح وجود ميتاً بعد حين وفيه أثر سلاحنا، جاز أكله، وإن لم يكن أثر سلاحنا فهو ميتة لا تحل لنا.

حمل شعيب الظبية على كتفيه متبعاً خطى صاحبه. توجها نحو السهل المنبسط خارج الغابة حيث مُخيم الصيد: خيمتان رماديتان من صوفٍ، رقعة سقفاهما بجلود الماعز، غريبتان في أرض رومية، لا تنسبان إلى الجبال الرمادية الشاهقة ذات القمم البيضاء وأشجار البلوط الكثيفة في الخلف. قرب المجرى المائي المنسلل من الجبل، كان يقف رجلان آخران، ملابسهما وعامتاهم تُفصح عن هويتهما. صاح أحدهما مع رؤيته للقادمين.. ركض، بعد أن ترك دلوه قرب نيران المخيم. اقترب باسطا يديه ليحمل الظبية، تناولها وهو يصبح ليسمع صاحبه:

- قلتُ لك إنهم سينأتيان بصيده يستحق كل هذا العناء.

أثار صياح صاحبه الذي ما زال بقرب الجدول:

- يا لك من كاذب! ألم تكن تقول إنه لا داعي للصيد وعليها العودة للمدينة قبل العاصفة؟

تلعثم حامل الظبية، مع ضحكات شعيب الذي ربت على كتف سودان قائلاً:

- مولانا سودان من اصطادها.. كاد أن يُغشى عليّ من طول صبره.

منحهم سودان ابتسامةً هادئةً وهو يمر إلى خيمته. وضع عنه قوسه وسيفه، وأخذ يخلع عمامته، عندما جاء صوت خادمه:

- سيدِي، أحضرت لك الماء للوضوء.

حدثه دون أن يلتفت:

- حسناً يا بيرسباي، ضعه هنا وساعد الأمير شعيب وعليّ في تجهيز عشائنا.

خلع سودان ملابسه دون أن يأبه ببرودة نفثها الجبل عبر قنوات المياه الجارية. شرع في مسح جسده بقطعةٍ من قماش نقعها في الدلو، ثم بدأ وضوئه. انتهى ملقطاً ملابسَ نظيفةً كان قد وضعها الفتى بجانبه قبل خروجه. وتناثر صوتُ شعيب إلى مسامعه يؤذن العشاء.

صلى الرفاق على وهج نيران تشوبي فخذ الظبية المسكينة، ثم حان عشاءً صامتً انتهى سريعاً بأمرٍ من المطر الذي اشتد حتى توتّرت الجياد من شدته. راح بيرسيباي يغط في نوم عميق، بعد يوم شاقٍ اختتمه بتحصين الخيمتين من المياه ببعض الأحجار والطين. وفي الخيمة الأخرى، كان شعيب يقص على مسامع صاحبه قصة إقريطش، لا يكُف عن ذكر أصله الأندلسية، وقصة أبيه الذي كان صغيراً حين حملته سفن التهجير عن بلاده، بعد ثورة قام بها أهل الربض بقرطبة ضد أمير الأندلس الحكيم بن هشام، صارت نيرانها تلتهم المدينة، رغم ما حمله الرجال من مياه النهر لإنقاذهما، حتى إن صرخات النساء والأطفال سمعت خارج أسوار قرطبة؛ وما كان هذا إلا عقابهم إذ جاهروا بأن أميرهم يُعاشر الخمر، وأن حياته ماجنة، أفصح بها الفقهاء على المنابر وتجولت الحكايات في أزقة المدينة. ثار الناس.. ثم خدمت النيران ولم يعد لها أثر، إلا بركة من وحل الرماد، وشعيب ما زال يقص على مسامع الفتى الناعس رحلة رآها في عين أبيه. لقد حكم على أهل الربض جميعاً بالترحيل، كيلا يبقى في أرضِ أندلس ذكر لهم.

وألقى البحر بالمهجّرين إلى الإسكندرية، فنزلوا على شاطئها باحثين عن فرصةٍ جديدةٍ للعيش. كانت المدينة تبعث في النفس السرور، رائحة البحر تجوب طرقاتها المحاطة بمنازل بيضاء ومنارة شاهقة لا مثيل لها، الأشجار مثمرة والظلل ممتدة عبر الدروب. في جنباتها عراقة، وحكايات لأقوام مرروا من هنا مثلهم. وسرعان ما ازدهرت أحوال أبناء الأندلس في وطنهم الجديد، فقد كانوا أهل صنعٍ وحرف، وفي غضون أعوام قليلةً أصبحوا يسيطرون على مقاليد الإسكندرية تجارياً وفكرياً، والتفرّح حولهم الكثير من الناس، إلى أن أعلنوا المدينة إمارة مستقلة. خمس سنوات وأكثر كانوا يديرون أحوال المدينة، يتحكمون في كل شيء، ولم يعد لبني العباس ومريديهم مكان في الإسكندرية. بُنيت السفن تباعاً، وأصبح للأندلسيين أسطول قوي يربض بالميناء. جعلوا على أسوار المدينة جنداً، وعلقت الرایات الخضراء بدلاً عن تلك السوداء العباسية، بينما لم يزل تصارع الأخوان المأمون والأمين هو كل ما يشغلهما في الدولة المترامية. لكن لم تطب الأيام أكثر، فقد انتبه والي مصر العابسي عبد الله بن طاهر لما فعل الوافدون بالإسكندرية، فحشد الجندي وجاء لحصار المدينة. ومرة أخرى وجد القوم أنفسهم في البحر، ولكن باتفاق رابح بعض الشيء: أن يحملوا أولادهم وأموالهم وسلامتهم ويرحلوا، على الأقل يدخلوا أراضي الدولة العباسية أينما كانت. وأخيراً، نام الفتى دون أن تنتهي قصص شعيب، الذي أوى هو الآخر لفراشه، وقد زين مخيّله بعائالته الصغيرة.

لم ينم سودان، فقد أصابه أرق، جلس يُراقب قطرات الغيث، بينما لم يعد الظلام هو المهيمن على المكان، فالبرق يهتك سترة بين الفينة والأخرى ليضرب عقل سودان. راح يضغط على سكينه لتبرد قطعة من الخشب بين يديه، وانهمك في نحتها بعنابةٍ فائقٍ، بصره ويداه مشغولتان بما يصنع، ولكن عقله شرد، يعيid عليه مشهدًا من زمن مضى. هناك على مرسى السفن في "بلرم"، كانت الأشرعة تنسل على الصواري، والرجال على متنها يهلكون ويُنكرون. ودعّتهم المدينة بالتكبير والصيحات.. زهور وأهازيج وبيارق مختلف الأوانها.. تودع الزوجات أزواجهن الذين اذهبين إلى الحرب، واحتلّ الدمع بالفرح، وأبحرت السفن في بطء. أما هو، فركض خارجاً من المرفأ متوجزاً الزحام.. عبر بوابات القلعة مسرعاً حتى الشاطئ الرملي.. بأنفاس متلاحقةٍ جلس على ركبتيه، يتأمل في صمتٍ فلّاكاً تحمل على ظهرها أباها. كان يتمنى الذهاب معه، تتوق نفسه للمشاركة في حملة الفتح، ليحصل على نصيبه من بشارةٍ لقها له أبوه وسمع أهل صقلية يذكرونها كثيراً.. فتح رومية.

أغلقت السماء أبوابها، وتخامت السحب الرمادية لتفرج عن زرقة السماء. غردت الطيور في بهجة، متنقلة على أغصان قد تظهرت خضرتها بأمطار ليلة شتوية قاسية. أخذ بيرسبي في إعداد الخيل وتجهيزها للرحيل، محدثاً على الذي كان يطوي الخيمة: أن توظف سيد سودان؟

- لم ينم، كانت ليته مؤقة.

جاءهما صوت شعيب المتوجه لخيمة سودان. نفض رأسه، لتطاير قطرات من ثر غسله لشعره الأشقر الكثيف، قبل أن يدخل. كان سودان راقداً بفراشه، ملك النوم عينيه، ويده ما زالت تقبض على قطعة الخشب والسكنين. اقترب منه في حذر، ومد يده ليلتقط ما يمسك به، فجاءه صوت سودان المغمض العين:

- ماذَا ترِيد يا شعيب؟

- كنتُ أحَاوْل إيقاظك سيدِي.

قال سودان دون أن يفتح عينيه:

- أنا مستيقظ.. هل جهزتم كل شيء؟

أشار شعيب خارج الخيمة، وهو يقول:

- أعد بيرسبي الخيل، وعلىٰ ينتظر أن تنهد ليجمع أغراضك.

نهض سودان من فراشه، ليضع سكينه جانبًا قبل أن يفرك صلعته الحسنة، وما زالت يده الأخرى تقبض على القطعة الخشبية، التي يُحاول شعيب معرفة ماهيتها. ابتسم سودان حين رأى الفضول ينساب من عيني صاحبه، فما كان منه إلا أن رفع ما بيده أمام وجه شعيب، الذي تحصل قطعة خشب كانت بالأمس مجرد جزء من غصن، ولكنها أصبحت شيئاً آخر.. تمثلاً لحصان صغير منحوت بعنايةٍ فائقٍ، زينت أحد جانبيه نقوش متداخلة. تأمله شعيب مبهوراً ليقول بعد ذلك: أهذا ما أرق ليالك؟!

حرّك سودان التمثال الصغير للجهة الأخرى قائلاً:

- بل هذه.

كان النقش على الجانب الآخر جلياً، بأحرف لاتينية يفهمها شعيب جيداً.. كلمة تحمل حلمًا طمع إليه سودان منذ الصغر: روما!

طوت الخيل الأرض من تحتها، حاملةً على ظهورها الرجال الأربع. عبروا مروجاً خضراء شاسعة، تحكمها سلسلة من الجبال ذات القمم الثلجية، تقف مهيبة شامخة تعلق سحب السماء. كانوا قد توغلوا في أراضي دوقية بنفسيتو أكثر مما ينبغي. رحلة صيد تحمل في جنباتها استكشافاً واستطلاعاً. وفروا بالصيد، كما عرفوا سبلاً جديدة، وسهولاً للتخييم تحيط بها غابات الصنوبر، وهضاباً صخرية تسكنها قطعان الوعول الجبلية والغزلان. إنها أرض حمل أهلها منذ زمنٍ، بعد أن كانوا أسياد العالم..

لا شيء يبقى على حاله.

اندثرت روما، وما بقي من القياصرة أطلال مدن قديمة وقواعد لتماثيل نبت حولها العشب. انفرطت الإمبراطورية إلى ممالك صغيرة، تابعة للقسطنطينية وإمبراطورها تارة، وللكارولنجيين وأمبراطورهم المقدس تارة. عبّثت السنين بهذه الأرض، حتى وصل الأمر أن أصبح أهلها خدماً لثلة من النبلاء التابعين للأملاك البابوية، ولم يبق من إرث قديم سوى بعض مدن زُينت بها أحلام مغامرين عرب، أمثال سودان البعيد جداً عن دياره. كانت الرحلة تستحق العناء؛ فحملات الأمير الصيفية تحتاج لمعرفة الطرق وأماكن القرى، لذا قرر الذهاب بنفسه في هذه الرحلة الطويلة، برفقة ثلاثة من رجاله المقربين. مرروا بقرى من دافعي الجزية، تلاحقهم نظرات متوجسة وأخرى تُظهر المقت.. في بعض القرى وجد الإسلام، يُنبئ عنه مسجدٌ صغيرٌ وملابسٌ عربيةٌ تطفى على أهل القرية. أحياها وليس دوماً، كانوا يُرحب بهم دون معرفة هويتهم، وأحياناً لا يجدون الترحيب فيرحلوا سريعاً، تلاحقهم صيحات الصغار فرحةً بالخيول القوية. كانت لهم كذلك أيام قضوها على تخوم كمبانيا، وإذ انتهوا من صيدهم حملوا الفراء معهم، أما اللحم فمنحوه لراهب يسكن صومعة قديمة، قرب مدخل الوادي. في بادئ الأمر رفض هديتهم وتوجس منهم، فقد عاش أكثر من نصف عمره يقتات بقليلٍ من الزيت والعسل. ولما طال الحديث قليلاً، تعجب من لطفهم، وسألهم عما جاء بهم إلى تلك الأحياء، فادعوا أنهم صيادون مرروا بالصومعة باحثين عن الدفء، فدعاهم ليقضوا يومهم معه، فقبلوا، ثم ساعدوه في إصلاح جدار صومعته قبل أن يغادروا، متخذين الطريق إلى الجنوب.. تتبعهم أعين الموت من فوق ربوة قريبةٍ!

عند الغروب، أوقف شعيب جواده صاحب الزفير المرتفع ملوحاً بيده:

- علينا أن نريح الجياد ونسقيها، قبل أن نكمل طريقنا إلى حاضرة أفيليانو.

جذب سودان لجام فرسه بدورة:

- لن نتوقف بأفيليانو، يجب أن نصل إلى باري قبل شروق الغد. الطريق ما زال طويلاً، وإن دخلنا المدينة سيستقبلنا محمد الأغلبي، وما بين الضيافة والمكوث سنبقى لأيام؛ فلا داعي لهذا. ترجل عن الفرس، التي ما إن نزل عنها حتى خطت ناحية بركة المياه. لحظات من الارتواء، داعب فيها سودان خصلات شعرها الأبيض وهو يقول لبيرسيباي:

- أتدرى يا بيرسيباي، جَدْ هذه الفرس رُبْط يوماً في ساحة قلعة القدس أَنْج برومَا.

ابتسم بيرسيباي وهَمَ بقول شيء، حينما جاء صوت شعيب كالعادة:

- ولتفتحن رومية.. يوماً ما ستدخل الهاجن روما وأنت على صهوتها.

راود سودان مشهد دخوله روما ممتظياً فرسه البيضاء، تسير في خلاء، ومن حوله البيارق والرایات، وخلفه كتاب جيشه الجرار، لكن سرعان ما تبخرت أحلام اليقظة، مع حث مرافقيه له للمضي. امتطى الجميع خيولهم، وتأخر بيرسيباي عنهم، لكن ما هي إلا بضع خطوات، ليأتي صهيلاً قوي من خلفهم، فالتفتوا إلى حيث بيرسيباي، لتتجدد أعينهم، فقد كان يقف ممسكاً بسهم قصير استقر بصدره، تتبثق الدماء حوله، وعيناه الزرقاوأن تُغلقان في تهالكِ وألمٍ!.. سقط رفيقهم أرضاً، في

الوقت الذي ركض فيه جواده في الاتجاه المعاكس، فزعاً من أصوات الصيحات الهمجية القادمة من مسافةٍ قريبةٍ جداً.

برزوا من بين الأجرام والصخور، بخوذات ذهبيةٍ يعلوها عرف من ريش أحمر، يحملون نشاماً قصيرة مصوبةٍ ناحية سودان ورفاقه، ملابسهم ذات خطوط بيضاء وحمراء، ويتوسط صدورهم نقش لخزير بري يُفصّح عن هويتهم، جندٌ دوقيَّة بنفسيتو، تفيسن أعينهم بالغضب والقتل. لحظاتٍ مرت، قبل أن ينطلقوا راكضين باتجاههم، مطليين وابلاً من السهام القصيرة. أصيب شعيب بسهم انتشهه من دهشته، ليسقطه عن صهوة جواده، الذي حصد جسده بضعة أسمهم هو الآخر. نهض شعيب مستنداً إلى ظهر الجواد الصريع، وبيدٍ مخضبةٍ بالدماء أشهر سيفه، غير مبال بألم راح يغزو جانبه. انقض عليهم، في الوقت الذي كان الفتى على يتح جواده على التقدم ناحية المهاجمين، وراح يصول ويحول بين الجند، حتى تکالبوا عليه، فسقط بعد أن عقرت مططيه، ولم تمهد له السيف، غمدت في جسده لتحقق روحه في سماء تزار من جديد. كسر شعيب السهم المستقر بجانبه الأيسر، بعد أن أسقط أحد مبارزيه، ليستدير لمواجهة زمرة أخرى منهم. كان يقاتل في بسالةٍ منقطعة النظير، قتالاً لا هوادة فيه، وأجنحة الموت تحلق فوق الرؤوس تحصد ما تشاء من الأرواح، وتنتظر روحه. هكذا هم الشجعان يقاتلون حتى النهاية ببسالة. حفظ عن ظهر قلب «وإذا لم يكن من الموت بد، فمن العجز أن تكون جيّاناً». لم يفلح أحد في إسقاط سودان عن الهجان، التي كانت تصارع بدورها مهاجمي فارسها، فتركل بساقيها الأماميَّتين أحدهم، بينما يشح سودان بسيفه رأس مبارزه. يجذب لجامها، لتدور حول نفسها، وتوقف على قائميها الخلفيين مطلقة صهيلاً قوياً، امترج بصيحة ألم خرجت من حلق شعيب، الذي خرَّ على ركبتيه متلماً إثر جرح أصاب ساقه، لكن لم يتنه عن مواصلة القتال، فلم يفلت سيفه، وظل يدفع مبارزيه عنه، ويجرح هذاً ويصرع ذاك، حتى باعثه نصل اخترق عنقه من الخلف، أمام أعين سودان الذي جرح هو الآخر، وأصبح الأمر محسوماً.. عشرات مقابل رجل واحد الآن.

كل شيء تحرَّك بنشاطٍ داخل قرية "سان فيلي"، بعد ليلةٍ ممطرة. الأكواخ البسيطة لم تتحمل وطأة المياه، فتسربت لداخل المنازل الطينية ذات الأسقف الخشبية. وجوه النساء عابسة وقد انهمكن في إخراج المياه من أكواخهن، بملابس مبللةٍ تلتتصق بأجسادهن المكتنزة. معظم الرجال شحدوا الفؤوس واتجهوا ناحية الغابة، يلحق بهم أطفالٌ ملطخون بالطين متعثرون بالولحل. بعض أوزات يُثْرن الفوضى على جانبي الطريق، بينما يمر حسانٌ ضخمٌ ببطء، ساحباً خلفه محراًثاً خشبياً مسطحاً، يزبح الطمي عن الطريق. سلال الطعام والخبز تُقلِّ إلى منزل النبيل لوريينزو، الذي يقف مرتدياً ثوبًا أزرق من قماش المسلمين، وعلى كتفيه انسل معطفٌ من الفراء الرمادي، متابعاً بعينيه الزرقاويين الثاقبين كل ما يدور في ساحة قريته. البيت الكبير. كما يُسمونه. يجثم أعلى التل بجدراه الحجرية، ليهيمن على الأكواخ الطينية عند السفح، ويزيده سقف القرميد الأحمر فخامةً تفصح عن مكانة صاحبه الذي يتبع باهتمامٍ إصلاح أسقف الأكواخ، ولا ينفك يرصد الطريق لخارج القرية. تمنى قدوم الربع.. لطالما أحبه، ففيه يُحمل العربات بالكرم والفاكهـة، ويتجه إلى روما عبر تلك البوابة الخشبية المتآكلة، فيجد مهجهـة هناك في الزحام والبنيـات القديـمة وبقايا المعابـد العمـلاقة، وفي

التجول في الأسواق المكتظة بعد بيع ثماره. لا يحصل على سعر مرتفع بقدر ما إن باعه للغزاة في الجنوب، كما يفعل الكثيرون؛ ولكنه يتبرك برومما، ولن يبيع للوتنين البرابرة شيئاً. يُغضفهم، ويناجي القديسين كل ليلة على أمل محوهم من الوجود، ك أصحاب بومبي وهيركلينيوم.

خلف البيت الكبير، وفي الجانب المطل على الوادي، كان كل شيء ساكناً.. فقط خرير الجدول القريب هو ما يؤرق الصمت، وأنامل رقيقة تعبث بأحواض حمراء أضناها المطر والبرد ثم تقطفها لتمنحها موتاً سريعاً، بدلاً من الموت البطيء بفعل الصقيع. رفعتها إلى أنفها الدقيق، لتلقط شهيقاً مفعماً بعطر فريد، يليق بعيون جذابة تعكس خضرقة الحقول وزرقة السماء، ثم ثببتها فوق أذنها، لتحتضنها خصلات شعرها الكستنائي المتموج. أزاحت خصلة تطايرت على جبينها وهي تتطلع للسماء، وقد أفلت من بين الغيوم شعاع شمس داعب وجهها وزاد من رونق ثوبها الأزرق، ثم سارت بخطى بطيئة عبر الحقل الذي لم ينج منه إلا بضع زهور. لو رأها أحد لظن أنها روح قدسية هائمة تبحث عن الخلاص.

حملت ماريا سلة الثمار، وارتقت التل إلى منزلها. لم تمنعها الأجواء الممطرة من عادتها اليومية في زرع وحصد حلقها الصغير، من الملفوف والبصل وأيضاً اللفت، فهي جيدة عندما تطهو مع شرائح لحم الخنزير وبعض البهارات التي أتى بها أبوها من رحلته الأخيرة إلى البندقية. وعدها أن تذهب معه في رحلة الربيع إلى روما، عوضاً عن أخيها إيساندرو الذي لا يصلح لشيء سوى جلب المتاعب. يفعل إيساندرو ما يفعل ولا يعاقبه أحد. كيف وهو الفتى المدلل. أما هي، ابنة نبيل القرية، تظل فتاة مغلوبة على أمرها كباقي النساء، لا يصلحن سوى لحليب الماعز وقطف الثمار وعصير الكروم، والمضاجعة.

تنهى إلى مسامعها صوت قادمٌ من الحظيرة، فتوقفت وأرْهَفت السمع.. لأن أحد هم تتوالى عليه الطعنات! وضعت السلة قرب الجدار، وبخطواتٍ حذرَت توارت بالباب الخشبي القديم. أمسكته برفق لتكم صريره، تلصقت ببصرها متوجسة، تبحث عن مصدر الآهات المكتومة. لم يكن أمامها سوى خنزير العائلة يلتهم الروث في نهم. ضحكة أنثوية أفصحت عن صاحبتها، جذبت عينيها لما يحدث في الزاوية فوق الحشائش الجافة. إنها الملعونة فيولا عارية تعتلي شخصاً ما. اضطربت أنفاس ماريا، وتهافتت عقلها في بئر حيائها، ووضعت يدها على فمهما غير مصدقةً لما يحدث في حظيرة منزلها.

"تلك الوقحة فيولا، كيف لها أن تفعل هذا في منزلنـ؟!"

التقطت عصا كانت جوار باب الحظيرة، ودخلت صارخة:

- كيف تجرؤين على فعل هذا في منزلنا أيتها العاهرة؟

ابتلعت كلمتها الأخيرة وهي تتحقق في وجه إيساندرو الفزع، والذي أطاح بفيولا من فوقه، وراح يداري سواته بملابسها المكسوة بالقش والغبار، وعيناه تجولان في المكان للتأكد من أنها وحدها:

- ما الذي أتى بك إلى هنا الآن؟!

أشاحت ماريا بوجهها في اشمئزاز، وبصقت ناحية فيولا غير المبالية بما يحدث، وما زالت يدها تداعب شعر إيساندرو البنبي. قالت ماريا بنبرة غاضبةٍ:

- أقسم أن أخبر أبي عن تدنيسك المنزل.

القتها وهي تتجه لخارج الحظيرة، فيما ركض إليساندرو ناحيتها ممسكاً بملابسها أمامه وهو يصرخ قائلاً:

- فاتفعلي ما يحلو لك.. وسأفعل ما يحلو لي.. لست الوصية علىَ.

قبض على رسغها بعنف وهو يُواجهها وعيناه تفيضان شرّاً:

- إياك أن تتنطقي بحرفٍ واحدٍ مما شاهدته الآن.

بثقةٍ وحزم نظرت ماريا في عين أخيها بتحدٍ:

- أفلت يدي.. أيها الزاني!

فوجئت بصاعقةٍ تضرب خدها الأيسر، أطاحت بها لترتطم بالأرض، ليطفئ الطين البارد لهيب الصفة. خرجت فيولا فزعةً وقد ارتدى ملابسها على عجل، وعدلت من وضع ثيبيها داخل الملابس في سرعةٍ وهي تُلقي نظرة على ماريا، قبل أن ترکض باتجاه القرية، فيما رمقها إليساندرو صائحاً:

- لا تنسى موعدنا غداً!

وحين عاد ببصره إلى حيث جسد أخته، تجمّد كتمثال من الرخام الأبيض لأحد أنصاف الآلهة العارية الصدر والخصر. رفعت ماريا رأسها في ألم، وقد اختلطت دموعها بالطمئن، يقسم عقها على البوح لأبيها، وإن لم يعدل ويقتض لها فسترد له الصاع. نهضت متآلمة تشيح بوجهها عنه مشمتزة، وتمسح الطين عن خدها المتورم، ولكنه لم يبال بها، فقد كان يدقق مدقاً باتجاه الغابة فاغراً فاه. التفت إلى حيث ينظر، ليجتاحها هي الأخرى طوفانٌ من الفضول!

من بين أجمةٍ كثيفةٍ، خرجت الهجان تسيرُ ببطء باتجاه جدول المياه. أعيادها الركض لفترٍ طويلاً، أنفاسها متسرعة، تجرُّ أقدامها على الأرض جرًّا. تلوث نقاء لونها بدماء خلفتها معركةٌ طاحنة، وعلى ظهرها صاحبها المغشى عليه. نزف جرحُ جانبه الأيمن كثيراً. لم تتحمل الفرس، أفرز عنتها كثريهم، وكادوا أن يفكوا بها، فلم تنتظر ليسقط فارسها، وقررت الفرار به ودهس بعضهم.

تقدمت ماريا بضع خطوات للأمام، لتقف بجوار أخيها وقد ضاقت عيناهَا لتأكد مما تراه. مع اقتراب الفرس أكثر تجلّى الأمر. هناك شخصٌ يتدلّى على صهوتها، وجسد الفرس صُبغ بالدماء. تطلعت ماريا متفرّحةً المحيط حولها لتأكد من خلو المكان، ثم همت بالتقدم، ولكن إليساندرو أمسك بكتفها بقوّةٍ قائلًا:

- ماذَا أَنْتِ فاعلَةٌ يا مجنونة؟!

لم يتم جملته إلا وقبضتها قد عانقت أنفه. تراجع صارخاً متآلماً، وما عاد يدرى أيمسّك أنفه المتورم،

أم يلقط ملابسه التي سقطت أرضاً. تركته خلفها. ونزلت التل بحذر، عيناها لا تفارقان الفرس الواهنة. كانت ترتوي من الجدول.. مع اقتراب ماريا، رفعت رأسها وانتصبت أذناها. صهيلاها المنخفض وشى بتوترها. ضربت الأرض بحافرها، قبل أن تتف بعنقها في قلق، تتظر تجاه من يقفون فوق التل. لم يعد بجسدها قوة لتركتض مبتعدةً، وتقدمت ماريا وأمسكت لجامها وراحت تهمس: اهدي! استكانت لعدوينة صوت ماريا، وهدأت حين لامست أنامل ماريا ناصيتها، وأحسست بالطمأنينة تسري بعروقها المنقضية. أسرع لورينزو يقترب منها والقلق يعصف بعقله، بينما يُحاول إلباس صوته هدوءاً، لم يخل من ريبة:
- ماريا، ما كان يجدر بك فعل هذا.

أشار إلى الرجال من خلفه، فأفسحت ماريا لهم مكانها. رفع أحدهم رأس الصرير، وتطلع إلى ملامحه وثم ملابسه، وقال: "سيدي، إنه من السراسنة.. جروحه بلية".
هذا ما كان ينقص لورينزو! يقسم دوماً أنه لا يحبهم ويتمني هلاكهم وقتلهم جميعاً، والآن يقف على شاطئ الحيرة، لا يعرف كيف الخلاص من هذه الورطة. باغته قوله ماريا:
- أبي علينا حمله إلى المنزل، إنه حي.

لا يعرف لم صمت وأوْمأ برأسه، أهي رحمة الرب أقيت في قلبه، أم أن القتل لن يصح أمام ابنته التي أخرجته أمام الرجال المتوجسين لأوامر؟

لم تكف السماء عن الهزيم المتواصل، ولم يتوقف الصّبّ عن الارتطام بسقف منزل لورينزو، الذي وَدَع الطبيب كاراس، ثم جلس في ركن غرفته المعتمة إلا من ضوء مشعل أثار سحابة من الدخان بدلاً من بعث الدفء في صدر بارِد يجيش بالحيرة. ذلك الرافق في الغرفة المجاورة عربي، ملامحه وملابسه تُفصح عن هويته. ما الذي أتى به إلى هذه الأحياء وما قصته؟ لو لا ابنته لأفرع الفرس لترتض به بعيداً، ليموت على ظهرها أو يجده أحدhem. هذه المرة الأولى التي لا يفي فيها لورينزو بقسمه للرب، كما أن خبر إيوانه لذاك الجريح قد يتفسّى، فماذا سيكون جوابه حينما تنهمر عليه الأسئلة كصواعق جوبيتر؟ أيام تفصله عن اجتماع النبلاء في بنفينتو لذا عليه إنهاء الأمر قبل الذهاب.

بينما كان عقل لورينزو يبحث عن مخرج لمازق وشيكٍ، كانت ماريا تتحفص الجريح الغائب عن الوعي. جسده المفتول يحمل آثار عشرات الجروح القديمة، التي توحى بأنه قد نجا من الموت مراراً. إنه فارسٌ على الأرجح، هكذا قال عمها الطبيب كاراس؛ ولكنه لا يشبه أياً من وصفهم القدس ليو عبر قصة المرعوبة عن السراسنة المتوضعين. لم تكن له أنياب بارزة من حديد ولا تنتب من أصابعه مخالب من نحاس، بل إنه يُشبه منحوتات القياصرة القدامي، طويل القامة، بشرته تميل للسمرة، رأسه حلق حديثاً بشفرة حادة على ما يبدو، أنفه أدقى دقائق التفاصيل ولوه لحية سوداء تُضفي عليه وقاراً محلي بالوسامة، رغم السواد الجاثم على جفنيه. حين حمله الرجال إلى منزلهم عبر الباب الخلفي، ذهب أحدهم بالفرس المتبعية إلى الحظيرة، أما هي فركضت دون وهي إلى منزلهما، فأخبرته بالأمر في عجلة، وحملت حقيبته الجلدية، وسحبته من يده مسرعة حتى فشل في مجارة سرعاها، بجسده الذي أنهكته سنوات عمر تشرف على نهايتها. العم كاراس رأى من

الأهواں ما لم يره أحد. حارب في صفوف الإمبراطورية البيزنطية، رغم كونه كاثوليكيًا. عمل كمسعف للجروح، وقضى معظم حياته بين أطرافِ مبتورةٍ وجروح غائرةٍ. رائحة الدماء لازمته، لم ينجده منها سوى الأسر الذي جعله عبداً، بعد اجتياح الأغالبة لإقليم كالبيرا، ولو لا حرفته ومهارته في مداواة الجروح لكان بين الموتى أو بيع في أسواق النخاسة بالقيروان أو الأندلس. وقتها عمل تحت إمرة طبيب مسلم، دربه وأضاف له الكثير من العلوم، حتى أتقن حرفته وأصبح ماهراً في تحضير الدواء. ولكن اشتاق لوطنه.. غابات البلوط، البحيرة وشجرة الصفصاف.. كوخه الصغير وقريته سان فيلي. لم يهرب، ولكن منح الحرية، وما أجملها رغم كونه لم يعامل يوماً كعبدٍ. وعاد لوطنه حاملاً معه لغة اكتسبها، ومهنة زاد فيها إتقاناً، ولكن منذ أن عاد يُعامله القدس ليو على أنه مشعوذٌ غريب الأطوار، مهرطق استحوذ الشيطان على عقله. حاول مراراً أن يوضح الأمور لمن يعرفهم، حتى ينس من العقول الموصدة. ورغم ذلك، كانوا يعودون إليه دوماً، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يعالج جروحهم وتقرحاتهم، ويُعِج منزله بالأعشاب والقوارير. لم يجد العم من يؤنس وحديه سوى ماريا، التي توااظب على الحضور يومياً له، تتحدث معه ويفعلها بعض الكلمات من لغة العرب سراً، ويقص عليها حكاياتٍ من حياته العامرة. كان لا يرفض لها طلباً، فقد كان قلبها حنوناً معه، عكس أبيها لوريينزو المتعنت، وإن كان يحميه من بطش الكنيسة.

بعد انصراف العم الطبيب، دخلت ماريا إلى غرفتها البسيطة، وبشمعةٍ كانت بيدها أضاءت المشعل الصغير المعلق بالجدار. أغلقت النافذة الخشبية، ليُعمر الغرفة سكوناً، بعد توقف صوت الريح. فكانت خيوط ثوبها، فانسابت عن جسدها الناعم وسقط أرضاً، والتقطت آخر أبيض اللون، ارتدته وجلست إلى مائدةٍ صغيرةٍ وضع فوقها تمثالاً ملون للعدراء. تلت صلواتها سريعاً، ثم ألقت بجسدها على الفراش، ومعها رفيقٌ جديدٌ.. دمية لحصان خشبي صغير، نقش عليه باللاتينية "روما"، وعلى الجهة الأخرى نقش لم يكتمل. كانت قد أخذت ملابس الجريح لغسلها، فافت نظرها أنها من قماش ثمين سميكٍ مزین بزخارف ورسوم دقيقة لأوراق أشجار، فقررت أن تخيط فيه ما تقطع من أثر الجروح، وبينما تقلبها متأملةً، وجدت الدمية بين طياتها. بعد أن غسلت الثياب، وضعتها بجوار المدفأة لتجف، واحتفظت بالحصان الخشبي معها. قلبت الحصان في يدها كثيراً، ثم أسدته إلى وسادتها واقفاً، وتمت تجاهده:

- لا تُخبرني بقصة صاحبك؟

تنفس الصبح، وتوقف المطر، ولم يفق سودان. لم يراود النوم لوريينزو، ظل جالساً على مقعدٍ غير مريح بالقرب من ضيفٍ فرض عليه، متنيناً له موتاً عاجلاً. فلَمَّا فُلِيت الغريب، ووقتلت سيوارييه الشرى كأنه لم يكن، ويرث الفرس الأصيل. إن من يملك مطية مثلها لا يكون سوى نبيل ذي شأن في قومه. نظر إلى الغمد الفضي المركون إلى الحائط، يحتضن سيفاً مقبضه مرصع بالزبرجد الأزرق. تذكر النصل المقوس الذي صُقل بعنايةٍ، ونقشت عليه كلمات بالعربية، متداخلة مع زخارف دقيقة. سمع جبلة تأتي من الحظيرة، فنهض متثاقلاً إلى الكوة المطلة على الفناء، يتبع بعينيه ابنته ماريا، التي استيقظت مبكراً لمهامها اليومية.

ماريا كانت قد خبأت الدمية بين ملابسها، وأحكمت غلق صندوق الملابس، قبل أن تنزل مبكرةً كعادتها. وفدت بمنتصف الحظيرة، تعقد شعرها خلف ظهرها. نثرت الحبوب، فهرع الديك ومن خلفه بعض دجاجات، تجاوزتها، لتحمل بعض العشب المتيسس إلى الفرس التي تقف بركن الحظيرة. مدت يدها بالعشب، فأبكت الفرس أن تأكل. لامست ماريا رقبة الفرس بلطفٍ. تأملتها وفكت أن عينيها

حزينتان، وأن قلبها الذي يحترق شوقاً لمعرفة مصير صاحبها سبب هذا النفور منها، رغم أنها تعرف أنها لن تؤديها، فربت على عنقها وهمست لها: إنه بخير يا جميلة.. لا أعرف لك اسمًا، ولكن صاحبك بأمانٍ الآن.

خرج لوريينزو من صومعة الأب ليو غاضبًا. لم يتوقع كل هذا التجهم والتوبيخ، فقط لأنه اقترح قتل الغريب المصاب. أم تراه يُوبخه لأنه رفض إعطاء ربع المحصول القائم للكنيسة؟! هو النبيل صاحب الأرض بموجب صكوك ملكية ورثها عن أجداده، وإن كان يُخرج الهبات للكنيسة فلأنه مسيحي مُخلص، أما الزيادة التي يطلبها الأب ليو فهي غاشمة. إن الأمور تزداد سوءًا، والسراسنة يزحفون شمالًا، وقريباً سيصلون إلى بنفيتنا ومن بعدها روما، ولا أحد يوجه قوته لمحاربة الغزاة، فقط يتبازون من أجل عروشهم، وعلى النبلاء تخيلها، سيأتي يوم يحمل فيه عائلته ويرحل عن تلك البلاد. هذه النهاية التي لطالما تخيلها، سيتوغل العرب عاجلاً أو آجلاً باتجاه روما ولن يوقفهم أحد، إن لم يهرب سيردي قتيلاً ويسبي أفراد عائلته، لي باعوا في أسواق دمشق وبغداد. قرر التخلص من ذلك البربرى مهما كلف الأمر، وبعدها سيبعث عن سبيل للتخلص من الأب ليو. كل شيء له ثمن، وكل باب له مفتاح، وأخر ما ينقضيه هو أخيه كاراس.. كان قادماً نحوه بابتسماته البلياء المستفرزة، فحاول أن يتحاشى النظر إليه مكملاً دربه، لكن كاراس توقف أمامه مباشرة، فاتحاً ذراعيه:

- أرى أن النبيل قرر أن يلوث حذاءه الثمين بطين الطرق آخرًا..

رمقه لوريينزو بامتعاضٍ:

- لماذا لا تكتف عن الهراء؟!!

قهقهة كاراس:

- لماذا تأخذ كل شيء على هذا المحمول.. صدقني يا أخي، لا أسرّر منك. فقط كل ما كنتُ أريد قوله: ماذا أتى بك إلى هذه الأثناء؟

لا يعلم لم يصبر على جنون وصفاقه هذا المهرطق؛ لأنه أخوه، أم لأنه يحتاج إلى وجوده في هذا المكان، حيث يُداوي الفلاحين وأهل القرية، ولا يكلفه سوى بعض دوقيات من ذهب تقدم للقس ليو، الذي لا يكفي عن الطلبات. شحد عقله مراراً للتخلص منهما معاً، ولكن له في كل منهما حاجة. هكذا تسير الأمور.. الهبات والعطايا للكنيسة، مقابل الحفاظ على الضياعة وحقول الكرم، والتي تحتاج بدورها لمن يعمل فيها، وهم أيضاً يحتاجون رعاية طبية ممنوعة في الأثناء، فالاتجار بالأعشاب وتطبيب الجروح والأمراض ضد إرادة الرب، وكاراس - الذي عاد من أسره مجنوناً حسبما يراه الجميع - يعرف كيف يشفى المرض العضال، ترافقه الشياطين تحميته من بطش الرب وأمراضه. كان كاراس يتحدث سريعاً عن حالة الجريح العربي، حينما جحظت عيناه فجأة، محدقاً في شيء ما خلف لوريينزو، الذي التفت ليرى ما يحدث خلفه..

وسط الأكواخ المنتاثرة في ساحة القرية، احتشد الصغار بملابسهم الرثة ووجوههم الملطخة بالطين

حول إليساندرو، يتطلعون إليه فاغرين أفاوههم، بينما راحت روؤس النساء تشرف من الأكواخ، والمارة من الكبار يتلفتون يتأملونه خائفين أن يقفوا فيعاقبوا. كان يقف في تباه، يرفل في ثياب الغريب الفاخرة، يسدل شعره البني الطويل على كتفيه، رافعاً رأسه في شموخ مصطنع، وعلى خصره شد حزاماً جلدياً يحمل نقشاً مدبوعة، يحتضن خنجر العربي وغمده الأفقي. لم يكن يملّك مما عليه إلا صليباً ذهبياً مرصعاً بأحجار ملونة علق على صدره، كان قد أحضره له أبوه من روما. تحرك لورينزو في خشب باتجاه الحشد، بينما كان الفتى يخرج السيف المعقوف من غمده. قفز الأطفال للخلف فزعين، وضاعت شهقات النساء وسط هممات الرجال من حوله، والتي سرعان ما خفت مع ضحكات إليساندرو المدوية. كاد أن يقول شيئاً، ولكنه توقف حين رأى أباء المتجمهم يشق الجموع.

أخفض النصل بسرعةٍ وصوت أبيه يُداهمه: ماذا تفعل أيها السفينة؟

غمغم الفتى وهو يُخفض رأسه متحاشياً النظر إليه:

- لا شيء..

ساد الصمت لبرهة، العيون تترصد القادر، لا أحد يفهم ما يحدث.. لورينزو كان في موقف لا يُحصد عليه. أزاح كاراس أحدهم عن طريقه، ليقف بينهما، وبدت سخريته حين نطق:

- ما كان عليك أن تفعل هذا يا فتى، فأبوك يكره تلك الأزياء، رغم كونها من القماش العربي الفاخر.

فجّرت كلماته الغضب بصدر الأب، الذي راح ينهال على وجه وصدر الفتى بسيط من الصفعات والكلمات. حاول كاراس أن يقف بينهما، ولكنه دفع بعيداً، وارتطم باليساندرو، الذي ترنح وقد جاءته فرصة للهرب من قبضة أبيه. رکض مبتعداً بعد أن ألقى السيف، فاللتقطه لورينزو بأتفاس تلاحقت بفعل ما بذله من مجهد. كان الناس يحدقون فيه بوجوه متسائلة يعتريها الفضول. دار ببصره بينهم، قبل أن يصبح بهم: فلينذهب كل منكم إلى عمله.

هرع الجميع متبعدين إلى ما خلف أبواب الأكواخ وبين ثنايا الشجيرات. ربت كاراس على كتفه ليهدي من ثورته، ولكنه فوجئ به يلتفت ويدفعه مرة أخرى شاهراً السيف في وجهه، وقد حمل صوته جدية مفرطة: إن لم ترحل الآن سأفكك وأصلبك هنا في الساحة أيها المهرطق.

ضحك كاراس بجنونه المعهود: أتعرف يا لورينزو، لا أراك سوى صبي ضجر. أبعد ذلك السيف عن متناول طفلك الأزرع، فأصحاب تلك السيوف لا يثثرون كثيراً، وفي المرة القادمة إن أردت قتلي يا ابن أم، ليس عليك سوى أن تضع النصل هنا.

أشار لموضع قلبه، قبل أن يبتسم وتبدل ملامحه. استدار راحلاً يطلق صفيرًا يشبه أصوات طيور غابت عن المشهد، ويتمايل ملتفطاً ورقة من فرع شجرة يتلالى بالطريق، ثم يتمتم بأشوددة قديمة يحفظها لورينزو جيداً. احتفى كاراس بين ثنايا الطريق، ووقف لورينزو جماداً، لم يعد يتحمل كل ذلك.. في أقل من يومين تتحول حياته لجحيم يصلى جنباته، والحل الوحيد هو التخلص من ذلك الغريب.

ليلة صافية باردة، سماء نشرت فيها ملائكة الرب آلاف النجوم في ظلمة ليل جاثم على قرية سان فيلي. بضعة أكواخ تضيء نوافذها بضوءٍ شحيح، ويقلق الصمت عواءً ذئبًّا وحيدًّا، ابتعد عن غيابه الغابة ليبحث عن رفيقة ربما، أو لعله يقول إنه ملك الليل وأن لا منافس له ولا فرين. قام لورينزو من فراشه ساخطاً، وخرج إلى غرفة المعيشة ليحكم إغلاق باب منزله. كان يغمغم بسباب للذناب ومن أنجبهم، رغم علمه أن العواء ليس سبب أرقه، فقد كان يومه حافلاً بالتتوتر. أحزنه أن أهان ولده بالساحة أمام الجميع. متى يكبر ويتحمل المسؤولية؟ لم يكن يتوقع يوماً أن يكيل له الكلمات وسط العامة، ولكن ذلك الأرعن يستحق. كان يقف عند أقدام سودان المُدشّر بفراء الغنم. تطلع إليه محدثاً نفسه: "تبأ.. لم كل هذه الحيرة.. لأن أقتل جريحاً غالباً عن الوعي" هكذا تعلم من الكتاب المقدس، حتى وإن كان لا يُطبق جُل ما فيه من تعاليم. سيفي عليه، كما أمره الأب ليو، الذي رفض فكرة قتل الوثن.

بخطواتٍ ثقيلة، راح يخطو نحو غرفته. دلف متأنلاً جواً ضخماً يحتل جزءاً كبيراً من فراشه. نعم، جوال من لحم ودم.. صوت أنفاسها هو آخر ما يريد سماعه. ليست هذه بالتأكيد من حارب الدنيا من أجل الزواج بها، إيلينا الجميلة البيضاء التي زين وجهها نمش منحها حمرة بدعة. كانت رشيقه يوماً ما، والآن تحولت لكتلة من الشحم، حتى شفاهها الدقيقة صارت غليظة. تبأ! كيف تحولت لهذا الكائن؟!! أطفأ شمعة كانت مصدر الضوء الوحيد، مستغلًا عتمة الظلام ليستلقي إلى جوارها. حاول جاهداً أن يضم أذنيه، فلا يسمع شهيقاً لها ولا زفيراً، لكنه لم يفلح، وممضى الوقت ثقيلاً حتى طاف به النوم وانساب إلى جفنيه وحواسه. وما إن غشته سكينة النعاس، حتى انقض بفعل شيء ثقيل جثم على صدره. شهق فزعاً ممسكاً بيدها ليزيحها عنه، لكن دون جدو، فوضعيّة جسدها جعلت ذراعها مستقرة فوق صدره. يبدو أنه قد كتب عليه لا ينام هذه الليلة.

خمس ليال مضت على وجود الغريب، الذي لم يفق بعد، يزوره بين الفينة والأخرى كاراس يرجعه بعض رشفات من دواء أعده، ويضع بعضاً من عجين زهرة البابونج على الجرح حتى لا يتعرّف، تراقبه ماريا جيداً وتتعظم منه، وتساعده في تعديل وضع الجسد، وتنظر حول الجرح بماء دافئ. لم يُتمكنها كل هذا الفضول من قبل. نسيت وتناسى أحلامها البسيطة، وأصبح ذلك الغريب يحتل يومها. تراقبه لعله يفتق، تسقيه الماء في توجس، وتنتظر أن يأتي عمها لتبادل معه أطراف الحديث. اقترح نقل الجريح إلى منزله، فبيت لورينزو وإن كان مختلفاً تماماً عن بقية منازل القرية، إلا أنه مرتفع للجرذان والحشرات. أقعها بضرورة نقله، لكن عليه أن يقع أخاه بذلك. انظر حتى عاد من جولته الصباحية بحقول العنبر والخضروات خاصة، واستقبله كاراس بابتسماته المعتادة، بينما لم يُعرّه لورينزو أي اهتمام. أشار لخادمه بوضع سلال الثمار، فحملتها ماريا ودخلت بها إلى حيث تقع أمها. جلس لورينزو قبالة أخيه سانلا: متى يسترد وعيه؟

أقوى كاراس نظره خاطفةً على مريضه: لا أعلم.. لو لا جسده القوى لمات فور إصابته.. لقد فقد الكثير من الدماء وقد نجحت في تقطيب الجرح بقدر المستطاع.

غمغم لورينزو بشيء غير مفهوم وكاراس يتابع: على نقله إلى منزلي، حتى تتسعني لي معالجته جيداً، كما أن المنزل هنا قد يتسبب في تفشي الالتهاب الذي قد يؤدي بحياته.

لم يهتم لورينزو إن كان أخوه أهان المنزل وصاحبه، فقط وجد خلاصاً مؤقتاً في رحيل ذلك الغريب. فليأخذه كاراس إلى الجحيم إن أراد، فربما يتذوق طعم النوم مرة أخرى، وكل شيء بعد ذلك هين، نهض من مقعده دون أن ينطق بموافقة أو رفض، وتوجه إلى باب المنزل.. دقائق غاب فيها بالخارج، وعاد معه ثلاثة من الرجال، مشيراً إلى الجريح الغائب عن الوعي: أحملوه إلى حيث يريد

الطيب.

لم يتوقع كاراس ما فعله أخوه. هذه المرة الأولى التي يُحقق له طلباً منذ أمد بعيد. سعد بتلك الباردة الحسنة، وخرج يتقدم الرجال، يأمرهم بتوصي الحر حتى لا يتفاقم وضع الجريح. هبطوا التل إلى القرية، ومرروا مسرعين تلاحقهم الأعين، التي عرفت القليل عن ذلك الجريح بعدها حدث للفتى المغدور في الساحة. أما لورينزو، فكان يُراقبهم حتى دلفوا إلى منزل كاراس بجنوب القرية، ثم رفع رأسه للسماء سائلاً الراب أن يُنهي تلك المسألة. عاد إلى الداخل، ليجد ماريا تحمل أغراض الغريب، فعقد حاجبيه: ماذا تفعلين؟

بابتسامةٍ هادئةٍ ارتسمت على شفاهها ردت: سأودع تلك الأغراض منزل عمي.
اقرب منها ماداً يديه وقد حمل صوته غلظة: ستظل تلك الأشياء هنا حتى يفيق أو يموت.

سحب منها السيف والملابس عنوة، لكنه لم يلحظ الحصان الخشبي الصغير الذي كان بيدها. تجاوزها في لامبالاةٍ متوجهًا لغرفته، حزنت، رغم أنها تعودت على تلك الخشونة في التعامل، فقد تخطت عامها العشرين منذ أشهر ولم تتزوج، وهو يعتبرها قد خرقت التقاليد وضررت بالأعراف عرض الحائط. كانت تحدث نفسها دوماً أنها ليست واحدة من حيوانات الحظيرة تباع لمن يدفع أكثر. إن كان لا بد من الزواج، فهي لا تريد سوى كوخ بسيط في غيابه غابةٍ هادئة، وزوج يكون سندًا ودفناً، يعيشها عن سنوات عاشتها بمفردها رغم صخب القرية حولها. ماريا لم تذهب يوماً للحفلات التي يُقيمها النبلاء في القرى المجاورة، فهي تكره المجون وحياة اللهو، وتتجدد في رفقة العذراء صفاءها، لكنها كذلك لا تحب الوحدة. أودعت الحصان الخشبي صندوق ملابسها، واتجهت إلى غرفة الطبخ، حيث سلال الطعام والفواكه. اختارت بعض حبات من الشمار الطازجة خلسة من أمها، التي انهمكت في تقليل قدر الطعام، وخرجت من المنزل متوجهة إلى منزل عمها كاراس. لا تعلم سر البهجة التي دبت في قلبها، لأنها ستحصل على مزيدٍ من الوقت خارج المنزل، أم ستتجدد الفرصة لتعلم المزيد من عمها. طرقت الباب، وانتظرت حتى فتح لها كاراس، فوضعت الفاكهة على المنضدة القريبة: جئت لك ببعض الشمار خلسة.

ضحك وهو يلتقط حباتٍ من عنقود عنب: لو علم أبوك، قد يمنعك من الحضور إلى هنا.

حملت جرة الماء، وراحت تسقي بعض أحواض الأعشاب ذات الرائحة الطيبة، بينما أخذ هو في تفحص بعض رقع من الجلد. كان منزله مكاناً مثالياً للشفاء.. لا ذباب، لا فران، لا رائحة كريهة. ليس مثل أكواخ القرية، فهو نظيفٌ مرتّبٌ، يتوسط غرفته الرئيسية منضدة تحوي أطباقاً فخارية صغيرةً امتلأت كل منها بصنف مختلفٍ من الأعشاب المجففة، وتحتل الجدار مكتبة كبيرةٌ تتراحم فيها لفائف المخطوطات، ونسخة من الكتاب المقدس. لم يمنعها عمها يوماً من لمسه أو قراءاته، كما يفعل أبوها، وكما ينصح دوماً القس ليو، الذي يصر على أن المرأة أقل شأناً من الرجل. كان كاراس منهكًا في البحث عن إحدى أدواته، قد سقطت أسفل المكتبة، حين سأله: عماه، كيف هم نساء السراسنة؟

جاء السؤال مباغتاً له، رغم أنها سأله مراراً قبل ذلك. رفع رأسه فارتطم بأحد الأرفف، تأوه وهو يُحاول أن يمنع سقوط المخطوطات. أطلقت ماريا العنان لضحكاتها الرقيقة وهي تهبه لمساعدته: كل هذا من مجرد أن ذكرتك بالنساء؟

ارتقت ضحكاته وهو يلتفت لها:

- ذكرت لك من قبل أن القلة التي رأيتها من النساء جميلات بيضاوات، عيونهن مكتحلة دوماً، ويفطين وجهن عندما يغادرن بيوتهن، بغض النظر عن رفعة مراتبهن. جميعهن يقرأن ويكتبن ويدرسن أيضاً، ينسخن الكتب ويغزلن الملابس.. يا بنتي، للمرأة هناك مكانة وعزّة، لا يضرّ بهن أحدٌ، ومن يمسّهن بسوءٍ يتعرّض لعقابٍ غليظٍ. لكنهم ليسوا مثلك في أمور الزواج، حيث يحق للمرء أن يتزوج أربع نساء.

عقد حاجبها مغممةً:

- نعم أذكر أنك عرجت على هذا الأمر في حديث سابق.. ولكن كيف لهذا أن يحدث؟

وضع ما في يده على المنضدة، ليسحب بعد ذلك كرسياً ليجلس:

- هناك شرط أن يعدل بينهن.. هكذا ورد في كتابهم، وهم ينفذون ما أتى فيه. ولذلك، ليست هناك أحياً للبغاء ولا وجود للعاهرات؛ فقط الجواري والخدم، وهناك أمورٌ تنظم حياة هذه الفتاة.

طال الحديث مع عمها، لا تمل من الاستماع له. كيف لا، وهو من علمها القراءة والكتابة، ومزج زبيوت الدهور واستخلاص العطور. كل هذا محرم في قريتها وأنحائها، ولكن نفوذ أبيها فقط ما يجعل هذا المكان حصيناً. انتهت من طحن حبوب الشوفان، واستعدت للخروج، حينما سمعت تأوهاتٍ تأتي من غرفة كاراس، حيث يرقد الغريب. بخطواتٍ بطئٍ مرتجفةً اقتربت من باب الغرفة، اختلست النظرات.. كان يتأوه ويعتم بشيءٍ ما، تقدمت محملةً في قسمات وجهه، حيث تجسدَ الألم.. ترددت قبل أن تلمس جبهته، التي تتصلب عرقاً رغم برودة الجو. أتى صوتُ عمها من خلفها، فأفزعها: ماريَا!! ماذا هناك؟

- إنه محموم. هذه المرة الأولى التي يتأوه فيها بتلك الطريقة.

كانت مرتابةً. ربّت على كتفها: اذهبِي وأغلي بعض قشور الرمان جيداً، وأحضرِي إناءً به ماءً بارداً. لا تقلي، سيكون بخير.

لماذا عليها أن تقلق؟ قد يكون الفضول، الشفقة أو شيءٍ من هذا القبيل. أعدت مشروب قشر الرمان الدافئ، وناولته لكاراس، الذي أشار إليها، فعدلت من وضع رأس المريض، حتى يتسلّى لكاراس أن يعطيه شيئاً منه. غربت الشمس، وبقي مسحٌ من ضوئها الأحمر على سحب متاثرةً، فودعت ماريَا عمها، على وعدٍ بالعودة مبكراً. أسراب الطيور تعود لأشجارها، والمزارعون يجمعون خرافهم للhibit.. كلب سباستيان الحطاب ينفض فراءه في كسل. كل ما حولها يائسٌ ببعضه بعضاً، ومتزلّهم وحده يربض فوق الربوة كثيباً. للمرة الأولى يُراودها ذلك الشعور، لا تزيد العودة إلى البيت.

على غير عادتها، دخلت دون أن تلقى التحية. أي تحية تلقّيها على أب أعياه الخمر، يجلس محضناً فنينةً، تعوضه عن زوجةٍ سلبت قوتها الأعمال المنزلية الشاقة؟! مررت إلى غرفتها دون أن يشعر بها أحد. انسابت الوحدة إلى روحها.. هذه الليلة مختلفة. في وقتٍ مضى، كان حوض زهورها كل اهتمامها، إلى جوار بعض الأعمال مع عمها. لا أصدقاء لها منذ طفولتها سوى فيولا، وقد ابتعدت عنها لسوء أخلاقها. يقول أبوها إن فتيات القرية لا يصلحن لصحبة نبيلةٍ مثلها؛ ولكنها تشعر دوماً أنهم أقل شأناً من غيرهم من النبلاء، فعزلت نفسها، لا تختلط بالناس إلا حين تذهب للكنيسة أو

لمناسبة ما. فيض من الفضول اجتاحتها لمعرفة الغد. قد يكون ذلك الغريب السبب، اهتمامها به خلال الأيام الماضية كان يشغل حيزاً كبيراً من وقتها. أمسكت خصلات شعرها البنى، وانهمكت في صنع جَديلة، وعقلها يرکض في غابات فوجيا المكسوّة بورود الخزامي البنفسجية بأقدام حافية يُداعبها عشبٌ رطب مبلل، تحت أشجار تشابك أغصانها، تخللها أشعة الشمس الذهبية. أعمدة الضياء غمرتها بدفء لامس قلبها، فأغمضت عينيها، وحين فتحتهما وجدهما يقف عاكداً يديه أمام صدره، في كامل عافيته، مبتسمًا، وعمامته تمنحه مزيداً من الوسامـة. كيف جاء إلى هنا؟... كيف توغل في غابات أحلامها؟!

ضبابٌ راح ينقشع، لتظهر حشائش خضراء نصرة تنهوج حوافيها بضياء لامع، ومجموعات من ظباء ذهبية تجول تحت ظلال أشجار قطوفها دانية. شعيب، وبيريسياي، والصغير على متکئين على سرر خضر، تطوف الحور حول مضاجعهم، وكل شيء يُسكنه نورٌ سرمدي. كان يقف على مسافة منهم، يراهم ولا يرونـه. وجوهـم باسمـة، ويتبادلـون حديثاً لا يصلـ إلى مسامـعـه. إنـ كانتـ هذهـ الجنةـ، فـلـمـاـذاـ لمـ يـحظـ بالـاجـبـاءـ مـثـلـهـمـ؟ـ سـالـتـ الدـماءـ مـنـ جـرـحـهـ،ـ فـتـحسـ مـوـضـعـهـ.ـ شـعـرـ بـالـأـلمـ،ـ فـعـرـفـ أـنـهـ لـمـ يـحنـ دورـهـ بـعـدـ،ـ فـالـفـرـدـوـسـ لـيـسـ فـيـهـ أـلـمـ وـلـامـلـ.ـ كـأسـ مـنـ فـضـةـ كـانـ بـيـدـهـ،ـ يـحـويـ سـانـلاـ أـصـفـرـ لـزـجاـ،ـ قـرـبـهـ مـنـ فـمـهـ وـتـجـرـعـ مـرـارـتـهـ.ـ اـنـتـابـتـهـ نـوبـةـ مـنـ سـعالـ عـنـيفـ،ـ أـلـمـ رـهـيـبـ رـاحـ يـغـزوـ جـنبـهـ،ـ وـعـتـمـةـ أـبـدـيـةـ تـحـيـطـ بـهـ،ـ وـصـهـيـلـ وـصـيـحـاتـ وـصـلـيلـ يـصـمـ الـآـذـانـ..ـ ثـمـ وـجـوهـ مـخـضـبـةـ بـالـدـمـاءـ اـبـتـلـعـ الـظـلـامـ مـلـامـحـهـ.ـ لـمـ يـتـحـمـلـ المـزـيدـ مـنـ الـوـجـعـ،ـ فـصـرـخـ وـفـتـحـ عـيـنـيـهـ.ـ وـجـدـ الـظـلـامـ مـاـ زـالـ يـحـيـطـ بـهـ،ـ وـتـحـسـ الـفـرـاشـ،ـ لـيـدـرـكـ أـنـهـ لـيـسـ بـغـرـفـتـهـ.ـ حـاـوـلـ النـهـوـضـ،ـ وـلـكـنـ رـجـفـةـ اـنـتـابـتـهـ..ـ أـهـوـ بـالـبـرـزـخـ؟ـ أـهـوـ مـنـ الـظـالـمـينـ وـهـذـاـ عـذـابـ أـلـيـمـ؟ـ سـوـدـانـ الـمـاـوـرـيـ الـذـيـ لـاـ يـهـابـ الـمـوـتـ بـاتـ خـائـفاـ يـرـتـجـفـ،ـ وـالـبـرـودـةـ تـغـزوـ أـطـرـافـهـ!ـ كـمـ هـوـ ضـعـيفـ،ـ وـحـيـدـ،ـ يـحـملـقـ فـيـ الـعـدـمـ،ـ نـادـيـ بـصـوـتـ عـالـ:ـ يـاـ اللـهـ!....ـ لـحـظـاتـ،ـ ثـمـ أـتـاهـ ضـوءـ شـحـيـعـ بـنـسـابـ بـبـطـءـ إـلـىـ الـحـائـطـ عـنـ يـسـارـهـ،ـ كـشـفـ الـمـدـخـلـ روـيـداـ،ـ وـانـقـشـعـ الـظـلـامـ.ـ هـنـاكـ مـنـ يـقـرـبـ حـامـلاـ مـشـعلاـ،ـ أـهـوـ أـحـدـ مـلـائـكـةـ الـعـذـابـ؟ـ تـحـدـثـهـ نـفـسـهـ:ـ هـلـ صـنـعـتـ مـاـ يـخـيـفـ يـاـ سـوـدـانـ؟ـ تـمـتـ بـخـفـوتـ:ـ وـمـاـ يـفـيدـ السـؤـالـ يـاـ نـفـسـ بـعـدـ الـمـمـاتـ؟ـ!ـ..ـ

غـمـ الـضـوءـ الـغـرـفـةـ أـكـثـرـ فـأـكـثـرـ،ـ وـانـجـلـىـ وـعـيـهـ أـكـثـرـ..ـ إـنـهـ عـلـىـ فـرـاشـ،ـ وـعـلـىـ الـحـائـطـ مـلـابـسـ أوـ أـسـمـالـ،ـ وـهـنـاكـ تـمـثـالـ لـمـنـحـوـتـ رـخـاميـ عـارـ يـعـمـرـ خـوذـةـ مـنـ رـأـسـ أـسـدـ،ـ فـهـذـاـ لـيـسـ قـبـراـ.ـ التـفـتـ بـوـجـهـ مـضـيقـاـ عـيـنـيـهـ مـتـحـاشـيـاـ الـضـوءـ،ـ وـوـجـهـ كـارـاسـ الـأـشـيـبـ يـقـرـبـ،ـ بـابـتـسـامـتـهـ الـتـيـ بـعـثـتـ طـمـانـيـةـ لـمـ تـمـ الـدـهـشـةـ الـعـالـقـةـ بـعـقـلـهـ وـبـعـرـبـيـتـهـ ذـاتـ الـلـكـنـةـ الـأـعـجمـيـةـ يـسـأـلـهـ:

- كـيـفـ حـالـكـ يـاـ أـخـيـ؟ـ

ردـ بـتـهـدـجـ:ـ أـيـنـ أـنـاـ؟ـ

- لـاـ تـخـفـ يـاـ صـدـيقـيـ أـنـتـ بـمـكـانـ آـمـنـ.

أـلـقاـهـ كـارـاسـ وـهـوـ يـخـطـوـ نـاحـيـةـ سـوـدـانـ،ـ الـذـيـ مـاـ زـالـ يـحـدـقـ فـيـهـ بـعـيـنـ وـاهـيـةـ أـرـهـقـهـ ضـوءـ الـمـشـعلـ،ـ الـذـيـ ثـبـتـهـ الـعـجـوزـ فـيـ حـامـلـ حـدـيـدـيـ بـالـحـائـطـ،ـ وـأـخـذـ يـكـمـلـ حـدـيـثـهـ مـوـلـيـاـ سـوـدـانـ ظـهـرـهـ:

- أـنـتـ بـقـرـيـةـ سـانـ فـيـلـيـ،ـ وـهـيـ مـنـ أـمـلـاـكـ دـوـقـيـةـ بـنـفـيـنـتوـ.

كانت الغرفة بسيطة، خاوية إلا من ذلك التمثال العاري وفراش خشن من قش وخشب، يرتفع عن الأرض قليلاً يرقد عليه. اقترب منه كاراس بهدوء، وابتسامته لم تفارق وجهه: دعني أقي نظرة على جرك..

أطال سودان النظر بوجهه، دون أن يُجيب، فما كان من كاراس إلا أن رفع الغطاء عن صدره. ساحبَ الأسمال التي غطت جسده، ثم أخذ يتفحص جرحه المقطب والمغطى بمادةٍ بنيةٍ حول حواقه. تبادلا النظرات، قبل يسترخي في استسلام، مفسحاً المجال للعجز ليتم عمله. أخذ الطبيب يمسح الجرح بقطعةٍ من قماشٍ بللها من قنينة، ثم أعاد وضع بعضٍ من المادة اللزجة البنية مرة أخرى. انتهى قائلاً:

- ستشفى قريباً.

اقترب منه كاراس حاملاً كأساً، فعقد سودان حاجبيه: ما هذا؟

- ماء.. أنت كثير السؤال يا سيد...؟

لم ينطق، شرد.. كمن سلب عقله، تراصت أمامه آلاف الوجوه.. المرفأ المكتظ بالسفن، صفحة البحر تعكس أشعة الشمس الذهبية، ساحة محاطة بأشجار النارنج والبرتقال، وبناء كبير تكسوه سقالات من خشب احتضنت المئذنة الشاهقة، عمال وعيديكثير، يتحركون هنا وهناك، يحملون مواد البناء، الكل يعمل دون كللٍ لإتمام العمل بمسجد باري الجامع. هو من يُشرف على إتمام البناء والتوسعة منذ وفاة الأمير مفرق بن سلام، حيث أصبح هو الأمير.. نعم هو الأمير سودان الماوري، صاحب باري وأنحائها.. إقليم كالابيرا وبوليا وكمبانيا يدينون له بالولاء، ونابولي وسالرينيو يدفعان له الجزية.. هو ملك جنوب إيطالية كما يُطلق عليه أعداؤه. ولكنه الآن شخص آخر.. أو هكذا عليه أن يكون. فطن لحركة يد كاراس أمام وجهه. نظرته خاوية وابتسامته هادئة. منحه إجابته أخيراً:

- أنا عبد الله.. من الجنوب. كنت أحمل رسالة إلى روما، حين هاجمني قطاع الطريق شمال أفيليانو.

شد، وعقد لسانه وعيناه تتبعان شيئاً، الذي كان يُبارز في مهارةٍ، حتى بعد سقوطه عن فرسه.. صدره المخضب بالدماء، وعيناه الزرقاوان تبتهلان للسماء. بيرسبيا، أول من ارتفت روحه إلى السموات كان يقف وسط الحشائش مبتسمًا يقطر دمًا، وسهمٌ يستقر بصدره. على أيّضاً كان ماهراً في المبارزة، لكنهم تکالبوا عليه.. والهجان تصهل وتتركل وتصارع بدورها.. ترى أين هي؟ دار بعينيه في المكان مرة أخرى، ليصطدم بصره بوجه كاراس يحملق فيه..

- لا بأس.. لا تقصد البقية إن كنت لا تحب البوح.. أخذ للنوم الآن، وللحديث بقية.

ثقيل هو الكذب، حتى لو كنت مضطراً، فمهما طال الوقت سينكشف الأمر. ربما عليه الرحيل في هدوء وصمت، كما رحل العجوز دون أن يُطفئ المشتعل. دوماً من يرحل يترك خلفه أثراً، تبقى الندوب لتذكراً مهما التأم الجرح.. شعيب رفيق العمر، رحل في ومضة عين، مخلفاً زوجة وطفلين لن يعود أبوهما مرة أخرى. أهو الملام، أم أنه القدر؟ حاول النهوض، فعاد الألم مرة أخرى. الجرح غائر ولم يلتزم بعد، وحتى إن استطاع التسلل والهرب من هذا المكان الذي لا يعلم عنه سوى جدران أربعة تحتويه، إلى أين سيذهب؟ أين الهجان؟ أقتلت هي الأخرى؟ آخر ما يذكره أنها ركضت به بعيداً، صفوف الأشجار المتتسارعة حوله آخر ما رأه، طرقات حوافرها آخر ما سمع. سيصبر.. كان هذا قراره. نعم، سيصبر حتى يشفى، وبعدها يرحل. في الصباح، عليه أن يسأل ذلك الشخص عن كل

شيء.. وعليه الحرص والحدر.

اعتنى أحد ديوك حظيرة لوريينزو السطح، وراح يسير على سطح القرميد بزهو، إلى أن وصل للقمة. نفض ريشه الملون، قبل أن يصبح، ليعلن لأهل سان فيلي أن الصباح قد آتى، وأن عليهم أن يستيقظوا لأعمالهم. يظن البعض أن صاحبه دربه على هذا الأمر. تكاثفت قطرات الندى على وريقات الأشجار، وراحت تناسب لغسل وجه الأغصان، وانقضع الضباب ببطء، ليعبد الديك الصياح مجدداً. أسراب من عصافير غادرت الأشجار، ترفف أجنتها في سرعة ونشاط، بينما سار كلب سباستيان الطاب ببطء نحو كومة قش قرب منزل كاراس. دس جسده باحثاً عن الدفء، بعد ليلة حراسة طويلة، تحاشى فيها مواجهة ضواري الغابة. ومن خلف الجبل، قدمت الشمس.. فرض بررتالي فاتر يُرى بوضوح، أرسل أشعة لا دفع فيها، لتتسلى عبر نافذة ماريا النائمة. غمر وجهها الضياء. رقيقة كزبقة نبتت بين صخور جبل قاس. لو رآها هوميروس لخدها في إحدى ملاحمه، حسناء تسعى إليها آلهة الأولمب، تتنافس لیظفر كل منها بها. ربما لو كانت بعصر سابق، لحظيت برعاية جوبتيير، ولغارتها جونو ومينيرفا، أو لربما لم يُقتل أنطونيو من أجل كلويوباترا..

فتحت عينيها، فأشرقت شمسُ غرفتها. حركت رأسها في كسل جميل، بعد أحلام وردية لم تفارق لياتها الهدامة. لبست في الفراش قليلاً تسترجع أحالمها منتشية، قبل أن تنهض متثالية وقد تناهى إلى مسامعها صوت أبيها يصيح في إيساندرو كالعادة. رتبت فراشها، وفتحت صندوق ملابسها، لامست بأطراف أصابعها موضع الحصان الخشبي، ثم أغلقته ولم تستهلك الكثير من الوقت لاختار ثوباً قرمزيّاً زينت أطرافه بنسيج أبيض، قدّيمًا بعض الشيء، لكنها تفضله. لم تخرج من الباب الخلفي كعادتها اليومية، لختالي بروح الغابة وأنفاس الجبل، بل كانت عيناها تجذبها إلى حيث منزل عمها كاراس. أطلت النظر، قبل أن تلتقي حول البيت متوجهة للحظيرة على مهل.. العنزة تلتقط بعضاً من الحشائش الجافة، بينما استنقى الخنزير في بركة من محل وروث، وفي الزاوية الجافة كانت الفرس ترقد أرضاً! لم تعهدها كذلك طوال الأيام السابقة. اقتربت منها بخطواتٍ قلقة، فداعبت خصلاتها، وتحسست عنقها. عيناها واهيّتان تغمضهما، وكأنما هناك دمعٌ يناسب من طرفها! اغزورقت عينا ماريا بالدموع.. حاولت فهم ذلك الشعورِ، ولكنها عجزت، لم تبك منذ زمنٍ، ولم تبتل وجنتها هكذا. **قبَّلت رقبة الفرس، وهمست مداعبة شعرها:**

- أعلم أنك حزينة من أجله.. أعدك أنه سيكون بخير.

نهضت، وراحت لزاوية بالحظيرة حيث تترافق أجرولة كبيرة، فأخذت منها بعض الجزرات، عادت بها لتجلس إلى جوار الفرس على بقايا العشب الجاف، تلقمها بيدها وتحديثها:

- يجب أن تأكلني، حتى يجدك قويةً كما عهدك.

ال نقطت الهجان الجزرات بلطفٍ، وكف ماريا الآخر يربت على خطمها الأسود. كانت تفهمها بشكل ما، وانهملت في المضغ، بينما راحت يدا ماريا تجدل شعرها الكثيف، تداعبها برفقٍ، تجمع خصلاً وتفرق بينها، تعقدها بسلاسةٍ، وتترنم بصوتٍ عذبٍ:

كانت هناك فرس بيضاء..

كفةٍ تكسوها ثلوج أشد بياضاً من الحليب..

يجدل الجبل من نقاها ضفائر للنهر الفياض..

نسيت الوقت.. لم تدر إلا وأمها تسد باب الحظيرة بجسدها الضخم:

- ماريا.. ماذا تفعلين؟!

ابتسمت ماريا وهي تنهمض:

- أخيراً وجدت رفيقة يا أمي..

عقدت الأم حاجبها:

- لم تحليبي العزبة بعد؟

فرغت ماريا فمهما، وهي تتبع تحرك أمها داخل الحظيرة. لم تبال بما تشعر به ابنتها، لم تتجاوب معها في الحديث حتى. أخذت الأم ترتب بعض الأغراض، وتلقي الحبوب لدجاجات أثرن فوضى من حولها، بينما كان قباع الخزير يشبه الصحفات، وكأنه يضحك على ما فعلته أمها بها. أحست ماريا أنها تكرهه وتشمئز منه. تركت رفيقتها وبدأت مهام يومها المملاة، وقبل أن تترك الحظيرة ألت نظرة إلى الفرس النائمة وتساءلت: هل تحلم مثنا؟.. هل يزورها طيف صاحبها كما تطفل على أحلامي؟!

.....

انشغل كاراس في إعداد خليط البابونج مع أوراق أخرى ذات رائحة عطرية. أخذ يطحن المسحوق جيداً، قبل أن يضع قليلاً من الماء. بضع تقليبات، وأصبح الخليط كتلةً من عجينبني مائل للخضراء، فحمل الطبق وتوجه إلى حيث يرقد ضيفه. كان يجلس على طرف الفراش، متبعاً خطوات مضيفه المبتسم دوماً، فأشار إليه كاراس ليرقـد. أزال عنه الأسماـل، وتفحص الجرح، قبل أن يضغط عليه برفق. انفضض جـسهـ، فـما زـالـ الآلـمـ يـسكنـ ضـلـعـهـ. أخذـ العـجـوزـ يـنظـفـ الجـرحـ دونـ أنـ يتـوقفـ عنـ الحديثـ. كانـ هـذـاـ حـالـهـ مـذـ أـنـ تـشـرـقـ الشـمـسـ، فـيـقـصـ عـلـىـ مـسـامـعـهـ حـكاـيـاتـ الـحـربـ وـالـمعـانـاةـ، وـكـيـفـ تـعـلـمـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ مـدـيـنـةـ "ـمـرـسـىـ عـلـىـ"ـ بـصـقـلـيـةـ، عـلـىـ يـدـ طـبـيـبـ مـسـلـمـ مـنـ الـأـغـالـبـةـ. إـنـهـ يـرـدـ الجـمـيلـ؛ هـذـاـ قـالـ. حـكـىـ لـمـريـضـهـ كـيـفـ آـنـهـ بـعـدـ وـقـوـعـهـ فـيـ الـأـسـرـ، ظـنـ آـنـ هـاـكـ لـمـحالـةـ، أوـ آـنـ عـمـرـهـ سـيـنقـضـيـ هـنـاكـ عـلـىـ الجـزـيرـةـ عـدـاـ وـحـيدـاـ، لـكـنـ الـحرـيـةـ كـانـتـ مـنـ نـصـيـبـهـ. لـاـ يـنـفـكـ أـنـ يـذـكـرـ حـضـارـةـ أـسـلـافـ الرـوـمـانـ، حـكـامـ الـعـالـمـ الـقـدـيمـ، وـيـرـدـ أـنـ الـحـضـارـاتـ كـالـعـنـقـاءـ فـيـ اـنـبـاعـهـاـ، فـمـنـ رـمـادـ حـضـارـةـ تـنـهـضـ أـخـرىـ جـديـدةـ، وـيـأـخـذـ فـيـ وـصـفـ الرـقـيـ وـالـحـضـارـةـ التـيـ تـبـنـىـ بـسـوـاـعـدـ الـمـسـلـمـيـنـ هـنـاكـ، قـادـمـةـ مـنـ الشـرـقـ الـبـعـيدـ حـيـثـ الصـحـراءـ الشـاسـعـةـ. لـمـ يـرـهـاـ، وـلـكـنـهـ سـمـعـ قـصـصـ الرـجـالـ الـقـادـمـينـ مـنـ جـزـيرـةـ الـعـرـبـ مـتـجـهـيـنـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ بـحـرـاـ. لـاـ يـكـفـ كـذـلـكـ عـنـ ذـكـرـ قـرـطـبـةـ وـبـغـادـ، حـيـثـ تـدـرـسـ شـتـىـ الـعـلـومـ، وـقـدـ أـفـصـحـ عـنـ أـمـنـيـتـهـ زـيـارتـهـماـ.. يـقـولـونـ إـنـ بـهـماـ أـعـظـمـ الـمـكـتـبـاتـ فـيـ الدـنـيـاـ.

نقل الأطباق لخارج الغرفة، وعاد سريعاً، وكأنه قد سره أن وجد من يُسامره بالعربية. سحب كرسيا إلى جوار الفراش، وجلس وعيناه تبتهجان بالذكريات:

- أتعرف يا عبد الله.. كان الرهبان القادمون من الشرق قد يمّا يقولون بأنكم عقاب لنا، فتصارع المذاهب بعد مجمع خلقدنية، كان كفياً بأن يسلطكم علينا الرب. سمعت قصصاً مرعبة عنكم.. قالوا إن السراسنة الوثنيين يفتكون بكل ما هو حي، يحرقون ويذبحون، يقتلون النساء والولدان. حين ذهبت للحرب، رأيت أنكم بشر مثلنا، اجتمعتم من أجل هدف ما.. هكذا هي الإمبراطوريات الكبرى. لقد ظلت روما تحكم العالم لقرون، ومن بعدها بيزنطة، وكان الناس يتفاخرون أنهم أسياد المشرق والمغرب، ويعامل الرومي الناس كافة على أنهم أعلى مرتبة منه. أما أنت، فأكثر أسمائكم عباد.. كاسمك عبد الله. كنت قبل ذلك أحارب في صفوف البيزنطيين كما قصصت عليك، وكان علينا الوقوف أمام المد البربرى المتواوح، حتى أسرت عندكم، فعرفت أن تاريخ الإنسانية تبنى مرحلة جديدة منه على أيديكم. جيوش القياصرة صار كل ما تفعله هو تمهيد الطريق لتدخل مدن العالم ببعضها، فتساعدهم في جباية الضرائب ومطاردة اليهود. نسوا تشيد الصروح الضخمة ونشر العلم.. أنت من حملتم الراية، والميزة الأهم فيكم أنكم لا تكتمون علمًا. عجبت أيضًا من أن أرى فيكم الأسود يحكم الأبيض، بل ويوقره.

كان كاراس يفتخّر أنه حضر مجالس الشعراء واستمع لقوافيهم. لهفته في الحديث المتواصل، وانبهاره باللسان العربي، ولباسه الأقرب لملابس المستعربين في طارت وصقلية، كل ذلك جعل سودان يطمئن له ويسعد عنه يفكّر كيف ستمضي الأحوال، بينما يستطرد العجوز بقصة جديدة:

- كنت يوماً مع الطبيب محمد، بمنزل الأمير إبراهيم بن الأغلب، الذي كان رغم مرضه الشديد يتّابع أمور الرعية، فجاعت في طلبه أرملة يهودية، فاذن لها. دخلت، ولم يرفع عينه ليتحصلها، بل أشاح بنظره مطالعاً بعض الأوراق، مستمتعاً لشكواها. أحد جنوده راودها عن نفسها، وحين صدت مسامعيه، ترصّد لها ولاهالي الحي، وشاع الخبر وكثير الكلام. انتحبّت واحتفى صوتها، رأيتها بعيني تبكي، كانت صادقة عفيفة افترستها السنة الناس. وجيء بالجندي، واعترف بخطنه، فحكم عليه بالجلد وحكم لها بالستر، ومنحت من بيت المال بعض ما يساعدها على العيش، وأهدّاها الأمير ابن الأغلب بقرة لتحلّبها وتبيّع وتكتب رزق يومها. رغم أنها يهودية، كان العدل حاضراً.

كان كاراس يقص على سودان بلغته العربية الركيكة، وسودان يضحك من موقف كان لا يراها ولا يهتم بها من قبل؛ فمن ير الأمور من خارج دائتها يفهم أكثر. لم يفت كاراس أن يخبره كيف وجدوه، وأن فرسه سليمة معافاة، وسيأخذه لعندها بعد أن يتم شفاوه. غاب خارج الغرفة قليلاً، ليعود ومن خلفه رائحة طعام أثارت شهيته، فالعجز طباخ ماهر أيضاً، وقد أعد طبقاً من خضروات ولحم ومرق، قدّمه لسودان صاحب النّظرات المتسللة قائلاً:

- إنه لحم الأوز.. أعرف أنك لن تأكل لحم خنزير.

ربض الليل على القرية سريعاً، ولم تذهب ماريا إلى دار عمها. كان يومها شاقاً، فسيذهب أبوها لاجتماع النبلاء في بنفيينتو، وعليها أن تُساعده وتجهز ما يحتاجه في الطريق مع أمها. الاجتماع عاجل، ولو رويزو عليه أن يذهب، لعله يجد سبيلاً للتخلص من الأب ليو، أو لعله يعرف شيئاً عن ذلك العربي. الحيرة والشك يسخنان روحه ببطءٍ، فقد يجد نفسه مذنباً إن أفصح عن أمر ذلك الغريب. قرر

ألا يأتي على ذكره، وأن يذهب وحده مع حارسيه فقط. ارتدى أفحى ما لديه: عباءة سوداء نقش على صدرها رسمًا دقيقاً لخزير بري ذهبي. كانت ماريا تساعده لارتداء ملابسه، بينما تنظف أمها حذاءه الجلدي الطويل.

الهواء البارد تلاعب بنيران المشاعل، وبجوار باب المنزل كان يقف إيساندرو ممسكاً بلجام حصان أصهب، يتبادل الحديث مع صديقه، اللذين قبلًا أن يقوموا بدور حارسي أبيه. كان يتمنى أن يكون أبوه نبيلاً في إحدى المدن الشمالية، البندقية، لومبارديا، أو من أهل روما وأحوازها.. كان سيفرق ذلك حتماً. فإن كان أبوه نبيلاً، فهو في النهاية مزارعٌ غني.. فلاح لا يرقى لطبقية القصور الضخمة التي تكتظ بها بنفيتو.. هذه هي الحقيقة. على أي حال، سيتغيب أبوه لخمس ليال، وسيصبح هو المسؤول عن كل كبيرةٍ وصغيرةٍ حتى يعود. سيكون ملك القرية، يختار بطرقاتها كفارون في قوم موسى.. كقياصرة القسطنطينية وروما القديمة. أفاق من خيالاته حين رأى وجه أبيه الصارم يقدم عليه. لم يدم وداعهما كثيراً، وبكلمات مقتضبة حذر من صنع المشاكل، وأوصاه بأن يكون على قدر المسؤولية. امتطى الحصان وهو يتأمل حارسيه الجديدين: ألم تجد أفضل من هذين الأحمقين؟!

.....

ولد الهلال فوق رؤوس الأشجار. أنسٍت وحده نجوم السماء، زاحمته لتقبس من ضوئه الخافت. أما هو، فكان وحيداً، غريباً في قريةٍ بعيدةٍ عن الديار، بينه وبينها سهولٌ لم تطأها قدمه من قبل، وغرفةٌ غادرها منها، ليجد نفسه حبيس منزل ضيق. يرتعش الضوء قادماً عبر نافذة الدار، من مشعلٍ يقاوم رياحاً تمر بطرقات القرية. الألم ينخر جانبه، فتتأرجح الأرض من تحته، لكنه يُحاول إلا يسقط. هوى على ركبتيه.. لا يعلم للقبة اتجاهها، ولا سبيل للاختلال. الظلم والوحدة، الخوف من الموت ربما.. لم يخشء يوماً، ولكن ابن آدم كأبيه يبحث عن الخلد، أو على الأقل يوماً آخر ليراجع نفسه.. ليصفح ويعدل ويتصدق. قلب سودان وجهه في السماء مناجياً ربه أن يمنحه السكينة والأمان. أن يكون موته في ساحة الوغى، وليس أسيراً تركله الأقدام. أن يلحقه بزوجته وطفله إلى الجنان. انعكست بعينيه السوداويين نيران تلتهم السفينة ببطء، تتاذذ بمذاق من فيها.. الصرخات انسابت لها دموع العجز قطرات في بحر ابتلع الفاك بما تحمل. لعل جرح جانبه أقلَّا من جرح لم يشف بعد. الفتوحات والمعارك.. الرایات والدروع.. البحث عن الموت.. السلطة والحكم ودنيا فتحت أبوابها له على مصراعيها.. تضرع إلى الله أن تكون النية خالصة، وأن يُمنح فرصة أخرى... هكذا هم بنو آدم إن أصابتهم ضراء، كان التضرع والبكاء حاضرين وبقوٍة، وعهودهم أن يرى الله ما يصنعون إن نجوا من ذلك الكرب. اشتد الألم ينشب مخالبه بجسده الواهي، فلم يستطع المقاومة، وخرَّ ساجداً.

...

استيقظ كاراس على صوت ماريا وطرقاتها المتتالية. تقلب بالفراش، قبل أن ينهض متثائباً يجر قدميه. أزاح المزلاج فاتحاً المجال لضوء الشمس، الذي ضرب وجهه فتراجع مشيناً، فمررت ماريا إلى الداخل وقد غمرتها أشعة الشمس الذهبية. كانت مشرقة في ثوبها الذي جمع بين زرقة السماء وبياض الثلج، وقد زينت ثغرها ابتسامة جعلت خمازتني خدتها تظهران بوضوح:

- ألم يفتقدني أحدٌ هنا؟

أشار إليها كاراس بعد أن ثأعب أن تضع سلة الطعام على الطاولة:

- كانت ليلة طويلة، ورأيت أباك يغادر القرية في المساء.

وضعت ماريا ما في يدها، وهمت بالرُّد، عندما تعلق بصرها بجسدهِ مكموم على الأرض.. أطلقت شهقة، التفت على إثرها كاراس، فإذا سودان ملقى على جانبه وقد ضم ركبتيه إلى صدرهِ كان فاقداً للوعي، فحملاه معاً، وعقل ماريا يتتساع هل استفاق الغريب؟ دثروه بالفرش، بحثاً عن دفءٍ يُطفئ ببرودة جسده وتبليس جلده وأسنانه التي لا تكف عن الاصطكاك.

أعد له كاراس شراب ليمون دافئاً، ثم انهمك في تقطيع بعض الأعشاب، فيما تسقيه ماريا الليمون وتتفحصه، وهي تستمع إلى عمها يحكى لها كيف أن "عبد الله" استفاق بالأمس، وأنه رسول من باري إلى روما، وقد هاجمه اللصوص. كانت تتحسر لعدم حضورها أمس، لعلها كانت رأته كيف يتحدث وكيف يجلس.. الأثنى والفضل لا ينفصلان أبداً، حتى ليقال إن بذرة الفضول احتفظت بها أرحام النساء، فلا تورثها إلا لذات رحم. صارت الآن تعرف اسمه، تحاول نطقه كما ألقى على مسامعها.. تهمس به، وتلتفت ناحية العجوز، تتأكد إن كان قد سمعها.. تبتسم وتعيد الكراهة.. «عبد الله»..

فوجئت بكاراس يقف فوق رأسها:

- هل قلت شيئاً؟

تلعثمت، وحاوت إخفاء خجلها بسؤال:

- أتسائل ماذا يعني اسمه، عبد الله؟

رمق كاراس سودان بنظر طويلة:

- تعني أنه عبد رب..

سألت:

- أهو عبد؟

ضحك كاراس وهو يلوح بيده:

- لا لا، ليس الأمر كذلك. المسلمين يضعون أنفسهم في مرتبة العبودية للرب، كما نقول نحن أنا أبناء الرب.

أومأت برأسها كاستدلال على الفهم؛ بينما أخذ يستطرد مشيراً إلى سودان:

- إنه يُخفي حقيقته، لكنه من علية القوم.. له من الوقار وحسن الحديث ما لشخصِهم، كما أنه يتقن لغتنا جيداً، وهذه ميزة خاصة بالسفراء والقادة.

ساعدت عمها في طهو الفاصولياء على طريقة أهل صقلية، بينما يسرد لها مجل حديثه مع سودان، وهي تستمع بشفق، وأسئلتها لا تتوقف. العرب يضيفون للطعام نكهاتٍ من بهار ومزيج من الزيوت التي يدخل منها عمها قدرًا لا بأس به. ثم باعنته بسؤال حول ما إذا جاء السراسنة الغزاة إلى سان

فيلي، فتوقف عما يفعله، وتردد في الإجابة، وتلتف حوله، قبل أن يختت صوته:

- إنهم يُسمون أنفسهم فاتحين وليسوا غزاءً.. يُخِرُّون الناس بين الدخول في دينهم أو الجزية أو الرحيل..

- الرحيل!

هزَّ رأسه بالإيجاب:

- نعم.. إما أن ندخل دينهم ونصبح مثلهم، لنا ما لهم وعلينا ما عليهم، أو ندفع ضريبة سنوية ونبقي على ديننا، مقابل أن يقدموا لنا الحماية والأمن ولا يظلمونا شيئاً، وأيضاً يكون لنا ما لهم وعلينا ما عليهم. لكن هذه الضريبة لا يدفعها النساء والأطفال ولا الرهبان.. فقط المقتدر هو من يدفع، إنها تُشبه حكم الزكاة عليهم هم أنفسهم، فهي مساواة بهم وليس ظلماً للآخرين. أما من يقرر الرحيل، فليرحل. يا بُنيتي، هؤلاء قوم كأسود الكليسيسوم، لا تهاب الدروع والسيوف اللامعة، ولو ظلوا على مبادئهم صادقين، فقربياً ستكون أوربا كلها تحت سيطرتهم..

تنهد، وأضاف:

- إن كانوا عقاب الرب كما يقول الباباوات، فسيخرج لهم عباد صالحون من أبناء ديننا ليوقفوا زحفهم.. وإن كانوا بناة حضارة، سيخرج عليهم أبناء ديننا غيره من تلك الحضارة.. هكذا هي الحياة منذ عمر بنو آدم الأرض..

عدلت ماريا من وضع ضفيرتها، وأخذ صوتها منحى حذراً وهي تسأله:

- أتُلك الجزية مثل الضرائب التي يدفعها أبي لدوقية بنفينتو، وكما كان يفعل جدي من قبل مع البيزنطيين؟

هزَّ رأسه أن لا، فلم تنتظر شرحه وسألته:

- أهُم يقتلون النساء والأطفال والعاجز؟

كان قد أنهى طهو الفاصوليا، فاتجه إلى كرسي، ليجلس عليه يرأف بشيخوخته من الجهد الكبير.
قال:

- تنص عقيدتهم على ألا يفعلوا مثل هذا.. لكن لكل حرب ضحايا.. الحرب أسوأ ما اخترع البشر، وهم ليسوا ملائكة بالتأكيد ولكن لا أظنهم شياطين، ومن يسمع قصص الرهبان والنبلاء، يفاجأ بواقع آخر عندما يتعامل معهم.

كل هذه الأسئلة سبق وسألتها ماريا لعمها مئات المرات، لكنها هذه المرة أمام حالة جديدة. إن عمها يمجد في الغرفة ويقول إنهم ضوء المستقبل، أبوها يبغضهم، كذلك أهل القرية، بل وكل دوليات إيطاليا تكرههم. انتبهت لهم مهنة سودان، فاقتربت منه تترقب.. جفناه كانت تصارعان الوهن، حتى فتح عينيه ببطء، فوجدها تحتل مجال روئيته والقلق يظهر على وجهها، وابتسمامة متوترة على شفتيها، وقد منحها ضوء النهار من خلفها هالة حولها. تبدلت الوجوه كثيراً بعقله، لكنها لم تكن كأي وجه رأه من قبل. كانت كأنها حورية، رغم الظل الذي يكسو وجهها. أغمض عينيه لعله يفتحها مجدداً فلا يجدها، فهي بالتأكيد ليست إلا هلاوس الحمى. فاجأته كلماتها بعربية توترت حروفها:

- أنت بخير؟

حاصره سؤالها مراراً.. راح يتردد في عقله، الذي يحثه على فتح عينيه وتأملها. لحظة فتح عينيه كانت تزيح خصلة من شعرها جانبًا. ابتسمت مستحبة من نظرته التي غزتها. كانت المرة الأولى التي تسمع صوته فيها حين سألها:

- من أنت؟ أين الطبيب كاراس؟

ردت في رفقٍ:

- ماريا اسمى.. ماريا.

تاوه سودان، فيما استطردت هي:

- الطبيب كاراس عمي، أنا هنا لأساعدك.

كانت تُحدثه بلسانه العربي، ولكن بحروفٍ مبعثرةٍ ركيكةٍ. قاوم الابتسام حتى لا يتآلم، فأعادت سؤالها مرة أخرى:

- أنت بخير؟

أومأ برأسه في تهالك، فابتسمت وهي تضع على جبينه رقعةً مبللةً جديدةً، وتأخذ عنه تلك التي امتصت سخونته. مرت دقائق من الصمت، عاد بعدها كاراس منادياً يسألها:

- ماذا هناك؟

استدارت وهي تشير إلى سودان، فتقدم منه كاراس باسمًا:

- لا أعلم ما الذي جعلك تنهمض في الليل.. وجذنك ملقى أرضاً.

غمغم سودان:

- الصلاة.

وضع كاراس كفه على كتف ماريا التي تحاول فهم فحوى الحديث:

- كيف نسيت هذا.. لكنكم في المرض تصلون قعوداً أو حتى رقوداً..

أومأ سودان في وهنٍ:

- نعم، أنت على حق.. أخطأت أن لم آخذ بربخصة التيسير.

ربت كاراس على كتف ماريا قائلاً:

- نسيت أن أعرفك بابنة أخي.. ماريا.

حاول سودان الاعتدال في فراشه، فهمّت ماريا لمساعدته، فرفع يده يكفّها عن ذلك وهو يقول:

- تعرفنا قبل قليل..

استدار كاراس موجهاً حديثه لماريا، يرفع عنها الحرج، إلى حين أن يشرح لها سبب صدود العربي:

- ألم نعد الغداء لضيوفنا؟

منتحماً ابتسامةً لم تخف ضيقها، ثم ذهبت وعادت بأطباق الفاصلوليا. مضت تُراقب حركاته القليلة، وتُداعب طبقها الذي لم ينقص.. إنه بشر مثلهم، ليس من جنس آخر، كما تقول قصص الأدب ليو، لكن فيه غلظة في معاملتها. في نهاية الأمر، ساعدت كاراس في ترتيب الغرفة قبل أن تودعه، ثم - وبإصرار داخلي على فرض وجودها على ذلك الغريب.. لوحَت بيدها لسودان قبل أن تخرج، ولمحت ابتسامته قبل أن يشيخ بوجهه. خرجت فرحة، سعيدة بانتصارها الصغير الذي أعلنته تلك الابتسامة التي لم ينجح في إخفائها. تخطت برُك الوحل، ممسكة بتلابيب ثوبها حتى لا يتتسخ، تلقي التحية على من تقابل من النسوة، حتى صعدت الربوة إلى المنزل، ولكن كان عليها أولاً أن تمر على الحظيرة، لتطمئن الفرس الحزينة على أصحابها.

بنفيتو..

حلقت أسراب الحمام فزعةً من رنين الأجراس الذي فاجأها يضم الآذان. ومن بعيد، ردت جبال الألبيني الصدى. تراكمت السحب في سماء المدينة العريقة، بنفيتو ابنة النهرین سباتو وكالوري إربينو، يحتضنانها منذ مولدها في عصر ما قبل روما، يمنحان أهلها من فيض مائهم العذب، ويُشكّلان حدوداً منيعةً من ماءٍ جار، عبره لا يتم إلا من فوق قطرين بناهما الرومان قديماً. أسوار المدينة الحجرية الرمادية تلتقي حولها كثعبان ضخم، فمه ناحية الجنوب، حيث البوابة العملاقة انسدلَت على جانبيها رايات بيضاء يتوسطها خنزيرٌ بري أحمر، شعار دولية بنفيتو.

ألقيت الأزهار المختلفة أوائلها فوق موكب النبلاء، الذي يمر وسط تجمعاتِ من الفقراء، يتهافتون على رؤية أصحاب الفخامة من دوقيات وممالك إيطاليا. في الطبيعة، كانت صوفٌ من جندٍ مهيب، دروهُم فضية ذات نقوش ذهبية، وخوذات ذات حواف مدببة تُضفي عليهم رهبة، يحملون راياتٍ حمراء تقاطع بداخلها مفاتيحان، أحدهما ذهبي والآخر فضي، يتتوسطهما التاج البابوي. ومن خلفهم صفان من الرهبان، يرتدون عباءاتٍ حمراء ذات أحزمة بيضاء، نقشت عليها عبارات ذهبية، يعتمرون قبعاتٍ كبيرة من اللون نفسه تمنحهم الغموض. ثم تتوسطهم عربة تجرها أربعة خيول بيضاء بسروجٍ سوداء، حلّيها من فضة تحمل شعار الأملّاك البابوية.

تقرع الأجراس أكثر فأكثر، فينحني الناس. ويدخل العربة الكاردينال أدريان، مساعد البابا والرجل الثاني في الكنيسة، يرسم على وجهه ابتسامة عريضة، ثيابه البيضاء ووشاحه الأحمر يضفيان عليه وقاراً وهيبة، وقد أخفى صلة رأسه بقلنسوة بيضاء صغيرة، بينما يمسك بصولجان يزيّن قمته صليب ذهبي كبير، وراح يُقْيِّي الصلوات والتبريكات على الجموع الغفيرة المتراسدة على الجانبين. خلف عربته كان ركاب النبلاء يمر.. خيول مختلفة أوائلها وحلّيتها، يمتطييها نبلاء من أنحاء إيطاليا، اختلّت أزياؤهم ورِيائِتهم. كان من بينهم لورينزو وحارساه المبهوران بالاستقبال الكبير، ورفع هو رأسه في زهو راماً العادة بغرورٍ، محاولاً تناسي أنه نبيلٌ قروي لا يُشَبهَ من يُحيطون به من نبلاء

لومبارديا وبنفينتو وروما.

وأخيرًا، انتهى الموكب، وتوقف رنين الأجراس. وحين ظن الناس أن مراسم الاستقبال انتهت، فوجئ الجميع بصوت الأبواق تعلو من فوق الأسوار مرة أخرى، لضيقِ آخر آثر أن يدخل بمفرده. تقدمت فرقة من المشاة، ترتدي دروعًا قديمة قصيرة، وصدريات من الصلب الخفيف، وتنورات جلدية سميكة، ولهم سيوف قصيرة تتدلى وخوذات فضية ذات عُرف قرمزي. صوت اصطكاك أقدامهم بالأرض طرق الآذان، وتقدمهم حاملو رايات صفراء وأخرى قرمزية، زينتها رسم لنسر مزدوج الرأس، ثم تبعهم اثنا عشر فارسًا مدرعًا، يتقدمهم الطريق نيكたس مندوب بيزنطة. اتسعت أعين الناس لما رأوا من عرض مبهر. أخذ الموكب طريقه إلى ساحة الكاتدرائية، بينما توقفت بوسط الطريق عربة كبيرة يجرها ثوران عظيمان، عُلق على مقدمتها مجسم لنسر ذهبي برأسين، وهي عربة الهبات والعطايا، عرفها العامة حين بدأ الجندي بالقاء العملات الذهبية وبعض قطع القماش. حالة من الهرج سادت الشارع، وبضع لحظات كانت تكفي لإفراغ الحمولة من الهبة البيزنطية. إنهم يحبون المال أكثر من حبهم للبابا.. كيف لا وهم من دفعوا رسوم الاستقبال في صورة ضرائب فرضت عليهم من أجل أن يتم توحيد الجهد والتصدي للسراسنة الغراة. لا بأس إذن من عطايا قليلة تسد الرمق.

ترافق القديسون بهالاتهم الذهبية في جنبات القاعة، رجاج النواوافذ يحمل صورهم الملونة، يرمقون بصمت زوار القاعة التي أحاطتها أجنحة ملائكة تبحث عن سلام فقد أثره وسط الصخب، إذ إن درجاتها اكتظت بأحاديث جانبية بين النبلاء. ضحكات زائفه نبت من بذور المجاملة والتملق. أتى بعضهم للاجتماع، رغم اليقين بأن لا شيء جديداً سيحدث، والبعض أتى للحفاظ على أملاكه. كان محور أحاديثهم عن غياب ممثلي نابولي وساليرنو، لم يحضرها الاجتماع لأنهم حلفاء السراسنة، كذلك بعض نبلاء كامبانيا، يدينون بالولاء للغراة، يفضلونهم على تسلط البابا والقوة البيزنطية. جلس لوريزو صامتاً، يتبع فقط دخول النبلاء، سلامهم وابتساماتهم، وأحاديث تمنى أن يشارك بها. لا يظهر عليه أنه أقل منهم، فعباعته السوداء وشعارها الذهبي، يفصحان أنه أحد رجال دوقية بنفينتو، لكنه هو من ترسخ بداخله أنه قروي يدير الحقوق ويجمع الضرائب من أجل الدوق، هذا كل ما له، بينما هؤلاء يكنزون الذهب ويسكنون قصوراً فخمة، مليئة بالعبد والنبيذ، وتحيط أخذ العذارى أجسادهم في فراشٍ وثيرٍ ليلاً. امتعض لتذكره زوجته إيلينا بشحومها الزائدة..

"هل تسمح لي بالجلوس هنا؟"

اعتل لوريزو مفسحاً المجال لمحدثه:
- بالتأكيد.

ألقاها دون أن ينظر لها، بينما مد الآخر يده:

- دوق ماركيزيو دي لابورتا اللومباردي.. من كابو.

اعتل في سرعة مادا يده للدوق. صافحه بحرارة وقد زين وجهه بابتسامة عريضة:
أنا النبيل لوريزو.. من سان فيلي.

عقد ماركيزيو حاجبيه في محاولةٍ لتذكر موقع "سان فيلي"، فيما عاجله لورينزو: إنها إحدى مقاطعات دوقية بنفينتو، وقد كانت من قبل تابعةً لإقليم لوكانيا، وذلك قبل قيام السراسنة.

ابتسم الدوق، بينما أشار إليه أحد الحضور في الجهة الأخرى. حرك رأسه محياً الرجل وهو يُحدث لورينزو:

- إنه الدوق كورتيينا.. ممثل الملك لويس الثاني الكارولينجي ملك إيطاليا..

كان لورينزو يتبع حديث الدوق باهتمام بالغ، فها هو ذا يجلس بجانب شخصية مرموقة، جميع من في القاعة يعرفونه ويلاقونه عليه التحية. كان ماركيزيو ممثل لومبارديا في ذلك المجلس المصغر، رجلاً شارف على إتمام عقده الرابع، شعره البني اخالطت به بعض البياض قرب فوديه، لحيته قصيرة مشذبة، وعيناه السوداوان تمنحانه مزيداً من الغموض والرهبة. آثر لورينزو الصمت على أن يفصح بشيء يجعله سخيفاً أو قليلاً الشأن، بينما أخذ الدوق يستطرد:

- اجتمعنا اليوم من أجل لا شيء..

أشار بيده ناحية الصوف المقابلة، حيث انهمكت مجموعاتٍ من النباء في حديثِ:

- إنهم فقط هنا من أجل مصالحهم الخاصة.. بعضهم يكره البابا ويميل للإمبراطور البيزنطي.. أو تعرف، أحترم قرار نباء نابولي بعدم الحضور.. كما تعلم، الهدنة بينهم وبين السراسنة تعنفهم من المجيء لمثل هذه الاجتماعات. أما هؤلاء.. فمنهم من يتاجر ويستثمر أمواله ويدين بالولاء للغزاة؛ ورغم ذلك جاؤوا إلى هنا.

امتقع وجه لورينزو وهو يتذكر ذلك الجريح في بيته. كان يستمع في سكونٍ لكلمات الدوق المحملة بالغرور والفهم الواضح لكل من حضر، ولكنه انتفض مع سؤال الأخير له:

- لماذا جئت إلى هنا سيد؟؟

تلعثم وقد تعرّق جبينه:

- لورينزو.. أسمي لورينزو سيدي..

ضحك الدوق، فيما أكمل لورينزو:

- جئت من أجل الدفاع عن أرضنا..

قاطعه الدوق بهدوءٍ:

- أنت من الجنوب.. أليس كذلك؟

- نعم.. نعم.

انحنى هامساً بأذن لورينزو:

- إذن أنت في خط التماس مع البرابرة..

رد مسرعاً و هو يُحاول الثبات:

- هذا لا يعني أبداً أنني على علاقة بهم.

ضجت القاعة بضحك الدوق ماركيزيو، مما جعل الجميع يلتفت إلى حيث يجلس. انكمش لورينزو، وراحت عيناه تجولان بالوجوه في ريب، فيما توقف الدوق عن ضحكته:

- عذرًا.. لكنك أضحكتي.

كان قلب لورينزو ينفخ بعنف. صمت أذناه عما يقول الدوق. فقط كان عقله هناك في سان فيلي. ماذا لو عرف الجميع بأمر العربي الجريح؟ سيكون الأمر سيئاً. عليه أن ينتهي من ذلك الاجتماع ويعود ليتخلص فوراً من ذلك الجريح، أو عساه الآن قد مات.. وتمنى لو أنه لم يأتي إلى هنا قط.

مرّ الوقت ببطء، حتى دخل إلى القاعة حاجب، تقدم ليقف أسفل المنصة، وصاح معناً عن دخول الكاردينال. دلف بعده الكاردينال مرتدياً عباءة بيضاء طرزت بخيوط ذهبية، معتمراً قبعة طويلة من نفس اللون. صعد الدرج الخشبي متكتناً على صولجانه الكبير، ومن خلفه الدوق إديلكي صاحب بنفينتو، وهو رجل قصير القامة عيناه الضيقتان تمتلثان بالزهو والغرور، كان يرفع رأسه محياً الجلوس في تفاصير. تبعه الطريق البيزنطي نيكاتاس، رجل طويل القامة عريض المنكبين صارم الوجه، يسير بخطى ثابتة، متأبطاً خوذته اللمعة وعيناه تدوران في وجوه الحضور. جلس الثلاثة يتوضّلهم الكاردينال، وتوقفت الهممـات مع غلق الباب الضخم، فساد القاعة سكون الموتى. لحظاتٌ مرت، قبل أن يكسر الدوق إديلكي أمير بنفينتو الجمود الجاثم على القاعة، حيث نهض منحنياً لرفقـيه على المنصة، ثم اعتدل رامقاً الحضور بنظرةٍ متحفصةٍ:

- في البدء، أرحب بقداسة الكاردينال أدريان مندوب الأملـاك البابوية. كما أرحب بصديقـي الطريق نيكاتاس قائد جيوش الإمبراطورية البيزنطية. سعيد أن أرى رفقاء قدامي، وفخورٌ بـتواجـدكم جميعـاً في دوقيـة بنفينـتو، التي تصدـت يومـاً للغزو البرـبرـي. لقد ظلتـ تلكـ المـديـنةـ تحتـ حـكـمـ السـرـاسـنةـ لـمـدةـ تـقـلـ عنـ السـنـوـاتـ العـشـرـ، استـطـعـناـ بـعـدـهاـ أـنـ نـنـهـيـ تـواـجـدـهـمـ فـيـ الـأـنـاءـ، لـيـرـجـعـواـ خـاسـئـينـ لـلـجنـوبـ، الـذـيـ يـنـتـظـرـ وـحـدـتـناـ لـتـحرـيرـهـ مـنـ أـيـدـيـ الـغـاصـبـينـ الـوـثـيـقـينـ. لـقـدـ اـجـتـمـعـناـ هـنـاـ مـنـ أـجـلـ الـمـسـيـحـيـةـ، وـمـنـ أـجـلـ إـيـطـالـيـاـ. وـلـقـدـ اـخـتـرـنـاـ أـنـ يـقـامـ هـذـاـ الـاجـتـمـاعـ فـيـ ضـيـافـتـاـ، كـبـرـهـانـ عـلـىـ مـدـىـ صـدـقـاـ. وـإـنـ دـوـقـيـةـ بـنـفـينـتوـ لـمـ تـدـعـ تـدـفـعـ الـجـزـيـةـ لـهـوـلـاءـ الـبـرـابـرـ.. فـالـيـوـمـ هـوـ إـعـلـانـ فـكـ اـرـتـبـاطـاـنـاـ مـعـ السـرـاسـنةـ وـوـقـفـ الـهـدـنـةـ بـيـنـاـ وـبـيـنـهـمـ.

أنهى كلماته بابتسامة، أخفاها بخـفـضـ رـأـسـهـ قـلـيلاـ. التـصـفـيقـ وـالـتـعـلـيقـاتـ الـجـانـبـيـةـ زـامـنـتـ عـودـتـهـ لـكـرـسيـهـ، لـيـنـهـضـ نـيـكـاتـاسـ مـمـسـكاـ بـطـرفـ بـرـدـتـهـ الـحـمـراءـ، وـيـتـحـركـ بـعـيـداـ عـنـ مـقـعـدـهـ فـيـ خـيـلاءـ، حـتـىـ توـسـطـ الـقـاعـةـ. شـعـرـهـ الـأـشـيـبـ الـمـائـلـ لـلـصـفـرـةـ، وـابـتـسـامـتـهـ الـمـصـطـنـعـةـ، إـلـىـ جـانـبـ عـيـنـيـهـ الـزـرـقـاوـيـنـ كـبـرـ عـمـيقـ كـانـواـ مـحـطـ اـنـظـارـ الـجـمـيعـ. اـنـظـرـ عـودـةـ الـجـمـيعـ لـلـسـكـونـ التـامـ قـبـلـ أـنـ يـنـطقـ:

- جـئـنـاـ إـلـىـ هـنـاـ مـنـ أـجـلـ الـحـرـبـ، وـلـيـسـ مـنـ أـجـلـ الـمـجـامـلـاتـ وـالـأـحـادـيـثـ الـفـارـغـةـ وـمـاـ يـتـبـعـهـاـ مـنـ ضـحـكـاتـ سـخـيـفـةـ.. جـئـنـاـ مـنـ أـجـلـ أـنـ نـعـيـدـ هـيـةـ رـومـاـ، الـتـيـ تـدـفـعـ الـجـزـيـةـ لـقـرـاصـنـةـ صـقـلـيـةـ.

كـانـتـ كـلـمـاتـهـ قـوـيـةـ مـهـيـنـةـ، تـنـبـعـ مـنـ شـخـصـيـتـهـ الـمـتـسـلـطـةـ الـمـغـرـورـةـ. وـرـغـمـ أـنـهـ حـمـلتـ إـهـانـةـ لـلـبـابـ الغـابـ، إـلـاـ إـنـهـ لـامـسـتـ فـيـ قـلـوبـهـ عـزـزاـ بـائـداـ..

- سنعيد المدن التي سلبها منا السراسنة الوثنيون، سنوقف زحفهم البربرى، وسنطردهم من إيطاليا وأوربا كلها. رؤوس قادتهم ستصبح زينة لأبواب منازلنا، وسنصنع من عظامهم جبالاً تشهد على انتقامنا.

تزامن جملته الأخيرة مع قبضته التي ضربت الطاولة بعنفٍ، وهو يتابع:

- فلنترك خلافاتنا ونتوحد خلف الإمبراطور..

سرت همماتٌ بين الصدوقين.. البعض يرفض فكرة التوحد خلف الإمبراطور الأرثوذكسي، والبعض يتمنى أن يتوحد الجميع تحت راية النسر ذي الرأسين، فهو الأقوى في الوقت الحالي؛ وإن كان مبنياً بهزائم متتاليةٍ في البحر والبر إلا أنه ما زال قوياً، وما زالت القسطنطينية حصينة. تحولت بعض الهممات إلى صيحات استهجان، لم يبال بها الجنرال وهو يُكمل:

- فلننس خلافاتنا، ونتوحد من أجل دفع الخطر عن أراضينا. نحن مسيحيون مخلصون وإن اختلفت مذاهبنا. إن أردتم دحر الغزاة عن أراضيكم، فلتتضمموا لنا، وتدينوا بالولاء لبيزنطة وإمبراطورها.

أنهى حديثه المقتنص عائداً إلى كرسيه، راماً بطرف عينه الكاردينال، الذي حدّثه ساخراً:

- ما هذا تكون القيادة!

احتقن وجه الجنرال.. فيما نهض الكاردينال رافعاً صولجانه الذهبي، والذي ما إن رأاه الجميع حتى صمتوا للصلب. سار ببطءٍ، يجر عباءته البيضاء خلفه، وسرى صوته الهادئ بقلوبهم:

- لا يمكننا أن ننام بسلام وأطفالنا يُباعون بأسواق العبيد. ربِّي تنازعنا وتفرقنا.. والعالم ممتلى بالضجيج، فلا تكونوا مثل الدواب، يركل وينطح ببعضنا البعض.. هل أنتم غاضبون من أحدٍ ما؟

لم يجرؤ أحدٌ على الرد، فأكمل:

- إن كان علينا أن نغضب، فلنغضب من أنفسنا جميعاً.. علينا أن نجيب على عدة أسئلة قبل هذا.. لماذا يُغير علينا البرابرية؟ لماذا تهاجمنا قوات السراسنة؟ لماذا وقع الدمار والنهب؟ لقد أكلت جوارح السماء أجساد البشر.. هدمت الكنائس وصار الوثنيون يحكمون مشارق الأرض ومغاربها.. أتعلمون لماذا؟ لأننا غارقون في الآثام، وأخذنا على عاتقنا محاربة بعضنا البعض بحثاً عن ألقاب وضياعات وقصور. ولهذا يجول السراسنة الكارهون لله في أراضينا.. يدمرون الحقول، وينهبون المدن، ويضرمون النيران في القرى والأديرة.. لقد انهزمت قوات بيزنطة في الشام وفي مصر وإفريقية.. وسرعان ما دخل السراسنة إلى فاندولسيا.. لم يوفهم سوى الرب في بواتييه.. منح النصر للقديس شارل مارتل، الذي تصدى لتوغلهم نحو بلادنا. المسيح يفهم صراعنا من أجل الحياة.. يقدر ذلك، ويعيننا المعاشرة لنعود للكنيسة.. لنخضع جميعاً ونحني رؤوسنا للصلب.. نحن أخوة قبل الخلاف.. نحن أبناء رب، مهما كانت التضحيات.. ولنعم السلام علينا، يجب أن نعيid الأمان لبلادنا.. ولن يأتي الأمان مع زخم الآثام والضرائب الباهظة على الفقراء. لن تشعروا بالأمن، ما دام العدل غائباً في مدنكم. طبقوا العدل، وارفعوا أمر الرب فوق رؤوسكم التي يجب أن تتحنى خاضعة ذليلة. لنوحد جهودنا لمجابهة الكفار، علينا أن نزيل البغض من قلوبنا جميعاً.. ولنعم الخير والسلام، يجب أن نفعل ما نعوض به هؤلاء اليتامي والجوعى..

أثارت كلماته عواطف النبلاء، بينما استهان بها الطريق الذي تتم:

- لم يأت بجديدٍ عما قلته..

وهمس الدوق إديكلي:

- رجال الدين لهم تأثيرُ السحر يا صديقي.. كلماتهم أقوى من السيوف.

دار الكاردينال في الوجوه المنفعلة بكلماته مستطرداً بنبرة قويةٍ:

- منذ فترة ليست بعيدة سقطت مدن كابوا.. كونزا.. ليبوريا وأفيليانتو. بيد كفار باري. لا تتوقف غاراتهم على تخوم بنفينتو. إن لم نوقف أميرهم الدموي ستسقط روما بأيديهم. لا تستحيون أن تدفع روما الجزية إلى أغالبة صقلية؟!.. نحن مُحاطون بالأعداء من كل جانب، وعلينا أن نصل إلى حل ينهي صراعاتنا قبل فوات الأوان.. اجعلوا كلمات الرب فوق رؤوسكم..

برقت عيناه ورفع صولجانه عالياً، وصاح بصوتٍ هادرٍ:

- ولتعلموا أنني ما جئت لأقى سلاماً.. لا بل سيفاً.

ساعاتٌ قضتها النبلاء في طرح وجهات نظرهم. الخوف من سيطرة البيزنطيين على مقاليد الأمور في إيطاليا هو ما يقلق الكاردينال، كما يقلق كل نبيلٍ على هذه الأرض؛ فالسيد الجديد سيكون مجرد جامع ضرائب آخر، والكافوليكيَّة ستكون مهددة، والصراع بين البيزنطيين والكارولنجيين - الفرنجة - على وشك البدء أيضاً، فأحفاد شارلمان قسموا إمبراطوريته المقدسة فيما بينهم، وعدوهم يملك البحر المتوسط، حتى صار بحيرة عربية تجوبها أساطيل العباسيين شرقاً، ويسطير على طرق تجارتها الأغالبة أصحاب إفريقية وصقلية، والغرب وبحر الظلمات ملكية خاصة للأمويين بالأندلس..

وأخيراً، جاء اقتراح الدوق ماركيزيو كحلٍ مؤقتٍ لتوقيف تمدد الغزاة. فكل قريةٍ ومدينةٍ عليها تشکيل فرق مقاومة، تهاجم الأتحاء التابعة والمتحالفية مع السراستنة، على أن يتواصل النباء مع من يثقون بهم من سكان المناطق الجنوبية في كالابريا وكمبانيا، ويُكونون جماعاتٍ سريةٍ تُثْرِي الفتنة وتُؤْرِق مضاجع جامعيِّي الجزية، ويحصل النبلاء على حصتهم من الغائم والسيبي كمكافأة.

استفتى الدوق على اقتراحه. حين جاء الدور على لورينزو، كان زائغ العينين يتعرق، فقد تحدث منذ قليل أحد نبلاء فوجيا عن معركة قامت بين مجموعةٍ من رجاله وفرقةٍ عربيةٍ في محيط دوقية بنفينتو منذ أيام. أتى على البابا والحضور، ثم صمت برهةٍ وأخذ نفساً عميقاً:

- حسناً.. قد لا أملك رؤية أو حلًّا للأمور السياسية بقدر فخامتكم، ولكنني أتفق مع ما قاله الدوق ماركيزيو، وسأبذل ما في وسعي لتجهيز قوةٍ تستطيع صدَّ هجمات البرابرة الكفار.

أنهى كلماته المتيسسة وهو بالجلوس، حين أتى صوتُ أحد النبلاء ساخراً:

- لم تعرف نفسك بالشكل الصحيح أيها النبيل.

حرّك لوريزو رأسه مبتسمًا في محاولةٍ لإخفاء توتره:

- عذرًا.. أنا النبيل لوريزو دي سان فيلي.. تابع ل بلاط دوقية بنفينتو المعظمة.

أشار إليه سيده الدوق إديلكي بالجلوس، وكان ممتعضًا مما فعله نبيل فوجيا، فقد وضعه في مأزق أمام الجميع، إذ إنه لم يخبره بأمر الفرقة العربية قبل الاجتماع، متعمدًا أن يمرغ أنفه في عقر داره. كيف سيبرر لكاردينال هذا الأمر؟.. كان يبحث عن مخرج لأزمته، وعيناه لا تفارقان نبيل فوجيا ذا الابتسامة الساخرة، حتى جاء المساء وانتهى الاجتماع.

أنارت المشاعل جنبات الحديقة وممرات القصر. الستائر الحمراء الجديدة زينت الأروقة ومدخل القاعة الكبيرة، حيث حفل العشاء للنبلاء. ضاع شدو القيثارات وسط الصخب، وتمايلت مجموعة من الحسناوات في دلال في ملابس تكشف أكثر مما تُخفي، يتداولن الضحكات مع أصحاب الموائد العاملة بصنوفٍ شتى من الطعام، وكؤوس كلما فرغت ملئت من أباريق تحملها جوار رقائق كسا وجوههن الفج. وسرعان ما لعب الخمر برؤوس النبلاء، فمنهم من يتأطط فتاة باحثًا عن إحدى الزوايا الخالية، وأخر يحتضن إحداهن، بينما تطعمه أخرى حباتٍ من عنب.

- الكل خارقٌ في المذلات والشهوات.

نطق بها الكاردينال أدريان، فيما جلس في غرفةٍ أعدت خصيصًا له، كثرت فيها شموع كافورية ذات رائحة زكية، وعلق على جانبها صليب ضخم يتوسطه مجسم لجسد يسوع، الذي ضحي من أجل خطيئة البشر، وهو هم أولاء يعودون مرة أخرى للخطايا. كان يجلس على ركبتيه مطاطأً الرأس، وخلفه يقف الدوق إديلكي، وإلى جانبه لوريزو، الذي أتى به الدوق ليفصح عما يُخفيه، على أن ينال الغفران. تلاشى قلقه بصلواتٍ سريعةٍ، تتمم بها قبل أن يقدمه الدوق لكاردينال:

- هذا النبيل لوريزو من قرية سان فيلي.. إنه مخلصٌ ودافعٌ جيدٌ لاحتياجات الكنيسة.. هباته لا تتوقف، وصلواتٍ أهل قريته لا تنتهي.

انحنى لوريزو مقبلًاً يد الكاردينال، الذي تجاوزه بنظرٍ متحفصةٍ، والدوق يُكمل:

- لقد أخبرني منذ قليلٍ أنه أمسك بأسيرٍ عربي قرب قريته.. وأنه لم يشاً أن يُفصح بذلك الأمر أمام النبلاء..

كان لوريزو قد قرر بعد انتهاء الاجتماع أن يُخبر سيده بالأمر، فروى على مسامعه عن تصديه لمجموعةٍ من فرسان السراستنة، قد يكونون فروا من المعركة التي ذكرها النبيل، وكيف أنه ببسالةٍ استطاع أن يأسر أحدهم. طمح إلى إرضاء الدوق، الذي يبحث بدوره عن سبيل لإرضاء الكاردينال.. حلم أن يصبح بطلاً وأن يمنح وسامًا، أو على الأقل أن يقطع أراضي جديدة، ولربما وجد نفسه دوقةً ويمتحن من الأموال ما يستطيع به بناء حصنٍ كبيرٍ..

بجملٍ مقتضبةٍ متواترةٍ قص على مسامع الكاردينال قصةً اختلقها، محاولاً أن يبدو حقيقيًّا في وصف إقامته وبطولته وهزيمته لقوات السراستنة. أنصت الكاردينال إليه باهتمامٍ ثم منحه بعض الصلوات والتبريكات، قبل أن يطرق الباب، فيتجه الدوق فاتحًا إيهاد بهدوءٍ. تغيرتْ ملامح وجهه مع الخبر

الاتي، ثم أغلق الباب برفق، وعاد إلى حيث يجلس الكاردينال أدريان، الذي أوما برأسه في إشارة ليفصح الدوق بما في سريرته، فأخبره في وجل:

- سيدِي، لقد مضى القديس نيقولا إلى الملوك.

جثم الصمت على صدورهم.. وتوقف صوت العزف خارج الغرفة. حاول لورينزو إظهار الأسى لموت البابا، فيما كان الدوق ينتظر رد فعل الكاردينال، الذي كانت عيناه معلقتين بالصلب المعلق على الحائط، وجسد المسيح الذي يعكس ضوء شموع الغرفة. برهة من صمت، نطق بعدها موجهاً حديثه إلى لورينزو:

- اذهب وانت لي بالأسير..

قالها وهو ينهض مشيراً للدوق إديلكي متابعاً: امنحه فرقه من فرسانك.. ولتحمل الأسير إلى روما.

تناول صولجانه الذهبي، فيما أسرع لورينزو لمساعدته في ارتداء عبادته السوداء، أتبعها بلف حزام أحمر قان حول وسطه. كان عقل الكاردينال يطوي المكان والزمان إلى روما، حيث سيتجمع الكرادلة لاختيار البابا الجديد.

تقلبت بالفراش، وأزاحت خصلات شعرها، وهي تسترجع حديث كاراس عن صقلية. لم يخطر ببالها يوماً أن تجالس عربياً وتتحدث معه ببعض كلماتٍ من لغته.. وأن ترى صلاته وتبعده، من خلال شق بباب الغرفة، بعد أن ساعده عمها في الاغتسال الذي أصر عليه. المسلمين يتظهرون بالماء دوماً قبل صلاتهم، كما فهمت. لقد تحسن كثيراً واسترد كثيراً من عافيتها، ولكنه ما زال يتحاشى النظر إليها، ويحول بعينيه بعيداً ينشغل بتفحص أي شيء، أو يخفض بصره للأرض، رغم أنه يعاملها باطف. التفت إلى المنضدة بجوارها، وأخذت مرأتها الصغيرة تنظر فيها إلى وجهها ولم تزل على تساوئها حتى خلدت للنوم.

في منزل كاراس، كان سودان يقيم ليله. لقد استعاد عقله الوعي جيداً، وحدد اتجاه القبلة عن طريق النجوم في الليلة الماضية. بحار هو قبل أن يكون فارساً، قضى جزءاً من حياته في بالريمو حيث الميناء ودار صناعة السفن. أنهى صلاته، ثم أوى إلى الفراش ببحر في ذاكرته. وجوه عديدة مررت به، قبل أن يتوقف كثيراً أمام وجه أبيه. كان مبتسماً كما عهده. قتل أبوه مدافعاً عن فاتح باري، الأمير خلفون، فاستقبل الأمير ابن الشهيد ومنحه ثقته. كان يرى فيه الكثير من صفات أبيه الراحل، فأوكل لأبي المغوار الإفريقي رعايته وتعليمه كافة أمور الحرب والحكم. كان يتمتع بالقدر الكافي من النبوغ لتعلم الحكمة من القاضي، الذي كثيراً ما كان يُعاقبه، فيتقبل الأمر ومشقته، فلا يدخل القاضي عليه بالثناء. ترب بالركض على شاطئ باري، والسباحة في الخليج المتجمد، وفي دروس الفروسية والمبارزة تفوق على أقرانه. وحين أتم حفظ القرآن، منح مهرة من الأمير مفرق بن سلام، أسمها الهجان لبياضها الشديد. كانت فرساً رشيقة، كبرت على يديه، ومنحها اهتمامه ورعايته. فهم بعد ذلك أن هذه الهدية كانت الطريق لهدية أخرى، فكما يقول أبو المغوار إن النساء تحتاج من يروضهن كما تروّض الخيل؛ فكانت الهدية سليمة ابنة القاضي الصغرى، زوجة صالحة، ملأت حياته بهجة. كان رقيقاً معها، وكانت تجله وتحبه، وأضاءت حياته بطفل كبد النعام، ولكن سرعان ما انطفأ الضوء.

كان كلب سباستيان الحطاب يتنعم بقسطٍ من دفء شمس الظهيرة، حين ألمه العجوز كاراس حجرًا، جعله يقفز عن مدخل الحظيرة. كان قد زاجر على سودان يمنعه من الدخول، وربما أثاره صهييل الفرس بالداخل أشتمت صاحبها. أطلت ماريا من شبابكها تستطلع سبب الضوضاء، فرأتهما، فنزلت مسرعةً تبعهما إلى الحظيرة؛ ولكنها توقفت على عتبتها أمام مشهدٍ من أسطورة يتجسد أمام عينيها.. الفرس تصهل وتثبت لاستقبال صاحبها، وتقاوم رباطها لتركض نحوه. حث خطاه تجاهها، وأمسك بلجامها محضناً عنقها. كان باسم الشغر سعيدًا، بينما كانت زفراتها تقرن بصهييل خافت. انتصبت أذناها وراحت تضرب الأرض بقدميها الأماميتن كأنها ترقص.. كانوا عاشقين تلاؤياً بعد غياب.

- من جد لك الصفار يا جميلتي الجامحة؟

داعب خطم الفرس المبتهجة، موجهاً حدثه لمaries:

- شكرًا على اعتنائك بها.

توردت وجنتها خجلًا، وضاعت الحروف في طريقها لشفتيها الورديتين المرتعشتين. بدا ارتباكاً لها، فشغلت أصابعها المرتعشة بخصلات شعرها الكستائي تسوّيها. أضاف كاراس يريد أن يسرّها ويشكّر لها مجدها الكبير:

- إن الجميلات يعشقن كل جميل، وهكذا ماريا.

لم تكن تعتمد هذه الجرعة المضاعفة من الإطراء، فأحسست بحرارةٍ تغزوها، وتلعمت خجلًا.

- سأذهب لأرى أمي.. اسمحوا لي!

هرعت خارج الحظيرة، ووقفت تستند للجدار بكلتا يديها، عساها يحمل عنها بعض ما ألمَ بها من خطب. أغمضت عينيها وهي تذكر عينيه الواسعتين.. هوة من الغموض الآسر. إنه مهذبٌ، لم يلتهم تفاصيل جسدها كما يفعل غيره من أقران أخيها وحتى زوار والدها. بريق ابتسامته محا ذكرى نظرات الرجال المقززة لها. حاولت أن تأخذ شهيقاً ثم زفيراً بطيئين عساها تهداً قليلاً، ثم دارت حول الحظيرة، ونظرت من كوةٍ صغيرة إلى حيث ما زال سودان يُلاعب فرسه البيضاء. كان يمرر راحته على ظهرها برفق بينما يتحدث مع كاراس، والفرس تحرّك رأسها نحوه كلما ربت على عنقها. رقته في مداعبة الفرس غمرت قلبها بنسمة جديدةٍ عليها. لو هلةً، أحسست أنها تحسدتها، ولكن سرعان ما سخرت من نفسها، كيف لها أن تحسد حيواناً على رفق صاحبه!

أخذ كاراس رفيقه ليتجوّل في القرية. منحه كاراس بعض ملابسه.. ضيقه بعض الشيء، فوشّت بقوامه المشوق. كانا يسيران ببطء، هذا لشيخوخته، وذاك مغالباً جرحه. لم يكن سودان معتاداً السير بين العامة دون عمامته. منح الوجه البائسة التي تراقبه ابتسامة هادئة، قابلتها الأعين بذهول أن أحد السراسنة الوثنين يسير بينهم. توقف الأطفال عن اللعب، وألقوا ما في أيديهم من عصي وحجارة، ركضوا إلى أحضان أمهاهم، وسكن كل شيء. لقد سمع هؤلاء القرويون عن السراسنة قصصاً عديدة، ولكنهم لم يروهم، فمن ذهب من شباب القرية للحرب لم يعد. فقط كاراس وحده من عاد، ليقص على مسامعهم قصصاً مختلفة عما صدقوه من عظات الأب ليو، التي يوازرهما غياب من ذهبوا للحرب إلى غير رجعة.

تحفَز الناسُ حين توقف الرفيقان وسط الأغراض المبعثرة، حيث كان يلعب الأطفال. انحنى سودان ليلتقط دمية من الصوف الممحشو بالقش، ذكرته بحصانه الخشبي الصغير. تأمل الدمية المتتسخة، قبل أن يدور بعينه حتى توقف عند طفلة صغيرة تختبئ خلف جدار أحد الأكواخ، تراقب دميتها في خوفٍ، تنتظر اللحظة التي سيقضم فيها الغول صديقتها الشعثاء. أمسك بالدمية ومد يده بها ناحيتها.. لم يلتهما، ولم تذهب هي له. كانت خائفة، يكاد يسمع صوت أنفاسها وصدرها يعلو ويهدأ وعينها تتررق في نصف وجهها البادي من خلف الجدار. رفع يده الأخرى قائلًا باللاتينية:

- الأميرات لا يخفن.. تعالى خذى لعبتك!

في ترددٍ خرجت الفتاة من مخبئها، ثم أسرعت بخطوها دون أن تُبالي بشهقات النسوة وارتياعهن، فهدفها يستحق أن تواجه الوحش. أشار إليها:

- أهذه العروس لك؟

أومأت الفتاة ذات العينين الواسعتين والشعر الأشقر المجدول خلف ظهرها، وأمام مرأى ومسمع من الجميع التقطت الدمية من يد سودان، الذي حيّاها برأسه في تمجيل لها قائلًا بود: تفضلي أيتها الأميرة..

ابتسمت في مرحٍ وهي تاحتضن دميتها، فبادلها الابتسام وسألتها: ما اسمك؟
أجبت الفتاة ببراءةٍ: كاثرينـا.

مع آخر حروف اسمها، ردت جنبات القرية صرَاخًا مدوياً، جعل سودان يلتفت إلى مصدر الصوت كما فعل الجميع. كانت امرأة شعثاء شاحبة الوجه رثة الملابس، تركض ناحيته ملائعة، وقد أفسح لها كاراس الطريق، ما إن رأتها الطفلة حتى صاحت: أمي.

جذبتها بقوّة، واحتضنتها وعيناها ترمقان سودان بمزيج من خوفٍ ومقٍ، وأخذت تتحفّصها بلهفةٍ..
- هل أنت بخير صغيرتي؟

ضحكَت الصغيرة وهي تشير ناحية سودان هامسةً:

- لقد قال إني أميرة يا أمي..

أدانت المرأة وجهها، لترمي سودان بنظرةٍ سريعةٍ، قبل أن تترك الساحة وتمضي حاملةً طفلتها. ربَّت كاراس على ظهر سودان، الذي كان لا يزال مقرفصاً في مكانه:
- هيا بنا؛ كفاك اليوم هذا الجهد، فما زال جرحك لم يلتئم.

دار كلب الحطاب عدة مراتٍ حول بيت كاراس، تجذبه رائحة الشواء المنبعثة داخل المنزل. تصاعدت الأبخرة من قدر الطعام المعلق بموقدٍ حجري، وجلس الطبيب قرب النافذة يطالع بعض الرقع الجلدية،

فيما كانت ماريا تعد لحم الأوز المشوي على طريقة سودان، الذي أصر على أن يُساعدها وينح للطعام مذاقاً جديداً. ذبح الأوزة حسب شريعته، فسأل دمها يُخلي لحمها من الضرر، ثم قام بتنظيفها وطهوها بنفسه. لم تكن تتوقع أن يكون طبخاً ماهراً، فالرجال لا يطهون إلا مضطرين، وقد لا يطهون طوال حياتهم. أما سودان، فقد أضاف قليلاً من التوابل والريحان لشرائح اللحم الأبيض مع زيت الزيتون، وقام بتقليلها على صفيحة الشواء، مما جعل البيت يضج بالرائحة الشهية. إنه مختلف عن بقية الرجال، وابتسامته لا تفارق وجهه وصوته هادئ رغم حزمه الواضح، وينثر في المحيط بهجة لا تعرف أسبابها.

- ماريا!

انتبهت لاسمها كأنها أول مرة تسمعه. التفتت إليه، فتلاقت عيناها بعينين كأنهما هوة لا قرار لها، جميلتين، سوادهما نقي عصف بكيانها.

- يجب ألا تتركي الحساء حتى يغلي.

انتسلتها جملته من بئر عينيه، ووجد الخجل في وجنتيها مرتعًا، فالتفتت ترفع قدر المرق المكتظ بقطع الخضار عن النار، وأخذته إلى الطاولة الجانبية في سرعة، لتحاول إخفاء ما حل بها. كان يوليها ظهره، منشغلًا بنقل قطع اللحم إلى طبق كبير، فتمتنت ألا يكون قد شعر بما حل بها، من فوضى عمّت رأسها، وأسئلة تطرح وعقل يبحث عن أجاباتٍ. سأله باللاتينية:

- أتطبخ مع زوجتك في منزلك؟

توقف سودان عن تقطيع ثمرة اللفت في يده، وتوترت أصابعه على السكين، وشعر بغصةٍ تسد مجرى الهواء في حلقه الذي جف، فعقد لسانه. أحسّ أنه لم يكن لها أن تسأل عن مثل تلك الأمور، وكادت أن تعذر، لكن جاء صوته العميق يُخبرها: ماتت زوجتي منذ زمنٍ بعيدٍ.

القى جملته، وسكب دلو الماء مُخدماً النار. لحظاتٌ مرّت قبل أن يلتفت إلى ماريا، حاملاً طبعيَّ الأوز المشوي، والتقت عيناهما مرةً أخرى. احتوته عيناهما الخضراء وان كمروج كالابيرا. لم تترفق به، بل جذبته إلى وديان خضراء شاسعة يقفان وحدهما بها. انتبه لصوتها عذبًا، يمنحه اعتذارًا رقيقًا عن سؤالها الذي كان قد نسي تفاصيله. حاولت الهرب مما ألمَّ بها من رفةٍ، وبصوٍّت مرتعشٍ لا يكاد يُسمع سأله:

- ألم نأكل؟

أنقذه صوت كاراس يهتف: قادمون. حث الخطى نحو المائدة، بينما قلب كاراس نظراته بينهما، دون تعليق. حملت ماريا الخبز وطبق الحساء، واتجهت إلى حيث يجلسان. شابت أصابع ماريا مع عمها، الذي مدد يده بدوره ناحية سودان، دار بعينيه في وجهيهما لا يفهم ما يُريدان، فباغتته ماريا تُلامس راحته الخشنة بآناملها الرقيقة، فارتجمف وكاد أن يسحب يده. أغمضت عينيها وهي تشعر بر جفته فتزايد ضربات قلبها، وتحاول التركيز فيما تتلو:

- باركنا يا رب، وبارك هذا الطعام الذي نتناوله، من جودك.. وارزق الجميع والفقير.. آمين.

وجد نفسه يردد معهما: آمين، بينما أفلتت ماريا يده وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة رضا هادئة،

لم تفارق مخيلته لأيام. مضوا يأكلون الطعام وقد حل على مجلسهم الصفاء.. كاراس يأكل بنهم واستمتع، وهي تخنس النظرات لسودان، وسودان يتظاهر بانشغاله بالطعام، يحاول مقاومة الاعتراف بالنشوة التي تركتها في راحته يده، ويلوم نفسه على نظرته لها، راحما ذاته من التأنيب بأنها كانت الأولى له، ولذا عليه أن يتحاشى الثانية.

عادت ماريا لمنزلها وصعدت إلى غرفتها غير مبالية بتقريع أمها. لن تُعكر صفو خيالها بشجار مسائي حول إطعام الدجاجات. بدت ملابسها، وما زال صوت أنها يأتيها من الخارج، تدب حظها في أولادها، فالبنت لا تساعدها في أعمال المنزل، وقد قضت النهار بأكمله في منزل عمها، أما إليساندرو فلا يكاد تراه في البيت، وإن عاد سيلقي بجسده في أقرب مكان للنوم. أخذت ماريا تقلب الحصان الخشبي في يدها، وقررت أن تُعيده لصاحبها في الصباح. هذه الليلة سيقوى معها، لتقص عليه حكاية صاحبه، وكيف خفق قلبه بقوه حين لامست يده، وسرى الدفء إلى روحها من يده الغليظة. ابتسمت معترفة أنها كانت مشاغبة بأكثر من عادتها كثيراً، فلم تمنحه فرصة للتراجع حين قبضت على أصابعه عامدةً. حدثت عقلها ضاحكةً أن ما فعلته ليس سوى صلاة الطعام، ولهذا أمسكت يده، فليس عليه تأنيبها.

أما سودان، فقد ظل بعد صلاة أطال في ختامها، يلوم نفسه على ما فعل خلال اليوم.. نظراته التي اختلسها، وملامستها ليده. حارت نفسه بين اللوم وبين سريان جمالها إلى روحه مسترجعاً خضراء عينيها وابتسمة الرضا التي توجّت مشهدًا بعد أن تركت يده. جذب نفسه من التفكير فيها بالتفكير في الواقع حقيقته كأمير فارس، عليه أن يرحل سريعاً عن تلك القرية ومكث في حيرته حتى داهمه النوم.

صُمت أذنا ماريا عن شجار صباحي معتادٍ بين إليساندرو نصف النائم وأمه، وترك عقلها يشرد في مكان آخر، حيث لامست يدها ليلة أمس بيته كاراس ضيفهم الغريب المثير الفضول، هل كل السراسنة مثله، أم هو حالة فريدة؟

عكست صفحة البحيرة وجه شمس الظهيرة الخالية من الدفء، واحتللت رزقات العصافير بهديل يمامات تنقلن بين أغصان غابة الصنوبر، مع خرير شلال صغير يمنح البحيرة والمكان حياة. رغم برودة المياه الداكنة، فإن جسد سودان اجتاز مرحلة الألم. داعب البرد بشرته، فتدفقت الدماء الباردة في عروقه، فأغمض عينيه وترك جسده يطفو فوق المياه، التي حملته كقربان للسماء. أرخي لجام عقله الجامح، ليذهب إلى حيث كان يستلقى واضعاً رأسه في حجر أمه، يتبع بعينيه الصغيرتين أسراباً من طيرٍ تسبح في الأفق، ويسألهما ببراءة:

- هل ترى الطيور الله يا أمي؟

ابتسمت وهي تداعب خصلات شعره الفاحم:

- نعم يا سودان.. كل مخلوقات الله تراه وتسبحه وتحمد़ه.

قاطعها بسرعة:

- أنا أصلٍ وأسبح أيضًا.. وأنظر للسماء ولا أرى الله.

- يا بُني، إن كنت لا تراه فهو يراك، ويعلم ما في سرك وما تخفيه، إنه هنا وهنا..

أشارت إلى قلبه وعقله، وتركته في حيرةٍ لبرهٍ قبل أن تكمل:

- جائزه المؤمن أن يرى وجه الله في الجنة.. اسع لها!

اعتل جالسًا وهو ينظر في وجهها:

- هل تدخل الطيور الجنة؟

ضحكَت أمِه قبل أن تقول:

- نعم يا سودان.. الجنة بها طيور أجمل من طيور الدنيا.. تحلق فوق قصور من فضة على شواطئ رملها وحصاها من اللؤلؤ والزيرجد.. وأنهار عذبة....

قاطعها ببراءة وعيناه تزدادان اتساعًا:

- أريد أن أكون طيرًا في الجنة.

احتضنته بحنانٍ وفرحةٍ:

- لماذا يا طيري الصغير؟

- لأحلق في سماء الجنة.

"الأحلق في سماء الجنة" .. تتم بـها سودان وهو يفتح عينيه مطيلًا النظر في السماء. السحب كقطع ثلج صغيرة ترتحل في بطيء جنوبًا، ناحية باري.. تجدر به العودة، حتى وإن لم يتم شفاؤه، فوجوده في هذه القرية خطر، عليه العودة لحياته وأهله. حمل هم إخبار زوجة شعيب بما صار لزوجها.. الحرب لا ترحم المحبين. سبح عائداً للشاطئ، حاملاً حجر الذكريات على قلبه. ألم جره عاد مرة أخرى، حين أسرعت ذراعاه في اختراق الماء. أحس كان شيئاً يسحبه لأسفل، فصار يضرب الماء أكثر بذراعيه وقدمييه. يشعر بأن عليه أن يسبح إلى ما لا نهاية، وعيناه تلمحان السفينة المحترقة.. ت xor قواه.. يتوقف. لامست قدماه حصى البحيرة، فوقف متحسساً خطواته يُحاول ضبط أنفاسه، واستدار في بطيء ليمرق صفة البحيرة السوداء.. لا أثر لسفينة الفراق المشتعلة، ليست سوى ذكرى باسسة لا تنفك تطارده.

أنشد ظهره إلى سنديانة وحيدةٍ بين جيرانها من الصنوبر، تمد أطراف جذورها كثعابين ترتوي من مياه البركة. تفقد جره النظيف بفعل المياه الباردة. تحسس القطب البارزة برفق.. لو لم تأت به الهجان إلى هذه الألحاء، لقضى نحبه على ظهرها. لقد جيء به إلى هنا لشيءٍ ما، هكذا دومًا ترتيبات القدر. سيشكر الطبيب العجوز وابنة أخيه الحسناء ويرحل في صمتٍ، قبل أن تكتشف كذبته. لربما أرسل إليهما هدية بعد عودته لباري. أمسك عودًا جافاً وأخذ يبعث به في رمال الشاطئ، قبل أن يخط شيئاً، انتهى من رسمه، وتأمله لحظات قبل أن يردد هامسًا. ومع انتهاء حروفه، فاجأه صوتٌ من

خلفه:

- ماذا يعني ذلك النعش؟

كانت ماريا قد أتت متسللة عبر الأجام لترى ماذا يفعل. دفعها خجلها للتراجع، حين رأته يخرج من الماء عاري الصدر، لكن ثبتها فضولها بمكانها لتتعرف أكثر على ما يفعل. أحسست بتوتره ومحاولته إخفاء انفعال ملامحه وهو يُجيب:

لامپ، مفرد رسم..

اقتریت أكثر لتحقق من رسمته:

- إنها كلمة على ما يبدو.

- هذَا اسْمِي :

لسانه تحدث بالصدق بتلقائيةٍ لم يراجعها عقله.. أفسح يده لترى نقشه وهو يعلم أنها تتحدث العربية قليلاً، ولكن لا تقرأها. انحنت تتحسس بأصابعها مجري الحروف على الرمال:

- عبد الله.. أليس كذلك.

أو ماً مُوافِقاً. كانت عيناهَا تفيضان بالبهجة، وقفَت أمّاً مهْ تشير لاسمِه المنقوش بالرمل:

- هل تعلمني كيف أكتب اسمى أيضاً؟

رد فی تردد:

نعم.. لم لا؟

انحنى ليخط اسمها بحروفٍ واضحٍ. تابعته ببصريها، فيما كان ينطق كل حرفٍ يكتبه. شعرت بالحرارة تفوح قلبها كلما مرَّ لحرفٍ آخر. حاولت مغالبة فضولها، لكن لسانها انطلق بسؤالٍ من فيض أسئلةٍ تجري بدمائها منذ يوم رأته:

- عبد الله.. هل تُعاملون نساءكم هكذا؟

اعتدل عاقدا حاجييه:

- ۲ -

تطّلعت بوجهه:

- أقصد، لماذا تتحاشي النظر لي دوماً؟

ولَمْ سُودان وَجِهْ لِلْبَحِيرَةِ. ظَلَّ صَامِتًا لِيَرْهَةٍ قَلِيلَةً يَقُولُ:

- لقد أمرنا الله أن نغض بصرنا عما ليس لنا.

تأملت تفاصيل وجهه في صمت، ثم سأله:

- هل كل السراسنة مثالك؟

ضحك سودان حتى ظهرت نواجده. هذه المرة الأولى التي تراه يضحك فيها. قالت بصوت شابه القلق:

- هل قلت شيئاً خطأنا؟

لوح سودان بيده، بعد أن ذهبت عنه نوبة الضحك:

- عذرًا.. لم أقصد ذلك. ولكن الاسم الذي ذكرته يثير عندي حالة من الضحك، فكلما قابلنا مجموعةً من الناس يحكون لنا قصصاً مرعبة عن السراسنة، وحين يعرفون أننا المقصودون بالاسم يتعجبون من الأمر..

القى العصا بعيداً وهو يستطرد:

- ليس هناك شيء اسمه سراسنة، ولا يوجد قوم بهذا الاسم، لا نعرف من هم هؤلاء السراسنة. نطق بالكلمة الأخيرة وهو يرفع يديه في الهواء، في حركةٍ كالمي يُخيف بها الكبار أطفالهم. ضحكت من فعلته، فيما أكمل هو:

- ها أنا ذا أمامك.. هل لي أذنان كبيرتان وشعر أشعث يمتد بالحشرات؟ هل هناك لعبٌ يسيل من فمِ تزاحت فيه الآتيا وانبعثت منه روانح كريهة؟!

احست بالخجل من أسئلته. كانت تسير إلى جواره على شاطئ البحيرة، حين باعنته بسؤال آخر:

- إذن ماذا تسمون أنفسكم؟

- نحن المسلمين.. ولقد بعث فينانبي تَمَّ لنا مكارم الأخلاق، فسرنا على دربه ودرب أصحابه، نفتح البلدان المقهورة ونفسي السلام، والأهم أن نقيم العدل بين الناس.. ألم يحكِ لك عمك كاراس شيئاً؟

- لقد قص الكثير.. هل نساوكم جميلات؟

كانت كطفلة لا تكف عن السؤال، وقد وجدت متعتها في إجاباته. طال الحديث بينهما، وقص عليها كل ما تريد معرفته وأكثر. لم تشعر بالوقت في صحبته. قبضت أصابعها على الحصان الخشبي، لم تره إياه بعد. كانت تنتظر لحظة سانحة لتعيده له. غزلت أشعة الشمس خيوطاً من الضوء تخللت ظلال الغابة. كان يُحاول بكل السبل الحفاظ على المسافات بينهما، لكن لم يكن الشيطان بحاجة ليكون ثالثهما، فنفسه كانت تحثه على الاقتراب منها أكثر. يغض طرفه عنها، ولكن تجذبه كزهرة تفوح بعطرها الفريد، فيما يملأ هو الدنيا بطنين لا يتوقف. لم يكن يعلم أشيطان يراوده عنها أم عقله.. جمالها الهدائى بعث في قلبها نبضات مختلفة، وفضولها سيلتقي حتماً بجموحه. رغم جرأتها المختلفة عن بنات قومه، تزيينت بحياة جميل. اختلس النظارات لشعرها المبتسم، وأيقن بأن هناك قصة تُحاك بينهما، ولعل الهجان أتت به هنا لتشرق بدايتها.

جلست على صخرة كبيرة، ولم تلتف طرف ثوبها الأخضر، وأخذت تداعب المياه بأطراف أصابعها، فيما كان يرجم هو سطح البحيرة بسبعين حصوات:

- عبد الله، أهذا الحصان لك؟

قالتها وهي تفتح كفها لتكشفه لعينيه. تجلت السعادة على وجهه وفي نبرته..

- لقد ظننت أنني أضعه يوم إصابتي!

تبادل النظارات الباسلة، قبل أن تقول هي:

- لقد قلت لك من قبل إن أغراضك محفوظة بأمان.. أهو مجسم صغير لفرسك البيضاء؟ هل اسمها روما؟

- لا ليس اسمها روما.. بل الهجان.

ردت اسمها مراتٍ، تلعمت حتى خرج بالنطق الصحيح. لم ينتظر أسلناتها، أخبرها أن الهجان تعني شديدة البياض، وعن كلمة روما المنقوشة على الحصان، أخبرها أنه يتمنى زيارة المدينة. منحها إجابة تكفي لجعلها تتوقف عن طرح الأسئلة، وفي قراره نفسه كانت تتجسد له أسوار روما العالية بتلالها السبع تهيمن على فراغ الغابة، حيث يجلس برفقتها. كان ينوي أن يكون ذلك الحصان الخشبي لطفلي.. ولكن لا أولاد لديه ولا زوجة. مدت يدها به إليه، فرفع راحته أمامها:

- لا بأس، احتفظي به!

اتسعت عينا ماريا غير مصدقة. لم يهدأ أحد شيئاً من قبل سوى أبيها. قبضت على الدمية بسعادة بالغة، نهضت وقد اعتراها شعور غريب، خليط من الخجل والتوتر والبهجة:

- سأعود للمنزل الآن..

تركته مبتعدةً تضم كفها على هديته. كفراشة خرجت للتو من شرنقتها، راحت ماريا تتقاذف فرحة بين العشب النضر. لقد حظيت برفقته وحدهما، تحدثت معه كثيراً، حتى أوشك الشمس على الرحيل شاهدة على نقائهما. كانت عيناه تتبعانها رغم إرادته. أهداها الحصان الخشبي كعرفان بما قدمته له من رعاية، وقربياً سيرحل وينساها بسرعة، كما فوجئ بها تقتحم حياته، أو ربما هو من ألقى به القدر لقريتها، ليختبر إيمانه وقدرته على الصمود أمام جمالها.. جميلة هي كظبية في غابة خريفية، ولها رونق خاص كزهرة نبتت على سفح من جلمود صخر، زاحت أفكاره ووجدت سبيلاً إلى روحه، كجدول ماء بارد يشق صحراء جافة.

طارد كلب الطاب هرّا صغيراً، هرب منه وتسلق شجرة بالقرب من منزل كاراس. وصل الصغير إلى الأفرع المرتفعة، وجلس ينظر إلى من ينبع ويتقاذف بالأسفل غير مبال، وثب الكلب، وضرب بمخالبه جذع الشجرة وارتفع نباها مغناطاً، فترك العجوز شفرةً كان يهذب بها شاربه، وأطل من النافذة

غاضبًا، بعدها رأى شجرته قد تعرضت للأذى إثر مخالب الكلب، فصاح ملوحًا بيديه: اذهب بعيدًا أيها الغبي..

رماء الكلب بنظرة سريعةٍ وعاد لزمجرته، فيما كان فقط يقفز من أحد الفروع لسطح المنزل. دار الكلب حول نفسه، قبل أن يرفع ذيله ويتبع تحرك غريميه الذي يسير منتصراً على حافة السطح. فتح كاراس الباب صانحاً في الكلب، الذي ركض مبتعداً مع رؤيته. تفحص الشجرة وقد تملّكه بغضّ ذلك الكلب الذي لا جدوى منه، يستأسد فقط على الضعفاء ويختفي خلال الليل خوفاً من قطيع ذئاب يجوب الغابة. استدار عائداً، فوقعت عيناه على سودان قادماً من ناحية البحيرة، يتخطى سياج القرية ملقياً التحية على بعض المارة، لكن لم يرد أحدهم، فما زالت صدورهم تفيض بالتوjos والريبة منه. اقترب عاقداً حاجبيه مدقق النظر في وجه كاراس الذي تعجب من تعابير وجهه:

- ماذا هناك؟

ضحك وهو يشير لشاربه، مما جعله يتحسّه. جحظت عيناه، قبل أن ينفجر بالضحك ويسرع للداخل ليكمل حلق شاربه. تبعه سودان للداخل:

- ما الذي حدث لشاربك؟..

أمسك كاراس الشفرة ليعاود ما كان قد بدأه:

- الكلب اللعين..

قاطعه سودان مازحاً:

- أكله الكلب؟

رماء بنظرةٍ صارمةٍ قبل أن يقول:

- كيف كان الوقت قرب البحيرة؟ استمتعت؟

جلس سودان قرب المنضدة:

- نعم، المكان رائع..

شد قليلاً، قبل أن يُكمل:

- أظن أن علي الرحيل.

توقف كاراس عن حف ما تبقى من شاربه، واستدار متفحصاً إياه:

- ولكن لم يشف جرحك بعد.

اكتفى سودان بالصمت رداً. عم الصمت، فنهض متوجهًا حيث فراشه يأوي إليه، وعقله هناك على شاطئ البحيرة مع تلك الفاتنة الرومية. حاول إزاحتها عن مخيلته مراراً ولكن لا مفر. أغمض عينيه وراح يسترجع حديثهما. منذ وفاة زوجته لم يمس امرأة. تعجب الكثير من قادته ورجال الديوان

عندما أعتق رقاب ملوكات يمينه. منح وقته لإدارة شؤون إمارته، التي تتسع يوماً بعد يوم، يُحاول أن ينشر العدل ويزيل الظلم عن العباد. راوده سؤال حائر، أيبحث عن المجد في الأرض والسماء من أجل قضيته ودينه، أم من أجل نفسه؟ من أجل الانتقام لزوجته وطفله، أم ليخلد اسمه بحروفٍ من ذهب في كتب التاريخ، لتزورى قصص تحقيقه لنبوءة فتح رومية على يديه. تساءل كثيراً عن جدواي ما يفعله، إن لم يكن له ابن يحمل اسمه ويُكمل المسيرة.. خاض الكثير من الحروب، وحصل على غنائم لا حصر لها.. لم يكره أحداً على الدخول في الدين.. صفح عن قرى ومدن كاملة.. لم يعث في الأرض فساداً، فقط يحارب من يقف في طريق الخلاص.. ولكن شيئاً ما يبقى في نفسه يسأله سؤالاً غريزيّاً: ثم ماذا بعد؟!!

أمام منزلها أمسكت بحصانها الخشبي تجعله يركض على سياج الحديقة، وتحاول نسيان تعذيف أخيها الذي كاد أن يضر بها حين سمعها تتحدث مع أمها أن حواراً دار بينها والغريب عند البحيرة. لم يكن ينبغي أن تفعل هذا، هكذا حدثتها أمها، لكن برفق. أخوها يخاف عليها، ويحقق له ذلك، وقد فوضه أبوه ليكون وكيله على المنزل قبل القرية لحين عودته. لقد أنهت أمها الشجار ليغادر إليساندرو المنزل مغاضباً، ورأته يتجه للبحيرة وقد لحقت به فيولا، فلماذا يغضب أنها حدثت رجلاً؟ تركت متابعة أخيها، وابتسمت لمشهد النسوة يحلقون على أطفالهن كدجاجاتٍ يُجمعن للمبيت، حتى انسحبت الشمس خلف الجبل في رحلتها إلى المغيب. سيعم الظلام قريباً، وتأوي لفراشها حيث تجد متعتها في أمنياتِ ربما تتحققها يوماً. أنتها ضحكاتٍ من بين الأشجار، قبل أن تلمح فارسين يعبران سياج القرية. تحققت منها، كانا كازميرو وألبرتو صديقَي أخيها وحارسي أبيها الغائب. عقدت حاجبيها وهي تتبع سيرهما عبر طرقات القرية الخالية من المارة، وصوت سنابك الخيل فقط ما يردد الصدى. لماذا لم يأت أبوها معهما؟ نزلت عن سور المنزل حيث كانت تجلس، ونادت بصوٍّ عالٍ على أمها:

- أمي، لقد عاد أبي..

لم تنتظر إجابة أمها، وركضت عبر المنحدر متوجهةً نحو الأكواخ حيث يقف الفتىان، وما إن رآها كازميرو حتى صاح مبتسمًا:

- ماريا.. كيف حالك؟

تخطت جمعاً من الناس خرج لاستقبالهما وعيناها تفيضان بالتساؤلات والقلق: أين أبي؟

أجاب ألبرتو بلشفته سريعاً:

- لقد سبقناه إلى هنا كما أمرنا، فهو سيأتي مع فرقة من فرسان بنفينتو.

حاولت فهم ما قاله صاحب اللغة، ونقلت بصرها لказميرو، الذي حرك رأسه مكملاً لما قاله صديقه:

- أبلغنا أبوك أن نخبر إليساندرو أن ينقل الأسير. حتى وإن لم يفق بعد. من منزل عمك إلى حظيرتكم، وأن يبقى تحت الحراسة. أين إليساندرو؟

عقدت المواجهة لسان ماريا، بينما أعاد كازميرو سؤاله مرة أخرى: أين إليساندرو؟

- بالغابة قرب سفح الجبل.. ستجدانه هناك.

أرسلت الشابين إلى الجهة الأخرى، رغم علمها أن إلساندرو خرج للبحيرة، لتمنح عبد الله بعض الوقت للتفكير أو الهرب. انتظرت حتى اطمأنـت لانصراف الأعـين عنها، وأسرعت ترـكض إلى بـيت عمـها. الأـسـير.. فـرسـانـ منـ بنـفـيـنـتو.. حـراسـة.. بـأـنـفـاسـ مـتـلـاحـقـةـ وـعـيـنـيـنـ وـاسـعـتـيـنـ بـرـزـتـ أـمـامـ كـارـاسـ، وـبـصـوـتـ مـتـهـدـجـ خـرـجـ بـصـعـوبـةـ مـنـ بـيـنـ شـفـتـيـهاـ:

- إنـهـ قـادـمـونـ مـنـ أـجـلـهـ..

أشـارـتـ لـسـوـدانـ الذـيـ كانـ يـقـفـ عـلـىـ بـابـ غـرـفـتـهـ، يـنـصـتـ إـلـىـ حـدـيـثـهـاـ، بـيـنـماـ غـمـمـ كـارـاسـ:

- مـنـ؟

بنـبرـاتـ مـتـرـدـدـةـ جـاـوبـتـ:

- أـبـيـ، وـمـعـهـ فـرـسـانـ دـوـقـيـةـ بـنـفـيـنـتوـ.

تمضي السنون دون أن نشعر.. نبلغ من العمر عتيّاً، ولكن تبقى لنا أحلام مؤجلة، قليلون من يتمسكون بها. أسمى أحلام ذلك العجوز عريض المنكبين ذي الوجه النضر الذي لا تشوّبه تجاعيد، واللحية الكثة التي نالها الشيب، ورغم تجاوزه الخامسة والستين ما زال ثابتاً قوي البنيان، لم يفارقه أمل تحقّقها. يقف فوق برج القصبة متأملاً شروق الشمس، وقد غطت عينيه اليمني عصاية سوداء، وإلى جواره ثبتت راية خضراء، منحتها تiarات الهواء خفقاتٍ أحيتها. تابع ببصره عوستقاً مثابراً يُطارد بضعة نوارس اتخذت من جدار القلعة أعشاشاً لها، يُحاول إبعادها عن جحورها، فيما يتمنى لرفيقه الانقضاض على الفراخ الضعيفة. تُحلق بصيدها فوق صواري الفلك العتيقة، في خليج صغيرٍ تناشرت في جنباته قوارب صيد صغيرة، بينما تعود النوارس لأعشاشها تحصي صغارها، وقد نقصت واحداً كالعادة. أغمض عينيه، واستنشق الهواء البارد الآتي عبر الخليج الذي تحضنه مرفعاتٍ صخريةٍ تعلّلها منازل حجرية قديمة. فتح عينيه ببطء وهو يُطلق زفراً هادئاً. يختلف العالم كثيراً إنرأيناه بعينٍ واحدةٍ. كان يُحدث نفسه وعقله يسبّر أغوار الذكريات..

يوم فتح صقلية، كان قد أتم عقده الثاني. لم يصدق حينها أنه ضم للحملة. كانت عيناه تتبعان القاضي الفقيه أسد بن الفرات أينما ذهب، يريد أن يحظى بسمته ويرى كيف يتعامل مع العامة، فهو القاضي المجل، العالم والقائد، خير قدوة لشباب القironان، وفارس لا يُشق له غبار، كما سمع من الناس أنه التقى بالإمامين مالك بن أنس وأبي حنيفة..

تابع ارتقاء الشمس في الأفق، مبتسمًا لذكرى معركته الأولى، حين اشتد حصار الفاتحين على باليرمو، واستبسّل المدافعون عن المدينة أمام شجاعة جند المسلمين. ولكن الشجاعة وحدها لا تكفي، أصابه الرهاب جراء قرع السيوف، ارتجف وكاد أن يولي دبره، لكن التراجع والارتكاك سيمنحه موتاً مخزيًا أمام الله. الحرب والحصار.. الخوف والانتصار.. الأسلاب والغائم.. لحظاتٍ عابرة في سنواتٍ متشابهةٍ، كافية ليُصيب قلبه جَد، حتى أصبح لا يخشى الموت، بل يبحث عنه، وصار يشتاق لشهادةٍ تمنّه الخلود في الجنان، لذا خرج مع الجيش إلى روما. حملتهم سفن الأغالبة إلى شاطئ أوستيا. هزموا القوات البابوية في معركة لم تطل، وسرعان ما فرضوا سيطرتهم على المدينة الساحلية، أو كما تُسمى ميناء روما. لم يوقفهم نهر التiber عند ذلك الحد، أعدوا سفناً صغيرةً كانت ملّاكاً للروم، وركبوا النهر متوجهين صوب أعلى البر الطويل إلى المدينة المقدسة.. روما مدينة التال السبعة. حملتهم السفن إلى محيطها وأحيائها الخارجية، راجلين وفرساناً يمتطون خيلًا رشيقة، اجتاحتوا طرقات المدينة الخارجية شاهرين سيفوفهم، تشير فيهم الأعمدة الشاهقة وأطلال مجد عريق رهبة قوية. معابد المدينة القديمة التي صمدت لسنواتٍ تحدى الزمان والغزارة، والساحات الواسعة المبلطة بالحجر وبقايا منحوتات الأباطرة، كل جزءٍ في المدينة يثبت أنها بقيت رغم كل شيء. سيطروا على كل الأجزاء خارج الجدار الأولياني، ذلك الجدار القديم بقدم روما، والذي شهد أمجادها وانكسارها. كان يومها ضمن فرقة الأمير أبو العباس بن الأغلب، المكلفة بحصار المدينة التي منعهم أسوارها من الدخول. اشتدت المعارك في محيط المدينة، وخاصة ثلاثة الفاتيكان، التي قاومت بعنفٍ، وتکاففت أهلها ورعبانها وصدوا الهجمات في بسالةٍ. كان يخوض قتالاً شرساً، حين باعثه نصلٌ حادٌ كاد أن يشطر وجهه لنصفين، ولكن أحد رفقاء دفعه بعيداً وقت مهاجمة، وقد هو إحدى عينيه. لم تتوقف المعارك إلا مع غروب الشمس، بعد أن ارتوت الطرقات بالدماء، وسقط مئات من رفقاء ومن جند الروم. ظن وقتها أنها النهاية، واستلقى على ضفاف التiber منعزلاً، وتعلم أن لا أحد ي肯فك دمعه إلا يداه. لكنه كان مخططاً، فصاحبـه الذي أنقذه من الموت كان دوماً إلى جواره، وقد مرّت أيام الحصار وسرعان ما شاهد بعينٍ واحدةٍ خروج البابا سيرجيوس الثاني طالباً المهاـنة. صارت المعاهدة على

دفع الجزية والتعايش بالحسنى، وانتهت الحملة. لم يكن عددهم بالكثير، ولكنهم نجحوا في حملتهم، التي كللت بالغذائم. كان يتمنى أن تفتح المدينة، وترفع فوقها الرایات، ويتردد الأذان في جنباتها؛ ولكن من الجيد أن تسفر عن بسط السيطرة وإضعاف الأماكن البابوية، التي دفعت الجزية وتصالحت عليها.

عاد لصقلية بعین واحدة وعصابة سوداء تُخفي جرحاً سيرافقه حتى القبر، ومجد يطارده أينما حل. مرت الأعوام، وسُئِمَ زخم الحياة في باريمو، لذا كانت باري مقصدته، حيث الرباط والخلوة. وجد روحه في تلك المدينة الساحلية الهدئة، بجوها البديع وخجازها الصافية، يرافقه الجندي الذي أنقذه من الموت تحت أسوار روما، ثم بعد عام أصبحا مساعدين للأمير خلفون البريري، حتى مات صديقه في ليلة باردةٍ ما زال يتذكر تفاصيلها المؤلمة. ومع تولي الأمير مفرق لزمام الأمور في المدينة، أصبح أبو المغوار قاضي المدينة، يُساعد الفقراء ويرفع قواعد البناء ويرسي العدل بين العامة وال خاصة.. يلقى على مسامع الرجال دروس العلم، وفي الصيف يكون جندياً ضمن قوات باري المغيرة على شعور الأعداء في الشمال. أحبه الجميع لزهده في الإمارة، فقد رفض توليتها بعد مقتل الأميرين خلفون ومفرق. كان يرى في الإمارة والقيادة شهوة تُودي بحياة أصحابهما، فالشهوات متاليات، ما إن تخل قلبك شهوة ما حتى تتبعها الأخرى، وينفرط عقد الإيمان، فيما أن تُحاول جمع شتاتك، أو تنزلق قدماك بفعل حبات العقد. لهذا فارق باريمو وقصور الأغالبة. زهد الجواري والمحظيات، واكتفى بزوجةٍ رحلت عن الدنيا منذ أمد بعيد. أما بناته الثلاث، فتزوجن، ورحلت الكبرى إلى مصر مع زوجها، والوسطى مع زوجها إلى بغداد، حاملتين رسالة الأمير مفرق بن سلام لل الخليفة المتوكلا. لم تعودا مع رد الرسالة، التي حملت نبأ تنصيب أمير باري ولياً بأمر من الخليفة. جاءت الرسالة بعد وفاة مفرق بشهور، وأصبح ولـي باري وأميرها هو زوج ابنته الصغرى، ابن صديقه الذي أنقذه تحت أسوار روما، وهو أيضاً الفتى الذي تولى رعايته وتربية، وكفله بأمر من الأمير خلفون، وعلمه أموراً شتى، حتى أصبح الشاب الصغير أمير باري الغائب.

- توقف هنا منذ انتهاء صلاة الفجر سيدى !

التفت العجوز لمحدثه الذي جذبه من بحر الذكريات:

- أحب ذلك المشهد.

قالها وهو يشير ناحية الخليج، فيما حك شرحبيل رأسه في عدم فهم، وأبو المغوار يستطرد:

- لا تكف التوارس عن وضع البيض.. ولا تكف الصقر عن التهام الفراخ ومداهنة الأعشاش.

كان يظهر على وجه الرجل قدر من البلاهة رغم وسامته وهيبته. أفرج أبو المغوار عن ابتسامةٍ وهو يربت على كتفه:

- لا تتعب عقلك في الفهم؛ سيأتي يوم ينضج فيه. وحتى ذلك اليوم لا تكن سوى صقر لا يرتضى إلا بأن يملك السماء.. حلق مرتفعاً وأخذ السقوط، فالسقوط هو الموت.

ترك شرحبيل، ونزل درجات السلالم الحجري الملتوي. فتح الباب، فغمرت أشعة الشمس القاعدة الكبيرة، ودخل فألقى التحية على الحراس وهو يعبر إلى الفناء.. سُت نخلات باسقات. جاءت بها سفن آتية من مصر، كانت قد مرت في طريقها بإقليم قوش لتحمل معها العسل والجبين وثمار الكرز، ثم

تعود أدراجها محملة بأخشاب الصنوبر والبلوط لدار السفن بالإسكندرية. تزين مدخل القصبة، أشرف على غرسها رغم اهتماماته الأخرى، فقد أوصى الأمير سُودان بجلبها إلى باري. ما كان ينبغي عليه أن يتركه يذهب لرحلة الاستطلاع هذه، لقد أتقل كاهله بحمل مسئولية الإمارة، وقد غاب أكثر من اللازم. لقد مضى شهرٌ على خروجه هو وشعيّب، الذي تنتظره زوجته بقلق، ولا تنفك تأتي للسؤال عنه، ويلمحها دوماً في الشرفة قبالة البحر تنتظر قدوم الغائب.. حاله يتذكر عودة ابن ليس من صلبه، أقلقه غيابه.

امتطى أبو المغوار بغلته خارجاً من بوابة الحصن، يشق طريقه بين عبارات التبجيل والترحيب، فاصداً المرفا حيث دار صناعة السفن. الهياكل الخشبية العملاقة تملأ المكان، بينما يُدْهَن بدن القوارب بالنفط الأسود، ويحمل النجارون قطع الأخشاب كقبيلة من نملٍ عاملٍ تستعد لفصول البيات. صدور عارية كُسيت بالعرق، ووجوه ملطخة بالطلاء استقبلته بترحابٍ واسع. جاء ليروي آخر تطويراتهم، النيران الإغريقية أو النيران السائلة. كما يسمونها. لقد قاموا بإضافة قاذفاتٍ صغيرةٍ في مقدمة سفنٍ صغيرة الحجم، ومنحوها أسرعه كبيرةً تمنحها سرعةً فائقةً، إلى جانب قدرةً تدميريةً هائلةً بفضل النيران. راقب تجربة لها في الخليج العربي، حيث راح القارب يرمي بنيرانه على أهدافٍ خشبيةٍ طافيةٍ، فاشتعلت وسط المياه الهدامة. أنهى جولته بالمرفا بمقابلة أمير البحر طحة السكندري، ربان إحدى السفن الحربية التي تتبع الخلافة العباسية، وتطفو بحر الروم بمرافقه سفن التجارة. سلمه رسالة من ابنته التي تقيم بمصر، ثم تناول معه بعض الأخبار عن مصر وواليها الجديد، يُدعى ابن طولون وهو رجل صالح عادل. رافقه بعد ذلك إلى حيث سوق المدينة، في جولةٍ يوميةٍ يقوم بها منذ تم تكليفه والياً سيره الله لإدارة شئون الرعية، يرعى مصالحهم ويرى ما يشغلهم ويكون قسطاس العدل بين الناس كافةً، مسلمين كانوا أو أهل كتاب. رائحة الأسماك والبهارات زكت الأنوف، فقد عج السوق بالباعة في تلك الساعة من الصباح، يفترشون الأرض والعربات، وتحتل لهجاتهم وأشكالهم، وتتنوع أزياؤهم كثمارهم وبضاعتهم، روم وعرب وبربر، لا يحمل أحدهم لآخر ضغينة، بل الكل يتشارك ابتسامة للصبح.

فتحت باري بعد حصار، استطاع فيه الأمير خلفون أن يدخل للمدينة عبر كهوف بحرية. لم تسفك الدماء، فقد استيقظت المدينة والعرب على أسوارها وفي شوارعها، فأبرمت معايدة أمان لأهليها المذكورون. سنوات مرت، ودخل الكثير منهم للدين الجديد، ومن بقي على دينه تمت بكافلة الحقوق، فالعدل يسري على الجميع هنا. قلة من الناس فقط من رحلوا للشمال، وظلوا يبغضون المسلمين ويرون أنهم غزاة، أتوا لنهب أراضيهم وسبى نسائهم، مثلهم كمثل البيزنطيين أو اللومبارديين. أمضى أبو المغوار وقته في تفحص الأسعار واختبار جودة البضائع بنفسه. كان محط اهتمام الناس، يتابع أمورهم ويقضي حوائجهم. رغم كونه عجوزاً بعين واحدةٍ، توقف أمام فتى صغير يجر جوala يحوي ثمار القرع، فحمله بدلاً عنه إلى حيث يريد الصغير. أنهى جولته اليومية في مدینته، هكذا يدعوها، فقد شاهد تطورها ووضع لبنات أساس كل شيء فيها منذ جاء إليها. في باري امترز عبق التاريخ بسحر الشرق، وحملت الأعمدة الرومانية العتيقة أقواساً دائرية مستحدثة، زينت بالنقوش والزخارف العربية، وتجملت وجوه المنازل بخلطٍ من حضارتين مختلفتين، وتشابكت في جنباتها فنون العمارة. لقد نفضت المدينة عنها غبار قرون من الفوضى والتبعية لكل غاز، وتزين الخليج بقوارب الصيد الصغيرة الملونة، وترaciت سفن الأسطول الحربي في المرفا الجديد قرب السفح الصخري. مهدت الطرق، وعمرت الأسواق تحت ظل مئذنة المسجد الجامع، التي تقف شامخة بلونها الأبيض، زين تاجها بقطع من الزليج والفسقساء الخضراء، تعلوها ثلاثة تفاحت ذهبية

تعكس أشعة الشمس، كانت تهيمن على المدينة ذات الأسوار القديمة الرمادية، والتي أضيفت لها أبراج حراسته دائريّة تبدو جديدة بألوان حجارتها الصفراء. تحولت باري ذات الثلاثة خلجان من قرية صيد صغيرة إلى مدينة كبيرة عامرة، جُلبت لها محاصيل القصب والزيتون وأنواع شتى من الغلال، وكيت مساحات كبيرة خارجها بأشجار البرتقال والليمون، وأحاطت بها مروج خضراء من كل جانب. صارت جنة، نبتت من رماد الإمبراطورية الرومانية الغربية، ومن مدينة صغيرة على الساحل الصخري، وأصبحت ملتقى الرحالة والتجار، وميناؤها قاعدة تحوي قطعاً بحرية متقدمة. لقد أرقت باري ماضي دوقيات وممالك إيطاليا، فالجنوب الإيطالي بأسره يخضع لها.

توجه أبو المغوار إلى ديوان المظالم، حيث يقضي وقته هناك يباشر أمور العامة، وينظر في قضاياهم. لم يأت أحد منذ أيام، لذا جمع الحرس والعاملين بالديوان وجلس معهم يتسامر في أمور الدين والدنيا، فينصلتون وينهلون من علمه وحكمته. وبينما هم على ذلك، دوى صوت طرقات، دخل بعدها إلى المجلس كهل نال الزمن منه، يتکن على عصاه ويسيء ببطء محني الظهر. نادى بعربيّة بلسان أعجمي:

- عذرًا، لم أجد الحاجب أو أحد الحراس بالباب، فدخلت.

كان ينظر إلى المجلس الذي جمع أطياف العمال حول القاضي أبي المغوار، يجلسون أرضاً بمن فيهم صاحب مقام الرفيع، الذي أذن له بالقدوم إلى المجلس. نهض أحد الشباب يساعده على الجلوس، فيما أفسح الحاضرون المكان ليجلس الكهل الرومي بينهم، ولا تزال الدهشة واضحة على وجهه الممتلى بالتجاعيد. بادره أبو المغوار:

- خيراً إن شاء الله.

دار العجوز ببصره في وجوه الحضور، وأخذ رأسه قليلاً، ففهم القاضي أن للعجز حاجة تأبى نفسه عرضها على الملا، فأشار لجماعته بالانصراف، فخرج الجميع، وهو الحاجب بقول شيء، إلا أن أبو المغوار أمره هو الآخر بالخروج. وما إن خلا المجلس وأغلق الباب، تحدث العجوز:

- سيد القاضي.. لي مظلمة وشكوى..

ابتسم أبو المغوار وهو يجذب رقعة من جلد الماعز وريشه ومحبرة:

- أفصح عن شكوكك يا أخي.. هات ما عندك!

اغرورقت عينا العجوز بالدموع:

- اسمي باولو وولدت في باري وعشت بها سنين عمري. كانت لي ابنة، تزوجت منبني جلتكم، وأصبحت على دينكم، ومنذ ذلك الحين لم أرها. هجرتني، وكما ترى فأنا عجوز لا أقوى على شيء، وليس هناك من يُساعدني ويقوم بخدمتي، وقد شارفت الرحلة على النهاية..

أجهش العجوز بالبكاء، وبعيد مرتعشة أخذ يمسح دموعاً بللت وجهه ولحيته:

- عذرًا سيد القاضي.. كيف لها أن تجحدني وقد أ匪ت عمري في تربيتها هي وإخواتها؟ رحلوا جميعاً إلى روما، ولم يبق سواها. لم أجبرها على البقاء على ديننا، وتركت لها حرية الاختيار، وكان

هذا جزائي.. أوليس دينكم يأمر بأن يُطِيعَ الولد أبويه وأن يرحمهما؟.. أو ليس رب محبة؟
حرك أبو المغوار رأسه في أسي:

-نعم، إن الله هو الرحيم الرؤوف، وقد أمر عباده أن يُحسنوا إلى والديهم، حتى وإن كانوا على غير
الملة. ما تفعله ابنتك خطأ، ولكن هكذا هم الصغار، نربّيهم لليوم الذي يرحلون فيه عنا. أين تسكن
ابنتك، وما اسم زوجها؟

- تسكن بحى الصيادين قرب الخليج الجنوبي.. وزوجها اسمه زيد الغافقى..

سَجَّلْ أَبُو الْمَغْوَارْ مَا أَمْلَاهُ إِيَاهُ الْعَجُوزُ، الَّذِي اسْتَطَرَدَ:

- أرجوك سيد القاضي، لا تؤذها.. فقط أريد رؤيتها وعناق أطفالها.. لا أريد شيئاً سوياً هذا..

ریت علی فخذ الکھل:

- لا تخف سيدى.. لقد قضيت مظلمتك ياذن الله..

رحل الكهل فرحاً، بعد أن طمأنه أبو المغوار، الذي ما إن خرج العجوز حتى صاح منادياً على الحاجب، الذي دخل للقاعة مسرعاً:

- امرک سیدی ..

مد أيو المغوار يده بلفافية ناولها إياته:

- اذهب بكتابي هذا لحي الصيادين، وسلمه لشخصٍ يُدعى زيد الغافقي، وقل له إنّي أريده على عجلٍ هو وزوجته.

أحنى الحاجب رأسه:

- سأ فعل سيدى ..

انهمك أيها المغوار في ترتيب بعض الرقع:

لماذا تقف هكذا؟

أصحاب الحاجب متل عثماً:

- سيدى.. الأميرة رملة زوجة القائد شعيب القرطبي بالباب، تستأذنك في الدخول.

عقد حاجیه:

- أدخلها على الفور، وامض إلى حيث أمرت.

* * * * *

دخلت رملة تتسرّب في ثوب أخضر مطرز، وحجاب أبيض يغطي وجهها، يتبعها طفلها المتجمّهم يصطّنُع الصرامة، يُحاوِل أنْ يَفْعُل ما علّمته أمّه. رحب بهما واضعاً يده على كتف الصغير، داعيَا إياها إلى الجلوس، ولكنها جاوبته باقتضابٍ:

- ما جئت لأجلس سيدِي القاضي الفقيه.. ولكن لقد طال غياب الأمير سُودان، وكما تعلم أن زوجي معه في تلك الرحلة.. فهل هناك خبر عن قدوّمهما قريباً؟

تجاهلها وتبادل النظارات مع الفتى قبل أن يُحدثه:

- أتدري يا عمر أنك تُتشبهُ بآباك؟

ابتسم الفتى، في حين كانت أمّه تستشيط غضباً لتجاهله إياها وهو يُتابع حديثه للفتى:

- ستكون مثله يوماً، بطلاً لا يُشق لك غبار. يوماً ما ستكون إلى جانبي في الحرب.. أتريد أن تبقى إلى جوار الفرسان الشجعان في ساحة الوعى؟

قطعت حديثه مع الفتى وقد حمل صوتها عصبيةً واضحةً:

- إنه لم يتجاوز الخامسة يا أبو المغوار.

لم تُجله، ولم تناشد بلقب القاضي. حاولت أن يجعل رأسها برأسه، وهو يتفهم قلقها على زوجها الغائب.. داعب رأس الفتى وهو ينظر تجاهها:

- لا تكوني سبباً في تثبيط زوجك وأولادك يا بنتي.. سيعود زوجك قريباً بإذن الله؛ فقط اصبري وصابرِي.. وعلمي أولادك أن أباهم ذهب ليردّع العدو ويطلع على أخبارهم.. يا أم عمر، أقدر قلقك وحبك لزوجك وأنفهم ذلك.

فارقَت دمعة عينيها وهي تقول بصوت متهدِجٍ:

- لقد سئمت الحرب والقلق عليه.. سئمت غيابه وانشغاله بأمور القتال.. كل ما أريده أن نعيش معاً ما تبقى من العمر نربي أطفالنا. لا أريد أن ننتقل كل يوم ببلا.. جدي وأبي تم نفيهما من الأندلس لإسكندرية، ومنها تم نفيهما مرة أخرى لجزيرة إقريطش.. لا أريد أن يحدث نفس الشيء لأولادِي.

وكَرَت كلماتها قلبِه. أشاحت بوجهها لتختفي دموعها المناسبة، أمسك بيد الطفل المرتاع لرؤيه أمّه تبكي، وقال لها:

- يا بنتي ارقني بنفسك.. زوجك في رعاية الله، وكل شيء مقدر وفي كتاب. لو كان زوجك بحاراً أو حتى حداً، هل ستتخافين عليه من البحر والنار؟ هل ستقولين له توقف عن ذلك العمل؟ إنه يقوم بعمله. يا ليت زوجتي حية تُرزق.

قهقه أبو المغوار قبل أن يُتابَع:

- كانت دوماً تتشاجر معِي كلما عُدت سليماً مُعافى.. كانت تُريد أن أُجرح دوماً، حتى تطيب جراحِي وتقوم برعايتها لتحصل على نصيبها من الثواب. أتدرين، طعامها كان سيئاً، لا تُجيد الطهو.. لذا كنتُ

أغيب دوماً عن المنزل.. أظن أنك أيضاً لا تجدين الطهو..

كانت تحب زوجها وتخشى عليه، وكان يقول دوماً إن لكل روح قريناً، ويناديهما دوماً قرينة الروح، يكملاً بعضهما بعضاً. لا لم يفر يوماً من طعامها، الذي تطهوه بنفسها، رغم كونها سليلة بيت الإمارة في إقريطش. استمعت لأبي المغوار ونصائحه، فوجدت في حديثه سبيلاً للبوح، وقد منحها بعض الوصفات لاستقبال زوجها عند عودته، وحذرها من أن انهيارها أمام طفلتها سيشكل عقبة في حياتهما دوماً. عليها أن تكون قوية، وأن تكون بمثابة الأب في غياب زوجها.

في خليج صخري صغير أسفل القصبة، خلعت رملة حجابها، وألقته على الصخور المبللة برذاذ موج ليلية ماضية، وخافت البحر لعل مياهه الصافية تمحو أثر قلق يسري بعروقها. لم تبال ببرودة الماء، كما لم يعنيها أن يبتل ثوبها الفاخر الفضفاض، التصق بجسدها قبل أن تدفع نفسها لتغوص بالماء، شعرها الأسود الطويل أخذ يتموج حولها، حورية بحر راحت تغوص للعمق، سباحة ماهره ترعرعت في جزيرة إقريطش. فتحت عينيها في الماء تراقب السمك الصغير حولها. تحب البحر منذ صغرها، كلما أحست بالضيق تلقي بجسدها إليه، لعله يغسل عنها الهم والحزن. طال الغياب وتحول انتظارها لخوف يحفر خنادقه بقلبه. لا يكفي صغيراتها عن السؤال، فتضمنتهما بأن والدهما سيعود قريباً، تأخذهما في جولة إلى الشاطئ كل يوم لعل اللهو والركض ينسيهما الغائب، لكنهما لا ينسيان. ويفجران المزيد من الهواجس بداخليها. يراودها ذلك الإحساس في الآونة الأخيرة.

جاءت معه إلى باري منذ زمن، وأراد أن يكون عوناً لصاحبها سودان الماوري، فهما صديقان مقربان منذ الصغر، كما أن العلاقات حيدة بين الإمارتين منذ نشأتهم، يكفلان بعضهما البعض. أخرجت رأسها من الماء، ورمت بقعة عند مدخل كهف صخري يختفي نصفه بالماء، ثم أخذت نفساً عميقاً وعيناها البُنيتان تخيلان لها وجوده حيث كان يجلس دوماً يُراقب سباحتها. كان يأتي بها إلى هذا الخليج دوماً، أخبرها أن من ذلك الكهف دخلت فرق المسلمين بقيادة الأمير خلفون. لم يكن يشغلها الحديث عن خلفون وكهفه، فقط كل ما يهمها أنها تقضي معه وقتاً رائعاً، بعيداً عن صخب الحياة. كانت تجد الأمان بين ذراعيه، والشوق في عينيه لا يفتر. تستيقظ في الصباح على لمساته لوجهها، قبل أن يهمس بأذنها أنها أجمل من رأى في حياته من النساء. سبحت عاندة للشاطئ الصخري، وكلام أبي المغوار يتتردد في ثنياً عقلها.. عليها أن تصبر، فالغائب دوماً له حجة.

توقفت الفرس أخيراً عن الركض. ضَبَحت وتلاحت أنفاسها، ونال التعب منها كما هو حال صاحبها. ترجل، وقد انتابتة نوبة من سعال حاد جعلته يجثو على ركبتيه ويتحسس جانبه، حيث جرحه الذي لم يتم الشفاء بعد. استلقى على العشب البارد، لعله يُطفئ حرارة جسده المرتفعة، ونظم أنفاسه وهو يُحدق بسماء امترجت فيها ألوان عجيبة، أحاطت بتجمع النجوم تشغ وتختفت وقد أنار ضوؤها وسط عتمة السماء. لم يشعر بــالهجان التي ألت بجسدها إلى جواره مطلقة خواراً خافتاً، وهو يعود بروحه إلى ماضٍ ليس ببعيدٍ، هناك في قرية سان فيلي، تلك الليلة التي جاءت فيها ماريا والهلع على قسمات وجهها، تخبرهما أن أباها قادم مع فرقة من الفرسان، وأن عليه الرحيل. في دقائق، كان الطبيب يضمد جرحه جيداً، بينما تسللت ماريا لمنزلها وأتت بملابسها وسيفه من غرفة أبيها، وبالفرس من الحظيرة. عيناه لم تفارق وجهها الحزين، ونظراتها تُخبره عن سؤالها: أحقا سترحل

فجأة كما جئت فجأة؟ هل سيبقى مجرد عابر سبيل نثر بذور الأمل في روحها، ورحل؟.. أهو فقط ممتن لما قدمته له خلال فترة مكوثه في ديارهم، أم أن ما بقلبه شيء آخر يؤثر أن ينكره ويفر منه؟ تفقد كاراس الوضع لطرق القرية الخاوية منهما فرصة لحدث مقتضب حمل أمل اللقاء مجدداً. قالت له إنه أنيق في ملابسة العربية، وأن اللون الأسود ذا الرسوم الدقيقة منحه مظهراً خاصاً، كما لم تره من قبل. ساعدته لوضع حزام سيفه على خصره، فمد يده يضبطه، فقبضت على يده برفق، فانتفض جسده واتسعت عيناه، وتناسى العالم من حوله، وهو يرى عينيها الدامعتين، حتى إنه لم يسمع كاراس وهو يدعوه للإسراع بالخروج. حدثه هاجس بعدم الذهاب وبالبقاء مهمما كانت العواقب.. حدثته نفسه بأن العذاب في حضورها حياة. جال ببصره في ظلام القرية، بينما مد كاراس يده بجعة صغيرة:

- سعدت بضيافتك في منزلي المتواضع يا أخي.. لقد وضعتك بعض الزاد وقربة ماء.

احتضنه كاراس وربت على ظهره، وهي تقف على مقربةٍ منها تكاد تصرخ وتقول له ألا تذهب، بينما كان يتتجنب النظر في عينيها الحزينتين:

- شكرًا لكما لما قدمتماه لي من رعايةٍ وكرم ضيافة.. لن أنسى جميلكم هذا.

امتطى ظهر الفرس برشاقة، وما إن استقر على صهوتها عقت الفرس عنقها وراح تحرك للأمام والخلف وتضرب الأرض بقوائمها في خفة، رقصة فرح بعودة صاحبها لصهوتها، فهمس في أذنها كي تهدأ ولا تفضح حاله لأعدائه، فانصاعت في ذكاء. لامت ماريا ناصيتها:

- سأشتاق لك يا جميلة.

لشمت جبين الفرس، أدارت أذنيها، وضربت بحافرها في توتر. كان إيساندرو ورفيقاه قادمين من ناحية الجبل، وصوت ضحكتهم يتعالى مع اقترابهم من المكان. اقتربت ماريا منه، رفعت يدها بوشاح قرمزي من حرير:

- قد تحتاجه.

قبض على أناملها برفق، قبل أن يسحب الوشاح، وأحس برجفتها، لكن لم يكن بد من أن يفلت أصابعها بسرعة، ويُضيّع الوشاح حول رقبته وعيناه لا تفارقانها وهي تهمس:

- هل ستعود مرة أخرى؟

لكز فرسه، التي انطلقت على الفور، ولم يُجب سؤال ماريا. أخذت الهجان تشق ظلام الغابة ببرق يضوی بين الأشجار. لم يمض كثيرٌ من الوقت، حتى سمع صوت سنابك الخيل من خلفه. المرة الأولى التي يعرف فيها كيف يكون مذاق الهرب. بداخله شخص آخر يحثه على البقاء على قيد الحياة.. يُجبره على الهرب.. شخص تعرّف عليه في ليالي الودة بمنزل كاراس. جذوع الأشجار تمر من حوله في سرعة، والبدر ينير دربه لكنه في نفس الوقت يكشفه، وببياض الهجان الناصع يضوی تحت نوره الفضي.

مرت ساعات، ولم يعد هناك صوتٌ وراءه. كان قد ابتعد بالقدر الكافي عن مطارديه، فخفف من سرعة فرسه، فتهادت فوق الحشائش الرطبة. نعيق بومة جعله يتلفت حوله.. لم يتطرّف من قبل، ولا

آمن بالخرافات يوماً، ولكنه أحسه نذيرًا بشيء قادم.. لعله الموت الذي لا ينفك يطارده في الوقت الذي لا يريده. هب الهواء بارداً، وصمتت البومة. كان القمر قد أفل، فصار للظلم ملك الغابة. سيئ هو شعور الطريدة يتربص بها صياد يتسلح بظلام الليل.. أوقف الفرس، وتحسس مقبض سيفه، مر هفأ السمع لصوت يبعث بالحشائش. أفرز عنه قفزة ظبية صغيرة راحت ترکض مبتعدة، ثم عاد فابتسم وقد خجل من نفسه، فهو من يراه الجميع دوماً شجاعاً مقداماً. تذكر كلمة قالها كاراس في إحدى شطحاته مع حكاياته الماضية، أن من لا يخاف يموت، وأن الخوف جزء من طبيعة البشر، وهو بالأصل بدلة الشجاعة. كان سودان في تلك اللحظة على قدرٍ من الشجاعة ليشتهي الحياة الدنيا.. أن يشتهي الحب.. أن يشتهي ماريا.

لم تصل من أجل رجل من قبل، فاستحال وجهها صورة مجسدة للحياة وهي تنهي دعاءها، لكنها ارتحت بعدها ألت حمل صدرها حيث ثق وتأمل. استلقت على الفراش ومسحت دموعها، وراحت تستعيد مشهد رحيله. لم يجب سؤالها وهو يبتعد.. هل سيعود مرة أخرى؟

وضع الدوق ماركيزيو ساقيه على المنضدة قبالة وجه صاحب المنزل، الذي خبت ابتسامته وحاول التشاغل بصبب كأس جديدة، وقبليه يعني أن يعود ابنه إلساندرو سريعاً. لم يتخيّل أن يرحل الجريح أثناء غيابه. أخبره أخوه أنه أصرّ على الرحيل، رغم أن جرحه لم يندمل بعد. شيء ما في حديث كراس أثار قلقه، ثم زاده حديث البرتو توجساً. أخبره البرتو أن إلساندرو يتبع الغريب جنوباً. قد تهدم الأحلام بفعل الأغبياء، ولكن ليس في وسعه سوى الانتظار، والصبر على تبادل الحديث مع الدوق المتغطرس.

- ألم تقل إنه جريح فقد الوعي؟

أوما لورينزو بضمِّيَّ:

- نعم، ولكن يبدو أنه أفاق وهرب قبل عودتنا..

لم يكن جوابه مقتغاً بعد حديثه طوال طريق العودة عن كيفية أسره لذلك الرجل. حاول أن يُغير مجرى الحديث مراراً، ففهم ماركيزيو محاولة مستضيفة، فأخذ يُشاغب بالحديث عن ماريا ولماذا لم تتزوج، حتى تبجح قائلًا:

- أهي ما زالت عذراء؟

رمقه لورينزو بنظرةٍ طويلةٍ، استشف منها الدوق الغضب، فاستطرد:

- لا أقصد إهانتك سيد لورينزو.. ولكن أن تبقى جميلة الجميلات كل هذا الوقت دون زواج.. إنه تقصير منك أنت.

تجرع لورينزو كأسه دفعةً واحدةً، قبل أن يتمتم:

- الأمر يتعلق بها.. رفضت الزواج من نبلاء كثراً.. ولن أجبرها على شيء.

اعتدل الدوق ضاحكاً:

- ومنذ متى ونحن نأخذ رأي النساء في تلك الأمور؟ يبدو أنك رقيق القلب مع النساء سيد لورينزو.

غطت القرية في نوم عميق، بينما تراكم السحاب فوقها ليمنحها عتمةً موحشةً، همسات الريح مع الأغصان فقط ما يسمع بين الحين والأخر، لكن لم يتوقف حديثهما عن النساء طوال الليل. خلد بعض الفرسان للنوم، بينما أحاط الآخرون بالمنزل، فقد كانت رحلتهم شاقة، قطعوا الطريق من بنفينتو إلى سان فيلي دون توقف. لم تغفل عين ماريا المترقبة لما سيحدث. كرر عليها عقلاً مزيجاً من التخيلات عن المستقبل، وتمنت أن يمر الوقت بسرعة، ولكنه لم يفعل، كأنه يتلذذ بقلقاها. لو كانت ساحرة، لربما علمت الغيب وما سيحدث في الغد. ظلت تطل من نافذتها بين الفينة والأخرى، لا ترى سوى الظلام وبضعة مشاعل بعيدة. فتحت باب غرفتها بحذر، ترقق النیام في غرفة الطعام، مبعثرین في كل

مكان. دلف أبوها منذ فترة وجيزة إلى غرفته، ثم سمعت آهات أنها المكتومة التي سرعان ما حمّدت. وحدها تودع الليل مع أرق لا يفارقها.

لم يكن كاراس أفضل حالاً من ابنه أخيه، فلم ينم هو الآخر، أخذ يتحرك في غرف المنزل ببرتابة، يفتقد رفيقه العربي، وينتظر اتهامه بالخيانة مع عودة إلساندرو حاملاً رأس الصيف. لربما مات ذلك الفتى ونجا الغريب. المنطق يقول إن فرصته أفضل من ذلك الصبي المدلل، لكن من يعلم كم من الرفاق صاحبهم إلساندرو. من يدرى، تمنى ذلك، موازراً أمنيته بعدم عودة ابن أخيه كل هذا الوقت، فلا بد أن العربي قد ابتعد كثيراً.

تهاdat شمسُ الصَّيْبَحَةِ فِي سَمَاءِ بَارِي الصَّافِيَةِ. رائحةُ الْبَحْرِ يَحْمِلُهَا الْهَوَاءُ بِمَسْحَةٍ مِنْ بَرْدٍ، وَالنَّوَارِسُ تَحْلِقُ بِالْأَفْقِ الْبَعِيدِ، وَالجَدْرَانُ الضَّخْمَةُ تَظَهَرُ كَشْرِيطٍ يَفْصِلُ الْأَرْضَ عَنْ سَمَاءِ تَلَامِسِهَا مِنْذَنَةٌ شَاهِقَةٌ. كُلَّمَا اقْتَرَبَ تَنْجُولِ التَّفَاصِيلِ أَكْثَرٌ.. الْأَطْلَالُ الرُّومَانِيَّةُ الْقَدِيمَةُ تَتَخَلُّ حَقْوَلًا خَضْرَاءَ، تَمْتَدُ إِلَى أَسْفَلِ الْأَسْوَارِ، تَخْتَرِقُهَا قَوْنَاتُ الرِّيِّ الَّتِي شَارَفَ بِنَفْسِهِ عَلَى شَقْهَا. النَّوَاعِيرُ تَعْزَرُ خَرِيرَأً يَمْنَحُ الْمَكَانَ حَيَاةً. تَهَادِي الْفَرَسُ بِبَطْءٍ بَعْدَمَا وَصَلَّتْ لِمَبْتَغَاهَا، كُلُّ شَيْءٍ كَمَا تَرَكَهُ مِنْذَ رَحْلَ، شَعْورَهُ بِبَهْجَةِ الْعُودَةِ امْتَزَجَ بِحَزْنٍ نَالَ مِنْ قَلْبِهِ، وَجَدَ فَجِيعَتِهِ فِي صَدِيقِهِ شَعِيبٍ وَاثْنَيْنِ مِنْ رَجَالِهِ.

توقفتْ فُؤُوسُ الْمَزَارِعِينَ عَنْ حَرَثِ الْأَرْضِ، وَتَعْلَقَتِ الْعَيْنُ بِالْهَجَانِ الَّتِي تَمَرَّ بَيْنَهُمْ وَعَلَى صَهْوَتِهَا أَمِيرُ بَارِي العَانِدُ وَحْدَهُ. التَّسَاوِلَاتُ وَالْفَضُولُ غَمْرَا الْوَجْهَ، لَقَدْ عَادَ بَعْدَ غَيَابٍ، بِوجْهٍ شَاحِبٍ وَعَيْنَيْنِ وَاهِيَّتِينِ وَابْتِسَامَةً باهِتَةً. لَيْسَ هَذَا أَمِيرُهُمُ الَّذِي عَهْدَوْهُ رَفِعُوا الْأَيْدِيَ يَحْيَوْنَهُ، وَانْحَنَّ الرَّؤُوسُ قَلِيلًا فِي تَبْجِيلٍ، وَمِنْ فَوْقِ بَرْجِ الْبَوَابَةِ الضَّخْمَةِ نَادَى مَنَادِ:

- لَقَدْ عَادَ الْأَمِيرُ سَوْدَانٌ حَفْظَهُ اللَّهُ.

لوهلاً، أحس أنه حلم يقظة أو هاتف خفي يسري بأعماقه يتمنى قدوم سودان. وضع الريشة بالمحبرة وعاد يرهف السمع.. مرة أخرى ردد حراسُ الْأَبْرَاجِ نَبَأَ عَوْدَةِ الْأَمِيرِ، فَتَهَلَّتْ أَسَارِيرُ أَبِي الْمَغْوَارِ وَنَهَضَ مَسْرَعًا إِلَى النَّافِذَةِ، فَوَجَدَ الْعَامَةَ يَتَجَهُونَ نَاحِيَةَ الْبَوَابَةِ الرَّئِيسِيَّةِ لِلْمَدِينَةِ فِي عَجْلٍ، وَبَعْضُ الْفَتَيَانِ يَرْكَضُونَ وَيَصِحُّونَ بِخَبْرِ عَوْدَةِ الْأَمِيرِ الْعَادِلِ سَوْدَانَ الْمَاوَرِيِّ. ارْتَدَ عَامَتَهُ عَلَى عَجْلٍ وَهُوَ يَخْرُجُ مِنْ دِيَوَانِ الْمَظَالِمِ، يَتَبَعَّهُ الْحَاجِبُ مَهْرُولًا.. شَقَّتِ الْهَجَانُ زَحَامَ الْعَامَةِ، وَسَطَ هَنَافِلُ التَّرْحِيبِ وَمَحاوِلَاتٍ بَعْضُهُمُ الْإِمْسَاكِ بِلِجَامِ الْفَرَسِ الْمُتَبَعَّةِ، لَكِنْ سَرْعَانٌ مَا تَدْخُلُ الْجَنْدُ لِإِفْسَاحِ الْطَّرِيقِ وَلَكِنْ دُونَ جَدْوِيٍّ. كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَهُ وَيُبَجِّلُونَهُ، لَذَا لَمْ يُبَالْ بِالْزَحَامِ حَوْلَهُ، فَكَانَ يُومَئِ لَهُمْ مُحِبِّيَا، وَعَيْنَاهُ تَبْحَثُ فِي الْوَجْهِ عَنْ شَخْصٍ مَا بَيْنَ الصَّفَوْفَيْنِ. كَانَ الْحَاجِبُ يَزِيَّحُ الْأَجْسَادَ بِرَفْقِهِ، لِيَفْسِحَ الْمَجَالَ لِلْقاضِي بِالْمَرْورِ، فَتَنْتَحِي النَّاسُ جَانِبًا مَعَ رَوْيَتِهِمْ أَبِي الْمَغْوَارِ، الَّذِي مَا إِنْ وَقَعَ عَيْنَهُ عَلَى سَوْدَانٍ قَالَ بِصَوْتٍ هَادِرٍ أَسْكَتَ الْجَمِيعَ:

- هَلَا صَمْتُمْ وَمَنْحَتُمْ الْأَمِيرَ الْمَجَالَ لِلْمَرْورِ!

صوتِهِ الْقَوِيِّ هَزَمَ ضَوْضَاعِهِمْ، وَتَرَاجَعَتِ الْجَمِيعُ، لِتَتَقدِّمَ الْفَرَسُ وَصَاحِبَهَا يَبْتَسِمُ:

- رَفِقًا بِهِمْ أَبَا الْمَغْوَارِ.

ابتسم أبو المغوار وهو يمر بعينه على الوجه:

- حبهم لك ليس سوى تملق سيجعلك طاغية يوماً ما.

نزل سودان عن الفرس متحاملاً على ألم جرحة، جز أسنانه حتى لا يظهر عليه أثر الوجع، وتقدم خطواتٍ واسعةٍ نحو أبي المغوار الذي فتح ذراعيه له. احتضنه سودان:

- معاذ الله أن أكون من المتجررين يا أبي..

ترفق أبو المغوار في حضنه وقد فطن إلى ألمه، فأمسك بكتفيه وهو ينظر بوجهه:

- ماذا حدث لكم؟

أشار سودان لأحد الجناد أن يأخذ الفرس إلى حظيرتها، ثم التفت إلى القاضي صامتاً، ودخلاماً إلى الديوان.

"لقد عاد الأمير سودان"

تردد صدى الكلمات بعقل رملة، فهرعت إلى الشرفة دون حتى أن تصفع حبابها. الزحام شديد أمام بوابة القصبة، وأحد الجناد يسوق فرس سودان البيضاء إلى الإسطبلات. تيقنت أنه عاد وليس مجرد حلم، ولكن قلبها انقبض وهي تتساءل: أين بقية الخيل، وأين جواد شعيب؟! تركت الشباك، ودخلت إلى غرفتها، فاختارت ثوباً أسود، ساعدتها خدمتها في ارتدائه، وأسرعت للخارج ورماح الفلق تغرس بكل جزء من جسدها. حين نزلت إلى الفناء، كان قد الزحام قد انقض، ولم يتبق سوى بعض الجناد. أحست بثقلٍ يُبْطئ حركة قدميها.. دارت بعينيها في المكان، قبل أن تسؤال أحد هم:

- إلى أين ذهب الأمير سودان ورفاقه؟

أجاب الجندي وهو يقف في تجليل:

- لقد صعد إلى غرفته، وتبعه الطبيب سيدتي.

إجابته بعثت المزيد من التوتر في عروقها. هرولت إلى الحصن مرةً أخرى، ولكن من باب الرجال، كما يُسمى.. هناك خطبٌ ما.. ليس خيراً!

استمع الطبيب مع أبي المغوار لقصة سودان وما حدث لرجاله، وأشاد بقاطب الجرح وبرعايته، ثم جمع أدواته وقوارير الدواء داخل صندوقه الخشبي الصغير مستائداً في الذهاب، تاركاً خلفه الرجلين يُكملان حديثهما. كان سودان يشعر بالذنب لما حدث لرجاله، لكن أبو المغوار حاول نفض ذلك الشعور عن عقل الأمير، فما حدث كان مُقدراً، وما كان مُقدراً قد حدث، فأمر الله نافذ، لا الندم سيعيد شيئاً مما سبق، ولا جلد أنفسنا سيخفف وطأة الذكرى، ثم إنه قاسي مثهم وكاد يموت معهم، لو لا أن ساعته لم تحن بعد. لقد كانت للعجز تجربة مريرة لم تزل سره الذي يُؤرق ماضجهه منذ زمن الأمير خلفون،

ومازال الذنب يطارده حتى اليوم. داهنته الذكرى، وهم بقول شيء، حينما سمعا طرقات بباب الغرفة، فاذن أبو المغوار لصاحب الطرق بالدخول وهو يدثر سودان بفراشه. فتح الباب ودخل الخادم مبتسمًا:

- سيدى، الأميرة رملة تصر على الدخول، ولقد أخبرتها أن الطبيب قد غادر منذ قليل وأنك تحتاج للراحة، ولكنها أقسمت أن تقتحم الغرفة عنوة.

أشار إليه سودان وهو يعتدل في فراشه:

- دعها تدخل!

هناك وقت تكون فيه مواجهة أسوأ الكوابيس أمرًا حتمياً. لطالما فكر بتلك اللحظة طوال فترة مكوثه بقرية سان فيلي، وهو هي ذي قد جاءت. كانت تلك اللحظة أكبر همه.. أمر صعب أن تخبر امرأة برحيل رجلها. يعلم جيداً كم هو شعور سيء أن تفقد رفيقك وأنت في أمس الحاجة له.. أن يذهب، ويذرك تواجه الذكرى كمن يلقى الريح في يوم عاصف. حاول النهوض، ولكن ألمًا شديداً اجتاح جسده، فأشار إليه أبو المغوار أن يبقى مكانه وهو يرمقه بنظرة مشفقة. لم يكن جرحه السبب هذه المرة، وإنما لحظة الفراق، التي دوماً ما تخلد بثنيا العقل. لقد حال الموج بينه وبين زوجته يوماً، ثم مات شعيب أمامه ولم يستطع له نجاة! دلفت رملة بخطواتٍ واسعة، تجر أطراف ثوبها الأسود المطرز بخيوط فضية، لا يظهر منها سوى عينيها المتحفظتين، كما لو كانت مقدمة على مبارزة لا ينجو فيها المبارز إذا نجا مبارزه. بعد السلام، مررت لحظات على سودان كدهر، وهي تبادلها النظرات دون حديث، وكأنها تخاف أن تسمع جواب سؤالها. تحدث أبو المغوار أخيراً:

- كيف حالك يا بُنيتي؟

لم تجبه، واحتنق صوتها وهي تنظر لسودان تسأله:

- أين زوجي؟ لماذا لم يعد معك؟

شعر سودان كان سلاسل حديدية تشد حول عنقه، واستجمعت الكلمات ليلاقيها عليها متحشرجة:

- لا يَعْزِزُ عَلَى مِنْ خَلْقِهِ.. نَسَأَ اللَّهَ أَنْ يَلْهَمَ الصَّبْرَ وَالاحْتَسَابِ.. لَقَدْ كَانَ شَجَاعًا مَقْدَامًا، اسْتَشَهَدَ رَحْمَهُ اللَّهُ مَقْبِلًا غَيْرُ مُدْبِرِ.

كانت كلماته الأولى فقط كافية ل تستعر نيران الآلام بداخلها، ويتتصعد فؤادها وينهار أملها. أحسست بأنها بيت حرب، فارقه أصحابه. غطت عينيها سحابة من الدمع، وصممت أذناها عن بقية حديثه، وضاعت معاني الكلمات بين ثنيا الواقع. لوهلة، حاولت ألا تصدق ما سمعته توًا. كانت تستظل بحبه الذي لم ينضب يوماً. تفجر الدمع من عينيها وهي تتخيّل لحظاته الأخيرة، وهي ليست إلى جواره تحضنه وتمسح عن جبينه آلام الاحتضار. بين ذراعي من ستُقْيِ بجسدها باكيّة، وهو الذي كان يسقيها من سبيل حب فاض به قلبها، والآن صار مجرد ذكرى. تمنت أن يعود الزمن، وتنمّعه من الذهاب، فلا تتسلل إليه يد المَنون.

الطعنة نافذة إلى أغوار القلب، جعلتها لا تشعر بوجودهم حولها.. لم تسمع أبا المغوار يتحدث عن الصبر عند الابتلاء، وكيف فقد ابنته الصغرى - زوجة سودان - وحفيده، وأن عليها أن تكون قوية من

أجل أولادها. كانت تشعر بأن أحدهم يضرب صدرها بحديدةٍ. أفاقت على صوت سودان وقد حملت نبرته الأسى:

- سيدتي أنتِ مؤمنة، وهذا قدرُ الله..

رمته بنظره غاضبة، وبعينين اتقىتا بحمرة الدمع:

أنت السبب في ذلك.. أنت من قتله.

عقد أبو المغوار حاجبيه غير راضٍ عن جملتها الأخيرة، فلم تعره التفاتاً، وأكملت حديثها لـسودان الذي لم يستغرب ردة فعلها:

- أنت من أخذته معك لرحلة الصيد المزعومة.. أنت من حرمت الصغار من أبيهم.. لم تفك سوى بضمونك في المجد والشهرة، ليُقال الأمير سَودان يقود بنفسه فرق الاستطلاع، انظروا لشجاعته.. أنت زائف يا سَودان.. أنت قاتل.

كانت كلماتها تفيض بالبغض له، ولكنـه أخذ قراراً بـالـأـيـنـطـقـ، فـهي مـكـلـوـمـةـ وـيـكـفـيـ ماـ أـصـابـهـاـ منـ هـمـ وـحـزـنـ، لـكـنـ أـبـاـ المـغـوارـ عـنـ هـذـاـ الحـدـ تـدـخـلـ بـصـوـتـ قـوـيـ:

- كفى يا رملة.. يكفي هذا.. الله ما أعطى والله ما أخذ.. كلنا متجرع من كأسه المُر، إن لم يكن اليوم فغداً! أعلى أن اليوم سودان أيضاً لوفاة ابنتي؟ لا والله. كلنا سنبمو، وزوجك رحمة الله نحسبه شهيداً.. أصبرني وصابرني يا بنيني.. لقد أصيب سودان بجرح قاتل أيضاً، فكلهم معًا وقعوا في فخ نصب لهم.. إن خسارتنا لشعب كبير، فلا تدعى الحزن ينال منك، فهو أحد أبواب الشيطان.

لم تُبَال بما قال، وعِيَّناها لَا تُزاَلَانْ عَلَى سَوْدَانْ، فَمَا قِيلَ وَمَا سُيُّقَلَ لَيْسَ سَوْيَ بَضْعَ كَلِمَاتٍ عَزَاءَ مَا أَرْخَصَهَا، فَالْمُبْتَلَى، لَيْسَ كَالْمُعَذِّبِينَ، سَرْعَانَ مَا سَيِّنَسُونَ، وَتَبَقَّى هِيَ وَحْدَهَا تَتَجَرَّعُ مَرَارَةَ الْفَرَاقَ.

يا بنيني، لقد فقدنا أحباء لنا على مرّ الزمن.. وسيأتي يوم نلحق بهم.. أقدر حزنك على زوجك،
الذى هو أخونا، والذى نحزن عليه أيضاً.. ولكن لكل أجل كتاب.. كلنا سنبعد.

قاطعته بصوت تخلله النحيب:

- ولكن الحياة من دونه لا شيء يا أمي المغوار..

أقت جملتها وهرعت نحو الباب، صكته خلفها بقوٰةٍ كأنها تلطمهم بقر قعٰته جزاءً لطمهما بالخبر الأسود. جرَّت قدميها جرًّا عبر الرواق، الذي أخذت جدرانه تضيق عليها أكثر فأكثر، ثم لم تستطع السير أكثر من ذلك، فقعدت أرضاً وقد ضممت ركبتيها إلى صدرها، وعلا نحيبها وصوتها يتهدج:

- يا وحشة غربتى بعدك يا شعيب .. سلبني الموت روحي، وترك روحك هائمةً بقلبي.

* * * * *

طارد كلبُ الخطاب فراشةً بألوانٍ قرَيبٍ، خرجت من شرنقته لتجد نفسها طريدةً لذلِكَ الأجرَبِ.
ووثبَ لاهثاً يُحاول الامساك بها، فارتَفعت عالياً، ليدرك أخيراً أنها صُعْبة المُنال، ويكتفى بمتابعتها

تطير مبتعدة ناحية منزل لورينزو. نبح مراراً مودعاً إياها، وجر ذيله مبتعداً بخطواتٍ بطيئةٍ، غير مبال بأحجار راح يلقيها الأطفال نحوه. زمرة واحدة تكفي ليركضوا باقدامهم الحافية التي لو ثناها الطين، وضحكاتٍ بريئاتٍ تحمل الخوف منه. اتجه نحو جدول المياه أسفل التل، فيما كانت الفراشة تدل إلى حجرة ماريا، عبر نافذتها الصغيرة. بعيدين أعيادها السهر لمحتها ترفرف في سماء الغرفة، تضرب بأجنحتها الملونة أشعة شمس الصباح الذهبية. نهضت من فراشها متثالة:

- صباح الجمال يا ذات الألوان الأنيقة..

دارت الفراشة حولها، قبل أن تستقر على تمثال العذراء بثوبها الأزرق وحجابها الأبيض. وقفَت على رأسها، تنشر جناحيها وتطوِّيَهما مارأها. استبشرت أنها رسالة تحمل الخير. جثت على ركبتيها أمام العذراء، وغممت بصوتٍ هادئ يحمل توسلها:

- السلام عليك يا مريم، يا ممثلة نعمة، الرب معك، مباركة أنت في النساء، ومبركة ثمرة بطنك، فلتكن بشري منك بالخير، فلتعم نعمك عليَّ وعلى أحبائي ومن أهتم لأمرهم..

طارت الفراشة مرةً أخرى، تتبعها نظرات ماريا، التي نهضت مبتسمةً مع خروج الفراشة من النافذة مرةً أخرى كروح هائمةً مررت هنا فقط لطمئن قلبها، وتمنحها ثقةً بأن الفرج قد يأتي من أضيق الأماكن، عبر نافذة عرفتها البسيطة..

استيقظ كاراس على نباح كلب الحطاب. حك رأسه، قبل أن ينهض متعثراً بقتنية نبيذ، كانت خليلته في ليلةٍ كانت الأصعب خلال مشوار حياته. آخر ما يذكره أنها كانت بين أحضانه، يحدثنها عن ليلته التي قد تكون الأخيرة حتى فقد وعيه. أسكرته.. أنهكته.. حتى خارت قواه وهو ينتظر أن يقتلع لورينزو الباب بصحبة فرسانه المدججين بالسلاح، ليُسحب على وجهه إلى ساحة القرية حيث يتلو القس ليو طقوس الموت عليه. حتماً سيقتل، لأنَّه ساعد الغريب على الهرب. جرَّ قدميه إلى حيث دلو الماء، أقحم رأسه بداخله لعل الماء يحجب نباح ذلك اللعين، ويزبح عن رأسه أثر الليلة الماضية. أخرج رأسه وقد غطى شعره الأبيض المبلل نصف وجهه، فازاحه وهو يستنشق هواءً حمل معه القلق إلى صدره. ليته بقى في غمرة السُّكر، لينسى أمر الفتى إليساندرو.. لماذا لم يعد؟.. هل قتل أو قتله الضيف؟

توجه ناحية غرفته وهو يُصفف شعره بيديه. شيء ما جعله يتوقف أمام النافذة قبل أن يدخل للغرفة. ضاقت حدقاته وهو يُشاهد إجابة سؤاله تتجسد في الخارج، إذ كان إليساندرو يمتطي جواداً، وخلفه كازميرو تقطر ذراعه دماً. تجمد في مكانه، يبحث عن تفاصيل لقصةٍ قد تنتهي بنهايته.

عاد إليساندرو بغير الوجه الذي ذهب به. وجهٌ واجمٌ، عيناه زائفتان، يحمل خلفه كازميرو، الذي - رغم جرحه - عاد لإنقاذه؛ لكنه أبداً لم يُخبره بما حدث مع العربي، واكتفى بذكرة أن الرجل لما أصيب هرب، ولم يستطع مطاردته لأن الحصان هرب أيضاً بعد إصابته هو الآخر. كلمات سودان كان تتردد في رأسه، ومنات القرارات تتلاحق معها في فوضى جعلته يصمت طوال الطريق. كان يبحث عن سبيل آمن يعود به إلى القرية، فأبوجه ينتظر ابنه المنتصر العائد برأس العربي؛ ولكنه لم يعد إلا بالخُذلان، ينتظره العقاب الذي قد يكون أمام الجميع.

أوقف حصانه أمام منزل عمه كاراس، وأشار لأحد المارة أن يُساعد كازميرو الجريح، فيما نزل متوجهاً إلى باب المنزل، يطرقه طرقاتٍ قوية، جعلت العجوز ينتفض، قبل أن يهرع فاتحاً الباب. تبادل

النظرات مع الفتى صاحب الابتسامة الخبيثة:

- صباح الخير أيها الحان.

غمغم كاراس متوتراً:

- أهكذا تُخاطب عمك؟

رفع إليساندرو سبابته أمام وجهه:

- اسمع يا هذا.. سيكون جراوك عسيراً، ولكن ليس الآن. فقط عالج ذراع صديقي، وسأرى بعد ذلك ما نفعل.

أفسح المجال ليدخل كازميرو، متأبطاً الفلاح الذي ساعده على النزول من على ظهر الحصان. أخذ كاراس ذراعه الجريح على المنضدة، وأزاح عنها الأطباق والأدوات، وعيناه لا تزالان متعلقتين بــإليساندرو، الذي قال محدثاً صديقه المصاب:

- سأعود بعد قليل.. عليّ أن أذهب لوالدي، لأخبره بما حدث.

لم يرتح كاراس لنظرات إليساندرو، وتنفس الصعداء مع رحيله، ثم بدأ يقص ثياب كازميرو ويريق بعض الماء على الجرح قائلاً:

- كيف أصبحت؟

أجابه كازميرو وعيناه معلقتان بجرح ذراعه، وعقله يُعيد عليه مشهد مبارزته:

- لقد كان مبارزاً لا يُشق له غبار.. لم يكن أمامي سوى الهرب بعيداً بعد إصابتي..

غضّ على شفتيه ليكتم الألم، جراء ضغط كاراس على الجرح، ثم أكمل:

- أفلت من أيدينا، بعدما كاد أن يقتل إليساندرو..

انشرح فواد كاراس، وبدأ يعمل في ذراع الفتى بثقةٍ وحيويةٍ، مشجعاً إياه أن يتتحمل الألم. وفي تلك الأثناء، كان إليساندرو يجرُ قد미ه نحو باب المنزل المكتظ بالفرسان المدرعين، يرتب في عقله ما سيقوله أمام والده وفرسان بنقينتو. دفع الباب برفق، ليجد بهو المنزل ممتلئاً بالأجساد المبعثرة لفرسان لم يخلعوا عنهم دروعهم، البعض نياًم وآخرون يرمونه بنظراتٍ متفحصةٍ متوجسةٍ. وقف لحظات عاقداً حاجبيه، ثم أدار وجهه ليتسلل إلى غرفته، فاصطدم بوجه أبيه يكاد يلتصق به. تبادلا نظرةً طويلةً، استشعر لوريينزو فيها خيبةٍ أمله وصدق حسه في ولده الذي لا يصلح لشيء. الفتى حاول جاهداً أن يسيطر على ما بداخله من خوفٍ وتوتر، إلا أن وجهه كان يفيض بالذللان، ولم يستطع التفوه بكلمةٍ واحدةٍ مما أعد طوال الطريق، حتى حطم حاجز الصمت صوت الدوق ماركيزيو:

- إذن أنت إليساندرو الشجاع؟!

ابتسامةً باهتةً كسرت جمود وجه إليساندرو، قبل أن يقول بثقةٍ مصطنعةٍ وهو يتأمل الدوق:

- نعم هو أنا..

ضحك ماركيزيو وهو يتقدم بضع خطواتٍ:

- أين الأسير إذن أيها الشجاع؟

باقتضابِ أجاب إليساندرو:

- لقد قتلتَه.

استدار الدوق موجهاً حديثه إلى لورينزو:

- ألم أقل لك إنه سيفعلها..

لم يفرج لورينزو عن كلمةٍ مما يدور بخلده. اكتفى بإيماءة، فيما استطرد الدوق:

- إذن أين جثته؟ لماذا لم تأت برأسه لنا على الأقل..

- أكلت جيفته الذئاب، كما هاجمت أحد خيولنا أثناء نومنا؛ لذا عدت أنا ورفقي على ظهر جوايد واحد،
ما جعلنا نتأخر كل هذا الوقت..

لطالما حملت الذئاب كذب البشر، ولطالما لوثت أنبيابها بدماء وهمية لم تقترب خطيبتها. ساد الصمت
بعد كلمات إليساندرو، والدوق يُحاول أن يستسigh حديث الفتى، بينما لم يصدق لورينزو أي كلمة منه.
حاول أن يفسح مقدار حبة من خردل من عقله لصديقته، ولكنها يعرف ابنه أكثر من أصابع يده، وعلى
أية حال، فالآhem الآن أن يصدق الدوق ما قاله، فينجو من مهانةٍ لا قبل بها. كانت كلمات الكاردينال
أدريان تدوّي في أذنيه: "اذهب وانت بذلك الأسير إلى روما"، ولكن الأسير مات وانتهى أمره، عليه
أن يستمر في الكذب الذي بدأه ابنه، وربما يحصل على قدرٍ من الأموال أو مزيداً من النفوذ ليقترب
حلمه في تكوين دوقة خاصة به..

تصدع فؤاد ماريا، وهي تتلخص على حديث الرجال من وراء الباب. زهرت روح الأمل بصدرها،
وتبددت أحلام وصلوات توسلت بها نجاة عبد الله. تراجعت لفراشها دامعة، وأعراضير الحزن تعصف
بأحلام ورديةٍ عن روئته مجدداً. لكنه لم يمت، هكذا حدثها قلبها، فاستندت إلى جدار الأمل تبني حلمًا
جديداً أن يعود. إنه ليس كما يقول أولئك المعتوهون غريب رحل أو قتله أخوها ولن يعود. نبتت
براعم الشوق بقلبه لتجعل من عودته أمنيةً تفرض نفسها على كل الحقائق، وتصدقها مذنبة
إليساندرو الغراب.

أبحرت سُحب الشتاء في سماء باري، وتلاحمت لتحجب ضوء بدر حمل صورة شعيب، لعيني رملة،
التي لم تكف عن البكاء طوال ذلك اليوم الطويل. تقبلت التعازي دون أن تنطق بكلمة، وحاولت أن
تبقى صامدةً أمام أطفالها ولكنها فشلت. أودعتهم غرفتهم، لتبقى معهم الخادمة، وخرجت إلى سطح
القلعة، حيث حدث القمر والنجم، ما إن تنقضي شهور عدتها ستعود إلى إفريطيش. لقد كرهت هذه

المدينة التي تجسد أحزان من اعتصر الحب قلوبهم، وسلخ الفراق، أرواحهم. راح الحبيب ولم يترك لها ولو مثوى معروفاً في قبور المدينة تزوره عنده. خطف البرق البعيد بصرها، ليضرب بعده الرعد عقلها، وبدأت السحب تقطر ماءها تغسل عنها أنين الروح. تسلل إلى مسامعها وسط المطر والرعد صوت ناي ماركو. عزفه حزين، لعله يفتقد شيئاً أيضاً. أثارت نغماته الشجن في نفسها، فتمتنع بخفوت وهي ترفع يدها إلى السماء:

- لأن نكفيك دمع العين، فالقلب بدموع الفراق ندي لا يجف. جبنا موصولٍ، حتى انتزاع الروح ولقاء المنيّة.. والله لن يغيب طيفك عن بصائرِي، ولن يرتضي القلب سواك بدليلاً. قوْضني مقتلك يا شعيب، حتى صار الموت أكبر أمانينا، فسلام عليك يا قرين الروح.

أنين الناي لم يصل أذنيها وحدها، بل سرى بأروقة القصبة، وتسلل إلى حيث يجلس سودان على طرف فراشه الدافئ، بعد يوم شاق، استقبل فيه قادته ورجال الدوّاين، وإن لم يكن هو ذاك الرجل الذي عهدوه، وخرجوا من عنده يتهماسون بينهم. بقي معه أبو المغوار، يُحاول سبر أغوار من شب على سعادته، لكن لم يتحدث سودان كثيراً، وإن حرص أن يشير على العجوز ألا يخرجوا هذا الصيف إلى الحرب، فالحلفاء من إفريقيا مشغولون بحربهم مع بيزنطة في جزر بحر إيجة، وما زال تحالفه مع نابولي قائماً، والناس اشتد وجع الموت بينهم، فلا بد أن يشعروا أن الدين للحياة وليس طريقاً للموت، لذا فأموال تجهيز الجيش لهذا العام الإعمار أولى بها، خاصة في شمال باري، حيث عليهم أن يبنوا حصناً جديداً، يزيد خط الدفاع عن المدينة منعة وقوّة.. لم يرق الأمر لأبي المغوار، إذ رأى أن الناس لو استكانوا للنعم سيفقدون خشونة المجاهدين، واقتراح عليه أن يعقد جلسة شوري ويأخذ رأي الجميع، ورحل أبو المغوار عن ربيبه، يطوف حول قلبه فلق عظيم.

لم ينم سودان، فقد أرقه حال رملة واتهامها له. لقد ذاق ألم فقد مثلاها، ومهما بدا أنه لم لم شتات أفكاره وتخطى تلك المرحلة، فالذكري باقية، محفورة بعقله ما حيا، ودوماً ما يشعر ببعض وكره لذاك البحر، الغادر كسفن بيزنطة ذات النهب، وصار البحر رمزاً سلباً الحياة في مخيّلته. ولكن كما قال العجوز لا تقف الدنيا برحل أحد، وسيمضي الزمن وينضج عقلها أو لا ينضج، هكذا هم النساء قليلٌ منهن من يتمتعن بالبصيرة. ضرب الرعد أذنيه، ليعيده إلى ذهنه وجهها. كان قد تناهى أمرها هي وقريتها، ولكنها هي ذي توقف قرب نافذته كشمس مشرقة في ليلة معتمة، ضوء المشكاة يرقص مع طيفها. حرك رأسه عن اليمين وعن الشمال لينفض عن رأسه تلك الخيالات، ولكنها لم ترحل، وشغل باله بالتساؤل عما يجري الآن..

- لماذا تقتسمين ليأتي عنوة يا ماريا، وما هذا الذي أشعر به كلما مر طيفك بعقلي؟

تهادت في مشيتها أمامه، قبل أن تزيح خصلات شعرها الكستنائي عن وجهها. أغمض عينيه لوهلة.. أراد أن يفتحها ليجد هارحلت؛ ولكنها بقيت. ظن أن سحرًا ما قد أصابه، أهي قد ألت عليه تعويذة أنساء غيابه عن الوعي في منزلهم؟ ولكنها ليست ساحرة بالتأكيد.. كيف لهذا الجمال وذلك الجسد المثالي أن يكون لساحرة؟

غمغم محدثاً نفسه وهو يلقي بجسده على الفراش:

- ويحك يا سودان.. أصرت تشتهي وجودها بعد الرحيل؟ كيف لها أن تُثير الشجن بقلب كانت تجوبه رياح الخواء؟

تقلب بالفراش مغمضاً عينيه، باحثاً عن نوم تبدد مع صوت عقله، يتذكر و هج عينيها في نظره الأولى لها، حاول مراراً إلا يتبعها بالثانية، ولكنه لم يفعل فقد كانت نظراته لها دوماً الأولى، والآن يتمنى النظرة الثانية، ألمجت لسانه يوم قبضت على يده، قاوم ذلك الدفع الذي تسلل إلى روحه، ولكنها هوذا قلبها الصد يتحطم أمام ذكرها.. شعر أنه ليس ذلك الشخص الجامد المشاعر، في بداخله ولد طفل جامح راح يبحث عن كل لحظاتها معاً.. لمسته لأصابعها يوم أعطته الوشاح كانت كافية لتشعل النيران بصدره، تمنى أن تتحقق روحه فتزور منزلها.. ليرى إن كانت تذكره.. أم أنه أصبح في طي النسيان كعاiper سبيل مر بقريه ليسقى شربة ماء ويمضي.

رُبَّ بذرة من فضول، تخرج خفيةً جذوراً من شوق، حتى تنشق الأرض معلنةً عن عودٍ أحضر من حبٍ غضٍ يتتسّم هواء الحياة. تحينت ماريا فرصةً خروج والدها لتوسيع الدوق الراحل برفقة فرسانه إلى نابولي، وتسللت خارجةً، متوجهةً إلى منزل عمها كاراس. في طريقها، أخذت تستعيدُ كل ما سمعت ورأت، وتحاول أن تفهم من كل هذه الفوضى حقيقة مصير عبد الله. إيساندرو اكتفى بإشارة لها، إذ مرر يده على عنقه في إيحاء أنه سيقوم بذبحها، ولكنه لو أراد لقال لأبيها إنها من قامت بمساعدة عبد الله في الهرب، وما منعه عن ذلك إلا حاجة في نفسه لم تعرفها بعد. دخلت عليه، فوجده ينظف المنضدة من أثر غياره الطبي على جرح كازميرو. تبادلا النظارات، قبل أن تسيطر الدموع على عينيها. تركت بركانها ينفجر أخيراً، وهي تُلقي أحزانها بين ذراعيه، لكنها فوجئت به لا يحرّمها تربيتها الحانية ولكنه معها كان يضحك مقهقها. توقف نواحها واتسعت عيناهَا غير مالكة لجرأة السؤال والأمل، فأمسك بكفيها، وقال بابتسامةٍ واسعةٍ:

- لم يمت كما قال لكِ أخوك المتعجرف.

تبدت ملامح وجهها المنهكة، وهذا الدموع في عينيها دافناً، يسيل على خديها فيختلط بابتسامةٍ مترقبةٍ المزيد من النور بعد كل تلك الساعات السوداء. استطرد عمها:

- لقد قص على كازميرو كل شيء.. تعلمين، المرضى يبوحون لأطبائهم بأشياء لا يقولونها لو أنهم أصحاء.

بعينين فرحتين نصب دمعهما تسائلت:

- هل نجا؟.. أيمكن أن يعود؟

لم يكن سؤالها مبالغةً، فهو بعد كل هذه السنوات في معركة الحياة، ما كان ليخفى عليه أن ابنة أخيه صريحة الغرام، قد بدأت لتوها رحلة بين الشوق والشوك، فالطريق الذي اختاره قلبها مليء بشوك قد يُدمي حياتها. ابتسم لها، وفك قليلاً في رد مناسب للموقف. قد تكون كلمة منه كافية لتحطيم قلبها الرقيق، ولكنه لن يفعل، حاشاه أن يقتل أملاً بين المحبين، حتى وإن كان بعيد المنازل..

- الرب وحده يعلم يا بنتي.

أشاح عنها، وشغل نفسه بآعداد كأسين من عصير البرتقال، بينما استرخت هي في كرسيها،

وأهدى رقعة الجلد الجاهز لكتابه، تناولت الريشة غمستها بمداد حبر، وأخذت تخطّ رسم كلمتها الأولى بالعربية.. لم تستطع يوماً أن تكتب العربية أو تقرأها، فقط تعلمت التحدث بها في هذا المنزل الذي منها حرية العلم والتعلم. حين انتهت من النقش، رفعت رأسها، فوجدت عمها يحمل كأس العصير ويراقب ما تكتب، فقالت له مبتسمة:

- هذا اسمه.

عقد حاجبيه في دهشة:

- سودان!

وجمت وسأله:

- أليست هذه الكلمة تُنطق عبد الله؟!

وضع ما في يده على المنضدة وهو ينظر إليها:

- لا، إنها سودان!

تجلى على وجهها عدم الفهم، بينما أمسك كاراس الرقعة وأخذ يشير للأحرف:

- سودان.. من قال لك إن هذا اسمه؟

أجبت في سرعة:

- هو.. كان قد كتبها على شاطئ البحيرة، وحين سأله ما هذا؟ قال إنه اسمه.

غمغم وهو يحك رأسه:

- أنا لا أعرف سوى شخص واحد يدعى بهذا الاسم.. وإن صدق ظني، فإن من آويناه لم يكن اسمه عبد الله.

اتسعت عيناها في ذهول، فيما أكمل العجوز كاراس بصوت هادئ ارتجف لكلماته جسدها:

- من حل علينا ضيفاً كان سودان الماوري.. أمير إمارة باري!

مضى الربيع سريعاً، وبقيت منه ذكرياتٌ أبت أن يطويها النسيان. كان محصول الكرم وفيراً، ربح لوريزو الكثير والكثير هذا الموسم، وعاد من روما محملاً بأصنافٍ شتى من البضائع والهبات التي منحت إليه عند حضوره مراسم تنصيب الكاردينال ليصبح باباً، ويصبح معه لوريزو نبيلاً حقيقياً يحظى برعاية الكنيسة. ها هي ذي سان فيلي قد تجملت.. تستبدل سورها الخشبي القديم بأخر حجر يرتفع عن الأرض أربعة أذرع على يد بنائين من بنفينتو ونحاتين من روما، أضافوا أيضاً الزخارف لمنزله، فجعلوا منه قصراً أبيضاً صغيراً، أضيف له دورٌ علوي متوج بالقرميد الأحمر، واستبدلت الحظيرة بجناح فخم الأثاث، كي يستضيف فيه النبلاء. لقد أخلص لحمه، وهو هو ذا يتحقق أخيراً. كان يعتقد أن الخير أتى بخططيه وحذكته لحكاية الأسير العربي، وسار ابنه إليساندرو على نهجه، فكاد يُصدق نفسه أنه قد قتل الأسير العربي، بعد معركة لم تقم سوى في خياله، تماماً كمعركة أبيه حين أسر العربي. لا يهم أين الحقيقة من الكذب، فالآن قد رحل العربي وجاءت من بعده البشريات، وفاض كيل بركات البابا الجديد والدوق ماركيزيو.

الحياة رؤى، كلُّ يطلق عنان روحه، لتحقق في سماء الخيال بأجنحة الهوى، الذي يميل بزاوية الرؤية حيث يشاء القلب. الأمل وشهوة الحياة ينموان في ربوع الحلم كأيات تحظى بالأمن في ظلال الغابة بين جذوع الأشجار، وتتجسد لصاحب الأمنيات كترنم الحساسين أنسودةً فريدة تحت خيوط شمس صيفٍ جديدٍ. ربيع انقضى وصيف حل، وتلونت زهور الأمل في بستانها، الذي كان كافياً لتنشغل به عن صخب الحياة الجديدة التي شغفت أسرتها وشغلتهم عنها، فحظيت بوقتها لمرااعة البستان الذي اتسع، خاصةً بعدما نقلت الحظيرة لطرف القرية عند السور الجديد، وصارت للحيوانات فيها خادمة تقوم عليها، كما لم تعد أنها صاحبة المطبخ ورائدة الطهو، بل صارت تستمتع بإعطاء الأوامر للطهاة ثم تخل للراحة. كل شيء تبدل إلا هي، لم يعنها الحصول على مزيدٍ من الأثواب، ولم ترتد يوماً القرط الذي أهداه لها الدوق ماركيزيو، متودداً إليها. لم يرق لها هذا الإنسان يوماً، فنظراته لها أشبه بخزيرٍ هائجٍ في موسم التزاوج. فقط تخففت من تكاليف كثيرة كانت تُرهقها.

لم يعد إليساندرو يُضايقها، فقد صار لديه ما يشغل، فهو المسؤول عن مخزن الأسلحة الجديد والإشراف على تدريب الرجال، ويخطف أوقاتاً قليلةً لمرافقة فيولا، ثم يقضي ليته في حانة كبيرة بُنيت حيث كان منزل سباستيان، الذي لم يعد حطاباً. إنه الفراغ ما كان يجعله يتذبذب وسيلةً لممارسة تفاهاته، فحمدًا للرب أن أرسل إليه ما يشغله.

بقي منزل كاراس لم يطله التغيير، متواضعًا هادئاً يكتفي صاحبه بجنة العلم والعلوم والرائحة الطبية. كان ملجأها الآمن من كلِّ الزيف الذي يخنقها في حياتهم الجديدة، وقد جعلت عمها يعلمها شيئاً فشيئاً كتابة العربية، فبرغم تبدل كلِّ ما في القرية، ما زال طيفه يسكن شاطئ البحيرة، وملامحه تراوغها بين الأشجار، وابتسماته وعياته السوداوان، وفرسه البيضاء وصوته القوي.. كل شيء يخاليل أحلامها ويفصلتها، وهي تتمسك بملامحه تسترجعها دائماً، لا تريد لطول الأيام أن يجعلها تباهت. أترى وشاحها الذي تركته له ما زال يذكره بها، كما تذكره؟

"سودان" أو أيّاً كان اسم هذا الرجل، فهو من منح القرية بركة الترقية، ومنح قلبها شغفاً لم تذقه

من قبل. مجرد ذكره في كذبة بلهاه تنزل بالنعيم على رأس أيها الذي أمضى عمره. قبل حضور سودان- يسعى ولا يحصد. كان غيابه عنها كغياب الشمس في منتصف النهار، لا يمكن لروحها أن تقبله. لطالما صلت ألا يطول الانتظار، وأن يدرك حضوره نبطة الصبر بقلبه.

جرت قدميها إلى شرفةٍ تطأيرت ستائرها بفعل نسماتٍ ربيعيةٍ. يأتي الفجر من حيث أنت الفرس البيضاء يوماً.. حيث يرقد جدول المياه القائم عبر جبلٍ تخلي عن قمته الثلجية. كل شيءٍ ساكنٍ إلا قلبها الذي لا يكفي عن تذكره. حاولت أن تترك لعقها زمام الأمور، ولكنها فشلت، إنه الوحيد الذي ملك كيانها. رغم مرور أشهر الربيع ثقيلة، إلا إنها تجاوزت تيه الوهن وفقدان الأمل، واستقر الوجد في جوانحها تنتظر ولا تيأس.. فكانت أن تذهب اليوم إلى بحيرة الوجدان عليها تروي شوقها الجامح، فليس تحت ظلال شجرة السنديان التي اتكأ عليها ذات يوم تظما الذكريات؛ لكنها أفاقت من سبات روحها على صوت بوقٍ دوى في أرجاء القرية.

توجهت العيون إلى البوابة الشمالية الجديدة. لحنٌ غريبٌ جاء مباغتاً، بدأ بالبوق، ولكن "السراسنة" لا يستخدمون البوق لإعلان الهجوم. إيقاع الطبول هو ما دلهم على هوية القادمين، قبل أن يدخل أفراد الجوقة الموسيقية إلى سان فيلي، وموسيقاهم تزداد صخباً. المزمار لامس قلوبهم، فمنحها رمق أمن وشجن، إنهم يقولون إن أئينه كان صلوات الشيطان حين كان مقرباً من رب، ولذا فهو يستطيع أن يمتلك قلب ولد آدم. تقافز الأطفال فرحاً حول القزم المتسلحف بقطع من قماش ملون، يقفز ويرقص متذرجاً على الأرض، يمنح الوجه ضحكاتٍ مبتهجةٍ وهم يتسابقون لرؤياً الفرقة. عبرت الفرقة البوابة الحجرية الجديدة، وفي مقدمتها كان عازف المزمار تختلف قدماه في المسير، يتقدم خطوة ثم يتراجع خطوتين، يتناقض على أنغام لحنٍه، الذي أجبر الأطفال على الرقص حوله. إلى جانبه كان قارع الطلب يضرب بعصاه صدر طبلته، فتعطى إيقاعاً راقصاً يناسب لحن المزمار. كان جامد الملامح بالمقارنة بالسميين خلفه، الذي لم يمنعه فقدانه بعض أسنانه من الابتسام. كان أشعث، رقت ملابسه الرثة بألوان مختلفة، يقود عربة يجرها حمارٌ تظهر عليه آثار الرحلة الطويلة. ضاع صرير العجلات بفعل ضجيج العزف، ومرت العربية المزينة برایاتٍ مهترئةٍ، تعددت ألوانها وأحجامها، أكبرها كانت زرقاء تحوي وروداً ثلاثة الأوراق، شعار الإمبراطور شارلمان، وأخرى صفراء فاقع لونها تحمل نسراً أسود له رأسان، وفي المقدمة كانت أبرزها، بيضاء يتوسطها صليب أحمر كبير. توقفت العربة مع دوي البوق الذي أطلقه السميين. جمد كل شيء.. صاحب المزمار أصبح تمثلاً، فما زال العود في فمه وأصابعه في وضع العزف، كما أن قارع الطلب توقف على آخر حركة له. زارت الأ بصار، وتراجع الأطفال بين سيقان الأمهات والآباء، الكل ينظر في ترقب للعربة وأعضاء الفرقـة.

قفز فجأة خارج العربة مخلوقٌ غريبٌ أسود. تعلّت الشهقات مع روئيته، وتشبتت أظافر الأطفال بأفخاذٍ ترتعـد. كان أمّاهم غولٌ قصيرٌ كثيف الشعر، أسودٌ إلا من مخالب طويلة حمراء، وجهه ملطخ بطلاء أبيض وأسود، أخذ يقفز يميناً ويساراً، ينقلب رأساً على عقب على صوت دقات الطبل الخافت. وبينما هم على هذا الحال، خرج من العربة شابٌ يمسك بسيفٍ خشبي طویلٍ، راح يركض خلف القزم المكتسي بالسواد.

ردت جنبات القرية ضحكاتٍ أهلها والقزم يُصدر أصواتاً مضحكـة كلما لامس السيف الخشبي مؤخرته. وفي النهاية، استطاع الشاب أن يمسك بالقزم ويقذفه في الهواء إلى داخل العربة، وسط شهقات وقهقهـات أهل القرية، ثم التف الأطفال حول أفراد الجوقة الملوحين بالرأـيات الملونـة، لقد جاءت الفرقة الكارولنجية من روما خصيصاً لتمـنـحـهم عرضاً لقصة معركة الانتصار على السراسنة.

ومن فوق الريوة، حيث منزل لورينزو، كانت ماريا تشاهد ما حدث، وإلى جانبها كان أبوها يُراقب العرض سعيداً:

- أتدرى يا ماريا.. سأجعلهم يقدمون عرضاً خاصاً الليلة، بحضور الدوق ماركيزيو.

رمقها بطرف عينيه وهي تتركه وتغادر إلى الداخل. مجرد ذكر هذا الاسم جعلها تبتعد. يقلقه هذا كثيراً، فتدليله لها يؤتي ثماراً غير جيدة تهدد خططه. إنها تفهم ما يرمي إليه والدها، تعني جيداً أنه لن يكفي عن السعي، إلا وهي زوجة ذلك الدوق المتغطرس. مررت بوالدتها، كانت تطلي وجهها بمساحيق التبرج التي أتى بها أبوها من روما. لم تجب على سؤالها عن الضجة في ساحة القرية، تركتها ودخلت إلى غرفتها الجديدة.. الأثاث الجديد لكل المنزل قد اختاره والدها بما يظنه لأنقاً بوضعه الجديد كنبيل حقيقي. أتى لها بفراش وثير ومرآة من البندقية، وألقى بالأثاث القديم إلى بائع فقير. ولكن الغرفة احتفظت برفيقين قديمين: تمثال العذراء، وحصان خشبي لا يعرف أحد هنا أنها تمتلكه. روح تعيش أسفل وسادتها، تؤنس أحلامها في النوم. ووحدتها في اليفضة. وتُخفيه بين وقتٍ وأخر في حوض الزهور على سور شرفتها، لعله يُنادي صاحبه فيأتي.

لم يعد هناك من يُشعّل شموع المذبح سوى الأب ليو. بثوب خشن من الصوف وإزار من حبل غليظ، وقف وسط القاعة الخاوية يقلب وجهه بجنباتها، ثم سار ببطء متوجهًا لباب الكنيسة الصغيرة. انفرج الباب، ليكشف الطريق إلى القرية والذي صار خاويًا من الذاهبين من وإلى الكنيسة منذ أن بدأ تطوير القرية، عدا يوم الأحد. الكل منهمك في البناء والأشغال صباحاً، وبعد المغيب تتعالى ضحكاتهم من حانة سباستيان، فاقت الهمبات مع قلة الطالبين لصكوك الغفران، وحتى لورينزو لم يعد يحتاج إليه، فهو إلى جانب البابا وبنلاء بنفينتو. دار بعينيه في الأشجار المحيطة بالكنيسة، قبل أن يلحظ إليساندرو يتهدى في مشيه تتابعت ذراعه فيولا. اقتربا منه ضاحكين: أصبحت وحيداً الآن؟

قالها إليساندرو بصفاقة، فيما رماه الأب ليو بنظرة غاضبة:

- مَنْ يخدم الرب ليس وحيداً.

ضحك فيولا، فيما قال إليساندرو:

- لماذا رفضت قرار تكوين جيشٍ صغيرٍ لمقاومة الغزاة؟

كان السؤال مباغتاً. بسبب معارضته ذلك القرار لم تمنح الكنيسة حقها في التطوير كبقية أرجاء القرية. يذكر يوم جاءه لورينزو طالباً منه أن تكون عظة الأحد لدفع شباب القرية للالتحاق بالفرقة الحربية تحت قيادة إليساندرو، فرفض. ما إن يمتلك ذلك المراهق المتجرف القوة، سيطير بالجميع ويعيث في الأرض فساداً. بالطبع رفض، لأن الأمر سيجلب مهلكة على القرية والأنحاء، فالأخباء يجب ألا يُصبحوا حكاماً، والآباء يجب أن يعوا قدرات ابنائهم الحقيقة. إن لم يكن الأب قادرًا أن ينصح لابنه، فعلى خادم الرب أن يبصّره:

- دوماً ما يقود الكيش الحملان إلى المذبح..

عقد إلساندرو حاجبيه متحدياً:

- هل يجب أن نبقى مستضعفين، نحتمي بالكنيسة وقت غزوهم لنا؟ لماذا ترفض أن تثور الحملان؟

أتم صوت الأب ليو عميقاً:

- الحملان لا تثور، إنما تتبع إرادة الرب. كيف ستحاربهم وهم يحكمون العالم يا صغيري؟

لوح إلساندرو بيده أمام وجه القس:

- إذن علينا أن نستمتع بحصولهم على أموالنا وديارنا! علينا أن نرضخ ونكون عبيداً لهم! أيندخلون في شئون بلادنا وننصرهم فيهم ونسى هويتنا؟.. علينا أن ننسى دين الرب؟ ما هكذا تكون الأمور أبداً يا أبي.. إنهم مجرد برابرة وثنيين، ألم يأذن الرب لموسى بهجران مصر وأذن بعد ذلك له بحرب العمالق؟ اسمع يا أبي، إن كنت خائفاً من العواقب.. فالتضحيات يحفظها الرب ويقدرها ولما كان صلب من أجلا.. ضحي من أجلا ولقد جاء الوقت لنقف أمام المد البربرى ونضحي من أجل..

قاطعه الأب بصرامةٍ:

- اصمت يا فتى، كفاك تتجاهلاً وتديننا زائفًا. أنت لا تُريد سوى سفك الدماء بحثاً عن مجده يرفع من شأنك، عسى أن يصيبك الثراء والبذخ. مادا تعرف عن الرب لتتحدث باسمه؟

صرخ إلساندرو بوجه الأب ليو، الذي وسعت عيناه جراء الصوت المرتفع:

- كفى أيها الأب.. لقد تخطيت حدودك معي في الحديث.. إن كنت ترفض الحرب، فاللزم كنيستك وأغلق بابك عليك وتضرع.. ولا تنس أن تقول للرب إن الحملان ستثور.

استدار الفتى راحلاً وهو يداعب فتاته، وقبل أن يختفي بين الأشجار صاح دون أن يلتفت:

- نسيت ما جئت لقوله لك. عليك أن تحضر عرض المساء، فالليوم سيعلن أبي على الجميع خبراً ساراً.

أضاعت المشاعل طرقات القرية الخاوية، فالجميع ذهب إلى الساحة لمشاهدوا عرض الجوقة الموسيقية، أمر لورينزو بصنع مدرج خشبي، وما إن انتهوا النجارون من تجهيزه، حتى اكتظ بأهل القرية. حفل على شرف الدوق ماركيريو، العائد من نابولي بأخبار سارة، والذي جلس في مقدمة

الصفوف إلى جانب عائلة لوريينزو، مرتدًا قميصاً رماديًّا، نقش على صدره صليب فضي زخرفت حوافه بلون بنفسجي، وتلت حرملة بنفس اللوان عن كتفه اليسرى. كان في أبهى صورة له، كما هم جميعاً، يتحين الفرصة للنظر إلى ماريا مبتسماً، بينما تولي وجهها متظاهراً بالحديث مع أمها، التي بدت في فستانها الأصفر أكثر سمنة. وإلى جانب الدوق، كان لوريينزو يجلس متفاخراً، ينوي أن يعلن خطبة ابنته للدوق. زوجة ستمنحه مزيداً من النبلة والشرف. في تلك الأثناء خرج راوي الفرقة السمين إلى الساحة، خفض رأسه قليلاً ليحيي الدوق والنبيل، ثم اتجهت أنظاره للجمهور مبتسماً:

- سعداء بوجودنا هنا في سان فيلي، بلدة الشجعان.

عقدت ماريا حاجبيها، وحاولت إخفاء ما اعتراها من ضحك، فالرجل يكذب.. عن أي شجعان يتحدث؟!

- ما ستشاهدونه الآن هو رحلة بطولة وبسالة وتضحية منقطعة النظير..

خرج إلى الساحة بالتزامن مع حدثه أحد شباب الجوقة، يرتدي قميصاً أزرق خفيفاً مشقوقاً صدره، يحمل سيفاً يشع كلما اصطدمت به أضواء المشاعل، ويمسك بيبراه درعاً زرقاء زينت بورودٍ ثلاثة ذهبية.. دمدمة الطلبل سرت بأرجاء المكان، مع حركة الفتى الخفيفة وصوت الراوي:

- رولان الشجاع.. خاض جبال البرينيه مع جيش عمه الإمبراطور شارلمان بن بيبن بن شارل مارتل.. عبر إقليم الباسك حيث مدينة بنبلونة التابعة لنفوذ السراسنة، ومنها توجهوا إلى سرقسطة لتحريرها من الشيطان.. حتى جاء جيش الظلام بقيادة الداخل.

ظهر في تلك اللحظة، في الطرف الآخر من الساحة، شاب آخر يحمل درعاً مستديرةً صغيرةً، وحربة علقت عليها راية بلون صبغة وجهه السوداء، من خلفه مجموعة من شباب القرية ارتدوا نفس الزي المزركش، ودهنوا وجوههم بطلاء أسود، تحركوا ناحية رولان. ومجموعة أخرى ظهرت بزيها الأبيض ذي الصلبان الحمراء خلف فتى أشقر، والراوي يستطرد:

- حين علم العظيم شارلمان أن جيوش السراسنة قد تخطاهم عبر طريق آخر إلى بلاده، أزال الحصار وترك خلفه رولان مع بضعة فرسان شجعان.

ارتفع صوت الناي مقتناً بصوتٍ أثنيو عذب يتزنم:

- لم يبق سواك وحيداً.. ولكن من كان الرب معه لا يعرف الوحدة..

صمتت الفتاة، وعاد الراوي يقول بصوتٍ رصينٍ:

- كان رولان مؤمناً.. مستعداً للتضحية بحياته من أجلنا. يقي ليؤمن ظهر جيش عمه شارلمان، ولما وصل الجيش إلى قمة المرات الجبلية، رأى أوليفير جيشاً جراراً من العرب والباسكيين..

ارتفعت دممات الطبول، وقد خلا المسرح من الجميع إلا من يلعب دور رولان وصاحبته أوليفير

الذي حدثه خائفًا:

- يا صديقي رولان، صدّقني.. من الأفضل أن تنفس في البوق، لتعلم عما وجيئنا أن الخطر قادم.

أمسك رولان بكفيه:

- وحق إلهي، لن يلجنني أحد أبدًا إلى طلب النجدة، ولن يستطيع أحد أن يقول يوماً إن رولان كان خائفاً، وفي المعركة سوف أضرب ألفا وبسبعين ضربة، وسترى الدم يخضب سيفي.. كل الفرنسيين شجاع مثلـي، وسيفعلون كما أفعل، وسيموت السراسنة أهل الأندلس.

أشهر سيفه متابعاً بصوت جهوريٌّ:

- فليخضب سيفي بدماء الوثبيـن.

تعلق العيونُ بحركات الفتى وصوته المؤثر، فيما كان الراوي يقول بصوتٍ هادئٍ:

- ولكن جاءت الخيانة من الباسكيـن.. هاجمت قواتٌ من أطاعوا الشيطان مؤخرة جيش الإمبراطور المقدس شارلمـان.

خرجت للمشهد مجموعةٌ ترتدـي زيًّا أصفر، إلى جانب من يمثلون العرب، والراوي يكمل:

- حاصروا رولان وأوليـفـير بين الجبال، في وادٍ سـحيـق.. كان شارلمـان حزيناً، وكذلك كان كل الفرنسيـين يـعـرـفـون السـبـبـ. كلـهم يـخـافـون على رولـانـ، بعدـما عـرـفـوا بما فعلـ جـانـلـونـ الخـائنـ. لقد وضعـ رولـانـ في مؤـخرـةـ الجيشـ ليـكـونـ أـضـحـيـةـ للـسـرـاسـنـةـ. الجـبـالـ عـالـيـةـ، وـالـصـخـورـ تـصـعدـ نحوـ السـمـاءـ، وـالـأـوـدـيـةـ سـوـدـاءـ، وـالـفـرـنـسـيـونـ يـحـثـونـ الخـطـىـ لـحـمـاـيـةـ بـلـادـهـمـ، يـصـعـدـونـ الجـبـالـ بـمـشـقـةـ بـالـغـةـ وـالـأـحـجـارـ تـنـزـلـقـ مـنـ تـحـتـ أـقـدـامـهـمـ. صـوتـ الجـيـشـ المـتـحـركـ يـأـتـيـ مـنـ بـعـيدـ. عـبـرـواـ الوـادـيـ إـلـىـ بـلـادـ الـغـالـ، تـذـكـرـواـ دـيـارـهـمـ وـأـلـادـهـمـ وـزـوـجـاتـهـمـ، حـينـ رـأـواـ وـجـوهـاـ مـأـلـوـفـةـ. وـلـكـنـ شـارـلـ كـانـ حـزـينـاـ.. فـقـدـ تـرـكـ فـيـ الـأـوـدـيـةـ السـوـدـاءـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ اـبـنـ أـخـيـهـ رـولـانـ، الـذـيـ يـحـبـهـ كـثـيرـاـ..

أنهى كلماته، في حين التفت زمرة المحاربين حول الشابين، يتمايلون على قرع الطبل، يدورون حولهم قبل أن يقفزوا في الهواء.. استعراض راقص على جثث البطلـين.. رولـانـ وأـلـيـفـيرـ. اصطـكتـ السـيـوـفـ وـتـعـالـتـ الصـيـحـاتـ، زـادـ إـيـقـاعـ اللـحنـ لـيـعـطـيـ روـحـاـ مـلـحـمـيـةـ، اتسـعـتـ عـيـونـ الجـمـهـورـ، قـفـرـ رـولـانـ مـلـوـحـاـ بـسـيـفـهـ فـيـ الـهـوـاءـ صـائـحاـ:

- فالـمـجـدـ أـنـاـ صـاحـبـهـ، وـالـرـبـ أـنـاـ خـادـمـهـ.

ترانيم الفتاة كانت ملحمية، أضفت على المشهد قـشـعـرـيرـةـ سـرـتـ بـأـوـصـالـ الجـمـهـورـ، فـالـبـطـلـ رـولـانـ كـانـ يـقـاتـلـ بـبـسـالـةـ، أـلـقـىـ بـدـرـعـهـ وـرـفـعـ مـكـانـهـ صـلـيـباـ كـبـيـراـ وـبـالـيدـ الـأـخـرـىـ كـانـ سـيـفـهـ يـطـيـحـ بـالـسـرـاسـنـةـ وـحـلـفـانـهـمـ مـنـ الـمـسـيـحـيـيـنـ الـبـاسـكـيـيـنـ، سـقـطـ أـلـيـفـيرـ أـرـضاـ، فـيـمـاـ ظـلـ رـولـانـ يـقـاتـلـ لـيـبرـ بـقـسـمـهـ.. خـفتـ

صوت ترانيم الفتاة وهو يتدخل مع صوت الراوي المقترب بأذن الناي:

- أصيب رولان، ولكنه لم يسقط. أحاطته أجححة ملائكة الرب..

ظهرت صاحبة الصوت العذب وعلى ظهرها جناحان ببياض الثلج صنعا من ريش أوز تدفع المهاجمين بعيداً. أحاطت رولان بين ذراعيها، وحبات الدمع تناسب من عين رولان، وقد تلطخ قميصه ووجهه بلون أحمر قاني... بكوا جميعاً، مع صوت القيثارة التي طفت على اللحن، والراوي يُكمل:

- عاش رولان بطلاً، وحظي بما تمنى.. فها هي ذي الملائكة تحيطه بعانتها.. ولكن ليس لأمد بعيد.. فالبطل يموتون سريعاً دون خوفٍ.. ولتسري دماؤهم تروي أرض الرب المباركة. قبل أن ترتقي روحه.. كان عليه أن يخلد ذكراه، ليسمع جيش عمه صوت النهاية..

أمسك رولان البوق بيد مرتعشة مخضبة بالدماء، وراح ينفخ فيه.

- ارتعشت الأرض، وردت الجبال صداها إلى الجانب الآخر، ليسمعه شارلمان، قبل أن تغمد فيه سيف المهاجمين، وهو ما زال بأحضان ملك الرب.

سقط الفتى أرضاً. جسده توسط الأجساد المبعثرة، وحدقت عيناه في السماء والراوي يتبع بأسى:

- رحل إلى حيث القديسين وبقيت أنسودته شاهدة على تصديه للبرابرية المتوحشين..

صمت عَمَّ أرجاء المكان. أجهشت العيون بالبكاء، فلم يعد إلا صوت نحيب هنا أو هناك. لحظات مرت، قبل أن ينهض الفتى ملوحاً بسيفه، فيما انضم له جميع أعضاء الفرقة ومن عاونهم، لتحية المشاهدين، الذين صفقوا بحرارة وألقوا الورود عليهم. تأثر البسطاء بالعرض.. رولان هو البطل الذي يجب أن يكون مثله جميع أهل القرية، لمواجهة العدو. أعجبت ماريا بالعرض أيضاً، وتساءلت إن كانت للسراسنة أناشيد تحكي قصص أبطالهم. لوريينزو نهض مبتسمًا، وتوجه إلى حيث يقف أعضاء الجوقة قائلًا:

- أسعدتمونا يا سادة.

نقل بصره إلى حيث تجلس عائلته ومن خلفهم أهل القرية:

- والآن، بعد أن استمتعنا بأشودة وبطولات القديس رولان.. أزف إليكم هذا الخبر السار..

حضرت الكلمات بحلق لوريينزو.. فَغَرْ فَاه محملًا خلف الجموع، فعلى ضوء المشاعل البعيدة كانت تتقدم زمرة من الفرسان، درواعهم تعكس ضوء لهب ارتعنت آلسنته. لقد بزوا من العدم بمدخل القرية الجنوبي، فتجمد كل شيء، واصطبغ وجه لوريينزو بالهلع. أهم السراسنة بداخل قريته، أم أن هذا كابوسٌ أو خيالاتٌ من تأثير المسرحية؟!

شلَّ الفزع الناس، فلم تعد تسمع إلا همساً، وتعلق الأعين بفرسان بدأوا تبينهم مع اقترابهم، فإذا بصدورهم تكسوها دروغٌ من حرافش برونزيّة، يعتمرون خوذاتٍ نحاسية تشبه القباب، وملابسهم

من قماش أسود حيًّك بجلدٍ دبغ بالزيت مئات المرات، تنسلل على أكتافهم برداتٍ خضراء قاتمة طولية، تُغطي النصف الخلفي لخيولٍ حربيةٍ ولدت من رحم ليلةٍ ظلماء، زينت بسروجٍ جلديةٍ ذات حلٍ فضيٍّ تُغطي النواصي والأعناق، وكعصبَةٍ من الضواري أحاطوا بالمكان. كان أول من استفاق هو الدوق ماركيزيو، الذي تحرك بعصبيةٍ نحو المهاجمين، لكنه لم يكُن يتقدّم خطوتين، حتى وجد هم يُحيطون بالمكان من كل جانبٍ. لا مفر للآن، وقد جاءهم الموتُ قُبلاً.

جواهُرٌ فتىٌ واثقُ الخطى تقدّم متهدّياً، تَرْقُّ خطاوته القلوب المرتاعَة، اقترب حتّى إن زفرااته لفت وجه الدوق الخائف، بينما رفع فارسه الخوذة بهدوءٍ، وأدار بصره في وجهِ الجموع كما لو أنه قد أصابه مسٌّ من غرورٍ. يومان من الرباط على سفحِ الجبل القريب، يتحين لحظةً لدخول القرية، فحراسُ الدوق ورجالُ لورينزو أكثر عدداً من فرقته، وعليه أن يتقي الاشتباك وخسارة الرجال. لقد جاء من أجل شيءٍ واحدٍ كلف به، لذا دخول القرية في الليل أفضل، وخيوطه السوداء منحت فرقته ستراً في ليلةٍ غاب قمرها.

لقد فاجأ أهل القرية، فاعتقدوا أن وراءه جيشاً جراراً وما هؤلاء إلا مجرد الطليعة. حكَّ لحيته الكثة السوداء، ثم ابتسم قائلاً بالعربية:

- السلام على من اتبع الهدى.

كانت ماريا أسعد أهل الأرض في تلك اللحظة. كادت أن ترکض بينهم بحثاً عنه. في البداية، ظنته هذا الفارس، ولكن حين خلع خوذته خاب ظنها، كان شاباً أبيض الوجه، ارتكى شعره إلى ما تحت أذنه كثيفاً بلون جواه الفاحم، لحيته كثة مهندمة، وعيناه الواسعتان زادهما الكحل الأسود بريقاً، وثغره باسمٍ. تمنتت بسلام العرب في خفوٍ، فيما قال الدوق وقد ذهب عنده الروع:

- وعليك السلام.

لم يفهم جنوده ما قال، ولكنهم سحبوا سيفهم فجأةً. شهقت النساء، وصرخ الدوق برجاله ليتوقفوا عن فعلتهم. رقمهم بنظرٍ غاضبةٍ وهو يرفع يده في الهواء، في حين لم تتوتر الجياد وفرسانها الملثمون.. كانوا المهيمنين على الوضع بكل الأحوال. ابتسم قائدُهم وهو يقول بهدوءٍ باللاتينية التي يفهمها الجميع:

- ما جئنا هنا للحرب.. فقط أخبرونا أين منزل الطبيب كاراس، وسنمضي في طريقنا..

انفجرت براكين الحق في صدر لورينزو. صبَّ اللعنات سرّاً على رأس أخيه الذي لم يحضر العرض. كان قد نسي أمره، فمنذ شهور لم يزعجه بهرطقاته. لم يعد كاراس يُغادر منزله إلا للبحيرة، ويداوي الجرحى صامتاً لا يتحدث مع أحدٍ. فاض كيل البغض بوجه لورينزو، وتولّت أسئلة جمةً بثنياً عقله، فيما كان إلیساندرو يبحث عن سبيل للهرب من الساحة. تجاوز الصفوف منحني الظهر، بينما فيولا عيناه معلقتان بالبربريري الوسيم فوق الجواه الأسود الذي لم يتوقف عن الحركة، وصاحبِه يُكمِّل حديثه:

- ما بالكم لا تُجيبون؟

ابتسامة مقيمة بدت على وجه الدوق، ولكنه سرعان ما أخفاها وهو يشير إلى لورينزو:

- سيرشدمكم إليه النبيل.

نال الدوق نصيبه من اللعنات التي أطلق لها لورينزو العنان لتركض صامتةً في ربع عقله. أشار بيده وهو يقول:

- ستجده قرب سور الجنوبي في آخر القرية.. إنه أخي، ما خطبه معكم؟
لكر الفارس جواده، ليتقدم خطواتٍ ناحية لورينزو المترقب:

- أنت السيد لورينزو؟
أومأ برأسه في سرعةٍ:
- نعم.. أنا لورينزو.

كان جلياً أن الخوف تملّك من روح الرجل وراح ينساب إلى الجميع. كانت حماستهم منذ قليل قد حرّكتها تمثيلية الجوفة، وأحلامهم متعلقة بزجاجات النبيذ ورقصة ماجنة، بعد أن يلقي عليهم النبيل خبره السار. يُشاهدون الآن مسرحية واقعية، قد يكون المشهد الأخير فيها موتاً، ولكن ليس كموت رولان البطل. دار العربي بفرسه حول لورينزو..

- نعتذر عن دخولنا للقرية بهذا الشكل الفظ..

لم يتوقع أحدٌ ما قاله ذلك البربرى. ليس شيئاً كما رأوا في أنشودة رولان وبطولات شارل مارتل. لم يكن همجياً، كان مهذباً وهادئاً، هكذا هي الذئاب مبهرة المظهر، ناعمة الفراء، حتى تظهر أنيابها. لم يفهم لورينزو ما يحدث، كما عقد الدوق حاجبيه هو الآخر والفارس يشير لأحد رجاله قائلاً بالعربة:

- أؤمر الرجال بالقدوم.

صاحب الرجل مكبراً ثلثاً، فائز عجت الوجوه مرة أخرى، إذ لم يفهموا ما قال، وإن بدت كصيحة تواصل بين السراسنة، أو لعلها إشارة ما، فتوتر جنود الدوق الذي شعر بالضعف والمهانة. سرعان ما انجلى صوت صرير عجلات، ودخل الفرسان يسيرون حول عربتين تجرهما بغال شهباء قوية. في تلك اللحظة، أيقن الحضور أن هناك المئات من الفرسان خارج القرية، وتمتنع إحدى النساء في خفوت وهي تحاضن صغيرها: إنهم شياطين، يختفون نهاراً وينبثقون من رحم الظلام.

خلف أحد الجدران، كان إليساندرو مستترًا بالظل، يشاهد مرور العربتين، والمزيد من الفرسان يتدفعون خلفها، فتسدل عائداً عبر الأكواخ والأغصان، حتى يتمنى له مشاهدة ما سيحدث في الساحة من بعيد. لم يكن أحدهم يشبه الغريب الذي آتوه منذ شهور، ولكن شيئاً ما حدثه أن الأمر يتعلق بالضيف القديم. لم ينتظر الفارس المكتحل قدوم العربات ليُفصّح عما جاء به إلى القرية، قال محدثاً لورينزو:

- لقد جئنا لك بهدية..

غمغم لورينزو وقد اعتراف الخوف، من أن يُقال إنه تابع للسراسنة:
- أنا! يبدو أنك أخطأت.. فأنا لا أتعامل معكم.

وأشار إليه الفارس ضاحكاً:

- الهدية لا تخصك أنت بالأخرى، وإنما هي لابنتك ماريا وأخيك كاراس.

دھس أحد البغال تاجاً خشبياً، كان قد سقط من فوق رأس أحد أفراد الجوفة الموسيقية، التي اندسَّ أعضاؤها بين الحضور مذعورين. توسيط العربتان الساحة، بينما تهاشت ماريا النظر إلى أبيها، وقلبها ينبعض بقوّة لم تعهدها. رمقها ماركيزيو بشكٍ وريبةٍ. كانت تفصله دقائق عن إعلان أبيها نبأ زواجهما منه، فهل العروس على صلةٍ بالسراسنة؟ لم تمنع نفسها من إبداع الفرح رغم نظراته القاسية، وفي تحدٍ تقدمت نحو الفارس قائلةً بالعربية:

- هل هو من أرسلك؟

جحظت عيون أهل القرية، فابنة النبيل تتحدث لغة الغزاة. تفحصها الفارس قبل أن يقول:
- نعم.. أنت ماريا؟

غمرت وجهها حمرة الخجل، وأنقذها عمها كاراس الذي تجاوز الجميع محملاً في الفرسان وعرباتهم بفضولٍ:
- ماذا هناك؟

استدار له الجواد وراكبه المكتحل:
- أنت الطبيب كاراس، أليس كذلك؟

أومأ كاراس بارتيايبٍ:
- نعم أنا هو. ماذا تريدون؟

- لقد جئناك برسالةٍ وبعض الهدايا.

مدّ الفارس يده برسالةٍ أخرجها من جرابِ جلديٍّ علق بسرج جواده، التقطتها كاراس وبهدوءٍ فتحها، وأخذ يقرأ ما فيها بعينيه مبتسمًا، فيما كان الفارس يمنح ماريا الرسالة الأخرى، دون أن يلحظ أحد، فالجميع يتبعون الطبيب العجوز.. لم تفتحها.. نظرت حولها، وأخفتها بين طيات ملابسها. أنهى كاراس قراءة الرسالة، ثم رفع بصره للفارس مبتسمًا:

- ما فعلنا سوى ما يُملئه علينا ضميرنا كبشرٍ.

أو ما الفارسُ برأسه متفهمًا:

- هل أمرُ الرجال أن يسحبوا العربية لمنزلتك؟

ضحكَ كاراس ملوحًا بيده الممسكة بالرسالة:

- لا داعي لهذا.. إلا إذا كنتم تودون المبيت الليلة عندِي.

- لا، شكرًا لك، جننا نؤدي أمانةً ونرحل.

جذبَ لجام جواده، ليواجه لورينزو الذي لم يفهم حرفاً من الحديث الذي دار..

- العربية الثانية ملك لابنك..

نطقها باللاتينية وهو يرتدي خوذته، مشيراً الرجاله بالتحرك، فيما حثّ جواده للتقدم ببطء نحو الدوق قائلاً:

- استمتعوا بحفلاتكم..

ابتلعهم الظلام خارج القرية، وتركوا وراءهم فريستين للأعين المتحفزة التي تفيضُ بالتساؤلات.

كالبحر حين يكتم أسرارنا، يبعثرها بتقلبات موجه، يحولها إلى أنشودةٍ يهدى بها، ترتطم بالصخور وتتحسر ثانيةً، كذلك هي نقوسنا ينتابها المد والجزر، وكلما لممنا شتاتٌ أفكارنا تتبعثر مجددًا. شهورٌ مضت، تغير فيها سُودان. عقله حلق في فضاءٍ شاسعٍ، ولم تعد حياته تتوقف عند وفاة زوجته وطفليه. استمر حاملاً لواء الإيمان باللقاء، عُرِضَتْ عليه الدنيا وحظي بالمجد والنفوذ، وخاض معارك يشيب لها الولدان، واجتهد لنشر العدل والسلام بين المدن والقرى التي قام بفتحها، واستكمل بناءً مسجد المدينة، الذي يقع الآن بالمصلين وطلبة العلم. كل شيء أصبح كما يريد، إلا هو. كان يعلم أن كل شيء بمقدار، ولا أحد يأخذ كل ما في الدنيا من نعم. طفل شعيب يكبران أمام عينيه، يراهما كل صباح يلعبان في ساحة القلعة، فقدا أباهما بسببه، هكذا علمتهما أمها التي بقىت لها أيام وتنقضي عدتها. ستعود إلى إقريطش حاملةً معها ذكرى سيئةً ولوًما سيبقى أمد الدهر. كل شيء بمقدار.. يتحاشى عينيها اللتين تفيضان بالمفت لـه، أنس صوت رملة ليالي الربيع الفانٍ تقص على البحر قصصهما نثراً، باقية على عهدها لروح زوجها الراحل. يلتج النهار وهي على حالها، حتى تخرج النوارس للبحر فيما تعود هي إلى غرفتها وأولادها. وردة ذبلت في ربيع عمرها. ما زالت ترتدي لون

الحاد الأبيض، يلمحها من بعيدٍ فيتجسد فيها الوفاء والحب. ببها لزوجها نيش صدره بحثاً عن إجابة سؤال عجيب: هل سيجد من ينوح عليه ويحزن إن مات؟ قد تروي القصص والأشيد عن أمير باري، ولكن ماذا عن سودان ذاته؟

اقترن بكلمات رملة ورثتها طيفٌ يتمثل فيها. وشاح ماريا ما زال يحمل عبق عطرها، يشتم فيه رائحة الاشتياق. صار يدرك أنه بحاجةٍ إلى خليلٍ تملأ حياته ويسكن إليها وتشاركه كل لحظاته. تمنى أن يكون له أطفال من صلبه، يحملون اسمه وسمته، يشبون فرساناً لا يُشق لهم غبار، مجاهدين بالفطرة مثله. أي خيال جامح الذي يُلقي بها في لياليه! قاوم كثيراً وساوس الشياطين، واستعان بالصبر والصلادة، ولكن ماريا صارت حقيقة في قلبه، وصارت الذكرى قرين العين وأنيس القلب، تحوم حوله الرؤى فلا يدرك أحلم أم علم، والحقيقة الوحيدة التي أصبح يعيها تماماً هي أنه ليس سودان الذي عرفه طوال سنوات عمره حتى ما قبل الحادثة، إنه لم يخرج هذا الصيف لحملته الصيفية، واكتفى بإرسال سرايا صغيرة إلى الشمال لبث المهابة في نفوس العدو، وانشغل هو بمعركته مع النفس. فاعزل الناس يبحث عن ذاته، ويريد أن يفهم نفسه ويفهم الحياة والإنسان. حتى شئون الإمارة انتمنٍ عليها أبي المغوار. المطالعة حلت مكان تدريبات الحرب، والتريض بالفرس حول المدينة أصبح خلوة يومية. كان يجب الغابة القرية، يطارد طيفها بين الأشجار، وكأنما مسته ماريا بالجنون. مرت شهور، وربما نسيت هي أمره، لكن لمسة يديها يوم رحله كانت كافية لإشعال نار كانت قد حمدت..

لم يرض أبو المغوار عن حال سودان، فجالسه كثيراً وتحدى معه، ولكن الأخير لم يُصفع، فقد أصابه داء الهوى. يقول القاضي إن الهوى بداية للانشغال بحب الدنيا ومذاتها. يقول إن الحب لا يأتي سوى مرة، فإذا رحل تبقى مآثر الحبيب بالوجود تُعزّيه وتؤنسه، وأما الهوى فهو ميل يُضلّ الرجل عن طريقه وجهاده. اقتراح العجوز عليه الزواج من الأميرة رملة، فكل النساء سواء، وهو قد يطّيب خاطرها بهذا، والأهم يُسكت حديثها عن ضياع المحاربين وانهدام البيوت، الذي قد يُثير قلقلة عظيمة. كان لأبي المغوار وجهة نظر في تلك المسألة، فزواجهما سيمنح سودان علاقة أقوى مع إقريطش.. زواج سياسي يحمي به ظهره وقت الحاجة. لكن سودان رفض بشدة، لقد انشغل طوال سنوات بالحرب والمعارك، ومن حقه أن يأخذ لنفسه هدنة يُفكّر في نفسه وحياته. منذ عرفها، أخذت ذكرى البحر المشتعل تختفي من منامه، وأحس أن الحياة تتجدد ولا تتوقف عند رحيل الأحبة. تناشرت القصص بالمدينة حول الأمير، تقول إن إصابته في رحلة الصيد التي قُتل فيها رفاته بليغة، ولكن سرعان ما انتشر خبر إرساله الهدايا لأمرأة رومية كانت تمرّضه في غيبوبته. لم يكن في الناس استياء على أي حال، فالحياة في المدينة وتطويرها والتنعم بالأهل والهدوء كل ذلك له مذاك لليس للحرب.

كان قسورة التمييزي أشد المعارضين لإرسال هدايا للأعداء، ورغم ذلك هو من حمل الرسائل والهدايا إليها. نعم هؤلاء من أنقذوا الأمير، ولكن في النهاية هم أعداء، ولو كانوا يعلمون أنه سودان أمير باري لكان رأسه معلقاً على بوابة القرية. لقد رأى في عين الفتاة وهج البهجة حين منحها الرسالة، وهذا أشعل الأفكار في رأسه أكثر. رحل عن القرية متوجهًا غرباً، عبر الجبال المكسوة باللون الأخضر، لينضم إلى فيلق أبي المغوار الذي يُعسكر على تخوم مدينة ساليرنو، التي تخضع لحماية

إمارة باري. خيام رمادية تكسو الوادي، رايات بيضاء وخضراء وسوداء تخفق.. بينما تمر فرقه الجياد السوداء أفسح الجميع لها الطريق، تحظى بمهابة كبيرة بين الجنود. اتجه قسورة إلى حيث خيمة القاضي الفقيه، فترجل عن جواده في خفة مبتسماً، ثم تقدم صوب فتى يحمل قدر ماء، فمد يديه وارتشف بضع رشفات، قبل أن يمسح عن وجهه عرق الرحلة. دخل إلى خيمة أبي المغوار، الذي استقبله فاتحاً ذراعيه:

- مرحباً بأمير الجياد السوداء.

ضحك قسورة وهو يحتضن أبي المغوار:

- ليس هناك أمير أمام من شب على يديه الفرسان يا سيدتي القاضي.

ربت أبو المغوار على كتفه:

- لا تقلل من نفسك يا قسورة، فالجميع يتحدث عن فرقتك التي تلقي المهابة والفزع في قلوب من يواجهها. قل لي، كيف كانت رحلتك؟

- كما أردت يا سيدتي، وقد كانت لك حكمة وبصيرة.. كان دخولنا للقرية مهيباً، استغللت وقت الغفلة حيث كان لديهم حفل سمر، فسلمت الرسائل إلى أصحابها، وخرجنا وما زالت الدهشة تعم الوجوه.. أخذتهم المفاجأة فظلوا في أماكنهم جاثمين..

ألقى إليه أبو المغوار بتفاحه:

- وكيف كانت صاحبة الرسالة؟

تلقها قسورة، وقضمها، وأخذ يلوكيها ببطء مغمض العينين:

- هذه المرة الأولى التي يتختلف فيها سودان عن الحملة الصيفية. لم يعد ذلك رفيق الدرب القديم الذي أعرفه، نالت منه سهام الهوى..

بصراة قاطعه أبو المغوار:

- لا.. بل أصابه ما يصيب أي رجل.

توقف قسورة عن المضيع وقد عقد حاجبيه، فيما أكمل أبو المغوار:

- لقد فقد سودان أسرته. خاض حروباً كثيرة، لم يهزم في معركة واحدة. تجنبه الموت مراراً، لكنه اقترب منه كثيراً هذه المرة. الخلوة التي حظي بها في تلك القرية منحته سكينة تحدث زوابع الوحيدة

والحزن التي عاشها طويلاً. مهما شغلت أمور الإمارة وال الحرب عقله لفترة، كان يجب أن يأتي ذلك اليوم..

اعتدل قسورة في جلسته:

- هل تظن أنه جن؟

لوح أبو المغوار نافياً:

- بل وجد الصواب. حدثته في الأيام الماضية، ففهمت أن نفسه تهفو إلى زوجةٍ وولد. إنه حق النفس يا بني لا غضاضة فيه.

صمت الشيخ قليلاً، ثم قال بصوتٍ خفيضٍ:

- لا تظن كلامي هذا تبريراً أو تهوياناً يا قسورة. إنه ليقتاني أن ينسى ذكري ابنتي وحفيدي. ولكن هذا حال الدنيا. دعنا ننتظر، فقد عرضت عليه أمراً ما، وأنظر إجابته فور عودتنا، ولا زلت أثق في قيادته.

أكواخ القرية وجدرانها حفظت مشهدًا أسطوريًا لم يتوقف تناقه وتكلاته وإضافة الخيال إليه. ماريا التي منعها أبوها من الخروج من باب الدار، ووضع حراسة عليه صارت جزءاً ملهمًا من الأسطورة، والعربة التي سكنت أمام الدار دون بغلتها صارت السر الذي يحرك الفضول لمعرفة ما كانت تحمله إلى الشابة الجميلة، حتى البغلة التي سبقت للحظيرة الجديدة حكوا عن كونها مسحورة، وربما انظروا أن يروها تحلق بماريا هاربة في سماء القرية.

نقلت الأقمشة الفاخرة إلى غرفة لورينزو، الذي لم يمنعه حنقه من تقدير الغالية وتأجيل حدثه مع الدوق للصباح. استلقى على الحرير، وأخذ يفكر في الثروة والقوة التي لا يشبع من يتذوقها. مضغ ثمار التين المجفف، والتمر عجيب الطعم طوال الليل وارتباكه لا يكف عن مضغ عقله. لم تزل إلينا شيئاً سوى وعد بأن يُفصل لها ثوباً من الحرير، بينما خزنت الأجولة والسلال بصومعة المنزل. قنينة عطر، وصندوق من العاج والفضة المطلية بماء الذهب، زينت حوافه بكتاباتٍ عربيةٍ ونقوشٍ ورد، يحوي بعض حلبي من ذهب وأحجار كريمة، ومشط منحوتٌ من العاج بشكل غزالٍ كانت نصيب ماريا، لم يمكنه منعها من اقتناه، مكتفيًا بكنز أرهق جره بغلة قوية.

تلمست أناملها محتويات صندوقها، ثم أغلقته وضمه إلى صدرها تودعه رسالة شكر لمن لم ينس. وضعته برفق جانباً، وهي تُفك في الرسالة التي خبأتها في صندوقها الخشبي القديم، بعيداً عن مطامع عين أبيها المحتملة في الذهب. هناك في صندوقها القديم أمانٌ للرسالة الأغلى من الذهب، في حماية فرس منحوتٌ من الخشب، لعله اشتاق لصاحب الرسالة مثلها. تذكرت عمها كاراس، الذي وزّع على أهل القرية كل ما كان في العربية، واحتفظ بثلاثة صناديق، يحوي أحدها ملابس عربية

فخمة، والآخر ان يحويان كتب طب وقوارير دواء واعشاباً. لقد برقت عيناه لرؤيته هذا الكنز.. «هدية تلقي بطبب» كما قالت رسالته. إن سودان يفهم كيف يُفرح صاحب الهدية، ويختار له ما يُبهج روحه، وليس كأولئك الذين يستعرضون أموالهم في هديتهم.. إنه ذكي. كان كاراس لأول مرة في حياته يشعر بأنه قد صار لديه صديق يقدّره. لقد خرج في صباح اليوم التالي معتمراً عمامة زرقاء وعباءة صفراء مطرزة الحواف، ترمه العيون باستغراب وحسدٍ، رغم ما حصلوا عليه من خيرات العربة بالأمس. عض سباستيان - الذي كان حطاباً على شفتِيه، فما جوال الفاكهة المجففة الذي طمع فيه وناله بالأمس، والذي سبب منه لزبان الحانة مقابل المزيد من التفود بشيء إلى جوار تلك العباءة الفخمة.

حتى فيولا زاحت المسؤولين على عربة كاراس، وحصلت على قطعة من حرير كادت أن تمزقها الأيدي المتسخة. الكل تصارع للحصول على نصيبيه من الغيمة، بعدهما اكتفى العجوز بصناديقه الثلاثة، وشك الباب خلفه، لينهش القرويون الوليمة. لم يكن إليساندرو بحاجة إلى شيء من كل ذلك سوى أن يبحث عن حل لازمته، فكذبته على وشك الافتضاح. ابتعد عن المهرجان ولجا إلى فيولا عسى جسدها يشغله ويعيد إليه السيطرة على أفكاره وتوتره، فإذا بها تستعرض في فرح ثوب الحرير الذي فازت به، وتتغزل في صاحب العينين المكتحلتين، والشعر الغزير الأشهب بأسد يعرف قدر نفسه. غبية، نالت صفعة على وجهها، وتركها هائماً على وجهه في ليل القرية، حتى لمح قرب الربوة الدوق ماركزيو يقف متخدلاً مع بعض جنوده في سرعةٍ، يرسلهم لتتبع أثر الخيالة. حاول إليساندرو الدوران من اتجاه آخر ولكن فات الأوان، إذ أشار إليه الدوق بعد أن رأه.. لن ينجو من هذا الدوق المتغفل الحاتق. حيّا الدوق وهو يغوص بعينيه فيه، حتى كاد يقسم أنه حصل على كل معلومة يريدها من عقله دون كلام. سأله مباشرة عن مرسل الهدايا، فالفرسان المدعون والجياد الموحدة اللون ليسوا رسل رجلٍ هينٍ. من أرسل تلك الهدايا إلى العجوز والفتاة؟ أدعى إليساندرو البراءة، وأن الأمر ربما يخص الطبيب وماريا التي تساعد في تجهيز الأدوية، فكاراس لديه أصدقاء كثُر في صقلية، حيث تعلم الطب. إجابة لم تُقنع الدوق، الذي قرر أن يعرف الحقيقة.

في الصباح، سار لوريزو مختالاً بعباءة بيضاء فضفاضة في طرقات قريته، بعد ليلة طويلة مكث فيها مع إليساندرو، يبحثان معاً عن سبب يُقطع الدوق القلق. كان عليهما أن ينفصلاً غبار الخيانة من رأسه. الكل يخمنون أن تلك الهبة هي عرّافٌ وتقديرٌ لكاراس وماريا، وأن الفتى لم يقتل ذلك العربي يوم هرب من القرية. لكن الأب وأبنته سيد عيان أنها من صقلية. إنهم صندوقاً الأدوية والأعشاب، بضاعة أوصى بها كاراس، فأرسلها له أصدقاؤه مصحوبة بهديةٍ تلقي بقدر عذهم كطبيب صديق. قرب برج حجري قيد البناء، وقف الدوق ماركزيو يُباشر عمل بنائين تعرّقت وجوههم وتلطخت أيديهم بالظمي. حين رأى لوريزو يقترب باسماً:

- كيف حالك اليوم سيد؟

رميَ الدوق متفحصاً:

- بخير يا سيد لوريزو..

كان لوريزو يعلم أن الدوق ينتظر حديثه حول ما جرى ليلة أمس، ولكنه قرر أن يتغاضى عن ذكر ما

حدث:

- قريباً سينتهي العمل من هذا البرج، ليكون أول أبراج الحراسة في مدینتي الصغيرة.

رد الدوق على لورينزو بلحظةٍ من الصمت يتأمله فيها، ثم سأله مباشرةً:

- لماذا لم تقل لي إن بينكم وبين السراسنة علاقاتٌ قويةٌ، حتى إنهم يرسلون لابنك عربةً محملةً بالهدايا، وأخرى لأخيك المهرطق؟

كان لورينزو يتوقع السؤال وأعد الإجابة، فسارع برد:

- سيدى، لقد أرسل أخي في طلب تلك البضاعة من باليرمو..

قاطعه الدوق بصرامةٍ:

- وهل من يُرسل في طلب بضاعةٍ ما، يقوم بتوزيعها على العامة؟!

حاول لورينزو الابتسام:

- هذا شأنه، لا يهتم للهدايا.. لقد أخذ بضاعته التي تهمه وترك الهدايا لأهل القرية، وهذا طبعه معهم من زمانٍ طويلٍ.

أشاح الدوق بوجهه متابعاً عمل الرجال:

- أظن أن هناك الكثير من الأشياء التي يجب علينا أن نعيد تقييمها..

لم يفهم ما نطق به الدوق الذي استطرد وهو يولي وجهه:

- سيد لورينزو، لماذا لم تُعلن خبر خطبتي ابنتك؟

تلعثم لورينزو:

- لقد كنت معنا يا سيدى الدوق، ورأيت ما حدث. وقع المفاجأة من دخول السراسنة كان ثقيلاً على الجميع، ولم تعد الأجواء لائقة بـإعلانٍ كهذا وسط تكالب الغوغاء على الهدايا.. هذا لا يليق بمقامكم يا سيدى!

كان الرد منطقياً، رغم تأكيد الدوق أنه ليس الحقيقة، لكنه لم يملك أن يعارض..

- حسناً.. سيد لورينزو.. ولكن لا تجعل تلك العبارة العربية تُنسيك ما كلفت به.

نطقها ساخراً، ومضى منصراً ولو رينزو يتبعه بنظره حتى اختفى بين الأكواخ. رغم أنه نجح في إسكات الدوق، إلا أن نبرة التهديد الأخيرة كانت كافية لإثارة مخاوفه. عليه أن يُعلن خبر الزواج في أسرع وقت. نعم رفضت ابنته الأمر مراراً، ولكن لا مكان الآن للرفض، فهي سبب شكوك الدوق، وعليها تحمل ثمن تصحيح خطئها، وهو لن يسمح لرعونتها بهدم كل ما بناه طوال هذا العمر.

قلعة من رمال شاطئ باري، صنعتها أيدي طفلين لم يتما عقدهما الأول، يرتديان ملابس جميلة لطخت بالرمل، يحمل أحدهما قدرًا صغيرًا من الماء، ليريقه على الرمال الناعمة، فيأخذ الآخر من الطين ويبني أسوار القلعة. منذ أن جلس بعد العصر يتبعهما، ينتظر أن ينهيا عملهما، الذي لا ينتهي. كان سعيداً بروبيتهما يلهوان، لم تدركهما الحياة. تذكر طفولته على شاطئ مدينة باليرمو، يود أن يكون بحاراً يخوض عباب البحر. وحين كبر ومنح ما أراد، سلبه البحر أثمن ماله في الحياة. لم يكره البحر، ولكنه يخافه. لا يأمن هدوءه الخادع، ويخشى موجه الهادر. ليته بقي طفلًا، ليبني مدنًا من رملٍ وحصى.

ولكن حتى مدن الرمل تنهار.. بكى أحد الطفلين إثر سقوط جزء من قلعته. جاءته موجة من حيث لا يحتسب، فأضاعت تعبه الطويل في لحظةٍ. ربّت أخيه الأكبر على كتفه ليشد من أزرته، فابتسم سودان وقرر الحديث معهما.

ضغط الولد على يد أخيه برفقٍ هامساً:

- الأمير سودان قادم... لا تبكِ أمام الأمير.. أنت رجل.

لم يسمع سودان ما قاله عليٌ لأخيه. اقترب منهما باسماً:

- كيف حالكما يا فارسي باري الشجاعين؟

أجاب عليٌ، فيما كان عمر يمسح دموعه:

- بخيرٍ سيدِي ..

انحنى سودان مداعباً أطلال القصر المدمر جراء الموج:

- علينا بناء جدارٍ رمليٍ، ليصد الموج عن القلعة..

جلس أرضاً وهو يشير إلى عمر:

- تعال ساعدني يا فتى!

اقرب عمر بحذر من سودان:

- ولكن أمي قالت ألا نتحدث معك.

وكزه أخوه في ظهره، مما جعل سودان يعقد حاجبيه ناهيًّا:

- لا تفعل هذا بأخيك مرة أخرى يا علي!

خفض علي وجهه، بينما كان سودان يخلع عمامته ويضعها جانبيًّا محدثًا عمر:

- لا بأس يا عمر، لن نتحدث.. ولكن هل تسمح لي بأن أساعدكم؟

ابتسم الفتى وهو يومي برأسه.

ساعة قضتها سودان برفقتهم، تعاون فيها ثلاثة في بناء حصن كبير ذي أبراج مربعة يتوسطه مسجدٌ ومنذنة. وبنوا حوله حاجزًا لصد الأمواج. غمرته سعادة لم يحظ بها منذ أمد بعيد. عيونهما الزرقاء كأبيهما تحمل الأمل، ووجاههما البريئان وضحكتهما، كل هذا بث في نفسه السرور. البنون شق زينة الحياة الدنيا، وهو قد حُرم من الولد كما حُرموا من أبيهم شعيب، فتشابه الحال. الشمس الغاربة ترحل في الأفق وحيدة، ولكن ستعود في الصباح ثانية، تستأنس بأهل الأرض، فتمنحهم دفتها، كحاله الآن بعد أن انتهوا من بناء مدینتهم الرملية فسألهم أباً إبراهيم:

- سيدِي، هل صحيح ما تقوله أمي؟

عقد سودان حاجبيه قلقًا:

- وماذا تقول أمك؟

بعينين تفيضان بالبراءة نطق علي:

- أن أبي في السماء!

ابتسم سودان وقد أزاح عن قلبه همَّ سؤال لم يسأله الفتى:

- نعم يا علي، إن أباكم الآن في الجنة عند الله..

كان عمر قد انتابته سُنة من نوم، وهو يستمع لحديث سودان مع أخيه:

- والدكما كان شجاعًا.. فارسًا مغوارًا ليس له مثيل في بلاد العرب والجم.. كان إلى جانبِي يوم تصيبي أميرًا على باري.. وكان حامي ظهري يوم الحرب مع دوقية بنفينتو.. أذكر يوم حصارنا لمدينة كابوا، كان هو قائد الميسرة وهو من استطاع الدخول للمدينة بعد حصار دام لأسابيع... لم تكونا قد أتيتنا

للنها بعد.. وكانت أمكما تسكن إفريطش.. كان أيضاً بحراً تهابه الأمواج كما هو فارسٌ لا يستطيع أحدٌ هزيمته.

قال عليٌ وقد عم وجهه الأسى:

- سندعو لِاقرِيطش بعد أيامٍ، هكذا تقول أمي.. وأنا لا أريد الرحيل عن باري.

اعترى صوت سودان الحزن:

- يجب أن تسمع وتنفذ ما تقوله أمك.. أعدك، حين تكبر وتصبر شاباً قوياً، سأطلب من خالك أن تنضم إلى جيشي هنا في باري.. أتحب باري؟

أوما الفتى برأسه فرحاً، ولكن سرعان ما تحول فرحة لقلق حين سمع صوت أمه من فوق سور القلعة. كانت رملة تصيح منادياً ابنيها وقد تجلى الغضب في نبرة صوتها.. أمسك عليٌ بيد أخيه الناعس وجذبه قائلاً:

- سذهب الآن، عليٌ أن أسمع كلام أمي.. السلام عليكم سيدى.

ابتسم لها سودان، وعيناه ترمقان رملة التي مازالت تقف موجهةً بصرها نحوه. كان عليه أن يواجهها قبل رحيلها.. ألقى نظرةً على القلعة الرملية التي تشبه مدینته، قبل أن يوليه ظهره ويمضي في طريقه..

قمرٌ ورديٌ هيمن على سماء سان فيلي، رقيق يتنافر مع صوت العزف الصاخب والضحك الماجن في حانة سbastian المشبعة بأدخنة الشموع والمشاعل وجنود الدوق السكارى يتناوبون على احتضان نسوةٍ كن بالأمس قرويات، ترمقهم عيون رجال القرية في مقتٍ آخر، فمن ذا يجرؤ على الاعتراض، حتى لو رأى ابنته عارية الصدر يُداعبها أحدهم في الزاوية المظلمة. جلس الإساندرو وحيداً في ركن من الحانة، قد أضناه البحث عن فيولا، ولم يترك مكاناً بالقرية أو حولها لم يبحث فيه عنها. ترجع كُوب الجمعة مرةً واحدةً.. كل شيء انقلب فوق رأسه.. اليوم اعترف لأبيه، الذي كان يعلم مسبقاً أنه كاذب، لكنه طمأنه أنه سيتولى الأمر، ولكن عليه أن يُعد نفسه لما هو قادر. كان بالفعل قد أمر كازميرو بجمع عددٍ وفير من الرجال، فقد حان الوقت ليثبت لأبيه أنه فارس حرب. لكن كازميرو غير متحمسٍ، وأبوه لم يُخفِ عدم ثقته به.. لا أحد يعترف به إلا فيولا، وهذا هو ذا يفتقدها.

وفي غرفة الدوق، بمنزله الجديد الذي بناه له لوريينزو، قرب جدول المياه شرق القرية، كان جسد فيولا يرتج أسفلاً ماركيزيو. ارتفعت منها الشهفات، ثم تحولت لأنين خافت، ثم سكن الدوق متعيناً فوقها. لحظاتٌ مرّت ولم ينفصل جسداًهما، حتى جاءه صوتها ساخراً:

- أستبقي هكذا طوال الليل؟

أزاحته عن صدرها بصعوبةٍ، بينما كان يضحك:

- لم أتوقع أن تكون فتاة قروية مثلك بهذه الحيوية.

نزلت فيولا عن الفراش الوثير، لتسير ببطءٍ أمامه، وجسدها المرمري المتناسق يعكس وهج الشموع الكبيرة. رفعت شعرها الأشقر، وأخذت تخلّله بفجّ وهي تقول:

- أليست أجمل من بنات البندقية وبنفينتو؟

رد متھکماً:

- جميـعـكـنـ عـلـىـ الفـرـاشـ سـوـاءـ..

عقدت حاجبيـها الجـمـيلـينـ، وضـمتـ شـفـتيـهاـ خـاصـبـةـ، فـيـماـ أـكـمـلـ:

- أظن أن الفتى إلـيـسانـدـرـوـ سـيـبـيـتـ باـكـيـاـ الـيـومـ..

انـفـجـرـ ضـاحـكاـ، فـيـماـ اـسـتـلـاقـتـ هيـ إـلـىـ جـوارـهـ:

- لا يربطني شيء به بعد ليلة أمس..

أزـاحـ خـصـلـاتـ منـ شـعـرـهاـ كـانـتـ تـحـجـبـ جـاتـبـ وجـهـهاـ عـنـهـ:

- لماذا؟

تحـسـسـتـ خـدـهاـ الأـيـسـرـ معـ تـذـكـرـهاـ صـفـعـتهـ:

- لم يرق له حدثي عن قائد السراسنة.

ارتفع صوت ضـحـکـاتـ مـاـرـکـیـزوـ، وـتـنـاـولـ عـنـقـودـ عـنـبـ منـ طـبـقـ قـرـیـبـ منـ الفـرـاشـ، ثـمـ اعتـدـلـ عـلـىـ طـرـفـ الفـرـاشـ جـالـسـاـ بـجـسـدـهـ العـارـيـ يـلـنـقـطـ حـبـاتـ العـنـبـ:

- ما قـصـةـ أولـئـكـ السـرـاسـنـةـ وـتـلـكـ الـهـدـاـيـاـ؟

تـقلـبـتـ بـالـفـرـاشـ النـاعـمـ:

- يبدو أن من أرسلها ذلك الضيف الذي حل بالقرية منذ زمنٍ.

بصوتٍ عميق سألهَا:

- لم يقتلَه إِلِيَّساندرو حين طارده؟

تعالت ضحكاتها الرقيقةُ وهي تلوح بساقِيهَا العاريَتِينَ في الهواء، فحثَّها ماركيزيو على الاسترسال..

- ها...؟

ردت ساخرةً:

- إِلِيَّساندرو لا يستطيع قتل دجاجة.. أظن أن من أرسل تلك الهدايا هو ذلك الجريح الذي مكث بالقرية ما يقرب من شهر. لعله متيمٌ بماريا، أو أنه يرد المعرفة إلى كاراس.

برقت عيناً ماركيزيو وهو يلقى بجسده إلى الفراش بأسماً. أخذ يمضغ حبات العنبر وهو يُحدق بفراغ السقف، فقد صدق حدسَه بشأن الأسير العربي. كذب لورينزو كما كذب ابنه، صار متأكداً أنه يتعامل مع ثلاثةٍ من الثعالب الريفية. استرخى، ترك عقله يُرتب الأحداث السابقة تباعاً، فيما كان جسده ينال نصيبه من الجامحة فيولا..

الكنز.. رسالة كُتِّبَتْ بعِرقِ عَطْرَهُ، تخشى فَحواهَا رَغْمَ الاشتياق لفتحها. لم تفُضْ ختَمًا من شمع أحمر، يحمل حروفَ اسْمِهِ كَمَا كَتَبَهَا عَنْدَ البحيرة، كُلَّ هَذَا الْوَقْتِ، مُسْتَمْتَعَةً بِالْأَمْلِ. الفضول - أو الشوق - غلِّبَهَا أخيراً.. أزالَتْهُ برفق، بيدِ مُرْتَعِشَةٍ، بَعْدَ أَنْ تَحْسَسْتَهُ بِأَنَّا ملَّهَا الرِّقِيقَةَ لَمَرَّةٍ أُخْرَى. عمر عينيها فيض من كلماته، بحرَّوفٍ لاتينيَّةٍ تُجِيدُ قراءتها. حروف اسمها جعلتها ترتجف، حين شعرت بصوته يُنادِيهَا، ويتردَّد صدَاهُ بواديِّ شوقٍ كادَتْ أَنْ تذَبَّلْ فِيهِ زهورَهَا. جلست على طرفِ الفراش، لِتَمْنَحَ الرسالة قدرًا من ضوءِ الشموعِ الخافتَة، وقرأتَ:

«من سودان الماوري
إلى ماريا..»

الغيم والبحر والذكريات وأنتِ. تسكنين الوجودان وحدك، وتستحوذين على العقل. الروح تهيم بنسيم وشاحك القرمزي، ورذاذ الموج يظهر قلبي ممن سواك. لا أدرِي ما أصابني، لأنَّا أصبحَ غريباً أنا بدونك، محاطاً بوجوه مطمئنةٍ، وفقط وجهك من يضيء الليلالي المعتمة، لتغار منك نجوم باري. حتى الموج أسمعه يهدِّر على البر باسمك. أي سحر سقيتي إِيَّاهُ، لتبقى بمخلطي طوال الليل والنهر، فارتَحَلت بين الوديان والجبال، لعل جداول المياه الآتية من الشمال تحمل أثراً منك. كورقة شجر سقطت من غصنها جئتكم، مصاًباً واهناً تذروني رياح الموت، فآويتُمُونِي، وداويتُمُونِي. وخطَّاطِتِ أنتِ بحياتك من أجل إنقاذِي. الأرواح قرائن يا ماريا، ما تناكر منها اختلاف، وما تعارف

منها اختلف.. وإن في القرب لبهجة، وفي الغياب لوعة.. فإن كان لك من الأمر شيء، فقط أعلميني.. وإن كانت كل الطرق تؤدي إلى روما، فهي حتماً تمر بسان فيلي»

انتهت الرسالة.. ما زال يذكّرها، وها هو ذا يبوح بما تحمله في صدرها. لقد كتب اسمه الحقيقي وأسمها.. ابتسمت.. أعادت القراءة بعينيها الممتلئتين بدموع الفرح. إنه الحب تسلل إلى قلبها متخفيًا في ثياب الشقة والواجب، ثم ها هو ذا يكشف عن نفسه، لتتمر شهب الشوق في سماحتها الحالكة، تتبعها عيناهما إلى حيث تمضي. ضمت الرسالة إلى صدرها، وقد ابتهجت روحها، فها هي ذي رسالتها تمنحها أملاً في الصمود حتى اللقاء.

ولكن شيئاً من وسوسه شيطان جالت بخاطرها.. أصارت تعني أن ما تضمره له هو الحب؟ أم تراه مجرد أمل في الفرار من قبضة أبيها؟!

طريقات على باب غرفتها أفرغتها، فطوطت الرسالة ووضعتها تحت وسادتها، ومسحت عينيها ووجهها وصوت الطريقات يتجدد.

- من؟

جاءها صوت أبيها، ففتحت المزلاج مبتسمةً في وجهه. تأملها بلطفٍ وهو يسألها:

- ما بك؟

ابتسمت ويداه تلامسان وجنتها:

- لا شيء يا أبي.. كنت فقط أحاول النوم.

أمسك بكتفيها محدقاً بعينيها:

- لن تطول وحدتك هذه كثيراً.. فقربياً سنقيم عرسك على الدوق ماركيزيو.

تبذلت ملامحها، وتبيست الكلمات على لسانها. نصل بارداً مرّاً على قلبها، بينما تركها أبوها متوجهاً إلى الباب، مستطرداً:

- بحلول الخريف ستكونين الدوقة ماريا.

في هذه الليلة الصيفية الهدامة، وحده كان يسير دون حرس في طريقات باري الخاوية، وقد أوى الجميع لمنازلهم بعد صلاة العشاء. كان يلوم نفسه على تلك الرسالة التي أرسلها. ما كان عليه البوح إلى هذا الحد. لماذا دهاك يا سودان؟ لم تخرج للغزو، ولم تعد ذلك الذي عهده. ردّ على نفسه تلك الكلمات كثيراً، ودّ لو أخذ فرسه ولحق بجيشه غرباً. عدم خروجه مع الجيش هذه المرة خطأ عابر، لن يكرره إذا أراد أن يبقى في القيادة. ولكن أطفال شعيب، بل وكل أيتام باري يُعيدونه مرة أخرى إلى التفكير في المدينة وإعمارها، وإلى النظر في الحروب بتريثٍ وحسابٍ. والعجيب، أن النظر في عيون

الأطفال يُعده إلى الحنين لها.. ماريا. ليس الأمر مجرد حلم الأبوة، وإن فمك يمينه من تأثيره بالبنين، وهناك رملة التي اقترح أمرها أبو المغوار.. ولكن حلمه يختصها هي أمّا لأطفال خياله.. إنه الهوى.

قادته قدماء إلى الميناء، حيث انعكس ضوء القمر على سطح المياه، والكل نياً إلا حارسين وقفوا في انتباهٍ مع رؤيته. أشار إليهما أن يستريحا، وأكمل مسيره إلى حافة الرصيف، حيث السفن متراصة إلى جوار بعضها البعض في سكون. وحدها سفينه كبيرة توهجت مشاعلها، عمالها ما زالوا يعملون رغم الوقت المتأخر، ستحمل في الصباح أبناء شعيب وزوجته إلى إفريطيش. زفة طويلة أطلقها وهو يُدبر عينيه بالفضاء الواسع.. أيام ويمضي شهر شعبان، ويأتي رمضان من دون شعيب وأولاده. في العام الماضي، كان هو الإمام في الصلاة، ووافت الإفطار كان لا يكف عن إطلاق المزارع مع الجميع. كان كاتم أسراره وصديق عمره. روح أندلسية رفضت إفريطيش ورغد عيشها. كان لقاوهما الأول في برنديزي، شباب صغار اشتدا عوداهما مع الوقت. في خضم الشدائـد كان جواره، وبين ثياب الملاحـم كان يحمي ظهره. لم يعـد سـودان مفهوم كلمة صـدـاقـة إلا بـرـفـقـة شـعـيبـ.

وبينما يُحاول اصطياد ذكرياته من فوق صفحة الماء، جاء صوتٌ من خلفه:

- البحر دوماً يُعيد الذكريات للحياة.

لم يلتفت سـودانـ، ابتسـمـ وهو يقول لمـحدثـهـ:

- يستطيع أيضاً أن يتحمل ما نـفـيـضـ بهـ. ولكـنهـ غـادـرـ فيـ كلـ الأـحوالـ.. أـلـيـسـ كـذـلـكـ ياـ طـلـحةـ؟

وقف طـلـحةـ السـكـنـدـرـيـ إلىـ جـوارـهـ:

- نـعـمـ، من يـأـمـنـ الـبـحـرـ يـغـرقـهـ. سـنـوـاتـ عمرـيـ قـضـيـتـهـ بـيـنـ موـانـئـ بـحـرـ الرـوـمـ.. الإـسـكـنـدـرـيـةـ.. عـكـاـ.. إـفـريـطيـشـ.. بـلـنـسـيـةـ.. وـفـيـ النـهـاـيـةـ أـيـقـنـتـ أـنـ الـبـحـرـ هـوـ رـوـحـ مـثـلـنـاـ، حـينـ يـثـورـ بـيـلـغـكـ أـنـهـ المـسيـطـرـ وـالـأـقـوـىـ، وـحـينـ يـكـوـنـ هـادـئـاـ لـاـ تـأـمـنـ السـكـونـ وـالـصـمـتـ. الـبـحـرـ كـمـاـ حـيـاتـنـاـ الـدـنـيـاـ، تـقـلـبـنـاـ يـمـيـناـ وـيـسـارـاـ، يـوـمـ فـرـحـ وـيـوـمـ تـعـاسـةـ وـخـوـفـ، هـكـذـاـ هـوـ الـحـالـ دـوـمـاـ. فـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ أـرـىـ حـيـاتـنـاـ الـبـحـرـ الـعـمـلـةـ تـقـزـزـ إـلـىـ خـارـجـ الـمـاءـ تـنـفـثـ الرـذـاذـ، وـتـلـقـيـ لـبـرـهـةـ فـيـ الـهـوـاءـ قـبـلـ أـنـ تـسـقـطـ.. أـتـدـرـيـ لـمـ تـقـزـزـ خـارـجـ الـمـاءـ؟

رمـقـهـ سـودـانـ بـطـرـفـ عـيـنـهـ، بـيـنـماـ أـكـمـلـ طـلـحةـ:

- إنـهـاـ مـثـلـكـ يـاـ سـودـانـ، إـنـ كـنـتـ تـقـفـ عـلـىـ حـافـةـ الـبـحـرـ لـتـلـقـيـ هـمـكـ بـهـ، فـهـيـ أـيـضاـ تـقـزـزـ خـارـجـ الـمـاءـ لـعـلـهـاـ تـلـقـيـ مـاـ بـجـوـفـهـ إـلـىـ السـمـاءـ.. الـحـقـيـقـةـ الثـابـتـةـ هـيـ أـنـنـاـ نـسـتـطـعـ أـنـ نـأـخـذـ خـيـارـاتـ أـفـضلـ منـ الـحـيـاتـنـ وـبـاـقـيـ الـدـوـابـ.. أـلـقـ هـمـوـكـ بـالـبـحـرـ، وـلـكـنـ لـاـ تـغـرـقـ فـيـهـ يـاـ صـدـيقـ، وـلـاـ تـبـأـ كـثـيرـاـ بـمـاـ هـوـ قـادـمـ.. فـالـقـادـمـ.. وـإـنـ كـانـ فـيـ عـلـمـ اللـهـ.. إـلـاـ أـنـ الـاختـيـارـ لـنـاـ، وـاجـهـاـتـنـاـ وـحـدـهـاـ تـمـنـحـنـاـ الـطـرـيـقـ الـذـيـ نـرـيدـ.

- مـتـىـ تـرـحـلـ إـلـىـ إـفـريـطيـشـ؟

أشار طلحة لسفينته الرابضة على حافة الميناء:

- يبدو أننا سنبقى قليلاً، لن نستطيع الإبحار في الأيام المقبلة. بدن السفينة يحتاج لصيانة وإصلاح. خضنا معركة شرسة بالقرب من مالطة، لقد بدأت أساطيل بيزنطة في الظهور مجدداً، والصراع محتمٌ في شمال بحر إيجة بين إقريطش والبيزنطيين. علينا المكوك هنا قليلاً حتى نتم إصلاح السفينة.. وهذا ستأخر قليلاً عن الذهاب إلى الإسكندرية.. السلطان ابن طولون يحتاج لمزيدٍ من الأخشاب لوضع أساس مدينته الجديدة، القطانع.

عقد سودان حاجبيه متماماً:

- السلطان!

أوما طلحة برأسه في أسى:

- نعم، لقد أعلن أنه انفصل عن الدولة العباسية، ولكنه ما زال تحت طاعتها رمياً فقط. ما زالت مساجد الفسطاط تدعو لل الخليفة، ورأياتبني العباس فوق الصواري، ولكنها مجرد صورة لإضفاء الشرعية على حكمه. يا صديقي، شهوة العرش قاتلة.

اختلطت الأفكار بعقل سودان، ولكنه ابتسم مع ذكره خبر تأجيل الإبحار. سيمنحه هذا المزيد من الوقت مع أطفال شعيب. تبادل النظارات مع طلحة السكندري قبل أن يقول:

- طلحة، أي المدن التي زرتها أحب إلى قلبك؟

زم طلحة شفتيه وضاقت عيناه:

- لكل منها روح مختلفة.. ولكن أفضلها التي فيها البيت والولد..

ألقى جملته، وتحرك متوجهاً إلى سفينته. كانت جملته الأخيرة كافية لتثير العواصف بداخل سودان. تحرك هو الآخر منصرفًا عن الميناء متوجهاً إلى القلعة، وطوال الطريق كانت كلمات طلحة يتتردد صداها في جنبات عقله.

في أروقة القصر صادفها، ذاهبة لخلواتها الليلية. أربع خادمات يلحقن بها، وذلك الغلام الخصي ماركو. سارعت الخطوات حين رأته، وتجاوزته وخادماتها اللواتي وضعن وجههن أرضاً، بينما ظل ماركو يحدق بوجهه بابتسامة باهتة.

- سمو الأميرة، هل تأذنين لي بالحديث؟

توقفت عن السير، تجمدت قدماتها، وسرت قشعريرة باردة بجسدها. كانت تتمنى الرحيل دون تلك المواجهة، التي قد تنتهي ودماؤه على خجرها:

- ليس بيننا أي حديث.

عقد حاجبٍ:

- فلماذا توقفت عن السير؟

التفت له بعصبيةٍ تجلت في عينيها، التي تظهر من خلف نقابها الأبيض..

- توقفت لأنك الأمير سودان الماوري، صاحب باري.. وقاتل زوجي.

شهقت إحدى الخادمات، بينما هز سودان رأسه قانلاً:

- حسناً.. أنا أبرئ نفسي مما تقولين، ولست بموقف دفاع عن نفسي، وما أوقفتك وطلبت حديثك إلا لأقيم عليك الحجة، فلا تحاججي أمام الله بما لم أفعله. لا يقتل الخليل خليله، وما الحزن بقلبك إلا جزءٌ مما أحمل. شعيب كان رفيق دربي من قبل أن تعرفيه لسنواتٍ، أطول من سنواتك معه. أقدر ما أنت فيه، وما أجمل إخلاصك لزوجك، ولكنك تهلكين نفسك وطفليك بتجديد الحزن وبالبغض لي. يا أختاه، عودي إلى رشك واعلمي أن أمر الله لا مرد له، وأن طفليك يحتاجان أن يتعلما الحياة لا الموت.

أشاحت بوجهها:

- أنهيت ما جئت لتقوله؟

- ما جئت لقوله، إن السفينة التي ستحملكم إلى إفريقيا ستبقى حتى ينقضي شهر الصيام، فهي تحتاج للإصلاح، كما أن معارك البحر لا توقف قرب جزيرتكم، فلا أمان في الإبحار حتى تهدأ الحرب. الله الأمر، لكم على أرض باري أيام آخر، وسيكون عيدهم في باري.

أكمل:

- فقط أجعلهم رفاق مائتي في رمضان، كعادة أبيهم.. ولننتظر عودة القاضي أبي المغوار، فهو سيذهب إلى إفريقيا أيضاً.

حاولت أن تقول شيئاً، فأوقفها بإشارةٍ من يده وهو يقول بهدوءٍ:

- كان شعيب أخي الذي لم تلده أمي. لقد قضيت ثلاثي عمره معه منذ أتيت لباري شاباً يافعاً، وإن القلب ليحزن على فراقه، فتمهلي في الحكم ولا تظلمي أقرب رفقاء زوجك إلى نفسه، فما كان ليرضى أن تفعلي ذلك أبداً، وامنحي عقلك بعض الإيمان.

تركها ومضى إلى الرواق المؤدي لغرفته، وعيناها المتقدتان تلاحقانه حتى احتفى. كان محقاً، فالبعض لن يُعيد من رحل. كانت تعجب له، فسودان هذا مختلفٌ عن أي وقتٍ من قبل..

(4)

غرت الشمسُ، مخلفةً وراءها سماءً بلون الشفق. اكتست جدران الخليج الصخرية بالظلال وصاحت بهدير الموج تكسر صمت شوارع باري الخاوية من البشر، عدا مجموعه من الجن يتسامرون وهم يفطرون من خيرات ما أرسل لهم من القلعة، إذ يُقيم الأمير سودان مأدبة كبيرة دعا إليها كل قادته، وزرع اللحم على بيوت باري جميعها. وبينما كانت أيديهم ممتنعة بالثريد والضأن عند البوابة الرئيسية للمدينة، أتاهم صوت يقترب. كان فارساً واحداً أخذت الظلال ملامحه، فتناول أحد هم المشعل من على الحائط، ووقفوا ينتظرون، حتى اقترب. وما إن تبينوا القادم، تحروا جانبًا ليمنحوه العبور، فأوْمأ بِرَأسِه مُحييًا طاقم الحرس، واتجه إلى حيث القصبة تقع بجدرانها الضخمة وبرجينها العظيمين فوق تل صخري. كانت قد تدللت على واجهتها رايتان كبيرتان، واحدة سوداء والأخرى بيضاء وخضراء. كبيرة هي القصبة، بما يكفي لتكون مدينة صغرى داخل باري. ما إن رأه حرس المدخل، حتى أسرعوا يفتحون أبوابها الحديدية، فصم صوت صرير السلسلة الأذان. لم ينتظر الفارس المتجل حتى ترفع البوابة للنهاية، فخفض رأسه وعبر بحصانه إلى الحديقة الغناء وجاؤز بركة المياه المحاطة بأحواض الزهور، ثم شد لجام دابته وأوقفها، وترجل تاركاً الجواد اللاهث لأحد الجن، بينما رافقه آخران إلى ساحة قصر القلعة.

كان سودان يجلس على رأس مائدة عامرة بمختلف صنوف الطعام، الذي أرسل مثله إلى كل بيت في باري. وقد جمع كل قادة المدينة، ورجال الديوان والقضاة وكبار التجار. طلا شعيب أيضاً كانا يُشاركانه طرف المائدة، الأكبر على يساره والأصغر عمر عن يمينه. قدمهما لصفوة رجال المدينة مُفاحراً بأبيهما، فانتشى الولدان وأقبلَا على إفطار عمته البهجة، وطلحة السكندرى لا يكف عن قصّ رحلاته في البحر الشاسع، والكل يتسامرون ويسائلونه، وإجابته دوماً حاضرة. أبهرهم بقصصه عن بُر مصر ومدينتي الإسكندرية ودمياط، وعن رحلاته إلى برقة وسوسة.. سمعوا منه حكايات عن غزة ونوارس عسقلان وصور وصيدا، وأقسم أنه رأى القدسية بعينيه، بعد أن طارد سفينته بيزنطية لأيام. حدّthem عن شواطئ الأندلس وميناء سبتة، كان يقول لهم إنه رأى ملك المسلمين من المشرق إلى المغرب، وأنه حجَّ وزار بغداد ودمشق ونزل بالفسطاط. كان الحضور الذين اختلط أنسابهم بين الفاتحين وأهل باري في شوق لسماع قصص طلحة عن أناس يُشاركونهم الدين والعقيدة، ولبعضهم فيهم جذور بعيدة. لكن سودان كان يشغل باله من كل ذلك قصة ابن طولون وانسلاخه عن ثوب الخلافة، ليترك العباسيين قانعين بتبعيته الصورية دون اصطدام بما صار له من قوة. هكذا يكون ابن طولون مستقلاً، وله دولته وكيانه الخاص، وسيترك إرثاً لعائله تحكم ويُرفع اسمه. ماذَا عن باري أيضاً؛ إنها بعيدة وحيدة على التغور العليا لممالك الخلافة، ولا ضير من ذكر اسم الخليفة العباسي على المنابر يوم الجمعة!.. فاجأته نفسه بهذه الهواجس، فنفض تلك الأفكار الغريبة عن رأسه، ونظر

في وجوه من حوله راسماً على وجهه ابتسامة باهتة.

أقبل في هذه اللحظة أحد حرس القاعة بخطواتٍ واسعةٍ، ثم مال على أذنه هامساً، فنهض سودان فجأةً، مما أثار انتباه الحضور، فأشار إليهم..

- لا تقلقوا، كل الأمور على ما يرام.. سأعود بعد قليل.

وعلى ضوء المشاعل في الرواق المؤدي للقاعة، كان محمد الأغلبي والي مدينة أفيليانو، قد أصرَّ على مقابلة الأمير وحده. كانت عيناه زانغتين ووجه شاحباً، فاقترب منه سودان وجذبه إلى إحدى الغرف، وهو يهمس يسأله:

- محمد.. ماذا حدث لك؟

بصوتٍ مرتجلٍ أجاب ابن الأغلبي:

- لقد هاجمونا وقت الإفطار.. أبادوا المدينة.. أحرقت الأسوار والبوابات حتى لا يستطيع أحد الخروج. اشتعلت النيران في كل شيءٍ فجأةً. كانوا يمطرون شهباً على القرية الآمنة، سهام مشتعلةً أصابت الأجساد داخل البيوت.. الصرخات كانت تعم المكان، راياتهم حمراء بلون الدماء، لم أتبين ملامحها فالجحيم ليست فيه رياح لتخفق الرؤى. بالكاد استطاعت الهرب وحدي من المدينة..

نطق سودان في ذهولٍ:
- وحدك!

تحشرجت كلماته:

- كان الجحيم يا سودان.. أعتقد أن بعض رجال الديوان هربوا أيضاً، لكن لم يكن بأيدينا شيء للناس.

أمسك سودان بكفيه وهو يكظم غضبه:
- لماذا لم تبق لتجابههم؟

- لقد كانوا أكثر عدداً. مات كثيرون، فماذا ينفعنا إن مات أكثر؟ آثرت القدوم إلى هنا لتحذيركم.

كان وجه محمد يفيض بالهلع. نعم كان في هروبٍ خذلان، ولكن ألم يكن يجب أن يُحذر باري ويستنجد بها؟.. أمر سودان رجاليه باصطحاب الأغلبي إلى منزله، ولكن الأخير رفض أن يمكث في أهله يندب حظه بينما الفرسان يتوجهون إلى أفيليانو. رمقه سودان ولم يُعلق، وعاد إلى حيث مائدة الإفطار بغير الوجه الذي ذهب به، فقابلته العيون بتوجسٍ، فقال باختصارٍ:
- لقد هُوجمت أفيليانو وقرابها.

أفاق الحضورُ من الصدمة على وقع أقدام الجندي في الساحة، وصوتُ ينادي من أعلى أبراج القصبة في أهل المدينة مؤذناً بالجهاد. ركض الصغير علي متبعاً خطوات سودان:

- سيدِي الأمير..

توقف سودان..

- ماذا هناك يا علي؟

اقترب الفتى بأنفاسٍ متقطعةٍ:

- هل تسمح لي أن أرافقك للحرب؟

دنا منه سودان:

- يوماً ما ستكون قائداً لجيوش المسلمين؛ أما اليوم فعليك أن تبقى في باري. أعينك منذ اللحظة حارساً على مدينة باري، فهيا إليها القائد اذهب وأخبر أمك!

ركض الصغير مسرعاً، وقلبه يدق بالحماسة والزهو، متوجهًا إلى الجناح الشرقي، بينما دلف سودان إلى غرفته يتبعه خادمه، يُساعدُه في ارتداء زي أسود مذهب، شدَّ فوقه درعًا من البرونز صنع خصيصاً له، كان قد أهداه له أبو المغوار. طرق الباب، فاتجه الخادم يرى من هناك، بينما سودان يرتدي حزام سيفه. عاد الخادم:

- سيدِي إنها الأميرة رملة برفقة الغلام ماركو، تستاذن في الحديث إليكم.

ليس هذا وقتاً لأحاديث النساء؛ ولكنَّ لرفيق عمره فضلاً ووفاءً فرضاً عليه أن يخرج إليها يحمل خوذته، وهو يتمنى ألا تُعيد عليه رأيها في الحروب..

- هل ستذهب للحرب؟

نظر إلى ماركو الذي كان يقف بالباب، وقال بحذرٍ:

- لقد تعرضت قری أفيليانو وأنحاءها لهجوم، وعلىَّ الذهاب الآن. تعلمين أنَّ أبو المغوار في ضيافة حلفائنا، والأمر قد بات مقلقاً للغاية.

تركها ودخل إلى الغرفة متعجلًا، فاقتربت من الباب غير عابئةٍ بالاعتبارات، وتابعته بعينيه وفتاه يُساعدُه في لف عمامة حول الخوذة:

- ألا يكفي أن تُرسل لهم رسالة ليذهبوا وهناك؟

ارتدى خاتمه وهو ينظر لها:

- ألسْتُ أمير باري؟

- بلى.

- إذن أمر الرعية وقضاء حوائجهم والموت في سبيل الدفاع عنهم واجبي.

صوتها كان يحمل رائحة الخوف وهي تقول بخفوتٍ:

- ولكن الأطفال ي يكون.. برغم كونك عيّنت عليّاً حارساً وهمياً على المدينة، إلا أنه يبكيك منذ الآن.
يقول إنك ستذهب ولن تعود مثل أبيه.. لقد أصررت على بقائنا حتى ينقضي رمضان، ثم ها أنت
تذهب!

تجاوزها إلى باب الغرفة:

- سأعود..

تجهز الجندي كما أمر سودان.. ألف فارس، على الخيول المتراسة بألوانها المختلفة، يقفون بساحة المدينة الخامسة، بخوذاتهم ودروع من سلاسل معدنية خفيفة، وعيون جامدة تنتظر الأمر بالخروج لوجهتها. من شرفتها كانت تتبع المشهد. هناك شيء جلل يحدث. لم يخبرها سودان بشيء، واكتفى بأن ودع طفلينها على عجل من أمره وقد ارتدى زي الحرب. قال طلحة إن السفينة بحلول العيد ستكون جاهزة للرحيل، فأجبرت على البقاء في باري، ثم ها هي ذي باري تخلو من كل من عرفتهم يوماً. رأت من مكانها فوق القلعة أربعة فرسان يتناول كل منهم شيئاً ما، قبل أن يفتح باب القصبة، ليظهر سودان على عتبته ممتطياً الهجان التي تبخرت في مشيتها بدرع الحرب الخاص بها. انفلق الجيش الصغير لنصفين، ليمر بينهم سيد الحرب، ورأيات باري تتحقق على أسنة الرماح. وقف أمامهم، وأخذ ينظر في عيون تظهر من وراء الخوذات، تتنظر أوامر لتمضي للحرب. بينهم كان محمد الأغلبي، وقد استبدل جواده. لم يتعجب سودان من حضوره، أو ماله وهو يجذب لجام فرسه، لتدور حول نفسها قبل أن تتوقف عن الحركة وصوتها القوي يدوّي:

- فرسان باري الشجعان.. ما قولكم فيمن اعتدى على أراضينا وقتل موالينا؟

جاء صوت الجندي موجة هادرةٌ:

- الموت.

ازداد صوته قوةً وهو يصبح:

- ما قولكم فيمن هتك أعراض النساء وأحرق منازلنا؟

ارتفع صياحهم مجدداً، فرد عليهم قائدتهم:

- الموت لمن قتل الآمنين والمستضعفين.

أنهى كلماته، وانطلق نحو البوابة الشمالية للمدينة، ومن خلفه كان فرسانه ورسله الثلاث الذين أمرهم بطلب العون من الجنوب. دقت طبول الحرب في قلبها. رأت في عينيه حرباً تسلب الأرواح دون هواة، وصرامة الموت تبرق في نظرته. ترقرقت عينا رملة بالدموع، تتذكر شعيباً وترى طيفه بين الجموع يلوح لها قبل الرحيل..

ساليرنو..

مدينة الميناء يسمونها. حسناء تلقي بساقيها في البحر، على سفح جبل مكسو بخضرة دائمة. الخليج المسمى باسمها مياهه بلون الفيروز، ومنازلها تغطت أسطحها بالقرميد الأحمر، ممتدة لمسافة طويلة على الساحل. وبعيداً عن صخب المدينة، كانت قلعة دي أرشيس تعلو رأس الخليج، وتمتد أسوارها لتحيط بالمدينة من كل جانب، شاهقة ترمق السهل الممتد خلف الجبال بـكـبـرـ. كان الدوق ماركيزيو يتابع باهتمام تدريب من استطاع جمعهم من شباب المدينة. لم يكن يتوقع يوماً أن يكون هنا، بعيداً عن دياره في لومبارديا، ولكن الواجب المقدس حـتـم وجودـهـ في سـالـيرـنـوـ، ذاتـ الحـادـائقـ والـخـلـيجـ الصـافـيـ، جاءـ قـادـماـ منـ نـابـوليـ، فيـ رـحلـةـ بـحرـيةـ ذـكـرـتـهـ بـمـعرـكـةـ الـآـخـيـرـةـ فيـ بـحـرـ الـبـنـادـقـةـ مـنـذـ سـنـوـاتـ. كانـ قدـ اـسـتـطـاعـ مـهـاجـمـةـ سـفـنـ تـجـارـيـةـ تـابـعـةـ لإـمـارـةـ بـارـيـ قـبـالـةـ سـواـحلـهاـ، وـلـكـنـ السـرـاسـنةـ كـانـواـ أـكـثـرـ تـمـرـسـاـ مـنـ رـجـالـهـ. إـنـهـمـ يـمـلـكـونـ الـبـحـرـ مـنـ عـقـوـدـ، وـصـارـتـ سـفـنـهـمـ أـكـثـرـ قـوـةـ مـنـ سـفـنـ الـبـيـزـنـطـيـنـ وـالـبـنـادـقـةـ، وـهـاـ قـدـ حـانـتـ اللـحـظـةـ التـيـ يـسـتـرـدـ فـيـهاـ شـرـفـ النـصـرـ. كانـ قدـ قـضـىـ فيـ نـابـوليـ مـعـظـمـ الـرـبـيعـ، حـتـىـ نـجـحـ فـيـ إـقـاعـ الدـوقـ سـيرـجيـوسـ أـنـ يـفـكـ اـرـتـبـاطـهـ بـالـمـسـلـمـينـ. مـنـحـهـ الـبـابـاـ أـدـريـانـ الـكـثـيرـ مـنـ الـوـعـودـ، أـهـمـهـاـ أـنـ تـبـقـيـ نـابـوليـ فـيـ حـلـفـ مـقـدـسـ مـعـ رـوـمـاـ، بـعـدـ سـنـوـاتـ مـنـ الـخـلـافـاتـ وـالـحـرـوبـ. لـقـدـ كـانـتـ نـابـوليـ مـنـ أـقـوىـ دـوـقـيـاتـ إـيـطـالـياـ، لـاـ تـخـضـعـ سـوـىـ لـأـهـلـهـاـ، فـلـمـ يـسـتـطـعـ الـلـوـمـبـارـدـيـوـنـ وـدـوـقـيـةـ بـنـفـيـنـتوـ غـرـوـهـاـ، خـاصـةـ مـعـ عـلـاقـاتـهـاـ الـقـوـيـةـ مـعـ الـأـغـالـبـةـ الـمـسـلـمـيـنـ حـكـامـ صـقلـيـةـ، وـتـحـالـفـهـاـ الـتـجـارـيـ وـالـحـرـبـيـ مـعـ إـمـارـةـ بـارـيـ، التـيـ لـطـالـمـاـ سـاعـدـتـ نـابـوليـ وـقـدـمـتـ لـهـاـ الـعـونـ. الـآنـ، عـلـىـ قـوـاعـدـ الـلـعـبـةـ أـنـ تـتـغـيـرـ، وـعـلـىـ نـابـوليـ التـخـلـيـ عـنـ حـلـفـاهـاـ. لـقـدـ رـضـخـ سـيرـجيـوسـ أـخـيـرـاـ لـضـغـوطـ الـبـابـاـ وـالـمـلـكـ لـوـيـسـ الـكـارـولـنجـيـ، بـفـعـلـ دـهـاءـ الدـوقـ الشـرـيدـ.

"ماركيزيو دي لابورتا.. ملك إيطاليا الموحدة"

تمتم بها وهو يتابع تدريبات رجاله. لن يثنيه شيءٌ عن الحرب والانتصار على السراسنة. لقد أتى إلى ساليرنو ببضعة آلاف من جند نابولي، دخلوا المدينة ليلاً من البحر، وما زال ينتظر جيشه الخاص الذي أعده واختار رايته لتكون بداية لحمله الكبير. وجوه الجندي متعرقة مع الجهد الكبير في تدريباتهم. معظمهم فلاحون، جمعهم قسراً من قراهم، مع وعد بالشروة والمجد، وجعل القساوسة يحثونهم بوعود الغران. إنهم رعاع، لا يأملون في شيء، لا يعرفون لم جاؤوا للدنيا، الجندية تمنهم النظام وبعض الامتيازات وتترك لأهلهم فخراً إذا ما قتلتـهمـ الـحـربـ، أو عادـواـ إـلـىـ دـيـارـهـمـ مـكـلـلـيـنـ بـالـنـصـرـ. لاـ هـوـادـةـ فـيـ الـحـربـ، فـعـدوـهـمـ فـيـهاـ أـكـثـرـ عـتـادـاـ وـقـوـةـ، وـعـلـىـ أـولـنـكـ أـنـ يـقـومـواـ بـدـورـهـمـ

في الجهاد المقدس بدلاً من عيشهم كالبهائم.

ترك ساحة التدريب، متوجهًا إلى أسوار المدينة.. عليه أن يتبع كل شيء بنفسه، ففي المعركة القادمة يجب إلا تكون فيها أخطاء. مداخلن المدينة تنفث الدخان الأسود، الحدادون قد كثروا إنتاجهم، والبناؤون يسدون الشقوق في السور الرمادي الكبير. لم يتبق سوى أيام قبل الهجوم على عدو يفترش أرض بلاده وينعم بخيراتها، الرب وحده يعلم كم يبغضهم. قفزت إلى ذهنه جملة صاحب نابولي، حين قال له: "إنها حرب نفوذ وسيطرة.. وليس حرباً من أجل الرب". أحمق سيرجيوس، لقد رأى السراسنة في الحرب، وهم ليسوا ما يظنه سيرجيوس. إنهم يموتون من أجل ما يعتقدون، ولذا فالفرصة الوحيدة هي أن الإيمان يهزم الإيمان، فمن هو على استعداد للموت من أجل ما يؤمن به لا يُهزم.

كان ماركوزيو أبعد الناس عن الرب والكنيسة. في يومه الأخير في روما، جثا على ركبتيه أمام مذبح كنيسة "سانتا ماريا روتاندا" العتيقة، مرتدًا ثيابًا جديدة ودرعًا ذهبيًّا نقش على صدره صليب كبير يتوسطه شعار الأملالك البابوية. اهتز كيانه حين لامست يد البابا رأسه يمنحه البركات بصلواتٍ خافتةٍ: نسألك يا رب أن تnier طريقك بالهامك، وأن تصحب أعماله بمعونتك، لكي تبدئ منك وتنتهي بك جميع صلواتنا وأفعالنا دانماً. بال المسيح ربنا. آمين. أمره بعدها أن يرفع رأسه، فنهض يحملق في وجوه الكرادلة والرهبان من حوله، وصوت البابا يستقر في عقله:

- خذ هذه الراية وهذا السيف، برّكات الديانة الحقيقة. ستنتصر على عدونا الكافر ببرّكات الرب والقديسين، وستذيقه مرارة الهزيمة وتحطّ من كبريائه.

وأتسعت عينا الدوق مع رؤيته للشمامسة وخدام الكنيسة يحملون لفافة كبيرةً من الحرير، توسيطاً القاعة وبسطوها أمامه.. حمراء مذهبة الأطراف، يتوسطها حمل مجنح ذهبي.

ليلة ونهار من المسير، خاضوا فيما النهر الذي شقته صدور الخيل المغطاة بدروع جلدية، ثم عبروا منحدرًا اكتسى بالعشب الحاف، قبل أن تضرب قوائم الخيل الحصى الصلب صعودًا. كان عليه أن يصل إلى هناك، لعله يكون نجدة لمن لم يزل حيًّا بعد الحريق، لكن وجبت الراحة كي يمكن لجيشه الاستمرار. أضاءت المشاعل جذوع الأشجار المتراسة بانتظام، وساد السكون لساعات الليل، وحتى ميلاد فجر اليوم الجديد. كان خط من الدخان الأسود يتصاعد في الأفق، فخلف الأشجار البعيدة كانت تقع المدينة. خمدت نيران الجحيم، ولكن ما زال الرماد يدخن ذرات الأجساد والبيوت. ورائحة اللحم المحترق تصله مع الريح القادمة من هناك.

ترجلَ عن فرسه وعيناه تدوران في المكان. أرسل فرقه استطلاع، ثم تبعها بجنوده، إلى أن دخل المدينة الخاوية. سار فوق الرماد نحو مسجدٍ لم يبق منه سوى مئذنةٍ حجريةٍ اتشحت بالسواد وجزء من سور محترق. تعلم أن الحرب ليست غدراً، وأن الإغارة على الآمنين ليست بنبلٍ، ولكنه يقف الآن

وسط مدينةٍ تمت إبادتها، بل إن الكنيسة الصغيرة نفسها لم تسلم.. محقة أقيمت دون شفقةٍ. جاء صوتُ شرحبيل الكلبي ينتشله من التفكير:

- سيدِي.. لقد وجدنا جثة أحد المهاجمين بالقرب من الجدار الغربي.

سأله سَودان دون أن يلتفت:

- يحمل شعار أي دوقيّة؟

- لا يحمل أي شارة.. ولا يوجد سوى جزءٍ من راية حمراء تحمل رسمًا لحمل كما قال ابن الأغلبي.

خطا سَودان بين الأشلاء المحترقة، ذاهبًا مع شرحبيل ليり الشعار. استوقف نظره شيء يلمع، فانحنى يأخذه من الأرض.. كانت سلسلة ذهبية علق بها صليب مزين بأحجار زرقاء وحمراء. ليست أول مرة يرى هذا الصليب!.. انتشله صوت مساعدٍه مرة ثانية:

- سيدِي هل سنتوجه شمالاً؟

اعتدل سَودان بعد أن دس الصليب في جرابه:

- كم عدد القرى التي طالها الدمار؟

- أربع قرى باتجاه سالرينو..

- أي القرى بدأ عليها الهجوم أولاً.

- هذه يا سيدِي.

أشار سَودان للجند الممسك بـلجام الفرس ليأتيه، وامتنع صهوتها وهو يقول:

- سنتجه غرباً.

صاح قائد الجندي بفرسان الاستطلاع أن يتوجهوا غرباً، بينما حث سَودان مطيته للركض، متقدماً جيشه الصغير. عليه الاتجاه غرباً، فمن أحرق تلك المدينة خطوطه القادمة إلى الغرب، حيث يعسكر جيشه بقيادة أبي المغوار.

قمرٌ ليلةٌ وتريةٌ من رمضان زين السماء، ومئات المشاعل أضاءت المعسكر القريب من سفح الجبل. ترافق الجند بين الخيام للصلوة، وآخرون يصبون المياه من الأباريق للوضوء. الوجوه باسمة رغم الضيق، والآنفوس تستعين بذكر الله لطمئن، وصوت تلاوتهم يصل إلى مسامع من يقعون فوق الجبل مستترین بالظلام. جنود ساليرينو ترافقوا ممسكين بأقواسهم، يرمون الجيش الرابض في السهل المنبسط. لطالما رأى قادتهم أن تحالفهم مع سراسنة باري هو عارٌ يجعل رؤوسهم تتحنى في مهانة، فلا شيء يذل أكثر من أن تسمح لعدوك بأن يُقيم بجيوشه على أرضك، ويتوّل آياته الوثنية في أرض مسيحية، ثم تدفع جزية سنوية من خراج الأرض للمغتصبين. وقف الدوق ماركيزيو متهدداً إلى حاكم ساليرينو:

- ستكون آخر صلاة لهم..

ضحك كارلو ملوحاً بيده:

- فانتعجل بإتمام صلاتهم في الجحيم.

مع إشارة يده، انطلقت السهام المشتعلة وقد أذان المجنحون تعلن الحرب على حلفائهم السابقين. رجموا المعسكر القريب بكراتٍ من لهب تساقطت من فوق الجبل، وكراتٍ من أغصان مشتعلة تركض عبر السفح، متدرجة تُطير بالصفوف مهديمةً لخيام. خرج أبو المغوار من صلاته صائحاً:

- خيانة!

عمت المعسكر حالة أولية من الهلع، ولئل البعض أدبارهم، ثم عادت بعض القوات تلمم شتاتها. توقفت شهب المجنحون فجأة، كما بدأت فجأة، وارتقت صيحات هجوم تدوي من بعيد. رتب الفرسان العرب صفوفهم بسرعةٍ، وحمل البعض الجرحى إلى الصفوف الخلفية. كان وقع الخيانة صادماً، ولكن قسورة تخطى المفاجأة بتعرض محارب، وامتنع جواده أمراً رجاله بالانتظام وتمالك زمام الجند. كان أبو المغوار يتمتنع جواده، حين أتاه صوت قسورة:

- قلت لك إن الخيانة تسرى بدمائهم، فلم تصدقني.

صاح به أبو المغوار:

- لا وقت لدينا لنرى من كان محقاً، أعط أوامرك للجند بالتراجع.

مال قسورة برأسه جانبًا متوجهاً:

- تراجع!

- هو التراجع ولا شيء آخر، قبل أن تُفتح تلك البوابات ويخرج منها من يحصد رؤوسنا.

صرخ قسورة بعصبيةٍ:

- والله لن أتراجع خطوةً للخلف..

صاحب أبو المغوار في حزمٍ:

- أنت جندي، وعليك إطاعة الأمر.

- الجندي لا يفر من الميدان.. انسحبوا أنتم وساخذ رجالى للقتال لأحمى ظهوركم.

نطقها قسورة بالتزامن مع وكره للجود، وشق الطريق بين الجند إلى الميسرة حيث كتيبته السوداء صائحاً:

- إلى القتال... الخونة جزاهم الموت.. والله لا أربح حتى أدخل ساليرنو منتصراً.

انطلق فرسان قسورة بذرو عهم البراقة، بينما أعطى أبو المغوار أوامرہ للباقين بالانسحاب خارج مرمي المنجنيقات، التي كانت في تلك اللحظة تضرب من جديد. في الطرف الغربي، ظهر فرسان ساليرنو يتقدمون، بينما تمر الشهب فوق الجميع لتساقط خلف كتيبة قسورة، التي اندفعت صوبهم رغم القصف المستمر والسهام المشتعلة. ارتطممت نواصي الخيول، واصطكَت السيفوف بشرر.. صرخات حماسية ألهبت الجانبين، استبسِل رجال قسورة، الذي لم يصدِ أحد أمام ضرباته ومبرازته السريعة بسيفيه، يسقط الفرسان عن جيادهم تباعاً. وفي ساحة الوغى، تبللت الأرض بالدماء، بينما السهام النارية تلاحق رجال أبي المغوار، الذي استطاع تنظيم صفوف الجند، ورسم خريطة للحركة أمام المهاجمين. لم يتوقع الدوق ورفاقه أن يصد السراسنة هكذا، وأن يتحولوا من الخوف إلى الهجوم بهذه السرعة، وفوجئ بهم وقد بدأوا يرشقون الجبل بالسهام. كان ماركيزيو يأمل أن تأخذ جيش باري المفاجأة، ويهرب إلى التلال فيكمل قتله هناك. هكذا كان يجب أن تسير الأمور، ولكن خلافاً ما أصاب الخطأ. وقبل أن يحار فيما يفعل، كانت تظهر في الأفق رايات حمراء بلون المغيب يعرفها جيداً، جاءت بالوقت المناسب لتقضى على جيش السراسنة وقادتهم العميد أبي المغوار.

ازداد عددُ الجرحى في صفوف جيش باري، وبدا الروع على الوجوه الملطخة بالدماء. مشهدٌ مرئٌ ملأ العيون من سهام غرسـت بالصدور والسيقان، وأشلاء ممزقة جراء الشهب المتساقطة، ورایات محترقة دهستها الأقدام. كان من بقوا يُحاولون استبقاء شجاعتهم، إذ لم يكن أمامهم أي حل سوى المواجهة ولا مجال للتراجع، فانسحبـهم يعني الموت المحتـم. ظل أبو المغوار يُحاول إثارة الحمية بقلوب الجنـد للصمود حتى الموت. سقط فرسان الفرقة السوداء واحداً وراء آخر، لكن لم يتوقف صلـيل السيفـوف، صـهـيلـ الخيـل وصـيـحـاتـ الرـجـالـ فيـ قـتـالـ لاـ هـوـادـةـ فـيـهـ، حيثـ أـبـرـزـ الموـتـ مـهـارـاتـهـ فـيـ حـصـدـ الأـرـوـاحـ. اـكـتمـلـ اليـأسـ بـأـعـلامـ حـمـراءـ بـرـزـتـ فـوقـ رـبـوـةـ بـعـيـدةـ.. لـقـدـ صـارـواـ مـحـاـصـرـينـ تـامـاـ.

صـاحـ منـادـياـ فـيـ رـجـالـهـ بـالـتـمـرـسـ، فـتـلاـصـقـتـ الدـرـوـعـ فـيـ تـشـكـيلـ دـفـاعـيـ لـنـ يـكـونـ مـنـيـعاـ لـزـمـنـ طـوـيلـ أـمـامـ ذـلـكـ العـدـدـ الـكـبـيرـ مـنـ فـرـسـانـ الرـوـمـ. قـبـضـ العـجـوزـ عـلـىـ سـيـفـهـ، وـأـرـجـحـ درـعـهـ وـهـ يـنـقـلـ عـيـنهـ بـيـنـ قـسـورـةـ الـذـيـ كـانـ يـقـاتـلـ فـيـ بـسـالـةـ بـسـيـفـيـهـ، وـبـيـنـ أـصـحـابـ الرـايـاتـ الـحـمـراءـ الـقـادـمـينـ بـسـيـفـ الـمنـيـةـ، وـأـيـقـنـ أـنـهـ النـهاـيـةـ، فـابـتـسـمـ.. وـأـرـتـطـ الجـمـعـانـ.

ليس هناك أسوأ من حانة خاوية. مر سباستيان متذمراً بين طولات ومقاعد كانت عامرةً منذ أيام، وأخذ يُطفئ الشموع، فلا جدوى من إهدارها الليلة أيضاً. تخطى كلبه النائم، مطلاً السباب للحرب ومن تسبب فيها. شباب سان فيلي ذهبوا لمحاربة السراسنة. مر زمنٌ طويلٌ منذ آخر حرب شاركت فيها القرية، أو في الحقيقة هو لا يتنكر أن أحداً منها شارك في أي حرب مسبقاً، سوى ذلك المهرطق العجوز. طوال سنين والقرية هادئة بعيدة عن طرق الجيوش ومعاناة الحرب، تنتقل ملكيتها إلى المنتصر في سلام. نقل بصره في أرجاء المكان. لم يتوقع يوم بنائه أن يُصبح خاويًا يوماً. تذكر كيف حصل على المال من الدوق ليقوم بتأسيس عمله الجديد، ولم يعد بعدها ذلك الحطاب الذي لا يملك سوى فأس وحمار وكلب أجرب لا فائدة منه. كانت القرية في طريقها لكي تصبح مدينة كبيرة بفضل الأموال التي منحت للنبيل، لكنه أقحم الجميع في حرب لا طائل منها. لم يهتم سباستيان يوماً بأمور الممالك والصراع الدائم، يرى أن النساء وحتى السراسنة يتشارعون من أجل الأموال وبسط السيطرة وسلب الناس أموالهم وأقواتهم. ضحك، بعد أن تجرع كأس الجمعة:

- كم أنا غبي..

بتر كلماته حين رآه أمامه. تفاجأ به، فهذه أول مرة يدخل إلى الحانة منذ بنائها. ابتسم كاراس:

- ما بك سباستيان، أتعترف بغيتك هكذا في العلن؟

غمغ سباستيان:

- لم أتوقع أن أراك هنا؟

جلس كاراس وهو يُخرج عملاتٍ فضيةً ليضعها على المنضدة:

- أليس هذه حانة؟ نفذ النبيذ عندي.

ابتسم سباستيان وهو يأتي بقنينةٍ من خلفه:

- هذه المرة الأولى التي تأتي إلى هنا فيها.. عذرًا سيدى الطبيب.

بعد عدة كؤوس ودهرٍ من الصمت، استدار كاراس إلى حيث يقف سباستيان:

- أي حانة هذه، التي لا أرى فيها سوى جدران صامدة! أين النساء والقيثارات؟ يبدو أنني أخطأت حين تخيلت كيف تكون أجواء الحانات.

رمقه بامتعاضٍ:

- وهل دخلت حانة يوماً؟

رفع كاراس قدميه إلى الطاولة:

- أظن قبل أن تولد أنت. لم أدخل حانة منذ كنت جيش الإمبراطورية البيزنطية. الليلة التي سبقت أسر ي قصيיתה بحانة في كالابريا..

ضحك سباستيان جعلته يتوقف عن الحديث. رمقه بصرامة مستطرداً:

- ما الذي يُضحكك يا هذا؟

لوح سباستيان بيده:

- تخيلت كيف يكون الطبيب المهرطق بين الأذاء والسيقان..

ارتشف كاراس ما بكأسه:

- لقد صرحت نصف نسوة القرية قبل أن تأتي أنت للدنيا، واكتفيت من النساء قبل أن تعرف سر تلك الثمرة الضئيلة بين فخذيك.

ضرب سباستيان الطاولة بيده غاضباً:

- أقسم أن أقتلك إن تفوهت بكلمة أخرى.

لم يتحرك كاراس من مكانه وقد زين وجهه بابتسامة صفراء:

- لم أتوقع أن يشعر القواد بالغضب.

تحرك سباستيان من خلف طاولته، متوجهاً إلى حيث يجلس كاراس. قبل أن يصل إليه، صاح أحدهم من خلفه:

- توقف!

استدار، ليجد لورينزو يقف بباب الحانة. لم ينتبه من جموده إلا صوت كاراس:

- لماذا توقفت؟ أمرك سيدك أيها الجرو؟

صاحب لورينزو:

- كاراس، توقف عما تفعله.

- لا أفعل شيئاً في الحقيقة.. تعال شاركني كأس نبيذ.. أيها الساقى الحطاب، هلا جئت لنا بقنينة من النبيذ الكارولينجى الفاخر.

جلس لورينزو أمام أخيه، الذي رفع كأسه:

- لشرب نخب أول جلوس لنا معاً منذ ستة أشهر أو ربما أكثر..

تأمله في صمتٍ قبل أن يقول بصوتٍ حازمٍ:

- لماذا أتيت إلى الحانة؟

- أويجب أن يسألني كل شخصٍ عن هذا؟! لقد نفذ النبيذ عندي، فجئت لأحصل على قدرٍ منه.. ولربما صادفت عاهرةٌ تقضي معي ليلةً صيفيةً قرب البحيرة..

رفع لورينزو كأسه:

- السباحة ليلاً في البحيرة قد تكون خطراً على حياتك أيها العجوز..

ضحك كاراس:

- تعلم جيداً أني لا أخشى شيئاً. منذ صغرتنا وأنا الذي أخاطر بكل شيء، وأنت تحصل على كل شيء. حتى اليوم الذي كان من المفترض أن تذهب فيه أنت إلى الحرب، أرسلوني بدلاً عنك. لم أتذمر ولم أختبئ بين أكوام القش في الحظيرة.. أما زلت تخشى الموت يا أخي؟

امتع وجه لورينزو:

- احذر أن تسخر مني، ولا تنس أن لولا وجودي لكنت بين الأموات، ورغم مصابيك الأخيرة إلا أنك ما زلت تحظى بحماستي..

عقد كاراس حاجبيه مغمضاً: مصاب!!

اقرب لورينزو منه وصوته يتذبذب:

- أنسنت قدوم السراسنة لك بالهدايا والعطایا؟ كذبت على الدوق من أجلك أنت وابنتي، التي تسير خلفك مغمضة العين، وأجزم أنك من تبث في رأسها سموك لكي ترفض الزواج من الدوق ماركينزيو. ما إن تنتهي الحرب ستتزوج الدوق، وسأحصل على ما أبتغي، ولن يردعني أحدٌ عن تكوين دوقية

سان فيلي..

قاطعه ساخرًا:

- دوقيه سان فيلي!! هل بضعة قرويين ومجموعة من اللصوص سينتصرون على جيش مدرع لا يقف أمامه شيء؟ أنت واهم. لا أحد يستطيع هزيمتهم الآن. لقد رحل شارلمان ولن يعود يا لورينزو، وبطلات رولان مجرد أنشيد كنسية ومسرحيات هزلية تقدم لل العامة. الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم يعد لها وجود سوى في أحلام السذج. انظر حولك.. العرب يحيطون بنا من كل جانب، إنهم يحكمون الأرض ولم يتبق لهم سوى بضعة بلدان. أما نحن فنتمسك بتاريخ زائف وأمجاد ولى عهدها يا أخي. أتعرف لم يُقبل الناس على دينهم وحضارتهم في البلاد التي دخلوها؟ لأنهم حرروا رقاب الناس من التسلط والجهل وتعسف الكنيسة. إنهم يجمعون علوم اليونان وروما القديمة، وتترث عقولهم نور بلاد فارس. إنهم يعمرون، أما نحن فدوقيات وممالك مقسمة بين بيزنطة وأحفاد آخر أبطالنا شارلمان الكارولنجي. أكاد أرى رأسك معلقاً على بوابة القرية، بسبب حرب أقمت نفسك بها.. حرب خاسرة أمام أقوى جيوش الأرض.

تجّرّع لورينزو ما بكأسه دفعهً واحدةً:

- أتفق معك في بعض ما قلته ولكنهم لا يزالون كفاراً.

ملأه كاراس الكأس وهو يُحدثه بهدوءٍ:

- لا يهمني كل ذلك الهراء، سواء كان أبناء إسماعيل محقين، أو كان أبناء إسحق على صواب.. ولا آبه في الحقيقة لتلك الأساطير عن أحفاد قabil الملعونين أو أننا نحن أبناء المسيح المخلصون.. انظر حولك يا أخي، ستري أننا كلنا من لحم ودم.. جميعنا من ظهر آدم وكلنا سواء أمام رب. تختلف طرق عبادتنا ولكن لكل منا مفهومه.. وكما ترى لكل زمانه. وهذا زمان الشرق ليسود.

لوح لورينزو بيده في وجه أخيه:

- بهذه الهرطقات ما تملأ بها عقل ابنتي؟

تراجع كاراس في كرسيه:

- ابنته ماريا! وهل يبيع نبيل ابنته مقابل المال والجاه؟! ماريا لها عقل راجح، فلا تعاملها على أنها بهيمة للبيع. اسمع لها يا لورينزو، ولا تفرض عليها الزواج من ذلك الدوق المتعرّف، حتى لا يأتي اليوم الذي تندم فيه.

رفع كأسه في وجه لورينزو، الذي نهض مغاضباً وقد احتد صوته:

- سنتصر في الحرب، وستتزوج ماريا من الدوق. بينما نتحدث الآن، يُباد جيش أصدقائك قرب

ساليرنو. نحن نحارب من أجل حريتنا وديتنا.. نقاتل من أجل المسيح وروما. سنقاوم كل من يُحاول اغتصاب أراضينا وإهانة معتقداتنا.

قبل أن يصل إلى الباب، جاءه صوت كاراس ساخراً:

- لماذا لم تذهب للحرب يا أخي؟

مضى لورينزو إلى طرقات القرية دون أن يُجيب أحداً، كظم غيظه، وراح يتجلو وحده ويونب نفسه أن ذهب إلى الحانة في هذه الساعة. الـدرُب المؤدي إلى منزله اكتسى بضوء القمر. لم ينظر للسماء منذ زمنٍ، ولكن كلام أخيه المخرف أفلقه بما يكفي ليرفع عينيه يطلب أن يعود ابنه إلى أحضانه مكلاً بالنصر.. أن يراه يتزوج وينجب ورثة له ولاسم عائلته. سنوات عمره قضتها في حصد المال وتوسيع حقوله، وكان على ابنه أن يذهب بين جندي برتدون قلنسوات حمراء كأعلامهم التي رسم عليها حمل ذهبي له أجحة عظيمة، ليخوض غمار الحرب من أجل إتمام رفعة العائلة. على ماريا أن تضحى كما ضحى إلساندرو. قبل مولدها، رأى العذراء في منامه، ولوهذا سماها باسمها لتكون بركة عليه، وكم ضحت السيدة العذراء من أجل خير الآخرين.

حمّماتُ الخيل.. وبِرَكَةٌ من وحل دماء القتلى من الجانبين.. وقوات ساليرنو قد خرجت من البوابة الشرقية. فرق المشاة صارت في قلب المعركة، ترجل قصورة بعد أن قُتل جواده متفادياً الرماح، يطعن هذا ويطعن ذاك، ولا يزال يقف في بسالةٍ. الخيول تصطدم ببعضها، والدماء تنتاثر في الهواء. كانت خطة مُحكمةً وضعها الدوق ماركيزيو مع نبلاء وقادة الحرب في نابولي وساليرنو، طغت جيش باري بروح الهزيمة، وزاغت الأ بصار، وتتساقط الجنود وقد غرسوا أجسادهم سيف "حملان الـرب". غمد أبو المغوار سيفه بصدر أحد مهاجميه، رافعاً درعه ليتلقي ضربة قوية، أتبعها باستدارٍ سريعة، جعلت رأس مبارزه يطير في الهواء. وبوجهٍ ملطخ بالدماء راح يشق الصوف. كان يعلم أن للحرب وجهين.. إما الموت أو الحياة. تذكر يوم استند حصار سرقوسة. في ذلك اليوم كان يُقاتل ببسالةٍ، وقد هجم عليهم الروم من كل جانب، بعد أن تملك منهم المرض والتعب. يتذكر كيف كان أسد بن الفرات يُقاتل بسيفٍ ويحمل اللواء بيده الأخرى، وقد سال الدم على قناعة اللواء وتخضبت ذراعه، ضارباً المثال لهم في الثبات..

النهاية دانت.. سقطت رايات باري ودهستها حوافرُ الخيل. اشتعلت الخيام أمام عيني قصورة، الذي اكتسى وجهه بالدماء. رغم إصاباته، فإنه لم يتوقف عن القتال. أخذ يشق الصوف مكملاً مبارزته، وأسقط أحد فرسان ساليرنو من على جواده، وأنهال عليه طعنة.. صوتٌ بداخله أخبره أن كل شيء سينتهي بعد قليلٍ في هذه المذبحة التي تقوم بها قوات ساليرنو. اصطك سيفاه بفأس أحد مهاجميه.. ركله بصدره، وصوت أحد رجاله يأتي من خلفه صائحاً: سيدتي لقد جاء المدد!

من مدخل الوادي البعيد، انسابت رايات باري السوداء والخضراء، يتقدمهم فرسٌ أبيض. يقود موجاً

كاسحًا راح يهدى بالتهليل والتكبير، حتى ارتجفت الجدران ومن عليها من جندٍ. اتسعت العيون وهي ترى المدد الذي لا يتوقف. انقلب الحصار الآن، وصارت قوات ساليرينو بين شقى الرحى. صاح أبو المغوار بجنوده فرحاً:

- امنحوا الخونة موتاً سريعاً يا رجال!

من أعلى الجبل، كان ماركيزيو يقف مذهولاً. كيف أتى هذا المدد، ومتى وصلهم الخبر كي يصلوا الآن؟! قائد القوات أشار لأحد رجاله قائلاً:

- أعط الأمر بالانسحاب والعودة إلى ساليرينو!

استدار له الدوق غاضباً:

- ماذا تقول يا هذا؟

رماه القائد بنظرٍ خاويٍّ:

- أ فعل الصواب.. هذا المدد لا يتوقف، ومع الصباح ستكون المدينة بين يدي السراسنة. لا أستطيع التضحية بالمدينة، إنها خط الدفاع الأول لتابولي، وعليها التحصن حتى يأتي العون.

صمت الدوق كاظماً غيظه، وارتقت رايات الانسحاب، ودوى صوت البوق في الفضاء الشاسع. تراجع المشاة إلى البوابة الشرقية، ثم ركضوا فارين، تحصدتهم سيوف فرسان سودان، ومن أعلى الجبل انهمر وأبل من السهام المشتعلة يُحاول أن يوقف جند باري عن التقدم خلف القوات المنسحبة. لم تفرق السهام بين هذا أو ذاك، ولكنها كانت كافية ليتراجع قسورة ورجاله، وانتهت المعركة وبقيت آهات الجرحى تعم المكان، وعسكر جند باري عند الأشجار الكثيفة. شق سودان غمام الدخان المتتصاعد، تتبعه فرقة من فرسان حملة الرaiات، حتى توقف أمام أبي المغوار قائلاً:

- يبدو أن العجوز استطاع الصمود رغم الخيانة.

ابتسم أبو المغوار في تهالكِ:

- الحمد لله أن بقي لي من العمر ما يكفي لرؤية الخونة يحترون. كيف علمت بالأمر؟

خلع سودان خوذته عن رأسه:

- لقد هوجمت قرى إيفيلينو منذ يومين.. تتبعنا أثر المهاجمين، فوضّح لنا أنهم يحثون الخطى ناحية الغرب..

أومأ أبو المغوار برأسه، بينما جذب سودان لجام فرسه متبعاً حدثه:

- اجمع قواتك قرب النهر.. في الصباح سيأتي بقية المدد من كالابيرا وكمبانيا.

أكمل وقد تعمد أن يعلو صوته واثقاً، ليسمعه الجن حوله:
- وأرسل رسالة إلى ساليرنو.. إما الاستسلام وتسليم السلاح، أو نفتح تلك البوابات عنوةً.

انتشرت الأخبار عن هزيمة قوات ساليرنو، وعن غضب السراسنة من نقض مملكة نابولي العهد. تردد اسم أمير باري، سودان الماوري في قرية سان فيلي، البعض يقول إن البابا أدريان سيرسل جيشاً جراراً ليهلكه، والبعض يتصوره جراراً كفرير لا يرتوي إلا بالدماء ويستطيع فعل أي شيء. بعثر القلق روح لورينزو، ولم تفلح الخمر في التخفيف عنه. ما زال ابنه هناك، لا يعلم ميتاً أم نجا. حملن الرب.. اسم اختياره إليساندرو بنفسه ليكون شعار فرقة الدوق ماركيزيو. ارتجفت يد العجوز وهو يرتشف من كأس النبيذ وقد تساقط على لحيته البيضاء. تتمم وهو يرمي سيفه المعلق على الحائط:

- اللعنة على الحرب إن سلبت وريث البيت.

جاءه صوت زوجته إيلينا مختلطًا بالنحيب:

- أنت من اخترت الحرب يا لورينزو.. أنت من أقيمت إليساندرو في أتون الوثنين..

رمقها بنظرة غاضبةٍ، لكنها لم تتوقف... أخذت تتوخ:

- لن أسامحك إن أصابه مكرورة.. لماذا يدفعبني ثمن جشعك؟.. إنهم يمنحونك تلك القطع الذهبية الملعونة لتكون بيديك في أيديهم. أنت فلاج يا لورينزو، ليس لك من أمر الحرب شيء.

كانت مُحقةً فيما تقول. نابولي قد غدرت بحلفائها، وسيدفع الجميع الثمن. حتى في قريته الهادائة، لم يعد يستطيع الخروج من منزله، فمنازل القرية تتعى أو لادها، والأباء قد أنت أن مزيداً من جيوش السراسنة ستهاجم من الجنوب.

ماريا المارة بين الأكواخ، لم يشفع لها حزnya وبراعتها من كل ما يحدث، فترمقها العيون كخائنةٍ أهداها السراسنة ثمن خيانتها. طرقت باب عمها كاراس، فاستقبلها بابتسمةٍ شاحبةٍ لم تعهد لها، ثم جلس على مقعدٍ بقرب النافذة. اقتربت منه ووضعت يدها على كتفه:

- هل أستطيع فعل شيء لك؟

ربت على يديها مبتسماً:

- لقد زال المرض بلمسة يدك..

ابتسمت، بينما استطرد:

- ما من أخبار عن الحرب والمعارك قرب نابولي؟

جلست على المقعد المقابل له، وقالت في حيرة:

- سودان هزم قوات دوقية نابولي في سالريينو، ويحاصر المدينة الآن.

نظر في عينيها الخضراء الحائرتين. أشفق على روحها من كل هذا الصراع. كان أولى بها في هذه السن أن تحب وتسعد وتُنجب الأطفال. حدثها بصوتٍ واهنٍ:

- الأحمق يُسمى جنوده حملان الرب، ولا يفهم أن نقض العهود إثم عظيم لا يقبله الرب. إن سقطت سالريينو، ستسقط بعدها نابولي، ولا يتبقى أمام المسلمين سوى بنفينتو، ومن بعدها روما.

حدقت بوجهه وارتعش صوتها يسألة:

- هل سنتركهم هكذا؟ أليسوا غزاةً لأراضينا؟

نهض متكتأً على المنضدة:

- أراك تتحدثين بلسان أبيك، لا بما تريدين قوله يا ماريا.. دعني أريح ضميرك وأعود بالحقيقة قليلاً إلى الوراء فأسمع صراغ الأمهات ونحيب الأطفال في روما وأنحاء إيطاليا.. أشاهد القصور المحترقة والجثث التي تكتظ بها الشوارع، بينما عربات محملة بالذهب والغانم حملها الجنرالات معهم بعد دمار روما. منذ ذلك الحين لم نعد نحكم البلاد، بل تناول حكمها القوط والمبراديون والبيزنطيون وأخرهم الكارولنجيون، وصرنا عبيداً كما كانت تفعل روما قديماً بالشعوب. لقد حكمت الإمبراطورية الرومانية العالم بالحديد والنار، واستعبدت بلداناً كثيرةً وجعلتهم أقل شأنًا من مواطنينا روما. حضارة بُنيت على الحرب ثم تبخرت.. ودار الزمان دورته، وجاء دور على من يتحكمون في بلادنا، فإن كان المسلمون غزاةً، فهم على الأقل يحملون بذور حضارةً جديدةً، ولا يدخلون أرضًا يحكمها أهلهما، ولا يفرضون معتقداتهم على الناس بالقوة، بل يضعون أمامهم خيار الجزية لمشاركة ما يسمونه الزكاة في إعمار الأرض وإعداد الجيوش الحامية. يا ماريا، الحرب لن تتوقف أبداً، ما دام على هذه الأرض بشرٌ، والسلام مجرد أسطورة كتبها فلاسفة قضوا نحبهم بأبشع الطرق.

تنهدت ماريا، وقالت بصوتٍ مختنقٍ وهي تعبث في منديلها، وتُرخي جفنيها، تتقى أن ينظر إليها في عينيها:

- أريد أن أتعرف لك بشيء.

ضحك وهو يشير لها قائلاً:

- هاتي ما عندك، وإن كنت أظن ألا جديد لديك.

توردت وجنتاها وهي تستجمع الكلمات:

- أظن أنني.. إنه.. أنا أحبه يا عمي!

ضَجَّ مُقهقَهًا، بِينَما عَقَدْتْ حَاجِبِيَّهَا وَضُمْتْ شَفَتِيَّهَا، وَهَمَّتْ بِالْقِيَامِ مِنْ مَقْعِدِهَا..

- لن أقول لك شيئاً بعد الآن.

أمسك برسغها قانلا بطلطي:

- لا تغضبي يا ماريا.. لا جديد فيما تقولين يا ابنتي.. يوم جاءت رسائله وهداياه، تأكدت أنه أيضاً لم ينس فتاة سان فيلي. ولكن الأمر أقرب للمستحيل يا ابنتي.. أنت تدركيين هذا.

خرجت من منزل عمها متوجهة إلى جدول الماء. داعبت بأناملها صفحة الماء الجارية، وسلمت أذنيها لخrier الماء، يبعث في نفسها صفاءً تحتاجه. هل أخطأت حين عشقت شخصاً ليس على دينها، بعيداً عنها بمنات الأممال؟ ماذَا لو كان هو من يقتل أخاهَا؟ ليته ما كان أميراً. قال كاراس إن الحب الأول قد لا يكون الأخير، فلعلها تتسامه وتحب من يناسبها؛ لكن الحب، ذلك الشيء يجعل النفس صعبة التوجيه.

أسبوعان من الحصار كانا كافيين لجعل شوارع المدينة كثيبةً والوجوه تفيض بالخوف. رحل النبلاء والأغنياء على متن السفن إلى نابولي، ولم يبق سوى المقهورين على البقاء. حتى حاكم المدينة، النبيل كارلو رحل بعد أن كال اللوم على ماركيزيو. الحصار اشتد حول المدينة بعد قدوم قوات دعم من الجنوب، منجنیقات السراسنة لا تتوقف عن دك الأبراج والبوابات، التي لن تصمد طويلاً، ورأيات حملان الرب لا تزال تخفق فوق الأسوار رغم هرب أصحابها. حسب الأوامر، كان عليهم المقاومة والصمود، وقد استبسلا بالفعل، ولكن النهاية المحتملة كانت تلوح في الأفق. عيون اللوم كانت تحاصر الدوق، والفتى إليساندرو كان خائفاً يرتعد ويبحث عن سبيل للهرب، ولكن سفن نابولي رحلت ولم يبق سوى بضعة قوارب صيد صغيرة.

داخل خيمة القيادة، كان سودان يتناقش مع قادته حول الحصار، جميعهم أجمعوا أن الحصار لم يكتمل بعد، فما زال البحر مصدر قلق لهم، نعم رحلت سفن نابولي ولكنها قد تعود ومعها آلاف الجنود للدفاع عن المدينة، لم يُعلق سودان على آرائهم التي كان من بينها أن يأتي الأسطول من باري، ولكن هذه الفكرة مستبعدة فعلى السفن القادمة من باري قطع مسافة كبيرة وقد تقضي أسابيع في الإبحار، هذا إن لم تعرضها سفن حربية أخرى أو عاصفة خريفية تعصف بالصواري، كان اقتراح أبي المغوار أن

يبقى الحصار إلى أن تستسلم المدينة، بينما كان قسورة يرى في الهجوم الكاسح أمراً مثالياً لإنهاء المعركة، نهض سودان عن كرسيه متسللاً الوجوه قبل أن يوجه حديثه إلى أبي المغوار:

- أرفض استسلامهم إلا إذا سلمنا من ينعتون أنفسهم حملان الرب. كما أن المعركة لن تنتهي هنا، بل هناك في نابولي حيث الخائن سيرجيوس.

حرّك القاضي العجوز رأسه متعارضاً:

- هذا الحصار يجعل ظهورنا مكشوفة لهم. لقد تركنا جميعنا باري دون حراسةٍ كافيةٍ. أخاف أن يُباغتنا البناية والدوق إديلكي صاحب بنفيتو.. أو يأتيهم مددٌ من نابولي.

تدخل قسورة:

- إن عدنا إلى باري، فهي هزيمة لنا.. وإن لم نقتحم الأسوار ونتعلق عليها رؤوس الخونة سنكون أضحوكةً ومطيةً للجميع. يجب أن يدفعوا ثمن قتلهم الأبرياء في إيفيلنو..

كان سودان يعلم أن عليه إنهاء الحرب قبل منتصف الخريف. انتهت الاجتماع، فخرج يتبعه أبو المغوار و محمد الأغلبي، بينما ذهب قسورة إلى خيمته متذمراً. تجولوا بين الخيام، وتابعوا عمل المنجنينات. وراقبوا أسوار المدينة التي يحتضنها جبل اتشج بشحوب الخريف. حين مر على خيام المصابين، بعثت الجراح في نفسه ذكرى رعايتها له، وحدث نفسه أنه سيذهب إليها بعد أن تنتهي الحرب، وسيطلبها للزواج. وكان أبو المغوار يقرأ ما جاش بصدره، فقد انتهى به جانبًا، وعاد يُحدثه عن الزواج من الأميرة رملة، فِيَمَارَة إِقْرِيَطِش ستكون خير عنون له في السنوات المقبلة، وخيانة نابولي خير دليل على أن عدوهم لا ميثاق له ولا شرف.

أيام مضت، وقلوب أهل المدينة تهوي كلما سقط جزءٌ من السور. السراستنة سيدخلون للمدينة يسلبون ويقتلون. أعمدة الدخان ترتفع داخل المدينة، والضعفاء يدفعون ثمن الحرب. نفت صهاريج المياه، وخوت البيوت من صنوف الطعام. ازداد الوضع سوءاً، فخرج الناس يبحثون ليلاً عن طعام أو سبيل للخروج من المدينة. شاعت السرقة، وطبخت النساء الأوراق الجافة، وما عاد الأطفال يتوقفون عن البكاء. في حصن دي أرشيس العتيق، كانت عاصفة من الآراء تجتاح اجتماع من تبقى من قادة المدينة، الكل يلوم على ماركيزيو الذي وضعهم في هذا المأزق. رأى البعض في أعينهم، وسمعهم ينعتونه بالخاسر. لقب طارده منذ سنواتٍ بعد هزيمته المدوية في البحر أمام سواحل باري، حين احترقت سفن أسطوله. كان في مأزق بسبب آرائهم، ولكنه لم يتوقع رأي الفتى إيساندرو، الذي يصر على التحصن بالمدينة. جاوبه بصراًمة لم تخل من الحكمة:

- كم سيفاً سينكسر في مواجهة السراستنة؟.. كم عدد من سيهلك داخل المدينة التي قد تصبح أطلالاً في غضون ساعاتٍ؟ ما هكذا تكون الحرب يا فتى.. الحرب تمرس وسياسة قبل كل شيء.. لقد كانت حساباتنا خاطئة، ولو لا هجومك على قرى إيفيلنو لما كان أمير باري هنا.

صاحب إليساندرو غاضباً:

- لن أصبح كبس الفداء لهزيمتك أيها الدوق.. أنت من تتحمل المسؤولية كاملة.. ليتنا ما استمعنا لحديثك وترهاتك عن معركة احتفلنا بانتصارها قبل وقوفها..

غمغم الدوق وهو يترك الاجتماع:

- نعم، أنا من أتحمل أخطاء الأغبياء من أمثالك.. لن يُشاركني أحدٌ في قراري بعد الآن..

خرج من القاعة دون أن يبالي بهممات الرجال. كان يعلم أن من تبقى من أهل المدينة سيُقضى عليهم إن اقتحم السراستنة الأسوار. الاستسلام مهين، وسيُصمه بخزي أبيدي، لكن هذه الوجوه الشاحبة، والصغرى الذين أعيادهم الجوع والهلع، ونحيب الأمهات، يمنعون نفسه المبرر. ضاقت عليه أسوار ساليرينو وشوارعها، يبحث عن مفرّ له وللآخرين لكن دون جدو. قالت له عرافة من بروفانس إن الملوك يتلقون في الخريف، وإن الجذر إذا تحمل برودة الشتاء يحيا من جديد. عليه الخروج بنفسه وطلب الاستسلام، لعل القادم يحمل في طياته نصراً. هذا أفضل من الهروب إلى نابولي، التي حتماً ستذهب إليها قوات العرب بعد الاتهاء من ساليرينو.

ارتدى كامل درعه، التي منحه إياها البابا، وساعده خادمه في ربط حرمته حمراء مذهبة تدلّت عن كتفه. نزل الدرج وقلبه يُخفق بقوّة. كان يعلم أن للهزيمة وجهاً واحداً، ولكن قُضي الأمر. خرج على قومه، فتعاقبت العيون به وهو يسير ببطء إلى حصانه الحربي. التفت إلى الجموع قبل أن يرتقي صهوته. رغم أن الوجه بائسة، إلا أن العيون كانت تحمل رجاءً. أشار لحراس البوابة، ففتحوها له، صارخة بصريرِ مزق القلوب، فخرج يُجاوره حامل الرأية البيضاء.

بين الصفوف، كان إليساندرو بعض شفتيه في غيظ. لم يتوقع أن يحدث هذا يوم جهزه أبوه للحرب. بعد كل ما فعله في إيفيلينو، عليهم الاستسلام! اللعنة على السراستنة، من أين لهم بكل هذا العدد، ولماذا لا تثور المدن الواقعية تحت سيطرتهم؟ هل كتب عليه الخزي؟ كيف يواجه نظرات أبيه، وأخته، والعاهرة فپولا؟!.. هيئات، لن يعود قبل أن ينهزم السراستنة، فقط عليه الانتظار ليسمع شروط الاستسلام تملّى عليه، ووقفها سيمارس حقه في الرفض.

ابتسم سودان وهو يرى الفارسيين القادمين تصاحبهما الرأية البيضاء. انتشرت الهممّات بين جنود باري، وانشققت الصفوف لتسمح للفارسيين بالمرور باتجاه خيمة القيادة. وقبل أن يصلوا إليها، اعترضت طريقهما فرقة خيالة، يذكرها ماركيزيو جيداً، الخيول السوداء وأميرهم المكتحل. لم يتعرفه قسورة، فما زال الدوق يضع خوذته التي تشبه رأس الأسد. أشار إليه قسورة قائلاً:

- ترجلوا وسلمونا أسلحتكم!

نزل الفارسان عن جواديهما، بعدما أمسك الجندي بجاميهما. كان قسورة يتفحصهما جيداً وهمما

يمنحان أسلحتهما للجندى الواقف بجوارهما. بخطواتٍ ثقيلةٍ راح الدوق يسيرُ نحو الخيمة تتبعه الأعين بتربص. كانت أكبر مما يراها من أعلى الأسوار، حمراء زينت جدرانها بكلماتٍ عربيةٍ متشابكةٍ، يقف على بابها جنديان اكتسى جسداهما بالصلب المذهب، عيونهما المتحفزة فقط ما تظهر من خوذتيهما الفضيتين. دلف ومعه صاحبه إلى الخيمة، التي فرشت سجاداً منقوش بسباع وغزلان، وعلى جوانبها علقت ستائر كبيرة بيضاء وذهبية، وتتوسط أحد جدرانها راية سوداء كبيرة طرزت فيها مئات الكلمات العربية بالخط الكوفي المتداخل. كان الأمير يجلس على كرسيه، مرتدياً كامل زيه وعتاده الحربي، عيناه تحملان دهاء، ورأسه رفع قليلاً لأعلى، في حركةٍ توضح لمن النصر. تقدم ماركيزيو خطوتين وهو يخلع خوذته. انحنى، وكذلك فعل صاحبه الذي ما زال يمسك بالراية البيضاء. كان يحترق من داخله، لم يتوقع يوماً أن يكون في هذا الموضع، ذليلاً منكسرًا مستسلماً. حاول ألا يظهر ضعيفاً، ولكن بدا ذلك في صوته رغمًا عنه:

- أنا الدوق ماركيزيو دي لابورتا، قائد حامية ساليرنو، ولقد جئتكم لنبحث شروط الاستسلام وتسليم المدينة.

حاول جاهداً ألا يرفع عينيه في وجه سودان، الذي ما زال يرمي وهو يُكمل حديثه:

- إن ما حدث خطأ، ويجب ألا يدفع البساطة ثمن الحرب.. سنافق على شروطكم مقابل الأمان لأهل المدينة.

برهة مررت، ثم جاء الرد على لسان أبي المغوار، الذي تقدم خطوةً للأمام:

- نحن لا نسفك دماء الأبرياء.. وإن كنت جئت جئت للاستسلام، فحتماً تعلم أن الأمان من نصيب أهل المدينة فقط، ولن يسري الأمر على المحاربين الذين تلوثت أيديهم بدماء الآمنين في إيفيلتو. هذا غير أن عقاب الخيانة سترتكه لك، فما جراء الخيانة في رأيك؟

رفع ماركيزيو رأسه قليلاً وهو ينظر لسودان الذي ما زال جالساً:

- إننا نادمون على هذا الفعل الذي تسببت به سياسات القادة و..

قاطعه صوت أبي المغوار:

- نادمون؟ أز هقت الأرواح وحرقت القرى وتقول نادمون؟ لقد كان بيننا وبينكم تحالفٌ، ولطالما دافعنا عن نابولي وساليرنو، وما الجزية التي تدفعونها سوى مقابل رمزي لما تتعهدون به من أمن وخير.. لقد قطعتم كل سبل الثقة، ثم تطلبون العفو بعد التمثيل بجثث البساطة وتعليق رؤوسهم على الرماح وجذوع الأشجار!.. إن كنتم تريدون الاستسلام حقاً، فسلموانا من يدعون أنفسهم حملان الرب، ولتضرب أعناقهم في ساحة المدينة أمام أهلها، الذين سيحظون بالأمان في مقابل ولن يمسهم أحد بسوء، وتكون مدينة ساليرنو بعدها خاضعة لإمارة باري.

رمي ماركيزيو بنظرةٍ خاويةٍ، ثم وجّه كلامه إلى سودان:

- سيدِي، إن من بقي في المدينة هم أهلها.. لقد رحل جنود نابولي ومعهم جيش حملان الرب. لقد جئت للتحدث عن سالريينو وأهلها، وإن كنتم تريدون القصاص فعليكم الذهاب لنابولي.

كان عليه أن ينقذ ما يمكن إنقاذه. الكذب حيلة حربية مشروعة إن تطلب الأمر. أكمل حديثه وقد تعلق بصره بالأمير الصارم، الذي لم يرفع عينيه عنه:

- إن المدينة جائعة. نفت المؤن وصار النساء والأطفال دون طعام.. كل ما أطلبه هو الرحمة بالضعفاء والمساكين.

نهض سودان عن كرسيه، وتقدم نحوه قائلاً:

- وما الذي يدفعنا إلى ذلك ونحن على وشك الدخول للمدينة والحصول عليها؟

خفض ماركيزيو رأسه قليلاً:

- سندفع لكم الجزية ضعفين.. وأن تكون كنوز النبلاء وممتلكاتهم غنيمة لكم..

قاطعة سودان بصرامةٍ:

- لا نتحدث هنا عن الغائم، فهذا أمر قد حُسم. إن كان الجندي قد هربوا بحرّاً كما تقول... فاعلم أنك ورجالك ضيوف لدينا حتى تنتهي الحرب... هذا بعد أن يسلم كل سيف ورمح ودرع في المدينة.

ضربت كلمات سودان عقل الدوق. ظهر الوجوم على وجهه وهو ينظر إلى سودان الذي تابع حديثه:

- لقد قلت ضيفاً ولم أقل أسيراً..

انتهى الاجتماع سريعاً، وخرج ماركيزيو يحمل الهزيمة والانكسار، وفي طريق خروجه قابله قسورة، الذي تعرّف عليه باسماً:

- لم أتوقع أن تكون أنت الرسول أيها الدوق.

حرّك ماركيزيو رأسه دون أن ينطق. امتطى جواده، وانطلق هو وصاحبته تحت نظرات قسورة، الذي دلف إلى الخيمة ليعرف ما وصل إليه القرار.

النصر لمن أعد العدة وتجهز بإيمانه لما يُحارب من أجله. والخاسر قد يُصبح فائزًا إن بقي ليوم آخر على هذه الأرض. لا أحد ينتصر دوماً.

وافق ماركيزيو على الاستسلام بشروط أمير باري، وفتحت المدينة أبوابها في الصباح، بعد أن هرب حملان الرب مسترعين بالليل والبحر، وفي مقدمتهم إليساندرو إلى نابولي، فيما خلع جند ساليرنو دروعهم وانسوا بين العامة. الدوق من أعطى الأوامر بالرحيل وبأن يختفي كل أثر لحملان الرب، فالحرب لم تنتهِ بعد. ارتضى الأسر وفق شروط الإسلام، حتى يضمن لأهل المدينة الأمن، كقائد يعرف مسؤولياته. الآن، سكنت ساليرنو، وخلت الشوارع من الناس، واجتمع البعض في الكنيسة الكبيرة يتلون الصلوات، بينما قبع الكثيرون في منازلهم ينتحبون. ستتغير حياتهم للأبد تحت حكم الغزاة. أصوات الجيش تدوي في أذانهم، والجند الذين يحملون الرميات والبيارق الخفافة يدخلون البوابة بدروعهم البراقة، يتقدمهم أمراء باري، ومن خلفهم فرسانٌ مُدرعون على خيول سوداء. المشهد مهيب.. لقد سقطت مدinetهم بقبضة السراسنة، وأحرقت رايات حملان الرب في الساحة، وحمل الدخان آخر ما تبقى من حلم ماركيزيو.

اكفرت السماء في عينيه بلون المغيب حزناً على ساليرنو. ألقى بكأس الشراب بعيداً وهو يكتم صرخة أراد إطلاقها. كيف وهو الدوق النبيل يصير تحت رحمة سيفوف الغزاة، قيد الإقامة الجبرية. صوت الأذان غريبٌ يصدح في ديارهم ويثير القلق في قلوبهم. دقائق، ثم أقام السراسنة صلاتهم في الساحة، تحت مرأى ومسمع أهل المدينة. رغم أنهم لم يدخلوا إلى الكنيسة ولم يقتسموا داراً، إلا أن مشهد جمع الغائم من بيوت النبلاء على العربات وخروجها إلى حيث ما زال معسكر المسلمين قائماً جعل النساء تتوجّ و الرجال يبكون الكرامة الجريحة.

ثلاثة أيام قضتها سودان في ساليرنو يُدبر أمور الجيش ويعين من رفاقه من يُدير شئون المدينة، وفي اليوم الرابع أمر رجاله بالتوجه إلى نابولي، فكما قال لهم سابقاً إن النصر ينتظرهم على أسوارها. كان عليه إنهاء الحرب قبل قدوم الشتاء، وإلا فسيصعب الأمر على الجميع. توسل في صلاته أن يمنه الله نصراً مبيناً.. نصراً سيكون مهر الفتاة التي داوهه وما زالت تسكن وجدها.

بعد أيام من الإ Bhar، تجلّى في الأفق البعيد جبل فيزوف، بلونه الرمادي يمكث في انتظارهم. لم يحملوا دروعهم معهم، تركوا كل شيء خلفهم، وأخذوا فقط راية تحمل شعار حملان الرب. التجديف المستمر أرهقهم، وقد ربطوا قوارب الصيد الأحد عشر الصغيرة ببعض. لفتح الشمس وجوههم وأحرقتها المياه المالحة، كان البحر رحيمًا بهم بلا عواصف. بعيون واهنة نظر إليساندرو إلى نابولي الممتدة على الخليج الفسيح، وهو هم أولاء يقتربون من الجزر الصخرية الصغيرة في مياها. لا يعلم ما ينتظرون هناك، ولكن أي شيء سيكون أفضل من بقائهم في ساليرنو.

استقبلتهم العامة والجند بوجه حزينة. فقد سرت بحديث ساليرنو الركيان. وقدموا لهم الأطعمة والمياه، فأكلوا بنهم وعيونهم تدور فيمن حولهم، ثم منحوا مكاناً للمبيت، بجوار كاتدرائية المدينة. لم يكن إليساندرو يصدق أن النجاة قد كتب لهم. حين لامست قدماه أرض المرفأ تيقن حينها أنها حقيقة. قبل أشهر، لم يكن سوى فتى يفعل ما يريد ويلهו حيث يشاء، أما الآن فقد أصبح جندياً تحت إمرة جيش مشتبك في حرب لن تنتهي بسهولة. قضى ليته يُفكّر فيما حدث منذ البداية، وحتى اللحظة التي

يتأمل فيها السقف المُعْتم. إنه شخص آخر الآن، لقد نضج مع التجربة. ابتسם حين تذكر الدوق ماركيزيو.. كم كان مُنْهَرًا به، ولكن الرِّفقة تطلع على الخبيا. من كان يُصدق أن الرجل القاسي يستسلم للغزا ويسلمهم مدينة حصينة كسائلينو؟ لم يخلق الرب رجلين يُفكرا بنفس الطريقة، تلك كلمات الأب ليو، الذي قال عنه يوماً إنه فاشل وغير قادر على تحمل المسؤولية. ليته يرى وجهه الآن، ليُخبره أنه قاد أحد عشر قارباً، عبر بحر لجي إلى نابولي. تذكر بيته في سان فيلي، وليلاليه مع فيولا.. يفتقد أباه وماريا. يفتقد لحم الخزير المشوي على طريقة أمه إيلينا. أغمض عينيه وهو يتذكر النيران تلتهم قرى إيفلينو، التي أقسم أنها ستتشتعل يوماً في باري.

مدينة على شفا الحرب هي مدينة خائفة. نابولي العريقة صارت مزدحمة بالنازحين القادمين من الشرق والجنوب، وأنباء تقدم جيش السراسنة تثير الفزع، الذي وجد مستقرّاً له في وجوه أهل المدينة. القرى هجرها أهلها قبل أن تهاجمها الجيوش، والحكايات تنتشر عن رؤوس القتلى المعلقة على أبواب ساليرنو رغم استسلامها. فتح بيت السلاح للعامة، فصار الأطفال لم يبلغوا الحلم ويحملون الفؤوس والسيوف. جدب الخريف بسط رداءه على الحقول الممتدة حتى جبل فيزوف، والريح تحرّك راية نابولي السماوية اللون في الأفق البعيد، مع راكبين يُسرعان نحو المدينة. عبرا البوابات الرمادية العتيقة دون أن يتوقفا، تتبعهما الأعين، وقد أفسح لهما المارة الطريق. استقبل سيرجيوس الكشافين بوجهٍ قلق. خلعا عنهما خوذتيهما وهما يتقدمان نحو مجلسه. انحنى له قبل أن يشرع أحدهما في الحديث بوجهٍ مقتضبٍ:

- سيدى، إن جيش العرب على بعد سبعة فراسخ باتجاه الشرق.

تبادل سيرجيوس النظارات مع رجاله بعيونٍ قلقة، قبل أن يسأل الرجل:

- كم عددهم؟

بتوجسٍ خرجت كلمات الرجل:

- ما يقرب من خمسة عشر ألفاً، ثلثهم على الأقل فرسان، ومعهم الكثير من العربات تجرها الثيران... يبدو أن معهم منجنقات أيضاً.

أشار إليهما بالخروج من القاعة، بينما كان يحدث كارلو قائلاً:

- أعط أوامرك للرجال بالانتشار فوق الأسوار، ولتلتفق البوابات، وتندعم البوابة الداخلية بالمداريس..

- ولكن سيدى لا ننتظر حتى يتم إخلاء كل القرى الجنوبية؟

نهض سيرجيوس وقد تجهّم وجهه:

- لا أُبالي إن أحرقت جميعها، فهي في رقبة البابا الذي أقمنا في هذه الحرب. ما كان على أن أنصت

إلى حماقته المباركة. سأدفع عن نابولي، كما فعل أسلافِي منذ زمن بعيدٍ. لقد نجت المدينة عبر عصور الاضطراب، لأنها بقيت وحدها. خذلنا الجميع مراراً، وتحملنا ما هو أكثر من ذلك. على الجميع أن يُضحكوا من أجل نابولي..

- سيدِي ما زال لدينا طريقٌ للخلاص.. لدينا البحر.

التفت إليه بعينين تتقدان غضباً:

- أتريد أن نهرب كما فعلت أنت في ساليرنو؟ اسمع يا هذا، لن أترك هذه المدينة تسقط في يد سودان مهما تكلف الأمر..

عانقَت سحبُ السماء قمة بركان فيزوف، فزادَتْ هيبةً. ومن بين أشجار الغابة الشرقية خرج خيالة باري آلافاً، متوجهين نحو السهول المنبسطة قرب نابولي. حمّماتُ الخيل واصطكاك الدروع ووقع الأقدام كاد يسمع في المدينة القريبة. أسبوغ من المسير مروافِيه بقرى خاويةٍ على عروشها، وأخرى اشتغلت مقاومتها، فكان مآلها الدمار. باشر محمد الأغلبي نصب الخيام وتجهيز الحصار. عربات المؤن توافت بين الأشجار الكثيفة، يحرسها بعض رجال قسورة، الذي انتهى هو الآخر من إعطاء الأوامر، وذهب لسودان الذي كان قد عزم على التوجه لبوابة المدينة المغلقة. الفرس الأبيض توسطَت ثلاثة صفوف سوداء مهيبة، حتى توقف الركب عند البوابة الكبيرة ذات الأعمدة الرومانية القيمة. لحظاتٌ من السكون عمت المكان، عيون جنود نابولي تتربص بهم، وصوت الهواء يدور بالوادي. لكن سودان فرسه، وتقدم بها قليلاً، وصاح بصوٍّ هادرٍ يدوِي:

- أبلغ سادتك أنا قوم إذا ما غدر بنا لا ننسى، وأننا ما أتينا لها لقتل ونبي، بل جئنا للقصاص. أخرجو لنا سيرجيوس وقادته، واتقوا الحرب. فإن لم تفعلوا، فالعين بالعين، وكما فعلتم بقرى ومدن إيفيلنو سيكون جزاكم.. والسلام على من اتبع الهدى.

في الليلة الثانية من الحصار، وصلت قواتٌ إضافيةٌ من كالابيريا. العيون المتقدة بلهب المشاعل تُحاصر نابولي، وقد نُصبت المنجنيقات. تجول فرق الحراسة الليلية هنا وهناك، وعقدت جلسات السمر المتفرقة، يلقى البعض شعراً، ويقص آخر حكاية. ليلة ما قبل المعركة صاحبها الأرق، فربما لن تكون هناك ليالٌ أخرى قادمة. قرب خيمة القيادة، كان قسورة يُراسب مع زمرة من رجاله، يتحاكون بما حدث في ساليرنو، وكيف أن الأمير سودان قلب موازين المعركة هناك، ويتمون فتحاً سهلاً لنابولي، لا تراق فيه الدماء، وأن يعودوا إلى باري قبل مجيء الشتاء.أخذهم الوقت والتمني، حتى نهض قسورة قائلاً:

- سأذهب للنوم، فغدا يوم حافلٌ.

- هل سننهجم غداً؟

التقط قسورة حزام سيفه ..

- نعم. انقضت المهلة، و علينا تسلق هذه الجدران غداً.

تركهم في حيرة مع طرف لحديث جديد، و سار بين الخيام يُفكِّر.. طريق شاقٌ قطعوه إلى نابولي قادمين من ساليرنو، التي تركوها تحت إمرة أبي المغوار. دلف إلى خيمته المتواضعة، ليتفاجأ بوجود محمد الأغلبي جالساً قرب الفراش. ابتسم قسورة وهو يخلع درعه:

- أي رياح ألتَّك علىَ يا أغليبي؟!

ضحك محمد وهو يُداعب لحيته التي يشوب أجزاء منها بياض:

- رياح سان فيلي..

عقد قسورة حاجبيه، وجلس على طرف الفراش يخلع حذاءه الجلدي الطويل قائلاً:

- لم أعهدك كذلك يا أغليبي. أصرت تحب النمية والثرثرة كالنسوة بأفنيبة البيوت؟

كانت نبرة قسورة تحمل تهكمًا واضحًا لمحمد، الذي اعتدل في جلسته:

- لقد قُتل كل من أعرفهم في إيفيلنو، فأين كان سودان؟! يقيم مأدبة ضخمة، ويجلس بين حاشية متملقةٍ. لماذا لم يخرج مع الجيش إلى تخوم بنفينتو، ليقتص لمقتل شعيب ومن كان معه في رحلة صيده؟ إن الجنديين يتحدثون بأن الوهن أصاب قلب الأمير.

رفع قسورة رأسه وقد تجلى الغضب على وجهه:

- اسمع يا أغليبي.. لو لا فضل الله وقدوم الأمير سودان، لكان رؤوسنا جميعاً تزين أسوار ساليرنو. كلنا نعلم أن الأمير سودان ما زال يُعاني من إصابته الأخيرة، ورغم ذلك ها أنت تراه يقود الحرب. لا أظن أن قصة سان فيلي ستنتفعك بشيء، فمن الأفضل أن تشغل عقلك بمعركة الغد وحصار لا نعلم إلى متى سيذوم.

نهض محمد وقد نال منه الغضب، فقد كانت جملة قسورة الأخيرة تعني أن المقابلة قد انتهت. توجه لباب الخيمة قائلاً:

- سأشغل بالي بالمعركة.. ولكن لا يليق بالأمير الأسود أن يكون مرسلاً بين عاشقين.

خرج من الخيمة وقد ترك وراءه بركاناً ثائراً. سحب قسورة سيفه من غمده، أثارت كلمات محمد الأغلبي غضبه، ولكنه تعلم أن من يحمل سيفاً عليه التريث قبل استعماله. سيكون حسابه مع محمد الأغلبي عسيراً، ولكن ليس الآن. ألقى بجسده إلى الفراش، وأخذ يتأمل نصل سيفه البراق. ماذا لو

مات غداً؟ بماذا سينفعه ما اكتنـزه من ثروة؟ خاض الكثـير من المعارك وحصد الغـائـم.. من كان يظن أن شاباً صغيراً قدم إلى باري يُصبح أمـير حربـها؟ ولـد في برقة، لأبٍ يُؤذـن بـجـامـع المـديـنـة ويلـتقـي بـفقـهـاء المـشـرقـ والمـغـربـ العـابـرـينـ عـلـى المـديـنـةـ الصـغـيرـةـ. لـقد سـمعـ حـكـایـاتـ عـنـ خـراسـانـ وـالـأـنـدـلسـ، وـكـانـ دـوـمـاـ يـفـخـرـ بـكـونـهـ جـزـءـاـ مـنـ هـذـهـ الـأـمـةـ الـتـيـ تـمـلـكـ مـشـارـقـ الـأـرـضـ وـمـغـارـبـهـاـ. اـنـتـقـلـ إـلـىـ طـرـابـلسـ، وـأـبـرـ مـنـهـ إـلـىـ بـارـيـ. عـمـلـ نـجـارـاـ فـيـ دـارـ صـنـاعـةـ السـفـنـ، إـلـاـ أـنـ حـبـهـ لـلـخـيلـ نـقـلـهـ مـنـ الـمـيـنـاءـ إـلـىـ الـقـصـبةـ، وـضـمـمـهـ أـبـيـ الـمـغـوارـ إـلـىـ الشـبـابـ الـذـيـ تـولـىـ رـعـاـيـتـهـ وـتـدـريـبـهـ، شـعـيبـ، سـوـدانـ وـآخـرـينـ رـحـلـواـ وـغـمـرـ ضـبـابـ النـسـيـانـ ذـكـراـهـ. لـمـ يـكـنـ أـقـلـ شـائـنـاـ مـنـ اـبـنـ الـحـارـسـ الـشـخـصـيـ لـلـأـمـيرـ خـلـفـونـ، وـلـمـ يـفـرـ أـحـدـ فـيـ مـعـاـلـمـهـ كـمـاـ يـعـاـلـمـهـ أـمـيرـ إـقـرـيـطـشـ الصـغـيرـ. رـحـلـ الـأـخـيـرـ، وـبـقـىـ سـوـدانـ، الـذـيـ يـحـصـلـ دـوـمـاـ عـلـىـ كـلـ شـيـءـ: سـلـيـمـةـ بـنـتـ أـبـيـ الـمـغـوارـ، وـكـرـسـيـ الـحـكـمـ فـيـ بـارـيـ، وـتـلـفـضـيـ عـنـ أـيـ خـطاـلـ مـهـمـاـ بـلـغـتـ جـسـامـتـهـ. لـمـ يـحـسـدـهـ يـوـمـاـ، فـهـوـ صـدـيقـهـ الـذـيـ لـمـ يـبـقـ غـيـرـهـ، وـبـيـنـماـ كـانـ سـوـدانـ يـرـتـقـيـ الـحـكـمـ فـيـ إـمـارـةـ بـارـيـ، كـانـ هـوـ يـقـوـدـ الـجـيـوشـ نـحـوـ بـيـنـفـيـنـتوـ. لـمـ يـفـكـرـ بـتـلـكـ الـطـرـيـقـةـ مـنـ قـبـلـ، وـلـكـنـ شـيـئـاـ مـاـ قـذـفـهـ فـيـ رـأـسـهـ، دـوـمـاـ يـأـخـذـ سـوـدانـ مـاـ كـانـ يـجـبـ أـنـ يـكـونـ لـهـ.

أطفـاـ القـدـيلـ الـوـحـيدـ بـالـخـيـمةـ، لـعـلـ الشـيـطـانـ يـرـحـلـ حـامـلاـ مـعـهـ الـعـجـبـ وـالـغـورـ. تـمـسـكـ بـيـقـيـنـهـ أـنـ اللهـ كـتـبـ كـلـ شـيـءـ، لـقـدـ اـنـتـصـرـ فـيـ مـعـارـكـ كـثـيرـةـ، وـحظـيـ بـمـجـدـ يـرـافـقـ فـرـقـتـهـ السـوـدـاءـ. أـحـبـهـ الجـنـدـ وـانـهـرـ بـهـ الـعـامـةـ، حـتـىـ الـأـعـادـاءـ يـعـرـفـونـ قـدـرـ الـفـارـسـ الـأـسـوـدـ. تـذـكـرـ أـطـفـالـهـ السـبـعـ وـزـوـجـاتـهـ الـلـلـاثـ. جـالـ بـخـاطـرـهـ أـنـ يـأـتـيـ بـهـمـ إـلـىـ نـابـوليـ بـعـدـ الـفـتـحـ، لـيـسـقـرـوـاـ بـهـاـ مـعـهـ، وـيـؤـسـسـ عـائـلـةـ قـوـيـةـ تـحـمـلـ الـرـايـةـ مـنـ بـعـدـهـ. سـكـنـتـ نـفـسـهـ لـلـفـكـرـةـ.. يـعـشـقـ الـظـلـامـ وـالـسـكـونـ، رـغـمـ أـنـ حـيـاتـهـ لـاـ تـعـرـفـ سـوـىـ صـخبـ الـمـعـارـكـ وـصـلـيلـ السـيـوـفـ.

استـيقـظـ أـهـلـ نـابـوليـ عـلـىـ دـوـيـ زـلـزلـ أـسـرـتـهـمـ وـجـدـرـانـ مـنـازـلـهـمـ. قـبـلـ أـنـ يـسـتـوـعـبـوـاـ مـاـ يـحـدـثـ، جـاءـتـهـمـ الرـجـفـةـ الـثـانـيـةـ. قـذـائـفـ مـنـجـنـيـقـاتـ السـرـاسـنةـ تـتـلـاحـقـ وـتـدـكـ الـأـسـوـارـ. الـهـلـعـ عـمـ الـمـديـنـةـ، وـرـكـضـ النـسـاءـ وـالـأـطـفـالـ إـلـىـ الـكـاتـدـرـائـيـةـ وـالـمـرـفـاـ. اـصـطـفـتـ الـفـرـقـ الـعـسـكـرـيـةـ قـرـبـ الـبـوـابـاتـ، وـفـوقـ الـجـدارـ الـذـيـ يـتـلـقـيـ الـقـذـائـفـ مـرـتـعـداـ، وـتـحـرـكـ إـلـيـسانـدـرـوـ مـعـ الـرـجـالـ نـحـوـ السـوـرـ الـشـرـقـيـ. صـدـ الـدـرـجـ مـحـاذـرـاـ الـاهـتـرـازـ الـعـنـيفـ الـذـيـ يـتـوـالـىـ عـلـىـ بـدـنـ الـجـدارـ، وـنـظـمـ الـرـمـاـةـ الـذـيـنـ تـوـتـرـتـ قـبـضـاتـهـمـ عـلـىـ الـأـقوـاسـ، فـمـاـ زـالـتـ قـوـاتـ الـعـرـبـ بـعـيـدةـ عـنـ مـرـمـيـ سـهـامـهـمـ. رـأـيـ رـايـاتـ بـارـيـ تـخـفـقـ، وـالـمـنـجـنـيـقـاتـ تـتـابـعـ رـجمـ الـجـدارـ، ثـمـ اـبـطـحـ مـسـرـعـاـ. كـمـ فـعـلـ الـجـمـيعـ. حـيـنـ رـأـيـ الـقـذـائـفـ تـطـيرـ فـيـ الـهـوـاءـ قـادـمـةـ نـاحـيـتـهـمـ. لـنـ تـصـمـدـ الـمـديـنـةـ كـثـيرـاـ، فـقـدـ نـقـلـ مـارـكـيـزـيوـ أـغـلـبـ الـأـسـلـحةـ وـالـعـتـادـ مـنـذـ أـشـهـرـ لـسـالـيـرـنـوـ وـاـنـقـاـ فـيـ الـنـصـرـ. يـتـوـالـىـ الـاـرـتـاطـمـ بـالـسـوـرـ الـذـيـ لـطـالـمـاـ كـانـ درـعـ الـمـديـنـةـ، وـجـمـيعـ الـقـذـائـفـ تـضـرـبـ مـنـتـصـفـ السـوـرـ مـنـ الـخـارـجـ، لـاـ تـعـبـ قـذـيـفةـ وـاحـدةـ مـنـهـاـ إـلـىـ دـاخـلـ الـمـديـنـةـ.

فيـ الجـانـبـ الـآـخـرـ، كـانـ سـوـدانـ يـتـابـعـ الـمـهـنـدـسـيـنـ الـقـائـمـيـنـ عـلـىـ عـمـلـ الـمـنـجـنـيـقـاتـ، أـمـرـهـ بـتـركـيزـ الـضـربـاتـ عـلـىـ الـأـبـرـاسـ الـضـخـمـةـ. عـنـدـمـاـ سـأـلـهـ الـأـغـلـبـيـ وـهـوـ يـتـابـعـ عـمـ الـآـلـاتـ الـحـرـبـيـةـ:

- أـرـىـ الـأـسـوـارـ أـقـوـىـ مـنـ أـنـ تـدـكـهـاـ قـذـائـفـاـ...ـ مـنـ الـضـرـوريـ أـنـ نـهـجـمـ بـكـلـ قـوـتـناـ.

رد سودان بصرامة وهو يتجه إلى حيث يقف قادته: - دخول المدينة لا يعني أن نقتل كل من فيها يا أغبى..

تبّعه محمد الأغلبي وقد تجلّى في وجهه استنكارُ كلمات سُودان، الذي تابَع سيره حتّى وصل إلى حيث يقف قسورة وبقية القادة. دار بعينيه في وجوههم التي تفيضُ بالفضول لمعرفةِ القادم، فخطّة الأمس قد مُحيت واستأثر هو بادارة المعركة وفق خطّة جديدة: اتبعونِي إلى الخيمة!

نطق بها وأكمل سيره إلى خيمة القيادة، تلاحقه أمواج من الأسئلة في عقول رجاله. وعلى رأس منضدة التف حولها الرجال، وقف سودان يُحرك قطعاً خشبية تمثل قواته، ويشرح خطته الجديدة تماماً: الهجوم الكاسح قد يجعل خسائر الروم كبيرة.. ولكن ليس المهزوم وحده من يخسر، وإنما لحريص على حياة رجالي وأمل في عودتهم لزوجاتهم وأطفالهم بعد تلك الحرب. الأسوار المرتفعة ستكون عائقاً أمام السلام، وسيسقط عدد كبير قبل أن يصلوا إلى الجدار. علينا دفع العدو للهزيمة النفسية، قبل أن يتحرك جنوده. ستتوالى قذائف المنجنيق على السور يومياً، بينما يقوم محمد الأغلبي بالدوران بفيليق من الرجال كل صباح، ليظهرروا من خلف جبل فيزوف كأنهم مدد لا يتوقف. على الرماة تجهيز أقواسهم وضبط موقعهم، لتصل سهامهم إلى الأسوار. أما قصورة، فسيقود رجاله وبضعة منجنينات ناحية الجنوب، لتشتيت قوات نابولي، ولمراقبة البحر... علينا إرهاقهم حتى يتفسى فقدان الأمل في نفوسهم... سيطول الحصار ولكن ستحفظ الكثير من الأرواح.

كانت فكرته لا بأس بها، فلم يعترض القادة. سبعة أيام من التخويف والترقب مرّت، وما زالت الضربات تتولى على السور المتتصدّع، وفي الليل تضيء كراتٌ من لهب سماءً رحل قمرها. الصلوات لم تتوقف في الكاتدرائية المكتظة، وساحتها المضاءة بالشمع والمشاعل. دوي المنجنيق ليس مما يعتاد الناس ويقل جز عهم مع تكراره، خاصة وقد ارتفع مقدار التصويب إلى حافة السور، وصارت جثامين الجنود دائمَة التواجد على مذبح الكاتدرائية. صوت الضربات عذابٌ تسلط على العقول، حتى إن أحد جنود إلساندرو فقد عقله وألقى بنفسه من البرج الشمالي. الشائعات تسري أن البابا أدريان سيأتي على رأس جيش كبير يفك الحصار ويبيد السراسنة ومعسكرهم الممتد بطول جدار المدينة، لكن المرافقين يخبرون عن مددٍ يتواصل كل يوم للسراسنة، حتى لم يعد أحدٌ يتخيّل أن أي جيش أو صلاةٌ يمكن أن يُجابهُم. خيام إضافية تُنصب في معسكرهم، ومجموعات منهم تهاجم القرى المحيطة للحصول على المؤن للحصار. رأى إلساندرو أعمدة الدخان ترتفع في الأفق البعيد، فخانته عيناه، وانساب دمه على خده، فمسحه بسرعة قبل أن يلحظه أحد.. لعل سان فيلي محترقة الآن، وأباء غارق في دماءه. ماريا أيضاً كان وجهها في مخيلته مخضباً بالدماء، وأمه قطع رأسها وعلق على سن رمح كبقية أهل القرية. حاول أن يُسيطر على عقله بالهروب بعيداً عن السور، فالسماء تطبق عليه في أعلى قمة بالمدينة. رقم برج الكاتدرائية المحاط بالسقالات الخشبية، لم يكتمل بناؤه بعد. الحربُ أوقفت كل شيء في المدينة.

على حافة المرفأ، وقف ينظر إلى المياه المترفرفة. كان يتوقع الحرب سهلاً، ولكن الرب كان له رأي آخر. تذكر كلمات الأب ليو، المقترنة باتهام الدوق له أنه هو السبب في كل ما يحدث الآن. لو لم يحرق قرى أيفينيو، لما جاء أمير باري على رأس جيش لا نهاية له. كان عليه الالتزام بالخطبة التي

وضعها الدوق مع البابا ونبلاء نابولي.

ابتلع البحر شمسَ المغيب، وعادت نوارسُ البحر تسكن الصواري المتأرجحة، وصوت المنجنيقات لا يتوقف، وكذلك صوت هممات العامة قرب الكاتدرائية. مضى في دربه يتفقد الوجوه البائسة. زيه الحربي المختلف عن جند المدينة منحه أهمية في عيون العوام التي تلمحه، فتفرق شفاههم عن ابتسامتِ شاحبةِ تأمل في حملان الرب نجدة لهم. سمع همسات البعض عن بطولاتِ زانفةٍ في سالرينو. حيثُ عنهم أسطoir تمنح الأمل في ظل حصار خانق.. وفي أحد الأزقة، اجتمع الأطفال، تتوسطهم فتاة. قادته قدماه إلى حيث يجلسون، فدار حولهم، فترين ملامح وجهها.. كانت عيناهما الزرقاوان تتوجهان مع انعكاس ضوء المشاعل، صوتها عذبٌ رغم اللثة الواضحة في بعض كلماتها، وكانوا يتابعونها في اهتمامٍ وهي تقص عليهم:

- المؤمنون الأوائل جلهم من الفقراء والعبيد. دفعوا ثمن الإيمان بموتهم، ليرثه الأحياء. لم يهرب دانيال الأسود والسباع التي أحاطت به في جب الموت، وحين رأى الملك أن الأسود لم تأكل دانيال سأله: يا دانيال، خادم الله الحي! هل الإله الذي تخدمه استطاع أن ينجيك من الأسود؟.. فأجابه دانيال: أرسل رب ملاكه، وسدّ أفواه الأسود، فلم تضرني.

قاطعها أحدُ الصغار:

- هل ذلك الصوت هو صوت أسود تحاصرنا؟

ربت على رأس الفتى:

- لا يا ألبرتو.. إنهم مجرد أناسٍ مثلنا.

سؤال آخر:

- ولماذا يريد هؤلاء الناس قتلنا؟ كما قتل والد ألبرتو..

كانت تعلم أن سيل الأسئلة لن يتوقف، فأسرعت تعيد الحديث إلى م Graham:

- إنهم أناسٌ مثلنا، لا تهابوهم، فالقديسون لم يهابوا الأسود المفترسة لأنهم يحبون رب؛ من منكم يحب رب؟

ارتفعت صيحاتهم من حولها، بينما اقترب إيساندرو، الذي كان يقف قرب مدخل الحرارة. نهضت، فراح يزيح الأطفال برفقٍ متوجهًا نحوها:

- هل محبة الرب كافيةً لننتصر في معركتنا؟

أفلتت يد ألبرتو الصغير وهي تعقد حاجبيها المقوسيين:

- هذه المرة الأولى التي أرى فيها فارسًا لا يؤمن بالرب.

كانت كلماتها قاسيةً، جعلته يتوجس منها ويقول بخفوتٍ:

- كانت قصتك عن القديسين ومعجزاتهم جميلةً بالنسبة لأطفال لا يعرفون معنى الحرب.

اقربت منه أكثر وهي تتفحصه:

- أنت من حملان الرب، أليس كذلك؟

أو ما برأسه مبتسمًا:

- في الحقيقة أنا القائد، بعد أسر الدوق ماركيزيو في سالرينيو.

حدقت بوجهه الذي ما زال يحافظ على ابتسامته العريضة قبل أن تسأله:

- ماذا تريد؟

- لا شيء.. فقط كنت مارًا حين رأيتك تقصين على مسامع الأطفال بعض القصص. حديثك عن الإيمان، والاستشهاد، وكل تلك الأمور.. كما ترين، الحصار يشتد أكثر فأكثر..

قاطعه صوت قذيفة منجنيق جعلته ينفض، بينما تشبت الأطفال بتلابيب ثوبها. راحت تربت على رؤوسهم بحنان، بينما أكمل هو:

- هل الإيمان يمنح الشجاعة؟

- نعم، الإيمان يمنحنا الشجاعة، والعذر إن فشلنا.. إننا نُختبر.. كما يتم اختبار المعادن بالنار، كذلك تختبر الفضائل بالألام والضيقات. ليس علينا سوى أن نثق بما نؤمن لننتصر.

ألقت كلماتها، ومضت عنه إلى الحارة الضيقة، ومن خلفها الأطفال يرددون ترنيمةً كانت قد حفظتهم إياها. قبل أن تتعطف صاح بها:

- ما اسمك؟

- كاترينا.

ألقتها دون أن تلتفت. لحظاتٌ مرّت، قبل أن يقطع الصمت صوتٌ قذيفةٌ أخرى، ولكنها هذه المرة تزامنت مع صيحاتٍ وصراخ. خرج من الحارة يتلتفت مع رؤيته للعامة يركضون، وسأل أحدهم: ماذا

يحدث؟

- لقد انهى السور جهة الشمال .

على وسائلٍ كبيرةٍ ناعمةً، في ركن من الخيمة، جلس سودان يطالع خريطته المبسوطة أمامه وعليها قطعٌ خشبية تمثل قواطه وحصاره. تذكر حصانه الخشبي وصاحبته، فابتسم. متى تنتهي الحرب؟ مضى على حصاره لنابولي أسبوعاً عان، وقد تهافت البرجان الشمالي والجنوبي، وسقطت أجزاءً كبيرةً من السور، وتوقفت القذائف منذ ثلاثة أيام. يكاد يرى اليأس والترقب على وجوه جنود نابولي على الأسوار، فقد قطع رجاله قنوات المياه الموصلة لداخل المدينة، ولو سارت الأمور كما ينبغي، ستفتح المدينة قبل نهاية الخريف بأسابيع، تكشفه للعودة لباري قبل نفاد المؤمن. اختلطت الأمور في رأسه فأغمض عينيه لبرهة، قبل أن يأتيه صوت أحد حراسه كان قد دخل إلى الخيمة دون أن يشعر به:

- سيدِي، الأمير قسورة يريد مقابلتك.

أشار إليه سودان بالدخول، واعتذر في جلسته قبل أن يدخل قسورة مبتسمًا:

- توقعت أنك لن تناول مبكراً.

أجابه وهو يشير إليه بالجلوس:

- هل عهدتني كذلك؟.. أونسيت ليالي معركتنا الأولى؟

شد قسورة قبل أن يتحدث:

- كنا ضمن قوات الهجوم الرئيسية مع الأمير مفرق. لم ننم في تلك الليلة، وكلنا نتحدث عن معركة الغد، التي أحفظ كل تفاصيلها كأنها منذ لحظات.. كم عاماً مرّ علينا؟

- تسع سنوات.

أو ما قسورة:

- مضت الأيام سريعاً. تمر بعقلي الكثير من الوجوه في الآونة الأخيرة. لقد عشنا ضعف أعمارنا بفعل الحرب والتنقل. أذكر ذلك اليوم الذي أصاب فيه شعيب الدوق السمين بسهمٍ في رقبته، قبل أن يمس سيفه رأسك.

اسم شعيب بعث في وجданه حنيناً لأيامٍ مضت مع رفيقه..

- أذكر وجهه حين طعنوه.. سقط ولم يسقط سيفه من يده، لقد غدروا بنا؛ هذا دأبهم دوماً.. وما نحن فيه خيرٌ دليلٌ على ذلك..

- يا صديقي، لا عليك. سنتهي قريباً، وسنفتح تلك المدينة العصية، ونعود إلى أهلينا في باري مُكللين بالنصر.

أخذ قسورة يقصُّ على مسامعه طرائف أطفاله السبع، وقصصاً عن زوجاته الثلاث والغيرة التي تدب بينهن حين يعود. حديثه جعل سودان يُبحر في أفق من الكآبة. ماتت زوجته منذ زمن هي وطفله، لم تدم عائلته الصغيرة سوى عام وبضعة أشهر، ليعود وحيداً مرة أخرى. قصص قسورة، وأطفال شعيب، وهي.. كانوا يتصارعون في عقله.. تذكر حين رأى فيما يرى النائم ماريا في ثوب أبيض تحمل رضيعه، وحين استفسر عن ذلك قيل له إن المولودة الأخرى في الروايا خير.

في جوف الغابة المظلمة، تسلل قطيعٌ من الأشباح بين جذوع الأشجار يزحفون على العشب الجاف باتجاه نقطة خلت من الحراس. سكنوا في أماكنهم حين سمع أحدهم صوت أحد الجنود يصبح في صاحبه الذي توغل في الغابة لقضاء حاجته، فشار لفرقته. تسلل أحدهم خلف الجندي، الذي كان يقف قرب جذع شجرة يتبول، وقبل أن ينتهي مما يفعله كان السيف قد اخترق صدره، بينما يد قاتله تكمم فاه، أفلته ليخر صريراً وأطلق صفيرًا يُشبه صوت أحد الطيور، فخرج الرجال من بين الحشائش ليتفضوا على معسكر المؤمن.

باغت إيساندرو ورجاله حراس المعسكر، وفي وقتٍ قصير انتهى كل شيء، قبل أن يشعر الجيش الرابض أمام أسوار المدينة. لقد خطط لهذه الهجمة منذ أيام، واختار رجاله بعناية من أهل نابولي وجنودها. معسكر المؤمن يقع بالقرب من سفح البركان، وقد راقب نظام حراسته طويلاً، واختار توقيت هجومه جيداً، قرب نهاية دورية الليل، حيث برد الخريف يتعب الجنود، ويُلجهم كثيراً للركض أماكنهم ليتبولوا في الغابة. في دقائق، ارتفعت ألسنة اللهب في معسكر المؤمن، وفرَّ رجاله إلى داخل الغابة، بينما ارتفعت الصيحات في معسكر السراستة، وهاجت الخيول المربوطة.

خرج سودان من خيمته وخلفه قسورة، واتسعت عيونهما مع رؤية النيران، ركضا مع الراكضين، وقفزا إلى أقرب جوادين صادفاهما، وانطلاقاً إلى حيث الحريق يتضخم، فالنيران قد حملتها الرياح سريعاً إلى أشجار الغابة. أطلق نابولي أجراسها.. إنها تعلن فرحها بما حدث لأعدائها. جز سودان على أسنانه، ولكن الحصان بقوهٍ ليسرع.

ظل إيساندرو يركض مع رجاله بين الصخور تجاه البحر، يتعثرون بالظلام بين ركام معبٍ قدِيم لم يتبق منه سوى بضعة أعمدةٍ مهدمةٍ، حتى سقط أحد رجاله بين الأطلال، وصرخ متالماً. رقم إيساندرو الرجل اللاهث:

- هل تستطيع إكمال المسير؟

تعرَّق وجه الرجل وقال بصوتٍ يشوبه الألم:

- نعم نعم..

وقع حوافر حصان يُسرع عبر الصخور الصلبة وصل إلى آذانهم في هذه اللحظة. يبدو أن صرخة المصاب قد فضحت مكانتهم. تبادل إيساندرو النظرات مع رجاله، قبل أن يقول لهم هامساً:

- اذهبوا..

- ولكن..

- قلتُ اذهبوا، سأتي في إثركم.

أسرع الرجال للفرار، تاركين قائدتهم خلفهم ورفيقهم المصاب معه. كان الفارس العربي قد لاح بين الأشجار ومن خلفه وهج النيران، نظر إيساندرو إلى رفيقه. كان يعرف أن الرجل لن ينجو. لذا عليه أن يتخذ قراراً صعباً.. تحسس خنجره، وعيناه تراقبان الفارس الذي اقترب، وما عاد يفصله عنهما سوى تلك الصخرة. أشار لصاحب المتألم بالصمت.. وقع أقدام الفرس على الحصى كان يرجف أو صالة، وزادته ارتجافة الرجل الذي تحشرج صوته فشعريرة، سيفته إن تطلب الأمر. ارتفعت في هذه اللحظة صيحات السراسنة عند الحريق رغم بعد المسافة، حتى ضاع معها صوت أقدام الفرس الذي أطل خياله من وراء الصخرة، حين استدار الجواد، رأى وجه راكبه، فعرفه جيداً رغم الضوء الشحيح.

مضى نصف النهار، وما زال الدخان يرتفع فوق أشجار الغابات. قبع سودان في خيمته وحيداً، يُفكِّر في الهجوم الذي كان يُعد له، ففشل قبل أن يبدأ. لقد خسر مخزن المؤن ومجموعة كبيرة من الأطباء، وحصاره لن يصمد إن لم يحصل على مؤن خلال أيام، وأقرب خط إمداد له ساليرنو، التي تُعاني من مجاعةٍ وفوضى ما بعد الحرب. الآن صار عليه أن يُدبر المؤن أو أن يهاجم دون انتظار.. دخل عليه محمد الأغلبي في هذه اللحظة، والغضب يتجلى في وجهه وصوته..

- لقد خسنا المؤن وكل الأطباء.. لا أدوية لعلاج الجندي، ولا طعام يسد حاجة الجيش. أنت من وضعتنا في هذا المأزق، وتحمل على عاتقك وزر خطتك.

قاطعه سودان بصوتٍ قويٍّ:

- ويحك يا أغليبي! أترفع صوتك على قائدك؟ قسماً، لو كان غيرك من فعلها، لضربت رأسه وجعلته زينة لخيامي.

دخل قسورة وبعض من الرجال في تلك اللحظة، فوجدوا الأغلبي يقف مذهولاً مما سمعه. لكنـ-
كفارِسِ مُحَارِبٍ مُحنَكـ. فقد تمالك غضبه وأنصت إلى ما يقول سَوْدَان و هو ينقل بصره بين الرجال:

- الحرب خدعة، ولقد بُوغتنا في ليلة الاستعداد لهجومنا، وكأنهم عرّفوا بموعدنا. سنرد الصاع
صاعين، فمعنا ما يكفي للحصار أسبوعاً آخر. على القادة يا أغلبي أن يحفظوا ثباتهم، ولا يُفرقوا
الصف.. وأعدكم أن تُرفع رايات باري فوق نابولي قبل أن تنقض أواني الطهو في معسكرنا.

احمر وجه الأغلبي، ودسَّ بصره في الخارطة الكبيرة. وأحد الرجال يقول:

- ولكن..

فقطّاعه سَوْدَان بصوتٍ هادِرٍ:

- إن انهزمنا لن يقولوا هزمـنا سَوْدَان.. بل سيقولون هزمـنا جيشـ باري. اسمعوا جيداً.. أنتـ خيرـ
رجال باري، ولو لا ثقتي بكم لقلـتـ إن هناك خائـناً بينـنا نقلـ لهم موعدـ الهجومـ، فـكانتـ تلكـ ضربـتهمـ
الاستـباقيـةـ. أثـقـ أنـكمـ لنـ يـرضـيـكمـ سـوىـ النـصرـ، لـذاـ أخـرـجوـاـ إـلـىـ رـجـالـكـمـ، وـذـكـرـوـهـمـ أـنـ مـاتـ فـازـ
بـالـشـهـادـةـ، وـأـنـ مـنـ سـيرـفـعـ الرـاـيـةـ فـوقـ أـسـوارـ نـابـوليـ لـهـوـ مـنـ المـقـرـبـينـ.

ذهب الرجال إلى جنودهم، وبقي قسورة. تقدم ليقف بجوار صاحبه متـأـمـلاـ القطـعـ الـحـرـبـيـةـ، قبلـ أنـ
يُـحـدـثـهـ سـوـدـانـ:

- اللوم يُـلـقـىـ عـلـىـ دـوـمـاـ.. هلـ كـنـتـ أـعـلـمـ الغـيـبـ لـأـمـنـعـ ماـ حـدـثـ؟ مـتـىـ يـعـلـمـونـ أـنـنـاـ فـيـ قـارـبـ وـاحـدـ،
وـسـبـلـنـاـ وـاحـدـ؟.. لـقـدـ أـحـرـقـ الرـوـمـ مـخـزـنـ الـمـؤـنـ الإـضـافـيـ لـإـجـبارـنـاـ عـلـىـ فـكـ الـحـسـارـ وـالـأـسـحـابـ؛ وـلـكـنـيـ
لـنـ أـفـعـلـ..

رفع قسورة عن الخريطة قطعةً تُـشـبـهـ الـخـيـمةـ:

- هذا لـأـكـ القـانـدـ، وـالـقـيـادـةـ تـحـتـاجـ الـكـثـيرـ مـنـ الصـبـرـ وـالـحـكـمـ. الرـجـالـ يـثـقـونـ بـكـ، وـالـوـضـعـ سـيـزـدـادـ
سـوـءـاـ إـنـ بـقـيـنـاـ هـنـاـ حـتـىـ حلـولـ الشـتـاءـ.. الـأـسـوارـ سـتـصـمـدـ كـثـيرـاـ، فـكـماـ تـعـلـمـ أـنـهـمـ جـارـانـ وـلـيـسـ وـاحـدـاـ
فـقـطـ..

حرَّكَ سَوْدَانَ إـحـدـىـ الـقـطـعـ الـخـشـبـيـةـ عـلـىـ الـخـرـيـطـةـ:

- نـصـفـ النـصـرـ يـكـنـنـ فـيـ تـشـبـيـطـ عـزـيمـةـ الـعـدـوـ وـبـثـ الرـعـبـ فـيـ صـفـوفـهـ، وـالـنـصـفـ الـآـخـرـ فـيـ إـيمـانـ
الـرـجـالـ بـمـاـ يـفـعـلـونـهـ. كـلـ ماـ عـلـيـنـاـ هـوـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ السـورـ. أـضـعـفـ نـقـطـةـ فـيـهـ هيـ ذـكـ البرـجـ؛ إـنـ
اسـتـطـعـنـاـ الدـخـولـ إـلـيـهـ وـتـأـمـيـنـهـ سـيـكـونـ بـوـابـتـنـاـ إـلـىـ نـابـوليـ.

- إـنـ فـشـلـ هـجـومـنـاـ هـذـهـ المـرـةـ سـنـخـسـرـ الـكـثـيرـ. الرـوـمـ يـمـكـنـهـ الـاحـتـمـاءـ خـلـفـ الـأـسـوارـ لـشـهـورـ، وـالـمـؤـنـ
يـمـكـنـ أـنـ تـتـسلـلـ إـلـيـهـمـ مـنـ الـبـحـرـ، وـهـمـ أـعـلـمـ مـنـ بـمـسـالـكـ الـغـابـاتـ أـيـضاـ.

استدار له سَوْدان وقد برقت عيناه:

- لا تتعجل الأمور.. دعنا نجعلهم يدفعون ثمن ما حرقوا أولاً.

لأول مرّة يخرج إليساندرو من الكاتدرائية مبتسمًا، بعد تكريمه من قبل الدوق سيرجيوس ونبلاء المدينة بكلماتٍ عظيمة، وصلاةٍ بُورك فيها على يد قسٍ عجوز أحاط بمجلسه عددٌ من الشمامسة. مرّ بين الجموع التي أتت لترى من أحرقوا مخازن العدو ولقتوه درساً. الأطفال يدفعون السيقان للمرور باتجاهه هو وزمرةه، ويمدون أيادي صغيرة تلامس دروعهم في انبهار. ليت أباها هنا ليرى كيف أصبح. لمح ابتسامتها المشرقة، فلوح بيديه لها، فخفضت وجهها في خجلٍ، أسرع نحوها، فأسرعت بتبعده. كانت تدلُّ إلى زفافٍ ضيقٍ، فناداها: كاترينا!

توقفت عن السير وقد اعتراها التوتر مع اقترابه منها:

- سعيد برؤيتكاليوم.

استدارت له وقالت بلطفٍ:

- أنا ممتنة لك، إنه أبي هذا الرجل الذي حملته إلى المدينة رغم إصابته البليغة، ولم تتركه للموت.

فاجأته الصدفة. حاول الابتسام، ولكنه فشل. لقد كاد أن يغمد خنجره في صدر أبيها، وفضل قتلها على أن يكشف أمره، ولم ينقذه إلا أن رکض الفارس- ضيف أبيه الجريح- مبتعداً. شرد، فلوحت بيديها أمام وجهه:

- أين ذهبت بعقالك أيها البطل؟

انتبه، واتسعت ابتسامتها..

- فقدت عقلي يوم رأيت عينيك..

حاول أن يلمس وجهها بأنامله، ولكنها ابتعدت وقد ظهر عليها الضيق:

- على الرحيل.

حاول أن يعتذر ويستبقيها، ولكنها رحلت بسرعةٍ. ما كان عليه فعل هذا.. عاد أدراجه وهو يلوم نفسه، فما أبعد الفرق بين كاترينا وفيولا. أخذته قدماه إلى حانةٍ أضاء المشعل على بابها كدليل أن لم

يُزل فيها جرارٌ نبيذ. بعض خطوات كانت تفصله عن الباب، حين هوت قنفيفة منجنيق على الحانة فنسفتها نسفاً، وطار هو ليرطم بجدار المنزل المجاور بقوّة، وقد اخْتَلَطَ ألمه بصراخ وصيحاتٍ حوله، ثم سقط على الأرض، فتح عينيه متالماً يستجد بالسماء فوقه، فرأى الشهب تشقها في جنون، ثم أظلم كل شيء.

أطل الفجر متأكلاً، بعد ليلةٍ كانت الأسوأ على نابولي منذ عقودٍ. منذ بداية الحصار، لم يضرب السراينة عمّق المدينة، ولكن الليل شهد على قدرتهم أن يحرقوا ويهدمو أبعد مبني عن الأسوار ويدك المدينة دكاً. صار الجنديون يترقبون بدء الهجوم، وما عاد يُمكّنهم تبادل الورديات للراحة. مع ساعات النهار الأولى، وبعد أن سكنت القذائف، نزلت النساء لتقديم العون والمساعدة للمصابين، وجرّ رجال الكنيسة العربات الخشبية ينقلون جثث القتلى إلى الساحة الكبيرة، فيما جمع القادة كل الرجال القادرين على القتال، يوزعونهم على القادة للإسراع بتدريبهم للدفاع عن المدينة. لم تدق أعين الناس النوم، ولم يرحل ضجيج القذائف عن عقولهم. الإرهاق والأسى ملا القلوب قبل الوجه، ولو لا بقية من إيمان بنابولي العريقة لأصابهم اليأس من النجاة. كل بضع دقائق، يُعلن المطبوّبون أن جريحاً قد مات. وبين الجرحى، كان إيساندرو يرقى مصاباً في رأسه فاقداً وعيه. كاترينا، وكما يجب عليها كمسيحية مؤمنة، وابنة مخلصة لنابولي، كانت هناك، تسعى بين الجرحى لا تكل. لمحت إيساندرو، فخفق قلبها جزاً، وركضت نحوه. كان جرحه قد خيط وضمّد، وهو غائب عن الدنيا تماماً، يبدو كطفل بريء بعيدٍ عن ذنوب الحياة. ركعت على ركبتيها، ووضمت يديها تصلّي لأجله وقد أفلتت منها الدموع بعد طول تماسك. أسرعّت فمسحت وجهها، وأمسكت على قلبها في قوّةٍ وعادت لتأدّية واجبها بين الجرحى، تُساعد هذا وتمسّك بيد هذا ريثما تخرج روحه، وتتابع إيساندرو من بعيدٍ بعينيها.

امتلأت حديقة الكاتدرائية بالجرحى، وتلطخت ثياب الرهبان والراهبات بالدماء، وراح القساوسة يُلْقون الصلوات على العيون الجاحظة، وكانتنا مستمرة في عملها، وبينما واتتها الفرصة لتقترب من إيساندرو، فتح عينيه ليجدّها أمامه، ولكن قبل أن تكتمل ابتسامتها، هدر صياح الجندي يُزلزل المدينة.

تقدّمت الكاتب متابعاً، تحمي حملة السلام الخشبية الطويلة، بينما المنجنيقات مستمرة في ضرب حافة السور. تطاير جند نابولي في الهواء، ورد رمادهم بإطلاق السهام على المهاجمين، فرفع السراينة دروعهم في تشكيّلاتٍ تحمي حاملي السلام الذين راحوا يتقدّمون بثباتٍ إلى السور، تحت كتلةٍ من الدروع تكوّمت تحت الجدار. رفعت السلام في سرعة، رغم الحجارة المتتساقطة على الرجال، ثم وصلت كساره الأبواب، وتزاحم تحتها الجنديون، وراحوا يُكثرون، وراحوا يطرقون الباب الضخم بوتّدٍ عملاق ثبت أسفلها بالجنازير. صوت السهام المرتطمة بسقّيفه الكسارة الخشبية حمّس الرجال ليدفعوها أكثر فأكثر، فالنجاة من السهام يأتي بها فتح البوابة ولا شيء آخر.

على رأس جيشه، كان سودان يتبع الهجوم، ورجاله يحاولون تسلق الأسوار. حتى اللحظة لم يستطع أحد هم أن يصل إلى أعلى الجدار. كان هجومه غير متوقع، ولكن جنود نابولي صامدون، يدافعون ببسالة، رغم أعداد الجناد الصاعدين إليهم على السلام الخشبية. دفع جند نابولي بعض السلام، لتسقط بمن عليها، بدأ الجزء يتسلل إلى جنوده وتعلقت الأعين بالأجساد المتهاوية، بينما عيناه هو بعيدتان عن ذلك المشهد، وقد أرسلهما إلى حيث يتسلق محمد الأغلبي ورجاله البرج الشمالي المهدوم. استطاع الأغلبي وفرقته ارتقاء السور في تلك المنطقة التي تعرضت لقصف شديد بالمنجنيق، تسبب في فصل البرج عن الجزء الشرقي من السور. على الجانب الآخر، تحصن المدافعون بالمتحاريس، لكنها لم تصد عنهم الهجوم المباغت، وتفاجأ جند نابولي بعصبة الرجال تقتسم الجدار. راح رجال الأغلبي يتتدفقون إلى البرج، يصوّلون ويجهّلون، وهو يطعن هذاً ويتفادى ضربة من هذا. كان طويلاً القامة قوي البنية، لا يرتدي خوذة ولا عمامه، فقط درعاً خفيفاً تتلقى ضربات الرماح والسيوف. لم يمض كثيرٌ من الوقت، حتى استطاع رفع راية خضراء تحمل كتابات عربية بيضاء على البرج المهدوم، جعلت عيون أهل نابولي تجحظ وقلوبهم تخفق مع خفاتها على أطلال برجهم الشمالي. كانت تلك لحظةً فارقة، فقد جذبت الرأية العربية انتباه حماة السور، واستغل جنود باري ذلك فارتقاوا السلام في سرعةٍ أكبر.

في خضم الحرب، السبيل الوحيد للنجاة هو القتل. لون الدماء ورائحتها يُثيران غرائز المقاتلين، فتجعلهم يستمرون في الفتوك بعضهم البعض. وجوه تتلاقي لأول مرة، لكنها تكره بعضها بعضاً. تصطك السيوف، وتختلط صرخات الألم بصرخات النصر. تتighbى الوجوه، وتتهاوى الأجساد.

حمي وطيس المعركة فوق الأسوار، وقوات نابولي مستمرة في الصعود. وعند البوابة الكبيرة الصامدة، كانت السهام تحصد أرواح بعضاً من عمال الكسارة المستمرة في ضرب قلوب المدافعين بلا هواة. طال الوقت، واستتبّل جنود نابولي في إسقاط جميع السلام، فلم يعد لجنود باري الذين صعدوا سبيلاً للعودة، وفي نفس الوقت ألقوا القطران السائل فوق كسارة الأبواب، ثم لم يحتج الأمر أكثر من سهم مُشتعل ليارتفاع صرائح جنود باري. لهيب الحرب كان أقوى مما تصوره سودان وقادته. لم يدر جيش باري وقادته أن جنود نابولي على مدار أيام سقوا الأرض بالزيت كل ليلة أمام الأسوار. لم يدركوا الأمر إلا وقد وقف الدوق سيرجيوس يقهقه، وقد انعكس النيران في مقلتيه. مات من مات من جنود نابولي، وجراً جنود باري أذىال خبيتهم، مخلفين وراءهم جثث قتلامهم. عزلت فرقة محمد الأغلبي بالبرج الشمالي المهدوم، وأجبروا على البقاء في أماكنهم، سجناء ينتظرون الموت.

يومن من الهجوم الفاشل.. رفض سيرجيوس ونبلاع نابولي التهئة كي يدفن كل فريق موته، فكل ما يقلقه هو راية السراستة التي ترفرف فوق قمة البرج الشمالي. كان يعلم مدى عزيمة السراستة، وكان يلوم نفسه كثيراً على خيبة إغواء وعود البابا له. عليه الآن أن يبقى بعيداً عن الحرب، كما فعل طيلة سنوات حكمه. استرجع البدايات، حين ظن أن كل شيء مخطط له بعنايةٍ جيدة، ونظر إلى ما وصل إليه الحال. لعل الله يُعاقبه على الغدر بمن تعاهد معهم. الآن ما عاد له مفرٌ من أن يستمر في الدفاع عن مدینته، فهو من أقع رجاله بخوض تلك الحرب.

قبع محمد بن الأغلبي بركن مُظلم داخل البرج، يُعاني هو ورجاله الجوع والعطش، لا يملكون من العالم خارج الجدران الأربع سوى سماء تظلهم. مات ثلاثة منهم متأثرين بالجراح، وبقي تسعة عشر رجلاً، لا يعرفون أيفرون بالنجاة من الموت أم يحسدون من هلكوا. لقد حبسوا أنفسهم بأنفسهم، وأوصدوا الباب الضخم بمتراريس وحجارة، رفضين وعود الدوق سيرجيوس. ما عادوا يعلمون ماذ أصاب الجيش في الخارج، لكنهم يفهمون أنهم ما كانوا ليبقوا في محبسهم لو أن الغلبة صارت للMuslimين. اليأس أعلن عن نفسه بدءاً أحدهم في قص فصل من حياته، وكيف أنه لم يتخيّل أن نهايته ستكون في أحد أبراج نابولي، حلّيفتهم السابقة. صوت الأذان البعيد يمحوه صفير الريح قبل أن يصل إلى قبورهم، وصاروا يُصلّون فرادى، دعاوهم همسات يخونها عن بعضهم بعضاً. ليل الأغلبي كنهره، كلها ساعات ثقيلة، وسط وجوهٍ يائسةٍ تذكره بأنه قائد هم وعليه أن يتحمل مسؤوليتهم. أي قرار يمكن لك يا أغليبي أن تتخذه؟ الاستسلام يعني الموت، والبقاء أيضاً يحمل نفس النهاية.

خلال اليومين الماضيين في معسكر المسلمين، حاولت فرق المشاة التقدم لحمل قتلى المعركة، لكن أمطاراً من السهام رجمتهم، رغم الراية البيضاء للهداة. لم يعرفوا شيئاً عن فرقة الأغلبي، وكانت الهزيمة موجعة، وما زال الحصار قائماً والمؤن تناقص. الشيء الوحيد الذي يُوجّل يائسهم، هو تلك الراية التي ما زالت تخفق أعلى البرج.

- لقد هك الأغلبي ورجاله، وما تك الراية سوى فخ.

نطق بها شرحبيل الكلبي، قائد فرسان مدينة طارنت. كلماته بدت كتشيّط لهمه الرجال.. زاد بأن ذكرهم أن المؤن تقاد تقاد، في ظل وجود عدد كبير من الجرحى. لم ترق كلماته لقصورة، الذي أراد أن يُعيد الهجوم على المدينة؛ ولكن من ناحية البرج الشمالي، وبذلك يُصبح الأغلبي ورجاله شوكة في حلق جند نابولي. أخذ الكل يُدلون بدلائهم، وسودان يرقب قادة يتصرفون كالصبية، ويتشاحنون فيما بينهم. تمنى لو أن أبا المغوار كان هنا، ليُخرجهم من تلك الأزمة، فحين يعتقد كل امرئ أنه على الصواب، يحتاج الأمر إلى كبير يُوقره الجميع. دار في وجوه رجاله، قبل أن تستقر عيناه على الفقيه سعد بن هشام. رجل قد بلغ الستين من عمره، قليل الكلام فيما يخص التشاور والشورى، يؤصل كل شيء، ويقارن بين المواقف، ويعطي حلاً مقبولاً للسامعين، كما أنه إمام مسجد باري الجامع والكل يأتون به. لم تكن لحيته البيضاء أو جسده الهزيل ينسجمان مع درع الحرب، التي أصر على الانضمام لها.

- لم نسمع حتى اللحظة رأي إمامنا الفقيه سعد بن هشام..

رفع الشيخ عينيه إلى سودان، وترى لبرهه قبل أن يقول:

- كنتُ أنتظر أن يُنهي الأميران جدالهما، والحقيقة أن كليهما أصاب لبَّ الحقيقة. الأمير شرحبيل لا يريد التضحية بمزيدٍ من الرجال، بينما لم تتأكد من أن رجالنا على قيد الحياة. والأمير قصورة تأخذ هذه الحمية الواجبة تجاه رفقاءه، ويريد إنقاذهما مهما كلف الأمر. والفصل في الأمر لأمهر المسلمين، يصل إلى حيث نجهل، ثم يُخبرنا الحقيقة.

في منزل الدوق كارلو بمدينة ساليرينو، الذي هو في الحقيقة قصرٌ منيفٌ، يُطل على خليج ساليرينو الصافي، كان أبو المغوار يستمع لرجال من أهل المدينة، جاؤوا في طلب الأمير لإخباره ببعض الأمور. استمر الاجتماع لوقتٍ طويل، فَبَلْ أن يخرجوها يتلقنون حولهم في ريبةٍ. وداخل الغرفة المزينة بالستائر المخملية، جلس أبو المغوار على كرسي يقابل الفراش الوثير يُفكِّر فيما قصَّه عليه الرجال. نهض إلى الشرفة، وأخذ يُحملق في الأفق، والريح البارد القادم من البحر يحمل إليه القلق. وعند بزوغ الشمس، كان الشيخ قد أجمع أمره، فتجاوز السرير المتاطيرة عائداً للغرفة، واستل غمد سيفه وثبته بخصره، قبل أن يفتح الباب ويخرج محدثاً أحد حراسه:

- أرسل في طلب الدوق ماركيزيو، وأبلغ قائد الحرس أن يُضاعف عدد الجنديين قرب المرفأ وعلى البوابات.. أبلغه أمري أن يمشط الشوارع جيداً.

وفي قاعة طعام مكشة بتمثيل تغطت بأقمشة باهتة، كان الرجال يتلهمسون، حين دخل الدوق إلى القاعة يتبعه جنديان. ما إن وقع بصر أبي المغوار عليه، حتى أشار لصاحب بالذهب هو والجندي، وبقي ماركيزيو واقفاً في منتصف القاعة، في حين تحرك القاضي نحو المنصة محدثاً إياه:

- سعيدٌ أنك تكرمت بالمجيء.

ترحيبه أثار قلق الدوق، الذي ابتسم في توجس:

- إنه لشرفٌ عظيمٌ أن أحضر لمجلس أمير ساليرينو الجديد.

جلس أبو المغوار ضاحكاً:

- لا أحب الإمارة، فلا تُحدثني بذلك اللقب.. اجلس!

جلس بالقرب من العجوز ذي العين الواحدة. هم أن يقول شيئاً، ولكن أبو المغوار كان أسبق:

- تعلم أن أشجع الرجال من يُعملون عقلهم، ليخرجوها من كل مأزق بأقل الخسائر. قد نختار طريقاً صعباً رغم رفض الجميع، متمسكين بيقيننا أن طريق الصواب وعزّ ممتلىء بالمهالك. أتدري أيها الدوق.. هذا العالم أصغر مما تخيل. حين كنت صبياً صغيراً فهو على شاطئ مدينة سوسة، ظنت أن ذلك البحر الأزرق هو نهاية الأرض، وأفker أن لا شيء يُضااهي الوقوف على حافة العالم.

كان ماركيزيو يتابعه باهتمام، محاولاً سبر أغوار حديثه، الذي يبدو كتمهيد لشيء قادم. حاول أن يُزحِّ القلق عن قلبه وهو يستريح في جلسته، بينما أكمل أبو المغوار:

- سرعان ما نكبر، لنضحك على رؤيتنا المحدودة البسيطة. ما إن وطأت قدماي أرض صقلية، تلاشت أحلام ونبتت أخرى، وأصبح الولد الصغير جندياً لا يُشق له غبار.. روما.. كالابيرا.. كمبانيا، كلها

أقاليم غَرَّ ثراها حَذَائِي. خَضْتُ مَا يَقْرُبُ مِنْ أَرْبَعِينَ مَعْرِكَةً، وَبَقِيَتْ حَيَا بِارَادَةِ اللَّهِ، الَّذِي كُنْتُ أَظْنَ دَوْمًا أَنَّهُ لَطَالِمًا أَبْقَانِي لِسَبِّيْ ما.. كَانَ عَلَيَّ إِكْمَالَ الْمَسِيرِ، حَتَّى اسْتَقَرَّ بِي الْمَقَامُ فِي بَارِي، فِي رَفْقَةِ الْأَمِيرِ خَلْفُونَ الْفَاتِحِ؛ أَظْنَكَ تَعْلُمُ اسْمِهِ، وَكَيْفَ فَتَحَ الْمَدِينَةَ لِيَلَا عَبَرَ ثَغْرَةً قَدِيمَةً بِالْجَدَارِ. لَقَدْ كَانَ الْأَمِيرُ خَلْفُونَ وَرَعًا صَادِقًا.. مُؤْمِنًا حَقِيقِيَا يَبْحَثُ عَنْ حُرْيَةِ النَّاسِ، أَرَادَ إِخْرَاجَهُمْ مِنْ ذُلِّ الْلَّوْمَبَارِدِيِّينَ إِلَى رَحْبَةِ الإِسْلَامِ. الْإِيمَانُ كَانَ مَا يُحْرِكُهُ دَوْمًا، وَلَذَا كَتَبَ لَهُ أَنْ يَفْتَحَ بِيَنْفِينِتوَ، الَّتِي خَسَرَنَا هَا بَعْدَ تَوْلِيَةِ الْأَمِيرِ مَفْرُقَ بْنِ سَلَامِ..

نهض أبو المغوار وهو يُشير لضيفه بالبقاء حيث هو، بينما يتبع:

- لأَمْرَاءِ وَالْمُلُوكِ خَرِيفٌ يَسْقُطُونَ فِيهِ. وَرِيَاحُ الْخَلَافِ كَافِيَّةً لِتَذَرُّوْهُمْ عَنْ عَرُوشِهِمْ، وَلَقَدْ عَاصَرُتْ ثَلَاثَةَ أَمْرَاءَ لِبَارِي، كُلُّ مِنْهُمْ سَمِّتَ مُخْتَلِفًا. فَإِذَا رَأَى الْفَرَسَانَ أَنَّ الْأَمِيرَ يَسِيرُ فِي اِتِّجَاهِ خَاطِئٍ، وَبِدَأُوا الْصَّرَاعَ عَلَى الْإِمَارَةِ، كَنْتُ أَحْمِيَ ظَهُورَهُمْ جَمِيعًا، كَيْ أَحَافِظَ عَلَى النَّظَامِ، وَعَلَى أَنْ يَتَوَلَِّ الْقِيَادَةُ أَمِيرٌ يَسْتَطِعُ إِدَارَةَ كَافَةِ الْأَمْرَوْنِ. حِينَ حَاوَلَ الْبَعْضُ إِلَاطَاحَةَ بِخَلْفُونَ، كَنْتُ حَاضِرًا بِقُوَّةِ رَغْمِ خَسَارِيِّ، اسْتَطَعْتُ تَثْبِيتَ الْأَمِيرِ خَلْفُونَ لِعَامٍ آخَرَ.. ظَنَنتُ أَنَّ التَّصْدِيَ لِمَنْ خَرَجَوْا عَلَيْهِ أَمْرٌ صَابِبٌ حِينَهَا، وَلَمْ أَعْلَمُ الغَيْبَ إِذَا بَعْدَ عَامٍ وَاحِدٍ قُتِّلَ الْأَمِيرُ خَلْفُونَ. فَكَرِتْ لَوْهَلَةً: مَاذَا لَوْ مَا تَحْلِفُونَ حِينَ حَاصِرَهُ الْإِنْقَلَابِيُّونَ -الْخَوَارِجَ- أَوْلَ مَرَةً، وَلَمْ أَحْصَلْ عَلَى إِجَابَةٍ سَوَى أَنِّي خَسَرْتُ صَدِيقًا أَنْقَذَنِي مِنَ الْمَوْتِ تَحْتَ أَسْوَارِ رُومَا.

عاد حاملاً كأساً، مَذَّيَّدَ بِهِ لِمَارِكيُّزِيو، الَّذِي تَرَدَّدَ فِي مَذَّيَّدَهِ لِتَنَاهُلِهِ مِنْهُ، فَابْتَسَمَ قَائِلًا:

- حَلِيبٌ مُحْلَى بِالْعَسْلِ.. عَسْلُ إِقْرِيَطِشِ هو الأَفْضَلُ عَلَى الإِطْلَاقِ.

التقط ماركيزيو الكأس وعيشه لا تفارقان وجه أبي المغوار، الذي أومأ برأسه ضاحكاً:

- لو أردتُ قتيلاً، فَمَا الدَّاعِيُّ أَنْ أَقْصِ عَلَيْكَ مَسِيرَةَ حَيَاتِيِّ.

رشف ماركيزيو من الكأس ولم تفارقه الريبة.. بينما العجوز يتبع:

- أَنْتَ ضَيْفُنَا، كَمَا قَالَ الْأَمِيرُ سَوْدَانِ. إِنَّهُ ثَالِثُ أَمْرَاءِ بَارِي بَعْدَ مَفْرُقَ بْنِ سَلَامَ، الَّذِي خَضَعَ لَهُ مَدْنُ الْجَنُوبِ كُلُّهَا. أَظْنَكَ وَعَيْتَ لِيَوْمِ دُخُولِ مَفْرُقَ لِبِنْفِينِتوَ وَأَبْرَمَ مَعْهُمْ مَعَاهَدَةَ سَلَامِ..

أَطْلَقَ زَفَرَةً طَوِيلَةً قَبْلَ أَنْ يُكَمِّلَ:

- السَّلَامُ.. لَقَدْ حَثَنَا نَبِيُّنَا عَلَيْهِ.

قاطعه ماركيزيو:

- وَلَكُنْكُمْ جَئْتُمْ لِبَلَادِنَا بِالْحَرْبِ وَلَيْسَ السَّلَامُ.

صمت أبو المغوار يُفكِّر قليلاً، ثم هَزَّ رأسه وقال دون أن ينظر إلى الدوق:

- إن تواجدنا هنا في جنوب إيطاليا هو أمرٌ حتمي. كيف لنا أن ندفع خطركم عن قواعden في إفريقيا ومصر والشام؟! قل لي أيها الدوق.. ما شأن أولئك الفلاحين والفقراء في أنحاء بلادكم، التي يحكمها نبلاء متصارعون، ومملكتان تبغضان بعضهما البعض؟.. البيزنطيون والإفرنج يتحكمون في مقداركم بلادكم، التي تدعى أنت منها.. أولئك من لومبارديا قرب بلاد الغال؟.. ما الذي جاء بك إلى هنا إليها الدوق؟

احمرَ وجهُ ماركيزيو، وقال في اعتدِ: ا

- الرب هو من منحني حق المجيء إلى هنا.
هذا أبو المغوار رأسه نافياً.

- دوماً نُقحم اسم الرب لتبرير شهواتنا. كذلك كان الرفاق الذين أرادوا التخلص من خلفون..

وضع ماركيزيو الكأس بهدوءٍ:

- ألم تأت أنت ورجالك إلى هنا بأمرٍ من الرب أيضاً، كما تقولون؟

ابتسم أبو المغوار، فقد كان يتوقع كلام ماركيزيو..

- إنما جئنا لتحرير العباد من سطوة النبلاء وجهل الكنيسة.. فاتحين، لم نجبر أحداً على الدخول لدينا، بل هو التخيير بين أمور ثلاثة، أنت تعرفها جيداً. سأمنحك مقدار جوادك ذهباً، إن جبت الجنوب بحثاً عن اعتنق ديننا بالقوة رغمَ عنه. أنتم تستعبدون الناس، تضيقون عليهم الخناق، تسلبون أموالهم بفرض الضرائب، تحرّمون عليهم القراءة والكتابة.. قضيتكم على كل ما يحتاجونه لعيش حياة كريمة. أستلم تسلبون شرفهم بحق الليلة الأولى في العروس؟.. قل لي أيها الدوق كم من عذراء وطأت، فقط لأنك الدوق الحاكم لقرية تعيسة. أين نبلاء ساليرنو؟ لماذا هربوا وتركوا الناس جوعى؟ لقد جئنا إلى كل هؤلاء بالغراس والخير... والله لو فتحنا كل تلك البلاد لما وجدت بين ظهورنا من هو على دينكم.

لم يرق حديث أبو المغوار للدوق. نهض قانلا في سخريةٍ:

- أي غراس وأي خير الذي تتحدث عنه؟.. أتسمى سلب الممتلكات وسبى النساء خيراً؟!

رد أبو المغوار بحزنٍ:

- ألم يكن السلام خيراً؟ ألم تكن نابولي وساليرنو وأمالفي يزرون ويحصدون في أمان ورخاء؟ ألم تكون بيننا معاهدة وحلف؟.. كم مرة أنقذت سفن الأغالبة مدینتكم هذه من اللومبارديين؟.. أنت بعيد عن ديارك أيها الدوق، ولا تعلم أي شيء عن السلام، ومن تخدمهم الآن هم ألد أعداء مملكتك. دام السلام بيننا لعشرة أعوام، حتى جئت بذلك البابا الجديد. عمَّ الخير أرجاء الجنوب، وإن كان لك من العمر بقية، سأجعلك تجوب المدن الجنوبية، لترىكم هي عظيمة حضارتنا، ولترى التعايش بين أصحاب الشرائع جميعاً في مكانٍ واحدٍ، دون بغضٍ.

رسم ماركوزيو الاستهانة على وجهه وهو يقول:

- هل جئت بي إلى هنا لتقول لي هذا؟

جلس أبو المغوار مبتسمًا:

- لا؛ بل لأخبرك أنك بدءاً من هذه اللحظة سجين، وسترحل إلى باري..

كان وقع الكلمات على الدوq كلف الصقيع. ححظت عيناه وتبيست أطرافه وهو يتهم: ماذا؟!

- في الحقيقة، أعجبت بشجاعتك وتضحیتك، وأقدر ما فعلته لإنقاذ جنودك، الذين رحلوا في الليلة التي سبقت خروجك لطلب الاستسلام. كذبت، لتنفذ رجالك.. ولكنك لم تنفذ نفسك أيها الدوق.

وفي نفس لحظة انتهاء كلمات أبي المغوار، كان الجنود يحيطون بماركوزيو، الذي تحطم أحلامه على صخرة صلدة، تكى أبي المغوار.

وبین الأشلاء، التي صارت أعشاشاً لغربان امتلأت حواصلها، فغطت في نوم عميق، تحرّك شبحان بين الجثث التي بدأت في التحلل. لم تبال الغربان بمن اتشحا بالسود في ليلة معتمة، يتجلبان المشاعل على جدران البرج الضخم. كان عليهما التسلق والدخول للبرج من ناحية المدينة، مسترعين بظلل الحجارة. يتوقفان كلما اقترب حارسٌ يحمل مشعلاً، ثم يُسرعان قدر الإمكان، فكل منهما يحمل قربة ماء صغيرة وصرة تمتلئ بالتمر. ما زاد التسلق صعوبة هو انهيار جزء كبير من البرج، مما يجعلهما مكسوين عند نقطة دخولهما. أطلق أحدهما صفيرًا يُشبه أحد طيور الليل، وانتظر قليلاً.. أعاده مرة أخرى، ولم يأت ذلك بنتيجة. وقبل أن يُطلق الصفير الثالث، جاءته الإجابة. ابتسم وهو يدخل عبر الشق إلى الداخل. تدلى، وتبعه صاحبه، وما إن استقرَا على سفح البرج، حتى تألفتهم الأيدي.

على الضوء الشحيح، احتضنا الأجساد المتيسسة، ثم بدأت الهمسات في الارتفاع، قبل أن يقول الأغبى:

- صه يا رجال..

شرح الرجال خطوة سودان، بينما انهمك الرجال في شرب المياه وأكل التمر، وقد عاودهم الأمل. أنهى الرجال حديثهم القصير وعادوا أدراجهم، يحملون رسالة أن الأغبى ورجاله لن يستسلموا وينتظرون الإشارة، والتي يجب أن تكون في موعدها قبل أن يموتو جراء رائحة الموتى.

و حول البرج، كان يقف إيساندرو برأس مضمد، بجانب الدوق، كارلو، الذي يريد إحراق البرج بمن فيه، وإسقاط تلك الرایة بأي طريقة. كان يقترح على سيرجيوس إشعال النار حول البرج، ولكن الأخير رفض، رضوخاً لأمر سادة المدينة؛ فمن بالداخل قد يكونون صفقة لإنهاء الحصار وال الحرب.

لن يأتي عونٌ من روما ولا لومبارديا، فعليهم الخروج من مأزقهم بسبل أكثر دهاء ومرونة، فالوقت كما هو ليس في صالح المهاجمين، فهو ليس في صالح المحبوبين داخل أسوار المدينة أيضاً.

ترك إيساندرو حديث القادة معتذراً بجرحه، واتجه إلى الكاتدرائية. شوارع المدينة وطرقها خاوية، تسرى في جنباتها رائحة الموت. الرياح الشرقية تحمل عفونة الموتى إلى داخل المدينة، تُركم الأنوف وتثير الغثيان. شد على أنفه ثناماً، وراح يبحث الخطى نحو منزل كاترينا القريب. طرق الباب وانتظر قليلاً، حتى فتحت بوجه ناعس. تفاجأت ببرؤيتها، ولكنها أذنت له بالدخول. كان المنزل بسيطاً، من غرفتين يرقد أبوها في المظلمة منها، والأخرى تحوي مدفأة تبعث دخاناً ذا رائحة زكية تُحارب رائحـة المدينة المقذفة. جلس قرب المدفأة يستنشق قائلاً: ما تلك الرائحة؟

أجابـته وهي تحضر له كوب ماء:

- إنـها أعـشاب، أمرـ القـس بـحرقـها فـي المناـزل لـطرـد الشـياطـين وـحـفـظ المناـزل من رـائـحة الموـت.

تذـكر عمـه كـارـاس، وـارتـسمـت عـلـى وجـهـه ابـتسـامـة. ظـلت وـاقـفةً أـمـامـه بـكـوب المـاء، ولـكـن عـقـلـه لمـ يـكـن معـه. أـفـاق عـلـى نـدـائـها يـتـكـرـر..

- عـذرـاً كـاتـريـنا.

تناولـ الكـوب وـارتـشـفـ منه قـليـلاً.

- أـعـذرـ عـما بـدـرـ منـي فـي ذـلـك الـيـوم.

أشـاحت بـوـجهـها عنـه:

- لا عـلـيكـ، كـثـيرـاً مـا أـصـادـفـ مـثـل حـماـقاتـكـ.. كـمـا أـنـي السـبـبـ فـيـما حـدـثـ لـكـ مـن إـصـابـةـ فـيـ ذـلـكـ الـيـومـ.

- بلـ الفـضـل لـكـ كـاتـريـنا.. يـوـمـ قـابـلـكـ أـولـ مـرـةـ، كـنـتـ السـبـبـ فـيـ تـأـخـرـي عـنـ الـذـهـابـ إـلـى مـكـانـ خـدـمـتـي فـيـ البرـجـ الشـمـالـيـ، الـذـي انـهـارـتـ عـدـة طـوـابـقـ مـنـهـ بـعـدـ رـحـيلـكـ مـعـ الـأـطـفـالـ. وـالـثـانـيـةـ حـيـنـ تـبـعـتـ إـلـى الزـقـاقـ، أـخـرـيـتـي عـنـ ذـهـابـي لـلـحـانـةـ، الـتـي هـدـمـتـ قـبـلـ أـنـ دـخـلـهـا.. فـيـ الـمـرـتـيـنـ كـنـتـ مـلـاـكـيـ الـحـارـسـ بـطـرـيقـةـ أوـ أـخـرـىـ.

رمـقـتـ بـعـيـنـيـها الزـرـقاـوـيـنـ:

- أـلمـ تـكـنـ تـؤـمـنـ مـنـ قـبـلـ بـوـجـودـ الـمـلـاـكـةـ؟

- فـقـطـ حـتـىـ رـأـيـتـكـ.

أـمسـكـ بـطـرـفـ ثـوـبـهـا وـقـدـ اـعـتـرـاـهـاـ الـخـجلـ، وـسـأـلـتـهـ تـغـيـرـ مـجـرـىـ الـحـدـيـثـ:

- لست من نابولي، أليس كذلك؟

- نعم. أنا من سان فيلي.. قرية تابعة لدوقيه بنفينتو.

كانت المرة الأولى التي يتخلى فيها عن وصف نفسه بالنبيـل ابن النبيـل.. صمت لبرهـة، قبل أن تجذب هي طرف الحديث مرة أخرى:

- لم أقـحـمـتـ نفسـكـ فيـ الحـربـ.. هلـ أـنتـ مـنـ عـائلـةـ مـحـارـبـةـ؟

- فيـ الحـقـيقـةـ، لمـ يـخـطـرـ بـبـالـيـ أـشـارـكـ فـيـ حـربـ يـوـمـاـ. لمـ تـكـنـ حـيـاتـيـ مـنـذـ أـشـهـرـ تـمـتـ لـماـ أـنـاـ عـلـيـهـ الـآنـ بـصـلـةـ، كـنـتـ أـقـضـيـ وـقـتـيـ فـيـ التـسـكـعـ بـيـنـ أـكـواـخـ الـقـرـيـةـ، وـالـبـحـثـ عـنـ الـمـعـتـعـةـ، وـكـمـاـ يـقـولـ أـبـيـ إـنـيـ صـانـعـ فـوـضـىـ، لـأـكـثـرـ.

ضـحـكتـ وـهـيـ تـقـيـ بـقـطـعـ حـطـبـ فـيـ المـدـفـأـةـ:

- وـلـكـنـ مـاـ أـرـاهـ أـمـامـيـ لـيـسـ سـوـىـ فـارـسـ شـجـاعـ لـاـ يـهـابـ الـمـوـتـ.

فيـ قـرـارـةـ نـفـسـهـ، كـانـ يـعـلمـ أـنـ الـمـوـتـ هـوـ عـدـوـهـ الـأـوـلـ. لـطـالـمـاـ أـرـادـ الـاستـمـتـاعـ بـكـلـ لـحـظـةـ فـيـ حـيـاتـهـ. وـلـكـنـ حـيـنـ أـتـىـ إـلـىـ نـابـولـيـ، تـغـيـرـ كـلـ شـيـءـ، وـرـأـيـ الـمـوـتـ يـطـوـفـ بـأـرـجـاءـ الـمـدـيـنـةـ. صـارـ بـطـلاـ فـيـ عـيـونـ أـهـلـ الـمـدـيـنـةـ، وـهـذـاـ سـبـبـ كـافـ لـمـنـحـهـ الثـقـةـ فـيـ نـفـسـهـ، كـيـ يـصـبـحـ بـطـلـ الـذـيـ يـرـنـوـ إـلـيـهـ النـاسـ. لـنـ حـكـمـ عـلـيـهـ بـالـمـوـتـ فـيـ الـحـصـارـ، فـعـلـيـهـ أـنـ يـمـوتـ كـمـاـ يـمـوتـ كـمـاـ يـمـوتـ الـأـبـطـالـ كـرـولـانـ وـصـاحـبـهـ أـولـيفـيرـ.

نـهـضـ إـلـيـسانـدـروـ فـيـ صـمـتـ، مـتـجـهـاـ إـلـىـ الـبـابـ، فـأـسـرـعـ كـاتـرـينـاـ:

- إـلـىـ أـينـ سـتـذـهـ؟

- إـلـىـ الـكـاتـدـرـائـيـةـ، حـيـثـ نـبـيـتـ أـنـاـ وـرـجـالـيـ.

- باـحةـ الـكـاتـدـرـائـيـةـ. كـمـاـ تـعـلـمـ. مـكـنـظـةـ بـالـمـرـضـىـ.. اـبـقـ هـنـاـ حـتـىـ الصـبـاحـ. سـأـدـخـلـ إـلـىـ أـبـيـ، وـتـنـامـ أـنـتـ هـنـاـ.

حاـولـ أـنـ يـرـفـضـ عـرـضـهـاـ، وـلـكـنـ عـيـنـيـهاـ الزـرـقاـوـيـنـ أـجـبـرـتـاهـ أـنـ يـوـمـيـ بـرـأـسـهـ موـافـقاـ. لـنـ يـجـدـ أـفـضـلـ دـفـاـ منـ الـمـنـزـلـ، بـعـيـداـ عـنـ الرـائـحـةـ الـكـرـيـهـةـ فـيـ الـخـارـجـ. دـخـلتـ كـاثـرـينـاـ إـلـىـ غـرـفـةـ أـبـيـهاـ، فـاسـتـقـنـيـ هوـ عـلـىـ الـفـرـاشـ قـرـبـ الـمـدـفـأـةـ. لـمـ يـنـعـمـ بـلـيـلـةـ مـثـلـ هـذـهـ مـنـذـ خـرـوجـهـ مـنـ سـانـ فـيـلـيـ. أـخـذـ يـفـكـرـ فـيـ كـلـ مـاـ مـرـ بـهـ، حـتـىـ تـوـقـفـ عـنـ كـاتـرـينـاـ. هـمـسـاتـهـاـ لـوـالـدـهـاـ الـمـتـلـأـ لـامـسـتـ قـلـبـهـ. كـانـتـ مـخـتـلـفـةـ عـنـ فـيـوـلـاـ.. أـهـلـ الـمـدـنـ لـهـمـ مـنـ الـعـادـاتـ مـاـ لـيـسـ لـلـفـلـاحـيـنـ. كـانـتـ الـمـرـةـ الـأـوـلـىـ الـتـيـ يـنـأـيـ فـيـهـاـ عـلـىـ فـرـاشـ جـيـدـ مـنـذـ رـحـيـلـهـ عـنـ قـرـيـتـهـ. تـقـلـبـ مـرـارـاـ، قـبـلـ أـنـ يـغـطـ فـيـ نـوـمـ عـمـيقـ.

ماـ أـقـسـيـ الـانتـظـارـ فـيـ جـبـ عـمـيقـ، يـحـاـصـرـكـ الـمـوـتـ مـنـ كـلـ جـانـبـ. مـضـتـ لـيـلـةـ، وـيـأـبـيـ النـهـارـ بـعـدـهاـ أـنـ

يمضي. ما زالت الشمس تلملم خيوط الرحيل، وأشعتها الخافتة تنسحب ببطء من على الجدار المرتفع. كان الرجال في حال سيئة. رغم دففهم لرفاقهم الموتى، إلا أن الراحة النافذة كانت تُرَكِّم الأنوف. بكي أحدهم في يأس، وحاول آخر أن يُزيح الأحجار عن الباب ليُسلِّم نفسه لجنود نابولي؛ ولكن قواه لم تُعنه على ذلك. أما الأغلبي، فكان ينتظر الفرج، الذي قد يأتي في ضربة مننجيق تهدم ما تبقى من حصنهم، أو فوج من الرجال يدخلون لينقذوهم. كان يذكر الرجال بالله، يُحاول أن يمنهم الأمل في التمسك بما تبقى لهم من قوة. نفذ الماء والتمر، وبقي الموت يحوم فوق حافة البرج.

سحبت المننجيقات لتواجه البرج الشمالي. الكل يستعد لمعركة قد تكون الأخيرة هذه الليلة. دقت الأجراس، لتنذر الناس بأن العرب يستعدون للهجوم. وترaciت صفووف الجندي، وقد تلثموا جميعاً بأوشحة نُقعت بماء غلي فيه لحاء أشجار الصنوبر، ليمْنَعُ عنِّهم الراحة. وقف سعد بن هشام على رأس جيش المسلمين خارج المدينة، وراح يُلْقِي خطبة طويلة، استغرقت حتى المغيب التام للشمس، والمرابقون أعلى الأسوار يعيجون من جيش يُثْرِث كل هذا الوقت. المشاعل راحت تنبت بين الخيام كزهور حمراء تُنير ما حولها، وسودان تجهز مع فرقه من حُرَاسِه في مقدمة الجيش، متراجلاً. لن يقول الناس من بعده: ترك أمير باري رفقاء للموت، وعليه إخراجهم من ذلك البرج مهما تكلّف الأمر. انتهى الفقيه من كلمته عن الصبر والجهاد أخيراً، وتبادل النظارات مع سودان، الذي رفع يده ليُعطي الإشارة لعمال المننجيق بإطلاق القذائف. ولكن يده تبَسَّت في الهواء، وقد لمح الفرسان القادمين في الأفق، يتحركون بالقرب من سفح بركان فيزوف. وعلى بقایا ضوء المغرب، كانت البيارق تُخفِّق بقوّة من فرط سرعة الخيول..

رأيات باري، حملها ما يقرب من مائة فارس كانوا يتقدمون عبر السفح تجاه الجيش المستعد للهجوم. تحرك سودان بسرعة يستقبل الفرسان، وقد حمل قلبه ريبة مما يحدث. على الأسوار، كان الصمت القريب من اليأس يُرافق المدد الجديد الذي جاء إلى قوات السراسنة، جُلُّهم من الفرسان، ينزلون عبر المنحدر إلى داخل معسكر الحصار. ضاقت حدقة إيساندرو وهو يتبع الموقف، بينما صاح أحد الرجال: إننا هالكون لا محالة.

رمقه إيساندرو ببغض، وهو يتوجه نحو البرج الشمالي. كان الرجال يتساءلون عن جدو الحرب، يرى في أعينهم الاضطراب. الحرب بغية، حتى وإن كانت مقدسة، كما يردد الكثير منهم. أمر رجاله بزيادة عدد المشاعل فوق الأسوار من الناحية الشمالية، وسرعان ما كانت حافة الجدار متوجة بالنيران، المشهد يُخبره أن العرب لن يهجموا الليلة. اقترب من موضع الباب الموصد من الداخل، طرق ثلثاً وتحدى باللاتينية:

- نعم أنكم بحاجة للطعام والشراب.. كما تحتاجون الحرية. اخرجوا قبل الفجر، ولن يمسسكم سوء. لقد تخلى عنكم رجلكم.. لقد خذلتم، ولا سُبْيل للفرار.. إن أردتم الموت، لن نلطخ سيوفنا بدمائكم.. بل سنترككم تتعرفون بالداخل، وستبقى أطلال البرج شاهدة أبد الدهر على رفاتكم وخيانة أصحابكم.

ترك الباب دون انتظار للرد، وتوجه إلى كارلو، الذي لم يفهم ما قام به الشاب الذي وقف أمامه محدثاً إياه:

- سيدى الدوق، علينا التفاوض سريعاً بشأن هؤلاء.. أتوقع أن الهجوم سيتم تأجيله لقدوم ذلك المدد..

بقلق، نقل الدوق عينيه بين قوات باري، التي ما زالت تقف مستعدة للهجوم، وبين إيساندرو الذي قال بصوته هادئ:

- ثق بي. لن يهجموا الليلة، علينا أن نستغل تلك الفرصة في فرض هذه دائمة، والتفاوض من أجل فك الحصار.. بدلاً من أن نموت جميعاً.

- لن يطأنا الموت، فالأسوار ما زالت قائمة، ورجالنا مستعدون للتضحية من أجل المدينة.

اقرب منه إيساندرو أكثر:

- سيدني، الموت أصبح الآن بين ظهورنا جميعاً. لقد تفشي الوباء منذ أيام في الحالات المُحيطة بالكاتدرائية.. انظر لوجوه جنودك، ستراها مسمومة برائحة الموت الكريهة.. سينتظرون أن نموت ببطء، بينما يُقيمون هم حصارهم، حتى تكون جميعاً إما أمواتاً أو منهكين لا نقوى على رفع نشاب بوجوههم.

.....

ترجل قائد الفرسان مبتسمًا وهو يحدث سودان:

- أرى أنكم تستعدون لهجوم ليلى..

بادله سودان التحية وما زالت الدهشة تعم عقله:

- ما الذي أتي بكم من ساليرنو؟

أقى الرجل نظرةً سريعةً على الاستعدادات، قبل أن يسلم سودان رسالة تحمل ختم أبي المغوار. فتحها على مرأى من الجميع، قرأ ما فيها صامتاً، ثم طواها وطلب من الفارس مرافقته. حكى الرجل ما حدث بين القاضي أبي المغوار والدوق ماركيزيو، الذي أصبح تحت الحراسة، وقد تم إرساله إلى باري. لقد وشى به أحد رجاله، وأخبر أبي المغوار أنه أرسل حملان الرب إلى نابولي، ولقد اعترف بخيته حين قام بتسليم المدينة، بينما أبحرت القوارب ليلاً تحمل جنوده. خرج سودان إلى جنده، فأمر بوقف الهجوم لحين إشعار آخر، فكانت المفاجأة صادمةً للجميع، وأكلهم الفضول لمعرفة فحوى الرسالة التي غيرت قرار الحرب.

على ضوء المشاعل والشموع، كانت جثث الموتى تلقى في مياه البحر. أفتى من أفتى، أن ملح البحر سيُطهر الجثث، ويُقلل من الأوبئة. النحيب والصراخ يقطع الترانيم المنبعثة من الكاتدرائية، التي تجثم بوسط المدينة بزجاج ملون يعكس صور القديسين وهالاتهم الذهبية، وعيونهم التي تحمل الأسى على ما أصاب المدينة. الشوارع صارت مرتعاً للجرذان، تفتات بأشلاء الموتى وتحمل الوباء،

والرهبان وحدهم تكفلوا بِإِزَالَةِ القتلى عن الطريق. لا دواء قد يُعالِجُ غضبَ الرب، فالكل هالك لا
محالة إذا لم يفك ذلك الحصار.

وعلى الأسوار، أحاط بالجند بَرْدٌ يرجف قلوبهم بالخوف. لقد كان من الخطأ ترك جثث القتلى خارج
الأسوار، فالرياح حملت الوباء فوق الجدران، فصار المرض يهاجمهم من الداخل والخارج. وأما
داخل البرج الشمالي، كان محمد الأغلبي مقتولاً بالخذلان والحزن، فقد مات ثلاثة من رجاله في الليلة
الماضية، وسودان لم يقم بهجومه. الاستسلام خزيٌّ، ولكن على الأقل سيمنح رجاله يوماً آخر في
الحياة، وإن ماتوا سيكون موتهم على يد الروم، ولن تتحقق نبوءة ذلك القائد الذي لم ير وجهه،
ويصير مدفوناً، يشهد عبر الأجيال على تخلي قائدٍ مسلم عن رجاله. ما زال بعض رجال الأغلبي
يُصرون على الصبر، وأحد هم يريد أن ينقض على العدوَ وليمت طعناً، ولكن على الأقل سيقتل
ويُصيب منهم.. نظر إليه الأغلبي مبتسمًا في حسرةٍ، فما فيه من وهنٍ يجعل انقضاضه الذي يتحدث
عنه محض حلم قديم.

طوال ساعات الليل كانوا يتجادلون. لقد جاؤوا للحرب، وهم يعلمون أنها قد تكون نهايتهم في أي
لحظة، فلم يتراجع البعض عن إيمانهم أمام وعد بالحياة. لم يبق على خط النهار الأول سوى ساعاتٍ
قليلٍ، وستنتهي المهلة التي منحها إياهم ذلك القائد. إنهم ضعفاء، سينتهي أمرهم سريعاً،
ومقاومتهم ستكون مجرد محاولةٍ باهضةٍ للموت بشرفٍ. وفي عتمة البرج، تحامل الأغلبي على نفسه
ونهض يمسك بمقبض سيفه ويُخبرهم قراره في حسمٍ:

- لقد صدق ذلك الرומי.. تخلى أصحابنا عنا، ولا مفر من الاستسلام، ثم لنر ماذا نفعل بعد ذلك.

- تقصد نرى ماذا سيفعل بنا.. اسمع يا أغلبي، لمن يتخطب الثرى بدمائى أفضل من أن ألقى بسيفي
تحت أقدام الروم. لقد بایعنا على الموت، وينبغي علينا..

قاطعه محمد يهمسُ إليه بنبرةٍ حاسمةٍ:

- ينبغي علينا أن نبقى ليوم آخر.. لقد منحنا الاختيار. وبما أنني قائدكم، فقد اخترتُ الاستسلام مع
فجر اليوم.. التحصن في ذلك البرج نهاية الموت.. والتعلق بأمل زائفٍ نهاية الموت..

سؤال آخر:

- هل تصدق أنهم سيوفون بالعهد الذي قطعوه؟ نقض العهد ليس غريباً عنهم يا أغلبي.

- لم أنس.. كما أنتي لا تستطيع التضحية بكم من أجل سودان الذي أرسلنا إلى هنا ليتم سلخنا أحياء.

- أفقدت عقلك يا أغلبي؟

- إن كان سَوْدَان أراد التخلص مني.. فلا يجب أن يدفع أحد الشمن بــلا عنِي. ثم إنني رغم غضبي منه، لن أبقي للتاريخ قولًا مشيناً عن قائد مسلم، تعفن رجاله في برج نابولي. لقد حسمت الأمر.. تجهزوا للخروج مع آذان الفجر، إن سمعه أحدهم.

آخر ساعات الليل أكثرها ظلمة. النجوم رحلت عن سماء البرج، واحتلَّ الرجال كلَّ نفسه، يُحاول تفسير ما قاله الأغليبي. حملقت عيونهم في ظلام تعودت عليه، يرون دون إبصر جثث رفقائهم الذين ماتوا في الأسر جوعاً ومرضًا. إن بقوا ليوم آخر، سيموتون تباعًا من الجوع أو المرض، ولربما هدم عليهم البرج. تمت أحدهم بخفوتِ:

- لن يخذلنا الله..

صوتُ الأذان البعيد بدا كحلم نهايته السكون. تييم الرجال، وتراسوا لصلةٍ أخيرَة. لم يتقدمهم الأغليبي كالعادة.. فضلَّ أن يقف بالصف الثاني. صلاتهم كانت همساً سريًّا بين الجدران إلى حيث يقف إلِيساندرو ورجاله. لقد قضى نهاره في بيتِ كاترينا، وأخبرها عن حكاية الجريح، الذي تفاجأ بكونه هو نفسه أمير باري. كاترينا قدِيسة حقيقة، تجسدت أمامه لترشده إلى الصواب. تفاحة محمرة، لا يستطيع قطفها، ولا يريد. أبوها كذلك شخصٌ لطيفٌ، أو هكذا بدا. حديثهما عن نابولي، وكيف كانت قبل الحرب أثار في نفسه الشجن. مع بداية الليل، تركها تتلو الصلوات لأبيها الذي داهنته الحمى. إنه المصير المحتموم، والموت الذي ينتظره الجميع. كان يشعر أنه سببٌ من أسباب كل ذلك. مرارة العجز داهنته، فتركها ذاهباً إلى حيث البرج الشمالي، واتخذ مكانه صامتاً يفكُّ في نهاية قد تأتي قريباً، حتى مضى ثلثا الليل، وحلَّ طقسُ باردٍ وضبابٍ أحاط بمدينةٍ مظلمةٍ تحولت مبانِيها الضخمة إلى أطلالٍ من ظلال. كبح خياله، ولحق بروجيه عند البرج، يرمي الرأية الخضراء التي تخفق فوق البرج ببغضٍ. سيحظى بشرف إزالتها، وكل شيء سيكون على ما يرام. سمع صوت تحركاتٍ خلف جدار البرج، فابتسم. يبدو أنَّهم يستعدون للخروج. أشار للرماة بالتصويب على الباب الخشبي الكبير.. ومن بعيد، كان الصبح يُشرق من خلف جبل فيزوف، وينسابُ متوجهاً إلى الأسوار الرمادية، ليمحو ظلال الليل. تجلَّى التحفر على ملامح إلِيساندرو ورجاله. صرير الباب كان مبهجاً له كأجراس الأعياد. ظهر من وراءه محمد الأغليبي، مغبراً ينظر في وجوه الجندي بوجوم، ومن خلفه بضعة رجال بوجوهٍ اختلط فيها البأس باليأس. أشار إليهم إلِيساندرو بالتقدم، فأشار الأغليبي لرجاله فألقوا سيفهم، ثم رفع يديه لأعلى، وتقدم رجاله خارجاً، بين عيونٍ تعلن لهم البغض والقسوة. أحاط الجندي بالأسرى، وقال إلِيساندرو وهو يكاد ينفجرُ مزهوًا:

- لقد منحناكم الأمان.

في هذه اللحظة، قرعت أجراس الميناء، وتوقف كل شيء عن الحركة. الأجراس تضربُ في رتابةٍ دون توقف، الكل يتتبادل النظارات، وقلوب رجال الأغليبي تخفق، وجند نابولي متتوتون.. سحب إلِيساندرو سيفه، ووراءه فعل جنوده مثله. حالة من عدم الفهم عمّت السور، مع تتبع صوت الأجراس، والطيور المحلقة فوقهم في فزع. كان الأغليبي يتلفت، محاولاً رؤية أي بادرة للهجوم من أي الطرفين، فلا يجد. ضوء النهار مرُّ فوق المنازل والحرارات متوجهاً نحو شاطئ البحر، وأخيراً تحرك إلِيساندرو وتوجه لحافة السور، ليرى بنفسه ماذا يحدث. فوجئ أن المعسكر مستكينٌ كما شاهده آخر مرة، منذ انتهوا من صلاتهم. نظر بعيداً في الغابة والجبل، ثم دار ببصره نحو البحر، يدقق النظر، فإذا بالضباب المتقدّر أمام أشعة شمس الصباح الذهبية يكشف عن أشرعةٍ كبيرةٍ تُحرِّر في خليج نابولي ... أشرعه سوداء!

قرب مدخل الميناء، كانت عشرات من سفن الأغالبة ترسو، ثم تُسارع بلممة أشرعتها ورفع مجاديفها عن المياه. رغم الموج، بقيت ثابتة تطفو قبالة ساحل المدينة، والرأي السوداء تحقق فوقها في تحدٍ للمدينة المرتعنة. صارت نابولي بين فكيِّ العرب الآن.. الأغالبة وأسطولهم الذي لا يُقهر، وجند باري الفرحون بالمدد البحري. كانت تلك بشري أبي المغوار إلى سُودان يُخبره أن طلحة السكدرى أبحر إلى صقلية، وأنه آتٍ بمددٍ لا قبل للروم به. لم يعد سقوط المدينة سوى مسألة وقتٍ فقط، وهذا هي ذي رأية الأغلبي تتحقق فوق البرج الشمالي.

مشهد السفن الضخمة أغرق ما تبقى من أمل في قلوب أهل نابولي. لم يتوقع أحد قدوم المدد عبر البحر. انفض اجتماع قادة المدينة، والذي شهد الكثير من الصخب، وضرب اليأس جذوره في عقولهم، يعززه الوباء الذي يحصد كل يوم المزيد من الضحايا. إن بقي هذا الوضع، لن يكون بالمدينة أحياء مع حلول الشتاء. بقي سيرجيوس في برج قلعته البحريية، بعد أن خرج الرجال حاملين الأسى. لقد خسر الحرب، كما خسر حلفاء الأمس. لم يكن بمقدوره رفض طلب البابا، الذي جلب على مدinetه الخراب، وسوف يقطع رأسه نظير خيانته للعهد. تزاحمت الغيوم فوق صواري سفن أنت للفتك بموطنه. الإحساس بالعجز يكاد يُعجل له بالموت. كان عقله يُعيد ما قاله ذلك الفتى إيلساندرو: التفاوض هو الحل الوحيد للخروج من المأزق، ووجود أسرى سيمنح الجميع حلاً مناسباً للأزمة. خرج من غرفته متوجهاً إلى ساحة القلعة، تُتابعه الأعين، بينما عيناه لا تتزحزحان عن رأيه باري الخضراء التي تخفق على أطلال البرج الشمالي..

في غرفةٍ رطبةٍ مظلمةٍ، تجرَّع محمد الأغلبي كلمات رجاله القاسية، بعد أن جاءت البشرة وقد سلموا أنفسهم للروم. اللوم عليه وحده، لأنَّه من أصرَ على الاستسلام، وأمرَهم بالبقاء أسلحتهم وفي نفس اللحظة أتتهم الأجراس بإشارةٍ استجلوها واستوتحشوا انتظارها، فأصابتهم عار الاستسلام لقيد السلاسل حول أقدامهم ومعاصمهم. لقد رأوا سفن الأغذية بينما يُقادون إلى محبسهم، يقذفهم العامة بالحجارة والشمار المتعفنة، بينما تدفعهم أيدي الجند، وقد أمعن القائد الشاب في إذلالهم رغم وعده بالأمن.

مع قرب مغيب الشمس، كانت قوارب صغيرة تتجه إلى الشاطئ، تحمل على متنها طلحة السكندرى وقاد أسطول الأغالبة زياد بن الأغلب. وعلى الشاطئ الرملى، كان سودان وبعض رجاله يقفون في انتظارهم بالبهجة والترحاب. لقد كان مجئهم روحًا نفت من جديد في جسد جيش باري. سارع الرجال في حمل المؤن إلى معسكر الجيش، فيما امتطى سودان ومرافقوه الجياد إلى ربوة عالية تطل على المدينة، يشرح للقائدين كيف سارت الأمور خلال أسبوع الحصار وال الحرب، وحين بدأ حدثه عن الأغلبي وفرقته المحاصرة، كانت الراية على البرج الشمالي تنزع. عقد سودان حاجبيه وضافت حدقاته حين رأى ما يحدث:

- أظن علينا العودة إلى المعسكر الآن.

العجزُ والقهرُ أعدى عدوينِ، إذا غرسا رماحهما في جسدِ أنهكته الحربُ، فالنهايةُ تقتربُ. قربُ حديقةِ جدباءِ، جلس إليساندرو يعيث بطرف سيفه بمجموعةٍ من أوراق الأشجارِ الجافةِ، ويرمي بصره إلى سفن الأغالبةِ التي تهيمن على الأفقِ. في هذا البحرِ ألقى جسدُ والدِ كاترينا. جزّعها وعيناها اللتان تفياضان بالدموع منحاه شعوراً لم يمر به من قبل. أدرك في تلك اللحظة أن الحياةَ قصيرةً جدًا، ولعله كان مخطئاً حين أحرق قريةً أفيليانو. تذكر الدوق، كيف اختار سليم ساليرنو. لقد حافظ عليهم بفعله هذه، كما أنقذ حياة الكثيرين من الموت المحتوم. بداخله نداء يحثه على العودة إلى سان فيلي. يشتاقُ لحضن أبيه وما تطهوه أمّه. ماريا كانت على حقٍ دوماً.. هناك شيء ما في روح كاترينا يُشبه ماريا. إن كُتبت له النجاة، سيعتذر لها عما بدر منه، كما اعتذر لكاترينا. صار موقفاً أن كل شيء سينتهي خلال أيام. على الحرب أن تتوقف، حتى وإن كانت الهزيمة حاضرةً اليوم.

اتخذ طريقه إلى منزلِ كاترينا، عبر حاراتِ تملّكها الكابة، يجر قدميه وقد تملّكت منه أيضًا. أفاق من شروده على هاجس أن هناك من يُراقبه. أهي الظلال، أم أرواح من قضوا نحبهم خلال فترة الحصار، أم هو خواء البيوت والألين المتناثر في كل مكان لا يتوقف؟ رحل الكثيرون، لم يتركوا أي بصمةٍ في تلك الديار التي نهبتها الموت. سينسى الناس كل شيء، حتى الأموات، حين ينざح الحصار. لمح عجوزاً التحفت بحرملةٍ زرقاءً بلون السماء، كانت لجندي سابق، فالنسر الذهبي يزيّن جزءاً منها. كانت تجلس في ركنٍ جافٍ، وعيناها الزرقاوان تشعان بالحياة رغم الموت حولها، وثغرها مبتسماً رغم تجاعيد بعد سنوات عمرها. لم يرها في هذه الحرارة من قبل؛ أم أنه تاه ووصل لبقعةٍ من المدينة لم يسبق لقدمه أن وطأتها؟! توقف بالقرب منها..

- سيدتي هل تحتاجين لمساعدةً؟

اتسعت ابتسامتها، لتُظهر أسناناً كاملة، لم يمسها طول الأمد بعطيٍ:

- شكرًا لك أيتها الفارس..

لوح بيده وقد أشاح بوجهه:

- لستُ فارساً.. أنا مجرد فتى فروي، كُتب عليه أن يكون هنا.

أومأت برأسها:

- من يعرف حقيقته يستحق لقب فارس أو نبيل.. قليلون هم من يعترفون بالحقيقة، وواهمٌ من يظن أن السيوف المصقوله والدروع المذهبة وتلك الجياد المُسومة هي ما تصنع النبيل.

- ماذا؟!

- النبيل هو أن تكون صادقاً وقت الأزمات. أن تدرك ماهية الأمور، وتمتحن روحك الخلاص، بأن كل شيء مكتوبٌ ومقدرٌ، وحين يتعلق الأمر بالحياة فامنحها السبيل..

- من أنت؟

نهضت متباقلةً تستند على عصا غليظةٍ:

- لقد قلتُها أنت منذ قليل.. لقد كُتب عليك أن تكون هنا. وأنا أيضاً منحني الربُّ الأسباب لأكون هنا.. لا أقول لك أن "أَعْطُوا تَعْطُوا، كَيْلًا جَيْدًا مَلْبَدًا مَهْزُوزًا فَائِضًا يُعْطُونَ فِي أَحْسَانِكُمْ. لَا تَهُنْفِسِ الْكَيْلِ

الذى به تكيلون يكال لكم".

أنهت كلماتها، ومررت إلى جواره، وبقي هو جامداً يُحملق في العدم. كيف للعجز الشريدة أن تحفظ كلماتٍ من الإنجيل؟ لطالما ردد الأب ليو على مسامعه هذه الآيات حين كان صغيراً، ودوماً ما كان يهزاً بتلك الكلمات، فهو ابن النبيل يكيل ولا يُكال له. أحسَ ببرودةٍ تسرى بجسده، وتهاوى قلبه، حين التفت ولم يجد لها في الحارة. زاغت عيناه، أطلق ساقيه للريح.

ركض كما لم يركض من قبل. بانفاس متلاحمقةٍ راح يطرق باب كاترينا، وما إن انفرج ليظهر وجهها، دفعه بقوّةٍ، ودلل إلى الداخل. رأت في وجهه الهلع، فأغلقت الباب ودخلت خلفه مرتابة، وعيناها لم ينضب دمعهما بعد:

- ماذا بك إلينساندرو؟!

كان يرتجف.. دمعت عيناه، فمنحها سبيلاً للبكاء. تقدمت نحوه، واحتضنت رأسه. أتراه يوم عذابها الأبدى؟ يوم رحل أبوها، ومن ظنته قوياً ها هو ذا يبكي بين يديها لسببٍ تجهله!.. انتبه لنجيبها، فتوقف عن بكائه، وفطن لما هو فيه، وسحب يدها برفقٍ فباتت أمامه:

- عذرًا كاترينا، ما كان ينبغي أن أفعل هذا.

تلعلت في وجهه بعينين ممطرتين:

- لم أكن أعرف أنك تستطيع البكاء.

ابتسم وهو يمسح وجنتيه ولحيته التي تبللت بالدموع، بينما لم تتوقف هي:

- أنا عندي سببٌ للبكاء، ولكن ما يُبكيك أنت؟

- لقد رأيت شبحًا.

توقفت عن البكاء وحملقت في وجهه، ثم انفجرت ضاحكةً. أخذ يرمي بها مستنكراً، بينما أخذت تقهقه، ثم نهضت بعثةً فامسك بها:

- مجنونة أنت؟!

أوجعها بقبضه على رسغها، فتوقفت عن الضحك وقد انتابها الذهول وهي تنظر في عينيه:

- ما كان يجب أن أضحك.. هل سمعنا أحد؟.. سيقولون إن ابنة أنطونيو تضحك عشية موته.

تبعد ملامحها، وأجهشت مرةً أخرى بالبكاء، فظل يُحملق في تعابير وجهها التي تبدل في لحظاتٍ عدّة مرات. يفهم ما تمر به.. لم يفهم أبداً كيف تفكّر النساء، ولكنه يفهم الموت الذي أحاط بقلب كاترينا.. خطوة واحدة، وصارت بين ذراعيه، فاحتوى جسدها، وأراح رأسها على صدره. لامس شعرها بحنو، وراح دموعها تنساب في دفء صدره.

قال طلحة السكندري:

- سدخل المدينة بحراً بينما تمطر المدينة بقذائف المنجنيق.

قال قسورة دون انفعال:

- وما الفائدة من دخول مدينة محترقة تعج بالموتى؟ إن المرض يتفشى بأركانها وستنتقل العدوى وتفتك بالجنود. لا أقول هذا من باب التشبيط، ولكن علينا ألا ندخل إلى مكانٍ تفشي فيه الطاعون..

أو ما قائد أسطول الأغالبة موافقاً، بينما اعترض سودان:

- سيقول القاصي والداني إن جند المسلمين هزمتهم أسوار نابولي.

حرّك قسورة رأسه نافياً:

- بل سيقولون إننا انتصرنا عليهم، وسلط الله عليهم المرض.

تدخل الفقيه سعد بن هشام:

- لقد أصاب الأمير قسورة عين الصواب. لقد نهى الرسول عن دخول مدينة بها طاعون أو الخروج منها، حتى وإن فتحت أبوابها لنا.

قال زياد بن الأغلب مؤيداً:

- لقد رأينا جث الموتى تطفو بالبحر.. مئات منها.

نهض سودان وراح يذهب ويغدو مفكراً..

- ولكن من سيقص لمحمد الأغلبي ورجالنا إن لم نفعل؟

لحظاتٌ من صمتٍ مرّت، قبل أن يقول الفقيه العجوز:

- إنها سننُ الحرب.. وعلينا إنتهاء الحصار في أقرب وقت، قبل أن ينتشر المرض بين رجالنا، وحينها سنخسر المزيد. منحهم العفو والرحمة، كما فعلت مع أهل ساليرنو. لقد صار بمقدورك دخول المدينة متى شئت، ولكن هل من عفوٍ يتماشى مع مقدراتك؟

قبل أن يرد أحدُ، دخل شرحبيل إلى الخيمة وقد ظهر على وجهه القلق:

- سيدِي الأمير..

أشار إليه سَوْدَان، فتحَّدَثَ الرَّجُلُ:

- هُنَاك جَمْعٌ مِنَ الرِّجَالِ قَادِمُونَ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمَحَاصِرَةِ..

اتسعت عيون الجميع، والجندي يتابع حديثه:

- إِنَّهُمْ يَحْمِلُونَ رَايَةَ مُحَمَّدَ الْأَعْلَبِيِّ مَعَهُمْ.

حدَثَ كُلُّ شَيْءٍ سَرِيعًا. فَوْجَى سَوْدَانُ وَمَنْ مَعَهُ بِوْفَدِ الْمَدِينَةِ حَامِلًا رَايَةَ الْإِسْلَامِ الْبَيْضَاءَ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ يَسِيرُ الْأَعْلَبِيُّ وَبَعْضُ الرِّجَالِ. عَمَ التَّرْقِبُ أَرْجَاءَ الْمَعْسُكَرِ، الْكُلُّ يَنْتَظِرُ مَا سَيَعْلَمُ عَنْهُ اجْتِمَاعُ الْوَفَدِ مَعَ سَوْدَانَ. كَانَ أَمِيرُهُمْ فِي هَذِهِ الْلَّهْظَةِ يَجْلِسُ راضِيًّا بِأَنْ تَنْتَهِيُ الْحَرْبُ دُونَ أَنْ يَنْسَحِبَ خَائِبًا. اسْتَمَعَ لِحَدِيثِ الْأَسْقُفِ مَانُويْلِ رَاعِي كَاتِدِرَائِيَّةِ نَابُولِيٍّ، يَحْمِلُ طَلْبَ وَقْفِ الْحَرْبِ وَالْمَوْتِ، فَالطَّاعُونُ الْأَسْوَدُ يَتَفَشِّي، وَالرَّبُّ يَأْمُرُ الْكُلُّ فِي كُلِّ الشَّرَائِعِ بِحَفْظِ الْحَيَاةِ وَرَحْمَةِ الْمَرْضِيِّ. كَانَ مَا يَحْدُثُ أَفْضَلُ كُثُرًا مِنْ أَيِّ اخْتِيَارٍ غَيْرِهِ، وَهُوَ بِدَاخْلِهِ يَعْلَمُ أَنَّ رَجَالَهُ أَرَادُوا هَذَا الصلْحَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيهِمْ وَفْدُ نَابُولِيٍّ. انْحَنَتْ جَبَاهُ قَادَةُ نَابُولِيٍّ وَكَبِيرُهُمْ يَقْدِمُ لِهِ رَايَةَ الْأَعْلَبِيِّ، الَّتِي كَانَتْ حَتَّىَ الْمُغَيْبِ تَرْفَرُ فَوْقَ أَحَدِ أَبْرَاجِ الْمَدِينَةِ، فَأَعْلَمَ قَرَارَهُ أَخْيَرًا بِاِبْتِسَامَةٍ كَبِيرَةٍ لِهَا أَصْحَابُهُ، فَسَرِيَ ضَجِيجُ الْفَرْحَةِ يَعْمَلُ أَرْجَاءَ الْمَعْسُكَرِ، وَحَمَلَ الْجُنُودُ الْأَعْلَبِيُّ وَرَفَاقُهُ عَلَىَ الْأَعْنَاقِ. لَقِدْ اسْتَلَمَتْ نَابُولِيٌّ كَلْخَتْهَا سَالِيرِنُو، وَانْتَصَرَتْ بَارِي.

رَحَلَ وَفْدُ نَابُولِيٍّ حَامِلًا الشَّرْوَطَ إِلَىَ الْمَدِينَةِ. الْجُنُودُ فَوْقَ الْأَسْوَارِ أَجْهَشُوا بِالْبَكَاءِ لَا يَعْرِفُونَ أَحْسَرَةً أَنَّ اسْتَلَمُوا أَمْ أَمْلَأُوا بِانتِهَاءِ الطَّاعُونِ. رَأَوْا مِنَ الْأَعْلَى فَرْحَةَ السَّرَاسِنَةِ وَعُوْدَةَ الْوَفَدِ الْمُكَوَّنِ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، يَشْقَوْنَ طَرِيقَهُمْ إِلَىَ الْكَاتِدِرَائِيَّةِ. الْأَسْقُفُ مَانُويْلُ نَزَلَ عَنْ حَصَانِهِ، وَصَعَدَ درَجَاتِ الْكَاتِدِرَائِيَّةِ، وَمِنْ خَلْفِهِ قَادَةُ الْمَدِينَةِ. الْقَنِيَّ نَظَرَةً طَوِيلَةً عَلَىَ الْجَمْعَوْنَ أَمَامَهُ، وَالَّذِينَ سَكَنُوا فِي انتِظَارِ كَلَامِهِ. لَمْ يَكُنْ مَانُويْلُ يَعْرِفَ مَاذَا سِيَقُولُ.. لَمْ يَكُنْ أَحَدُ سَوَاهِ يَصْلَحَ لِمَهْمَةِ إِبْلَاغِ الْقَوْمِ بِاسْتِسْلَامِ مَدِينَتِهِمْ. الْمَسِيحُ نَفْسُهُ لَمْ يَجِدْ غُصَاظَةً فِي مَجَالِسَةِ وَمَحْبَةِ الْعَشَارِيِّينَ، الَّذِينَ يَقْبِضُونَ الْجَزِيَّةَ وَيَسْلِمُونَهَا لِلْرُّومَانِ، كَمَا جَاءَ فِي إِنْجِيلِ مَتَّىٰ، كَمَا أَنَّهُ اصْطَفَى مَتَّىَ الْعَشَارَ لِيَكُونَ أَحَدَ رَسُلِهِ الْأَثْنَيْ عَشَرَ. كَانَ مَقْتَنِعًا أَنَّ الْمَسِيحَ مِنْ اخْتَارَهُ لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ، وَكَانَ الْوَفَدُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا كَمَا رَسَلَ الْمَسِيحُ. رَغْمَ ذَلِكَ، فَالْأَمْرُ صَعُبٌ، إِذْ كَيْفَ يُعْلَمُ لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ سَيَدْفَعُونَ الْجَزِيَّةَ مُقَابِلَ السَّلَامِ.

لَحَظَاتٌ مَرَّتْ، قَبْلَ أَنْ يُجْبِرَ فَاهُ عَلَىَ النُّطُقِ:

- يَا أَبْنَائِي، إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَعْنِي الْهَزِيمَةِ. لَقِدْ تَفَاوَضْنَا عَلَىَ أَنْ تَنْتَهِيُ الْحَرْبُ دُونَ أَنْ يَدْخُلُوا مَدِينَتَنَا؛ وَهُنَّا اِنْتِصَارٌ لَنَا. لَمْ نَمَكِنْهُمْ مِنْ رَقْبَنَا، فَقَدْ دَفَعَ رَجَالُ شَرْفَاءِ الثَّمَنِ بِدَلَّا عَنَا. لَئِنْ دَخَلَ الشَّتَاءُ عَلَىَ نَابُولِيٍّ، سَيَقْتَلُ الطَّاعُونُ الْمُزِيدُ مِنَ الْأَبْرَيَاءِ.. وَلَذَا، اشْكُرُوا الرَّبَّ أَنْ اَنْتَهَتِ الْحَرْبُ وَزَالَ الْحَصَارُ.

اِرْتَفَعَ صَوْتُ الْهَمَمَاتِ بَيْنَ الْجَمْعِ، فَاسْتَجَمَعَ قُوَّتُهُ، وَأَكْمَلَ إِعْلَانَهُ:

- لَكُنْ عَلَيْنَا دَفَعُ جَزِيَّةِ مَقْدَارِهَا عَشْرُوْنَ أَلْفَ مَكِيَالَ فَضَّةٍ، مُقَابِلًا لَا يَدْخُلُوهَا.. فَقَطْ سَتَكُونُ نَابُولِيٌّ قَاعِدَةً لِأَسْاطِيلِ الْأَعْلَابِيَّةِ.. كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلِ. وَسَيَدْفَعُ النَّبَلَاءُ وَقَادَةُ الْمَدِينَةِ بَعْضَ أَوْلَادِهِمْ لِيَكُونُوا فِي ضِيَافَةِ أَمِيرِ صَقْلِيَّةِ، سَتَبْاعُ مَحَاصِيلِ سَالِيرِنُو وَإِيْفِيلِنُو إِلَىَ إِمَارَةِ بَارِي وَقَوَاعِدِهَا فِي إِقْلِيمِ كَمْبَانِيَا

والجنوب بأكمله.. وسنرسل إلى باري اثنى عشر مهراً في نهاية كل موسم حصاد.

حساء دافئ، وفراشٌ وثيرٌ، والنجاة من الأسر، وانتهت الحرب. لكن الأغلبي لم يخرج من خيمته منذ عاد، ولم يحضر مفاوضات نبلاع نابولي مع سودان. كان وحيداً، رغم وجود المخلصين حوله، الفارس المغوار طريح الفراش، وقد مات صباح اليوم أحد من كانوا معه. الوباء يُطاردهم بعد النجاة من غدر العدو. في اليوم التالي، أصبح وقد انتشرت البثور والدمامل بجسده المحموم، وصار يهدي متمنياً بأسماء أولاده. كان حين يفيق من الحمى، يسمع من حوله يقولون إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه؛ ولكن نفسه تُوسوس له أن ذلك جزاء فعلٍ كان يجب لا يُقدم عليه.

أمر سودان بالرحيل عن هذه الأحياء قبل تفشي المرض في الجند، ولكن لم لملمة المعسكر وتقييم وضع الجرحي والمرضى، وكذلك استقبال الجزية من المدينة المستسلمة، كل ذلك كان يستلزم بعض الوقت. كان الأطباء وأغلب مساعديهم قد هلكوا يوم حريق مخزن المؤن، وصارت أباريق وقوارير الدواء رماداً. حار في أمر الأغلبي ورجاله، أيرحل بهم إلى الأطباء، أم يُبقيهم كيلاً يحملوا الوباء عبر طريق العودة. مع ضوء النهار التالي، فتحت بوابات نابولي، وخرجت منها إحدى عشرة عربة، يجرها رجال ضعفاء، تحمل الجزية. وما إن استلم شرحبيل العربات، حتى كان الرجال قد أنهوا استعدادات الرحيل. فأطلقهم سودان إلى طريق الرجوع، تحت قيادة قسورة، أما هو فقد عزم الذهاب إلى حيث الطبيب الماهر كاراس في سان فيلي.

بوابة نابولي الشمالية أيضاً كانت مكتظةً بالراحلين عن المدينة. من داهمتهم الحرب وهم بداخلها، ولم يستطيعوا الخروج، آن لهم أن يهربوا من المرض. بينهم كان إليساندرو، الذي منحه الدوق سيرجيوس لقب فارس. سيعود إلى قريته، بعدما رأى الكثير، ووجد السبيل إلى ذاته. جيش باري يتحرك أمامه على الجبل كثعبان يتلوى على الطريق. حجبت السحب شمس الظهيرة، وهو يمر بين حشود من أهل نابولي يتوجهون شمالاً. سيفصل على أبيه الكثير، وسيخبره بأمر ذلك الأمير الذي كان في منزلهم يوماً. خرجت معه كاترينا، وبضع رجال لم يعد لهم مكان يذهبون إليه، بعد انقطاع الأخبار عن الدوق ماركيزيو. لكرز جواده يُسرع به بين الصفوف، ومن خلفه كاترينا التي حملت معها آخر ما تبقى لها في نابولي: قلادة أمها، سيف أبيها، وجعبة من الملابس، تاركة منزلًا أغلقت بابه بإحكام، لعل هناك عودة. ودعت أطفال الكنيسة، وتآلمت لرحيلها عن المدينة، لكنها قبلت الزواج من فارسها الوسيم، وعليها أن تمضي قدماً، فالحياة لا تنتظر من يقع داخل صومعة ذكرياته، وستذهب معه إلى مكان بعيدٍ عن الحرب والموت.

رغم شحوب الخريف، عَجَتْ ثنايا الغابة بالحياة. السناجُ تتقافز بين الأغصان الجدباء، وفي السماء الزرقاء تتحينُ الحوارُخ لحظة الانقضاض. عصفورٌ صغيرٌ استفتح بأغنية، راح يشدو بها مرفقاً. الأيائل الذهبية، ذكرته باخر رحلة صيد له. كان البرد قارصاً حينها، أو لعله الموت الذي طاف برفاقه. طيفُ شعيب كان حاضراً خلال رحلته الطويلة من نابولي إلى سان فيلي. هناك مهمة لن يرثا إلا إذا أتمها. أمر الجيش بالعودة إلى باري، بينما اتخذ دربه إلى القرية التي آوته يوماً. لم يبال برفض قصورة. كان عليه إحضار الدواء لنجمة الأغلبي ورجاله، ثم يلحق بهم بعد أن يأتي بالطبيب وصديقه. أراد أيضاً أن يرى الأوضاع عن قرب في قرى كمبانيا قبل حلول الشتاء، رحلة لم يرافقه فيها سوى رجلين، أنهما السفر المتواصل. أما هو، فلم يشعر بتعب ولا نصب، فقد عقد العزم على التوجه إليها منذ وطئت قدماه محيط نابولي،وها هي ذي الرياح تحمل عطرها عبر الغابة.

حلَّ المساءُ ومعه الإنهاك، فرحم رفيقيه وارتضى الهدنة. جلس رفيقاه يتسامران وي Shawyian الأرانب التي اصطاداها، وحلَّ هو اللجام عن فرسه فصارت ترکض حرَّة حوله، وتترنّي من نبع قريبٍ وتعود إليه لتصهل، ثم تكمل جولتها. كانت كنصل من نور يشق الغابة الحمراء.. كانت تذكره بماريا، كان فيما روحًا واحدةً. قضى ليته في متابعة الشهب تسبقه إليها، ولم يغمض له جفن، حتى امتطى ورفيقاه الجياد منطلقين إلى مبتغاهم. حمحماتُ الخيل ووقع حوافرها زادت من ضربات قلبه، رافقت الذكرى ريح بارد عصف بقلبه حاملاً روحه إلى حيث تجلس هي أمام بركةٍ تطفو على سطح مياهها الراكدة الأوراق الحافة. ذات البقعة التي جمعتها وحدهما أول مرة. لم تشعر به يراقبها بين الأجرام الجافة. كانت زهرة نصرة في غياب غابةٍ كُسيت أرضها بحمرة الخريف. عزف خرير الجدول على أوتار قلبه، وهو يلمح أناملها تبعت بشيء ما. أزاحت خصلات شعرها الكستنائي جانبًا، وقد بدا على وجهها الانهماك فيما تفعله. اقترب متسللاً كوشق صياد، فرأى حروف اسمه رُصت بالحصى الملون في تناسقٍ، كما كتبها في نفس البقعة من قبل:

- كنتُ أعلم أنك ستقرئينها يوماً.

انتفضت مكانتها وقد اتسعت عيناهما. أبي عقلُها أن ينفض فكرة الحلم، ولكن قلبها ارتجف مع حروف اسمها السهل الذي نطق به .. "ماريا". كان يقف أمامها مباشرةً. ابتسامة رطيبة زينت وجهها الخجل، وتتسارعت نبضاتها وقد فاضت السعادة من عينيها، حين جثا على ركبتيه ليكون في مستوى جلوسها، وأتاحتها صوته ناعماً كما لم تسمعه من قبل:

- لقد عدت يا ماريا.

خَيَّم الصمتُ وتحدىت عيناهما. لم تتوقع أن يحدث هذا اللقاء. حتى في أحلامها كان مختلفاً. هالة من دفء أحاطت بهما، وهو يطيل النظر في وجهها وعينيها الواسعتين اللتين سلبتا روحه. كانت تظن أنه من المستحيل أن يعود، ولكنه حقق أملها، وعاد. في ترددٍ، رفعت يدها ولامست وجهه بثأمالها. كان حقيقةً وليس حلماً. أغورقت عيناهما بدمع فرحة لم تتوقعها، ولم تشعر بنفسها إلا وقد اندفعت إلى صدره، وأحاطته بذراعيها وأغمضت عينيها، وانهارت باكية. لم يفاجئه فعلها، بل تلقاها بين ذراعيه، وتنفس عطرها الدافيء، أحسَّ أنه قد ملك الدنيا ولا يريد شيئاً آخر. جميل هو ذلك الشعور الذي يطرق كيانه لأول مرة. لوهلةٍ بقيا على هذا الوضع، قبل أن يزيحها برفق عن صدره. رفعت رأسها لتطالع قسمات وجهه.. عيناهما الحالستان جعلتاها يبتسم وهيتح بوجهه. اعتدلت في جلستها خجلة، وعيناهما تراقبان صفحة البحيرة. أغمضت عينيها فرحة، وصوتها يُطرب أذنيها:

- لم أكن أعلم أن للحياة هذا المذاق.. لم أكن أعلم أن الأرواح تلتجم حين تتعانق القلوب.
عادت ببصرها إليه.. كان قلبها جذوةً موقدةً وسط أمواجٍ متلاطمةٍ. راودها الدمع، ولكن الخوف من الانكسار هيمن عليها، خرج صوتها خافتًا:

- حدثني نفسي أنك ربما لن تعود، فالحربُ مشتعلةٌ في نابولي، ويقولون إنك انتصرت في ساليرنو.
فقدت الأمل بعودتك حين علمت بحصارك لنابولي.. وحين رأيت..

قطاعها:

- الحربُ الوحيدةُ المشتعلةُ هي تلك بقلبي.. ماذا فعلت بي يا ماريا لأنشاق لك هكذا؟ كيف استطاع وجهك أن يزيح الكواكب عن السماء، ويبقى وحده من يُثير دربي.

اكتست وجنتها بحمرة الخجل، فابتسم وأكمل:

- ماريا، أنت الفجر الذي قطعت الطريق إليه ليغموري ضوؤك. لم يفارقني طيفك حتى في خضم الحرب.

- ظننتك نسيتي، حتى جاء رسولك بالهدايا..

ابعد عنها قليلاً، وأزاح بردته البنية عن كتفيه، ليسحب من حول رقبته وشاحها القرمزي. وضعت يدها على فمها تكتم صرخة فرح لم تتجاوز حلقها، وهو يُحدثها:

- ما زال عطرك يفوح من ثيابه..

- سودان.

نطقت بها، فاتسعت عيناه دهشةً. ضحكت من هيئته، فانتبه باسمًا:

- عذرًا، فلم أسمع هذا الاسم بهذه العذوبة من قبل.

كان يتلذذ برؤيتها تستحي من إطرانه وغزله، الذي هربت منه ثانية بسؤاله عن الهجان، أين هي..

- إنها هناك خلف التل، تنتظرني مع رفاق رحلتي. لقد انتهت الحرب أخيرًا يا ماريا، و...

اتسعت عيناه وهي تتذكر أخاه إيلياندرو. انتهت الحرب ولم يعد أخوها. صُمت أذناها وعقلها يستعرض أسوأ الاحتمالات، فالحرب لا ترحم. كان سودان يُحدثها عن سبب كذبه عليهم في البداية، وكيف كانت رحلته إلى باري ومطاردة أخيها له، وهي بين هائمة في وجهه وشارد في خوفها على مصير إيلياندرو. توقف عن حديثه وهو يُحدق في وجهها الوجل:

- ما بك ماريا؟

اغرورقت عيناه بالدموع:

- لم يعد أخي من الحرب بعد.

صمت لبرهٌ وقد عقد حاجبيه. حاول أن يتذكر رؤيته في المعارك، ولكن صورته كانت قد تلاشت من ذهنه منذ زمنٍ:

- لا أعتقد أني رأيته خلال المعارك. حين أعود، سأذهب بعض رجالي للسؤال عنه في نابولي وسالرينو. لا تقلقي ماريا، سيكون على ما يرام.

ارتسم على وجهها الأسى وهي تسأله بعفويةٍ:

- هل ستذهب مرة أخرى؟

خيَم السكون على الغابة من حولهما. سُوالها حمل مرارٌ ملأ قلبها، فجاهد ليرسم ابتسامةً تطمئنها، ولكنه لم يستطع. فشل في إجابة سُوالها، الذي كان بذرٍّ لمزيدٍ من الأسئلة ارتوت بوجع الفراق مجدداً، ونفسه تحده: ماذا بعد مجيك إلى هنا يا سودان؟

صمته كان نصلاً غرس بيضاء بقلبه. سيرحل مجدداً دون أن يأخذها معه. تذكرت كلمات عمها كاراس: "الحب زهرة نبتت في حديقة من الأشواك"، لطالما نصحها أن تعيش الواقع، إذ لا جدوى من ملاحقة السراب. مدت يدها وقبضت على يده الغليظة. لم يكن سراباً، بل هو دفع يتسلل إلى روحها. ضم أصابعه على يدها، وهو ينظر في عينيها:

- سأتحدث إلى والدك، وأتمنى أن يقبلاني زوجاً لأبنته.

صارا يتسامران تحت شجرة الصفاصاف ذات الأفرع الخاوية، وخلف جذع شجرة سميك، وقف فيولا تتلخص عليهما وقد امتلأت نفسها غيره وسخطاً. كيف لماريا التي يدعوها أهل القرية بالقديسة أن تجلس بين يدي ذلك العربي، بينما أخوها لم يعد من الحرب؟

- كنتُ أريد عمك كاراس، أتراء استيقظ الآن؟

رمقته بنظرٍ صارمٍ وقد تبدلت ملامحها وهي تتمتم:

- كنتُ أحسب أنك عدت من أجلِي فقط.

ابتسامته لم تُوقف سيل الغضب الأنثوي الذي وهي تسأله:

- فيمَ تُريد؟

- لقد قُتل الأطباء يا ماريا. حرق جيش نابولي مخزن المؤن، ومن فيه من الأطباء ومساعديهم، وتلفت قوارير الدواء. أحتاج عمل لنجدة صاحبِي محمد الأغلبي، أحد أخلص قادتي، لا أدرِي إن كان خبر الطاعون قد وصلكم في سان فيلي.. الحرب لا تنتهي بسكون السيوف في أكتتها يا ماريا، بل ترك بعدها جروحًا أطول كثيراً من زمن القتال.

انتظرت حتى أنهى حديثه، قبل أن تنطق في ترددٍ:

- لقد مرّ بنا منذ يومين جيشُ دوقية بنفينتو باتجاه نابولي.

انتفض وقد عقد حاجبيه:

- ماذا؟!

- جيشُ جرارٌ، يعج بالفرسان والمشاة. كما أن النساك والرهبان انضموا له لحث الجندي على القتال. لقد ذهبوا لفك حصار نابولي، أرسله البابا أدريان.

تقاذفه رياح القلق. كان يعلم أن قصورة فارسٌ ماهرٌ، وسينجح في العودة بالجيش لباري، ولكن ماذا إن تقابل الجيشان؛ ولمن سيكون القرار؟ ظل ينظر في عينيها حائرًا في أمره، فنهضت وقالت:

- هل أذهب لإخبار عمِّي أنك هنا، أم تريد الذهاب إليه؟

تابعها وهي تمضي.. ظبية تخطو بدلاً يثير في قلبها فرحاً. غابت عن نظره، فراح يتتجول حول البركة. ألقى بحصاة بوسطها تماماً وهو يبتسم. لقد نال الحب من قلبها. حين رأها، تمنى ضمها لصدره، ففوجئ بأمنيته تتحقق في الحال. صهيل خيلٍ أخرجه من حاليه الحالمة، وفوجئ بأحد رفيقيه يلوّح له من بعيدٍ، فأسرع ناحيته.

- ماذا هناك؟

- هناك درزنة من الفرسان على الأقل قادمون عبر الغابة.

عقد سودان حاجبيه:

- حسناً، ما إن يأتي الطبيب، سنذهب في الحال.. يجب أن نتم ما جئنا لأجله.

في بيت كاراس، سقطت قارورةٌ لتنكسر محدثة دويًا، لم يبال به العجوز وهو يصفق الباب بقوّة. حمل صندوقاً ممتلئاً عن آخره بقوارير الدواء، بينما حملت ماريا جعبَة تحوي أكياساً صغيرة من الأعشاب. كان يبحث الخطى مبتهجاً رغم حمله الثقيل. عرف من النظرة الأولى أنه عاد، إذرأى في وجهها ضوءاً عجيباً أغناه عن سماع الخبر منها. كانت تحاول أن تُجاريه في سرعته، أنفاسها متلاحقة وقلبها ينبض بعنفٍ، فالتفت إليها كاراس ضاحكاً:

- كنت أظن أن الحب يصنع المعجزات.

ضحك:

- بل يقطع الأنفاس.

وصلا إلى حيث كان، فلم يجدا أحداً. أكانت ماريا تتوجه، وقد أضاع العشق عقلها؟.. هكذا حدثته نفسه وهو يستدير إليها، ولكن سودان كان أمامه. لقد تغيرت هيئته عما عرفه. كان مبتسماً وإلى جواره تقف الهجان البيضاء، ومن خلفه رفيقاه. أنزل حمله أرضاً وأسرع نحوه فاتحاً ذراعيه:

- كنت أعلم أننا سنلتقي مرة أخرى يا صديقي.. كنت أعلم.

تعانقا بحرارة، بينما أسرعت ماريا متلهلةً إلى الفرس، التي رفعت حافريها مبتهمةً، ثم أقبلت عليها، فعانت ماريا رأسها، وتخلىت أصابعها سعفها الناعم الأبيض وهي تهمس في أذنها:

- لم يجدل لك أحد الجداول من بعدي يا جميلتي.

كان رفيقا سودان ينظران إلى حديث ماريا مع الفرس ويُتابعان حرارة كاراس في اللقاء، فيعجبان، وبيتسمان، وتتضارب الأفكار في رأسيهما:

- علمت بأمر نابولي، وما صار فيها. أخبرتني ماريا أن الوباء ظهر في رجالك أيضاً..

أو ما سودان برأسه في أسى:

- نعم، كانوا أسرى داخل المدينة، فانتقلت إليهم العدو.. قيء.. إسهال.. بثور.. ولكن أظن الأمر في بدايته.

ربت كاراس على كتفه:

- لا تقلق يا صديقي، سأفعل ما بوسعي، ولتكن مشيئة رب.. هل علينا الذهاب الآن؟

تلاقت عينا ماريا وسودان. سؤال كاراس كان كافياً ليروي الخوف في روحيهما. حمل أحد الحراس الصندوق عن كاراس، بينما أشار إليه الآخر قائلاً:

- ستركب معي.

التفت سودان، وأسرَ إلى ماريا بسرعةٍ:

- سأعود من أجلك وحدك قريباً.

اغرورقت عيناه بالدموع، وهي تهمس:

- أخاف فقدانك للأبد.

تمنى لو يحكم يديه حول رأسها، ويقطف قبلةً من جبينها الوضاء، ويشعر برجفتها بين يديه.. هرب من أمني العشق إلى لجام فرسه، يهم بامتطائها، حين سمع صخباً راح يحيط بالمكان. استدار نحو الصوت وهو يسحب سيفه، وجذب ماريا بسرعةٍ خلف ظهره. صهلت الفرس، وتحفز رفيقاه، وفي ثوان أحاط بهم أهل القرية يحملون المعاول وأشواك الحرش والهروات، ووحده سباستيان الحطاب يمسك سيفاً قديماً. لمحت ماريا فيولا تقف وراء جمع عيونهم متقدة بالكراهية، وابتسمة صفراء

على وجهها، ثم ظهر لورينزو. أفسح القرويون له الطريق، ليقف أمامهم جميعاً، يحمل سيفاً قصيراً، وبخطواتٍ ثابتةٍ أخذ يقترب من سودان:

- كان يتوجب على قتالك يوم رأيتك أول مرة. أهكذا ترد الجميل، لقد آويناك وداويناك في منزلنا؟

توقف لورينزو على مسافةٍ قريبةٍ منه وهو يُكمِّل حديثه بصوتٍ هادئٍ:

- أنتم بعيدون عن دياركم أيها العربي.. ما الذي يمنعني من قتالكم الآن؟

- لقد جئنا في طلب الطبيب كاراس، وسنرحل سريعاً أيها النبيل لورينزو..

رمى لورينزو أخيه بنظرةٍ مقيتةٍ، حول بعدها بصره إلى ماريا الخائفة:

- خذوه وارحلوا، وأعطي ابنتي يا هذا.. تعالى هنا يا ماريا!

احتمت ماريا بجسد سودان، وهي ترجف من نظرات أخيها جامد الملامح وهو يشير لها: تعالى يا بُنْتِي!

قال كاراس باسماً:

- يا أخي، لم كل تلك الأسلحة والرجال؟

نزل من فوق الجواد، وخطى ناحية لورينزو، الذي صرخ به:

- اذهب عني أيها المهرطق..

جحظت عيناً كاراس وهو ينظر في وجه أخيه:

- لم تفعل هذا؟

- لا شأن لي بك؛ إنما أريد ابنتي.

تقدَّم كاراس نحوه مرتَّةً أخرى وهو يهم بالكلام، فما كان من لورينزو إلا أن رفع سيفه ليهوي به على رأس أخيه!

في سهلٍ خاوٍ من الأشجار، قرب مدينة بوتينزا، كانت أعمدةٌ من الدخان تُعْنَق سماءً مزدحمةً بالغربان والنُّسُور، ورأيات حمراء وببيضاء مخضبة بالدماء دهستها قوائم الخيول، ومئات القتلى مبعثرين وسط الدروع المنهشة والسيوف المطحوسة في الطمي. الخيام المحترقة صارت رماداً أسود

يلوث حوافِ برك من الدماء. منذ ساعاتٍ، كان هنا جيش دوقية بنفينتو، الذاهب لنجد نابولي. مدد تأخرَ كثيراً، ولم يكن قادته على علم بأن الحرب قد انتهت. قضوا ليلتهم في ذلك السهل المنبسط، وحين أتى الصبح كانوا مُحاصررين منْ جيش باري العائد من نابولي. في البداية، أرسل قسورة إلى قائدِ جيش بنفينتو يُخبره بالتصالح الذي تم، ويدعوه إلى التراجع، ولكن الأخير أبى ونحر الرسول. لم يكن يعلم أن جيش المسلمين أكثر عدداً وعدة، وظن أنهم مفرزة صغيرة تجوب الأحياء. من يقتل رسول الجيش يدفع الثمن غالياً، وقد دفعه. مات أغلب رجاله، ومن بقي حياً هرب إلى الغابة القرية. بعد معركةٍ شرسةٍ قادها قسورة ببسالة، ثم راح يبحث بين الأسرى والجرحى عن وجه القائد الرومي، ولكن أحد الأسرى أخبره أن القائد هرب مع ثلاثة من الفرسان نحو الشمال..

- هل سنطاردهم؟

جاءه صوتُ شرحبيل الكلبي يسأل.

- لا، سنكمِل مسيرنا إلى باري، على أملِ أن نلقى الأمير سودان قرب النهر.

- ما كان عليه الذهاب في تلك الرحلة.

لكل قسورة جواده ليتحرك بخفية بين الجنديين، وردَّ سؤاله بسؤالٍ:

- كيف حال الأغلبي وبقية الرجال؟

لم يرق لشرحبيل تجاهل قسورة لحديثه. أشار باتجاه الجنوب إلى عرباتٍ خشبيةٍ تجرها البغال وسط الجنديين:

- المرض يسلب قواه، ورغم ذلك كان يريد أن يُشارك في المعركة.

قال قسورة:

- كما عهناه دوماً.. أتمنى أن يعود سودان سريعاً ومعه ذلك الطبيب.

حثَّ شرحبيل جواده على التقدم:

- أنت من وافقته على هذا يا قسورة.. وحدك من تقف في جانب سودان دوماً.. ولكن هل فكرت في صعوبات طريق العودة؟ إن فلول الروم يتوجهون شمالاً، وقد يقع ما لا تحمد عقباه هناك.

- وماذا ترى يا شرحبيل؟ إن كانت حياة أميرك في خطرٍ، فلم لا تذهب وتُنجدُه؟

زوجةٌ من الحنق جابت صدره جراء كلمات قسورة اللاذعة. صاح قسورة:

- من يُريد منكم التطوع للذهاب شمالاً لتأمين طريق الأمير سودان، فليتقدم تحت راية شرحبيل الكلبي..

اكفهر وجهه وهو يُتابع حديث قسورة الذي أصبح أقل حدّة:

- قدْ هم إلى الشمال أيها الأمير، ولا تعد إلا ومعك سودان.

اقترب منه هامساً:

- وتذكر يا شرحبيل أني أيضاً من أتيت بالأغبى معنا، رغم رأي سودان وابن هشام لا يخرج الطاعون من الأرض التي ظهر فيها.

مضى قسورة بين الرجال، تاركاً رفيقه في بحر لجي من الأفكار. سيد الحرب.. نعم هو سيدها، فلطالما اختار أن يخوض غمار المعارك بينما يبحث الآخرون عن الأمان. كان يجد ضالته في قلب المعارك، لا في أحضان النساء. مررت بذنه مشاهد متالية لحياته الراخمة،وها هو ذا النصر الأخير يمنه المجد. أصاب قلبه سهم من عجب، فاستعاد بالله من الغرور، ونفض كل ذلك عن رأسه. لو لا موت الطبيب أبي موسى لما ذهب سودان، ولو لا حرق مخزن المؤن في حصارهم لنابولي، لما ذهب سودان. أشفق على سودان من أن يقول الناس إنه ترك الأغلى للموت، ثم يصدقون أنه من أرسله إلى البرج يوم المعركة. يعرف صديقه جيداً، سودان المهيّب الذي قادهم لانتصاراتٍ عديدة، ولم يترك يوماً جريحاً خلفه، لم يتخل عن الأغبى، رغم خروجه عن طاعة أميره، واتخاذه قرار الهجوم دون مشورة من أحدٍ. حث فرسه للانطلاق لمقدمة المسيرة، غير ملتقطٍ للصيحات التي تنتي عليه بالنجابة والفتنة وحسن القيادة. هؤلاء الرجال قضوا شهوراً بعيداً عن زوجاتهم وأطفالهم ودفعوا بيوتهم، وأخيراً هم أولاء يعودون حاملين لواء الكرامة، وستظل تلك البقعة شاهدة على مرور جيش باري فوقها.

في اللحظة التي هو فيها لوريزو بسيفه على رأس أخيه، كان سيف سودان يتقيه بسيفه الدمشقي. دوى الصليل، وجحظت عيون الحاضرين. كراس لم يتخيّل يوماً أن أخيه قد يهم بقتله. لوريزو أخذ الجنون، فرفع سيفه مهاجماً سودان، في مبارزة انتهت في ثوانٍ، إذ مال سودان جانبًا، وأمسك برسغ لوريزو وضربه بمقبض السيف في وجهه. سقط لوريزو وصرخت ماريا:

- أبي.

ركضت نحو أبيها المتأوه، فاحتضنته، وتعلّقت إليه بهلعٍ. قطعت من ذيل ثوبها خرقٌ ضغطت بها أنفه النازف..

- أبي؛ هل أنت بخير؟..

رمقها بغضٍ دون أن ينطق. لقد أهدرت كرامته مرتين أمام الأقنان. تأمل سودان مشهدهما في حزنٍ، ثم أشار لرجاله بأن الأمر انتهى، وعليهم الرحيل. استقبل الغابة، وولاهما ظهره، وفي نفس اللحظة أنته صرختها وشهقات الحضور. استدار بسرعةٍ، ليجد ماريا بقبضة أبيها، وقد التفت يده حول جسدها، بينما نصل سيفه على عنقها. كان لوريزو ينظر إليه بمقتٍ، وقد لوّثت الدماء شاربه ولحيته البيضاء، فبدأ كوحش مفترس قام للتوّ عن صيده. تجمّد كل بمكانه، وتردد تساؤلٌ واحدٌ: هل سيقتل الأب ابنته، لينتقم ممن هزمه؟!

كادت ماريا تفقد عيدها، مصدومة مما يفعل أبوها، وسودان متجمد في مكانه، غير مصدق لما يحدث، وكذلك حال أهل القرية. نزل عن فرسه، وخطا في حذر نحو لورينزو، الذي صرخ:

- توقف عندك أيها الوثني الذي.. إن اقتربت خطوة أخرى سأذبحها أمام عينيك.

عقد سودان حاجبيه..

- هل أقول لك اتركها أو ستدفع الثمن غاليا؟ إنها هي الثمن الغالي أيها الدوق. إنها ابنتك!
بصوتٍ يفيض بالحنق رد لورينزو:

- بل فقدت وريثي في الحرب، وكل شقاء العمر قد انها.. لتكن تلك الخاطئة قربانا للرب في سبيل هزيمتكم. سلبتكم أرضنا وفلذات أكبادنا، وتريد أن تسلب ابنتي مني.. لن أتركها لك.

ضغط بسيفه أكثر على رقبة ابنته، التي ارتجفت منتخبة غير مصدقةٍ حديث أبيها. أحرق فزعها فؤاد سودان، الذي كان عاجزاً عن فعل شيء، حتى انسابت قطراتٌ من دمائها على عنقها، وقد غرس سن السيف في جلدها. بدا واضحاً أن لورينزو جاذٌ فيما يقول..

- لن أرحل دونها.

- إذن ستموت معها.

قالت ماريا وقد تملك منها النحيب:

- أرجوك، ارحل يا سودان!

صرخ بها:

- لن أرحل من دونك يا ماريا.

أجهشت بالبكاء وقد ازداد عنقها أحمراراً، وصوت لورينزو يخترق أذنها:

- أنت من أردت هذا أيها الكافر.

رفع يده بالسيف، ولكن سودان صرخ فيه:

- توقف.. سرحد، فلا تؤذ ابنتك..

تحرّك للخلف بضع خطوات، ثم امتنع الفرس وعيشه لا تفارقان ماريا الشاحبة. لكن فرسه وانطلق ورجاله، وعيناً كراس لا تفارقان ماريا التي ما زالت بين برائين أبيها. كان سودان يلکز الفرس مسرعاً أكثر وأكثر، حاملاً في جوفه بركاناً يغور ولا يجد سبيلاً للافجار. أحس بالهزيمة لأول مرة في حياته، وتجدد في حلقة مذاق الانكسار، الذي لم يعرفه إلا يوم أكلت النار زوجته وابنه. لم يكونوا قد ابتعدوا عن سان فيلي كثيراً، حين دوّت صرخة مرؤعة ترددت في أرجاء الغابة!

كان يركض ويركض، ويكلز الفرس للاسراع مبتعداً عن جرح غائر تركه خلفه. فوضى عارمة اجتاحت جوارحه، وألمه أن يراه رجاله على هذا الحال. انتبه إلى أحدهما ينبهه أن هناك أثراً لخيولٍ مرّت من مكانهم هذا.. عشرون حصاناً على الأقل. قال سودان:

- لقد مرَّ جيشُ بنفينتو بالقرية منذ يومين.

- لا يا سيدي، هذه آثارٌ جديدةٌ، لم تمض عليها ساعات.

لامامه الخاوية لم تتبدل، وهو يقول:

- علينا توخي الحذر.

حلَّ الظلام سريعاً بفعل الغيم الكثيف، فمنهم ستراً خلف جذوع الأشجار، حيث وقف سودان يُراقب القرية القريبة، التي أحاطت بمساعل كثيرة، بينما انتشر الجنُّ داخلها وحولها، وبعضهم يُقيم المتاريس الخشبية بمساعدةِ القرويين. تناهى إلى مسامعهم صوتُ خيولٍ تقترب، ومن مكانهم حيث تربض الظلال، رأوا مجموعةً من الفرسان يحملون رايات دوقةٍ بنفينتو يمرون إلى القرية. تساعد عساكر سودان عما صار لجيشه، وإذا ما كان قسورة قد عاد بالجيش إلى باري سالماً. ظل في مكانه حتى جاءه صوتُ كاراس:

- إنهم يتحصنون بالقرية.. أستطيع أن أذهب إلى هناك وأسألهم عما يحدث، فلن تكون أخبار لوريينزو قد وصلتهم.

- بل سنمضي في طريقنا إلى باري.

- ولكن هذه القرية بها المعبر الوحيد للنهر..

- سنمضي في طريقنا إلى الجنوب، إن عددهم يتجاوز المائتين، غير الفلاحين.

عبر درب طويل بدا كأن لا نهاية له، كانت القرى بطول ضفة النهر قد تحولت إلى قلاع صغيرةٍ تحوي قوات دوقةٍ بنفينتو. التحصينات تشي بالاستعداد لشيء قادم، والأمور تزداد تعقيداً كلما اقترب من الجنوب. ومع إلحاد كاراس على الذهاب واستطلاع الأمر، رُضخ سودان.

حين وصل الطبيب إلى مدخل القرية، كشيخٍ كبيرٍ منبني جلدتهم، أخذ الجنُّ يتفحصونه برببةٍ. سأله أحدُ رفيقيه:

- أثق يا سيدي أن هذا الطبيب لن يغدر بنا؟

لم يرد سودان. كان يُراقب كاراس الذي تركه الجنُّ يدخل إلى القرية، ثم اختفى بين الأكواخ. مرَّ الوقت ببطءٍ، قبل أن يظهر مجدداً، يُحدّث أحد الرجال، حاملاً جواً قدِيمَاً، خرج به من القرية تودعه تحية الجنُّ.

خلف الربوة، كان سودان ينتظره.

- لقد عدت.

- ما الذي يحدث هناك؟

وضع كاراس الجوال عن ظهره، وأجاب:

- إنهم جند بنفينتو.. يقولون إن مقتلةً عظيمةً حدثت بالجنوب. معركة شرسة انتصر فيها السراسنة.. من رأيناهم على طول الطريق ليسوا سوى فارين من المعركة، يتحصنون بالقرى، خوفاً من قدمو جيش باري.

تردد كاراس قليلاً، ثم أجمع أمره وقال:

- كما أني سمعتهم يقولون إنهم سيرتبون صفوفهم، ويعيدون الهجوم على أنحاء متفرقة من كالابيرا وكمبانيا.

لقد صدق حدس سودان. لكر الفرس وهو يقول:

- هيا، فلنسرع!

سبقهم عبر الغابة، بينما يسأل رفيقاً كاراس:

- ما الذي تحمله في هذا الجوال؟

مد الطبيب يده إلى الجوال وأخرج منه جزرةً:

- لقد حصلتُ على زادٍ للطريق.

الشوق يسبقنا إلى حيث ولدنا، وحيث من رافقونا بدرب الحياة. طالما حلم بالخروج من القرية والمضي بعيداً، لعل زحام روما وشواطئ نابولي ينسيانه رائحة الطين والروث، وأكواخ الطين والأغصان. لكم تبدلت القرية.. البرج الجديد يُطل من فوق هامات الأشجار، والمداخن تتفت بخارها رغم المطر الخفيف. حصانه يسبق رفقاء المسير، ومشاعره مضطربة، وهذا هو ذا يعود ولكنه ليس ذاك الذي رحل. إليساندرو المدلل صار شخصاً جديداً، حصد قدرًا من المجد، ولربما الكثير من الحكمة، والأهم من ذلك زوجة. حدثها طوال الطريق عن القرية، وعن تسکعه مع كازميرو وألبرتو، وكيف كانت حياته قبل أن يخوض الحرب. كاترينا الجميلة منحها الرب ما تمنَّت يوماً، فارسًا شجاعًا لا يهاب الموت، نبيلاً وإن كان قرويًّا. يوم احتضنها شعرت أن روح أبيها بداخله. كان خيار الرحيل معه إلى حيث يعيش صعباً، ولكن لعل إليساندرو هو ملاك الرب ليُجبر خاطرها، والحياة معه تستحق المخاطرة بكل شيء. وضفت أغراضها، وقبلت طلبه بالزواج منها. إليساندرو الجديد، الذي كانت المرأة له تتجسدُ في أنثى لعوب مثل فيولا. صار يكفيه أن ينظر في عيني كاترينا لتزول عنه كل هموم العالم، وتذوب في بحرِ من زرقةٍ لامتناهية، وروح دافئة، أزالت عنه برودة الشهوة وقسوة الحرب.

تعلقت نظرات كاترينا به وقد أشرفا على مدخل القرية، ومن خلفهما درزنة من الرجال يحملون رايته الخاصة: الحمل الذهبي المجنح يتوسط اللون الأحمر. إنه الآن عائدٌ كقائدٍ منه أسقف نابولي التبريكات، كما أنعم عليه سرجيوس بلقب فارس. الوجوه اعترتها الدهشة مع دخول الركب إلى

القرية. أهذا على الحصان الأحمر القوي، في درع جلديةٌ أنيقة، ولحيةٌ وفورةٌ هو نفسه إيلياندرو؟ الذي غادرهم؟! من تلك الجميلة التي تصبحه؟ لم تكن عقول أهل القرية تستوعب كل هذا الزخم، ففي يومين فقط تابعت الأحداث.. بالأمس كانوا يُحاصرُون ذلك العربي، الذي أخذ الطبيب كاراس معه، واليوم يعود إيلياندرو برفقة جمِع من الفرسان وامرأةً! ابتسامة إيلياندرو تلاشت شيئاً فشيئاً وحل محلها التوجس، وهو ينظر في الوجوه البائسة المذهولة. دار بعينيه في المكان، بينما يمر في طريقه إلى الربوة حيث قصر أبيه، وبيت كاترينا متورّة، تُلاحقها نظراتُ القرؤيين غير الودودة، ثم اصطدم بصرها برجل له ابتسامة مقيمة ونظرةً أخافتها، أخذ يحك ذقنه بينما يقف بين قدميه كلب عجوزٌ ينبع على الجياد.

طفلٌ متسخ الملابس راح يركض، حتى سبق كل الأطفال المجتمعين حول الخيول. ارتقى الربوة لاهثاً إلى منزل النبيل لوريينزو، حتى أوفره أحد الخدم بإشارةٍ من يده:

- ما الأمر أيها الفتى؟

بصوتٍ طفولي لاهث أجابه:

- إنه إيلياندرو.. لقد عاد.

تقدم الخادم بضع خطوات محدقاً في الزحام بالقرية، وصوت الطفل يُلاحقه:

- أريد أن أحصل على مكافأة..

داعب الخادم رأس الصبي، واكتفى بمنحة ابتسامةً، قبل أن يدفع الباب منادياً:

- سيدِي.. سيدِي الدوق.. لقد عاد سيدِي إيلياندرو.

كررها مرتين، قبل يأتيه صوت إيلينا، تصيح في فرحةٍ، ثم تُنادي على زوجها، الذي خرج مسرعاً، بنظراتٍ تحمل الشك أمسكه من ذراعه وقال:

- أعد على مسامعي ما قلت!

لم ينتظر حتى يكمل الرجل جملته مرةً أخرى. هرع نحو الباب، وما إن فتحه، حتى وجَد فتاه ينزل عن صهوة جواده القوي. تلاقت عيونهما، فتسلّم لوريينزو في مكانه، وركض إيلياندرو فارتدى بين ذراعي والده. أجهش لوريينزو وهو يتحسس جسد ابنه وشعره ويصيح:

- الشكر للرب.. لقد عدت سالماً يا ولدي.. الشكر للرب، أن أعادك إلى أبيك يا إيلياندرو.

- لقد اشتقت إليك يا أبي.

نطق بها وفيضٌ من المشاعر يموج في قلبه، ثم رأى أمه تدفع الباب صارخةً باسمه، فانسلَّ من ذراعي أبيه، وأقبل عليها يحتضنها، ويدور بها، وهي تبكي وتضحك وتمسك بوجهه بكلتاً يديها غير مصدفة. قبلت وجهه ثم دفعته للخلف برفق تتأمل تفاصيم وجهه:

- اللحية تجعل منك وسيماً.. إيلياندرو لقد صرت رجلاً حقيقياً.

لمحت الفتاة التي نزلت عن الحصان، فبادرها إلیساندرو قبل سؤالها:

- إنها كاترينا، زوجتي يا أمي..

اتسعت عيناهما وهي تفتح ذراعيها، فأشار لكاترينا بالتقدم، فاحتضنتها أمه سعيدةً ضاحكةً:

- بارك الله، كم أنتِ جميلة؛ تذكريني بنفسي حين كنتُ صبيّة..

جاء صوتٌ لوريينزو الصاحك وهو يربت على كتف ابنه:

- أرجو ألا تصبح مثلك في يومٍ من الأيام.

ارتفت صحفات الجميع، قبل أن يقطعها إلیساندرو سائلاً أباًه:

- أين ماري؟

تبدت ملامح والده، وبدا الحزن والأسى على وجه إيلينا. تبادلوا النظرات جمِيعاً، ثم صاح لوريينزو في خدمته:

- ماركوس، رافق الفرسان إلى منزل كاراس للمبيت، وتأكد من تلبية احتياجاتهم. (التفت إلى ابنه) تعال ندخل إلى المنزل يا بني، فهناك قصص كثيرة أنتظركم سمعها منك.

داهمت الدهشة عقل إلیساندرو وهو يرافق أباًه للداخل. ماذا أصاب اخته في غيابه، ولماذا يبيت الرجال في منزل كاراس؟ كانت أمه تتشاغل بالحديث مع كاترينا التي كانت تتأمل تفاصيل المنزل حيث تربى زوجها.

ليت السكين قطعت حلقها ولم ينقدُها سودان. منذ تركها وهي تعيش كدميَّة باردةٍ خاويةٍ من الروح والحياة، مصدومة بخطفها من الحبيب في نفس لحظة الأمل بعد الفراق، ومصدومة في الأب الذي كاد يذبحها دون ذرة شفقة، حتى شَكَّت أنها ابنته، ثم اكتفى بأن رماها في حفرة الجحيم هذه التي يدعون أنها بيت. صرخاتها المكتومة تأبى التوقف بداخل عقلها، تجرها لهاوية الجنون. من يدرِّي، قد يكون الجنون أهون من انتظارِ لِأنْهَا يَةٌ له!

لم يبق في جعبتها الكثير من الصلوات. تمثال العذراء وحصانه الخشبيِّ هما ملجاها في وحدتها القاتلة. خرس لسانها لا يجد كلماتٍ تُعبر عما بها، وبقيت نظراتها راجية لا تتزحزح عن أم المسيح، التي سميت على اسمها، ولطالما قصَّ أبوها عليها رؤيتها مريم البطل تطوف بمنزله يوم ولادتها. ولكنَّه ذبحها. في بعض الأوقات، يمر بقلبهما يقينٌ أن لا مجال للمصادفة في هذه الحياة، وأنَّ الحب لا يخضع للمصادفات، وإنما هو قدرٌ من السماء، أكبر من قدرتنا على الفهم. الأقدارُ وحدها رتبت لقاءهما، وهي لم تملك اختيار القبول والرفض، وإنما غالباً العشق وغلبها، ثم أزهق أبوها آمالها وكاد يُزهق روحها أيضًا.

طرق الباب، فانكمشت، في ركن فراشها وارتعد جسدها. رمقت الباب بتوjos، لكنه انفرج كاشفا عن وجه إلیساندرو. كادت أن تنكره، فقد بدلته تلك الشهور القليلة كثيراً. اقترب منها فانطوت على نفسها أكثر في خوفِ، فوجم. إنها أول مرة في حياته يرى ماريا بهذا الاتكسار المفزع! حاول أن يُحدّثها في مرح، فقال:

- أهذا تستقبلُ الأخْت أخَاها العائد من الحرب؟.. أين الأشواقُ والأحضانُ وثرثرة الفتىَات؟
أجهشت بالبكاء، فارتاع لحالها، واقترب يجلس إلى جوارها..

- ماريا، لم أعهدك هكذا أبداً. هل يستحق أمير باري كل هذا النحيب؟

توقفت عن البكاء فجأةً، واتسعت عيناه.. كيف عرف أنه أمير باري؟ أبوه لم يعرف من هو، ليقص عليه الأمر، فكيف عرف إلیساندرو؟ قال وهو يتأمل ملامحها في أسي:

- لا تندهي يا ماريا، لقد رأيته في ساحة المعركة. إنه فارس لا يُشق له غبار، ورجل حرب من الطراز الأول. بل إن ما أعلمه جيداً، أن من يخوض الحرب بطريقته، لا يتوقف لمجرد هزيمةٍ عابرةٍ.

فتح ذراعيه على اتساعهما، وأضاف ممازحاً:

- مثلّ، تماماً.

تنهد، وربت على كفها، وعيناه مثبتتان عند أثر الجرح في رقبتها..

- أعرف أنك غير مصدقٌ لما أقوله، ولكنها الحقيقة. لقد رأيتُ ما يكفي من الأهوال ليتبدل كل شيءٍ بداخلِي. حين أخبرني أبي عن أمركما، لا أعلم لم تبصِّر لساني ولم أخبره أن من كان عندك هو الأمير سودان الماوري، أمير باري المنتصر.

حرقةٌ تجلت في وجهه بينما يتبع حديثه:

- لقد هُزمنا في الحرب، ومنْ علينا أميرُك بالعفو.. ما كان لأمورٍ عديدةٍ أن تحدث، إلا شيئاً واحداً..
كاترينا.

كانت تتأمل هذه الابتسامة الجديدة على وجهه.. إنه ليس إيلياندرو الذي تعرفه. تابعته بنظرها حين نهض متوجهاً إلى الباب منادياً:

- كاترينا.. هل انضمت إلينا؟!

أطلت من الباب فتاة طيبة الملامة، ابتسامتها الخافتة منحتها سلاماً سري بين عينيهما. اقتربت من فراش ماريا وحيّتها بصوتٍ رقيقٍ هادئٍ:

- كيف حالك ماريا؟.. لطالما كان ذكرك حاضراً في مجلسنا أنا وإليساندرو.

قطّع لهم صوتُ جلبة أتت من خارج الغرفة، فتبادلوا جميعاً النظارات، قبل أن يتحرك إليساندرو ناحية الباب:

- سأعود إليكم بالخبر.

خرج ساحبًا الباب خلفه، ليطبق الصمت على المكان، و الفتاتان تتطلعان إلى بعضهما البعض، قبل أن تجلس كاترينا على طرف الفراش..

- لقد قصت أمك على ما حدث.. ولكن عليك أن تكوني قويةً، كما كنت من قبل؛ هكذا تخيلتك. أن تبقى فتاةً قرويةً لهذا العمر دون زواج، فهو نجاحٌ عصيبٌ، تعجز عنه فتيات المدن مثلّي. أنا أيضًا قابلت حزنًا كثيّرًا يا ماريا، ولكن هذه هي الحياة. من كان يظن أن أقابل أخاك، وأقبل أن أهجر نابولي إلى سان فيلي، بعيدًا عن البحر!.. سيهديك الرب فرحاً بعد حزن.. هكذا فعل معى، فقد منحني المسيح زوجًا يوم اشتدت الأحزان وطنًا بموت أبي.. تأكدي يا أختي الجميلة أن العتمة كلما اشتدت فقد اقترب بزوج ضوءٍ يغشى كل شيءٍ من حولنا.. إنه نورُ المحبة الذي يبقى حتى وإن طال الفراق.

داعبتها بغمزةٍ من عينها وهي تقول:

- يقولون إنَّ أمير باري وسيم.

باغتها جملتها الأخيرة، فابتسمت ماريا وهي تمد يدها إلى كاترينا، التي أمسكت راحتها برفقٍ:

- أعلم أنك موجوعة وأن كل جرح يندمل يترك أثراً.

ضاق صدرُ ماريا فأجهشت بالبكاء:

- إلا جرحي.. لا يندمل.

احتضنتها كاترينا وقد انفجرت باكيّة هي الأخرى، فالفقدان هوّ عظيمٌ، وإن كانت كاترينا قد فقدت أباها بالموت، فمصاب ماريا أكبر، فقد فقدت أباها وهو حي لم يزل يدعى أنه أبوها. يومان مضيا، لم تجد ماريا فيهما من تلقي بهما في أحضانه، تشكو وتبكي. حتى صلواتها الخافتة لم تمنحها دفناً ترجمته. الجدران الباردة كانت تسليباً قوتها؛ أما الآن فأصبح لها من ستقص على مسامعها كل شيء، رحل كاراس وجاءت كاترينا، عينها كانتا تنتظران بامتنان لتمثال العذراء الصغير، لا تدري ما كل هذا الدفء بداخلها رغم برودة الأجواء، لعلها ملاك الرب جاء ليواسيها.. لحظاتٌ مرّت قبل أن ينطahي إلى مسامعهم صوت إيساندرو مع بعض الأصوات المتداخلة، خرجت كاترينا من الغرفة متوجهة إلى حيث يقف زوجها، ربّت على كتفه بخفة:

- هل هناك شيءٌ عزيزي؟

انتظرت أن تأتي الإجابة منه حين استدار، وقد ظهرت خلفه فيولا التي أخذت تتحصل على عينين متقدتين، اقتربت منها دون أن تبالي بوجود لوريينزو وزوجته، أمسكت بأطراف أصابعها خصلات شعر كاترينا التي تراجعت خائفة، وفيولا تطلق لضحكاتها العنان:

- أهذه التي فضلتها عنِّي؟ لا تخافي يا صغيرتي فأنا لا أعضُّ بقدر ما أنا سيئة.

أمسك إيساندرو بكتف فيولا ليبعدها عن زوجته:

- اذهبِي الآن فيولا.. فلا مكان لك هنا.

رمقته بنظرة غاضبة، أدارت بعدها وجهها بالجميع، خرجت كلماتها بصعوبة من بين أسنانها المصطكمة:

- حسناً سأرحل يا إيساندرو.. ولكن حين تأتي لأحضاني مرة أخرى لا تتوقع أن أستقبلك أيها الفارس.

لَوَّحت بيدها لكاترينا لخرج بعدها من المنزل، تركتهم في حيرة من أمرهم حتى وسط تساولات كاترينا، التي تبادلت النظرات مع إيساندرو الذي ابتسم محدثاً إليها:

- ما زال هناك الكثير لأقصه عليك.

يندفع النهر جنوباً عبر مجراه صخري متسع، تطال أمواجه تلك القنطرة الرومانية الرمادية القديمة. العبور عليها يثير التساؤل عن العبور على الصراط؛ فمن يعبر سيكون مكشوفاً لتلك القرية هناك على مرمى البصر، والمقامة على أنقاض مدينة قديمة، وقد أسدلت على أعمالتها الضخمة ببارق تجمع بين اللونين الأحمر والأبيض، وخنزير بينفينتو البري يتوسطها في تحدٍ. كان على سودان ورفاقه عبور النهر، وأي اشتباك دموي سيخرسه حتماً، قبع مع ركبته الصغير مختلفين عن الآثار، يُحاولون التفكير في سبيل، حتى اتسعت عيناً كاراس فجأة وهو يُحدق باتجاه القرية. التفتوا في اتجاه نظره، فلم يروا شيئاً، فسألته سودان:

- ماذا هناك؟

- أقسم أنني رأيتُ رايتكم السوداء بين جذوع الأشجار.

أطال سودان النظر إلى حيث أشار كاراس، يبدو أن الرجل قد شاخ وضعف بصره، لكنه أرهف السمع لدمدمة راحت تعلو أكثر، ثم ظهر الخيال يُكبّرون منقضين على القرية، وثلاثة من جنود بنفينتو، يُهربون هرباً عابرين القنطرة باتجاه سودان ورفاقه، الذين خرجوا من مكمنهم شاهرين سيفهم، بينما وقف كاراس بعيداً ممسكاً بعنان الأحصنة. تعثر أحد الثلاثة، بينما وقف رفيقاً رافعين أيديهما لأعلى:

- لقد استسلمنا، لا تقتلونا!

ألقوا سيفهم وركعوا، ومن خلفهم تقدمت مجموعة من الفرسان، وقادهم يصبح فرحاً:

- لقد وجדنا الأمير سودان.

سمعه من بعيد شرحبيل الكلبي، فركض فوق الجسر شاهراً سيفه مخضباً بالدماء. أقبل عليهم مبتسمًا، فابتسم سودان، ولكنه بسرعة عاد يسأل:

- ما الذي جاء بك إلى تلك الألحاء يا شرحبيل؟

- كما ترى سيدتي، جئنا في الوقت المناسب.

رفع سيفه ليضرب الجندي المتعثر، ولكن سودان صاح به:
- توقف!

توقف السيف على بُعد شعرةٍ من صدر الجندي، الذي صاقت عيناه في فزع وتوقف لسانه عن تردّيد الصلوات الملتئمة. نظرة استغراب على وجه شرحبيل، رد عليها سودان بـ«سُؤاله»:

- منذ متى نقتل الأسرى والجرحى يا كلبي؟

أزاح سيف شرحبيل بعيداً عن صدر الرجل، وتابع:

- هل من أسرى أو جرحى بالقرية؟

بقي شرحبيل لبرهه صامتاً، يقبض على سيفه بأصابع متتشحة، ثم أطلق زفراً وأجاب:

- لم ينج أحد.

وجوه الأسرى الثلاثة كانت باهسةً، أطّل سودان النّظر بها، قبل أن يُوجّه سؤاله باللاتينية لذكـ
ـ المــعــثــرــ:

- ما اسمك؟

- دانیال.. سیدی.

- حسناً دانيال.. من قائد جيشكم؟

- دوق ماركوس، الشقيق غير الشرعي للدوق إديلكي دوق بنفينتو.

- يُعجبني وضوحك.. المقبولون على الموت قليلاً ما يكذبون.

قالها سَوْدَان بِصُوتٍ هَادِئٍ، قَبْلَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى شَرْحَبِيلِ:

- أطلق سراحهم..

لم يبال بنظرات شرحبيل المترتعج مما يحدث، بينما تهلكت أسارير الرجال. جاء كاراس من بين الأشجار ساحباً الخيول الثلاثة:

- سيدى الأمير سَوْدَان.. هذا الذى تعثر ساقه تنزفُ، وسيفقدُها إن ذهبَ الان.

استدار له سودان عاقدا حاجيـه، فتـاعـم الطـيـ حـديـه:

- جرحه ليس خطيراً، ولكن إن لم تُعالج سريعاً، ستُتسرّر الساق كلها. دعنى أعالجه، ولنذهب بعدها.

- انته سر يعا اذن، فالطريقة، لم ينزل طويلا!

التفت لش رحيل متحدثاً بالعربية:

- كم عدد حال معاي

- سیعون فارسَ

قرب اسوار القرية توقف سودان. فاجأه الخراب والدماء في كل مكان. أخذ يُحصي القتلى من الجن، لم يكن عددهم يتجاوز العشرين، بين كثير من القتلى القرويين. ما كان على شرحبيل أن يقتل الأبرياء، الذين لم يحملوا السلاح. أمر الجن بدفن الموتى، ثم اختلى بشرحبيل، فأمسك بتلابيبه قائلاً:

- أتقتل القرويين يا شرحبيل؟! لماذا فعلت؟

تمتم شرحبيل بخفةٍ:

- والله لن أقول لك إلا ما قاله هارون لموسى.. "إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الأَعْدَاءِ" .. لقد قاموا علينا بعد معركتنا مع جند بنفيتو.

أفلته سودان:

- ادخر أذارك ليوم القيمة.. لم تكن سيوفنا لتتلطخ بدماء الأبرياء..

كان شرحبيل يستشيط غضباً، لكنه، عدل من هنادمه وسار خلف سودان متحسساً مقبض سيفه، وسأل:

- هل سنلحق بالجيش العائد إلى باري؟

- لا، بل سنذهب شمالاً. هناك عدة قرى يتحصن بها جنود الدوق ماركوس، وسنذهب في أثره، فبقاؤه في تلك الأحياء سيجعله يعيد الكراة.

- ولكن جيش بنفيتو مهزوم، وقد أُبْيِد أكثره وما تبقى ليس سوى شرذمة قليلة..

- أنتِ من تقول ذلك أيها القائد؟! إن بقى للعدو جيوب مثل هذه، ستصرِّب فيما بعد حصوناً وقلاعاً منيعة، وإنهم لعقبان على حيوتهم، سباع في حصونهم، إن رأوا فرصة سانحة انتهزوها، وإن كانت لهم الغلبة فهم ضباع شرسة. فلنكن المبادرين، قبل أن تنمو شوكة في ظهورنا.

توقف، وابتسم إليه:

- أتعلم لم أطلق سراح الأسرى الثلاثة؟

- لماذا؟

- ليخبروا ماركوس بما أصاب أهل القرية. ستكون حملةً سريعةً، مع مزيدٍ من الغائم لك ولرجالك..

فكَّر شرحبيل للحظةٍ، ثم قال:

- الشتاء سيدأهمنا إن أطلنا البقاء في الشمال.. والجنود يطمحون للعوده إلى باري.

- لا تقلق، ستدفعهم الغائم.

فاجأه الرد. لم يفهم شرحبيل ما بداخل سودان، فلم يعهد فيه هذا الفكر من قبل. تابعه وهو يمضي بين الرجال يربت على أكتافهم، وبداخله قد نبتت برأعم بغض لأميره لم تكن من قبل. كان سودان قد عزم على إرسال كراس جنوباً مع رفيقي سفره، على أن يبقى هو على رأس فرقة شرحبيل لتطهير القرى الشمالية من الجنود الفارين، إلى أن تطاقدماه أرض سان فيلي مرة أخرى.

خلال أيام، راحت الشائعات المرعبة تنتشر بين القرى. السراسنة يفتكون بمن يقف في طريقهم، وقصص المخالب النحاسية والآتیاب الحديدية تُورق مضاجع الصغار والكبار، والخوف يُحيط بالأکواخ والأبدان، إذ على مسيرة نهار منهم هناك أميرٌ دموي لا يعرف الرحمة، حمّمات فرسه لهب، وضربات قوامها زلزال، وأنفاسها كخارٌ تنين يزار، قد اكتسب جلدًا الأبيض حمرةً من دماء ضحاياه. سبعون فارسًا خاضوا معركتين، وقضوا مضجع الدوق ماركوس حيث يُعسكر بما تبقى من قواته.

سودان المنتصر يخوضُ حربه الخاصة.. حرب من أجل الحب. الطريق إلى سان فيلي خلا من العوائق، إذ يهجر الناس قراهم ويتجهون شمالاً قبل أن يصل إليهم. يحملون متابعهم، وقصصاً لم تحدث، قرية تلو الأخرى، بعد معركتين لم يستسلم فيها جند بنفينتو وقاتلوا ببسالة، فقتلوا. "من أجلك ماريا"، تتمم بها سودان وهو يخوضُ بفرسه في النهر. المياه الباردة حثّت الخيل على الإسراع للخروج للضفة المقابلة من الرافد. سيحل الليل قريباً، وعليهم أن يُخيّموا للراحة والتحرك مع ضوء الفجر الأول. نصبوا المعسكر، وأشعلوا النيران، وزوّدت فرق من الكشافة والحراس الليليين، بينما تطلق من آن لهم النوم حول النيران.

كانت ليلةً صافيةً، والقمر يُنير رؤوس الأشجار، أثارت الذكرى في نفسه، حتى كاد سودان يرى شعيب يسلخ الطبيعة، وبيريسيباي يجهز النيران ولا يكفي عن الحديث. دار ببصره في جنده الذين ططعوا مع شرحبيل للبحث عنه. سوف يتبدل حالهم مع كثرة المغامن التي يحملونها من القرى الخاوية من أهلها. صوت أبي المغوار يلح بتأنيه ويقض مضجعه. أو لعله صوت ضميره النافر مما يفعل. مرّ طيفها أمام القمر، فتجاهل كل ذلك الضجيج في رأسه. عليه نجتها.. يُكرر لنفسه أن كل شيء سيكون على ما يرام، ولكن روحه ققة تأبى التصديق.

مع خيط النهار الأول، أيقظه شرحبيل. صلوا ثم ركبوا الجياد متوجهين إلى حيث البلدة التي يتحصن بها الدوق ماركوس. معركة أخيرة، يعودون بعدها إلى دفء منازلهم في باري. الفرسان يحبون القتال تحت إمرة سودان. له حكمة ولطف، ويملك من الدهاء والمكر ما يمكنه من الفوز بكل معاركه. يأمل الكثير منهم أن من يكون بقرب الأمير يحظى بالكثير، لذا فهم يمضون معه إلى حيث يريد، حتى إن قادهم إلى رومية.

ومع انتصار النهار، كانوا على مشارف بلدة فوجيبا، التي تعد الحصن الأول لدولية بنفينتو، وعندها تنتهي مقاطعة كمبانيا. كانت تقع فوق تلة صخرية ولها أسوار حجرية ضخمة. الأرض جرداء حول البلدة، يشقها طريقٌ مرصوفٌ. سبعون فارساً هم كل ما يملك من المحاربين، وعليه الدخول إلى الحصن الصغير قبل الليل. دار بعينيه في المكان يتفحصه، حتى أتاه صوت شرحبيل:

- ما جديد الأوامر سيد القائد.

- مر الرجال أن يجمعوا كل الأغصان والخشائش الجافة!

ومع غروب الشمس، خرجوا من بين الأشجار، في صفوفٍ متاليةٍ، يضربون الأرض بأقدامهم، ويُمسكون مشاعل بيدهم وبالأخرى دروعاً مستديرة، مشاة لا يعتمرون خوذات، ثم الفرسان حاملو

الرياح، ودروعهم البراقة تعكس ضوء المشاعل. والصفوف تتولى على الظهور من بين الأشجار. منهم مغيب الشمس ظلاً مُخيفة، ومن فتحة برج البوابة الوحيدة كان الجنود يُراقبون الأعداد الغيرة، ويُدركون أنه حصارٌ نهايته الموت والوباء مثلاً أصاب نابولي على يد عدوهم هذا نفسه، والذي لا يعرف الرحمة. زاخت الأ بصار، وأمسى ماركوس وقادته متهمين بالتبني في كل هذه الكوارث.

وبينما جند بنفينتو يتهمون بضرورة الاستسلام، كان شرحبيل يشهد بعقرية سودان الحربية. بعض الدمى من الأغصان والقش تمتطي الجياد، فيما يسحبها الخيالة المترجلون، ثم التحرك بعد الشفق، فيتضاعف عدد قواته في أعين العدو. سبعة صنوف، في كل صف عشرون محارباً، هي فرقية عظيمة راحت تتقدم ببطء نحو الأسوار، وسودان يحسب خطوات الرجال، الذين وثقوا به وبخطته وتقموا نحو الحصن، حتى صاروا في مرمى سهام جند بنفينتو، الذي لم يرموا إلى الآن، ثم رُفعت فوق البوابة راية بيضاء.

كان عليه المخاطرة، وقد نجحت خطته تماماً كما أراد. لحظاتٌ عصيبةٌ كانت تفصله عن الفشل. رأى شرحبيل في وجهه عجب وفخر المنتصر. كان يضحك وهو يشير إلى راية بيضاء تدلّت من فوق البوابة التي راحت تنفرج مصدرةٍ صريراً قوياً. داخل الحصن، كانت الجثث متاثرة، تشي بمقاتل الجند مع النبلاء. لقد كادوا أن يفكوا بالدوق، الذي توسط بضعة رجال بقوا معه للنهاية.

دخل سودان الحصن دون خوفٍ، وخلفه كان شرحبيل ومجموعات من المشاة خفي في الدروع. احنت ظهور القرويين واضعين وجوههم البائسة للأرض، بينما المتمردون يقفون دون أسلحتهم، وبعضهم شرع في خلع الدرع عن صدره ليُحنّي كما يفعل أهله. لكن ماركوس كان يقف بين رجاله، يُشهرون سيفهم في وجه الجميع. تقدم شرحبيل نحوهم، محدثاً باللاتينية:

- لقد انتهى الأمر أيها الدوق ماركوس..

كاد صدر جواده يلامس سيف الرجال القصيرة، وراكبه يتابع الحديث:

- أقوا أسلحتكم، ولا داعي للمزيد من الدماء في سبيل لا شيء.

تردد الرجال وتبادلوا النظارات. ثم أقوا أسلحتهم تباعاً. ماركوس كان خائفاً غاضباً، أراد أن يصرخ ويسبهم. الكل تخلى عنه، الجندي أو لا ثم حرسه الخاص. ساد الصمت لبرهة، ثم وكر سودان مطية لتتقدم حتى توصلت الساحة..

- انهضوا.. والله ما جئنا لقتلكم، ولكن جئنا من أجل هذا.

كان يُشير ناحية ماركوس، الذي حملق فيهم في هلي:

- أيها الأمير. أنا دوق أستطيع فداء نفسي بما تريده من ذهب وفضة و..

صاحب سودان: أصمت.. هل قتل الرسل يجعلك تفوز بالحرب؟ هل انتصرت حين غدرت؟

- كان عدواً محارباً.

- انتهت الحرب وجاءك بالسلام.. سألك أن تعود أدرجك، فالحرب انتهت، ولا مزيد من الدماء سُرّاق.. أنت أبيت ذلك.

- لكل قائدٍ معطياتٍ أيها الأمير.. ولا يُحاكم قائدٌ من قبل آخر ، فميزان العدل لا يملكه الأمراء.

ساد الصمتُ مِرَّةً أخرى إلا من بكاءٍ رضيعٍ، حتى قطعه سودان:

- أتُعرفُ، لا جدوى من الحديث معك. أنت اخترت الحرب ونحن سئمناك النهاية.. امنحوه سيفاً ليقاتل كالرجال، وأختر من شئت لمبارزته، إن فزت ترحل.. وتذكر نصيحة أمير باري لك أيها الدوق: لا تخوض معركة خاسرةٍ!

النقط ماركوس السيف وهو يرتعش من الغل:

- أختارك أنت يا أمير باري.

لم يتردد سودان. ترجل عن فرسه، وتقدم بخطواتٍ واثقةٍ نحو ماركوس. ما إن أصبح على مسافة منه، ألقاه بخنجر استله من حزامه، وفاجأ الجميع بتوقف يده بجوار رأس ماركوس، الذي شهق غير مصدق. لم يُصبِّه الخنجر، بل قتله صوتُ سودان الساخر:

- أما نصحك الأميرُ إلا تخوض حرباً خاسرةً؟!.. ولأن ميزان العدل لا يملكه الأمراء، فسأترك أهل البلدة ورجالك يُقررون مصيرك.

أحسن رجل سودان استقبال كاراس. إنه نفسه الذي جاءه بالهدية مسبقاً. كان لطيفاً معه، وأمر الرجال بمساعدته. كان كاراس يتحدث كثيراً، واكتفى قسورة بالاستماع، دون أن يظهر عليه أثرٌ لما يُثيره حديث كاراس في نفسه من قلقٍ.

- أتعلم سيدتي أن ذلك الجندي من بنفينتو، ذاك الذي أطلق سراحه الأمير سودان، لو عاد إلى قريته جريحاً لبُرت ساقه، بدلاً من أن تعالج؟

أخذ يثثر عن حكاية رجل ظل يُعاني المما برأسه لأيام، وحين زاره القس قال إن بداخله شيطاناً يجب إخراجه، وجيء بالرجل فربط إلى منضدةٍ أحاطت بالشمعون، وتلا القس صلوات غفران وتبريكات قبل أن يرسم بسكينه صليبياً في رأس الرجل، فانفجرت الدماء وارتاع أهل المريض، ولكن لا بأس إن كان ذلك سيشفيه ويمنحه بركات الرب. وبعيدٍ مخصوصٍ بالدماء، راح القس يحشو الجرح بالملح، فامتزج لون الدماء ببياض الملح، والرجل يصرخ ويصرخ من الألم، والقس يصبح: أخرج أيها الملعون من رأسه..

- وهل خرج الشيطان من رأسه؟

ضحك كاراس قائلاً:

- بل روح المسكين هي التي خرجت. مات المسكين، فصاح الأب أن الشيطان قد خرج، وأن الميت حصل على الخلاص.

ضحك قسورة، وحزن في نفس الوقت، ولم يُعلق. أخذ يُراقب عمل كاراس، الذي أفرغ الدماميل

والفروح التي انتشرت بجسد الأغلي ورجاله، واستخدم دهانًا من المُر والزيت وبعض الأعشاب على الجروح، ولكنه لم ير أن رفيقه يتحسن، وشك في جدو ما يفعله هذا الطبيب العجوز.

لاحت باري بالأفق. جيشها المنتصر يعود إلى قاعدته، والجنود يتذفرون من بوابة المدينة، وبينهم تسير عربات الغنائم والجرحى، وعلى متن إحداها كان كاراس يسترجع ذكرى أيامه في صقلية. باري ذات الحسن والنور، والأبراج الضخمة والسور الكبير المزدان بالنقوش، والمئذنة الشاهقة لا مثيل لها في بلاد الروم. الأعمدة الرومانية القديمة زينت براياتٍ خضراء، نُقشت عليها كلماتٌ عربية. لجمالها في بلاد الروم. ابتسمت براياتٍ خضراء، نُقشت عليها كلماتٌ عربية. تزاحم الناسُ يُهللون ويُكبرون، والجيش يتقدم إلى ساحة القصبة، وبعض الجنود يخرجون عن الركب فيختلسون الأحضان مع ذويهم، والأطفال فوق الرؤوس يلوحون للفرسان. حاملو البيارق يتقدمون المسير، وسط أمطار من الزهور تلقّيها فتياتٍ يحتاجن بنوافذ خشبية، ويلوحن بسعف النخل. موكب نصر، تتبعه عيونٌ وقلوبٌ فرحةً. وعنده بوابة الحصن، وقف أبو المغوار مع بعض كبراء المدينة، وقد احتفت ابتسامته حين لم ير الهجان تتقدم المسير، بل قسورة من يتقدم الجيش ممتطياً حصاناً أصحاب لا يليق بأمير، ومن خلفه مجموعات القادة.

رفع قسورة يده مشيراً لرجاله، فصاح أحد الرجال بصوتٍ جهوريٍّ: "توقفوا"، فثبت الجميع. ترجل عن حصانه في زهوٍ وقال:

- ها قد عدنا بالنصر.

هلل الرجالُ يُرحبون بقسورة وجنته، ثم سحبه أبو المغوار من يده جانبًا هامسًا:

- أين الأمير سودان؟

جاءت ابتسامة قسورة غريبةً وهو يقول:

- لقد أرسلت لك برسالةٍ مع الخصي كارلو. يبدو أن شيئاً ما أصابه في الطريق.. سأقص عليك كل شيء..

لم يك قسورة يتم كلماته، حتى احتضنته مجموعة الأيدي الصغيرة، وراح ثلاثة من أطفاله يمسكون بساقه وينادونه. احتضنهم ضاحكاً:

- عذرًا سيدى.. العائلة.

أخذ يداعب الأطفال ويحملهم، بعدهما أعطى الإشارة للجند بالعودة لمنازلهم. راقبه أبو المغوار وهو يتجه نحو ثلات نسوة يقفن قرب دار قسورة بالحصن، وكل واحدةٍ منها تحمل رضيعاً. ابتسם أبو المغوار وعقله يُحدثه: "قسورة رجلٌ أُوتى ما في الدنيا، وأسأل الله أن يُؤتِيه الجنة في الآخرة".

من مهجعها، كانت رملةٌ تُراقب ما يحدث في الساحة. أطفالها يقفون قرب مدخل القصبة ينتظرون سودان، الذي غاب عن المشهد، فثار قلقها. رغم أنها قضت الليل تتخذ قرارها بعدم الذهاب لاستقباله، فإنها مضت تتلاصص من نافذة حجرتها، تبحث عنه بين القادة والجنود، ولكن لا أثر له، وحتى الفرس البيضاء لم تعد.. رأت أبو المغوار يتحدث مع طفلها، ثم أمسك بأيديهما متوجهاً إلى القصر.

"لقد بقي ليوم من مؤخرة الجيش.. سيعود خلال أيام؛ لا تقلقاً"، جملة رسمت بذهن طفلٍ شعيب.
عاد مع أبي المغوار إلى القصر حاملين الأسى. في نهاية الرواق، كانت رملة تقف، وخلفها جاريتان
توقفتا عن الهمس مع رؤيتها للفاضي. كان أبو المغوار ذا هيبةً ووقاراً، يُبجله الناس قبل أن
يخافوه، ويسمعون عنه قصصاً كثيرةً، فهو الوزير الأكبر والقاضي الفقيه. كانت عيناها تفيضان
بالقلق، يستطيع أن يرى هذا جيداً، رغم حاجتها للأبيض. أفلت الطفلين على مقربةٍ منها: اذها إلى
أمكما. سار الطفلان منكسين رأسيهما. منذ أن رحل سودان لا يكفان عن ذكر سيرته. رأتهما ذات يوم
يلعبان في الباحة، وعلى يمسك شيئاً من خشب، ويقص على مسامع أخيه الصغير قصة خيالية عن
بطولة الأمير سودان. أمرت الجاريتين بأخذ الطفلين إلى غرفتهما، وما إن رحلوا سالت أبا المغوار:
- لماذا لم يعد الأمير مع الجيش؟

- سيعود.. لقد عمد إلى مطاردة فلول جيش بنفيت.

- متى سيكون لي الإ Bhar لإ قريطيش؟

حدقها بلطفٍ وهو يُخرج لفافةً صغيرةً من حزامه:

- أظن أن أخاك قادم إلى باري في القريب. سيقضي الشتاء هنا، ويحضر احتفالات النصر..

عقدت حاجبيها وهي تلتقط الرسالة. طالعتها بصمتٍ وأبا المغوار يستكمّل حديثه:

- يا بنיתי، عليك بالتفكير فيما اقترحه عليك من قبل..

أومأت برأسها قبل أن تستأنفه في الانصراف. حثت الخطى نحو غرفتها، وقد تملك الغضب منها...
هذا الأمر إذن يا أبا المغوار. سيأتي أخي ليتم كل شيء بموافقته. لن أتزوج من قتل زوجي، ولا أحد
يمكّنه إجباري على هذه الزيجة. اتقد وجهاها خجلاً وهي تتذكر قلقها من عدم عودته منذ دقائق
مضت. أخذت تحاول بعث طيف شعيب في عقلها، ولكن الذكرى أبت أن تأتيها بلامحه. زحام من
الكلمات والأحاديث عن فوائد زيجتها من سودان، خليط من السياسة والصفقات التي ستكون هي
جزءاً من ثمنها. كل من اقترب من سودان مات. القاضي العجوز رد عليها تلك الكلمة قائلاً: "ما زلتُ
حيّاً برغم أنني الأقرب إليه". أنهكتها التفكير وشردت عن النافذة، تطالع السحب البعيدة وشمس باري
الغاربة.

قرب جدول المياه القادم من الجبل، كانت ماريا تجلس بجوار كاترينا، التي أصرّت على أن تخرج
معها إلى الشمس الدافئة التي تفترش السهل المنخفض. أخذت كاترينا تحكي عن نابولي وأبيها، عن
الحب وال الحرب، كل ما مررت به خلال سنوات عمرها. كانت ماريا تحاول أن تنصت إليها، لكن عقلها
في وادٍ بعيدٍ. ما زال أبوها لا يتحدث معها، ولم يُخبره إيساندرو بأن محبوبها هو أمير باري. رفعت
عينيها إلى كاترينا.. لقد استطاعت أن تبدل أحاساها؛ إنها قوية. انتبهت على ذكر السراسنة، فاسترسلت
كاترينا:

- منذ وعيت على هذه الدنيا وأنا أراهم في جنبات نابولي. أغبطهم يقطنون خانات قرب الميناء، يأتون

لنايولي في الصيف، تجارةً وبحارةً. حين تطا قدم قائدٍ منهم أرض المدينة، يهرع النبلاء كالقطط نحو وليمةٍ من السمك، ليروا ما يمكنهم كسبه من ورائهم. سمعت يوماً إحدى النساء ممن يعملن في خانٍ يستأجره السراسنة في إقامتهم، تقول إن ملابس العربي تبقى عطرة حتى بعد غسلها مراتٍ، فهم يعشقون العطر القوي. لقد عشنا أمداً من الدهر في سلام معهم، وتعودت على مظهرهم يجوبون طرقات نابولي. كثيرٌ من فتياتنا رحلن مع الجندي إلى صقلية والأندلس.

بعث حديث كاترينا في نفسها ذكرى عمها كاراس، وقصصه التي لا تنتهي أبداً عن السراسنة.

- كلنا بشرٌ على كل حال. ذات مرة، حدثتني الأم تيريزا عن راهبة هربت مع بحار عربي، وبعض صديقاتي قالوا إنها اعتنق دينه الوثنى، وبهذا سترحم من الملكوت. حينها سألتَّ الأباً ماتوييل عن السراسنة ودينهم، فقال لي إنهم أبناء هاجر، وأنهم يحكمون العالم الآن. لقد رأيتُ أسطول الأغالبة العربي بعينيَّ يبحر قبالة نابولي.. سفناً كالجبال، لا مثيل لها.. أخشابٌ قويةٌ ومجاديف عملاقة؛ عند الغروب تظنينهم طپوراً عملاقةٌ تطفو في الأفق. الدوق سيرجيوس ومن قبله أبوه تصالحوا معهم على الجزية، التي تحصل أغلبها من التجار وأصحاب الخانات. ولكن كل شيءٍ يتبدل مع الحرب.. حصاد الحرب خرابٌ وقتلٌ وتشريد البشر. إنهم يتحاربون وفق أهوائهم، لا من أجل إيمانهم، أعني هؤلاء النبلاء والأمراء والبابا الجديد في روما.. ولا يدفع ثمن حماقاتهم سوى العامة.

- عرفتُ الآن كيف تغير إيساندرو.

ضحك كاترينا قائلةً:

- إن استطعتِ أنتِ أيضاً ترويض ذلك العربي، سيعود حتماً.

تبعدت ملامح ماريا، تحمسست عنقها قائلةً بأسى:

- هل تعتقدين أنه سيعود؟

- إن أحبك سيعود.. مهما كلفه الأمر.. إن الرجل لا يكف عن المحاولة؛ إن أراد شيئاً سعى له.

حديث كاترينا كان شمعة أمل في غابةٍ مظلمةٍ تصارع الرياح لتبقى. لكن أنت الريح سريعاً في صورة ضحكات فيولا، تقف على مقربيَّ منها وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة. اقتربت منها:

- سمعتُ حديثكما عن الرجال والسراسنة، ولكن يبدو أنكم لا تعلمون شيئاً عن الرجال.

رمقها كاترينا ممتعضةً بينما أغضبت ماريا عينيها، لا تُريد أن تراها:

- كُفي عن صفاتك يا فيولا!

- صفاقة! لقد أردتُ أن أدلُّ بدلوي فيما تحدثان، فصديقتك من نابولي لا تعرف أن السراسنة يختتنون. الأم تيريزا أيضاً تقول إن عضو أحدهم كحبة الفاصولياء..

كانت فيولا وقحةً لأبعد مدى، فصدم الفتاتين فجورُ حديثها. أمسكت ماريا بيد رفيقتها، وسحبتها نحو التلة دون أن تنطقا بكلمةٍ، فتبعتهما ضحكات فيولا التي اعتبرتها غضبٌ ومقتٌ لهما:

- لا تنتظروا بالحياة، الرجال يتزوجون القديسات، ولكنهم يفضلون العاهرات.
كل يوم تبغضهم فيولا أكثر. تركها الدوق، وفقدت فرصة الزواج من إيلياندرو، وصارت مجرد عاهرة القرية.

ازدحمت الكنيسة الصغيرة بأهل سان فيلي، على غير العادة. لم يأتوا لسماع عظة الأب ليو الرتيبة، بل كان الفضول لرؤيه إيلياندرو عن قرب هو ما يحركهم. أقفت كاترينا صاحبتهما بالخروج إلى الكنيسة معها، لعل نفسها تصفو بمنفحة الرب. بدأت العظة، واندمجت ماريا في صلواتها، لكن كاترينا قاطعتها لتسألاها عن سbastian الذي يتبعها بوقاحةً منذ أن وطئت قدماها القرية، حتى صارت تخافه. أخبرتها ماريا أن سbastian كان حطاباً ثم أصبح صاحب حانةٍ ولديه الكثير من العاهرات أتى بهن من روما، ثم أغضبت عينيها وعادت لصلاتها. بعد الصلاة، انفضَّ الجمع، ولم يسمعوا حكاياتِ منوا أنفسهم بسماعها من إيلياندرو، لكن بدا جلياً أنه تغير كثيراً. اختلى إيلياندرو بالقس، فاعتذر له عما بدر منه سابقاً. حديث لم يتوقع الأب ليو أن يسمعه يوماً من ذلك الفتى. وبينما يتحدثان دخل فتى يصيح:

- هناك جنود يقتربون من بوابة القرية..

منذ أسابيع مرَّ الجيشُ من هنا، والآن لم يعد منه سوى أربعة رجال. قرب المذبح المُضاء بالشمع، وقف الأب ليو صامتاً إلى جوار لورينزو ووالده، وقبل أن يتخذوا أي قرار، فتح باب الكنيسة، ليدخل أربعة رجال لم يستطعوا رؤية وجودهم، حيث ضوء النهار قادمٌ من خلفهم. كان أحدهم هرماً، ويبدو ذلك من مشيته وشعره الفاضي، يتوكأ على ذراع شاب مشوق القوام يمشي بخطى ثابتة، ويرتدون جميعاً الدروع التي تحمل نقش الخنزير البري. قطع الأب ليو الصمت بصوته الرخيم:

- هل نستطيع مساعدتكم أيها الفرسان؟

ابتسامةً شاحبةً رسمت على وجه كبيرهم، الذي قال بصوتٍ يحمل الأسى:

- نحن كل من تبقى من نبلاء جيش بنفينتو.. إن السراسنة قريبون جداً من هنا.. والدوق ماركوس أسيرٌ لديهم.

اتسعت عينا لورينزو وهو يتقدم ماداً يده للرجل:

- لا يجهل الدوق سوى قروي جلف.. ولكن هلا قصصت علينا ما حدث.

زاغت عينا الفارس، وراح ينقل بصره بين إيلياندرو ووالده. أحاط الصمت بالقاعة، سكن كل شيء إلا نشرات من غبار تحرك عبر خيوط الضوء، التي نفذت من النوافذ ذات الزجاج الملون. تقدم الرجل بعض خطوات ليقف أمام الصليب الكبير ويوليهم ظهره:

- لقد كنا في طريقنا إلى نابولي، حين أتانا رسولٌ من جيش السراسنة، برسالةٍ تأمرنا بالعودة إلى

بنفينتو، فالحرب انتهت.. ولكن الرسول تطاول على الدوق ماركوس. لقد تحملنا من الإهانة ما يكفي قبل أن يقتله الدوق.

استدار ليواجه المذبح. أطّال النظر بوجه الأب ليو، قبل أن يُكمِل:
- لقد كان من الخطأ قتله.. أعترف بذلك؛ فحين أتى الصبح كان ثلثا الجيش قد تمت إبادته.

كان يعتصر قبضته، في فعلٍ ينم عن غضبه الشديد. ربت الأب ليو على كتفه:
- لا عليك.

تقدَم إليساندرو ليقف قبالة الدوق الأقصر منه طولاً:

- وما الذي يجعلنا نصدق ما تقول أيها النبيل؟

تجهم وجه الفارس، وتوتر رجاله الواقفون قرب الباب. أمسك لورينزو بذراع ولده:
- عذرًا سيدِي، إنه غُرّ لا يعي ما يقول..

قاطعه إليساندرو بصرامةٍ:

- أبي، لقد وثقنا من قبل في دوق آخر، لا نعلم مصيره الآن، فما الذي يجعلنا نثق في بضعة رجالٍ يقولون إن أخاً غير شرعي لصاحب بنفينتو أسيرٌ لدى السراسنة.

صاحب العجوز:

- احفظ لسانك يا فتى.. وإلا قدمته لكلابي على العشاء.

ابتسِم إليساندرو وهو يلتفت في المكان:

- لا أرى هنا سوى بضعة رجال مذعورين. هل تُخبرني بما حدث. لنصدقك أكثر!

تفحصه الرجل، وكأنه يُعيد تقييم أهمية هذا الشاب بين الرجال الكبار الذين جاء يُحدّثهم..

- لقد اجتاحوا كل قرى الجنوب، حتى وصلوا إلى حصن فوجيا. تمرد الجنديون وسلمو الحصن، بعدما أوقعوا الكثير من رجالـي. الخونة.. لقد أمعنوا في إذلانـا، وحين منح أميرـهم الأمان لهم ولأهل القرية، ناشدوه أن يقتـلـنا.

ابتسِم إليساندرو. كان يُفكـرـ في الأمر من ناحيـةـ بعيدـةـ عما يـحـكيـ الرجل.. إنه حـاكـمـ باـعـهـ شـعبـهـ وـطـالـبـواـ بـقـتـلـهـ، فـلـمـاذـاـ؟ـ سـأـلـهـ:

- وكيف هربت من الموت؟

التفت إليه:

- لقد أطلق أميرـ السراسنة سراحـناـ. لا تعجبـواـ، لقد عارضـهـ رجالـهـ، لكنـهـ قالـ لهمـ إنهـ لمـ يـعدـ بـحـاجـةـ لـقـتـلــناـ، بعدـ هـلـاكـ جـيشـناـ بأـكـملـهــ.ـ منـ قـاـومـواـ فيـ فـوـجيـاـ قـطـعـتـ روـسـهـمـ جـمـيـعـاــ.ـ لـقـدـ أـسـرـ الدـوقـ

ماركوس وأرسله إلى باري، في انتظار الفدية التي طلبوها.. نحن ذاهبون لنقل الرسالة إلى الدوق إديلكي في بنفينتو، ولهذا أبقوا على حياتنا.

سؤال إيساندرو:

- هل يعلم ذاك الأمير أنه لم تعد هناك قوات أخرى من بنفينتو في هذه الأثناء؟

- نعم، لقد سمعته يتحدث مع أحد رجاله بأن حصن فوجিযَا هو الأخير. أعتقد أن عليكم الرحيل لبعض الوقت.. ومن ثم العودة.

نظر لورينزو لابنه، لا يدرى كيف صار يتحدث هكذا كقائدٍ خبير، أكثر حكمة ومعرفة بأمور الحرب من أبيه ومن الأب ليو. إيساندرو لم يرد إلا بعد أن أخذ بعضَ الوقت ليتفكر فيما سمع، ثم قال:

- حسناً أيها النبيل، شكرًا لرسالتك.. أتمنى أن تبقى لتحصل على كرم ضيافتك ومؤن رحلتك نحو الشمال.. الأب ليو سيقوم بتلبية متطلباتكم..

وجه لورينزو حديثه لابنه، وهو يشعر بداخله أن الأمر يختلط عليه، وهذا ابنه المدلل أم قادره:

- يا ولدي، أوليس علينا الاحتراز؟

التفت إيساندرو للفارس مرةً أخرى:

- معدرة سيدِي.. هل أحصيت أعدادهم..

- ليسوا بالكثير. لقد استخدموا حيلةً لإيهامنا بكثتهم، بينما عددهم بين السبعين والمائة فارس.

ابتسم إيساندرو وهو ينظر للأب ليو:

- إنها مفرزة على الأرجح. ستعود جنوبًا، ولربما لن يتذكروا حاميَّة في حصن فوجييَا. العرب لا يخوضون الحرب في الثلوج والبرد. الحرب انتهت يا أبي.

مكتبةٌ ضخمةٌ، تحوي لفائف وكتاباتٍ استجلبها من ورافق قرطبة وبغداد، ومنضدة تزاحت عليها الأغراض، وعمامة زرقاء.. حامل شموع من الفضة، محبرة، ورسائل حملت عبر بحر الروم إليه. كان يجلس قبالة النافذة. ضوء الشمس غمر وجهه ذا التجاعيد، وشعره المنسدل إلى كتفيه يقطر زيتاً. أزال عصابة عينه الأخرى، وأمسك إحدى الرسائل يطالعها.. ابنته الكبرى انتقلت إلى دمشق، وصار لديها صبية ثلاثة. رحلوا عن مصر حين أعلن ابن طولون نفسه سلطاناً، يدين للعباسيين بداعٍ من فوق المنابر فقط. انشغل خلفاء بنى العباس بالترف واللهو. يقلب الرقة تلو الأخرى، وعقله يبحث إمكانية حدوث وحدةٍ بين إقريطش وباري. زواج رملةٍ من سودان سيممنح الإمارتين رباطاً قوياً، وقد يأتي يومٌ يرث فيه ابن سودان ملكهما، أو يرث شعيب بن عمر ملك زوج أخته. عليهما أن يتوحدا قبل فوات الأوان، فإن أرض الإسلام تفتت، ولا بد أن يبزغ من يواصل الطريق

ويحفظ التغور البعيدة. جال بخاطره في ماضٍ بعيدٍ.. مدينة سوسة على الجانب الآخر من البحر، حيث نشأ. رحلة طويلة قضاها في تلك الدنيا، أمست لحظاتٌ عابرةً تمر بعقله بين الحين والآخر. أنهكته الحروب وإدارة شؤون الإمارة. حتى حربه الأخيرة في ساليرنو، لم يحظ فيها بما تمنى. تحسس ظهره الذي عاد يولمه مرةً أخرى مغمضاً: لقد هرمت يا سليمان. التقط رقعة، وأزاح عنها ختمها الأحمر، وانهمك في القراءة حتى قطعها صوتُ خادمه:

- سيدِي، الأمير قسورة يُريد مقابلتك.

دخل قسورة باسم الوجه، يرفل في ثيابِ أنيقةٍ:

- كيف حالك اليوم سيدِي القاضي؟

- بخير.. اجلس يا قسورة!

لملم قسورة طرف ردائِه وهو يجلس قبالة أبي المغوار:

- هل من أخبارِ جديدةٍ عن الأمير سودان؟

- لا جديد.. ولكن أظنه سيكون هنا خلال أيامٍ. في الحقيقة، أنا لا أقلق على سودان سوى من نفسه، أما الأعداء فهو كفيلٌ بجيشهِ منهم.

سكت قليلاً، وفكَّر أن من الأفضل أن يغلق الحديث عن سودان..

- حدثي الرجال عن المعركة الشرسة التي قدمتها أنت، وكيف أظهرت شجاعةً وبراعةً منقطعة النظير..

- لم أفعل سوى ما يجب علىِ فعله.. لم أحارب وحدي، لقد كان معي جيشٌ كبيرٌ، ولا يجب أن يُنسب ذلك المجد لي وحدي..

- التاريخ لا يذكر سوى القادة النجباء يا قسورة.. كيف حال الأغلبيِّ اليوم؟

- ذلك الطبيب الرومي أصر أن يبقى هو ورجاله عندَه، ليتولى رعايتهم، ولتكونوا بعيدين عن أهليهم حتى لا يتفشى المرض.

نهض أبو المغوار حاملاً بعض الرقع، راح يرصها في المكتبة الكبيرة:

- ما رأيك فيما يفعل سودان، وتلك القرارات التي لا يُنصلٌ فيها لأحد؟

لم يستطع الثبات على قراره بإغلاق الحديث عن سودان. يمكنه الوثوق بقسورة وسماع رأيه. عدل قسورة من وضع خنجر أبي المغوار على الطاولة:

- إنه يقوم بما يجب على القائد فعله سيدِي.. قد لا يُنصلٌ فيها لأحد.. عاتقه أمورنا جميعاً..

التفت إليه أبو المغوار:

- لقد تحدثت مع ذلك الطبيب الرومي الليلة الماضية. أظن أن هناك أشياء عديدة لم تذكرها لي.

عقد قسورة حاجبيه، بينما أخذ أبو المغوار يُكمِّل:

- أعلم أن سَوْدَان يخوض معركته الخاصة الآن.. إنه يأبى الهزيمة والتراجع كما عهده دوماً. أذكر يوم كان شاباً يافعاً، لم يستطع الأغلبي أن يهزمه، رغم الفارق الجسدي بينهما. حفنة من تراب جعلت الأخير يتراجع، قبل أن يركله سَوْدَان بصدره ليسقط أرضاً. وحين فتح الأغلبي عينيه، كان سن رمح سَوْدَان يلامس رقبته. إن سَوْدَان يملك إرادة وعزيمة لا يملكها أحدٌ منكم، وللهذا اخترته للقيادة بعد الأمير مفرق. إنه يُجيد تدبر أموره، ولكنه كذلك يكتسب كل يوم المزيد من الأعداء والمتابعين. ماذا لو لم يعد سَوْدَان من معركته الخاصة؟

أطال قسورة النظر إلى وجه أبي المغوار، لا يفهم ما يقصد العجوز. باعترافه أبو المغوار:

- قد يعود سَوْدَان آخر من تلك الرحلة. وكما قلت لك، لا أخشى شيئاً عليه سوى نفسه. ما يجعلني مطمئناً يا قسورة أنك إلى جواره. وإن لم يعد، فعليك أن تتجهز لزواجه الرابع.

اتسعت عيناً قسورة.. فاجأه ما يقوله العجوز، الذي تابع في هدوءٍ حاسِّمٍ:

- يومان ويصل الأمير شعيب الأول، أمير إقريطش. إنه شقيق الأميرة رملة، سيأتي ليحضر احتفالات النصر، وسيبقى معنا طوال الشتاء. لقد أرسلت الهدايا لحلفائنا ولولاة الجنوب في برندizi وتارتنت وجميع حصون كالابير، ليعلم الروم أن إمارة باري قوة لا يُستهان بها، وأننا أسياد الحرب.

غمغم قسورة:

- احتفالات النصر!

- إن للعدو عيوناً بين ظهورنا، يجب أن يروا ما نريدهم أن يروه..

ليلةً طويلةً وريح شديدةً، وبرودةً جعلت أهل سان فيلي يأوون إلى أكواخهم مبكرين. حانة سباستيان خاوية منذ أمس، فالجميع مشغولون باتمام بناء الأسوار، ينامون مبكراً ويستيقظون مع الشروق للعمل. تجرّع ما بكأسه دفعه واحدة.. تجساً، ثم انفجر في الضحك. رقمه كلبه وقد انتصبت أدناه دون أن يرفع رأسه. أصاب صاحبه الجنون. كان سباستيان يشتهرى النظر لتلك الفتنة من نابولي. رغم تخطيه الخمسين، إلا أنه يُفضل الياغفات. زوجته هجرته منذ زمن بعيد، ورحلت مع طفله إلى روما، وعاش كحطاب لا يُغيره أهل القرية أي اهتمام. يبغضهم جميعاً. الليلالي الباردة تقسو فيها الوحدة، وكل فلاح وضياع هنا ينعم بدفء زوجته، إلا هو. صبّ كأساً أخرى. نخبًا للدوّق ماركيزيو، الذي منحه من الأموال ما جعله يفتح ذلك الماخور. كان سعيداً بباب رزقه الجديد، إذ يحصل على أموال القرويين، وعلى صحبة في الليل. لكن الحانة خاوية مرة أخرى، وفيولا لم تعد تأتى لترزوره. يعلم أنها تشمئز منه، ولكنها تحتاج للمال.. لم تعد هي الأخرى كما كانت، صارت أكثر عدائيةً منذ حل ملاك نابولي بالقرية، وتبدل حال إيساندرو. حق هو إيساندرو، فزوجته قديسة دائمة الذهاب إلى الكنيسة، جميلة نضرة، يحبها العامة ويبجلها الأطفال.

- اللعنة على فيولا.. وإيساندرو.. وأبيه.. اللعنة على كل أهل سان فيلي

تمتم بلعاته وهو يجر قدميه إلى خارج الحانة. الهواء البارد لف وجهه وهو يسير نحو الأشجار، ويتحطى بوابة لم يكتمل بناؤها. توقف قرب شجرة كبيرة، فلَك إزاره وأنزل سرواله ليتبول على جذع الشجرة، وأغمض عينيه يتذكر كاترينا، و.... كتمت أنفاسه يد غليظة، تبعتها عصابة عين التفت سريعا حول رأسه. حاول التملص، ولكن أيادي عديدة أمسكت به وحملته..

حظ عاشر وليلة لا قمر فيها. أقي سباستيان أرضاً، فحاول النهوض، فدفعه أحد الرجال ليسقط مرة أخرى. أصابه الهلع، وراح يطلق هممات مكتومة بفعل الرباط. صوت مهيب حدثه باللاتينية:

- لن تصاب بمكروه إن أنت لي جيداً.

أشار سودان لأحد الرجال، فأزال الغمامه عن عيني سباستيان. على ضوء المشاعل متراقصة اللهب، رأى فرسان السراسنة في دروعهم الخفيفه، على جياد قوية. حظت عيناه وهو يدير عينيه بهم. انتخب في أسي، قبل أن يأتيه صوت أحدهم:

- لا تولول كما النساء يا هذا.. لن يصيبك مكروه، إذا تعاونت معنا.

رفع وجهه متأنلاً شرحبيل الكلبي. كان يمسك بمشعل ويقف بالقرب منه.. أشقر اللحية، عيناه الزرقاواني مكتحلتان، تقدم من جانبه الآخر سودان، فالتفت العجوز بتوجس، تحول لهلع حين رأى وجهه. يعرفه جيداً.. يذكر يوم كان يسير في القرية مع الطبيب كاراس.. ويوم حاصره مع النبيل لورينزو عند البحيرة.. دنا منه سودان:

- أعتقد أنك اكتفيت من التأمل في وجوهنا. الآن أخبرناكم عدد الجنود في القرية؟

تعرق سباستيان وانتفض حين رأى شرحبيل يمسك بخنجر، ويقترب منه حتى لامس خده بالنصل، قبل أن يقطع كمامه الفم. تنفس الصعداء، وسودان يقول بصرامة:

- لا يعيقك شيء عن الحديث الآن.

منذ لحظاتٍ كان يظن أنه أسير الخمر؛ ولكنه أيقن حين نزع اللجام عن فمه أن ما يحدث حقيقة. بصوت مرتعِّد تحدث:

- أرجوكم لا تقتلوني.. أنا سأنفذ كل شيء تأمرون به.. ليس هناك حرس للقرية، وجنود بنيتيتو رحلوا أمس. لا أدرى ما حدث بينهم وبين النبيل لورينزو، أقسم لكم.. منذ عاد إليساندرو من الحرب أصبح الكل يعمل من أجل القرية لإتمام بنائها وكفى.. سمعت أنه يريد الانتهاء من كل شيء، ومن ثم يعين الجندي والحراس.

ربط سباستيان إلى شجرة، وتبعهم وهو يمتطون خيولهم باتجاه القرية، فابتسم وعيناه تحملقان في المشاعل التي راحت تبتعد.. احتفوا عن الأنظار، وتركوه وحيداً في غياوب الغابة المظلمة، وما هو إلا أقل القليل من الوقت، وتناثرت إلى مسامعه صيحات وصرائح.

وقع حوافر الخيل وصيحات الجندي أصابت القرية بالذعر. أحكم الجندي السيطرة على القرية في لحظاتٍ. سحب إليساندرو سيفه، وركض عبر الرواق، وسط هلع زوجته وتسلات أمها. فتح الباب، فوجد الجياد تنفس أنفاسها وقوائمها تضرب الأرض دون توقف، وأباه يقف فزعاً. أمسك بكتف ابنه الذي

يقبض على سيفه شاهراً إياه في وجوه الفرسان، وقال له:

- ألقِ سيفك يا بُني!

غضَّ إيساندرو على شفتيه وهو يرمي الخيالة في تحدٍ. كانت كاترينا تشهد باكيَّةً، والأم الواهنة تقف ضامنةً كفيها فوق قلبها لا تنبس بكلمة، وحتى ماريا خرجت من عزلتها، لتقف خلف أبيها الذي تحدث باللاتينية:

- لسنا قوم حرب. خذوا ما تُريدون، وارحلوا دون أن يتأنَّى أحد.. أرجوكم!

دفع إيساندرو أباه بقوَّةٍ رافضاً ما يقول. كان يشعر بأن الإهانة تُغرقه، فال موقف ليس هزيمة حرب، بل هو أشبه بهجمة لصوص على داره ونسائه. بدا كمن فقد عقله وهو يركض صارخاً نحو الفرسان، خطوات فقط كانت تفصل بينه وبين أقرب جواد، حين افتش عن الناظرون لصوت سوط طويل التف حول عنق إيساندرو، فخرَّ على ركبتيه متلماً، مكفهراً وجهه وقد انتفخت العروق برقبته. حاول النهوض، فجذب شرحبيل السوط ليُسقطه أرضاً مرةً أخرى:

- ليس هناك مجال للبطولة يا رجل.. الأبطال لا يموتون بالحمامة.

هرع لورينزو نحو ابنه المُلقى أرضاً:

- أتوسل إليكم.. لا تقتلوه، إنه ابنِي..

أرخي شرحبيل السوط، ليحرر الأب ابنه، ويحتضنه باكيًّا، والفرسان يتراجلون، ويحيطون المنزل. أمر أحدهم النساء بالخروج، فركضن نحو رجلهما، وقد انفجرت دموع كاترينا وهي ترتمي في صدر زوجها، وأمه تفحصه في هيستيريا وتكرر: أنت بخير يا ولدي.. أو ما برأسيه، وعيناه ترمقان فرسان السراسنة يخرجون من منزله حاملين صندوقين كبيرين يحويان الفضة والذهب. صاح قائدتهم في لورينزو، الذي جحظت عيناه:

- والآن لنتحرك إلى ساحة القرية.

كان لورينزو جاماً. ثروته تضيع أمام عينيه، وابنه مصاب، وهو لا حول له ولا قوة. جرَّوا أقدامهم محاطين بالخيل، وماريا تكذب نفسها، ليسوا هؤلاء قوم سودان. كانت تتلفت كثيراً.. الفرسان ينتشرُون في جنبات القرية، حاملين مشاعل بدت عتمة الليل، وأهل القرية يقفون في صفين محاطين بالجند. في ساحة القرية، كان العدد الأكبر من الخيول الحربية، يقف في صفين متقابلين. دفع أحدهم لورينزو ليُسقط أرضاً على وجهه، فهمَّت إلينا تساعدَه على النهوض، ولكن نظرةً من شرحبيل جعلتها تعدل عن الأمر. غضبت ماريا.. صاحت في وجه شرحبيل بالعربية:

- لقد أخذتم ما تُريدون.. أذهبو واتركونا.. وإلا سأشكُوكم لأميركم سودان.

وعلى ضوء المشاعل، كان الفرسُ الأبيض يتقدم بخطواتٍ من كبرياته. إنها الهجان ودرعها الحربية، تتهادى في خطواتها، وعلى صهوتها سودان رافع الرأس، ثقته تمنح الفرس كمالها. توسط دربًا يُحيط جانبيه فرسانه بمشاعلهم، ولون الفرس الأبيض يتوجه بحمرة اللهب. عرفته منذ الظلة الأولى، فاتسعت عيناه واختلطت مشاعرها، وقد تعلق بصرها به. قبض على عنان الفرس، لتنتوقف أمام لورينزو المُسجى تحت حواجزها. كانت ماريا تُحدق في وجهه، وتنهَّأ بداخلها أحلامً يُستحيل أن تعود كما كانت. رقَّ قلبها لروعتها، ولكنه حافظ على رباطة جأشه.

- ها قد عدت سيد لوريينزو.. ما الذي يمنعني عن قتلك الآن؟

تعلقت العيون بـلوريينزو، الذي نكس رأسه دون أن ينطق بكلمةٍ. فرس سودان التفت نحو ماريا التي رمقتها بنظرةٍ خاويةٍ، وحاولت أن تستجمع قوتها وتترد عن والدها، ولكن الكلمات تخرّت حين فتحت فمها. التفت عيناًهما.. كانت أول مرةٍ يرى عينيها ممتلئتين في لقائه بالحزن والأسى. التفت إلى إيلياندرو، الذي تخطى أبواه بخطواتٍ واهنةً. تذكر سودان أين رأى الصليب الذي وجده في القرية المحترقة. وقف إيلياندرو أمامه: ألم تنتهِ الحرب يا أمير باري؟

نطقها باللاتينية. فهمها الجميع، ورفع أبوه رأسه لينظر في وجه سودان، وإيلياندرو يُكمل:

- ليس لك هنا أي شيء..

صاحب سودان:

- لي كل شيء.. ولن أرحل دونها.

تبادل إيلياندرو النظرات مع أخيه، التي خفضت رأسها وهي تقول بخفةٍ:

- لن أرحل معك يا سودان.. ليس من أمامي الآن هو من ظننت أنني أعرفه.

فوجئ سودان، بينما ابتسם إيلياندرو في عزّةٍ:

- لقد فعلت كل هذا من أجلك.. ذلك الرجل من سلبك مني ووضع سيفه على رقبتك..

- إنه أبي..

لم ترفع نظرها نحوه..

- لن أتركهم يا سودان.. ليس بعد ما فعلته بعائلتي.

- ماريا!

فرّت من ندائها، فتلاقفتها كاترينا بين ذراعيها. أجهشت بالبكاء.. لم تستطع أن تتماسك أكثر من ذلك. انتبهت لصوت إيلياندرو:

- لقد سمعت ما يكفي.. فلترحل في سلام، كما جئتنا أول مرة. حربك هذه المرة خاسرةٌ يا صاحب باري.

كان شرحبيل يفهم ما يدور. انتظر أن يضرب سودان ذلك الشاب بسيفه، ولكنه لم يفعل. كان سودان شارداً مع ماريا وكلماتها. لقد غرست بقلبه رماح الغدر؛ هكذا ظن حين اعتراف الانكسار. لكي فرسه لتتقدم بضع خطوات وهو يُعيد رجاءه عليها:

- تعالى معي إلى باري، ماريا..

لم تُجبه. ظل مكانه، عيناه ترتجوانها، فتدخل شرحبيل محدثاً إياه بالعربية:

- أعطنا الأوامر لنضرب رقابهم ونأتي بها سبيّة تخدمك..

نظرت إليهما في كره، ورمقه سودان بغضٍ:

- مُر الرجال بالانسحاب وترك كل الغائم.

- ماذ؟!

أعاد على مسامعه:

- خذ الرجال وارحلوا، واترك الغائم كما هي.

تردد الرجال قبل أن يخضعوا لأوامره. رأى في أعينهم الحنق لما أكرههم عليه، نقل بصره إلى إيساندرو:

- لو لم تكن تلك المعاهدة قائمةً، لقطعت رأسك يا فتى.. لحرقك أفيليانو.

- إنها الحربُ أيها الأمير.. وكل حرب ضحايا.. ولا ضير من هزيمةٍ بين مجلمل انتصاراتك.

كان الجنود يرحلون تباعًا عن الساحة، وفرس سودان تدور في مكانها، مما جعل إيساندرو يتوتر، وسودان يصبح باللاتينية محدثًا أهل القرية:

- تلك الغائم والأسلاب ملك لكم.. ولن تعود إلى منزل لورينزو مرة أخرى..

سمعته ماريا التي لم تكف عن البكاء، ويد كاترينا تربت على ظهرها. أما هو، فقد كان بداخله بركان أوشك على الانفجار. لم يُظهر الضعف ولن يُظهره.. كان يشعر بأنه يتربع على جسر اليأس، لا يعرف أين يبغضها وقد خذلته، أم يستبقي أملاً ممزوجاً بالدم في صدره:

- تعرفين الطريق يا ماريا.. تعرفين أين تجدينني.

نطقها وهو يلکر الفرس لتنطلق وسط جنده الخارجين من القرية. حين سمعت وقع حوافر الفرس يبتعد، رفعت رأسها تبحث عنه. لم تغادر الصرخة حلقتها، ترددت في جنبات جسدها، وزلزلت روحها زلزالها، ثم سقطت أرضاً.

خذلان المحبوب للعاشق يكاد يُودي به للجنون. لم يفلح المطرُ الخيفُ في إخماد نيرانه، رافقه جريح يأبى الاندماج. هو من قاد الرجال عبر الدروب الوعرة، والعواصف، وخيل تسابق الريح خذلته أمرأة في عودته إلى باري، لم يهتم كثيراً بالرجال الذين تهamsوا عما فيه من ضعفٍ. مرّوا بقرى خاويةٍ على عروشها، تلك التي أبادها رجاله، فحزن ولام نفسه على ما فعله شرحبيل. أقبل الليل فأصرَّ على عدم التوقف، الأمر الذي لم يستسغه الرجال، وهم يختلسون الحديث فيما بينهم أن الأمير لم يف بما وعدهم من غائم وأسلاب. توقف المطر، وهيمانت غيوم حمراء على الأفق، وتهادت الخيول المنهكة على درب العودة إلى باري. تناهى إلى مسامعه حدثهم، فأوقف الفرس بفترة، بينما مرّ شرحبيل نائماً فوق جواده. أشار للجند بالاستمرار في التقدم، وهو يُحدق فيهم بصرامةٍ، فمرَّ الرجال تباعًا حاملين على عواتقهم تللاً من فضولٍ عما أصاب أميرهم..

- توقفوا!

كلمته جعلتهم يذوبون عنان الخيل، ورفع شرحبيل جفنيه بصعوبةٍ، لينظر عن يمينه وشماله قبل أن يلتفت للجند المستمعين لحديث سودان:

- اعلموا أن نصيبيكم من الغائم ستحظون بها كما وعدت. ولكن عليكم أن تبادروا بالتوبة عما افترفته أيديكم. لقد نزعتم الرحمة من قلوبكم، كما ينزع الصوف عن البعير. إنكم أفضل الفرسان وأشجع الرجال، ولكن ليس مكانكم الحرب بعد الآن.. حالما نعود إلى باري، ستسلمون دروعكم وحرابكم إلى القصبة.

لم يعر همهماتهم أي اهتمام، بينما حثّ فرسه للمضي. أفاق شرحبيل من شروده حين مرّ به سودان، فلكل فرسه وهو يصبح بالجند لاستئناف المسير. اقترب من صاحبه يهمس:

- كل هؤلاء ططعوا من أجل اللحاق بك.. تبعوك أنت، وذهبوا معي للبحث عنك، فلا يجب أن يكون هذا جزاءهم.

- إن الأمر يشملك أنت أيضاً يا شرحبيل..

للوهلة الأولى لم يصدق ما سمعه. لطمة أخرى من سودان، الذي صار يتمنع في إخضاعه. لم يكن ذلك عهده به طوال سنوات رافقه فيها. كانت للأمر مراة تسري بصدره، حاول أن يؤجل الحديث حتى العودة إلا باري، إلا أنه لكر مطيته لتسرع قتلياً، فلحق بسودان:

- ما تراه صواباً هو الصواب.. وأحفظ لك عدم البوح بعزلتي أمام الرجال. ولكن أخشى أن الأمر لم يرق لهم..

- لقد رأيت في عيونهم الشبق للقتل في سان فيلي.. همساتهم الخافتة تعلن عن تذمرهم لتركنا الغائم خلفنا.. يقولون إن أميرهم حرمهم من الأسلاك من أجل امرأة.

- لقد جاءوا معك لأجلك فقط..

- بل تبعوني من أجل الغائم، وقد أوجعهم تركها.

- ولكن..

قاطعه سودان:

- فلتكن الاستراحة هنا حتى الصباح.

ليلة هادئة بقلب الغابة، خلد الجميع إلى النوم، بينما أسند سودان ظهره إلى شجرة، وأغمض عينيه يجتر لحظات النهاية. لقد رأى في عيون الجندي حينها نظرة عجيبة تذمره. همساتهم طوال الطريق، أخبرته أن فئة من رجاله قد تمردوا. حاول أن يُزيح الارتياح جانبًا، ولكن حسه يلح عليه أن هناك

من يترصد به. قرر استفزازهم في البداية عزلهم، قبل أن يهمس في أذن تابعه أن هناك عقاباً آخر ينتظرون في باري. نهض ممسكاً بجذوة، أشعلاها من نيران المخيم وابتعد بين الأشجار الكثيفة، ثم توقف محدثاً نفسه:

- هل تكفي هذه المسافة للغدر بي؟! أم نتوغل أكثر، حتى يتنسى لكم قتلي بهدوء؟

ابتلعت الغابةُ كلماته، ليعم السكونُ مرةً أخرى. استدار محدثاً العدم:

- لا داعي للاختباء، أروني وجوهكم؟

مع آخر حروفه، بربوا من خلف الأشجار. سبعة رجال يُشهرون سيوفهم التي تضوی مع ضوء مشعله. ابتسم سودان ساخراً:

- كنت أظنك أكثر من ذلك.. حسناً، فلننهِ الأمر الآن!

لم يتحركوا. كانت الدهشة تتعريهم، كيف علم بأمرهم! تبادلوا النظرات فيما بينهم، يتساءلون إن كان قد أعدّ لهم كميناً.

- هل ستنتظرون كثيراً.. أم تراجعتم عما عزمتم؟

أحسَ الرجال أنهم مقتولون لا محالة، إن لم يقتلوا سودان. انقضَّ عليه رجلان، بينما وقف البقية متحفزين. كان هجومهما سريعاً، ولكن ليس أسرع منه، فسحب سيفه وصد ضربةً أحدهما بمهارةٍ جعلت الآخر يهجم، ولكن سودان ضربه بالجذوة المشتعلة، فتهشمَت على جسده واشتعلت النيرانُ في ملابسه، فراح الرجل يصرخُ ويجري، وينثر النار في الأشجار حوله، بينما كان سودان يُبارز الآخر، ثم انقضَ الآخرون، ستة مقابل واحد. كان يصد ضرباتهم، وقد أزدات شراستهم وعلت صيحاتهم، وهو يثبت بينهم وينحني متفادياً هذا الميركل ذلك، قبل أن يصد سيفه ضربةً من آخر. جذوع الأشجار اشتعلت مع صليل السيوف، وسودان يُحاول إصابتهم، وليس قتلهم، وهم يُقاتلونه في شراسةٍ، فقد غوى أميرهم واستخدم جيشه لا للجهاد بل من أجل امرأةٍ سلبته عقله، حتى إنه يُقر أن يُسرّح ثلاثة من أفضل فرسان جيوشة.

صاروا ثلاثةً لواحد، بينما راح الجرحى يزحفون بعيداً عن النيران التي تمتد بسرعةٍ. ضربةٌ من سودان تفداها أحدهم، ليrikل زميله ساق الأمير الأخرى، وحاول الثالث أن يشج رأس سودان بسيفه، إلا أن الأخير تدرج أرضاً ليطعن فخذ الأول، ولم ينتظِر حتى يسقط الرجل، بل قفز راكلاً صدره في قوةٍ، وما إن اعتدل حتى صدَّ ضربةً من الثاني، ليمنحه هو ضربةٌ على وجهه جدعت أنفه، فسقط الرجل صارخاً. اعتدل سودان وهو يمسح الدماء عن نصل سيفه:

- الآن لم يبق سوى أنا وأنت..

بتر كلمته الأخيرة، حينما رأى شرحبيل يقف ممسكاً برممه. كان يواجهه تماماً، والنيران تحيط بهم من كل مكان. ظهوره جعل سودان يغفل عن ذلك الشخص المُتبقي، واتسعت عيناه حين رأى شرحبيل يوجه الرمح ناحيته.. ثم رمى.

استقر الرمح في صدر الخائن الأخير، الذي كان يقف خلف سودان. لوهلةً أحسَ سودان أن الرمح

كان يستهدف قلبه هو. استدار، ليرى الصريع:

- ظنتُ بك ظن سوءاً يا شرحبيل. لكن ما كان عليك قتله.

انحنى شرحبيل متفحصاً أحدهم:

- الخونة يُقتلون.

سحب خنجره، وكاد أن يجز عنق الجريح، فأمسك سودان يده، ثم طلب منه بكلماتٍ يُقاطعها اللهاش أن يُبعدُ الجريحا عن النيران، وتطيبهم ثم تكبّلهم بالحبال على ظهور الخيل. سُيحاكمون في باري محاكمةً عادلة.

وعلى الطريق إلى باري، تبادل سودان وشرحبيل حديثاً طويلاً.

دخل سودان باري في العشر الأوائل من ذي الحجة، في استقبال يليق بالغازي المنتصر. تحملت الطرق بالرایات والبیارق، وطليت الجدران ببياض تداخلت معه خضرة الأخchan المهدبة، واحتشد الناس يرفعون أصواتهم بالثناء والدعاء. سار الموكب في خيلاء، يتقدمه سودان باهت الوجه، يلوح لفتى صغير فوق كتف أبيه. مضى العمر، وحصلت على ما لا تزيد، ومنع عنك ما أردت.. قسمة عادلة ربما إذا ما نظرنا لحال الآخرين. لقد سلم نفسه لفكرة أن ليس له إلا ما كتب، فهدأ رغم الحزن. دخل القصر تاركاً شرحبيل يقص على مسامع أبي المغوار أمر الخيانة. ناداه أبو المغوار، ولكن سودان مضى دون أن يلتفت قائلاً: سنتحدث لاحقاً. ترك العجوز ذاهلاً، ودخل إلى غرفته وأغلق الباب، فإذا بمواجهته فتاة في غاية الحُسْن من جواريه، وكان وجهها لم يُخلق إلا للإغراء. فاجأه جمالها للحظة، ثم ابتسم لها، وأشار إليها أن تتصرف، ثم ألقى بجسده إلى الفراش.

ثلاثة أيام مررت لم يره فيها أحد، إلا حارساه المتناوبان على بابه. حتى وجباته كانت تتحمل عائدات ولم يُوكِل منها إلا القليل. في فجر اليوم الرابع، خرج في أبيه إطلاةً، لاستقبال شعيب الأول أمير إقريطش، إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي يزور باري. تجول الزائر وصحبه بالقصبة والقصر، ودارت أحاديث لم تخُل من الضحك والترحيب، ثم توجه الضيوف إلى غرفهم ليستريحوا من مشقة السفر، فاختلى أبو المغوار أخيراً بسودان.

- وماذا بعد يا أمير باري؟

نظر إليه سودان بعينين تخلوان من التعبير..

- لقد بسطت باري نفوذها حتى تخوم روما، وربيع الإمارة يُزهر كما ترى. أثق في اختيارك للأميرية رملة، ومقتنع أن الوقت قد آن ليكون لباري حلفاء من إقريطش. لقد دانت لنا كمبانيا وكالابيرا، ودفعت بنفينتو ونابولي جزية سيذكرها أبناءهم أبداً الدهر، فقط لأنهم خانوا الميثاق. إن باري تستحق أن يُصبح لها سلطان كبقية الأمصار..

أو ما أبو المغوار موافقا؛ لكنه تأمله لبرهه ثم قال برصانته المعهودة:

- هذا كله يخص باري.. ماذا عن سودان؟

- ماذاعني؟! هل تريد مني أن أندم على ما فعلت؟ أعلم أن عصافيرك أخبروك بكل شيء حدث. والله لو أعيد الزمن مراراً لاتخذ نفس القرار. الحب في قولك ضعف؛ ولكنني أقول لك هذه المرة إن الحب أقوى من نفوسنا الضعيفة. زواجي من رملة سيتم لصالح الدولة، لكنه لن يكون سوى زواج سياسي، وسأخبر أخاهما أني أوفق على كل شروط الأميرة، حتى لو رغبت في الرحيل معهم إلى إقريطش. يوم النحر سيكون يوم نصر باري، فدعنا نرسل لولاة الأمسكار بخبر النصر والاحتفالات.

كان سودان جديداً تماماً على أبي المغوار، الذي بهت وابتهج واضطرب فهو يعرف سودان جيداً، يُخفي أكثر مما يُفصّح. تمنى القاضي أن الصفحة قد طويت، أو على الأقل لا تفتح قريباً، وباري في ريعان ربيعها، الذي يعرف أن دوامه ليس يسيراً.

(6)

احتاط دفء الشمس بمنازل باري، وتفتحت ورود الربيع بأحواض عُلقت بالشرفات والنوافذ. الصيادون يحملون الشباك على أكتافهم عبر الطرقات، والصغار يلهون بسيوفٍ خشبية فوق الأرضفة، وعربات خشبية يدفعها الغلمان نحو الأسواق. جاء الربيع بعد شتاء قاسٍ وحربٍ أقسى كُللت بالنصر.

بساحة القصبة، جلس ماركو مستنداً إلى الجدار. شاب وسيم أشقر، كان يتابع المارة كزهرة دوار الشمس. راح يتنقل تحت سور العظيم، يلاحق الدفء أينما حل. دوماً يقضي وقت راحته في الجلوس وحيداً، لا يتحدث كثيراً، ولا يُخالط الخدم والموالي. أعتقه الأمير سودان يوم زفافه على

الأميرة رملة، وكفل لها معيشة كريمة وحجرة صغيرة بالقرب من مهجعه. ما زال يخدم في القصر، ووحده من الخدم مسموح له بالولوج إلى الجزء الخاص النساء في القصر.. فلا خوف من خصيّ يخدم الأميرات.

يعشقُ الشمس، وتلهب بحرارتها صدره بالذكرى الوحيدة العالقة به. كان في التاسعة من عمره حين خطفه النخاسون، وارتحلوا به مكبلاً عبر الوديان المغطاة بالثلوج، حتى أتت اللحظة الذي ذبح فيها ذكره بنصل ملتهب، وظل يُعاني لأيام بعدها من الرعب والحمى. باعوه لبحار من البندقية، ثم غرفت السفينة، ليُصبح أسيراً لدى العرب في إقريطش. عامله البعض بسخرية، ولكنَّه في النهاية حظي بحماية ورعاية شعيب، وأصبح خادمه الأمين، وجاء معه إلى باري. ومرة أخرى، وجد نفسه وحيداً بعدما مات شعيب، وتزوجت رملة من سلطان باري، الذي اعتقه. ما زال يحظى بمكانة قوية لدى الأميرة والطفلين، لكنه لم يُحب ذلك الرجل، وكره أن يتزوج بزوجة صاحبه المُتوفى، ولكن المسلمين أموراً عجباً. أيقظه أذان الظهر من غفوته، فرمق المنذنة الشاهقة وذلك الرجل أعلىها يُردد الكلمات داعياً الناس للصلوة. نهض متثاقلاً يجر قدميه نحو القصر، عكس اتجاه سير الجموع. عند الباب الضخم، فوجئ بصاحب الشرطة شرحبيل الكليبي يرمقه وقد عقد حاجبيه الذهبيين قائلاً بصوته الأخش:

- ماركو! إلى أين ذاهب؟

اضطر الفتى لابتسام قبل أن يقول بخفوتٍ:

- ذاهبْ لأساعد مولاي سودان لل موضوع، قبل أن يذهب للصلوة.

- لقد سبقتنا السلطان إلى المسجد منذ حين. عليك أيضاً الذهاب إلى المسجد.. ستراقبتي.

انصاع ماركو لأمر شرحبيل، الذي يمتنع جواده، وراح يركض إلى جانبه. كان مقهوراً منكسرًا، يشعر بحرقةٍ تغزو عينيه، ولكنَّه تماسك. عند باب المسجد الجامع، ترجل شرحبيل ودلف عبر البوابة الضخمة المزينة بالنقوش، وسط ترحيب وابتسamas متسلقة، فتبعد إلى حيث يكتظ المصلون. أقيمت الصلاة، فوقف في آخر الصفوف بين الجموع باحثاً عن الله. لم يكن يرى القدوم إلى هنا.. لم يؤمن يوماً، ولن يؤمن؛ فمن أخصاه كان مسيحيًا ومن استعبده كان مسلماً.

انتهت الصلاة، واجتمع الناس حول سودان والقاضي أبي المغوار، في جلسة قد تطول. تسلل خارجاً في عجلة، وقد حثه عقله على لقاء الأميرة رملة. لقد قرر الرحيل، وسيطلب منها الإذن في ذلك.

- ماركو.. تعال يا فتى!

التفت، فوجد الطبيب كاراس يبتاع بعض الأعشاب من عطار جاءته بضاعةٍ حديثةٍ. كان يُحب ذلك الرجل، ولكنَّ ذلك ليس وقته. توجه ناحيته:

- كيف حالك سيدِي الطبيب؟

- كما ترى.. بصحَّةٍ جيدةٍ، وقدرةٍ عظيمةٍ على الفصال في البضاعة..

تابع مساعدته بينما يضع الأجولة على ظهر الحمار، ثم التفت مرة أخرى إلى ماركو:

- إلى أين تذهب؟

الجميع يسأله إلى أين يذهب. الجميع يقفون في طريقه اليوم. زفر في قتوطٍ، وأجابه وهو يشير للдорب المؤدي للقصبة:

- عائد إلى القلعة.. سأطلب من الأميرة رملة أن تأذن لي بالرحيل.

- الرحيل! إلى أين؟

- روما ربما.. أو البندقية.

- وما سبب ذلك القرار المفاجئ؟

سارا معًا خارجين من السوق..

- لقد سئمت ما أنا فيه، لقد سئمت كوني غلامًا مخصوصًا، لا يخشى على النساء منه.

- هل سيعيدون لك ذكرك في روما أو البندقية؟.. اسمع يا فتى، انظر إلى جيدًا. ليس لي ولد ولا زوجة، وحتى أخي يُغضبني. هل نفعني ذلك الشيء في حياتي؟ ما حدث لك قد حدث.. وله سبب يعلمه رب. ولسبب ما يعلمه رب أيضا، أنت هنا..

- ولكن....

- لا تُقاطع حديثي يا بني.. أعلم ما تشعر به.

- في الحقيقة، أنا لاأشعر بأي شيء.

ضحك كاراس في هدوء..

- أنت ثرثار يا ماركو. قلت لك لا تُقاطعني.. انظر حولك! كل شخص من هؤلاء ينقصه شيء ما؛ لا أحد كامل يا بني. في روما التي تريد الذهاب إليها سيخذلونك عبدًا، أو يفعل بك ما هو أسوأ، ويطوقك الرجال في دبرك.. هل تفهم ذلك يا بني؟

رمقه ماركو بنظرةٍ خاويةٍ:

- أريد أن أذهب إلى مكان لا يعرف فيه أحد عنِّي شيئاً. أن أعمل شخصًا عادي.. أريد الحرية والبعد عن هذه المدينة.. سأطلب منحة صغيرة من الأميرة، وينتهي كل شيء.

سؤاله كاراس، وهو يتفحص انفعاله:

- لماذا لا تطلب من السلطان سودان؟ إنه مالك كل شيء هنا، وهو من بيده الأمر.

صاحب ماركو غاضبًا:

- لن تفهمني.. لن يفهمني أحدكم أبداً.. فقط كل ما أريده الرحيل.

ركض نحو القصر تاركاً الطبيب وقد تفاجأ من رد فعل الفتى وغضبه حين أتى ذكر سودان. كان يُشفق عليه، وجل ما أراده أن يُساعدَه على طرد الوساوس من رأسه. مرّ ماركو في الزحام دون أن يُبالي بما يفعلون، كما لا يُبالي أحد به. يبغض تلك الحياة، ويُبغضهم جميعاً أيّاً كانت ماهيتهم. قادته قدماء إلى حافة الخليج.. الهواء العليل والنوارس وبحر عظيم، أصدقاؤه الذين يعرفون ما يجيش به. يمسح الريح وجهه، فتلحق روحه مع الأجنحة السوداء والبطون البيضاء. تمنى كثيراً أن يصبح في السماء الزرقاء، لا يحط بقدميه على الأرض أبداً، ولا يُخالط أبناء آدم، فلا عدل بينهم. أغضب عينيه وتطاير شعره الأشقر، وهوَّ بآن يُلقي بجسده في الهواء ضارباً الحافة بقدمه، ليحلق للحظات قبل أن يهوي. ليته يثق فيما بعد الموت، إذن ما كان ليتردد. رفع عينيه إلى شباكها.. هي فقط من تمنحه الصبر للحياة. عيناها هما الحب والحنو في هذا الكون. وهي الآن قد صارت زوجة شخصٍ يُبغضه.. شخصٍ يهابه الجميع، ويخشأه العرب والعجم..

ما عاش حرّاً من اتخذت الذكريات روحه مأوى لها. يظن الجرحى أنهم لن ينسوا أبداً، وسيمضون العمر يتلون آيات الرثاء في محراب حب غاب، ثم يصدّمهم الواقع بأمور تفرض عليهم، فيستذكرون ويرفضون ولكنهم يسيرون مع السائرين. ظلت رملة لا تفارق غرفتها وطفليها، بعد أن زوجت من أمير باري، وأقيم حفل تحاكي به النّاس لأسابيع، ومن ناحيته، لم يتعرض لها سودان حتى مضت شهورٌ على الزواج ولم يمسسها. الطفلان هما من صارا لا يُفارقان مجلسه، يقربهما منه ويسنحهما رعايته، ويحبهما. لكنه لم يحبها ولم تحبه.

أفاقت من شرودها على ثرثرة الوصيفات عن بلادهن وحياتها قبل وقوعهن في أيدي النخاسين اليهود، وروياتهن عن الحب في بلادهن البعيدة. كثيراتٌ منها لا يشتقن إلى الأوطان القديمة، بل إن بعضهن خضن رحلات قاسية وسلمن أنفسهن إلى النخاسين بملء إرادتهن، بشرط بيعهن في قرطبة أو نابولي أو باري، حيث الرغد.. الغناء.. وشراب اللبن المحلي بالعسل، أفضل ما في الحياة. حكايات عشقهن لجند القصبة تصيّبها بالخوف. قصص قتل الأمير خلفون ومن بعده مفرق تبعث فيها رجفة. وحده ماركو من تأمينه وتأمن على طفليها معه، فقد كان شعيب يأتمنه ويعامله كابن. لقد أغاره سودان من خدمتها دون أن يرجع إليها يستأنفها. لم تفهم لم فعل هذا.. غضبٌ؛ ولكن بقاءه بالقصر جعلها تسكّت.

دخلت إليها جارية تُخبرها:

- ماركو الصقلبي يطلب من الأميرة الحديث. يقول إن لديه شيئاً مهمّاً.

نالت منها الدهشة، فقد كان منذ لحظات يجول بخيالها. انفضَّ مجلسُ الجواري بإشارة منها، واعتذلت في جلستها وسحبَت لثماً رقيقاً من خلف ظهرها، وانتظرت حتى وضعت إحدى الفتيات عباءتها الزرقاء المخمليّة على كتفيها، ثم أذنت له بالدخول. دخل ماركو يضع عينيه بالأرض وقد مال بجزعه قليلاً، وفوجئت بالحارس غليظ الملامح يدخل وراءه. لقد كان أسمراً الوجه كث اللحية، ضخم الجثة، كلفه سودان بحراسة جناح النساء، وأشارت رملة للفتيات فخرجن مسرعات، فتحدثت

ماركو:

- مولاتي.. أريد الإذن بالرحيل من هنا.

صُعقت من جملته. عيناها تفحصتا وجه الحارس في توتر، قبل أن تنقل بصرها إلى ماركو، الذي تابع:

- لم يعد لي مكان في باري أو إقريطش..

لماذا يريد الشاب أن يرحل؟! تذكر يوم أتى به شعيب في إقريطش.. كان في الثانية عشرة من عمره، لا يفارق عينيه الدمع. سبع سنوات مرّت، شاهدته يكبر فيها أمام ناظريها، وعاملته كأنه ابنها البكر، والأخ الناضج الذي يرعى طفلتها. صوت الصغير عمر انتشلها من جمودها، كان يركض إلى الغرفة فاتحًا ذراعيه:

- أمري.

استقبلته بين ذراعيها وهي تقول للحارس بنبرة حازمة:

- اذهب أنت الآن!

رمق الغليظ ماركو بنظرة طويلة قبل أن ينفذ أمرها. خرج، ولم يُغلق الباب، ووقف يُولّيها ظهره عاقدًا ذراعيه أمام صدره. أجلس الصغير بجانبها، فلوّح لماركو، الذي منحه ابتسامة هادئة، ثم عاد ببصره إلى عينيها السوداويّن تأمرانه بالحديث. أشاح بوجهه، فسألته هي بصوّت خافتٍ:

- لماذا تُريد الرحيل يا ماركو؟

حاول أن يُخرج كلماته بثقة، لكنه تلعم:

- أريد الرحيل إلى حيث لا يعلم أحدٌ هوיתי. أريد أن أكون حرًّا.

- وهل كنت عندنا عبدًا؟!

- لا أستطيع البقاء هنا أكثر من هذا.. ولا أستطيع أن....

"السلطان العادل سودان"

جاء صوت الحارس الأجنبي، ليُعلن عن قدوم زوجها. ابتلع الشاب كلماته، واتخذ جانبًا، ودخل سودان إلى الغرفة يرفل في ثوب يتدرج فيه اللون البنّي. كان الفضول يتقاذر على وجهه حين لاحظ ماركو، فنقل بصره إلى رملة، وتوقف بوسط الغرفة وقد هرول عمر نحوه. داعب رأس الفتى بفتور قائلًا:

- هل قطعت حديثكم؟

هم ماركو بالحديث، ولكن رملة كانت الأسبق:

- لقد كان ماركو يطلب الإذن في الرحيل عن باري!

- ولماذا لم يطلب مني الإذن بذلك؟

- الصفاح سيد ي..

نطق بها ماركو في وهن، لكن صوت رملة أتى قوياً:

- إن ماركو ربّب بيتنا - أقصد بيتي القديم - وله مكانة خاصة في حياتنا، كما تعلم يا أمير باري.

أمير باري.. لقب لا تقوله زوجة لزوجها، لكن أشهرّاً مرّت منذ الزواج الصوري ولم يتخطّ حديثهما حد التحية والاطمئنان على الأحوال. كان يزهدّها، وكانت لا تُريد التواجد في مكانٍ هو فيه. استدار له سودان متفحصاً إياه:

- لقد منحتك الحرية في فعل أي شيء، أليس كذلك؟

- بلّي يا سيد ي.

- حسناً، إن أردت الرحيل، فسأمنحك حصاناً قوياً، وزاداً يكفي لرحلتك. لكن لتعلم أن الحياة خارج هذه الأسوار ليست بالسهولة التي تتوقعها. سأمنحك كذلك مقداراً من المال لتبدأ به تجارة ما، أو حرفه تتولى أمرها، فكما قالت زوجتنا الأميرة رملة.. أنت جزء من حياة عمر وعلى.. ولأجل ابني شعيب، سأفعل ما يُسعدّهما دوماً.

حديثه كان مفاجئاً لها ولماركو على حد سواء. لحظاتٌ من الصمت مرّت، قبل أن يرحل الفتى عن الغرفة، وهو يومئي برأسه شاكراً الأمير على ما يُقدمه له من نعم. لم يمكث سودان كثيراً بعده، فكالعادة سألها عن الأحوال، ثم اصطحب الصغير في يده، وانصرف، وبقيت هي مذهولة يتصارع فيها حزنها على ماركو، وتعجبها من تصرف سودان، وغضبها من سلبه سيادتها على خادمها.

لم يكن سودان أفضل حالاً من رملة. هو أيضاً لم يستطع يوماً تخيل أنها زوجته. كان كلّ منها على شاطئ، يجري بينهما نهر الفقد. زواجهما ظاهره جبل أشم متماسك الأركان، وباطنه ركام من الوجع. صار يقضي وقته بين رجاله في أحاديث الحرب وحكايات البحار، ويوكّل لرفاقه مهام تشغّلهم وتُبقيهم يقظين دوماً، ويتناصي أنه إنسان. يُكرر القاضي العجوز عليه: «الحب داء وكل داء دواء.. دواء الحب النسيان.. ولكي يُنسى عليك أن تحب من جديد». يقول العجوز، ويفكر هو في كلامه.. إن رملة جميلة، وهو لا يُعبّ، ولكن روحّيهما لا تتلاقيان. أبو المغوار لا يُفتعله هذا الكلام، ويحيثه دوماً على الحديث مع رملة والتقارب منها، حتى سنم حديثه، خاصة عندما يلح عليه أن يُنسى الفترة منذ تلك الليلة التي فتح فيها عينيه ليجدّها أمامه، إلى يوم خذلته أمام رجاله. لقد بدأ يرى الأمر بشكل مختلف بعد مرور العاصفة. هو من أهان والدّها وأخاهَا، ورجاله أفزعوا قريبتها بكمالها. لن يشفع له أنه أراد أن يُنقذها من جحيم أبيها حين فعل ذلك.

غمّرت الشمس الأعمدة الرخامية التي تحمل قبة قاعة الحكم المزينة بالفسيفساء والجص، وتدخل اللون الأزرق مع درجات مختلفة من كافة الألوان. وفي القاعة، كان سودان يطالع بعض الأوراق في اهتمام بالغ. نادى الحارس، فانتبه إليه سودان، ثم دخل أبو المغوار ومن خلفه الدوق الأسير، ماركيزيو دي لابورتا. اكتفى سودان برفع عينيه لينظر إليه لحظة، قبل أن يعود لمطالعة الرقة ببيده وهو يقول:

- أرى أنك لم تأت وحدك يا أبي المغوار.

- الدوق ماركيزيو هو من طلب الحضور..

- إن كانت له مظلمة، فلماذا لم يعرضها عليك أيها القاضي الفقيه؟

لم ترق الكلمات لأبى المغوار، الذى أشار للدوق بالتقدير. كان ماركيزيو يشعر بالمهانة المتعتمدة فى أسلوب سودان، الذى باعترف قائلًا:

- بل توقف حيث أنت!

وشت نبرة سودان بأن شيئاً ما يغضبه. قبل أن يسأله أبوالمغوار عما هناك، كان قد ألقى ما في يده ونهض متوجهًا إلى ماركيزيو:

- حسناً، ما الأمر؟

بنبرة هادئة تحدث ماركيزيو:

- لقد انتهت الحرب، ووقعتم معاهدةً مع نابولي مرّة أخرى. انتصرت باري، وعاد الأسرى إلى بنفينتو، بعد أن دفع الدوق إديلكي الجزية. أیحق لي أن أسأل عن سبب وجودي هنا؟

ضاقت عينا سودان وهو يجيبه:

- أنت ضيفنا، كما قلت لك سابقاً.

- عذرًا أيها الأمير؛ ولكن الضيف لا يمكنه البقاء في مكان رغماً عنه.

دار سودان حوله وهو يقول:

- سيد ماركيزيو.. لقد رحل الآخرون لأن هناك من اهتم بأمرهم. حين تحدثنا عنك، كانت إجابة بنى جلدتك مقتضبة للغاية.. "تبادل الأسرى لا يشمل الجباء".

احمر وجهه ماركيزيو..

- لست جباناً.

أومأ سودان برأسه مبتسمًا:

- نعلم ذلك.. فمن يُجنب الناس القتل والسبى ليس بجبان.. ومن يُضحى بكل شيء من أجل إنقاذ رجاله وتهريبهم ليس بجبان؛ أليس كذلك؟! اسمع أيها الدوق.. لم يهتم أحد لامرک، وأظن أن عودتك لبنفينتو أو لومبارديا لن ترضيك وعشيرتك ينظرون إليك هذه النظرة.

غمغم ماركيزيو:

- لقد حاربت بشرف، واستسلمت من أجل الحفاظ على العادة.

- نعلم ذلك، ولكن قومك لا يعلمون. عجب أنهم يرون الاستسلام خزيًا، بينما الهزيمة والتنكيل أمرًا مقبولًا. اسمع أيها الدوق، لقد انتصرنا في معارك عدة، وثبتنا أركان الحكم في كمبانيا وكالابيريا.. وقربياً، ستكون بيارقنا فوق أسوار روما. القائد الحكيم هو من يختار الانحياز الرابع..

بدأ يفهم مغزى سودان، الذي جلس على كرسيه المنحوت بعنایة فائلاً:

- سيد ماركيزيو.. أبواب باري مفتوحة على مصراعيها.. لن يسألك أحد إلى أين أنت ذاهب.. رتب الأمر مع أبي المغوار!

كانت جملته الأخيرة هي نهاية الحديث، ولم يكن الدوق يريد في هذه اللحظة إلا أن ينتهي الكلام ويبدا التفكير الدقيق. دار على عقبه، وتبادل النظرات مع أبي المغوار، ثم اتجه إلى باب القاعة منصراً. تابعه أبو المغوار حتى خروجه من القاعة، ثم تقدم نحو سودان:

- هناك شيء يُزعجك لا أعلم.

لوح سودان بيده:

- طلحة السكندي لن يأتي هذا الربيع إلى باري. كنت أتمنى تنصيبه أميراً للبحر على الأسطول الجديد.

- طلحة لا يُحب أن يكون مقيداً بميناء وأرض. لكن ليس هذا ما يُزعجك.

أشاح سودان ببصره بعيداً، فيما جلس العجوز بالقرب منه:

- عليك أن تُريح عقلك قليلاً يا ولدي. أن تعتاد على واقعك وتمضي في دربك المكتوب عليك كقائد مجاهدٍ. إن الفرصة مواتية لك الآن، ويمكنك أن تفرض شروطك على البابا. لقد قمت بتوزيع المهام والمناصب على رجالك، ولا يرافقني هذا. فقد جعلتهم بين الجندي، بينما ابتعدت أنت وتفرغت لأمور الرعية، بالإضافة إلى المطالعة والشهر على الشاطئ حتى الفجر. إن الحب يقتل الواجب بداخلك يا سودان، وعليك أن تنهي النفس عن الهوى.

زفر سودان ضجراً..

- الهوى أصابني في مقتل يا أبي، داء لا يفحل فيه دواء.

أشفق عليه أبو المغوار وهو يرى انكسار نظرته..

- بل عليك مراجعة نفسك يا بُني، فذلك الكرسي شهوة، ولئن شعر أحد بضعفك، ستكون العاقبة وخيمة.

لم يشأ أبو المغوار أن يطيل في هذا الحديث ذي الشجن، فاستطرد يقول:

- أعجبتني تلك الحصون الجديدة التي أحاطت باري. أقترح أن نمهد الطرق عبر كمبانيا كلها، حتى نيسر على الجندي والقوافل المسير..

نهض سودان متثاقلاً:

- ما تراه صواباً أفعله يا أبي المغوار.. سأذهب لأرتاح قليلاً.

- كيف حال رملة والأطفال؟

باغت السؤال سودان، فتوقف عن المسير، والتفت عاقدا حاجبيه:

- ذلك الفتى ماركو.. أهو أهل للثقة؟

- لا أثق في الخصيـان.. وعليك ألا تفعل!

أوما سودان برأسه:

- حسناً.. امنحه عملاً في المـرفـأ، أو مكاناً بالسوق يبيع فيه أي شيء. لا أريد رؤيته في الدار بعد اليوم. وذلك الدوق؛ لا تجعله يذهب الآن!

- باري اليوم غير باري الأمس.

كان قسورة يقف أعلى الحصن الغربي الجديد، مراقباً الحقول والغابات الممتدة حتى الأفق. التلال الصغيرة لا تحجب باري الممتدة على الساحل تحت أشعة الشمس، تبعد عنها عدة فراسخ قلعة جديدة أمر سودان ببنائها، ضمن سلسلة من القلاع تحمي ربوة كمبانيا وكالابيرا. إلى جانبه كان يقف ابنه الصغير محمد فرحاً برحلته مع أبيه، وقسورة يُراقبه مبتسمًا، ويذكر نفسه حين كان صغيراً.. ابن المؤذن، الذي أتى وحيداً ليعمل نجاراً في دار صناعة السفن. وقتها كانت باري مختلفة عما هي عليه الآن. كان أبو المغوار إذا أخطأ أحدهم يُعاقبه بأن يرتدِي أسمالاً بالية ويخرج إلى ساحة القلعة، ولبسه الصقيق تعلمه ألا يكرر الخطأ. وها هم أولاء الآن قد صاروا أبناء باري وخاصتها، فتولى الأغلبي مكانه الجديد في ساحة التدريب، وشرحبيل صار صاحب الشرطة، أما هو فنال إمارة الحرب، وجوازاً بربرياً أدهم، وعليه أن يُشرف على تلك الحصون الجديدة. الصغير، الذي يُشبهه في ملامحه، ولكن لا يُشبهه في طفولته، التي قضى معظمها ببرقة ثم طرابلس ثم رحل إلى باري، كان يرتدِي زياً مماثلاً لما يرتديه أبوه: قميص رمادي، تحت صدريه أسود زينت حوافه بفراء ذئب رمادي، وعمامة صغيرة منحته مظهراً جميلاً، ويلقي عليه الجنـد التحية بين الحين والآخر، بينما يتبعه هو خطوات أبيه.

لم يمر الكثير من الوقت، حتى كان الرجال يحملون لفافةً كبيرةً من الحرير، صعدوا بها الدرج إلى قمة برج غير مكتمل البناء. كان معهم، يُساعدُهم في رفع الصاري وثبيته. وحين حان الوقت لرفع الرـاية، أشار لمحمد بأن يأتي، وجعله يُمسك طرف الجـبل، بينما يسحب هو الرـاية لأعلى. رُفعت رـاية الإمـارة الجديدة، خضراء عظيمة، يستطيع المرء رؤيتها من باري، تُخفق في قوة وقد زينت حـوافـها بأسماء الله الحـسـنى، بخط كوفي متشابك الأـحـرـفـ، يتـوسـطـها شـعـارـ التـوـحـيدـ. عـلتـ صـيـحـاتـ التـهـليلـ والتـكـبـيرـ، ولم تـبـتـعـ عـيـنـاهـ عنـ وجـهـ اـبـنهـ الفـرـحـ.

انتظر حتى انتهوا من تهليـلـهـمـ، ليـقـفـ أـمـامـهـ مـخـاطـبـاـ:

- الحـمـدـ لـلـهـ، وبـأـمـرـ عـبـدـ اللهـ سـوـدانـ المـاوـيـ سـلـطـانـ بـارـيـ العـادـلـ، النـاصـرـ لـدـيـنـ اللهـ، أـطـالـ اللهـ بـقاءـهـ. بـنـيـ هـذـاـ الحـصـنـ، وإنـيـ أـقـدـرـ ماـ قـدـمـتـهـ أـيـديـكـمـ، ولـعـ تـلـكـ الأـسـوـارـ شـاهـدـةـ عـلـىـ جـوـدـةـ صـنـعـكـمـ وـإـحـكـامـ

إتقانه، فما بُنيَ هذا المكان إِلَّا تعظِيمًا لشعائر الله، ومحافظة على سنته في إعمار الأرض، التي أذن الله أن تُرفع فيها البيوت ويُذكر فيها اسمه. ولقد أمر الأمير سودان بجزالة العطاء لما صنعتمه في وقت قصير، فكان البناء حسن المظهر يبعث على الفخر والعزّة، وله في النفس ذُخْرٌ، وحسن الذكر، فما أتممتمه إِلَّا بعون الله، وقد عجبت لأن يبتدي البناء في شهر ذي الحجة ويُشارف على الانتهاء مع تمام ربيع الأول.. لقد أحسنتم، أحسن الله إليكم وجعله في ميزانكم.

أنهى كلماته القليلة الرتيبة، وتوجه مع ابنه إلى حيث ستكون داره الجديدة. دار في المكان بعينيه قبل أن يُحدث الصغير:

- ما رأيك في هذه الدار؟

تصنَّع الصغير النضج وهزَ رأسه:

- لا بأس بها، ولكنني أُفضل باري..

- لماذا؟!!

- لأن بها بحراً شاسعاً، وبها صديقاي عمر وعلي.. أتدرى يا أبي، أريد أن أكون بحاراً ذات يومٍ لأذهب إلى بحر الظلمات.. يقولون إنه بعيد جدًا.. وإنه نهاية كل شيء.

- ربما كان نهاية كل شيء.. ولكن مع كل نهاية بداية جديدة.. ثم إننا سنضع هنا حوضاً للمياه، وستكون هناك أشجار بررقال وليمون..

- أريد شجرة توت مثل التي في باري!

ربت قَسْوَة على رأس ابنه مبتسماً:

- سيكون لك ذلك، أعدك.. والآن علينا أن نتابع ما يفعله النجارون في مسجد الحصن..

العمل لا يتوقف أبداً داخل الحصن. الكل يعمل دون توقف.. حتى جاء آذان العصر، فاللقي الجميع معاولهم وعدتهم، وذهبوا للصلاة. بعد الغداء، تجول في الحظائر المُعدة للخيول.. كان سودان قد أمر بجلب مائتي حصان من صقلية، سيمنحها لمن يسكن الحصن. أنهى تفحص كل شيء قبل المغيب، ثم رحل بعدما ألقى بعض الأوامر على الرجال. امتطوا الخيل عائدين إلى باري، ولكن عقله بقي هناك في الحصن. قريباً سيتم البناء، عليه ترتيب كافة الأمور فيه، قبل أن يأتي بزوجاته وذريته. كان سعيداً أن سيكون بمotel عن صخب المدينة، ومع مرور الأيام ستتصير القلعة مركزاً لجمع الجن. وحتى ذلك الوقت، عليه أن ينهي كافة الأمور المتعلقة بتشييد الحصون، وتجهيزها لاستقبال الحاميَّات التي ستُطلق في الصوائف والشوافع إلى الشعور الشماليَّة..

ليلة هادئة ونجوم مبعثرة، ونسيم الربيع تلاعب بستائر حريرية غطت نافذة غرفة زوجين جمعهما فراش دافئ. غفت على صدره العاري الخشن، محتضنة جسده مقتول العضلات، ل تستمد الدفء منه.

أصابعه الغليظة انسابت برقّة على شعرها، والغطاء الخفيف كشف عن تعانق ساقيهما. كان يافعاً حين عقد عليها، وكانت هي آية من الحسن. تعلمت منه وتعلم منها أكثر. يأوي إليها، كلما عاد من حرب تستقبله بالورود. هي فيض من نهر حبٍ ينبع من قلبها. لم يرها يوماً حزينة أو شاردةً، ولا قصرت يوماً في تربية بناته وولده الوحيد. تجاوزاً عشرين عاماً، لم يفتر شوقه أو يشتهي غيرها. كانت قويةً صابرةً تتضج كل يوم.

قبل رأسها، قبل أن تعود به الذكرى إلى ذلك اليوم في برج نابولي الشمالي، يوم حُوصر مع عددٍ من رجاله. لقد فعل الصواب حينها. لو كان الأمرُ يتعلق به وحده، لقاتل حتى تمزق لأشلاء. كانوا يرتدون، وحتى هو كان خائفاً، ولكن أشجع لحظاتنا هي وقت الخوف. لقد اختار التسليم بعد خذلان سودان لهم، كما ظنَّ حينها. والعجيب، أنه لولا ذلك الأخير لما كان حياً الآن. لقد خاطر بحياته من أجل إحضار الطبيب له. علاقتهما غريبةٌ منذ الصغر. سودان يصغره بعدها أعواام، لكنه كان أمهر منه.. خفيت الحركة في المبارزة بالسيف والرمح، ومرؤوض للجیاد، كانها تحبه وتحثّر طاعته. أبو المغوار كان يفضله دوماً عنهم. لا يبغضه ولا يُحبه، فدوماً ما يُلقيه سودان في المصاعد، في البداية واليَا على إيفيلينو، وبعدها معلمًا لجنوده الجدد. يود يوماً أن يرفض ما يُملئه عليه، ولكنه يظل "سلطان باري العادل سودان". دون أن يدرِّي علاصوته وهو يقولها، فاقت زوجته التي غمغمت: أما زلت مُستيقظاً؟!.. ربَّت على كتفها قائلًا:

- ثكلته أمه من رأى قمر الدجى ونام.

...

في الصباح كان يقفُ وسط ساحة التدريب، يتابع شبابٍ يتبارزان بمهارةٍ فائقةٍ، وسيوفُ التدريب تفرضُ صوتها على المكان. حركاتٌ متباينةٌ وخطواتٌ محسوبة، لا يظهر من وجهيهما شيءٌ بفعل خوذاتٍ يتخلّى منها الزرد. المتربيون التفوا في دائرةٍ حولهما، والمبارزة تشتعل، والدروع النحاسية تتبادل صدَّ الضربات، والشبابان يواصلان رغم أنفاسهما المتلاحقة. ضجيج المبارزة تناهى إلى مسامع سودان، فخرج إلى شرفةٍ مطلةٍ على ساحة التدريب. كان يعرف أحدهما عبد الله بن محمد الأغلبي، يستطيع أن يميزه من هيئة وإن أخفت الخوذة وجهه. كان أنحف من مبارزه، وأكثر ذكاءً. انحنى ليمر السيف فوق صدره، واعتدل بسرعةٍ ليمر كل الآخر في ساقه. حاول الفتى إلا يسقط، ولكن عبد الله عاجله بضربةٍ قويةٍ أسقطته. رفع الفائز رأسه، فلمح بطرف عينه أمير باري يُشاهده. صدح الجنُّ يهنتون الفتى، والأغلبي مبتسمٌ فخورٌ بولده، ينقل بصره بينه وبين سودان، الذي حيَّاه برأسه مبتسمًا، قبل أن يختفي من الشرفة.

كان الأغلبي على موعدٍ مع أبي المغوار، فبدل ملابسه بسرعةٍ، وتوجه إلى حيث منزل القاضي. بالطريق رأى الدوق ماركيزيو مفهراً الوجه، وخلفه أحدُ الجنُّ لحراسته. مضى ولم يبد له أي مبالاة، لكنه كان يتساءل داخله عن حكمة الأمير في استبقائه.

استقبله أبو المغوار بفناء منزله، أمام حوض المياه، عليه نافورةٌ يبعث خريرها الصفاء، ثم جلسا تحت شجرة ليمون احتلت زاوية الفناء.

- سمعت أن ولدك عبد الله يتتفوق عن أقرانه بالتدريب يا أغلبي.

اتخذ صوتُ الأغلبي جديةً، فقد فهم ما يرمي إليه أبو المغوار:

- نعم، يكفيه التدريب فهو ما زال صغيراً على المشاركة في المعارك.

ابتسم القاضي..

- ألم تكن بعمره، حين شاركت الأمير خلفون في فتوحاته بدوقية بنفينتو؟

- إن الفتى استغل قربه من سودان وطلب منه الانضمام لفرقة الفرسان. لن أدعه يلجاً إليه ثانيةً ليخوض أي معركةٍ قادمةً. إنه الولدُ الوحيدُ مع أربع فتيات، وعليه أن يعرف أن جهاده الأهم أن يرعى شقيقاته. دعك من هذا سيدِي القاضي، ما جئتُ لها لمناقشة أمور عبد الله.

نظر إلى أبو المغوار يُفكِّر في كلامه، ثم قام وأشار إليه أن يتبعه. دخلاً إلى غرفةٍ شاسعةٍ، جدرانها مكسوَة بأرففٍ خشبيةٍ عتيقةٍ، رُصت عليها لفائف من الجلد ومجموعات من الكتب، ولها نوافذٌ صغيرةٌ يدخل منها ضوء النهار على استحياءٍ. أشعل أبو المغوار قنديلاً صدماً توسط الغرفة، محدثاً رفيقه:

- في هذه الغرفة أحتفظ بكل المخطوطات القديمة. ما وجدناها في باري بعد الفتح، مروراً بالمراسلات، ونسخ من كتابات الفقهاء والقساوسة. بعضها يحتاج لفحص والتعريب.. وقد أوكلت للطبيب الرومي كاراس هذه المهمة.

عقد الأغلبي حاجبياً:

- سيدِي.. عذرًا. ولكن ما شأني أنا بهذه الأمور؟
ابتسم الشيخ، و بدا أنه شرد إلى زمنٍ بعيدٍ..

- عجولٌ كما عهdestك منذ أتيتني يا محمد. لا أحد يعلم متى ينقضي الأجل يا ولدي، وأرى أنه من الأفضل أن اختار بنفسي من يُكمل الطريق. لقد اخترتَك أنت يا أغلبي لشرف على عمل الطبيب كاراس. سأوفر له كل ما يحتاجه، وعليك أن تبقى لجواره. هنا نُسجل مستقبل باري وماضيها، علينا الحفاظ على كل ما تحويه تلك الرقعة.

غضَّة في حلقة أخرجت صوته مختنقاً وهو يسأل:

- ولكن ساحة التدريب..

قاطعه أبو المغوار:

- سأوكِل مهمتها لفارس آخر.. من الغد سيكون دوامك هنا.. ستكون تحت يدك مجموعةً من الكتبة والخطاطين.. هل تفاصيل بين أن تكون حارساً للمعرفة وأن تكون حاملاً للسيف؟

- المعرفة تحتاج السييف ليحميها سيدِي القاضي.

- لهذا اخترتَك يا أغلبي.

كان أبو المغوار يرى بجلاء اعتراض الأغلبي. تنهد وقال له في ترافقٍ:

- أعلم أن الأمر فاجأك. استخرتُ الله واخترتَك يا أغلبي، فأنت الأحق بهذه المهمة. قد تظن أنني أبخسُ

قدرك، ولكن الله وحده يعلم كم أحبك وكم أقدرك. فكر أيضاً أنها فرصة لأن يأتي معك عبد الله إلى هنا للتعلم والتفقه أكثر، ما دمت تكره أن يكون فارساً. ربما تكون تلك فرصة عظيمة ليُصبح فقيها عالماً.

نظر محمد في عين أبي المغوار، واستجمع شجاعته للمصارحة بما في نفسه:

- هل سودان هو من أمر بابنادي عن الجن؟

رفع أبو المغوار يده معتراضاً ونافيأ بقوه.

- بل لا يعلم السلطان بهذا الأمر. لم أعهدكم كذلك يا أغليبي. لقد تربيت معه، وكنت بمثابة الأخ الكبير له، فكن إلى جاتبه دوماً. سودان يحتاجكم جميعاً إلى جواره، وليس من أجل الأخوة فقط، الأمر أكبر من الأفراد، فهو لأجل مستقبل أمتنا. يابني إن لكل رجل عقلاً يختلف عن قرينه، فأحسنوا الظن ببعضكم البعض، وإن اختلتم.

زفر أبو المغوار، وأخذ برها يُفكّر، ثم عاد يقول:

- إن كان يزعجك ترك ساحة التدريب، فأوكل لولتك عبد الله هذا الأمر، واجعله مرافقاً للطبيب الرومي. لكنني أحسبه لن يترك السيف، فالفتى متيم بالحرب وأمورها، ويعرف جيداً أنه مميز عن بقية الفتية. فكر، واستخر، ثم امنحه ما يريد أو اجعله حيث تريده.. ولكنك لن تمنع أمر الله.

خرج محمد من منزل القاضي هائماً. الدروب متشابهة، والنهاية واحدة. لطالما أحب ساحات الوعي، ولكن حب الأولاد يطغى. لم يدر كم مشى في المدينة، حتى فوجي بنفسه أمام باب داره. الفتى يلعن ويغين، والحمام يرفرف حول مجلسهن، وأمهن تضاهكهن.. زينة الحياة الدنيا يكبرن سريعاً، وقريباً سترحل كل واحدةٍ منها إلى بيت زوج لا يعلم أرضه إلا الله. لمحته زوجته، فنهضت مسرعة، فانتبهت البنات له وهم من بالقيام إليه، فأشار إليهن أن يبقين كما هن، وترکهن إلى غرفته. تبادلن النظرات، ولحقت به زوجته قلقة، تسأله عما يُلم به، فتعلل بالتعب وطلب منها أن تدعه وحده ليراحة قليلاً. بدأ ملابسه وأوى للفراش، مستقبل ابنه على المحك، فإذاً أن يُصبح فارساً كما يُحب الفتى، أو يُصبح عالماً كما يُحب هو.

فوجئ بالعتمة تُحيطه، ثم عادت الطرق التي أيقظته مرةً أخرى، مع صوت ابنه عبد الله يدعوه لصلاة الفجر. الفجر! لم يشعر بنفسه كل هذا الوقت!.. بعد الصلاة، جلس بالفناء يفتر مع أهل بيته، الخبز والزيتون والجبن والعسل. فتح الحديث مع ابنه ملطفاً:

- كنت مميزاً بالأمس يا عبد الله. لك أن تفخري بابنك يا أم عبد الله!

ابتسم الولد، وربت أمه على كتفه فرحةً. تلاقت عينها وعيني زوجها، فانساحت ابتسامتها، وقامت تحمل الأطباق، منادية البنات لمساعدتها. يعشق هذه المرأة، التي تفهمه بنظرةٍ. التفت إلى ولده، الذي سأله:

- اليوم سنتدرب على المبارزة بالرمي، أليس كذلك؟

تأنى حتى اختفت البنات عن ناظريه، ثم ردَّ في هدوءٍ:

- لا.. ستذهب إلى منزل القاضي أبي المغوار، يريد أن يعهد إليك بأمانة كبيرة، سيُدرك لها على يده ويد الطبيب الرومي كراس. أعتقد أن ساحة التدريب لم تعد لك.

امتعض الابن، وتلجلج وهو يقول لأبيه:

- أنا أدرس الفقه والحديث بالمسجد الجامع يا أبي. أما رأيت الأمير سودان وهو يُتابع مبارزتي؟

كان هذا آخر ما يُريد الأغلبي سمعاه. سودان ليس أبو محمد، والرأي ليس له. ردَّ على ابنه في صرامةٍ:

- اسمع يا ولدي.. لقد اخترت لك الأنسب، وقضى الأمر..

- ولكن يا أبي..

كظم الفتى غيظه، وحشرت بقية كلماته بحلقه. شعر الأب بأنه قسا عليه أكثر مما يجب، فعاد يترفق به ويربت على كتفه..

- يا عبد الله.. يوماً ما ستصبح ذا مكانة بين الناس، سينجلك الجميع ويعنونك ثقفهم.

- لكنني أريد أن أكون على التحور مع الفرسان..

- لقد وضعتك على ثغر يا فتى فاثبت.. أن تداوي الجرحى وتشفي المرضى بإذن الله لهو شيء جلل..

- يا أبتي.. لا تفهمني..

نهض الفتى مغاضباً. عذره أبوه، تابعه صامتاً ولم يلح عليه لحظة ضجره، فما فعل الابن إلا أنه شابه أباه.

نامت باري ولم تنم دارُ أبي المغوار. في القبو الكبير، مجلس علم وعمل، اكتمل مع قدوم الفقيه سعد بن هشام. القاضي يطالع الأوراق ومعه كراس، والشاب الصغير عبد الله الأغلبي يزيح الغبار عن الأرفف الخشبية، بعد أن يحمل سودان اللفاف بعيداً. كاد الليل أن ينقضي، وهم من همكرون في ترتيب المكتبة الضخمة، وفق توجيهات كراس، الذي منحه القاضي غرفة بالمنزل الكبير طوال فترة العمل. عبد الله لم يعد غاضباً، بل كان مُتراجعاً مبهوراً بعمله مع أمير باري، الذي طالما أراد أن يُصبح مثله. لن تصدقه أخواته حين يقص عليهم ما يحدث، ولكنه لن يقول شيئاً، خاصةً أن السلطان وعده بدرؤس مبارزة على أن يظل الأمر سراً كبيراً بينهما. كان ينظر إليه مسحوراً، ويذكر كلام أمه أن خلفون كان أمهراً وأذكي أمير تولى باري، ويقول في نفسه إنها لم تعرف الأمير العادل مثله.

قرب الفجر، كان فريق العمل يُودع أبو المغوار لدى الباب، وإذا بمحمد الأغلبي قد فلق على ولده، فجاء لينظر لم كل هذا التأخير. فجأه وجود سودان، والفرح الظاهر جلياً على وجه الفتى، الذي يقف إلى جوار السلطان. رأى في عين ولده بريقاً عجياً، وعندما اخترى به في طريقهما إلى دارهما، ظل الفتى يُثثر مبتهجاً، عن المكتبة العامرة بصنوف العلم، وذلك الطبيب الرومي الفصيح، وكلما انتهى من حكاية، تذكر أخرى، حتى بلغا باب الدار. أزاحت فرحة عبد الله القلق عن عقله، وحل محله الفخر به، فالولد يشهد له جميع الأمراء بالنجابة، ويتوهعون له شأنًا عظيمًا. من يدري، لربما أرسله يوماً

إلى بغداد لتألق العلم أكثر، ولعل القدر يحمل له كرسياً على إمارةٍ ما يوماً.

2

بعد سُوانِ الدرج الحجري إلى سطح القصبة. ضياء القمر الفضي أزاح الظلام، واقتصر صفاوه بنسيم معطر بروائح زهر الربيع، وبحر رائق تترافق أمواجُه الهاشمة. رفع وجهه إلى النجوم الصغيرة التي تكثفت في سماء باري، وأخذ يتبع سطوع بعضها وأفول بعض، وهو يُفكِّر في باري النائمة من خلفه. استنشق أنفاسَ البحر، وتذكر باليرمو وميناء البحر، وطفولته في حي الخالصة قرب المرسى، ومجلس شيخه وبحارة الحمازة. استعاد في وجданه كلمات أبيه قبل وبعد عودته من غزو روما، وتذكر أمه حين اشتد عليها المرض، ويوم وفاتها وشعوره بالوحدة ما إن انقض الناس بعد جنازتها. تذكر حين أرسل أبوه في طلبه إلى باري، فوصلها ليجده مدفوناً بأرضها. لم يمر بعقله يوماً أن يُصبح أمير باري، حتى بعد أن قرَّبه خلفون ومنحه مفرق اللواء في عمر مبكر. وحده من استطاع البقاء بعد أن قضى على الفتنه، بمساعدة أبي المغوار ورفاقه. موافق وأبتلاءات عديدة أصاب في بعضها وأخطأ في أخرى. مشكلات الرعية تزيح أمروره الشخصية جانبًا، ويحاسب نفسه كل ليلة على ما فعل خلال اليوم. وفي كل هذا الزحام ماريا لا تنسى.

عُمِّست الصوارم بصدره، يوم أفصح عن حبه لها أمام الجميع. خذلته، فحاول أن يكرهها ولكنه فشل. ماريا هي أول اختيار لنفسه في حياته عن يقين، سُودان القوي هُزِّت أركانه، ولا يدرى أَيْخَفِي ذلك عن الناس، أم أن الْهُوَى غالبٌ يُفْضِّل صاحبَهَ مِنْ طِيفِ رملة بعقله كأنه يُذَكِّر بأن له زوجة غير ماريا. ابتسِم، لما تذكر تلصصها عليه من خلف ستائر نافذة حجرتها. صورة شعيب تتجلى إلى جوارها كلما نظر ناحيتها. الفقيه سعد نصّه بوجوب الاقتراب منها، ولكنّه لا يستطيع، ويشعر أنها أيضاً نافرةٌ منه.

2

خواءُ الأروقةِ من الجندي والحرس يمنحها شعوراً بالحرية. تهادت على الرواق تلامس الجدران بأصابعها، ويدها الأخرى تمسك بحجاب خلعته عن رأسها.. مائة الرأس، وجهها البهيج نافس مشاعل الرواق توهجاً، وشعرها الأسود الفاحم انسدل على ثوب بلون حقول باري الخضراء الداكنة، وينسحب خلفها فوق الأرضية الرخامية الباردة. قادتها قدماتها إلى سطح القصبة.. درجة وأخرى وأخرى.. وهو!

عرفته على ضوء القمر من الوهلة الأولى. كان، يقف قرب سور، يوليها ظهره، جامداً كأحد تماثيل إقريطش الرومية تحت راية باري الخفافة. قررت أن تعود أدراجها قبل أن يشعر بها. رفعت قدمها اليسرى، تبحث عن الدرج فتغترت، انتبه للصوت، والتفت، فووجدها تستند إلى الجدار وتقوم من عثرتها، هر ع نجو ها.

- أَنْتَ بِخَيْرٍ؟

حدقت في وجهه جامدةً لم يكونا بهذا القرب من قبل. تاهت الكلماتُ على شفتيها الورديتين، فسكتت، وانعكس ضوءُ القمر في سواد عينيها. أعاد سواله بنبرةٍ أرق، وقد أخذ بجمالها على حين غرة. أشاحت بعينيها عن وجهه، وهي تسحب حجابها على شعرها..

- مجرد عثرةٍ على الدرج، لا بأس.

مَدْ يَدِه لِيُسَاعِدُهَا عَلَى التَّحْرِكِ، فَحَاوَلَتِ الْاعْدَالَ فِي وَقْتِهَا دُونَ مَسَاعِدٍ، فَتَأْوَهَتْ، فَأَمْسَكَ رَسْغَهَا بِقُوَّةٍ:

- تُوكَئِي عَلَى ذِرَاعِي يَا رَمْلَةً!

- سَاقِي تَوْلَمْنِي فَقْطُ.. أَنَا بَخِيرٌ.

لَمْ يَكُنْ أَمَامَهَا إِلَّا أَنْ تَتَوَكَّأْ عَلَيْهِ وَهِيَ تَنْزَلُ الْدَّرَجَاتِ. كَانَتْ خَجْلَةً، وَكَانَ صَامِتًا، حَتَّى أَوْصَلَهَا لِبَابِ غَرْفَتِهَا، فَهَمَّتْ إِلَيْهَا جَوَارِيهَا يُسَاعِدُنَاهَا، فَانْسَحَبَ قَائِلًا:

- سَأُرْسِلُ فِي طَلْبِ الطَّبِيبِ كَارَاسَ.

- لَا دَاعِيٌ لِهَذَا، سَأَصْبِحُ بَخِيرًا، التَّوْى كَاحْلِي فَقْطُ.

نَظَرَ فِي وَجْهِهَا، فَرَآهَا تُحَاوِلُ إِخْفَاءَ الْوَجْعِ، فَنَادَى جَارِيَّةً تَقْفُ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا:

- يَا فَتَاهَةَ، اذْهَبِي إِلَى أَبِي الْحَارِثِ وَأَخْبُرِيهِ أَنْ يَسْتَدْعِي الطَّبِيبَ كَارَاسَ فِي الْحَالِ!

هَرَعَتِ الْفَتَاهَةُ، بَيْنَمَا بَكَتْ رَمْلَةُ وَهِيَ مُغْتَاظَةٌ مِنْ نَفْسِهَا أَنْ تَبْدُو ضَعِيفَةً أَمَامَهُ. كَانَتِ الْجَوَارِيَّ قدْ أَجْلَسَنَاهَا عَلَى الْفَرَاشِ، فَجَلَسَ عَلَى حَافَّهُ مُتَمَمِّمًا:

- كُلْ شَيْءٍ سَيَكُونُ بَخِيرًا.. لَا تَقْلِيقِي..

فَوْجَنَتْ بِهِ يُلَامِسُ قَدْمَهَا، وَيَفْحَصُ تُورِمَهَا، قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهِ إِلَيْهَا. لَمْ يَرَهَا كَذَلِكَ مِنْ قَبْلِ.. كَانَتْ كَاملَةُ الْحُسْنِ! مَضَتْ لَهُظَّاتٍ كَانَ السُّكُونُ ثَالِثَهُمَا، حَتَّى انتَفَضَتْ مَعَ صَوْتِ الْجَارِيَّةِ تُخْبِرُهُمَا أَنَّ الطَّبِيبَ بِالْخَارِجِ. نَهَضَ مُلْتَفَتًا لَهَا: أَعْدَى الْأَمْرِيَّةِ لِكَشْفِ الطَّبِيبِ، وَمَا إِنْ تَنْتَهِيَ أَخْبَرِيَّنَا.

خَرَجَ مِنَ الْغُرْفَةِ، وَهَرَعَتِ الْفَتَاهَةُ إِلَى السَّرِيرِ. كَانَتْ ابْتِسَامَتِهَا عَرِيشَةً، وَعَيْنَاهَا تَتَفَحَّصُانِ وَجْهَ رَمْلَةَ، الَّتِي عَقَدَتْ حَاجِبَيْهَا:

- مَاذَا بِكَ أَيْتَهَا الْبَلَهَاءَ؟

صَكَّتِ الصَّبِيَّةُ وَجْهَهَا، وَشَرَعَتْ فِي وَضْعِ الْحِجَابِ عَلَى أَمْرِتِهَا، ثُمَّ فَتَحَتِ الْبَابَ لِيُدْخِلَ سَوْدَانَ وَمَنْ خَلْفَهُ الطَّبِيبَ الرُّومِيِّ. سَبَقَ سَوْدَانَ بِالْكَلَامِ:

- تَعْثَرَتْ عَلَى الْدَّرَجِ وَالْوَرْمِ عِنْدَ كَاحْلِهَا.

رَمَاهُ كَارَاسُ بِنَظَرِهِ مُسْتَغْرِبَةً، ثُمَّ ابْتِسَامَةً..

- حَسَنًا، لَا أَسْتَطِعُ الْمَعْالِجَةَ دُونَ مَعَايِنَةِ الْعَلَةِ..

رَمَاهُ سَوْدَانُ بِنَظَرِهِ طَوِيلَةً. هُوَ الطَّبِيبُ، وَهُوَ أَيْضًا عَمُ مَارِيَا. يَفْهَمُ غَيْرَةَ السَّرَّاسِنَةِ، وَلِكُنَّهُ يَعْرِفُهُمْ يَحْتَرِمُونَ الْطَّبَّ وَالْطَّبِيبَ. طَرَدَ وَسَاوِسَهُ، وَلَمْ يَتَرَكْ فِي نَفْسِهِ إِلَّا أَنَّهُ طَبِيبٌ يَعُودُ امْرَأَةَ مَصَابَةَ، وَوَجْهَهُ حَدِيثَهُ إِلَى الْجَارِيَّةِ:

- هَلْ تُسَاعِدِينِي فِيمَا سَأَقُولُهُ لَكَ؟

أَوْمَأَتِ الْفَتَاهَةُ بِرَأْسِهَا، فَقَالَ:

- حسنا، اضغط برفق على موضع الورم..

فعلت كما أمرها فتأوهت رملة، فحدثها:

- هل تستطعين تحريك أصابع قدمك؟

بصوت خافت قالت "نعم"، فاقترب الطبيب ووجهه الهادئ يُخفي براكيين الاعتراض، وانحنى عليها، وقد قرر أن غضب سودان لن يمنعه من أن يظل طبيباً كفاناً:

أمسك بقدم رملة بيديه، وثبت ساقها بالأخرى وحركها عدة حركاتٍ، وهو يقول لها:
- أخبريني عندما تؤلمك الحركة!

أكمل فحصه، وهو يُراقب وجه سودان بطرف عينه، ثم قال للأميرة:

- لا يوجد كسر، ولكنه التواء شديد، سيحتاج بعض العلاج ليسكن الألم.

التفت إلى الجارية وطلب منها بعض الأشياء، ثم انهمك في خلط زيت الزيتون بزيت النعناع، ومسحوق من ورقات من عشب الطير.

سألته سودان: هل ستتعافي سريعاً؟

رد دون أن ينظر إليه:

- نعم.

أمر الجارية بوضع الدهان على موضع الألم، ورحل يُفكِّر في ماريا المسكينة، ويتنفس أن يعرف ماذا يحدث في سان فيلي، ويهاجمه سؤال موجع: أيستحق هذا الأمير كل ما يفعله لأجله ولأجل باري؟!

اجتمع نبلاء وقادة باري بالقاعة الكبرى لقصر سودان، حيث الأعمدة المرمرية الملفوفة بالرأيات الحريرية، وضوء النهار المتسلل من النوافذ الكثيرة، ورائحة الياسمين رویت بها أرضية القاعة الرخامية، والمخدع الممتلئ بالريش، وامتدت مأدبة احتفال بيشرى فتح مالطا على يد الأغالبة؛ خبر جاء به طلحة السكندرى وبحارته، الذين شاركوا في المعركة. سفنٌ عَدَة رافقتهم إلى الميناء، أتت من مصر والقيروان بصنوفٍ شتى من البضائع، ورسائل من كان له أهل هناك. ازدحمت القاعة بأحاديث التجار، وتحلق الرجال حول الأطباق العاملة وعمت الغبطة الجميع، ويتشدقون بكل سلطان باري. بعد الطعام، طاف الخدم بالمجلس بأباريق نحاسية، وأكواب تفيض بعصائر من فاكهة الريبع، وانطلقت السنة الشعراة تمتداً وتتبارى.

وفي مجلس سودان، اجتمع أبو المغوار وطلحة وقسورة، بينما تركهم الأغبى حين دُعي الدوق ماركiziyo. كان حضور الأخير أمير سودان، وكان الدوق متوجساً، منصتاً لحديثهم بالعربية التي يفهمها جيداً، لكنه لم يجد ما يُرِيب. تحدثوا عن الطعام، وأشاد قسورة بالجبن المالح المخلوط بالرمان والبهارات، بينما راح طلحة يُحدثهم عن سمك مصر المُجفف بالزيت. لم يفهم ما جدوى حضوره، لعل

سَوْدَانْ أَرَادَ أَنْ يُرِيهِ كُلَّ تِلْكَ الْجَلْبَةِ وَالرَّفَاهِيَّةِ. تَذَكَّرَ آخِرُ حَفْلِ حُضُورِ الْكَارِدِينَال.. الْبَابَا الَّذِي لَمْ يَقْبَلْ أَنْ يَدْفَعَ الْجَزِيَّةَ. كَانَ نَاقِمًا عَلَيْهِ، كَمَا يَنْقَمُ عَلَى أَبِي الْمَغْوَارِ الَّذِي رَفَضَ أَنْ يَدْعُهُ يُغَادِرَ الْمَدِينَةَ. كَانَ شَارِدَ الْذَّهَنِ حِينَ وَكَزَهُ الْعَجُوزُ هَامِسًا:

- السُّلْطَانُ يُحَدِّثُكَ.

- عَذْرًا، فَقَدْ غَرَقْتَ فِي أَحَادِيثِكُمْ عَنْ إِفْرِيقِيَّةِ وَالشَّامِ.

- لَا يَغْرِقُ أَحَدٌ بِوْجُودِ طَلْحَةَ.

أَقْفَى سَوْدَانْ جَمْلَتَهُ الَّتِي لَمْ يَفْهَمُهَا الدُّوقُ، بَيْنَمَا ضَحَكَ رَفْقَاؤُهُ، إِلَّا الدُّوقُ الَّذِي دَارَ بِعِينِيهِ فِيهِمْ، وَرَأَى قَسْوَرَةً يَرْبَطُ عَلَى كَنْتَفِ الْجَالِسِ بِجَانِبِهِ، فَأَحَسَّ بِالضَّيقِ لِكُونِهِ الْوَحِيدِ مِنْ لَمْ يَفْهَمْ مَا قِيلَ. فَطَنَ سَوْدَانْ لِمَا يَشْعُرُ بِهِ الدُّوقُ، فَرَفَعَ صَوْتَهُ فَوْقَ ضَحْكَاتِهِمْ، مَحْدُثًا إِيَّاهُ:

- هَذَا طَلْحَةُ أَمِيرِ الْبَحْرِ. لَمْ يُكْسِرْ لَهُ صَارِ، وَلَمْ يَغْرِقْ لَهُ بَحَارَ قَطْطِيِّ. أَسَاطِيلِ بِيزِنْطَةِ وَالْبَنْدِقِيَّةِ تَقْبَعُ فِي قَعْرِ الْبَحْرِ بِسَبِيلِهِ، وَإِنَّمَا احْتَفَالُنَا هَذَا كُلُّهُ هُوَ لَأَنَّ إِخْوَانَنَا مِنْ صَقْلِيَّةِ اسْتَطَاعُوهُمْ فَتْحَ مَالَطَا مِنْذَ أَيَّامِ مُسْتَعِنِيْنَ بِأَسْطُولِ طَلْحَةَ.

ظَهَرَ عَلَى وَجْهِ مَارِكِيزِيُّوِ الضَّيقِ، بَيْنَمَا حَيَّاهُ طَلْحَةُ بِإِشَارَةِ مِنْ يَدِهِ. أَكْمَلَ سَوْدَانْ:

- لَقَدْ بَلَغْتِيْ رَغْبَتِكَ الدَّائِمَةَ لِلرَّحِيلِ، فَكَيْفَ الْحَالُ الْآنُ وَأَنْتَ بِمَجْلِسِيِّ وَبَيْنَ قَادِتِيِّ؟

اسْتَدَعَى الدُّوقُ كُلَّ قَدْرَتِهِ عَلَى الْبَاقِيَّةِ، لِيَقُولَ:

- إِنَّهُ شَرْفٌ كَبِيرٌ أَنْ أَحْظَى بِتَوَاجِدِيِّ بِمَجْلِسِ السُّلْطَانِ، وَهُوَ مَا لَمْ يَحْظُ بِهِ شَخْصٌ مِنْ قَوْمِيِّ.

نَظَرَ إِلَيْهِ سَوْدَانْ بِتَرْكِيزٍ، وَهُوَ يَقُولُ:

- هَنَاكَ الْمَزِيدُ سِيدُ مَارِكِيزِيُّو.. إِنَّ قَبْلَتَ حَمْلِ رِسَالَتِيِّ إِلَى رُومَا.

- رُومَا!

- لَا تَقْلِقْ أَيْهَا الدُّوقُ. فَقْطُ سَتُّلَمُ الْبَابَا أَنَّهُ لَا قَبْلَ لَهُ بِحَرْبِ سِيكُونْ هُوَ فِيهَا الْخَاسِرُ. عَلَيْهِ أَنْ يَكْفِ عنِ إِرْسَالِ السَّرَايَا إِلَى التَّخُومِ الشَّمَالِيَّةِ لِكَمْبَانِيَا. امْكُثْ كَمَا تُحِبُّ وَارْحِلْ وَقَتْمَا تُرِيدُ.. فَقْطُ أَعْلَمْنِيْنِ حِينَ تَقْرِرُ.

أَنْهَى سَوْدَانْ كَلْمَاتَهُ مُشِيرًا لِأَحَدِ الْخَدَمِ، فَهَرَوْلَ حَامِلًا لِفَافَةً بَيْنَ يَدِيهِ، بِسْطَهَا أَمَامَ الْجَمِيعِ قَبْلَ أَنْ يَضْعَ بِرَدَّةِ خَضِيرَاءِ مَذْهَبِهِ بِرَسْمِ لَأْسِدٍ يَعْرِفُهَا الْحَضُورُ جَيْدًا، فَقَدْ كَانَتْ مِنْ قَبْلِ لِسَوْدَانْ. اجْتَاحَتِ الْوَجْهَةُ عَاصِفَةً مِنَ الدَّهْشَةِ، بِمَنْ فِيهِمُ الدُّوقُ الَّذِي وَجَمْ. فَقْطُ أَبُو الْمَغْوَارِ مِنْ كَانَ يَعْلَمُ بِالْأَمْرِ مُسْبِقًا. لَقَدْ أَرَادَ سَوْدَانْ أَنْ يُرِيَ الدُّوقَ مَا لَمْ يَرِهِ طَوَالِ حَيَاتِهِ، وَحِينَ يُقْرَرُ الرَّحِيلُ تَكُونُ ذَاكِرَتِهِ مُمْتَلَّةً بِعِبْقِ بَارِيِّ، وَيَحْمَلُ قَصْصَ الرَّغْدِ وَالْعَدْلِ إِلَى قَلْبِ رُومَا. يُرِيدُهُ أَنْ يَقْصُّ عَلَى مَسَامِعِ الْبَابَا تَعَايشِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى جَانِبِ الْمَسِيحِيِّينَ وَالْيَهُودِ، وَعَنْ عَدَالَةِ الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ. قَطْعَ الصَّمَتِ الَّذِي حَلَّ عَلَى الْمَجْلِسِ صَوْتُ قَسْوَرَةً مُخَاطِبًا الدُّوقَ:

- دُوقُ مَارِكِيزِيُّو، أَلَا تَقْصُّ عَلَيْنَا كَيْفَ كَانَ حِروْبُكَ مَعْنَا؟

نظر إليه ماركiziyo وهو يكتب ضيقه..

- ليست قصصاً سعيدةً تليقُ بمجلس الأمراء.

- إنها الحياة تتراجح بين النصر والهزيمة. فاقصص علينا أيام نصرك إذن، لعلها تكون ذكرى سعيدة في قلبك.. أقصد عزيزنا الدوق أن تعرّف لنفسك، فقد خلقنا شعوباً وقبائل لنتعارف..

كانت محاولةً من قصورة لجعل الدوق يتلاطف مع القوم أكثر. وجد ماركiziyo كل العيون توجهت إليه، فحاول رسم ابتسامة على وجهه، واستجتمع في عقله ما يمكنه أن يحكى لهؤلاء المتطلفين:

- لقد ولدت لأسرةٍ عريقةٍ محاربةٍ. والذي كان مساعد الدوق باتدينولف في كابوا، وقتل يوم دخلت قوات الأغالبة لمدينة جيتا.. ولما اختلف المتألفون، وانفض الناس من حول الدوق، كما هي نهاية الحكام عادةً، رحلت كما رحل الجميع لاستعادة بنفيينتو، وتتركنا خلفنا الدوق المغدور.

لمح بطرف عينه أثر كلامه على سودان وأبي المغوار، بينما يُكمل:

- كنتُ بينَ من حملوا على الأعنق بعد ثورة بنفيينتو على حكم الأمير مفرق. استردنا المدينة العظيمة بعد عشر سنواتٍ كاملةٍ، ومنحت لقب دوق يوم تنصيب إديلكي أميراً عليها.

لم يُعلق أحدٌ على جملته الاعتراضية، وإن كانت قد أثارت في نفس سودان ريبةً. استمر الحديث والأخذ والرد حول الحروب والأمراء، يُجيب عن أسئلتهم، ويستمع لقصصهم، إلى أن سأله طلحة السكندري عن حرب البحر:

- ماذا عن حرب بالبحر أيها الدوق؟

- واحدة..

- أين؟

- منذ سنواتٍ، أمام ساحل هذه المدينة.

انتبه سودان لحديث الدوق، كما فعل الجميع وهو يستطرد:

- لقد كانت أول هزيمةً أمنى بها. كنتُ على ظهر سفينة طراد، ضمن أسطول البنديمية، الذي كان يخوضُ حرباً شرسةً مع أسطول طارنت. سفينتنا كانت محملةً بقوارير نفط جتنا به من بيزنطة، وفي ليلةٍ عاصفةٍ جنحت إلى ساحل باري. أنهك الجندي في محاربة الموج، وتكسرت بعض المحاديف، ومع انقضاض ضباب الفجر، وجذنا أنفسنا ببحرٍ قرب مجموعٍ من سفنكم المسطحة. رياح قوية دفعت السفن نحونا، والمدينة تهيمن على المشهد خلفهم. مع صارٍ مكسور، كان من الصعب أن نفرغ أشرعتنا، واستطعنا أن نغير دفة السفينة بجهود الرجال، حتى أنتَ أذرعهم من التجذيف. لم نكن مستعدين لحربٍ، فحاولنا الهرب ولكننا لم نفلح، واضطربنا للدفاع عن أنفسنا. السهام غطت الأسطح الخشبية، ولكن الرجال استطاعوا إلقاء قوارير النفط على إحدى سفنكم.. سفينة مسطحة كبيرة، لا زلت أذكر مشهدتها وبحارتها يقفزون إلى الماء، ولكن سفينتي الحراسة انقضت علينا، وقفز محاربون أشداء يقاتلوننا برماح طويلةٍ، حتى سقط العديد من الرجال، وسرعان ما تحولت صفحة الماء إلى دماء ونار تطفو، وغرقت سفينتي ومعها أغلب طاقمي.

انتهت حكايتها، وبقي واجماً مع الذكرى المؤلمة. وكان من حوله جامدو الملامح، عيونهم تتنقل بين سودان وماركيزيو. رفع ماركيزيو عينيه إليهم، وزفر قائلًا للسكندرى:

- لا أظن أنها كانت فكرة صائبة أن نحكي عن تلك الحوادث بينما أياها القائد، فما يفخر به أحدهنا يُؤلم الآخر.

كان وجه سودان محتقنًا، وعيناه زانغتين.. خطوتان ما أسرعهما، وكان يجثم على صدر الدوق. وحظت عيناً ماركيزيو وقد آلمته براحته سودان المنفرسة في عنقه.

- لطالما حلمت بالنظر في وجه الرجل الذي قتل أسرتي.. الآن فقط تحققت أمنياتي.

كان الدوق يرتجف، وقد استوعب الأمر. أمسك قسورة بكتف سودان يحاول منعه:

- ما ينبغي لك يا أمير أن تفعل ذلك بمن أمنته في مجلسك!

بدا وكأن سودان لم يسمع كلمات وزيره. كان ينظر في وجه الدوق يرى قصته رأي العين، ويريد أن يقتلع رأسه بيديه. تضاربت الاختيارات في رأسه، وصوت قسورة يسري مرة أخرى إلى عقله:

- أترضى أن يُقال إن أمير المسلمين يقتل مستأماناً ببيته؟

رفع سودان رأسه، ودار بعينيه في وجوه من حوله وقد خفت يده عن عنق الدوق. أفلته أخيراً، وأشار للجند وهو يستطرد محدثاً أبو المغوار:

- خدأ تبت في أمره، فإن لك أيضاً قصاصاً.

رحل بخطواتٍ واسعةٍ عبر القاعة، بينما يقف الجميع إجلالاً لحزنه. ترك ماركيزيو ينظر إلى أبي المغوار الهدائى، الذى رماه بنظرةٍ طويلةٍ قبل أن يرحل هو الآخر، وقسورة يتمتم:

- ما كان عليك أن تقصد أمر تلك المعركة. لو لا أنك ترتدى بُردة الأمير، لقطع عنك الآن.

- سيد قسورة، إنني....

- هل تدري ما فعلت، أم لم تفهم الأمر؟ لقد كنت تجلس الآن مع من قتلت عائلتها.

احمر وجه ماركيزيو، وكاد يسأل قسورة كيف لا يلحظ الكل أنهم يتحدثون عن الحروب، أي عن القتل، أي عن عوائل ما أكثرها قتلها الجانبان!

مر النهار ولم يخرج السلطان من غرفته. ما حدث سار في حواري المدينة وفي أروقة القصر همساً لا ينتهي، ووصل إلى مخدع رملة تحاكي به الجواري. كان يومها شاقاً، فقد كان عليها استقبال نسوة الأمراء والوزراء والتجار، وكاحلها لم يشف بعد. لما علمت أنه لم ينزل لصلة المغرب، توكلت على عصا مذهبة منهاها إياها أبو المغوار، تطوي الرواق خلفها ببطءٍ وتردد. لكنه زارها حين إصابتها، وعليها أن تزوره في أزمته.

ما إن رآها حارسُ الرواق انحنى:

- مولاتي الأميرة..

- أخبر السلطان أنني بالباب!

- عذرًا سيدتي، ولكن الأمير أمرني ألا يزعجه أحد.

أمام نظرتها القوية، تردد قليلاً، ثم طرق الباب، وغاب وراءه لوهلة، قبل أن يعود خافض الوجه:

- سيدتي السلطان ينتظرك.

دللت رملة تتوكاً على عصاها، فوجدها يجلسُ على مخدع وثير، يمسك بين يديه كتاباً أغلقه وقد أبقى أصابعه بين دفنه. زاد من ضوء قنديلِ نحاسي معلق بجائب الغرفة حيث يجلس، وراقب خطوطها العرجاء، وسألها:

- كيف حال سائقك اليوم؟

- تتماثل للشفاء بفضل الله ورعايتك مولاي.. وددت أنأشكرك.

أومأ برأسه وحاول رسم بسمةٍ. عيناه كانتا تحملان الكثير مما يحاول مواربته، أشار إليها:

- اجلسـي!

لامت نفسها على المجيء حين شعرت بفتوره:

- لا داعي.. فقط أردت الاطمئنان عليك، فقد سمعت أن مولاي قد غضب وفسد حفاته.

وضع الكتاب بجواره، ونهض متوجهاً إليها:

- اليوم، كنت على وشك قتل رجلٍ منحته الأمان. كسوته ببردي، قبل أن أعرف أنه قاتل سليمـة والصغير محمد. لطالما كنت أمني النفس بمعرفته والثار لهما.

أخذ يدها وسار بها على مهلٍ إلى شرفـة تطل على ساحة القصبة التي تغطـ في السكون، ومن ورائها المدينة منبسطة بين يديه:

- لقد عفوت عنه، ولم أبر بقسمي. لا أستطيع تقبل أن يأكل قاتل عائلـي بطبق بيـتي. أن يتسامـ معـ بما صنـعـهـ لم أدر بنفسي إلا وأنا فوقـهـ، أكـدـ أنهـشـ صـدرـهـ، لـولاـ قـسـورةـ.

تمـمتـ بـخـفوـتـ:

- إنـ العـفوـ عـنـ المـقـدـرةـ مـنـ شـيمـ الأـعـزـةـ.

استدار ليـواجهـهاـ. كانت لا تزال ترتدي لثامـهاـ الحرـيريـ. أطـالـ النـظرـ بـعينـيهـ..

- لقد فعلـتـ ما بـداـ ليـ صـوابـاـ، وأـوـكـلـتـ إـلـىـ أبيـ المـغـوارـ الـبـتـ فيـ أمرـهـ.

أرسلت عينيها ناحية المدينة..

- حين نتخذ القرار بالصفح، نحمل على عاتقنا عبء إقناع عقولنا أنه الصواب ما قد فعلناه.

شرد مع كلمتها، حتى مضى الوقت وهم صامتان. كان صوتها الرقيق أول ما قطع الصمت، ل تستأنسه في الرحيل. أومأ لها برأسه مبتسمًا، ورافقتها حتى باب جناحه. قبل أن يفتح الباب سألهَا:

- هل عفوت عنِّي يوماً؟!

كان سؤاله مُباغتاً. اجتاحتها عواصفُ الفكر، وخففت عينيها هاربةً من مواجهته..

- ليس كل خسائرنا نستطيع تعويضها.. أنت سلطانٌ باري، وإن كان هناك من يجب عليه طلب الصفح، فهو أنا.

تركته في حيرةٍ من أمره. وكان ما ينقصه هو غموضها. لم يفهمها يوماً، أو أنه لم يحاول قط.. لعلها تحاول التقرب منه؛ ولكن شعيب وماريا يقان بينه وبينها دوماً. عاد إلى شرفته يتطلع إلى باري الساكنة. أحس أنه يفقد ذاته، يفقد سودان القديم. تبدل حاله كثيراً، ولا يرافقه ذلك. ربما يذهب إلى طارنت بينما يُسیرُ السرايا للتخوم الشمالية، عساه يطوي الذكريات بعيداً، ليمضي في تحقيق حلمه: «رومية».

..

ليلة طوليةٌ قضتها رملة، في كابوس لا تعرف نهايته. حين تحدث عن زوجته وطفليه، وخز قلبها ألمٌ وندم؛ فقد كان مصابه أكبر من خسارتها، ولكنها لم تقدر ذلك، واتهمته بقتل زوجها. تذكرت اليوم الأول لها في باري. غفت وصوت شعيب يتسلل إلى رأسها، يُعيد عليها كلماته يوم وطئت قدمها الميناء، وقد حجب الغيم شمس الصحبى:

- غابت الشمس حين أشرق نورك على باري. في هذه المدينة سنهرم معًا، ونرى أولادنا يكبرون أمام أعيننا. أتدرين يا رملة، من بين كل المدن أحب أن أموت في باري وأدفن بها..

لامست شفاهه بتأملها الرقيقة:

- لا تذكر الموت وأنت معى..

انساب الدمع من طرف عينيها المغلقتين. لن تنسى ذلك اليوم أبداً. كان الجميع في استقبال أمير إقريطش وزوجته، بحفاوةٍ بالغةٍ. سودان.. أبو المغوار.. قسورة وزوجاته، رغم ابتساماتهم إلا أن القلق كان ينبع قلبها، ولو علمت حينها أن المستقبل له رأي آخر لما جاءت إلى هنا. رحل شعيب، وبقيت هي وحيدةٍ بينهم، لا يُؤنسها سوى وجود طفلتها إلى جوارها. أما سودان؛ فعليه أن يبقى بعيداً.

شعورٌ ثقيل قبض على قلب العجوز، منذ عرف أنه ظل لأشهر يتسامر مع قاتل ابنته. أن يُؤتى بغيريك مكلاً إلى ساحتك، ولكن قد عفا عنه السلطان، فهل يملك هو بعده أن ينتقم؟!

لقد كانت سليمية زهرته التي بقية قريبة منه، بعد أن رحلت أخواتها مع أزواجهن، وصارت أميرة باري. كانت تشبه أمها، صهباء رقيقة، وكان ينتظر عودتها من برندizi ليり حفيده. سنوات عمره كانت تمر عبر باب الغرفة، وتتفجر أطیاف خيل ورجال من النافذة، كلهم مرروا أمامه ومضوا في طريقهم، إلا واحداً وقف بركن الغرفة عاكداً يده أمام صدره. كان يشبه سودان، ولكنه أطول قليلاً، أسفل حلقه يقطر دماً. وحين تحرك شفاته ظهر الجرح بوضوحٍ:

- كل شيء كتب.. وكل ما كتب سيكون.

أغضض أبو المغوار عينيه مستغرقاً، وتفل عن يساره ثلاثة، لعل شيطانه يفل. حاول النوم، لكنه ظل يتقلب بالفراش، فأتنزل قدميه عن الفراش باحثاً عن مدارسه، وأغلق نافذة الغرفة. قبل أن يخرج، مشط شعره الفضي بأصابعه، ونزل إلى الفناء. خرير الماء جذبه إلى الحوض، فأسبغ الوضوء، وصلى في كنف شجرة لوز عتيقة، استظل بناته بها يوم كانت الدار عامرة بالحياة. انتهى من صلاته، ليجد كراس يجلس بالقرب منه باسم الثغر كعادته:

- يبدو أن هناك ما يُثقل كاهلك يا أخي.

- الدهر قادر على فعل ذلك.. ولعنا شاهدان على ذلك.

أومأ كراس برأسه:

- نعم.. لقد رأينا في حياة واحدة ما يكفي.. ويبقى فقدنا لعزيزٍ أسوأ شعورٍ قد يُراودنا..

ردد أبو المغوار بخفوتٍ:

- كل شيء كتب.. وكل ما كتب سيكون.

- لقد كنت أرتب بعض الأغراض بالمكتبة، حين سمعت صلاتك.

نهض أبو المغوار قاطعاً حديثه:

- لا عليك؛ سأذهب للنوم..

- اصفح عن الدوق!

كان يرتفع الدرج، حين جاءته كلمات كراس، الذي تابع:

- ماركيزيو رجل صالح.

رجل صالح!.. رجل صالح قتل ابنته!.. لم يرد، وأكمل طريقه إلى حيث يبحث عن غفوة.

في الصباح، كان أبو المغوار لدى باب المنزل الذي يقيم فيه ماركيزيو، يمسك أحد الحرns بلجام بغلته الشهباء، بينما يفتح الآخر الباب. ترجل، وقد لعلم عبادته السوداء، ودلل والشمس تتبع ظله الممتد أمامه. وقف قليلاً بالفناء، قبل أن يظهر الدوق من طرف الرواق، وخلفه حارساه. أشار لهما

أبو المغوار بالذهب، فتقدم ماركيزيو وحده إليه..

- كيف كانت لي تلك أيها الدوق؟

- أنتظر حكماً يقضي بقتلي.

- لا أظن أنك ستذهب في باري يوماً سيد ماركيزيو.. احزم متاعك، سيرافقك محمد الأغلبي حتى تغور أفييليانو.. امض إلى طريقك دون أن تلتفت إلى مدینتنا.. فإن عدت مت.

لم يستسغ ماركيزيو كلمات أبي المغوار. كان يُحدق بوجه العجوز ذي العين الواحدة، الذي يُداعب لحيته الشibiaء الملطخة بحمرة الحناء قائلاً:

- حين يأتي المغيّب، لا أريد رؤيتك في باري.

مع بداية الصيف، انتقل الناس للسكن في القلعة الغربية، أو كما يُسمونها حصن قصورة التميمي، وعمرت بأسر المُرابطين وبعض أصحاب الحرف. صار الدرج بين باري والحصن زاهراً، لا تتوقف على طوله العربات والخيل. كانت تُشبه في تفاصيلها قصبة باري، تعلّي ربوة مرتفعة، يرافقها السائر كجزيرةٍ تطفو فوق أشجار الغابة، ببرجين عظيمين، ومساعل ترى ليلاً من باري، كنجوم صغيرة بعيدةٍ تتوهج. كان يوماً لا مثيل له، حين تمت تجربة نيران التحذير بالبرج الكبير. نارٌ عظيمة رأها أهل باري كشمسِ الضحى، خصصت لإعلان عن الخطر إن وجد، لتحذير باري.

ماركو كان من بين الذين قرروا الانتقال إلى حصن قصورة. كان أبو المغوار قد أوكل أمره إلى أحد الصناع، ليتعلم حياكة الملابس وتفصيل الأقمصة. فطنته وذكاوه جعلاه يتعلم الحرفة في غضون شهرين، وحين سمع بأمر الحصن الجديد، قرر أن يُصبح له مكاناً خاصاً. طلب من القاضي أن يمنحه الإن، فمنه منزلٌ من فناء صغير وغرفتين، إحداهما فتحت على الشارع، رصّ فيها الأقمصة بعنايةٍ. كان سعيداً، يتناهى أوجاعه المزمنة. مضت الأيام به، وعرفه كثيرون كخياطٍ ماهر، يُحترمون مهاراته، حتى لم يعد يهتم إن كانوا يعلمون بأمره أم لا. لكنه لم ينس عينيه.. كان إذا ما انقضى الناس، وأغلق داره عليه، ألقى بنظريه تجاه باري، فيرى وجهها يُزين لياليه. كانت سره الدفين، وحلمه غير القابل للتحقق.

يوم أتى سودان إلى الحصن، كان يُرافقه أبو المغوار وشريهيل ومجموعة من الجن، واستقبله العامة والخاصة، أما ماركو فتوارى وراء بابه المغلق، يتلخص بين الحين والآخر على الساحة من نافذةٍ ضيقةٍ بحجرته. رأى علياً، ابن شعيب يسير إلى جانب سودان، ثم تركه ليلعب مع أبناء قصورة. كان يُريد الخروج إليه، ولكنه قرر البقاء داخل المنزل، كي لا يُقابل أمير باري المتباخي. لقد نبتت أشجارُ الكُره له منذ أعلن على الملازواجه من أميرة إقريطش.. أميرة قلبه العاجز.

طرقَت ببابه انتشله من جب القهر، فتردد في القيام لفتح الباب، لكن عاد الطارق يدقُّ الباب ثانيةً، فنهض متلثلاً، لعل من يطرق ببابه يرحل قبل أن يفتح له. أزاح المزلاج، وسحب الباب، ليُعشى عينيه ضوء النهار، وأبو المغوار يقف بالباب، يرتدي درعاً من زرد، وعمامة الزرقاء قد احتضنت خوذة لامعة. انحنى له بسرعةٍ، ولكن العجوز أمسك برأسه ليرفعه برفقٍ:

- قلت لك مراراً لا تنحن ليشرِّ مثلك!

أحسَّ ماركو بالحسرة، فأي بشر هؤلاء الذين مثله. تراجع مبتسماً وهو يُفسح المجال لضيفه:

- تفضل بالدخول سيدِي القاضي؛ وإن كان المكان لا يليق بمقامك!

- شكرًا لك يا ماركو لكننا على عجلٍ من أمرنا. لم أرك بين أهل القصبة، فتساءلت إن كان هناك ما يسوء. أياضًا يك أحد؟

- لا سيدِي.. فقط أشعر بتواعٍ شديدٍ منذ أيام، ولم أكن أعلم بقدومكم..

- حسناً عليك زيارة الطبيب كاراس في باري، لعل لديه دواء لما أنت فيه. كان يجدر بك البقاء معنا، فلطالما كنت هنا يا ماركو. على أي حال، هذا قرارك وحريرتك. عُد إلى فراشك يا بني، وإن احتجت شيئاً، فقط اذهب للفقيه سعد بن هشام، سيقضى لك كل حوانجك بإذن الله.

انتظر ماركو حتى اختفى العجوز بين الجند في الساحة الكبيرة، وأغلق الباب، متنمياً لو استطاع صفقه بقوّة. كلمات القاضي لم تكن بردًا ولا سلامًا، لم يرق له أن يسأل أحد عليه أو يهتم لأمره. اعتصر قبضته يضربُ الحائط بقوّة عدة مراتٍ، لم يشعر بالألم إلا حين جلس على طرف الفراش، ينظرُ لما قدّمت يداه، وعقله يُعيد عليه حواره مع أبي المغوار، وهو يتأمل يده المتورمة ويتهم: "الآن على الذهاب لباري.. حيث الدواء". انتظر حتى رحلت القوات شمالاً، ثم تجول بأرجاء الحصن قبل أن يخرج من بابه، لعل أحدهم يسأل عن سبب غيابه اليوم. لم يشغل عقله كثيراً، عبر البوابة متوجهًا إلى المدينة، حين أتى المغيّب وأمسى له رفيق من ظل يتحرك معه عبر الدرب الطويل. شدو الحساسين العاندة إلى أشجارها، كان يُؤنسه، فيرد عليها بصفيره. لطالما قالت له إن الله منحه من حُسن الصوت ما ليس لسائر البشر. كانت دوماً تستمع لغائه لأطفالها بلغة لم يطمسها الزمن، ولم يمحها البعد عن موطنها. كانت كل حروفه لها، ولكنها كانت دوماً تجهل ذلك.

دربٌ رمليٌ تحيط به الأشجار من كل جانب، كان الطريق الذي اختاره قسورة ليمضي نحو الشمال. جواده الفاحم يمشي بخيلاء، سُوَّم بسرج نمر أرقط، يقود جيش باري العظيم في أيام حارة، بقيت منها ليلتان من المسير، ليصلوا إلى تخوم بنفينتو، دون أن يتوقفوا بأي قريةٍ منذ أن خرجوا من باري. رافقهم سودان في اليوم الأول، قبل أن ينفصل بمانتي رجل عن الجيش، متوجهاً إلى طارت في الجنوب، حيث تنتظرهم السفن الذاهبة لحصار راجوزة.

- لم أر جيش باري بهذه الحالة من قبل.. أخاف أن يكون قد تسلل العجب لقلوبهم.

جذب قسورة عنان جواده، فأبطأت خطواته:

- بل هو قيظ الصيف يُرهقهم. الحرارة شديدة هذا العام.

- نعم، لم أشهد مثلها في هذه الألقاء من قبل.. الغريب في الأمر أن الروم يغزون صيفاً هذه المرة.

ابتسِم قسورة قائلًا:

- يقولون إن ملك الإفرنج هو من يقود الجيش هذه المرة.. أتمنى لا ينحاز إلى حصن أو مدينة، فقد سئمت حروب الجدران.. الحرب مواجهة ومبرزة وجهًا لوجه وليس أن نختبئ خلف المتراس.

- ستظل كما أنت يا قسورة.. الحرب حكمة ودهاءً. ولكن أعدك أن تناول هذه المرة ما تتنمي، فملوك الإفرنج ليسوا رجال حرب. بعدهما مات إمبراطورهم شارلمان، ومن بعده ابنه لويس، تنازع الملك ثلاثة ملوك ضفاف، أحدهم قادم ليinal شرف محاربتنا.. وكما عهدت الملوك الباحثين عن المجد، يُسيطر الغباء على عقولهم.

- قُل لي يا أبو المغوار، هل واجهت جيشاً يقوده ملكٌ من قبل؟

- لا.. ولكن حصلت على زخائر ملكية من رومية..

عدل قسورة من وضع جسده على الجواد ليواجه أبو المغوار:

- حسناً، لقد نلتَ من المجد ما لم أحظ به بعد.. سيدي، كم لبثنا من سنين مع بعضنا البعض، وإنه لمن الشرف لي أن أكون ربيبك. ولكن هناك سؤالاً جديداً يلح علىي لأول مرة..

- هاتِ ما عندك يا قسورة!

- كيف قضيت حياتك لأكثر من نصف قرن دون زوجة؟

- تزوجت أربعًا.

عقد قسورة حاجبيه:

- كفاك الغازًا..

ضحك أبو المغوار:

- حسناً حسناً.. لا يحتاج المرء منا سوى واحدةٍ، تكفيه وتعطيه، فقط عليه أن يقطع. وقد منحني الله أربعًا بعد زوجتي.. عملت على تربيتهن وحدي، حتى رحلت كل واحدةٍ منها إلى حيث هي الآن..

- مهلاً لقد قلت أربعًا، ونحن نعرف أن لك ثلاثة فقط.

- باري كانت الرابعة.. جئتها وكانت مدينة صيد تعج ثدياتها برائحة الأسماك وألوام الشباك، حصنًا أكله الموج على مر الأزمنة..وها هي ذي الآن فتية قوية.. وقريباً ستُقارب قرطبة والقيروان والفسطاط..

- نحن نختلف عنهم تماماً يا أبو المغوار.. هم بين ظهور الأمة، ونحن على ثغورها..وها هو ذا ملك الروم ينزل عن عرشه ليهاجمنا..

- ما نزل ساحة الوعى إلا من أجله. عاجلاً أو آجلاً ستُخضع لنا رومية.. فقط علينا الصبر والرباط.. ما إن تفتح راجوزة بالجانب الآخر من البحر، ستكون لنا قاعدةً تمنع جيوش بيزنطة من العبور إلينا..

وعندما تحين ساعة الفتح..

كان أبو المغوار يتحدث وعقله مع سودان الذاهب لغمار حرب أخرى، أخذ معه مائة رجل فقط إلى "برنديزي"، حيث سينجح من هناك إلى حصار راجوزة. وجده ضروري في حملة الجنوب، لدعم قواعده ملكه. لقد بلغ سودان ذروة سلام القيادة، يحبه العامة، ويسيّر خطوات ثابتة نحو مجد يخلد. كان العجوز سعيداً بما تؤول إليه الأمور، طالما كان يحمل على عاتقه هموم السلطان، رببه الذي شب في كنفه، يرى فيه ابنًا ليس من نسله.. ودينًا عليه سداده.

سان فيلي..

"الأيام تهزمنا.. كل يوم يمر يأخذ معه جزءاً من روحنا.. الفصول المتشابهة تمضي دون توقف.. أ Jasaduna تصبح خاوية، وحياتنا تمسى ليلة شتاء طويلة لا نهاية لها. يذبل زهر ربيع صدورنا.. ولنكم رحلتنا في الحياة علينا تحمل عناء ومشقة السفر صيفاً.. إلى حيث نعمد من جديد" ..

كلمات الأب ليو ما زالت محفورةً بعقل لورينزو. تسعه أشهر مضت، لم يستطع أن يفعل شيئاً لابنته الهائمة. تضرع كثيراً للرب أن يمنحها عقلاً آخر. أوجعه قلبها حالها.. افتدته من الموت مرتين، وعليه أن يسد دينه. نصحه الأب ليو بالذهاب إلى روما، ويحملها معه للبابا، فقد مس الفتاة شيطان؛ لكنه خشي عليها من تلك الرحلة. ذبلت ووهنت، ولم تعد تحدث أحداً، وأصبحت باردة الملامح. أطال النظر إلى ركن خاو، حيث كان يجلس كاراس يوماً، ليته كان موجوداً ليداويها، يحتاجه أكثر من أي وقت مضى، لطالما كان راجح الرأي. ولكنه أهانه كثيراً بدفعه وانحيازه لذلك الأمير العربي. يتذكر ذلك اليوم الذي قال له إن عليه أن يحسن التصرف قبل فوات الأوان. لكن كان من الصعب أن يتقبل ما يمر به، أحالمه تقع تحت أنفاس الواقع، كل شيء تبدل عكس ما تمنى، تضاربت مشاعره تجاه الجميع، ولجا لركن مظلم بحانة سباستيان، بعدما خسر محصول الكرم هذا الربيع إثر سيل جارف دمر الحقول. كان يعتقد أن لمariesا شأنها في هذا.. فالفتاة كانت دوماً تحمل البركات له، هكذا كانت البشرى حين رأى العذراء مريم تبشره بمولدها. لا يعلم آية تعويذة ألقاها ذلك العربي عليها..

شرب كثيراً هذه الليلة، كلما فرغ القدر صبّ له سباستيان غيره. لم يعد يُبالي به أحدٌ من رواد الحانة، انشغلوا بالتصور العاري والرقص، يتفاوزون ويتعالى ضحكاتهم أكثر فأكثر.. لم يعد يحتفل كل هذا الضجيج، فنهض ضارباً المنضدة بقدح الشراب، فتناثرت الجعة والزجاج. توقف العزف، وحملقت العيون به وقد تجلى الغضب بوجهه ونظراته. بخطواتٍ غير متزنةٍ مرّ بينهم صائحاً:

- لماذا توقفتم عن الغناء والرقص؟ تتمايلون وتطلقون العنان لضحكاتكم، دون أن يُبالي أحدكم بأمرِي أنا.. سيديكم النبيل لورينزو.. هل انتهت كل همومكم، وتبددت كل مخاوفكم؟

قال أحدُهم متهدّماً:

- لا تُعكر صفو الأجواء أيها العجوز.. اذهب وافرض قيودك على ابنتك المجنونة!
دار بوجهه في المكان بحثاً عن قائل الجملة. اغورقت عيناه بالدموع، وراح يُزيرهم عن طريقه وهو يتربّص:

- هل وصل بكم الأمر أن تذكروا ابنتي، أيها الرعاع؟ أي أجواء تلك التي أعكرها يا ذوي الراحة النتنية.. إن كان لديك الجرأة لقول هذا، فلم لا تقوله في وجهي دون أن تتوارى بين نهود العاهرات..
أمسك بتلابيب أحدهم، وأخذ يُحدق في وجهه قبل أن يُفنته ويُمسك بأخر:

- لكم جبناء.. دجاجات سمنت في حظيرتي.. لستم رجالاً. فالرجلُ يواجه ولا يتخفي.. سأعقلكم جميعاً.

- لقد ولَّى زمنك يا سيد لوريينزو..

أفلت من بيده، واستدار ليبحث عن قائل الجملة. اختلَّ توازنه، فسقط أرضاً، وانفجرت الخاجر بضحكٍ مرتفعةٍ. لم يُساعدَه أحدٌ على النهوض. صمتوا فجأةً، حين وقعت أبصارهم على مَنْ يقف بباب الحانة. كان إيلياندرو برفقة الحرس. انفلق الجمع إلى نصفين، ليمر بينهما متهدلاً بغلظةٍ:

- يبدو أن لدينا بعض الرقاب التي ستقطع الليلة.. فمن يجرؤ على إهانة سيده قد أهانَ ربَّه.

نهضَ لوريينزو بمساعدة الجندي، وإيلياندرو يُكمل:

- حسناً.. من ذا الذي يسخر؟ علمًا بأن العقاب قد يشملكم جميعاً إن لم تُخبروني الآن من الفاعل.
تبينت الألسنة وجحظت العيون، ولم يلبث أن قال سباستيان مشيراً إلى الشخص:

- إنه البرتو.

لم يتوقع الرجل أن يشي به صاحبه، ولكنه فعل. ابتعد الناس عنه، وبقي وحيداً وقد اتسعت عيناه، لا يفهم معنى الإبتسامة التي ارتسمت على شفتِي إيلياندرو، قبل أن يُعطي الأمر لرجاله بالإمساك به.
تراجع الرجل خطوتين للخلف وهو يرمي سباستيان بمقتٍ:

- لم أفعل شيئاً.. أنت كاذبٌ يا سباستيان.

ضاعت صيحته وسط لكمات الجندي له. حملوه إلى خارج الحانة تتبعهم الأعين، بينما وقف إيلياندرو بمنتصف المكان:

- إن مَنْ يُهين النبلاء عقابه الموت.. وإن سمعت يوماً أي همسٍ يصدر من هذا المكان القذر، سأحرقه وأنتم بداخله.

أمسك برسغ أبيه، وغادراً المكان، بينما يجرُ الرجال البرتو إلى الساحة. كان يصرخُ ويتوسلُ، وعلى ضوء المشاعل ثبَّت الجنود صاريًا خشبيًّا بوسط الساحة، وأمر إيلياندرو أحد رجاله بمرافقته أبيه إلى المنزل. رُبط الرجل إلى الصاري، صرخاته جعلت أهل القرية يتلاصصون من خلف النوافذ والأبواب، وإيلياندرو يصبح بصوتٍ هادرٍ:

- هذا عقاب كل جبان آثر الوقاحة عن تبجيل السادة.. سأضرب بيدِ من حديد كل من تَسول له نفسه الاعتداء على النبلاء، وسيبقى هذا الحقير هنا حتى يموت جوعاً وعطشاً، أو يعفي عنه النبيل لورينزو.

مضى إلى المنزل، وقد أولى الحرس بمراقبة المُعاقب. ارتفى التل يحث الخطى، غاضباً من أبيه الذي جعل من نفسه أضحوكة للعامة. مقرراً لومه على ذهابه للحانة وسط الأقان، ولكنه وجده نائماً. استقبلته كاترينا وقد اعترافها القلق:

- ما الذي حدث؟

جلس على طرف الفراش، يخلع حذاءه الجلدي الطويل:

- لا شيء، فقط كنتُ أُدب أحدهم.

- هل تخفي عنِّي شيئاً؟

أمسك بيدها برفقٍ وهو ينظر في عينيها:

- لا شيء حبيبتي، لا تقافي. بعض الأمور تحتاج لفترة أحياناً. أخبريني كيف حالك؟

تحسست بطنها المنتفخ:

- يبدو أن صبيك سيصير مثلـك، منذ الصباح يركل بطني، ولم يتوقف إلا حين عدت أنت.

- أنشوق لليوم الذي أراه فيه..

- وهو أيضاً يشتاق لأن تضمـه إلى صدرـك.

- وماذا عنـ أمـهـ، ألا تـشـتـاقـ لـذـكـ أـيـضاـ؟

ضحكت وهي تضع حذاءه جانباً، وعادت إلى الفراش بجواره. احتضنها بلـينـ، وعقلـهـ يبحثـ عنـ سـبيلـ لما هو قادـمـ. هاجـسـ يهمـسـ بأـدـنهـ أنـ الغـدـ سـيـكونـ يومـاـ عـصـيبـاـ.

اشتدَّ القيطُ وقتَ الظهيرة، والسماءُ صافيةٌ لا يشوب زرقتها بياض، والشمسُ تُهيمُ على الجبال والغياض، وبدت سان فيلي شاحبةً مهجورةً. ليست كما يعتادها أهلـهاـ، الذين صاروا يقولون إن السراسنة جاءـوا بـطـقـسـهمـ الـحـارـ معـهـمـ. تركـ الرـجـالـ مـعـاـولـهـمـ، واستـظـلـوـاـ بـجـدـرـانـ المنازلـ الحـجـرـيةـ، لـعـلـهـ تـبـردـ ظـهـورـهـمـ، يـسـارـكـهـمـ مجـلسـهـمـ جـيشـ منـ ذـبـابـ يـبـحـثـ عنـ الـظـلـالـ. تـنـاسـوـاـ أمرـ البرـتوـ المـصـلـوبـ بـالـسـاحـةـ، وكـأنـهـ لمـ يـكـنـ. إـحدـىـ النـسـوـةـ خـرـجـتـ تـسـكـبـ دـلـوـهـاـ جـوارـ مـنـزـلـهـاـ، فـركـضـتـ إـلـيـهاـ الخـازـنـ الصـغـيرـ لـاهـثـةـ. الدـجاـجـاتـ تـرـقـدـ تـحـتـ الشـجـيرـاتـ غـيـرـ مـبـالـيـةـ بـجـلـبـةـ الـأـطـفـالـ وـهـمـ يـرـكـضـونـ إـلـىـ خـارـجـ الـقـرـيـةـ. اـقـتـرـحـ أـحـدـهـمـ أـنـ يـذـهـبـوـاـ لـلـسـبـاحـةـ فـيـ الـبـحـيرـةـ بـدـلـاـ مـنـ مـطـارـدـةـ كـلـبـ سـبـاستـيـانـ. مـرـواـ إـلـىـ جـوارـ الـمـصـلـوبـ، دونـ أـنـ يـتـحرـكـ أوـ يـأـبـهـ أـحـدـهـ مـنـهـ بـهـ، فـقـدـ اـكـتـفـواـ مـنـ جـعلـهـ هـدـفـاـ لـلـحـجـارـةـ وـالـثـمـارـ

التالفة، حتى ملوا.

داخل الكنيسة، انهمك شابٌ نحيفٌ في ترتيب الشموع. ملابسه البيضاء الفضفاضة، والوشاح الأحمر وشت شأنه شماسٌ مُتدرب، تطوع لخدمة الرب منذ أيام فقط. وجذ الأب ليو فيه مساعدًا له، قبل أيام من عيد انتقال مريم العذراء، فقد هرم ولم يعد يستطيع تحمل تنظيف المكان وحده. كان يُلقي النظر على الفتى من وقتٍ لآخر، بينما يجول هو حاملاً مبخرة ذهبية، راح يوزع دخانها العطر في أرجاء المذبح متتملاً: مريم، يا ممتلئة نعمة ومباركة بين النساء.. لم يقطع صلاته حين رأه يقف على باب الكنيسة، بينما تقدم صاحب الحانة منكس الرأس. توقف سbastian أمام الأب ليو، الذي أومأ للشمامس، فجاء مهرولاً ليأخذ منه المبخرة. انتظر حتى ابتعد الشاب وقال لسباستيان:

- هاتِ ما عندكِ!

- لقد جئتُ للاعتراف يا أبا..

اتسعت عينا ليو، وانتفض قلبه فرحاً. حرك يده راسماً الصليب في الهواء:

- لقد أسعدتني حقاً يا سbastian.. هل ستُتفق الحانة أخيراً؟

رد سbastian بخفوتٍ:

- لم آت لغلق الحانة.. بل لأنني وشيت بأبرتو المسكين إلى إيلساندرو.. ألم يخبرك أحد أنه مصلوبٌ في الساحة؟!

- متى حدث هذا؟

- في وقتٍ متاخرٍ من الليلة الماضية.

لم ينتظر الأب ليو حتى يُكمل سbastian جملته. تحرّك غاضباً بخطواتٍ واسعةٍ نحو الباب، يتبعه صاحب الحانة مُستغرباً كيف أعاد الغصب إلى هذا العجوز قوته. ما إن خرج الأب من الباب، حتى تبيست قدماه، ووقف يُحدق في الصاري المنصوب في نهاية الدرج. اتجه نحو الساحة، يجرُ طرف ثوبه على التراب، وسباستيان يتبعه. كان الأب ليو ينوي أن يفك وثاق البرتو المسكين، وبعدها سيرى ذلك الأرعن إيلساندرو. يبدو أن الجنون أصاب كل عائلة لورينزو. رفع عينيه للسماء طالباً العون والمقدرة، ولكنه فوجئ بزرقتها داكنة، وقرص الشمس فيها كطريق ذهبي يشع بخفوٍ. جعل سbastian يرفع رأسه هو الآخر نحو السماء، فهاله ما رأى.. الشمس تتأكل ببطء، والعتمة تناسب إلى قرصها رويداً، والسكون فرض نفسه على الأرض. عندما تأكل نصف الشمس، وصارت هلاماً يتناقض، ارتفعت صرخات النساء، والرجال جذبوا نسائهم وأطفالهم وركضوا بهم إلى منازلهم. صرخت امرأة: "الأطفال عند البحيرة.. لا ترکوهم".." ولكن الكل أخذ يصدق بايه ونوافذ منزله، حتى سbastian رکض عائداً للكنيسة، وانكبَّ على وجهه يبكي ويتوسل صلواتٍ متلعمة. أما الأب ليو، فتراجع خطوتين للخلف غير مصدق لما يحدث.. وأخذ يتمتم بصلواتٍ سريعةٍ وعيناه تدوران في ظلمة السماء، لعل الشمس تفلت من براثن الشر. صرخاتُ انت ات من أعلى الريبة حيث منزل لورينزو، فالتفت إليها.. كانت ماريا قد تجاوزت البوابة الخشبية، تجري قابضة يدها على شيء ما، غير مبالية بالصيحات خلفها، شعاع حافية القدمين، غير آبهةٍ للغبار والطين الذي يتناثر على ثوبها الأبيض

الذي يزيدها شحوباً.

وصلت إلى الساحة، فأبطأت خطواتها. ازداد الظلم، وصارت الشمس كأنها ذكرى من ماضٍ بعيدٍ، وإلينا لا تكف عن الصراخ في نافذتها منادية ابنتها الهائمة. كاترينا كانت تمسك بطنها باكيّة، لا تقوى على مناداتها، ولكنها كانت تشعر بأن لا شيء سيؤديها. رغم ذلك كان قلبها ينقبض بعنف، وأحسّت بوجع أسفل بطنها، فجلست بالقرب من الباب وقد اتسعت عيناه من فرط الألم. كان إيلساندرو ينزل الدرج مغاضباً من فعل أخته، أقسم أن يكيل لها الضربات، أو لعله يقتلها ويريحها من عذابها الأبدية. توقف حائرًا للحظة أمام زوجته المتالمة، لم ينطق، وتوجه إلى باب المنزل حيث أمه تنتصب، تردد في الخروج لبرهة، وحين اتخذ قراره، أتاه صوت أبيه من خلفه:

- اتركها وشأنها يا إيلساندرو..

تجمّد مكانه حائراً، بينما تقدّم منه لورينزو وقد اغرورقت عيناه:

- إنها بمعية الرب.. لا تخرج يا ولدي.. أخاف أن أفقدكما.

في الظلمات، وحده القلب النقي يكون نبراً لصاحبه يُرشده إلى حيث الضياء والصفاء، ويمنحه قوّة حين يخاف الجميع، بيقين أن ليس بعد الظلم سوى النور.

توقفت ماريا عند طرف الساحة، تحمل في يدها قربة ماء صغيرة، بينما وقف الأب ليو في الجانب الآخر، يتوضّلها البرتو المُنتخب فرعاً. صارت الشمس حلقة من شعرة ذهبية نبتت بظهر حصان أدهم. الأب ليو يرفع صوته بالتلاؤة أكثر، يتصدى للروح الشيطانية التي تحوم في الأرجاء، وعليه الثبات والتصدّي للشرور. رنين أجراس الكنيسة أفرع الأب ليو، فانتفض وكاد يلعن الشamas الغبي.. ردت الجبال البعيدة رنين الأجراس، ومن رحم الظلام ولد هلال شمس جديدة.. خيط رفيع بدأ يسطع رويداً على وجه ماريا وهي تقترب من البرتو، ترفع قربة الماء لتسقّي شفتّيه الجافتين اللتين تلتفان قطرات المياه في حذر، وعيناه تفيضان بالدموع وبالشكر للقديسة التي آتت لتمنحه الحياة. ومن بين شقوق الأبواب والنوافذ، كانت العيون ترصد كل ما يحدث، تتلمس الرؤية في الضوء الشحيح.

حدث كل شيء سريعاً خاطفاً، ولكنه سيخلد في رؤوس الصبية، وستبقى حكايات أمهاهن عن الغول الذي يلتهم الشمس باقيّة في نفوسيهم للكبر. كان إيلساندرو يحمل أخته "جالية الضياء" كما نعتها الأطفال، والأب ليو يتبعهما يصعدان التل نحو المنزل، وخرج الناس من البيوت يُعيدون حكي ما حدث. القليل من حيوا الأب ليو، الذي كان يرى في نفسه مؤمناً حقيقياً، ولكن ماريا كانت انبهارهم الأكبر. كانت المرة الأولى التي يرونها فيها منذ اختفت داخل منزلها، لا تخرج إلا مع كاترينا إلى الجدول والبحيرة بين الفينة والأخرى.. قال البعض إنها قدِيسة، وقالت نسوة إنها ساحرة ويسكن جسدها شيطانٌ ما.. لكن كيف لشيطان أن يفعل الخير ويفك وثاق البرتو الذي شارف على الموت؟!

تجلت العظمة في أفق بعيد، خلف حقول شاسعة.. روما، مدينة التلال السبع. شمس الصباح تستبيح الظلل، تزيح العتمة عن مبانٍ عتيقة سامحةٌ تبرز وسط المنازل، يحتضنها الجدار الأولياني الضخم، ويجرِي نهرُ التiber بميادِه العَكْرَة بين صفتَيهَا، شاهدًا على تأسيسِها وسطوعِ نجمَها، شرب من ميادِه ابنَهُ الحرب، رمُولوس ورمُوس ربِّيَا الذئبة، قبل أن يقتل أحدهما أخيه ليحظى بالمدينة الصغيرة وحده. نسرٌ ذهبي بسط جناحيه فوق ربوة العالم القديم، واتخذ من قمم معابدها وقصورها عشاله. روما عظيمة عبر التاريخ، حكمت أراضي شاسعة بالحديد والنار، مستعمراتها لبت طلبات إله الحرب وعدة آلهة أخرى، مدينة مقدسة حظيت برعاية جوبِيتور وزمرة. ورغم أن البقايا المهملة لأعمدة وتماثيل محطمة تهمس للرأني أن لا شيء أعتى من الزمان، إلا أنها ظلت رمزَ المسيحية قبلة الحاجِ الْوَافِدِينَ من أصقاع أوروبا لنيلِ البركات والغفران، تأتِيَها الركبان القادمة عبر طرقٍ تؤدي جميعها إلى بواباتها العملاقة، وبكل طريق جسرٌ عملاقٌ من القناطير المعلقة، إحدى عشر قنطرة أو ما تبقى منها، ترشدك إلى المدينة المترامية. سارَ الجمُعُ الغَفِيرُ بجوارِ ا��وا كلاوديا— أو كما يُسمِّيها البعض قنطرة الجنوب، نبت في مفاصل حجارتها العتيقة العُشبُ، الذي صار مأوى للطيور. كانت قديمةً شاهقةً، لا مثيل لها، فاضت على المدينة ذات يوم بالمياه، والآن أصبحت معلمًا مهجورًا، يوازيها ويُؤنس وحدتها طريقٌ ممهُّدٌ بالحجر، قديمٌ كقدمها. وبينما تنتهي كل الطرق إليها، وحدها قناطير المياه تمر فوق السور الأولياني وأبراجه العظيمة..

تباطأت البغالُ والخيولُ وهي تمر بضاحيةٍ فقيرة، نشأت في كنفِ السور القديم. هي يسكنه الفلاحون، بملابسِهم الرثة، ووجوهِ أرهقها الصيف. الفتياً يحملن سلالَ الخضراءِ واتجهن إلى المدينة. بدأ القافلةُ ضئيلةً إلى جوارِ البوابة الضخمة ذات البرجين العظيمين. راياتٌ وبياناتٌ البابوية زينت أرجاءَ المدخل، وتحتها وقف جندٌ يكسوهم الفولاذ من أخصصِ القدم حتى قمةِ الرأس، وعليهم عباءاتٌ حمراء تتسلل عن أكتافهم، يتوسطها مفاتيحان يتقاتلان. كان لوريينزو يقودُ الركب إلى داخلِ المدينة، حاملاً جبلاً من الرجاء. رحلة حجٌ نذرها للرب، لعلَ البابا يُداوي ابنته ببركاته ونعمته. حمل معه العديد من أهل قريته، ومن أرادوا الذهاب للحج. إلى جواره كان إليساندرو، يمتطي حصاناً أحمر جامحاً. إنها المرة الثانية التي يزور روما، بهاؤها يبعثُ الفخر في نفسه، ولعلَ ابنه يُولد فيها، فينال من حظها ما ينال. لم يغب إليساندرو عن نظراتِ كاترينا، التي تجلس على ظهر عربةٍ يجرُها جوادان، تحتضن ماريَا الناعسة. ابتسامة ماريَا الخافتة منحتها تفاؤلاً بأن كل شيء سيبدل بعد هذه الرحلة. كانت تهدَّد ماريَا وتقص على مسامعها حكاياتٍ عن القديسين وبركات روما الدائمة، ومن ورائهم كانت فيولا منبهةً بما تراه حولها. لحقت بالركب في آخر لحظاته، فبكت بين يدي لوريينزو، تستأنفه أن تركب معه إلى روما، فاما أن تهدي ببركات البابا، أو تضيع في روما وتخلص منها قريته الهدامة. التفتت إلى ماريَا، القديسة ماريَا كما يُسمونها. كل الناس يرونها طاهرةً، رغم أنهن رأوها بأعينِهم عند البحيرة مع ذلك العربي. ستطلب الغفران وخدمةِ الرب، وتُصبح راهبةً في روما. لقد اكتفت من الملذات، وجاء الوقت للتوبة. إلينا النائمة استيقظت حين ارتجت العربية. فتحت عينيها على عالمٍ فسيح تزاحمت فيه المنازل والأشجار، وقد استقبلهم بناءً بيضاويًّا ضخماً، تهدمت بعضُ أجزاءِه العلوية، ورغم ذلك يقف شامخاً، يتضاعل إلى جواره العابرون. شهد الكولسيوم نزالَ آلافِ المُجالدين عبر قرون، ثم صار مهجوراً، خلا من تردد صدى السيفوف وزفير الأسود الأطلسيَّة، والزحام في درجاته، وسكن المشردون أدواره السفلية، فصارت ضخامة بنائه الخاوي تبعث في

النفس رهبة وتساؤلًا هل هو من صنع البشر؟

كان لورينزو يحكى لإليساندرو عن تاريخ كل ما مروا به.. قوس تيتوس الذي يُخلد ذكرى انتصار الإمبراطور في القدس، سيرك ماكسيموس الذي صار أطلالاً، ولم يعد الإنسان يُصارع فيه الحيوانات. ويشير إلى أعمدةٍ رخاميةٍ تنتشر في الأرجاء، والقرميد الأحمر والطرق المزدحمة بالازياط والملاحم، في مزيجٍ فريدي بين أقصى دركات الفقر وذروة الترف، والساحات ونواافير المياه، والقساوسة والرهبان يسيرون بين العامة، ويُضاحكه حين تمر مواكب النبلاء تجمع بين الرهافة والبربرية، ويسأله عن جند البابا الذين يطوفون الأرقة، ضخام البنيان يرتدون دروعاً ذات نقوش كثيرة متداخلة زينت الفولاذ اللامع، ودرع الكتف تُوازي ارتفاع خوذاتهم ذات الريش الأحمر، وخطواتهم تصدر صوتاً معدنياً فيفسح لهم العامة الطريق، يُبجلونهم بقدر مخافتتهم. وحين أحس ملأ ابنه، أبطأ بجواهه حتى حاذى عربة النساء، وأخذ يُحدث ماريما عن قصة عامود ترانج، فهو يُخلد ذكرى انتصاره على دافية، وينظر في عينيها يتنمى أن يرى فيهما أنها تسمعه وتفهم ما يقول.

وأخيراً، أودعت الخيل والبغال الحظيرة المرفقة بالفندق. لم يدخل لورينزو في اختيار المكان وأجزل العطاء للخدم. كان المكان نظيفاً، في حي هادئ، تطل شرفاته على الباشيون بقبته الكبيرة. القرويون أخذهم الآبهار، فراح كل منهم يبحث عن اهتماماته في المدينة، بينما أطلت ماريما من نافذة غرفتها بالنزل، مستكينة للهدوء. رأت ظلال قلعة سانت أنجلو، ونيران مشاعلها تنعكس على مياه التiber الجارية، حيث يتسامر الأخلاء والعشاق. أشاحت بوجهها عنهم، شطر كنيسة القدسية القسطنطينية، حيث قبر القديس بطرس. ستوجه إليها غداً، سمعت أباها يتحدث عن زيارةه للبابا وعرض حالتها عليه. كانت تتوقع لهذا اللقاء حتى تنهي صومها عن الكلام. زهدت الحديث مع من لا يفهمها، رغم ما ترى من حزن في عين أبيها، وصلوات أمها التي لم تتوقف، ووجه كاترينا المكتسي بالشجن.. كانت ماريما تجسِّداً للانكسار. تتذكر نهار الكسوف، حين فكت وثاق البرتو، أحسست أن الظلام إشارة من رب أن ما يفعله أخوها شرًّا كبيراً. الصواب هو الرحمة.. المسكين كان يرتجف، العطش والخوف من الكسوف كادا يصيّبانه بالجنون، ورأت في عينيه رعباً جريبه يوم نال الفراق منها. أغضبت عينيها مسترجعة مشهده.. سودان.. كم كان قوياً في إعلان حبه لها أمام الملأ من قومها وقومه.. ودت أن تصرخ "وأنا أحبك". هل يدرك أن الأمر لم يكن بيدها؟ واجبها نحو أسرتها جعلها معصوبة البصر، وقد نالت الحيرة من البصيرة، فأحكمت الرباط على شوقها ونحرت أمنياتها، ثم تقطّعت في سراديب الأحزان. لربما يكون قد كرّهها. فتحت عينيها، فلمحت كاترينا وإليساندرو عند حافة النهر. ابسمت وحدّث نفسها:

"ليس بي أي شيء؟! أنا لا أزال متماسكةً."

صمت لبرهـة قبل أن تُتمـ:

"كل ما في الأمر أنت لن تلتقي مرة أخرى."

أطلت النظر بسماء روما ونجومها، وذرفت عيناهَا دموع الألم. عادت إلى فراشها مثقلةً بالحزن. مدّت يدها تحت الوسادة، وأمسكت بحصانه الخشبي..

"هل صاحبك يذكرني؟"

قلبت الدمية تتأمل اسم روما باللاتينية. رفعته أمام عينيها هامسةً:

"ها أنت تأتي روما دون صاحبك.. ووحده الرب يعلم ما سيحدث غداً."

مع ضوء الفجر البعيد تهادت الطرادات فوق سطح البحر، ثلاثة سفنية خفيفة الوزن رشيقه القوام
تبعد ببطء في خليج ضيق محاط بأراض منبسطة، متوجهة إلى مدخل الميناء المنبع، الذي يحرسه
برجان عظيمان لم تطفأ نيران قناديلهما بعد، وبينهما قطرة من حبال وخشب. ما إن وقعت أعينُ
الحرس على السفن المقلبة، حتى رفعوا الرأيات، وصاح أحدهم مكبراً. كرر نداءه، مما جعل أهل
المدينة الذاهبين لأعمالهم ينجذبون ناحية المرفأ، مهرولين. وترك التجار محالهم، التي فتحوها للتو،
وصعدت النسوة إلى أسطح المنازل القرية من البحر. لقد عاد أسطول باري إلى برنديزي، وكانوا قد
أبحروا منذ شهر إلى راجوزة. كانت عودة سريعة، أثارت فيضاً من التساؤلات، هل انتصروا أم
انهازوا عائدين لسبب ما؟!

عبرت الطرادات بين البرجين تباعاً، تعلوها رأيات خضراء خفافة، وعلى سطحها تجمع الجند
ملوحين بالرأيات، مهاللين بصوت هادر، فضج الميناء بصيحات الفرح، وتقاذف الرجال وحملت
الأطفال على الأعنق، وسرعان ما كانت حارات برنديزي تردد أغاريد النصر، رفعت المجاديف،
 واستعد الجند للرسو، وعلى مقدمة السفينة الأولى، كان واقفاً يرتدي صديرية ودرعه معصم من جلدٍ
خيط بالزرك، زي حرب خفيف لم يروا أميرهم يرتديه من قبل. كان باسم الثغر، وقد منحته عزّوته
نصرًا مبيناً على أسطول البندقية، واكتسب وجهه سمرة بفعل شمس الصيف الحارة. المدينة كما هي
منذ أن رحل عنها مع زوجته وطفله، تذكره جنباتها بكل من رحلوا، سليماء ومحمد وشعيب. عقد
وأكثر مرّ، وتبدل الأحوال، وهذه برنديزي دون سليماء، ولم يبق أثر فيها لشعيب. وفي باري زوجة
لا يطأها، وانتصار باري على سفن البناقة والبيزنطيين قرب راجوزة، ومجد وثناء ووحدة.

- لم لا تؤجل العرس حتى أعيد أسرتي إلى باري، ثم أرافقك إلى إفريطش؟

- وددت ذلك أيضًا.. ولكن كما تعلم لقد تأجل موعد الزفاف أكثر من مرة، وأخاف أن يغضب الأمير
لأخته. لقد طال بنا المقام هنا في برنديزي.

- قل إنك تشتابق لخليلة القلب!

ضحك شعيب حتى ظهرت نواجذه، وسودان يستطرد:

- أثق في حُسن اختيارك يا فتى.

- سأصدقك القول يا صاحبي.. إن الله منحني أفضل رفيقين في هذه الدنيا.. أنت وهي.. سأمكث في
إفريطش لبعض الوقت، أبلغ سلامي لأبي المغوار وقسورة..

- سأفعل.. ولكن لا تنس درينا الطويل حتى رومية، فلا تنشغل بالحب وتنسى الحرب..

- لن أفعل بالتأكيد.. لماذا لا تعود إلى باري بـ؟

- لقد أعدت السفن للرحيل.. كما أنها ستختصر الوقت كثيراً.. وأنا أحب رؤية باري من البحر.

"لا تنس درينا الطويل حتى رومية، فلا تنشغل بالحب وتنسى الحرب.." رددها سودان لنفسه وابتسم

ابتسامة تحمل حزن قلبٍ موجوع. تذكر سليمة التي وقفت في إحدى الزوايا المطلة على الفناء، تحمل الرضيع بين ذراعيها، وعيناها معلقتان بزوجها. تجاوز شعيب واتجه إليها، فحمل عنها الصغير وسار أمامها، فتبعته وقد أحكمت وضع نقابها. لقد أحبته ولكن لم يفعل.. كانت تدرك أن سودان لم يُحب سوى حممات الخيل وصليل السيف وهدير المعارك. لم تشتكِ. اكتفت بأنه يتاطف بها ويبيحها وينحها الأمان، وما تمنت من الدنيا سوى أن تكون قربه.

انفرج الباب العتيقُ عن وجه خادمه يسأله الإذن أن يأتيه بالطعام..

- ليس الآن يا عبد الله.. أريد أن أحظى ببعض الراحة بعد الرحلة الشاقة في البحر، وأأمل ألا يزعجي أحد طوال اليوم.

أومأ الرجل برأسه وأغلق الباب خلفه، وشرد سودان مع نهر ذكرياته المتدفع.. ولكن هذه المرة كانت ماريا.

((يا سمعان بن يونا، أتحبني أكثر من هؤلاء؟

سأله يسوع، فأجاب بطرس: أنت تعلم أنني أحبك.

فقال يسوع: ارجع غنمِي..

كرر السؤال ثلاثةً، وكانت الإجابة واحدةً. لقد صدق بطرس في حبه، وسار على درب الإيمان خلف يسوع، وكان أبرز تلاميذه وراعي خرافه. لقد جاء إلى روما ليؤسس كنيستها، وعاني كثيراً من أجل رب، حتى استشهد على يد الإمبراطور الوثني نيرون، فكان كما سماه يسوع "الصخرة"، لم يضعف حتى في لحظة صلبه. إن إيماننا يُختبر، ومن تحمل الآلام وصبر عليها حظى بملكوت الرب. ولقد وضع الرب مقاييس رفيعة لرعاياه وعلمهم كيف يبلغونها)).

مائتان من المصليين كانوا يستمعون إلى عظة البابا أدريان الثاني. وبين الصنوف كان لوريزو وعائلته، مبهوريين بكونهم يجلسون بالكنيسة القسطنطينية، حيث قبر بطرس الرسول. استبشرت ماريا بقرب الفرج، متمنية أن تتحدث مع البابا وتعترف له بكل شيء، كما هو حال الجميع. وقفوا في تبجيل حينما مرّ بهم، وخلفه الكرادلة والحرس ذوو الدروع الفضية، وهو يومئي برأسه مبتسمًا. توقف أمام لوريزو مشيراً إليه بالتقدم، فاجتاز لوريزو صفين من الناس ثم جثا أمام البابا مقبلًا يده، فرفرت الأخير على رأسه:

- ها قد حملتَ رياحَ الرب إلى روما سيد لوريزو.. أخبروني أن معك عائلتك أيضًا والكثير من أهل فريتاك..

رفع لوريزو رأسه وعيناه قد اغزورقتا بالدموع:

- لقد أتينا لنيل البركات والغفران يا أبتي.. جئت ممتلأً بالرجاء أن تعود ابنتي كما كانت..

القى البابا نظرة سريعة على آل لورينزو، قبل أن يتمتم:

- لك ما تشاء يا بُني.. أنتظرك أنت وأسرتك في المساء، فلا تتأخر. لدينا حساء جيد.

ربت على كتف لورينزو ومضى في طريقه، فعاد لورينزو إلى حيث تقف أسرته، يُخبرهم بأمر اللقاء، وعنه لا تفارقان وجهه ابنته، التي ارتسم على شفتيها شبح ابتسامة، فهذا قلبها. كل ما يفعله هو من أجلها، وسيفعل أكثر من هذا إن تطلب الأمر. خرج الناس من الكنيسة، وهم يرمون عائلة لورينزو بفضولٍ. انتشروا بالحديقة الشاسعة التي تطل على المدينة، وراح كل منهم يجهز ما سيقوله للبابا في المساء، لكن وحدها فيولا لم تكن تعرف ما تريد. الغيرة من آل لورينزو كادت تفتقض في عينيها، فجلست وحيدة على درج الكنيسة، تتأمل قومها، وتُحاول أن تقرر ما تريده حقًا من روما.

ظل العجوز يترثّر مع أحد الشمامسة، وزوجته السميّنة تقف جواره وقد أصابها الملل والتعب، بينما جلس القرويون على حافة بركة مياهِ ازدحم فيها الأطفال، يلهون وينثرن الرذاذ. وعند شجرة نمت وحدها فوق ربوة صغيرة، كانت ماريا تجلس وتعتصر الحصان الصغير بيديها في جيب تنورتها، كي لا يلاحظها أحد. غرفت روما في عينيها الدامعة، تكاد تجردّها من ثوب الأمل. يرتعد جسدها وصوت يُداهم عقلها، يحدثها أن لا عودة إلى حيث كانت. فركت عينيها، ووضعت حصانه على العشب الجاف بجوارها وهي تُحدثه:

- أنت في حديقة القديس بطرس يا صغيري.. أعدك أنك ستبقى معي دومًا. ما رأيك أن نعيش معاً في روما، ولسوف أسدل عليك الجفون، وتكون سري ورفيقي حتى الممات؟.. أو لعل صاحبك يأتي إلى روما فاتحًا.. أعدك، لن أبكي ولن أنوح.. ولن يمسبني بشئ سواه.. سأخبرك سرًا يا صغيري.. سأطلب من البابا أن أكرس حياتي للرب وخدمته في الكنيسة؛ هنا في روما.

..

استظل إلیساندرو وزوجته بشجرة كبيرة في بساتين تل الفاتيكان، يطلان على ساحة القديس بطرس وقلعة سانت أنجلو. روما في الجهة المقابلة تبدو بهية تحت أشعة الشمس. كانوا يتسامران، وهي تتآبّط ذراعه في دلال، حين لمح موكبًا من ثمانية فرسان من حملة الولايات، يتّوسطهم شخصٌ ما على فحلٍ حربي ضخم، يعبرون القنطرة. أسد ظهر زوجته إلى الشجرة بلطفي، ونهض قائلًا:

- سأعود على الفور.

تعجبت كاترينا، وتبعّته يقطع الحديقة بخطواتٍ واسعةٍ، وعنه لا تبتعدان عن موكب الفرسان. كان يعرف صاحب الدرع الذهبية جيدًا، ساعدته يومًا في ارتدائه في ساليرنو. حثّ خطاه أكثر، ليتأكد مما يتشّشى في رأسه، والخيل تضرّب الأرض بحوارفها في خفةٍ نحو بوابة سانت أنجلو. رُفعت البوابة الحديدية، وصريرها أعلن لإلیساندرو نهاية المطاف. كان يتمنى اللحاق به قبل أن يدخل إلى القلعة، ولكنّه كان قد اقترب لمسافة كفته لكي يتّأكد.. إنه الدوق اللومباردي ماركيزيو دي لابورتا!

القصر اللاتراني واحّة من السكون في مدينة صاخبة. عمر ضياء النهار غرفة البابا أدريان الثاني، وخلف منضدة كبيرة جلس البابا يطالع أحد كتبته، الذي انهمك في نسخ عدة رسائل. يمضي وقته في

المطالعة، والبحث عن سبيل لرأب الصدع بين البيزنطيين والكارولنجيين.
- سيدِي. قد وصل الدوق ماركيزيو.

أشار البابا إلى كاتبه، فترك ريشته بالمحبرة، ونهض منصراً، بينما الدوق يدخل إلى الغرفة. لم يستطع ماركيزيو الابتسام. حاول جاهداً أن يبتسم مجاملاً لمقام البابا، ولكنه فشل. عيناه كانتا تحملن الكثير والبابا ينهض مستنداً إلى المنضدة:

- أرى أنَّ الرَّبْ يُحِبُّكَ يَا ماركيزيو..

ألقى جملته وهو يمد يده نحو الدوق، الذي أرغم ظهره على الانحناء لتقبيل يد العجوز هامساً بخفوتٍ:

- هلَّ الرَّبُّ مِنْ مَنْ نَعَكَ مِنْ دَفْعَ فَدِيَتِي؟

لم يسمع البابا كلماته. ربَّتْ على رأسه:

- بوركت.. ماركيزيو بن باولو دي لابورتا.

اعتل الدوق واقفاً، وأطاح كل منهما النظر في وجه الآخر، قبل أن يقول أدريان:

- حَزَنْتُ لِخَبْرِ أَسْرِكَ.. وَلَمْ تَنْقُطْ صَلْواتِي مِنْ أَجْلِكَ.

- اعذري يا أبتي إن كنت قد ظننتُ بك سوءاً، فقد كنت على قناعةٍ أن لا أحد يذكرني، فلا أحد دفع فدية فك أسرى، كما فعلتم مع نبلاء بنفينتو ونابولي.

كانت كلماته تقطر بالتهكم، وقد وعى البابا ذلك. ابتسم وهو يجلس على المقدَّس القريب منه:

- ذلك أن ما قيل لنا أن السراسنة قطعوا رأسك وعلقوه على بوابة باري.

- وهذا أنا أقف أمامك الآن كاملاً مُعافِياً..

- لا أحد كامل أيها الدوق. ولا تنس أنك أقسمت أن تحارب الوثنيين من أجل الرَّبِّ.

- في الحقيقة لم أنس، ولكنكم من نسيتم أمري وتركتموني بين ظهور الأعداء.. ثم قداستك الآن تذكرني بقمسي.. (تنهد) يا أبتي ما حدث قد حدث وممضى، وما جئتُ لها للعتاب والإقاء اللوم عليك. إنما أتيتُ لأخبرك أنني مررتُ بالطريق بمن تبقى من جيش الملك لويس المنسحب.

اتسعت عينا البابا، وازداد حاجباه بياضاً حين عقدهما، وماركيزيو يستطرد:

- نعم، إن حملة الملك الكارولنجي باعث بالفشل على ما يبدو، وباغتها قواتُ باري بالقرب من بنفينتو. ما هكذا تُدار الحروب!

مط البابا شفتيه وقد اكتسى وجهه بالحزن:

- لقد نصحته بعدم الذهاب.. من العبث أن يكون الجيش مؤلفاً من العبيد والمزارعين وأصحاب

الحرف..

- النصيحة وحدها لا تكفي. لقد رأيتُ القوم وكيف يُحاربون. يعتمدون المباغتة دوماً. إنهم أكثر حرّاً على النصر، أما نحن فنتحرّكنا الأهواء، وكل ملكٍ يريد أن يُصبح هو البطل الأوحد. الجيوش ليست للاستعراض ونهب القرى الصغيرة، وأخشى أن يكون ذلك الجيش قد استنفذ كل المؤن على الطريق، فلم يعد للقرويين شيء ليأكلوه أو يبيشوه..

كانت كلمات ماركيزيو لاذعة كسوطِ راح يجد صدر البابا. صوته كان خافتاً حين قطع حديث الدوق:

- لقد بذلت الكثير من الجهد حتى أتممت الصلح بين كنيستي روما والقدسية منذ أشهر، ولكن الرجلين أصابهما جنون العظمة. لويس الذي يملك فتاوى الإمبراطورية الكارولنجية يحاول بقدر ما أوي من قوة أن يثبت أنه الأجرد، وعلى الجانب الآخر ذلك الإمبراطور المتعجرف بأسيل المقدوني يضم إيطاليا وأوربا العداء.

غمغم ماركيزيو:

- لا عجب في ذلك، فال الأول حارب إخوته ودمر مملكة جده شارلمان، والآخر صار إمبراطوراً بعد أن كان فلاحاً في مزارع مقدونيا. يعلمون أن السيوف والرماح تحقق الأحلام، وما يطمحون إليه قد يكون بعيد المنال في هذه الأيام، فباري قوية وأميرها يزداد قوة، وقواده يُبجلونه، وأهل الجنوب جميعهم يرون فيه الحاكم العادل.

ضاقت عينا البابا..

- أرى أنك صرت تتحدث بلسانهم يا ماركيزيو.

- لقد كنتُ أسيراً لديهم. لزمنٍ ليس بالقصير، أنسّيت هذا سريعاً!

ضحك البابا وهو ينهض من كرسيه:

- بل ما زلت كما أنت يا ماركيزيو. بالمناسبة، تُعجبني هذه العباءة الخضراء، تبدو باهظة الثمن.. ما رأيك أن تتناول العشاء معى، وتنقض على مسامعي كيف كانت إقامتك في باري؟

- إنه لمن دواعي شرفي أن أكون على مائدة واحدة مع قداستك.

توجهها معاً إلى قاعة الطعام، وبداخل كل منها الكثير. كان عقل ماركيزيو يكاد يلومه أن أتى إلى روما ولم يُكمل إلى فلورنسا، وهي الشماتة من هزيمة الملك ما أتت به، أم الاستياق للمدينة الكبيرة التي تتم معاملتها فيها كدوق وليس أسير حرب؟

قاد عبد الله بن الأغلبي حماره عبر طرقات باري، وهو يُحاول أن يصم أذنه عن أحاديث العامة عن الحرب. أخبار انتصار الأمير قسورة حملها المسافرون إلى المدينة، وكل منهم لديه قصة مختلفة، فهذا يقول إن أبي المغوار قاد الهجوم على جيش ملك الإفرنج واستطاع أن يغنم تاجه ورأيته، وآخر يُقسم أنه رأى آلافاً من الأسرى والسبايا يسيرون مكبلين على طريق أفيليانو، والكل يتحدث عن

الحرب بينما هو يسحب حماراً عنيداً.

لقد أحب عمله في البداية، ولكن سرعان ما انفضَّ الجمع، وبقي وحده مع الطبيب العجوز في منزل القاضي، يزورهما بين الفينة والأخرى الفقيه ابن هشام. حتى أبوه، ما عاد يتحدث معه كثيراً، منذ أن كُلف بإدارة شئون المدينة. نوافذ القصبة وأبراجها ترمقه وحماره بسخرية، في طريقه إلى بيت أبي المغوار. جذب الحمار ليحدث خطاه ولكنه تبلد، ولم يرض أن يحرك حوافره بخطوة أخرى. سمع كاراس الجلبة، فترك الناففة التي كان يطالعها، وخرج إلى عبد الله، الذي كان يضع الجوال على الأرض بينما يحاول ربط الحمار العصي. ضحك كاراس من فعل البهيمة ومحاولة عبد الله الإمساك بها:

- اتركه يرعى.. ودعنا نحمل الجوال للداخل!

ظهر الغضب على وجه عبد الله، وأفلت منه الحمار يركض. صاح:

- سيعيث في الحديقة فساداً.

- دعه يا فتى.. إنه يبحث عن بعض الحرية!

توقف عبد الله عن الركض خلف الحمار، فتوقف هو الآخر، واستدار ليرمي الفتى اللاهث، قبل أن يخطو إلى بعض العشب الجاف عند بئر الماء، يقضم منه، ويحكي جلدته به. حمل الجوال معاً إلى داخل المنزل، ولاحظ كاراس التململ في عين مساعدته، فسألها وهما يضعان ما في أيديهما على أرض القبو:

- ما زلت تفكِّر في أمور الحرب، أليس كذلك؟

بنبرةٍ حزينةً أجاب:

- لا يكف الناس عن الحديث عن المعارك التي تدور في الشمال.. وددت أن أذهب معهم كبقية الرجال.

- ولكن أباك ما زال هنا لم يذهب.. وقائد الشرطة أيضاً لم يذهب، وهناك الكثير من الجندي لم يذهبوا. الحرب مريعة يا فتى. مع أول شخص تقتله، تفقد شيئاً ما بداخلك، وتتصبح رؤية الدماء مجرد أمر عادي، وسرعان ما تنسى كم قتلت. كل قتيل في الحرب، وراءه أناسٌ آخرون يفقدون أحلامهم وعائلاتهم، كي يبقى المجد للملوك؛ فقط هم من يذكرون التاريخ.. إنها أرواحٌ تُترهق وحقولٌ تُدمَّر.. الحرب سيئة يا فتى.

همَ عبد الله أن يُجادل، حين داهمتهم طرقات بباب المنزل، فتوجه مع كاراس ليりيا من القادر. انفرج الباب، وكان ماركو الأشقر يحمل بين يديه لفافتين من قماشٍ أزرق وأبيض، وعلى وجهه ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه البيضاء المتناسقة.

- كيف حالكم؟..

غمغم كاراس:

- ماركو.. مرحبا يا فتى، أي رياح عادت بك إلى باري؟!

ابتسم الفتى..

- كنت عائداً من القصر، وتبقي معي ثوبان، قررت أن أهديهما لك أيها الطبيب.

تبادل الفتى النظرات مع العجوز الذي ابتسם:

- حسناً.. ادخل!

تبعهما إلى الداخل وعيناه تتحفظان كل ركن بالمنزل. الأعمدة الرومانية حملت سقفاً مزيناً بالنقوش والفسيفاس البديعة، والتي منحها ضوء النهار بريقاً، امترخت فيه درجات اللون الأزرق. ذهب عبد الله إلى غرفته، بينما تبع ماركو العجوز إلى حيث المكتبة الكبيرة، ووقف لبرهةٍ يدور بعينيه في المكان المكتظ بالكتب واللافاف. أفاق على صوت العجوز:

- كم ثمن التوبيخ؟

وضع ما في يده على المنضدة:

- لا شيء.. إنها هدية.

ابتسم كاراس..

- لم يهدني أحدٌ شيئاً منذ فترة.

- أنت طيب القلب سيد كاراس.. ولعك الشخص الوحيد الذي حاول إقناعي بالبقاء هنا.

جلس كاراس يُقلب في الأثواب الحريرية:

- ولكنك لم تبق هنا يا ماركو.

- الحصن الغربي ليس بعيداً.. ولكنها مسافةٌ كافيةٌ للبعد عن صخب باري..

قاطعه العجوز:

- ولكن قد미ك قادتك كثيراً إليها في الأيام الماضية.. أليس كذلك؟

أطال ماركو النظر بوجه العجوز. بدا الحنق في حروفه حين نطق:

- يبدو أنك تعلم الكثير من الأمور..

- أخشى عليك يا ماركو، أن تكون نهايتك مجرد رأسٍ معلقٍ على باب القصبة.

لوح الفتى بيديه في استهزاء:

- لا شيء يستدعي الخوف.. شكرًا لك أيها الطبيب، وأرجو أن تكون هديتي نالت رضاك.

ألقى جملته وهو يتجه نحو الباب، حين صادفه عبد الله محدثاً إياه:

- إلى أين ستذهب يا ماركو؟.. أبق، فلدينا اليوم لحم غزال وشمير!

رماء ماركو بنظره جامدة دون أن ينطق. مضى في طريقه إلى باب المنزل، وترك خلفه الفتى في حيرة من أمره. ذهب إلى حيث يجلس كاراس، وسأله:

- ماذا حل به؟.. لقد غادر بغير الوجه الذي جاء به.

- لا تشغّل عقلك بأمره.. هل أعددت الغداء؟

لم يستمع كاراس لإنجذبة الفتى. كان يحاول أن ينقد عقله من بئر الخيالات. أمور عدّة جالت برأسه، وهو يجلس على رأس المائدة يُقلب قطعة اللحم في الطبق، وصوت ماريا يُداهم عقله: "لقد طهوت لك اليوم لحم غزال أصطاده أبي وإليساندرو".." ضحكاتها تكررت على مسامعه حين سخر من أخيها.. دار ببصره في المكان، ولكنها لم تكن حاضرة؛ فقط ابن الأغلبي يأكل طعامه، وقد شرد هو الآخر في حكايات الحرب التي صارت لا تفارقه.

عبر لوريزو وزمرته بوابات القصر اللاتراني الضخم. كانت المرة الأولى التي تطا أقدامهم جميّعاً تلك البقعة من الأرض. حديقة شاسعة من أشجار مهذبة الأطراف، انتشر في جنباتها الجندي بدر وعهم الفضية وعباءاتهم الحمراء، وعلى أضواء المشاعل المعلقة على جانبي الطريق، تقدمهم قائد الحرس، الذي أثار توترهم كلما اصطك درعه بفعل خطواته المنتظمة. عند الباب الكبير، استقبلهم أحد الشمامسة بترحاب، لم تفلح أفحى ثياب لديهم في إخفاء شقائهم، واندھشت عيونهم من بريق الذهب، التماثيل، والروائح العطرة، والجدران الرخامية. همسوا بصلواتٍ خافتةٍ حين مروا بصور القديسين والشهداء، ثم وصلوا إلى غرفة الطعام الكبيرة، حيث كانت المائدة الخشبية ممتدة بطول القاعة، تحيطها الشموع، وعلى الجدار صورة التلاميذ الائتم عشر، يتوضّلهم يسوع مباركاً، عيناه تتوهجان بضوء الشموع المنعكسة في مقلتيه، فأحنوا رؤوسهم لبرهه، بينما انتشر الخدم يُساعدونهم في الجلوس، كل على مقعده، لا يكادون يصدقون جلوسهم على مائدة البابا.

فتح بابٌ جانبي، مصدرًا صريرًا خافتًا، وبرز البابا بردائه الأبيض المطرز بالذهب، وقد منحه طول قامته هيبة مضاعفة. نهضوا جميّعاً وخفقوا رؤوسهم، فتوقف عند كرسيه على رأس المائدة وصوته العذب يسري باذانهم:

- أشعر ببالغ السعادة بوجودكم الليلة. كم يُشرفني وجود السيد لوريزو وعائلته، وأهل سان فيلي للطفاء.. ودعوني أخبركم أن رجلاً تعرفونه جيداً سُيشاركتنا العشاء.

كان الدوق ماركيزيو في أبهى صورةٍ، يرتدي حلّة سوداء مذهبة وحذاء جلدياً طويلاً، وعباءة خضراء داكنة تدلّت عن كتفيه. كانت مفاجأة للجميع عدا إليساندرو، الذي تبادل النظرات مع أبيه، وماركيزيو يتحدث:

- اشتقت لكم جميّعاً..

عينا فيولا كانتا تحملن بريقاً، لاحظته كاترينـا التي لكرت ماريا. قال البابا:

- علم الدوق بوجودكم، فقرر الانضمام إلى المأدبة..

أشار إليهم بالجلوس، بعد أن أخذ ماركيزيو مكانه قبالة لورينزو، ودخل الخدم تباعاً، يحملون قدوراً تفوح منها رائحة الطعام الزكية.. حساء البصل واللحم وخبز طازج شهي. هم بعض القرويين بالأكل، فأوقفهم لورينزو بنحنحة ونظره غاضبة. انتظر البابا حتى خرج الخدم من القاعة، ليبدأ في تلاوة الصلاة:

- ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.. بل بكل كلمة تخرج من فم رب. يا ربنا أنت المنبع الدائم لكل الخيرات.. إليك نتوسل ونصلّي أن تبارك لنا هذا الطعام وهذه الرفقـة.. آمين.

أمنوا خلفه، وانقضوا بعدها على الطعام، فلم يعد أي مجال للحديث، أما البابا فاكتفى بقطعة خبز غمسها في الزيت، قبل أن ينهض ليفاجئ الجميع:

- أتمنى أن ينال الطعام إعجابكم.

وضع لورينزو ما في يده من خبزٍ:

- ولكنك لم تأكل سيدتي!

- قليل من الزاد يكفي لمواصلة الحياة يا لورينزو.. أتموا عشاءكم وأنظركم تباعاً في غرفتي.. ليتسنى للجميع البوح والاعتراف.

نهض البابا متوجهاً لغرفةٍ جانبية، ليعلو صوتُ اصوات الملاعق بالأطباق، وإليساندرو ينظر إلى الدوق بين الحين والآخر، حتى ضحك وقال له:

- ما بك يا إليساندرو؟ أظن أنك تتساءل عن كيفية وصولي إلى هنا.

قضم إليساندرو قطعة اللحم، وأخذ يلوكيها في فمه بيروه، بينما أسرع لورينزو لإجابة الدوق:

- سيدتي، إنه لشرفٌ لنا أن تجتمعنا مائدةً مرةً أخرى.

تجاهله ماركيزيو وهو يوجه حديثه إلى إليساندرو:

- يبدو أن الأمر لا يناسبك يا فتى.

ابتسم إليساندرو ساخراً رغم الضجر:

- يُناسبني بالطبع.. فكلانا انهزم، ولكنني لم أقع في الأسر.

حاول ماركيزيو أن يحافظ على هدوئه، ابتلع الأهانة مع لقنته:

- قد أكون وقعت في الأسر؛ ولكن هزيمة المعركة بكتابتها تقع على عاتقك. أرجو ألا تكون قد نسيت من الذي أحرق قرى أفيليانو قبل القدوم إلى سالرينيو، مما أتى بأمير باري إلى المعركة، في وقتٍ كدنا أن ننتصر فيه.

انتبهت ماريا حين جاء ذكر أمير باري. تركت الخبز الذي كانت تتظاهر بأكله، وتابعت احتمام النقاش ومحاولات أبيها للتهذئة، وحديث الدوق المهدب، الذي أفحى الشاب المتغطرس. فيولا لم يكن يعنيها حديث الحرب. كانت تُراقب الدوق، ولاحظت تبدل قسمات وجه ماريا، وربما لولا استطراد ماركيزيو لأنفت لسانها بتعليقٍ يوردتها التهلكة.

- حاربنا وخسرنا.. وما زال أمامنا الكثير من المعارك.. ولا أظن أن هناك مكاناً للخائفين.

ضرب إلیساندرو المنضدة بقبضته، فارتجم الأطباق وساد الصمت وهو يُقرب رأسه من الدوق:

- لا تعلم ما فعلت في نابولي.. ويبدو أنك لا تعي أيها الدوق أنك تتحدث إلى فارس سان فيلي، بنص المرسوم الذي أصدره الدوق سيرجيوس صاحب نابولي. فاتك الكثير بينما كنت تقع في غياب سجن باري.

ضحك الدوق وهو ينهض عن المائدة:

- هل أبدوا لك كمن كان يُعذب وتقطع أطرافه؟ نصحيتك يا فتى، توقف عن غرورك. أتمنى حين تدلّف إلى تلك الغرفة لتعترف للبابا بما اقترفت يداك، لا تنس رماد الذين أحرقتهم أحياء رغم كونهم مسيحيين مثلنا.

أطبق الصمت على الغرفة، وتوقف الكل عن تناول عشاءهم، وعيون يسوع جامدة تُحدق فيهم. كان ما قاله الدوق خنجرًا عمد بقلوبهم. دارت عينا إلیساندرو بوجوههم، وتوقف عند وجه كاترينا، فأحس ببرودةٍ تغزو أطرافه، كاد أن يقول شيئاً، حين دخل أحدُ الخدم:

- قداسة البابا ينتظرك سيد لورينزو.. - وأرجو منك قبل أن تدخل إليه. أن ترتب الأدوار للدخول.

مضى الوقت ببطءٍ، كان ماركيزيو يجلس في زاوية الغرفة، يسترجع كل ما حدث خلال الأشهر الماضية. لم يكن يتوقع أن يرى عائلة لورينزو مرة أخرى. تجنب المرور بسان فيلي في طريقه، ولكنه فوجئ بالبابا يخبره بأمرهم هذا الصباح. أرهقه التفكير كثيراً. رقم ماريا التي تجلس بجوار زوجة الفتى المتغطرس. كانت واهنة نحيفة زائفة النظرة. لطالما قص عليه كاراس قصتها مع الأمير سودان. انتشله من أفكاره صوت فيولا الخافت:

- كيف حالك سيد؟!

التفت لها مبتسمًا: - كما ترين، في أفضل حالٍ.

جلست أرضاً بجوار مقعده: - قالوا إنك قضيت نحبك في باري.

كانت عيناه لا تزالان تُراقبان ماريا:

- قد أكون منحت الحياة في باري، عكس ما توقعت. أخبريني ما الذي أتي بك معهم إلى روما؟

- لقد جئت لطلب البركات والغفران على ما اقترفته..

صوتها كان يحمل الشجن والضعف وهي تستطرد:

- سوف أطلب من البابا خدمة الرب.. أريد أن أصبح راهبةً.

التفت إليها متوجهًا:

- لم أتوقع هذا.. أتعرين ما يتطلبه الأمرُ لذلك؟! أنت آخر شخص أتوقع أن يختار ذلك الدرب.

لم تجبه. اكتفت فقط بالنظر تجاه ماريا. فطن ماركوزيو لنظراتها، فسألها:

- هل لها علاقة بالأمر؟

أومأت فيولا برأسها في أسى. أفلتت دمعة من عينيها:

- لقد سئمت نظراتهم ونعتهم لي بالعاهرة. صرُّت لا أطيق سان فيلي وأهلها، وأريد أن أحظى بقليلٍ من الاحترام الذي تحظى به ماريا. لا أريد العودة لتلك القذارة مرة أخرى، لقد رأيتها هناك قرب البحيرة بين ذراعي الأمير العربي.. إنها مثني، وهم يعلمون.

شدَّ ماركوزيو في وجه إيساندرو العابس. الكثير فاته، وهو هو ذا يستمع لحديث فيولا عن قドوم الأمير العربي إلى القرية مع فرسانه، وعما حدث حين كسرت الشمس، وعن المسكين لورينزو الذي جاء إلى روما من أجل ابنته، ونذر النذور حتى تتحسن حالتها. كانت الفتاة تمنى أن تكون نسخةً من ماريا، وإن لم تُفصح عن ذلك. توقفت عن الحديث حين فتح باب الغرفة، وخرج لورينزو وعلى وجهه ابتسامة خافتة، وخلفه كانت زوجته مبتلة. دخل بعده إيساندرو مع كاترينا ذات البطن المنتفخ، ولم يستغرقا الكثير من الوقت، وظلَّ الوضع كذلك، يخرج أحدهم ويدخل آخر، حتى جاء الدور على ماريا.

دخلت إليه وحدها. الشموع الكبيرة أضاءت الغرفة ذات الأثاث الآتيق، فلمعت مسبحة ذهبية تحوي صلبيًا صغيرًا في يد البابا. ابتسامته التي تفيض بالحنان انتصرت على تعازيه وجهه، فاقتربت على استحياء.. أشار إليها قائلًا:

- اجلس يا ماريا!

جلست على المقعد المقابل له، ولم ترفع عينيها عن الأرض. كان يعلم أنه أمام بقایا إنسان، فحدثها بصوتٍ هادئٍ تغلف في ثنيا وجданها:

- الجميع يُحبك ماريا.. أحديتهم جميعًا لم تخُل من ذكرك وطلب الصلاة لك. لقد قص على والدك كل شيء.. منذ الرؤيا التي سبقت مولدهك، وحتى اللحظة التي افتدت بها، قبل أن يفتَّ به الوثنيون.. أخوك كذلك طلب أن أصلِّي من أجلك، وكذلك فعلت زوجته.. وأظن أنك على درايةٍ بأن أمك مرتابةٌ لما يحدث لك. سأتحمّل كل ما قالوه جانباً.. الرب يريد سماعك ماريا، فأفصحي وتحدي عما يجيئ به صدرك!

أجهشت، ثم تفجرت ينابيع الدموع من مقلتيها، وضاعت الحروف في ضياء عينيه. اختلج قلبها وتتسارعت أنفاسها، لا تدري من أين تبدأ!.. منذ جاء جريحاً إلى قريتها.. أم حين عاد مع رياح الخريف الباردة.. رؤى عديدة جالت بخاطرها، ويد البابا تربت على يدها وصوته الدافئ: لا تبك يا بُنْيَتِي.. لا تبك يا ماريا!

قبضت على يديه وازدادت في البكاء:

- أرجوك يا أبتي لا تُدعني إلى سان فيلي.. أتوسل إليك، لا أريد العودة لذلك المكان.. كل شيء هناك يُذكرني بما حدث، فقط منعني الحق في خدمة الرب..

سحب يده بـلطفٍ، ومال رأسه للأمام ليكون أكثر قرابةً منها:

- حسناً.. ولكن عليك أن تهدئي الآن. القرارات التي تؤخذ في لحظات ضعفنا، يتربّط عليها الكثير بعد ذلك، غالباً ما نكون مخطئين.. عليك أن تعيدي التفكير في هذا الأمر..

- أنت لا تعلم ماذا فعلوا بي.

- قلت لك إن والدك قص على كل شيء.. منذ البداية، وحتى اللحظة التي خرج فيها من تلك الغرفة. لقد جاء لها من أجلك ماريا.. حب ذلك الشخص من السراسنة قد يكون غير مقبول وإنما عظيمًا.. ولكنني أعلم أن المشاعر ليست بأيدينا، وإلا كنا ألقينا بها في النهر، وتخلصنا من الذكريات المؤلمة. لو والديك حق عليك، فانت ابنة نبيل، وعليك أن تقدّري ما فعله أبوك من أجلك.. هؤلاء القوم - السراسنة - ما هم إلا برابرة، يُقدسون القتل وسفك الدماء كما أوصاهم نبيهم المُزيف.. هم أبناء قabil الذين يحملون كراهية للرب وأبنته وتلامذته. هل جال بعقلك يوماً أنهم قد يُقدمونك قرباناً للشيطان الذي يعبدونه؟!

ظللت تستمع لكلماته التي تحفظها منذ نعومة أظفارها. حديثه يُشبه كثيراً عظات الأب ليو، ولكنه رقيق القلب. حاول أن يُهدئ من روعها بإيقاعها أن ما فعلته كان خطأها من البداية، وظل يُحدثها عن قصص حدثت له في شبابه ويُمازحها. ذكرها بعمها كاراس في تلك اللحظة، تفتقده كما تفتقد نفسها. ضاق صدرها. بكت مرة أخرى، والبابا مستمر في حديثه الذي لا يتوقف. هو أيضاً لا يفهمها.. قصصه الساذجة لن تغير شيئاً قد اختارت به بمحض إرادتها.

خارج الغرفة، كان ماركيزيو يتداول الحديث مع أبيها. بُهت لورينزو حين ألقى الدوق على مسامعه بتلك القصص عن القرية وما حدث فيها. لم يستوعب كيف يُخبره ماركيزيو بتلك الأمور التي عاش تفاصيلها. كان الدوق سيد الكلام، انخفضت نبرة صوته وهو يُحدثه:

- سيد لورينزو، عليك أن تمنحك الحرية لتخيار حياتها.. أعلم أنك جئت بها لها لتشفى؛ ولكن علّتها لا دواء لها سوى القرب. لن يفلح البابا أو الرب في جعلها تتخلّى عن بقبها. لقد تحدثت مع فيولا، وعرفت أن الفتاة تُريد أن تصبح راهبة أسوة بابنتك..

- لا، لن تفعل ابنتي هذا..

- حسناً، حالما تخرج من هذه الغرفة أسائلها.. وإن كنت على خطأ، فالامر يرجع بالنهاية لك.. آه، قبل أن أنسى، أخوه كاراس يُرسل لك حياته

القى ماركيزيو جملته، واستدار ليجد إلساندرو ما زال يمنحه تلك النظرات المقيدة. ابتسم في وجه الشاب، الذي نهض متوجهاً إلى حيث يقف أبوه كتمثالٍ يُجسد الحيرة..

- ماذا هناك يا أبي؟

- لا شيء .

تم تم لورينزو وهو يدفع ابنه برفق عن طريقه، ويتابع خطى الدوق الذي كان يتوجه إلى باب القاعة:

- سيدتي.. دوق ماركيزيو!

توقف الدوق قبل أن تلمس يده مقبض الباب، ولورينزو يستطرد:

- إلى أين ستذهب؟

استدار الدوق مبتسمًا:

- أعرف مكانًا يقدم نبيذًا جيداً.

- لقد أحكمت وثأقي بحجر ثقيل وألقيت بي لبحيرة عجزي. لا تبقى حتى نعلم صدق حدسك؟!

مع آخر حروفه، فتح باب غرفة البابا، على عتبته كانت ماريا مبتهة رغم الدموع في عينيها. ركضت نحوها أمها وكاترينا، بينما مررت فيولا إلى جوارهما لتندلع إلى الغرفة. أغلق الباب، بينما ذهبت ماريا معهن إلى المقاعد الوثيرة في الجهة المقابلة. لکز ماركيزيو صاحبه:

- اذهب لها وسلها عن الأمر!

شعر لورينزو برجفةٍ تغزو جسده، والدوق ينظر في عينيه مستطرداً:

- سُتجيبك هذه المرة.

ليلة احتل فيها بدر التمام كبد السماء، وتسلل ضوءه إلى شرفتها بذلك الخان القديم. لم تم ماريا، ظلت تصارع شمعة في رمقها الأخير، وحديث أبيها لا يفارق عقلها. خرجت من غرفة البابا لتجده واقفاً بجوار الدوق، فلم تبال بهما كما لم تبال بحديث البابا. أعطاها ذلك الأخير حرية القرار خلال ثلاثة أيام، فلما أن تبقى في روما، أو تعود إلى سان فيلي حيث الآلام. أبوها أخبرها بعدم رضاه عن خيار الرهبة، فلم تجبه، واكتفت أن تدفن رأسها في صدر أمها. تلاقت عيناها مع عيني الدوق ماركيزيو، فأحسست أن اللدوق يداً في رفض أبيها. منذ أن عادوا من قصر البابا، وهي تجلس وحيدةً كعادتها. مر الوقت ببطء، ونقيق الضفادع يغزو سكون الليل، وهي تمسك بدميتها بين كفيها، تحاول أن تتجاهل الجلة الآتية من الغرفة المجاورة وإليساندرو يتحدث بصوت مرتفع مع أبيها. أوت إلى الفراش وضمت ركبتيها إلى صدرها، وظللت تهمس بصلواتها حتى غفت.

في الصباح، خرجت إلى شاطئ التiber. اختارت بقعةً خاويةً من الناس، وراحت تتأمل القوارب الصغيرة تخوض بالمياه العكرة، تمر تحت القطرة البعيدة المؤدية إلى تلة الفاتيكان، أطالت النظر بالضفة المقابلة، حيث ستسكن بعد أيام. حسمت قرارها بعد أن مزقتها الحيرة، وفضلت ألا يمسها بشئ على أن تتزوج من الدوق ماركيزيو! هكذا فسرت وقوفه مع أبيها في قصر البابا. هو من وشى له بأمر طلبها، لا تعرف كيف عرف الأمر، ولم تُرهق عقلها في البحث، وستُفصح عن قرارها الأخير

لأهلها هذه الليلة. رنين الأجراس البعيدة أنقذها من صخب الأفكار. حصانه الخشبي بيمناها، تعصره وشلالٌ من الدموع يتدفق، ليختلط بمياه التبیر الداكنة الحزينة، ترید أن تُلقيه كدمعها ليحمله النهر بعيداً، فخيط السراب يلتـف حول الأعنـاق كلما طال الأمل. بسطت كفها لتألق نـظرة أخـيرـة على رفيقٍ ستـخلـى عنـه ...

- قرارٌ خاطئٌ يا ماريا.

أفرّعها ماركيزيو. التفت لتجده يقف بالقرب منها. عادت ببصرها إلى مجرى النهر دون أن تنطق، تحاول أن تفسـر كلماته السابقة. استطرد:

- إن فتيات روما لا يقدمن على مثل هذه الخطوة.. في الأغلب، لا يرغبن في قضاء عمرهن داخل قبوٍ مظلم، تنحـي ظهورهن وتتجـعد جلوـدهن، وتموت كل واحدةٍ منهاـنـ وحـيدـةـ بعيدـةـ عنـ عائلـتهاـ وأنـاسـ يحبـونـهاـ. الأمر ليس كما تعتقدـينـ. نـعمـ خـدـمةـ الـربـ شـيءـ عـظـيمـ، ولـكـنـ سـتجـدينـ نفسـكـ تـحرـثـينـ أـرضـ دـيرـ ماـ، أوـ تقـضـينـ حـيـاتـكـ مـرـبـوـطـةـ بـعـجلـةـ المـغـزـلـ، وـقـدـ تكونـ النـهـاـيـةـ أـسـوـاـ مـنـ عـنـكـوبـتـ مـاتـ بـبـيـتـهاـ.. لمـ آـعـهـدـكـ يـائـسـةـ، لـطـالـمـاـ كـنـتـ مـمـتـلـةـ بـالـنشـاطـ وـالـحـيـاةـ.

صمتـتـ ولمـ تـرـدـ، حتىـ لمـ يـسـمعـ إـلاـ خـرـيرـ النـهـرـ الجـارـيـ، وزـقـرـقةـ أـسـرـابـ العـصـافـيرـ المـحـلـقةـ فوقـهـ. مـارـياـ قـرـرتـ أـنـهـاـ سـترـفـضـ طـلـبـهـ حينـ يـفـصـحـ بـهـ، وـسـتـقـولـ لـهـ إـنـ الـحـيـاةـ دـاخـلـ الـكـنـيـسـةـ سـتـكـونـ أـفـضـلـ منـ مـشـارـكـتـهـ الفـراـشـ. تـقـدـمـ بـضـعـ خطـوـاتـ لـيـصـيرـ بـجـوارـهاـ قـائـلاـ:

- لا منـاصـ مـنـ الـاعـتـرـافـ بـأـنـيـ أـعـجـبـ بـكـ مـنـذـ أـوـلـ مـرـةـ تـقـعـ فـيـهاـ عـيـنـايـ عـلـيـكـ. لـكـنـ مـعـ الـوقـتـ عـلـمـتـ أنـ قـلـبـكـ مـلـكـ لـآـخـرـ.. وـسـوـدانـ يـسـتـحـقـ ذـلـكـ القـلـبـ.

قلـبـهاـ انتـفـضـ وـتـسـارـعـتـ نـبـضـاتـهـ حينـ سـمـعـ اسـمـهـ. اعـتـصـرـتـ حصـانـهـ الخـشـبـيـ، وـاغـمـضـتـ عـيـنـيـهاـ، وـقـدـ عـادـ الـأـلـمـ مـرـةـ أـخـرىـ يـجـتـاحـ جـسـدـهـاـ، وـمـارـكيـزـيـوـ يـكـملـ بـهـدوـءـ:

- مـازـالـ يـحـبـكـ.

توـهـجـتـ عـيـنـاـهاـ الدـامـعـاتـ. هـذـاـ الرـجـلـ يـرـيدـ أـنـ يـزـيدـ جـرـحـهـ سـوـءـاـ، أوـ لـعـهـ يـتـشـفـىـ بـهـ لـأـنـهـ رـفـضـتـ الزـواـجـ مـنـهـ. تـطـلـعـتـ بـوجـهـهـ قـبـلـ أـنـ تـهـمـ بـالـرـحـيلـ، فـفـوـجـئـتـ بـهـ يـمـسـكـ يـدـهـاـ قـائـلاـ بـرـوـيـةـ:

- سـأـرـحـ لـلـجـنـوبـ عـنـدـ الـفـجـرـ. فـإـنـ كـانـ لـكـ فـيـ مـرـاقـقـيـ رـغـبةـ، فـقـطـ أـعـلـمـيـنيـ. أـعـرـفـ الـطـرـيقـ جـيـداـ إـلـىـ بـارـيـ..

تجـمـدتـ فـيـ مـكـانـهـ، وـاضـطـربـتـ مشـاعـرـهـ. فـاجـأـهـ ماـ يـقـولـهـ الدـوقـ. أـهـيـ خـدـعةـ نـظـمـهـاـ مـعـ أـبـيهـاـ وـإـلـيـسانـدـرـوـ؟ـ قـلـبـهاـ اخـترـقـهـ رـمـخـ مـنـ خـوـفـ بـعـثـ فـيـهاـ الـحـيـاةـ. أـفـلـتـ يـدـهـاـ، فـتـمـتـمـتـ باـكـيـةـ:

- لـمـاذـ تـفـعـلـ هـذـاـ بـيـ؟ـ!

- إـنـهـ جـزـءـ مـنـ شـيـءـ أـدـيـنـ بـهـ لـهـؤـلـاءـ الـقـوـمـ. لـاـ يـجـبـ عـلـيـكـ أـنـ تـقـتـلـيـ نـفـسـكـ بـبـطـءـ، بـيـنـماـ الـحـيـاةـ بـأـكـمـلـهـاـ تـنـتـرـكـ فـيـ بـارـيـ. سـتـرـوـقـ لـكـ تـلـكـ الـمـدـيـنـةـ الـجـمـيـلـةـ بـالـتـأـكـيدـ.

- وـلـكـ الـبـابـاـ قـالـ..

- البابا لن يفعل شيئاً.. الحب هو الإيمان عينه، والرب هو المحبة ذاتها.

تركها وسط طوفان من الحيرة وعدم التصديق لما حدث. اجتاحتها أحاديث سودان وكاراس، وإحساس قوي أن الدوق كان صادقاً.

قضت النهار بغرفتها بذلك الخان، صخب المدينة يتسلل عبر نافذتها، ولكنه ليس أقوى من الفوضى العارمة برأسها. قالت لنفسها إن ما حدث كان مجرد حلم.. أوهام كانت تداهمها في سان فيلي. ابتسمت حين زارها طيفه كما رأته أول مرة. كان الزمان يركض بها مسرعاً نحو النهاية، ثم فجأة كل شيء يتجدد!

مع مغيب الشمس، طرق أبوها باب غرفتها، فلم تُجبه ولكنها نهضت لتزيح مزلاج الباب. دلف إلى الغرفة، وقد أولته ظهرها، ووقفت قرب النافذة صامتة، كما عهدها منذ ذلك اليوم المشؤوم. جلس على طرف الفراش ودارت عيناه في الغرفة:

- غرفتك تتمتع بمشهد التلال البعيدة ونهر التير..

لم تُجبه. كان يشعر بالأسى، رغم أن الدوق أخبره بما حدث في الصباح. يعلم أن ابنته عنيدة، ولعلها ظنت أن ماركيزيو يخدعها. منذ فترة وهو يشعر أن نهايته تقترب، وهذا هو ذا إيساندرو تزوج وصار نبيلاً له حياة ناجحة، وكل ما يُريده أن يراها هي الأخرى سعيدة مشرقة. بصوت مرتعش استهل حديثه الهادئ:

- إن المحبين يؤمنون بأن الحب أقوى من كل العقبات؛ أليس كذلك؟.. لقد فعلت ما فعلت لأنني خشيت عليك.. لأنني أحبك يا بنتي، لا أطيق أن يخطفك من بيننا عدو لنا. لقد جاءك على مرّ الوقت العديد من الخطاب نباء وأبناء نباء، ورفضت أنت جميعهم، فمَ أفرض عليك منهم أحداً.. أحببت وجودك إلى جواري يا ماريا.. أنت ابنتي، وإنني لأموت في اليوم مئات المرات لما سببته لك من ألم..

مسح دمعة انفرطت على خده الأيمن، وخفت صوته وهو يستطرد:

- لقد منحتني الحياة في ذلك اليوم.. ولكنها حياة مليئة بنظرات العتاب والبغض.. أعلم أنك تكرهين النظر في وجهي. في تلك اللحظة الكئيبة، لم أجد سبيلاً سوى ما فعلت لإنقاذك، فالسباع تأكل أولادها حين تخاف عليهم. خشيت عليك السببي الذي تعيش فيه نساوهم. إنه من عالم مختلفٍ عن عالمنا، ولهم دينٌ غير ديننا، ولم أكن لأضحي بك بنتي.

نشج لورينزو وانفجر في البكاء. التفتت إليه مذهولة، يكاد انكساره أن يمزقها، خطت نحوه خطوتين، وبصوت واهن رجته:

- أرجوك توقف.. أصدقك يا أبي، فتوقف عن البكاء، أرجوك!

قام متوجهًا إليها. ففتح ذراعيه، فتقدمت إليه بخطوات متعددة، ثم دفعت رأسها بصدره وراحت تبكي. بللت قطرات من دموعه شعرها الكستنائي. أبعدها قليلاً ونظر في عينيها، ثم مسح دمعه، وقال لها بجدية:

- طلبت من الدوق ماركيزيو أن يحدثك. إنه رجل طيب، ويريد المساعدة.. لك حق الاختيار يا ماريا..

ول يكن اختيارك ما تريدين المخاطرة بحياتك في سبيله.

في قيظٍ خانقٍ كعادة أيام الصيف الأخيرة، ضجت ساحات روما بتزاحم الناس لرؤية جيش ملكهم المنسحب. مرّ موكبه سريعاً، تتبعه خيول مدرعة، يسير خلفها حملة الرایات في صمت لا توفره حوافر الخيل واصطکاك الدروع. كيف هُزم جيش بهذا؟!

كان إليساندرو يشق الجموع ليصل إلى نقطة تمنحه رؤيةً جيدةً، يريد رؤية وجه الملك المنسحب. اختار تلك البقعة بالقرب من عامود تارجان، ووقف ينتظر مرور الموكب. رأى الفحل الرمادي كثيف الشعر، وقد غطت نصفه الخلفي عباءة زرقاء طويلة مزينة بورود ثلاثة ذات لون ذهبي، ثم انعكس ضوء الشمس على التاج الكبير المرصع بالجواهر. مع خطوات الجواد السريعة، كانت الروس تُحنى، وكذلك فعل إليساندرو، ولكن نصف انحناءه كانت كافية ليرى وجه الملك. يقال إنه يُشبه جده شارلمان. تذكر غناء الجوفة في قريته، وكان البطل حينها رولان وليس الإمبراطور المقدس شارلمان. كان البطل هو ذلك الجندي أوليفير أيضاً، الذي بقي في الساحة ليُدافع عن الجيش المنسحب إلى بلاد الغال.

عاد إليساندرو إلى الخان بعد انتهاء الموكب. دلو من ماء بارد كان كافياً ليعيد إليه بعض الحيوية. لم يجد كاترينا بغرفتها، بحث أيضاً عن أبيه، قبل أن يدخل لغرفة ماريا. نزل الدرج إلى الفناء باحثاً عن أحدٍ يسألها، فلم يجد سوى أحد مرافقهم يجلس قرب حوض ماء قديم. دار بعينيه في المكان قبل أن يتوجه له:

- أرأيت أبي؟!

- يبدو أنهم ذهبوا للكنيسة.. فقد رأيت والدتك تبكي، وزوجتك أيضاً.

بحث عن سبب لبكاء أمها، فبداله أن ماريا نفذت قرارها بالرهبة. خرج من الخان شارد الذهن، فارتطم به أحد الخدم يحمل سلال العنبر، وأخذ يعتذر له ويلتقط العناقيد من الأرض، وإليساندرو يرمقه بنظرةٍ خاويةٍ. لم يبال بما أحدهه ذلك المتعثر، والتفت ليمضي في طريقه، ولكنه لمح أبياه يقف على باب الخان. اتجه نحوه، فهاله ما رأى.. أحسَّ أن أبياه هرم في ليلةٍ وضحاها. كان الحزن يفيض من عينيه الرماديتين الزانغتين. حاول لوريينزو التملص من نظرات ابنه، وتجاوزه إلى داخل الخان كأنه لم يره، فتبعد إليساندرو حائراً من فعله:

- أبي.. ما حل بك؟ أين الجميع؟

- لقد رحلت ماريا.

بصوتٍ مرتجلٍ أجاب لوريينزو حين صار بوسط الفناء. أدركه إليساندرو، ووقف أمامه يتأمله وهو يغمغم بخفوتٍ:

- ما الذي تخفيه أيها العجوز؟ أذهبت للدير كما كانت ترغب؟!

حاول لورينزو أن يتجاوزه ويرمى إلى الدرج، لكن خطوة واحدة من الفتى كانت كافية لاعتراض طريقه. تلقت عيناًهما، فلم يجد لورينزو إليساندرو الأمس.. ذلك الفتى الأرعن المتخاذل رحل إلى الحرب دون عودةٍ، ومن يقف الآن شخص آخر يمتلك من الشجاعة ما يؤهله ليقف أمام أبيه في تحدٍ. كان على لورينزو أن يُتحي أي أسى جانباً، فامسك برسغ إليساندرو بقوٍّ، واقترب بوجهه منه قائلاً بصوتٍ أشبه بالفحيح:

- إياك أن تتعرض طريقي مرةً أخرى.. إن كنت تريد الحديث، اتبعني، لن نناقش أمور عائلتنا أمام الأقان.

أزاحه جانباً ليمر. أخذت الفجأة إليساندرو، وأفاق على صوت أبيه الخشن:

- أستظل واقفاً هكذا؟

دار إليساندرو بعينيه في المكان. لقد أهانه أمام الجميع. استأسد عليه العجوز كسابق عهده. كانت كاترينا تسند أمه، وتتدلف بها إلى الفناء في تلك اللحظة، عيونهما قد انتفخت من كثرة البكاء، ونظراتهن إليه تُوحِي بأن الأمر جلل. صعد الدرج في سرعةٍ إلى حيث غرفة أبيه، الذي كان يجلس على كرسي قبالة باب الغرفة. لم يدم صمته كثيراً، بل قال بهدوءٍ:

- لقد رحلت ماريا وفيولا مع الدوق ماركيزيو.. إلى باري.

هدَيرٌ أرعد الفرائص.. صيحاتُ ألم رشق السهام.. فوضى عارمة على أسوار سالرينيو، الدماء تُلطخ الأجساد والوجوه. كان يُحاول دفع أحد السلام بعيداً عن الجدار الذي ينْتَشِر تحت ضربات المنجنبيق وتدافع أمواج من الجند، ولكن السلم كان أثقل والسراسنة يصعدون درجاته في مهارةٍ وسرعةٍ. سقط إليساندرو أرضاً وألقى سيفه، وقد أصابه هلعٌ ونال منه اليأس. راحوا يعتلون الأسوار، والرجال يتتساقطون. شقت البطون وتناثرت الدماء، دخان أسود، ورایة سالرينيو تدهسها الأقدام. لقد فعلها السراسنة. كاد أن يبكي حين هاجمه أحدهم، فأغمض عينيه واستسلم للعربي يقتله. ولكنه لم يفعل، إذ طعن الرجل من الخلف، وسقط ليظهر ماركيزيو، ودرعه الذهبية اصطحبَت باللون الأحمر. ركل سيفاً ناحية إليساندرو وهو يصبح في وجهه:

- قُم وقاتل يا فتى..!

"لقد ذهبَت إلى باري.."

تمتم بها إليساندرو، وراح يدور ببصره في الغرفة. صارت حركته أكثر توترًا وهو يقترب من أبيه الذي قال:

- تحتم علىَّ أن..

صرخ إليساندرو وقد اكْفَهَ وجهه:

- تحتم عليك الصمت.. تحتم عليك الصمت للأبد.

جحظت عيناً لورينزو. لقد خرج ابنه عن طوقه. كان يعي ذلك حين رأه يسحب سيفه من خمده:

- لا تخف أيها العجوز، لن أقتلك. فقط سأجعلك تشاهد رأس الدوق الخائن بين يديك.. سأستعيد اختي وفيولا مهما كلفني ذلك من ثمن.. حتى لو اضطررت لقتل أمير باري.

مع خيوط الشمس التي أشرقت لترى السحب لوناً وردياً، وتمايل الأغصان مع النسائم، انعكست الحقول الشاسعة في بريق عينيها، وتطايرت خصلات شعرها المتموج، وزينت بسمة رضا ثغرها. رغم قلقها فإنها كانت راضية بروح الأمل التي حلّت بها. يومان منذ خادرت روما، برفقة فيولا والدوق ماركيزيو. كانت تتعجب من فيولا ولا تشق بها، ولكن الدوق كان يكتثر لأمرهما معاً. أقتعها أن تمنح فيولا فرصة، فستحتاجها في مجتمع باري، وستكون رفيقة جيدة. الفتاة فقط بحاجة لبعض الثقة. تذكرت وداع أبيها عند بوابة روما الجنوبية، بعينين تفيضان بالدموع. ما زالت لا تعي كيف أقنعه الدوق بكل هذا.. ورغم كل ما اعتراها من أمل، فإن الخوف وجده طريقه إلى قلبها.

في الظهيرة، توقف الركب قرب نبع، وانشغل رجال ماركيزيو الأربعه بملء القرب وتحفص قوائم الخيل. أخذت فيولا في ترتيب وجهها وصدرها بالماء البارد، كانت ماريا تتأكد من جعبتها الصغيرة، حين خيل إليها بحركةٍ بين الحشائش. شجارٌ بين عصفورين راح كل منهما يزقق ويلطم الآخر بجناحيه، ويُطاردان بعضهما البعض من غصن إلى غصن..

- إنهم يتصارعون من أجل الفوز بها.

قال ماركيزيو وهو يشير إلى عصفور ثالث يقف ساكناً. التفت له ماريا:

- هل تعلم كل شيء عنها الدوق؟

ضحك ماركيزيو وهو يمسك بلجام جواده:

- لا، ولكن الأمر واضح.. دوماً يتعلق الأمر بائثنى.. وحدها قادرة على إشعال الحروب وإيقافها..

صمت لبرهه قبل أن يستطرد:

- بقي لنا يومان من المسير، ونصل بعدها إلى باري.. وما زلت لا أصدق ما يحدث.

- أنا أيضاً لا أصدق أن كل هذا حقيقي. أستمر في الرحلة ولا أريد أن أستيقظ حتى أرى كيف ستكون النهاية.

أشار الدوق إلى فيولا، التي خاضت في مياه النهر وقد رفعت ثوبها عن ساقيهما:

- لم أتخيلها راهبة يوماً.. ولكنها أيضاً بحاجة إلى حياة جديدة.. مثلنا جميعاً. من كان يظن أن دوّقاً من لومبارديا يقود ركب فتاة قروية إلى أرض العدو؟! أحياناً أرى أن من العبث أن نوقف عجلة القدر. رغم أن الاختيارات تكون دوماً متاحة، فإننا نختار أصعبها.

- معدرة سيد ماركيزيو.. ولكن هناك سؤالاً ملحاً سأله مراراً.

قاطعها وهو يُحاول أن يُقلد صوتها:

- ما الذي يُجبرك على فعل هذا؟! وهل سبقني بعد ما رفضت الذهاب معه؟

ضحكاتها المبالغة جعلته يشعر بالحماقة. ولكنها المرة الأولى التي يراها تضحك هكذا. كانت مفعمةً بالحياة رغم ضعف جسدها. كانت ماريا جديدة، ليست تلك الفتاة ذات الجداول بالقرية، ولا شبه الإنسان التي كانت بروما. صارت تتثبت بالأمل، وإن كانت لا تصدقه. شاركتهما فيولا الحديث والضحكات، حتى انتهى الرجال من استراحةهم القصيرة. وقبل أن يمتطوا الخيل، وجدوا أنفسهم محاطين بفرقةٍ من الفرسان، ظهرت بين الحشائش فجأةً، وكأنما بعثت من الريح. لم يجرؤ رجال ماركيزيو على سحب سيفهم، فقد كان عدد الفرسان في تزايد مستمر. ملتهمون تكسوهם دروع من حراشف نحاسية فوق ثياب سوداء. امتعق وجه ماركيزيو وهو يدور ببصره في وجوه محاصريه، وهو يتحدث بهدوء بلغة عربية:

- إننا مسافرون إلى باري.. ولا نضرم الشر لكم.

"يبدو أن أجواء باري قد نالت إعجابك دوق ماركيزيو"

جاءت الكلمات باللاتينية. توثر الدوق وعيناه تبحثان عن القائل. انشق الصف الأول من الفرسان، ليقدم فارسٌ وسيم المحيّا، شعره الأسود المُبعثر غطى جزءاً من وجهه، عرفوه منذ الوهلة الأولى، لم ينسوا أبداً المرة الأولى التي رأوه فيها..

ترجمة قصيدة عن جواهه برشاقة مخاطباً الدوق:

- كيف تود العودة إلى باري، وقد أقسم أبو المغوار على قتلك !!

أقى جملته وهو يتحفظ فيولا وماريا. لم يعرفهما. استدار ليواجه ماركيزيو الذي تحدث بهدوء كعادته:

- أحمل على عاتقي أمانةً يجب أن تصل إلى باري.

- هل صرت تاجر رقيق، أم أنهما ملك لك؟

وأشار قصيدة إلى الفتاتين، منتظراً الجواب من الدوق، ولكنه أتى من بين شفتين ماريا، التي نطق بالعربية:

- لا تذكرني؟

عقد قصيدة حاجبيه، أخذ يتأملها لبعض لحظاتٍ:

- تتحدثين العربية إذن. وجهك مألوفٌ لي، ولكنني لا أتذكرك حقاً.

- أنا ماريا ابنة النبيل لورينزو من سان فيلي.. لقد جئت لقريتنا يوم الجوفة..

- آآآه تذكرت الآن.. ولكنك بعيدة عن ديارك..

التفت ليواجه الدوق، قائلًا: هل تسمح بكلمةٍ وحدنا؟

تبادل رجال ماركيزيو النظارات معه قبل أن يُومئ لقصورة برأسه. غاب الرجال بين الأشجار لبرهةٍ، قبل أن يعودا. لم يعلم أحدٌ فحوى حديثهما الخافت. شعرت فيولا بالتوتر، وراحت ماريا تنقل بصرها بينهما. لحظاتٌ من الصمت مرّت، قبل أن ينطق الدوق بكلماتٍ متهدجةٍ:

- سيرافقكما الأمير قصورة إلى باري..

- كيف هذا؟

قالت فيولا، بينما تقدمت منه ماريا وأخذت تنظر في وجهه. كان يبدو عليه عدم الرضا عما قاله. ابتسامته كانت باهتةً حزينةً، أظهرت أنه لا يملك من الأمر شيئاً. طال الصمت حتى قطعه قصورة:

- علينا أن نُكمل المسير قبل حلول الليل، فما زالت فلول جيش ملوككم في الأحياء.

ودع ماركيزيو الفتاتين بكلماتٍ قليلةٍ جافةٍ. طمأنهما، وتمني لها حياةً جديدةً سعيدةً.

- ستroc لكما باري ومناخها.. وإن كانت لي في العمر بقية، سأزوركما بالتأكد.

أوصى فيولا بأن تبقى إلى جوار ماريا، وأن تدفع عنها الشرور، وتبقيها في مأمن مهما كلفها الأمر. كان الأسى يتجلّى على وجهه وهو يتبع صفوف الخيل تختفي بين الأشجار الكثيفة. لوهلةً أحسَّ أنه ما كان عليه تركهما، حتى تستقر أقدامهما داخل المدينة.. ولكن قصورة قد يكون أفضل منه في تأمين طريقهما إلى باري.

(8)

صبغت شمسُ ما قبل المغيب السماءَ بلونِ برتقالي، فوق خليج باري الفيروزي، ولا مس نسيمُ الرياح وجهَ الماءِ الناعم، وحلق زوجٌ من النوارس في تجانس حول قارب صغير يتهدى ببطءٍ، وصاحبَه يُجذب بهدوءٍ حتى لا يُخيفها تأرجح القارب. عيناه لا تفارقان عينيهَا، يتطلع إلى وجهها النضر الذي يمده بالحياة، وهي سعيدة بتحقيق إحدى أمنياتها، أن تكون معه في عرض البحر، لا حرس ولا ناس. إن للغياب لوعة، وعلى القرب أن يمحو كل ما علق بالقلب من وجع. مضى الخريف، ومن بعده شتاءً لم تشعر ببرودته، حيث الدفء بين ذراعيه وفي كنفه. من يُصدق أن فتاةً قرويةً تصبح أميرةً باري!.. لقد وجدت نفسها أخيراً.

توقف عن التجديف: إلى أين ذهب عقلكَ أميرتي؟

ابتسمت في خجلٍ وهي تشيح بوجهها ناحية الشاطئ. كانت باري جميلةً من البحر، يرتفق الحصن هضبةً صخرية، فَيهيمُن على الخجان الثلاثة، والمنازل الضئيلة على حواف المنحدر، ورؤوس

الخيل تحيط المدننة الشامخة، التي تذكرها بروما، ولكن باري تملك البحر، كما تملك هي الدنيا الآن.

- الربيع جميل في باري..

- كل شيء صار جميلاً لوجودك هنا.

تفتحت زهورُ الخجل في وجنتيها، وعيناها سلبتا من البحر ألوانه. تبسمت له هامسةً:

- تُخلجنِي!

"انحازت لك الدنيا يا سودان، كل ما تمنيته يتحقق". حدثه نفسه وهو يقترب منها. تأرجح القارب، فتوترت وهي تمسك بيديها حافته، بينما ضحك هو قائلاً: ألم تكن تلك أمنيتك أن ترى باري من البحر؟!

مذَّت يدها له وهي تفسح له مكاناً بجوارها. سبعة أشهر الآن منذ زواجه منها، حلم لا يريد أن يستيقظ منه. تحدثا كثيراً، وضحكا حتى دمعت أعينهما. احتضنها حين هبَّ ريح بارد، فلامست لحيته بأناملها الرقيقة، وغمر دفء أنفاسها صدره، ومرَّ الوقت سريعاً، حتى داهمتها ظلالُ باري تُذْرِّها برحيل الشمس..

ومن شرفتها، كانت رملة ترى القارب يتهادى في الأفق، وتُذرف الدموع لنفسها. العيش على الذكريات يجعل الحياة جحيناً. كلمات لأبي المغوار تسري بوجданها. علينا المضي قدمًا ما دام القلب ينبض، وعلى الذكرى أن تبقى ذكرى، تنتمي دوماً للماضي.

يوم جاءت ماريا إلى المدينة برفقة قسورة، كانت تلتحف ببردة سودان الخضراء، التي أهدتها للدوق اللومباردي. رکض الطبيب كراس ناحيتها، وأصابهم الجمود حين علموا هويتها. ابتسם شرحبيل وقال متهدماً: "تلك الفتاة الرومية الهزيلة ستحصل على كل شيء". أزعجت جملته الجميع، وبدأ الغضب على وجه أبي المغوار، الذي رحل عن الساحة ونظراته اللامنة تلاحق قسورة، بينما التزم الأغلبي الصمت. أما هي، فقد غرس بصدرها نصل بارد، وشعرت بالفوضى تجتاحها. لم تحاول التقرب من ماريا، ولم تمنحها أي اهتمام. كانت تراقبها من بعيد، ولم يعجبها أمر تلك الفتاة الأخرى المدعوة فيولا، ولكن لا شيء كان بيدها، إلا أن تنتظر حتى يعود أمير باري من تارتنت.

يوم عاد سودان في نهاية الخريف، كان يوماً غائماً يحمل ريح الشتاء، وكانت تجلس بحديقة القصر. دلف ممتطاً فرسته البيضاء، فاستقبله القادة وحاشية القصر بالترحاب، وكان مبتسماً يرد تحية رجاله، حتى رأها تقف على باب القصر بصحبة فيولا. اتسعت عيناه ونال منه الجمود للحظة، ثم بعثت الحياة في قلبه. نسي الجمع من حوله، وترجل عن فرسه وعيناه لا تريان سواها، ومرَّ بين مستقبليه بخطواتٍ بطيئةٍ يشوبها وجلٌ من سراب تجسد في هيئتها. كانت تبسم له، بينما أنفاسه تتسرّع، ونبضات قلبه تضرب ضلوعه. تابعه العيون وهو يرتقي الدرج إلى حيث تقف، يقترب منها وما زال عقله غير مصدق للواقع، حتى انسلت دمعة من عينيها، وتبعها فيضانٌ من دموع الشجن ممزوجة بفرح لم يقاومه، فاندفع نحوها كموجةٍ تبحث عن شاطئ، وضمها إلى صدره وأيقن أن كل هذا حقيقي. لهيب عناقهما لفح قلوب الحاضرين.. اعتصر جسدها، ودموع الفرح تروي ظمأهما، مذاقها الرحيق وعقبها عطر.. كان المشهد كافياً لتثبت غيره رملة، فقد أهانها زوجها أمام الجميع، وسلبتها الفتاة الرومية عقله، بينما لم يلحظ وجودها على الإطلاق.

ازدحم الطريقُ الواصلُ بين الحصن الغربي وباري، ببغال وحمير تجر العرباتِ الممتلئةِ بصنوفٍ شتى من الشمار والأخشاب، إذ انتهى الفلاحون من حصادِ المحاصيل، وقد شهدَ الموسم وفراً في شتى الصنوف. السلال عامرةٌ، والبهجةُ تعمُّ الوجوه، والكل يتحدث عن بركة الربيع التي حلّت على الحقول. خارج أسوار الحصن، كان السوقُ الجديدُ. كما يُسميه العامة. يتواجدُ إليه سكانُ الجنوب والشمال. اختلطت اللهجاتُ، بين صياغِ الباعة وحواراتِ المارين، وفي جانبِ السوق اختار ماركو سقيةَ صغيرةً عرض فيها بعض الأقمشة وقوارير العطور. كان منهما في البيع، حين رأى حملةِ الرایات يخرجون من القصبة، يتقدمهم الفحلُ الأسودُ الضخم. أفسح الناسُ لهم الطريق وهم يلوحون لقائدِ الفرسان، الذي أشار إليهم بيده مبتسماً، قبل أن يلکر جواده ليمر سريعاً ومن خلفه فرسانه الأربع.تبعهم ماركو بعينيه الزرقاويين كما فعل الجميع، حتى اختفى الركبُ عن الأنظار، وانقض الجمُع كل إلى مبتغاه. كان شارداً حين حدثه أحدهم باللاتينية:

- هل أجد عندك حريراً أندلسياً؟

التفت إلى محدثه، ولم يُجبه للحظة. أخذ يتأمله ثم قال محاولاً صرفه:

- آسف لك، فآخر قطعتين أحتفظ بهما لأميرات باري.

- سأدفع فيهما ما تريده.. انظر، لدى قطع ذهبية من روما.

عقد ماركو حاجبيه، وأخذ يتفحص الدرّاهم الذهبيّة. كاد أن يوافق، ولكنه تذكرة، فابتسم في وجه الشاب الذي تبدو على وجهه مسحة النبل:

- قلت لك ليس عندي حريراً للبيع يا هذا.

وعندما حلَّ المساء وانقضَّ السوقُ، جلس ماركو يتسامر مع أحدِ الجنودِ المكلفين بالحراسة أعلى برج القصبة، وقد اعتادوا على وجوده بين ظهورهم، يتباولون الحديث حتى خيوطِ الصباح الأولى، قبل أن يعود إلى منزله الصغير. كان يحاول الهروب من الوحدة فهي روح الظلام، تتسلب إلى داخل نفوسه حينما يحل الليل، فيتمنى أن يأتي النهار سريعاً حتى يذوب في صخب الحياة. حين يأوي إلى الفراش يتقلب ذات اليدين وذات الشمال لعل النوم يُباغته، ويُحاول إيقاع نفسه أن لا جدوٍ من مطاردة السراب، حتى يهزمه التعب ويغلب النوم جفونه.

استيقظ على جلبة خارج المنزل، فنهض متناقلًا إلى النافذة الصغيرة، وأزاح ستائر البنية الخشنة، فأغشى عينيه ضوء النهار. رأى الفرح يقفز من وجوه الناس، فأخرج رأسه من النافذة مستغرباً، فانتظر حتى مرَّ أحدُ الصغار يركض ليصبح به:

- يا فتى، ما الذي يحدث؟

- لقد جاءت البشرى من باري أن الأمير سودان سيُرزق بمولودٍ جديدٍ، والأمير قسورة أمر أن تُوزع العطايا وتُتحرِّك الذبائح بساحة الحصن.

القى الغلام كلماته بسرعة، قبل أن يركض مبتعداً. احتمالات عدة دارت برأس ماركو قبل أن يختار الأسوأ. عاد إلى الغرفة وأخذ يقطعها جيئةً وذهاباً، أراد أن يضرب رأسه في الحائط، ولكن صيحات الفرح التي يطلقها أهل الحصن جعلته يتوقف عن فعلته. وضع رأسه في دلو الماء لبرهة، ثم أخرجه وقد التصق شعره الذهبي بوجهه. كان عليه أن يتبعين الأمر.. ارتدى قميصه على عجلة، وخرج إلى الساحة، المزدحمة بأهل الحصن وزواره، والجند يفصلون بين جموع النساء والرجال، ووسط الساحة يقف الأمير قسورة ودماء الذبائح تجري أنهاراً. أزعجه رؤية الدم ورؤوس الخراف. تمنى أن تكون الزوجة الجديدة هي الجبل. عاد إلى منزله واختار عدة قطع من القماش، جمعها في سرير واحدة، قبل أن يحملها ويمضي إلى باب الحصن ليطلب من أحد الجندي استعارة حصانه. لم يرفض الجندي، عليه يُصيّب شيئاً من خيرات ماركو..

دخل باري مع أذان الظهر، والناس متوجهون إلى المسجد، فأودع الحصان حظيرة الجندي، واتخذ طريقاً غير مختصر إلى القصر، عبر الأزقة الضيقة والسوق الخاوي من الحياة. التقط حبة خوخ واشتمها قبل أن يقضيها، وهو يتمنى إلى ثرثرات النساء، حتى اقترب من أسوار القصبة، فلمح طيفها، ترتدى عباءة زرقاء داكنة أهداها إليها في الخريف. القى ما تبقى من الخوخة أرضاً، وتبع هواجمه، ولكنها كانت حقيقة.. ما الذي أتى بها إلى هنا؟! تبعها مستترًا بالجدران. كانت تأخذ طريقها إلى منزل أبي المغوار. توقفت عند حوض ماء بقارعة الطريق، فكاد أن يذهب إليها، ولكن شخصاً آخر بَرَزَ من الزاوية. هدير أمواج الخليج القريب ضرب عقله، كان ذلك الرجل الذي جاء لشراء الحرير الأندلسي! لم يستطع ماركو سمعهما، فاقترب أكثر، فتعثرت قدمه بجرة زهر ذابلة، وأحدث جلةً مما جعلهما يلتفتان إليه. نهض، وراح ينفض ثيابه وقد تحاشى النظر في وجهيهما، ثم تجرأ ورفع رأسه، رآها.. ليجدها كاشفة الوجه، فيولا خادمة الأميرة الرومية.

بدت كأميرة، لا تنتمي إلى الكوخ النتن الصغير في سان فيلي. أي جنة هذه التي أنعم عليها رب بها، كانت تضحك كلما تذكرت طلبها للالتحاق بالدير. صارت الآن وصيفة، ثيابها أرقى من نبيلات روما وبنفينتو، وتتنعم في الحرير والعطر وليلي السمر. ترى في نظرات الجندي لها التمني والاستحسان، فتزيد خطواتها دللاً، وجدانها الحمراء تُثير جنون صاحب الشرطة، تعرف أنه يخْتَلسُ النظارات. كان مهيباً ذا قامةٍ وجسدٍ ضخم، تُثيرها لحيته الذهبية الكثة، كلما رأته لعنت أيامها في حانة سباستيان. ولكن كل هناء يطوف به قلق. تبدلت أحوالها منذ أن رأته مرتين يحوم قرب أسوار القصبة. في المرة الثانية تأكدت أنه هو إيساندرو، ووجد سبيله ليتحدث معها، وفي الثالثة رآهَا ماركو تاجر الأقمشة، الذي يأتي من وقت لآخر إلى القصر. أي قدر القى بذلك الشخص إلى تلك الأزقة، ابتسامته بدّت بلهاه، عرفت فحواها، فرفعت لثامها ورحلت مسرعةً عن المكان.

مرّت إلى جوار ماركو بخطواتٍ واسعة، فتبّعها ببصره، وحين التفت ليرى ذلك الشخص وجده يقف أمامه. باغته بدفعه إلى الحائط، ووضع نصلًا على رقبته. أظهر الخوف وارتعدت الكلمات على شفاهه:

- ماذا فعلت.. أرجوك لا تقتلني!

- لماذا تتبعني؟

- أقسم لك أني لا أتبعك. إنني في طريقي إلى القصر، أحمل الأثواب.. ولماذا أتبعك؟

- أتعرفها؟

- لا.. لا أعرفها ولا أعرفك.. فلماذا قتلتني؟

مع آخر كلمات ماركو، ظهر في آخر الحارة شابٌ صغيرٌ، جاء بخطواتٍ حذرةٍ مُحدثاً إلى إيساندرو:

- ماذا تفعل يا هذا؟ دعه وإلا صرعتك!

شهر سيفه، فصرخ ماركو:

- عبد الله توقف.. هذا أنا ماركو، وهو يتشارجُ معي الرجل على سعر الأقمشة.

تعجب إيساندرو من فعل ماركو، ورفع النصل عن رقبته وهو يقول بعربىٌّ ركيكةٌ:

- اعتذر عن فعلي، ولكنك لص.. لقد باع لي حريراً غير جيد.

رمقهما عبد الله بن الأغبى طويلاً، قبل أن يعيد سيفه إلى غمده قائلاً:

- علىَّ أن أصبحكما إلى القاضي، لينظر في أمركما.

قاطعه ماركو بحدةٍ:

- لا، أنا المخطئ.. سنتبر أمورنا لا عليك!

- حسناً أنهياه الآن.. أمامي!

التقط ماركو جبة الأقمشة من الأرض، وناولها إلى إيساندرو:

- هاك تفضل، إنه تعويضٌ عن الأقمشة القديمة.

كان على إيساندرو مجازاة الرجل، فأمسك بها وتبادل النظارات مع الفتى، الذي يبدو أنه يحظى بمكانةٍ في هذه المدينة. كان عليه أن يرحل، قبل أن يحدث شيء آخر يكشف أمره، فألقى التحية عليهما ورحل عن المكان، وفي أثره ابن الأغبى الصغير، وبقى ماركو وحيداً. حاول ترتيب الفوضى برأسه، ولكنه فشل. عليه أن يبدأ من حيث توقف، عليه البحث عن ذلك الشخص الغريب.

توسدت ماريَا ذراع سودان، واحتضن هو كفها برفق، حين أقسمت بأن أنشودةً ما ستتشدداً الألسنة عنه يوماً ما. غفت هي، بعد حديثٍ طويلٍ، عن المرأة الوحيدة التي ذكر اسمها بالقرآن، عن مريم وابنها عليه السلام، حديثٌ شعب، حتى وصل إلى اختيار اسم ابنهما أو ابنتهما. لثم شقتها الوردية الناعمة برفق، قبل أن يسحب ذراعه ويعدل وضع رأسها على الوسادة، ثم قام إلى نافذة الغرفة ينظر نحو مدینته. لقد رزقه الله بماريا التي لا يحمل قلبها سوى صفاء يفيض بالحب، فجاءت معها البركة له ول مدینته، وزاد الخير وأثمرت الحقول. جال بخاطره أن يوقف الحرب هذا العام. السلام سيجعل قواعد البناء ترتفع، ورجاله يقوم كل منهم بواجبه حيث وضعهم.. وسيُرزق قريباً بمولود سيورثه كل

شيء. سيتريض معه، ويركبان الخيل معاً، سيعلمه المبارزة والصيد، ويمنحه ما لم يستطع هو الحصول عليه يوماً، أن يبقى إلى جواره حتى يشب ويصير رجلاً. وسيكون إلى جواره يوم عرسه، وسيدخل معه إلى روما مكللين بالنصر. ضحك وهو يتخيّل ذلك اليوم..

ارتدى عباءته وخرج إلى البهو، فتطايرت العصافير عن حافة الشرفة، وسكت غناء الفتيات على حافة البركة، وانصرفن في استحياء، بينما لوح الصغيران ابنا شعيب له، فحياهما برأسه وانصرف إلى الرواق. مرّ بباب أمهما المغلق، لم يزرهما منذ فترةٍ تردد، ثم طرق الباب. كاد أن يمضي في طريقه، حين أتاه صوتها تسأل عن الطارق، فأجابها وقد انتابه القلق: أنا سودان.

فتحت الباب خافضة الرأس، فسألتها عن حالها وهو يدخل إلى الغرفة. أجبته بكلماتٍ مرتجمة، فتلطع إلى وجهها الذي رسمت فيه خيوط الدم طريقها بسواد كحل فشلت في إزالته.

- ما بك؟ أين الجواري؟ لماذا أنت وحدك؟

- أردتُ الاختلاء بنفسي. ليس هناك ما يُقلق أميرنا.

- هل أرسل في طلب الطبيب كاراس؟

لم تجده. ماذا عليها أن تقول، وقد آمنت من كانت تعتبره ابناً بكرًا لها. جاءها ماركو بعد أن رحل أبو المغوار عن غرفتها، وكان قد أتى يطالعها بأن تُنْجِب لسودان طفلًا. ما لهؤلاء الرجال يظنونها موظفةٌ تهب حياتها لمصالح الدولة؟! أما يكفيها أن ترى السعادة تحف مجلس سودان مع زوجه الرومية، بينما تقضي هي الليلاني بين النحيب والذكريات؟ لطمت وجه ماركو، حين طلب منها الهرب معه. من أين أتى بهذه الجرأة فجأة؟ كانت تلاحظ تودده المُخْلَف لها وكثرة الأقمشة التي يتحجج بإحضارها ليراها، فتشمّر منها وتنحرها للخدمات بعد أن ينصرف. سودان هو من جعلها مطمئنةً للضياع.

- أمتأكدة أنك بخير؟

نظرت في وجهه.. كان صادقاً في قلقه عليها. حاولت الابتسام ولكنها فشلت. كانت قويةً رغم ذلك:

- سأكون بخير، لا تقلق..

- بل إن الأمر جلل.. أفصحي عما بداخلك، سأستمع لك.. أقسم أن يندم من جعل هاتين العينين حزينتين.

مسحت عينيها، وارتسمت على شفتها ابتسامة، جعلته يستطرد:

- الحزن قد يصير داء إن لم تدرك الأمر.. أحمد الله أن جعلني سبباً ليبيتسن ثغرك.

- سيدى السلطان، كيف لا يبيتسن من يراك؟!

رغم حزنها كانت نصراً، تحاول إخفاء ضعفها بقوّة مستعارّة. تأملها.. لقد ازدادت جمالاً عن ذي قبل، بياض وجهها ككسف من ياقوت، وحمرة خجلها مرجان ينبع بالحياة، وعيانها السوداوان والكحل المناسب منحاتها حسناً فتالاً. طال صمته، فرفعت رأسها فأخرجلتها نظرته. كان قريباً منها كالليوم الذي سقطت فيه عن الدرج. وجذ نفسه يقترب منها أكثر. كيف يملك هذه الدرة ويُهمّلها؟.. لفحت أنفاسه

الحارة وجهها، فهمت بالتراجع، ولكن شفتيه كانتا أسرع. قبلته سلبت روحها، فلم تستطع دفعه، ولم تمنعه من احتضان وجهها بين كفيه، واستسلمت لاحتياج يديه لجسدها، لا تدري كيف رفعها عن الأرض لتعلق في سماء تزاحمت فيها ألوانُ الدنيا. كجمرةٍ من لهبٍ كان لقاءً جسديْهما، وتفجرت براكينٌ من شبقٍ في جسدٍ ظنت يوماً أنه مات. ولما ارتوت الأرض بعد العطش، ارتاحت الروح في قبة طولية تلاقت فيها عيَّاهمَا، وامتزجت أنفاسهما، قيل أن يضع رأسه إلى جوارها، ويغفوان في فراشِ أنهكِ اللقاء فاشتكى إلى شمسِ المغيب ما فعله به العاشقان.

مُجْرَد عَبْدٌ خَصِيٌّ. لَطْمَتْهُ رَمْلَة، لَتُحْيِي بِدَاخِلِهِ الْحَقِيقَةَ الَّتِي كَادَ أَنْ يَنْسَاها. هِيَ امْرِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ وَزَوْجَةٌ لِسُلْطَانٍ بَارِيٍّ، فَأَيْنَ كَانَ عَقْلَهُ حِينَ قَرَرَ الْبُوْحَ، فَصَفَعَتْهُ بِكُلِّ مَا أُوتِيتَ مِنْ قُوَّةٍ، وَطَرَدَهُ. عَادَ إِلَى دَارِهِ بِالْحَصْنِ يَجْرُ خَيْبَةَ الْأَمْلِ، وَأَغْلَقَ بَابَهُ عَلَيْهِ وَقَبَعَ يُحْدِقُ فِي الظَّلَامِ. لَمْ يَبْكِ، وَلَمْ يَبْحُثْ عَنْ سَبِيلٍ لِيَعْذِرُهَا. كَانَ يَجْوِبُ غَابَاتَ النَّقْمَةِ حِينَ فَاجَأَهُ طَرَقَاتٌ بَبَابِهِ، وَصَوْتٌ يَقُولُ بِاللاتِينِيَّةِ: أَعْلَمُ أَنْكَ بِالداخلِ.. رَأَيْتَكَ تَدْخُلَ الْمَنْزَلَ وَلَمْ تُغَادِرْهُ.. فَقَطْ أَرْدَتَ أَنْ أَعِيدَ لَكَ جَمِيعَ الْأَقْمَشَةِ الْخَاصَّةِ بِكَ.

فتح ماركو الباب، ليجد الرجل مبتسمًا، يمد يده بالجعبة. أخذها منه دون أن ينطق، وهم باغلاق بابه، ولكن إيساندرو منعه. رماه بنظرة صارمة قاتلاً:

- مَاذَا ترِيدُ يَا هَذَا؟ أَعْدَتْ لِي مَا يَخْصِنِي، وَأَنْقَذْتَكَ مِنَ السُّجْنِ أَوْ مَا هُوَ أَكْثَرُ.. اغْرَبْ عَنْ وَجْهِي، وَإِلَّا نَادَيْتُ حَرْسَ الْقُصْبَةِ.

- هل هكذا تعودتم مقاولة الضيوف؟.. فقط أردت شكرك على ما فعلت اليوم.

مرة أخرى حاول مارك أن يُغْلِّق الباب، ولكن البساندر و أوقفه مستطرداً:

- لماذا كذبت عليَّ، وقلت إنك لا تعرف تلك الوصيفة، رغم اعتمادك دخول القصر. لقد تبعتك إلى هناك، ورأيتك تدخل مُحَايِّدًا، ففهم أذن معتادون لزيارتكم.

تأمله لحظةً قبل أن يستطرد:

- لكنك خرجت بغير الوجه الذي دخلت به.. آه يا صديقي، لعل سبب الأسى الظاهر على وجهك أنتي؛
نعم هن سبب كل تعاشرة في هذه الدنيا..

دفعه إيساندرو برفق، ليدخل الدار المعتمة دون إذنه. لم يعجب الأمر ماركو. امتدت يده إلى خنجرٍ صغير قرب الباب، ولكن صوت إيساندرو جعله يتوقف عن فعله:

- لو كنت مكانك ما فعلتها، فمن العار أن تقتل ضيّفاً بدارك. ماذا ستقول للحرس الذين رأوني ودلوني على منزلك؟

- ماذَا ترِيدُ؟

- فقط أشعل أي ضوء، لأن الحديث قد يطول..

أن يأتيك الانتقام في هيئة بشرية، ذاك ما لم يخطر ببال ماركو. قضيا الليلة يحتسبان الخمر ويثرثان. كلاهما له شيء في قصر أمير باري. أو بالأحرى، يُريدان هدم القصر على من فيه. صاغ إلisanدرو حكاية من وحي شيطانه، الحقيقة فيها لا تتعذر أسماء من ذكرهن. كان يُزين الكلمات قبل أن يُلقاها على مسامع ماركو، الذي انتحب، فضحك ضيفه قائلاً:

- لا يبكي الحب سوى النساء.. أما نحن، فنستطيع الحصول على ما نريد وقتما نريد. عدونا واحدٌ يا صاحبي.. من سلبك من تحب، ومن سلبني فتاتي.

كان حديث إلisanدرو حول فيولا، لم يذكر ماريا سوى مرة واحدة، مدعياً أنها من أقمعت حبيبته للهروب معها إلى باري..

ولكن الحقيقة الكاملة كانت هناك في عقل فيولا، التي كانت تتطلع إلى البدر الذي نثر ضوءه الفضي على الفناء. إلisanدرو جاء إلى المدينة متقدلاً بالشِّرِّ. أخبرته أنهما سعيتان، وأن ماريا حملت من الأمير، مما أثار غضبه. إنه غبي، فأخته ستلدُ وريثاً لعرش باري، وهو لا يرى أي شيء سوى حمافة أخ تزوجت اخته بمن لا يرضي.

ابتسامة ماركو تخيفها. لقد تعرف عليها، وربما سيشي بها إلى الأمير. رأته اليوم في القصر، فتوارت عن نظره، وقضت يومها مع ماريا والفتيات. مضى إلisanدرو، وتركها محاصرة بين براشن المأذق الذي وضعها فيه. وبينما هي قابعة في ظلام هذا الوقت المتأخر من الليل، رأت سودان يخرج من غرفة رملة، لكنه لم يلحظ وجودها. ماريا ورملة محظوظتان به. تسائلت في نفسها متى يأتي اليوم الذي تجد فيه رجالاً يهتم لأمرها وليس لجسدها، ويغمرها بفيف من حبٍ.

في القاعة الجديدة، اجتمع سودان مع محمد الأغلبي وشريبل، في جلسة سمر، وقد أدهم الحديث إلى النساء وغيرتهن، فأخذ شريبل يفرض أبياتاً من شعر عنهن. أثارت كلماته فؤاد سودان، فتبسم. كانت ماريا غاضبة منه حين بلغها أمره مع رملة. لم يكن بحاجة لتنكري أنهما تركت كل شيء وراءها من أجله، فهو يحبها. ولكن عليه ألا يقتل رملة هجرًا. رملة دافنة راقية، كنز من الكمال لم يُفكِّر في لمسه من قبل.

رد على شريبل:

- إنهم يجذبنا كما النحل للرحيق، فينعمون علينا بالمودة والحب، ويعلمون مكان ضعفنا. لا عجب أن خلقت حواء من ضلع آدم.

قاطعه الأغلبي قائلاً:

- أغواها الشيطان، فخرجا من الجنة.

اعتراض سودان:

- أغواهما الشيطان.. كلاهما عصى.

قال الأغلبي في تحدٌ:

- أكل من أجلها.. كي يخلد معها.

تدخل أبو المغوار مُضاحكاً:

- إن كنا في باب الحديث عن النسوة، فلا ننسوا أن كيد صواحب يوسف عظيم. يكفيهن قليلٌ من الغيرة ليورق الغم مضعفك، ويا للنعمي الذي سيُغرقك إن منحتها الاهتمام. نركن إلى جانبهن، وندور كبغال الطاحون دون توقف. أن يكون هناك شخصٌ بحياتك يهتم لأمرك لهو شيء جيد، ولكن علينا أن نمنح أيضاً كما نأخذ، وكل شيء في هذه الحياة هو مقايضة عادلة.

سكت لحظةً، ثم قال:

- حديث النساء كاد ينسى أبي المغوار أن يخبركم بأن أبراج الحراسة البحرية أخبروا عن سفينتين ترفعان راية بيزنطة تتجهان شملاً، إلا بعداً للنساء..

ضحك ملطفاً الخبر، ثم أكمل:

- لقد كان من الخطأ إرسال كل سفناً إلى أوترانت.. ولم يأخذ أحدُ الرأي أو الشورى حول إلغاء حملة الصيف..

كان وقع الجملة الأخيرة ثقيلاً، وتعلقت عيون الرجال بسُودان. كان سيُخبرهم بالأمر، ولكن أبي المغوار كان أسبق. المرة الأولى التي يفعل معه العجوز هذا، أخرجه مع الأغلبي وشريهيل. نهض عن كرسيه قائلاً بنبرةٍ يشوبُها الغضب:

- من سنُحارب وقد خضعت كل الأحاء لنا؟ نابولي.. بنفينتو.. ساليرنو يدفعون الجزية، وقد أوقفنا الحرب.. لقن قسورة جيش الملك الكارولنجي درساً لن ينساه.. أخبروني من سنُحارب؟! لقد أنهكت قواتنا في حروب متواصلة.. أما للرجال أن يرتحوا، ويعيشوا بين أهلهم يا أبي المغوار؟ أما كان ابن الخطاب يُعيد المحاربين إلى زوجاتهم كل بضعة أشهر؟..

قاطعه أبو المغوار ليناً:

- إنما أخافُ أن يرکنوا إلى الترف يا سُودان..

اصرَ سُودان:

- إننا بحاجةٍ إلى الراحة وحصد ثمار ما نبنيه هنا. انظروا كيف صارت باري، وكيف نرفع بنيان الحصون والمدن.. لقد كتبت لقصورة بيت السرايا وال Kashafin بـ.. وأسطولنا يتوجه إلى أوترانت، وسيغلق مدخل البحر. لندع الناس تحصد مما تحارب لأجله، فلا يملون الحرب، ولا يُدمون الدماء.

أو ما شربيل برأسه موافقاً لما قال سُودان، ووافق الكلام هو الأغلبي، إذ يُبعد قرار سُودان شبح الحرب عن أحلام ولده. أبو المغوار رحل من المكان غاضباً، فهو لم يتوقع يوماً أن يتحدث سُودان معه هكذا. هل أخطأ حينما حدثه أمام الرجلين عن الأمر، أم أن رأي سُودان هو الصواب؟ ارتكن إلى مقعد في طريقه إلى البوابة، وأغمض عينيه مصارحاً نفسه أنه يتحمل على السلطان منذ جاءت الفتاة الرومية، وازداد الأمر حين علم بأمر حملها. عبر بوابة القصر إلى ساحة القصبة، حين أتاه

صوت من خلفه يستوقفه، فاستدار ليجد أحد الغلمان يخبره أن الأميرة رملة تود الحديث معه. في طريقه إليها، قابل كاراس يقتطف بعض الأعشاب، يتفحصها وي시험ها قبل أن يضعها في جعبه معلقة بكتفه، فألقى عليه التحية سائلاً عما يفعل، فأجابه الطبيب الرومي ضاحكاً:

- لقد وجدت أن أفضل مكان لزرع بعض أعشابي التي لا أجد لها لدى العطارين هو حديقة القصر. استأذنت من السلطان في فعل ذلك. اعتقد واقفاً وهو يستطرد: سأعود إلى المنزل.. هل أنتظر ريثما تنتهي ونعود إلى المنزل معاً؟ لقد ذبح عبد الله شاة في الصباح، تركته منشغلاً ياعدادها وجئت لها..

- بل عُد أنت.. لا أدرى متى أنتهي مما لدى!

ألقى جملته ومضى إلى القصر، فلم يكن ليحمل المزيد من كلمات كاراس السريعة. ذلك الرجل كثير الكلام لا يكفي عن الابتسام، بذل جهداً ليتأقلم على وجوده هو والشاب ابن الأغلبي، واقتنع أنهما يؤنسان وحدته. ربما يضيق به الآن لكونه عمّ من صارت أميرة لباري.

لقاوه برملة لم يدم طويلاً. كانت تنوي أن تطلب منه نفي ماركو، ولكنها تراجعت. حدثته عن سودان، فسعد القاضي بما ألت إليه الأمور، فهو يرى في رملة صورة ابنته سليمة، ويرجو أن يكون خليفة سودان ابن بطنها هي، لا الرومية. نصحها أن تثبت له حكمتها وحذارتها بمحاورته على العرش بألا تجرّ خلف الصراعات النسوية في أروقة القصر، فضرتها صغيرة غير ناضجة، ولن تثبت جداره في هذا الصدد. شيء من السعادة تغفل في نفسها حين عادت للغرفة، فقد فتح لها أبو المغوار بباباً للتفوق على ماريا في قلب سودان، وليكن لكل منها مكانها الذي لا يقارن بالأخر. التقى مشطاً عاجياً، وراح تمشط شعرها، وعقلها يعيد عليها نصيحة القاضي.

في الخلوة، تفتح الأفكار كأقحوان نبت في أرض قاحلة، تستقي الصفاء من قطرات الذاكرة، وبنصر الأمور كما يجب أن ترى، منذ أن عاد قسورة من حربه الأخيرة، أحسَ أن السكينة أحب إليه من الصخب، حتى إنه قرر بناء سوق الحصن خارج الأسوار، مقتنعاً أن الهدوء سيوفر المكان في عيون الناس. فرض القوانين يحفظ للحصن الهيبة والغموض، كيلا يعتاد الغرباء اللولوج والخروج من الحصن في حرية. حظي هو بخلوة يومية، للتدارس درس الأمور بروية. اختار لنفسه البرج الأكبر في القصبة، وجعل من طابقه الأخير صومعة له، وجهزها باثاثٍ خشبيٍ قليل، وزين الجدران بعائم غزواته من أسلحةٍ وعتادٍ ورایاتٍ لدوقياتٍ وممالك هزمها. نوافذ القاعة الكبرى تطل على الحقول الخضراء الممتدة حتى باري، المدينة التي جعلت منه هذا الرجل. كان يطمأن أن يصير أميراً، فصار أمير حرب في إمارة يهاب منها الروم والإفرنج. في حربه الأخيرة، نصر بالرعب على ملك الإفرنج الذي كان قد توغل بجيشه في التغور الشمالي، ورغم قلة المعارك، إلا أنه حصد غنائم كافية لتمويل الحملة، وعاد مكللاً بالنصر، مصطحبًا أميرة باري الجديدة. لم يكن ليترك الفتاتين مع ماركيزيو في تلك الأثناء، لقد عرفها منذ الوهلة الأولى، ولكنه أظهر النسيان كي تتم حيلته. كان يعلم أن صديقه يعشقاها، وأن الأمر سيُسعده حتماً، فاتخذ قراره دون تأجيل أو شورى. عنده أبو المغوار، وشرحبيل سخر منه، رغم أن عينيه تعقدتا بالفتاة الأخرى، وحتى الآن. أما الأغلبي، فصمت كعادته، حين يكره أمراً ويكون يعرف أنه الصواب.

ضررت خيامِ الجند حول الحصن، تستقبل الوافدين الجدد من المتطوعة للخروج إلى الشعور الشمالية، معسّر صغير أمر قسورة يأقامته حتى يكتمل النصاب. عليه أن يُسیر السرايا إلى أمالفي وسالرينيو وتخوم فوجيا، فالهدنة ستمنحهم وقتاً لبناء القلاع والحسون. لم يطلب منه سودان الخروج مع السرايا، فقط أمره ببيتها. لكنه لا يستطيع المكوث كثيراً داخل الحصن، يخشى أن تهوى نفسه القعود وإدارة الأمور فقط. أخبر رجاله أن في الصباح سيعلم كل واحد منه وجهته. كان يثق بهم، ولكن هناك بعض المتطوعين أثاروا حفيظته. أنه جولته عائداً إلى الحصن. المشاعل تضيء الدرب، والفال الأسود يسير بهم على الطريق الخاوي إلا من شخصٍ توارى بالظلل، حين رأه بقارعة الطريق.

- ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المتأخر؟

خرج ماركو مبتسمًا يمسك بدجاجةٍ من جناحيها:

- سيدِي الأمير.. كنتُ أطارد دجاجةً هربت من النافذة بعدما أغلقت باب المنزل.. الأمرُ متعب حقاً أن ترببي طيراً..

تفحصه قسورة بنظرٍ ثاقبٍ:

- قالوا لي إنك كنت تأوي ضيفاً.. لم أعرف أن لك أقرباء من قبل.

- إنه ليس ب قريب يا سيدِي.. أحد البااعة من روما جاءني بطلبٍ من بعض الأقمشة، فضايفته وأكرمهه ومضى في سبيله..
ابتسم قسورة غير مفتنع..

- باائع غريب؟!.. هذا سبب ليكمث يومين ببيت ماركو؟!

ابتسم ماركو بدوره..

- لقد رُبِيت ببيتِ كرمِ باقريطش.. وتعلمت من مولاي شعيب أن ابن السبيل له حق علينا..

كان قسورة يَعْرِف شعيباً أكثر من ماركو. لربما شب الفتى بين يديه، ولكنه لن يعرف صاحبه أكثر منه. لكرز الجواب وهو يقول محدثاً ماركو، الذي ما زال يحتضن دجاجته:

- حسناً يا ماركو.. أحكم غلق أبوابك، حتى لا تهرب الدجاجات!

- سيدِي، هل سترحل غداً إلى الحرب؟

- نعم..

- هل سيدذهب الأمير سودان أيضاً؟!

كان قسورة قد تجاوزه حين نطق سؤاله، فلم يُجبه، ومضى بجواهه مبتعداً، والشاب يستطرد صائحاً:

- حفظك الله يا أمير باري وجائب عزتها.

لم تفلح الوسادة الناعمة في صد ركام من الأسئلة تساقط على رأسه. حديثه مع ذلك الخسي أرق مضجعه، حتى سمع أذان الفجر. نهض طارداً وسواس ماركو، وراح يرتدي درعه على ضوء قديلٍ خافت. فتحت زوجته عينيها، وسألته بصوتٍ ناعسٍ:

- أحان الوقت يا أبا محمد؟

- استوصي بإخوتك والأطفال خيراً.. أيقظهم للصلوة بعد أن أخرج من المنزل!

- سترحل كعادتك دون أن تودعهم.

قالت وهي تناوله حزام غمدي سيفيه، فتناوله منها مبتسمًا:

- استودعكم الله يا أم محمد..

خرج من المنزل على عجل، فوضع سرجه المرقط على ظهر الجواد المتкаسل محدثاً إياه:

- أعلم أنك لم تأخذ كفایتك من الراحة.. ولكن علينا الذهاب الآن.

شاهد ماركو من نافذة غرفته الضيقة. لم تدق عيناه النوم هو الآخر، ولكن ليس قصورة السبب. لقد كان إليساندرو الذي اندسَ بين المتطوعين. حماية مجانية كما يدعى، حتى ينفصل عنهم ويُكمل الطريق إلى روما..

كان الوقت باكرًا حين فتحت عينيها، فلم تجده بالفرش البارد. نهضت باحثة عنه، حتى وجدت رملة تقف بالشرفة المطلة على الساحة، وسمعت جلبة تردد صداتها الجدران البعيدة. كانت رأيات باري تتحقق مع نسمات الصحو الخافت. توجهت إلى حيث تقع الأميرة ترافق الساحة، حيث كان سودان يتبارز مع عبد الله بن الأغلبي، وصغيراً شعيب يهلالن بالقرب. الرمحان يفتكان ببعضهما، بين الضربات والتصدي، في قتالٍ جادٍ بين أمير باري وفتى خفيف الحركة. كانت المرة الأولى التي تشاهد فيها ماريا القتال بالرمح. عبد الله كان ماهراً، يقفز ويتفادى ضربات سودان قبل أن يبدأ نوبة هجومه. صدَّ سودان ضرباته السريعة بسرعةٍ مماثلةٍ وحسن توقع صقلته سنون من الحرب. بعد عدة مراوغاتٍ بينهما، ضربه سودان بقسوةٍ، فأوجعت الضربة صدر عبد الله، فرادته شراسة، وسودان يتمتم محدثاً إياه:

- الألم يمنحك القوة لمواصلة النزال، ولكن قوًّا دونما عقلٍ هي انتحار.

اختتم جملته بضربةٍ أخرى بكتف عبد الله، ولكنه صلب لم يتزحزح. حاول عرقلة سودان بفرض إسقاطه، فشهقت ماريا حين كاد يهوي أرضاً، ولكنه لم يفعل، بل تدحرج جانباً قبل أن يقفز قائماً مرةً أخرى يلوح برممه مراراً، وهو يقول:

- أحسنت يا فتى..

لم تُحدثها رملة. فقط اكتفت بابتسامةٍ، وتركتها تُتابع نهاية القتال. داهم ماريا ما رآته في منامها، طرقعات سلاحيهما وترتها، فشعرت بأنها تحتاج إلى الصلاة وسؤال الأسقف. انتظرت حتى انتهى

سَوْدَانْ من تدريبه مع الصغار، واستأذنته، فاذن لها، واستقبلتها أجراسُ الكنِيَّة فاتحة الأبواب، في ترْحَابٍ بأميرة باري.

احتشدَ العامة لرؤيَّة موكب الأميرة الرومية عائنةً من الكنِيَّة، في زيارةٍ كانت الأولى لها منذ أن وطئت باري. حمل أربعة رجال أشداء هودجها، وتتبع الناس الموكب حتى أسوار القصبة، ثم انزلت البوابات الحديدية بعدما عبر الركب إلى الساحة، تاركين وراءها الناس يتتساءلون عن سبب زيارتها للكنيسة. توقف الرجال ووضعوا الهودج أرضاً ورحلوا جميعاً، فخرجت فيولاً من بين ستائر الخضراء أولاً، ثم تبعتها ماريا، ترفل في ثوب أزرق مطرز بزخرفةٍ صفراءً، برزت تحته بطنهَا. كان الإلهان يحتل وجهها، في ذلك اليوم من أيام الصيف الأولى شديدة الحرارة. تذكرت روما التي زارتها الصيف الماضي. لقد مر ما يقارب العام على وجودها في باري، وقد تبدل كل شيء.

لم تُشفِّ إجاباتُ أسقف باري ظمآنَ أسئلتها. وما بين الحيرة والغيرة، لم يُرِحْها كلامُ البابا. إنه حريصٌ، لا يتكلم من منطلق الدين وحده. سَوْدَانْ لم يطلب أن تعتنق دينه قط. ويُجيبها عن ما تَسْأَلُ، لكن مصير الطفل القادم يُحتم عليها أن تفهم أكثر، خاصةً بعدما صارت ضررتها حُبلى هي الأخرى. ليالي الوحدة تشير حنقها على رملة، وحين اشتكت لعمها كاراس قال لها إن على سَوْدَانْ أن يعدل بين زوجتيه، وعليها التأقلم مع ذلك. الأمر يفوق طاقتها، رغم أن معاملته لم تتبدل، بل إن حبه لها يزداد يوماً بعد يوم. كان يُحاول أن يكسر غيرتها، ويُقربها من رملة، فكان يجمعهما معاً في مجلسه يتبادل الحديث معهما. رملة سيدة عربية رزينة، ذات جمالٍ ونَسْبٍ، لذا كان ابنها هو الأقرب ليرث عرش باري يوماً. "ابن الرومية لن يحكم العرب يا ماريا" هكذا تُخَبِّرُها فيولاً دوماً، بعدما سمعت قصص الفتيات عن أمراة الأغالبة، وصراع الأخوة على الحكم في إفريقيَّة وصقلية.. فوق ذلك، كانت نظرات العجوز ذي العين الواحدة تُخيفها، وكان يكتفي بالإيماء برأسه لتحيتها، عكس تبجيله ووده لرملاً.

كان القاضي أبو المغوار خارجاً من القصر حينما تقابلَا، متوجهَ الوجه يتبعه شرحبيل، الذي ابتسم لرؤيَّة فيولا. كانت ماريا تعلم بأمرهما، ولكنها لم تتحدث مع وصيفتها، وانتظرت أن تُخبرها، ولكن فيولا لم تفعل. شعرت أن القصر يشوبه الإضطراب، فأرادت اللجوء لسيد القصر، وأسرعت تجاه مجلس سَوْدَانْ، ولكن الحرس أخبروها أنه يجتمع مع قادة المدينة، فعادت إلى غرفتها تجرُّ قد미ها. إنه يومٌ غريبٌ من بدايته، استيقظت من نومها منزعجةً من حلمٍ غريبٍ، رأت فيه غاباتٍ تحترق وأطياقاً تصرخ، لم تتبين ملامحها، ولكن من بينها سمعت صوت أبيها وأخاه. سقطت النيران، لتظهر الهجان، لونها الأبيض ضياءً اجتاح اللهب، ولكنها كانت دون صاحبها، وأخذت تصهل وترکض في مروجٍ خضراءٍ شاسعةٍ لا نهاية لها..

أحداثُ عام إلا بضعة أشهر مررت بخاطرها في ساعاتٍ وحدتها، حتى حل الليل سريعاً. تصنعت النوم حين عاد سَوْدَانْ، الذي بدأ ملابسه وأوى إلى جوارها بالفرش، مستلقياً على ظهره مغضضاً عينيه. على غير عادته، لم يُحدثها أو يهتم لأمرها. أوجعها هجرانه، حتى وإن كان إلى جوارها. ليست عادته؛ هناك ما يؤرق خاطره بالتأكيد. كان هو الآخر يتظاهر بالنوم، بعد يوم ممتلي بالأخبار السيئة، فعهد السلام والراحة انتهى قبل البدء. غدرت فيالقُ رومية بسرايا الشمال، وسُمِّم طعام آخرين، ولا أخبار عن قسورة وفرقته. أبو المغوار يحثه على الخروج إلى الحرب، والفقير سعد بن هشام يُوجعه بكلماته، وبين ليلةٍ وضحاها صار جمِيعُهم يُريدون الحرب؛ وحده الأغلبي قال ننتظر قسورة ونرى الأمور من خلاه.

وما هي إلا أيام، وعاد قسورة وبضعة رجال ممن كانوا معه. لم يمنح رجاله إذن العودة إلى منازلهم، ولا مر بالحصن. توجه مباشرة إلى باري وقصبتها، وعقد اجتماعً طويلاً مع سودان، خرج بعده قسورة مغاضباً كما فعل أبو المغوار قبل أيام. عاد أميرُ الحرب إلى الحصن، فلم يحدث أحداً، حتى زوجاته وأطفاله، بل قبع في برجه يُحاصره الخذلان والجيرة. لقد خسر أكثر من أربعينانة من رجاله. سرايا كاملة أبيدت، وسممت مياه الشرب لآخرين. وقعوا في كمينٍ محكم، بينما يعبرون مخاضة النهر. لقد تعافى الروم من هزيمة ملكهم بسرعةٍ، بينما يتاخذ سودان عن جمع الناس للحرب، بدعوى أن الجنديتهم كثرة الحروب المتواصلة، لن يلقي بمزيدٍ من الرجال في طريق مهلكة، وخسارة بعض الشغور لا تعني خسارة الحرب؛ هكذا قال أميرُ باري المتعنت. للمرة الأولى يُصر على رأيه، ويضرب بكل أعراف الشورى عرض الحائط. ولا يسمع سوى صوت نفسه، بينما ملك إيطاليا الإفرنجي يجمع جنده بالقرب من سالرينو..

- هناك فرسان يقتربون من البوابة.

نطق بها حراسُ البرج الأمامي، بينما كان قسورة يتابع بيصره ولوح ثلاثة فرسان إلى الحصن. عرفهم قبل أن يتزلجوا عن جيادهم، فأشار من نافذة برجه، حين رفع الأغليبي رأسه لأعلى. توجهوا إلى المدخل، بينما توجه هو إلى قدر الماء، فغسل وجهه وخلع شعره بالمياه الباردة. بابتسامة باهتة، استقبل الأغليبي، يرافقه الفقيه سعد، وسلامان الصقلي قيم السلاح والخيل. كانوا يرون عرفة لأول مرة. الرایات والفوّوس وبعض السيوف ذكرتهم بمعارك خاضوا معظمها معه. لم يدم الصمت طويلاً، قطعه الأغليبي:

- هل ستبقى منعزلاً في برجك هذا إلى أبد الدهر؟!

رمقه قسورة بنظرٍ فارغٍ والفقـيـه ابن هـشـام يقول مـحدـثـاً إـيـاهـ:

- إن الانكسار طريق لا يكـفـ عن الانـحدـار بـصـاحـبـهـ، فلا تـدـعـ هـزـيمـةـ كـهـذـهـ تـفـتـ عـضـكـ!

قاطـعـهـ قـسـورـةـ بـغـلـظـةـ:

- لم أهزم.. كان هناك خائنٌ وربما أكثر.. سموـواـ الجـيـادـ، وأـحـكـمـواـ خـطـتـهـمـ لـنسـاقـ إـلـىـ الموـتـ.

لفـظـةـ "ـالـخـيـانـةـ"ـ قـاسـيـةـ، فـرـضـتـ عـلـيـهـمـ الصـمـتـ لـبـعـضـ الـوقـتـ، حتـىـ قـالـ سـلـيـمانـ الصـقـلـيـ:

- لن يمر الأمر.. أتوقع أن السلطان سودان سيقوم بوضع خطٍّ ما لردع الروم عن التغور الشمالية.

توقف عن الحديث، حين حاصرته نظراتٌ ثلاثتهم. مرةً أخرى فرض الصمت نفسه، قبل أن ينهض الأغليبي متوجهاً إلى طاولةٍ خشبيةٍ وضعـتـ عـلـيـهـاـ بـيـادـقـ خـشـبـيـةـ. التـقـتـ أحـدـهـ، وأـخـذـ يـحـدـقـ بـهـاـ وـهـوـ يـتـمـمـ:

- لـسـناـ سـوـىـ قـطـعـ مـثـلـ هـذـهـ، يـحـركـهـاـ كـيـفـماـ يـشـاءـ.

- ماذا تقصد؟

قال سليمان وهو ينقل بصره بينهم. كان قسورة مسترخيًا في جلسته، وقد ضاقت عيناه اللتان لم تفارقا الأغليبي، وابن هشام يقول محدثاً الآخرين:

- أتعي ما تقول يا أغليبي؟!

- نعم، أعي كل حرفٍ نطقْتُ به. من يستأثر بالسلطان دون شوري ويتخاذل، ليس له أن يكون قائداً. لقد نال منه الوهن، وسلبت لبّه أمور زوجتيه ورفاهية القصر، آن لسودان أن يُعزل.

قام قسورة بفتحةٍ:

- أظن أن هجير شمس الصيف قد آذى رأسك يا محمد! أتريد أن نخون بيعتنا لسودان؟ والله لا خير فيك..

تمتم الأغليبي وهو ينظر إليه بتحمّلٍ:

- ومن قال إننا سنخونه؟ نحن من أهل الحل والعقد، والأمر شوري بيننا، فكما منحناه الإمارة نستطيع أن..

- لا.. ليس هناك داعٍ لتكميل حديثك. عليكم العودة إلى باري، وسانسني كل ما قيل هنا، فور خروجكم من ذلك الباب.

- أطردنا من بيتك يا قسورة؟!

قالها الفقيه ابن هشام وهو يتطلع بوجه قسورة المُتجهم. كان قاسي الملامح عن ذي قبل. أولاهم ظهره، وتوجه إلى شرفته في إجلابة واضحة، أن زيارتكم قد انتهت. غادروا في صمتٍ، وتابعهم على الطريق الطويل إلى باري وقد عصفت به كلماتُ الأغليبي وراح تحمل قلب فؤاده.

بطول الطريق إلى المدينة، دار الحديثُ بين الأغليبي ورفيقيه. ألقى ابن هشام اللوم عليه، ولكن سليمان الصقلي أيدَ رأيَ الأغليبي، بل وأكَدَ أن قسورة قد ينضم إليهم إن عزموا الأمر. عند باب المدينة، افترق ثلاثةٌ كل إلى مبتغاه، فعرَجَ محمد على منزل أبي المغوار، يأمل في لقائه، ولكن الأخير لم يكن بالمنزل. شيءٌ من راحَةٍ نال من صدره حين لم يجده، فلم يكن يعلم كيف يفاتهاه في الأمر، ويتوقع رفض القاضي، ولربما ضرب عنقه في وقتها. جلس إلى ولده عبد الله والطبيب الرومي لقليلٍ من الوقت، قبل أن يرحل عائداً إلى منزله.

في جوف الليل، نهض فرعاً، والتقط قديلاً صغيراً، ونزل الدرج بقلبِ وجْلٍ. من الذي أتاه في هذه الساعة؟! لربما وشى به أحد رفاقه، وجاء سودان وجندَه ليقبضوا عليه. سُأله عن الطارق، فجاءه صوتُ الفقيه ابن هشام. فهدأت نفسه. أزاح المزلاج، ليجد العجوز يلتحف ببردةٍ بيضاء. أشار إليه بالدخول، فدخل الرجل، متوجهًا إلى أقرب ركنٍ، وجلس.

- لقد أصبت فيما قلت يا أغليبي. لقد تشاورت أنا وسلامان، ونحن معك، على أن يقتتنَ البقية، فلا يتفرق شملُ الجيش في وقتِ حرج.

ظهر الارتياح على وجه الأغليبي، وابن هشام يستطرد:

- شرحبيل وقسورة وأبو المغوار.. وأن يكون لنا تأييدٌ من العامة. دون ذلك، سيكون كل شيء ملغياً وكأن لم يكن.. وأكثر ما أخشاه أن نتنازع الأمر بعد عزل سودان.

ربت الأغليبي على كتفه:

- إن كان أمرنا شورى، فلن نتنازع الأمر.

- حسناً.. ولكن كما قلت، عليك أنت إقناع الرجال.. أنت قريب من سودان، ولذلك سيفهم الكل أنك تفضل صالح الأمة على صداقتك له، وأن ليس في الأمر خيانة.

اتفقا على اللقاء بعد يومين، بمنزل سليمان الصقلي قرب السفح، وعاد الأغليبي لفراشه، حاملاً على عاتقه إقناع الرجال. راود نفسه هاتف يُحده أن ما يفعله خطأ، ونهض مرة أخرى من الفراش متوجهاً إلى الشرفة المطلة على الفناء، يحاور نجوم الليل محاولاً إقناعها أن ما سيفعله هو الصواب.

في الصباح، توجه إلى ساحة التدريب، مستقبلاً المزيد من المتقطعة. تطلع إلى وجوههم طويلاً، قبل أن يُوكِل إلى مساعدته أمرهم، وجرّ قدميه إلى القصبة باحثاً عن شرحبيل، ولكن لا أثر لصاحب الشرطة. أسرَ إليه أحد الحرس أنه رأه بأروقة القصر قرب مدخل السلطان. كان الذهابُ لقصر سودان ثقيلاً على قلب الأغليبي، لكن لا بأس من التواجد حتى لا يشعر الأخير بأي تبدل. كان يمر بأحد الأروقة، حين رأى الفتاة الرومية وصيفتها الأميرة تخرج من غرفةٍ جانبيةٍ، تتلفت يميناً ويساراً، قبل أن ترحل على عجل. كانت حركتها مريبة، ولم يدر ماذا يفعل، أيتبعها أم يرى ما فعلته بالغرفة. استقر سريعاً أن يرى الغرفة، فتوجه بخطواتٍ واسعةٍ نحوها، وأمسك كفه الغليظ المقيد النحاسي للحظة، قبل أن يستجمع شجاعته ويفتح الباب.

كان شرحبيل يولييه ظهره المكسو بالشعر الذهبي. قال دون أن يلتفت بصوتٍ مرِّ:

- هل عدت؟ ألم تكتفي بعد يا صغيرتي الصهباء؟

اللتفت، ليترطم بصره بالأغليبي، الذي كان يقف على عتبة الغرفة قائلاً:

- يبدو أنك وجدت ضالتَكَ أخيراً يا شرحبيل!

الأمل تتحققُ فقط حينما نمنح أنفسنا فرصةً لتحقيقها. كانت فيولا سعيدةً بما آل إليه أمرها مع شرحبيل، أحد أقوى أمراء باري. عضَّت شفتها السفلية وهي تذكر ما حدث منذ قليل في الجناح الشرقي من القصر. لقد منحها وعداً لا يُصيّبها مكرورةً ما دام حياً. لن يُعكر إليساندرو أو أي كان صفاء حياتها بعد الآن. منحها لقاوهما المزيد من الأحلام أن تصير أميرةً كما ماريا، التي تجلس قرب حافة البركة هائمة، تفكُر فيما يورقُ عقل زوجها المنشغل عنها بأمور الإمارة والبناء، يخرجُ لصلة الفجر، فلا يعود إلا مع المغيب، واجتماعات الديوان تأخذ الكثير من وقته. تحسست بطنها، حين شعرت بحركة الصغير بداخلها. لعله جنينها يشعر بما يمر به أبوه، أو ربما يشتاق إلى لمساته.

ظهرت رملة على عتبة الفناء، محاطةً بمجموعةٍ من خادماتها، وبطنهما أيضاً بدأ في البروز. زينت وجهها بابتسامةٍ ودودٍ، وهي تتجه نحو ماريا، التي بادلتها الابتسام. ثرثرة الفتيات وضحكاتهن هيمنت على الفناء الممتئ بالورود، وعلى حافة البركة جلسَت الأميرتان تتبعان لهُ وصيفاتها.

– مالک ماریا، أهناك ما يُزعجك؟

تعجبت ماريا من لطف رملة وسؤالها. أحياتها دون أن تنظر إليها:

- لا شيء.. فقط أشعر بالإعياء.

لاحظت رملة الأسماء في نيرتها. سأؤلها:

- هل أرسل لـ**القابلة** لتفحصك؟

- لا ، أنا بخير ، لقد زارني عمي الطبيب كاراس أمس ..

تریشت رملة لیرهه، ثم قالت لها:

- أظن أمر سودان يُقلّقك. ولكن هكذا هم الرجال، لا يثبتون على حال. أحياناً نجدهم كأطفال صغار بحاجة للاحتواء، وأحياناً يُشعروننا أننا لا نعرفهم بالقدر الكافي، وأحياناً يقتربون، وأخرىٍ نفقد هم دوماً هناك ما يُخفيون عنا، ويحتفظون بما يشغل عقولهم لأنفسهم. هم بنّر عميق لا يصل إليها دلواناً إلا حينما يُقررون. لم يتغير عليك يا ماريا، فهو يحبك، فقط منحيه الوقت، فأمور الإمارة والرعاية تذهب العقل في بعض الأحيان.. ولكنهم يعودون..

ایتسمت ماریا، حین امسکت رملہ بیدیها و هي تستطرد:

- أعلم أنك تستغربين كلامي، ولكنني لا أحمل لك سوى المودة. إننا ننقسم حياةً واحدةً، فإن لم نهتم بأمر بعضنا البعض، لن يكون هناك خيرٌ بين أبناءنا من بعدها، والأكثر من هذا، أن سُودان قد يزهد وجوهنا.

قالت جملتها الأخيرة بخفوتٍ، جعل ماريا تبتسم أكثر. ومن بعيدٍ، كانت فيولا تتبع ضحكاتهما، وحديثهما الخافت، وعقلها يرسم قصوراً ذات أبرااج من ورودٍ وريحان، فقربياً ستصير أميرةً مثلهما، وستحظى بالعديد من الخدمات يسهرن على خدمتها ورعايتها. لكنها استيقظت من أحلام يقظتها، حينما رأته يعبر ساحة القصبة، واضطربت حين رفع رأسه نحوها وابتسم، كيوم رآها مع إلیساندرو في حارة الصالبة.

نُضِطَرُ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ أَن نَذْهَبَ إِلَى حِيثُ نَتَّلَمُ. ذَكْرُ الْجُرْحِ تَظْلِمُ عَالَقَةً رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ. الْبَوَابَاتُ الْحَدِيدِيَّةُ وَالْأَبْرَاجُ الشَّامِخَةُ تَذَكَّرُنَا بِضَالَّتِنَا أَمَامَ مَن يُسْكُنُونَ ذَلِكَ الْمَكَانَ، وَيُغْلِقُ الْجُرْحَ بِخَيُوطٍ مِنْ بَعْضِ يَنْمُو كَشْجَرٌ مُتَسْلِقٌ يُعْطِي قَلْوَبِنَا وَيُغْلِفُ صُدُورِنَا، لِتَصْبِحَ صَلَدَةً، وَتَمْنَعَ ذَرَاتُ الْأَمْلِ وَالْعَطْفِ مِنَ الْوُلُوجِ إِلَى الْقَلْبِ. إِنَّهُ يَعُودُ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ حَامِلاً رِسَالَةً مِنَ الشَّخْصِ الَّذِي جَعَلَهُ يَرِي الْحَقَانِقَ مِنْ قَصْرٍ أُخْرَى. شَهُورٌ مُضِتْ مِنْ لَقَائِهِ الْأَخِيرِ بِرَمْلَةٍ، عَلِمَ بَعْدَهَا بِحَمْلِهَا وَسَعادَتِهَا، فَأَلْسَنَةُ مِنْ يُصَادِفُهُمْ يُبَيِّشُ لَهَا بَعْدَ أَنْ مَنَحَهُ ذَلِكَ الْأَخِيرَ سَعَادَةً بِالْغَةِ حِينَ أَخْبَرَهُ أَنْ سَرَايَا قَسْوَرَةً لَنْ تَعُودَ مِرَةً أُخْرَى، تَمْنَى حِينَهَا أَنْ يَنْتَلِ أَهْلُ بَارِي مَا أَصَابَ الْآخَرِينَ، وَهَا هُوَ ذَا يَعُودُ إِلَى الْمَدِينَةِ حَامِلاً فِي صَدْرِهِ رِسَالَةً إِلَى

وصيفة الأميرة، كما كلفه النبيل الرومي.

كان الجميع يعاملونه بلطفٍ وترحابٍ، فالاميرة أسرت ما بدر منه، وهو فسر ذلك بما يُريده، لتنبت بذور شوق سبق أن وأدّها قبل أن تبرز براعمنها. حين اقترب من أسوار القصر، رأى فيولا تقف بالقرب من السور، فابتسم لها، وبإشارةٍ خفيةٍ من يده فهمت أن عليها أن تتبعه إلى الأروقة الغربية من القصر. كانت تمسك بتلابيب ثوبها ترفعه عن الأرض لتتحرك أسرع. توقفت وأنفاسها تتلاحم خوفاً، حين وجدته ينتظرها، ووهج النهار ينبعث من نافذة خلفه ليغمر ظهره، مما منحه غموضاً أثار ريبتها. لم تلحظ ابتسامته، ولكن نبرة صوته جعلته أشبه بشيطان.

- فتاة مطيبة أنت يا فيولا..

- ماذا تريد يا ماركو؟

- أنا! لا أريد منك شيئاً، فقط أحمل لك رسالةً من السيد إيلساندرو.

أصابت جسدها رجفةٌ، وحدقت في وجهه دون أن تنطق، وهو يُكمِّل حديثه ساخراً:

- يبدو أنه يستيقظ للأيام الخوالي معك. في الحقيقة، لا ألومك على هجران ذلك الجُحر الذي كنت تعيشين به، إلى رحاب قصور العرب هنا في باري. ولكن ما لا تعرفينه، أن الخادم هنا سيظل خادماً أبداً الدهر، فأنت بالنسبة لهم جسدٌ جاريةٌ، يتمتع به أحدهم في الليالي الباردة أو الحارة، ويمليكون بيته أو التنازل عنه لآخرين.

- لا أعرف عن ماذا تتحدث.

ألقت كلماتها، وهَمَّت بالرحيل، ولكن ضحكاته أوقفتها، التفتت إليه.. كان تجسداً للشر وهو يقترب منها وصوته الذي يُشبه الفحيج يخترق سمعها:

- الصهباوات دوماً كاذبات.. بل كل بنات حواء كذلك..

مرر أصابعه على يدها، وأخذ يُحركها على ثوبها الحريري، حتى صارت يداه على كتفيها، ورأسه يقترب من رأسها. أخذ يتشمّم عطرها، قبل أن يغض حلمة أنها اليمنى ويهمسُ:

- لكل شيء ثمن. إن كنت تريدين أن أتركك وأنسى حديث إيلساندرو.. فقط أطيعي قولي ولن تندمي..
انتابها الهلع، بينما كان يتلذذ برؤيه عينيها تفيضان بالخوف منه، وشفتهاها ترتعدان وهي تسأله في خفوتٍ:

- إن منحتك ما تُريد.. لن أرى وجهك مرةً أخرى.

لفتحت أنفاسه عنقها وهو يقول:

- ألم أقل لك إنك فتاة مطيبة.

لم يكن أمامها بدًّ من مجاراته. أقسمت في قراره نفسها أن تقتله، أو ستجعل شرحبيل يقوم بهذا عنها، ولكن عليها أن تهرب من هذا المأزق مهما كان الثمن. امتدت يدها إلى ردائه، ومن ثم إلى ما

بين ساقيه؛ ولكن سرعان ما انتسلت يدها في سرعة وجحظت عيناها. دفعته وضحكاته تتردد في الرواق، غير مبالٍ إن سمعه أحد. تراجعت بضع خطواتٍ وهو يقول لها:

- لم أظن أنك بهذا الغباء.. لا أريد ما جال بيالك أبداً. أنت فتاةٌ وضيعةٌ يا فيولا.. ما أريده ليس تلك الشهوات الدنيئة، رغم أنني لا أتردد في مضاجعتك بيدي، أو بقبض خجري إن أردت.. ولكنني لا أشتهي النساء.. ولا الرجال في الحقيقة.

- فماذا تُريد مني؟!

- هوّني على نفسك يا جميلتي .. ما أريده هو أن تقتلي رملة.. وربما سودان.. وبعدها الأمر لك أن تعودي إلى أخيك إيلساندرو، أو تبقى في القصر. الأمر يعود لك، لا أستطيع إجبارك على شيء كهذا.

اجتمع الرجال في منزل سليمان الصقلي. جاءوا فرادى بعد صلاة العشاء، وكان أول الحاضرين الفقيه ابن هشام، تبعه الأغلبي، وأميرا برندizi وأورانت. تبادلوا كلماتٍ جافة، في مجلس طال صمته في انتظار شرحبيل، الذي أوجعه كلماتُ الأغلبي يوم علم بمعاشرته للوصيفة الرومية..
إنه قادم ..

قالها ابن زيان أمير أوترانتو، وهو ينظر من النافذة. وعلى ضوء المشعل، رأوه يترجل عن جوادٍ أحمر. قال الأغلبي:

- كنت أعلم أن شرحبيل سيأتي.

دخل دون أن يلقي كلمةً واحدةً، متجمهم الوجه، يجول بنظراته في وجوههم جميعاً. لحظاتٌ مرّت، قبل أن يسأل عن قصورة، فأجابه الأغلبي أنه فشل في إقناعه واستسلامه لصفهم، ولكن ما زال هناك وقت كافٍ لإقناعه. تبادلوا نظراتٍ صامتة دامت لوقتٍ طويلاً، قبل أن يقر العجوز ابن هشام البدء:

- ما اجتمعنا هنا إلا من أجل الله وأمتنا.. ويعلم الله أننا لا ننضم للأمير سودان شرّاً.. بل خيراً لنا وله، إذ لم يعد بوسعيه مواصلة المسير فيما سيحاسبه الله عليه. لم يتحرك حين خسرنا بضعاً من المدن والقرى، ولا يأبه سوى بمذاته التي انغمس فيها، وأخذ يتخلل برفع قواعد البناء في المدن. ولكننا إمارة حرب، هكذا يُوصف حال أهل الشغور منهن هم على شاكلتنا. إن اجتمعنا هذا ينقصه العديد من القادة، وربما اختار أحدهم المكوث إلى جوار سودان.. أعني بكلامي قصورة التمييم وقياس القبرواني، لم يلبثا طلب الأغلبي في الحضور..

قال شرحبيل بغلظةٍ وهو يتطلع بوجه الفقيه ابن هشام:

- ماذا عن أبي المغوار؟

أجاب الأغلبي بصوته الأجشّ:

- لن نشركه في الأمر.. فكما تعلمون أن القاضي يتخذ من سودان ولداً، وسيعدنا بمثابة خوارج. لم

نسن ماضي الرجل في التصدي لمن حاولوا الإطاحة بالأمير خلفون يوماً.
بهدوءٍ غير معتادٍ في نبرات شرحبيل، حدث الأغلبي:

- وما مصير السلطان سودان وعائلته وكل من يقف إلى جواره؟ أستقتلونهم وتعلقون رؤوسهم على
أسوار القصبة؟!!

رد سليمان الصقلي في الحال:

- تتحدث وكأنك لن تكون معنا يا شرحبيل.

- لقد جئت لأسمع فقط. ولن أتخذ أي قرار، حتى أعرف كامل خطكم.
قال ابن هشام وقد تجلت في صوته سخريةً واضحةً:

- لم جئت إذن بجوابٍ غير حسانك؟ نحن مُشاركون في الأمر جميعاً يا صاحب الشرطة، ولن نتراجع
عن قرارنا إلا إن حال بيننا وبينه الموت.

اعتل شرحبيل في مقعده قائلاً بلهجـة قويةٍ:

- لن يمس الموت سودان والذين معه.. وقبل أي حديث عن قراراتكم وخططكم، أريد معرفة لمن
سيؤول الأمر من بعده.. هل اخترتم أحدكم للإمارة، وجدتموه أصلح منه؟

تبادلوا جميعاً النظاراتِ، قبل أن ينهض ابن زيان أمير أوترانتو ليقول:

- إن كنا قبلنا الأمر، فلأن سودان استأثر بالملك ولم يعد للشوري وجود. فلن يكون الأمر بعده إلا
شوري بيننا..

أشار شرحبيل للأغلبي:

- ماذا عنك يا أبي عبد الله؟.. لم أسمع لك رأياً، وأنت من قلب القلوب ووضع الأمـر بين أيدينا؟

توجهت الأبصار إلى محمد بن الأغلبي، الذي عبـث بلحيـته قائلاً:

- والله ما أريد ملكاً ولا جاهـاً.. ولا أفرض عليـكم أمراً تكرهونـه. إنما الأمر شوري، وإن اخـترتموني
سأقول لا أريـدـها.. فلتـجمـعـ الآراءـ الآـنـ، وتخـتـارـواـ أحـدـكمـ ليـخـلـفـ سـودـانـ.. وإنـ اخـتـيارـيـ وبـيـعـتيـ
لـقـسـوـرـةـ.

بـهـتوـاـ جـمـيعـاـ منـ اـخـتـيـارـهـ، وـقـالـ سـليمـانـ الصـقـليـ:

- إنه ليس معـناـ.. كـيفـ هـذـاـ؟

قال الأغلبي:

- لا أحد جـديـرـ بالـقـيـادـةـ سـوـىـ أمـيرـ الحـربـ.. وـأـعـرـفـ أنـ شـرـحـبـيلـ قادرـ عـلـىـ إـقـاعـهـ.

رمه شرحبيل وقد عقد حاجبيه:

- امنحوني ثلاثة أيام، حتى أنظر في الأمر، قبل أن أخبركم بما أصل إليه.

ألقى كلماته، ونهض منصراً، حين جاءه صوت سليمان الصقلي:

- سنكون بحاجة لقصورة التميي، كما نحن بحاجة إليك يا شرحبيل، فتحت إمرة كليكما أكثر عدد من جند المدينة.. حتى لا تراق الكثير من الدماء.

التفت شرحبيل مبتسمًا :

- لكم ما تريدون.. ولكن إن كان الأمر كما تنوون، فالدماء لا بد أن تسال.

نطلع إليه الأغلبي بحزمٍ:

- لا دماء ستُسفك.. لا دماء.

ظل شرحبيل ينظر إليه لبرهه، ثم ابتسם، وتركهم.

خرجت فيولا من غرفة ماريا، بعد أن ساعدتها في ارتداء ملابسها، فقد صارت الأميرة مضطربة بشهور الحمل الأخيرة الصعبة، مع الحزن الذي أصابها جراء انشغال سودان ببناء المرفأ الجديد. اتجهت إلى المطبخ الكبير، حيث يُعد الطهاة طعام النساء، فاطمأنّت على إعداد الطعام، ثم خرجت تتمشى وحدها وعلى وجهها بدا القلقُ فشرحبيل غائبٌ منذ الأمس، وهي تحتاج لأن تخبره عن ذلك الشخصي اللعين، ليخلصها منه. إنها ليست بقاتلٍ؛ المسيح يُبغض القاتلة ويحرّمهم من الملوك، قد تكون خاطئة ومذنبة، ولكنها ليست قاتلةً بالتأكيد.

ارتدى نقابها وحملت سلة تفاح، وتسللت إلى خارج القصبة. عبرت الطريق إلى حارات باري، باتجاه منزل صاحب الشرطة، يقودها الشوقُ أو الخوفُ لا تدري، ولكن عليها الحديث إلى مهما كلف الأمر. اطمأنّت لا أحد يتبعها، بعد أن اندسّت وسط زحام السوق. شعرت كمن تعرف نفسها لأول مرة. إن كان هناك من يجب أن يموت، فهو ذلك الذي يقف أمام أحلامنا.. ماركو الشخصي. فتحت الباب بمفتاح كان قد أعطاها إيه شرحبيل، وبحثت عنه بكل الغرف، فألقت بجسدها على فراشه وراح تتحسس الوسادة لعلها ت洩 عنها تفاصيل المفاجئ، ودوامة الحيرة تتسع حتى تكاد تتبلع روحها.

الصداقة.. الأخوة.. الحب، كلها شيءٌ تجرفها الخيانة. لم يحضر قصورة اجتماع الأغلبي، ولا يعرف ما دار به. استلقي بفراشه مغمض العينين، يتصلبُ عرقاً، لا يعلم أهو بسبب الحر، أم ذلك المازق الذي وضعه فيه الأغلبي. لن يشتراك فيما يخططون له، لن يخون سودان حتى لو وقف أمامهم جميعاً. اعتدل جالساً، وأخذ سيفه ذا المقبض المرصع بالزجاج الملون، والتقط حجر الصقل من أسفل سريره، وأخذ يচقل السيف البراق، يمحو انعكاس صورته ولحيته الكثة عن النصل. توترت أصابعه على المقبض، حين سمع صهيلاً يأتي من أسفل البرج. بخفة، كان يقف خلف ستائر النافذة، فرأى

شرحيل يترجَّل عن فرسه. ما الذي جاء به إلى هنا؟ تمتم بها وهو يضع سيفه بالغمد ويرتدِّي قميصاً من كتان مصبوغ بالأسود كلون شعره. لم تمض دقائق، حتى صار شرحبيل ببابه، فخرج لاستقبال ضيفه بترحاب حارٌ. وقف شرحبيل بالشرفة الكبيرة:

- أحسدك على هذا المشهد الخلاب.

ابتسم قسورة:

- الرؤية من علٍ تمنحك إماماً ليس لمن بالأسفل.

كان يتذكر حديث الأغلبي، وقد عادت عواصف الحيرة تضرب رأسه مرة أخرى. هل يُفصح لصاحبه عما تم أم يصمت؟ انتشله صوتُ شرحبيل من جموده:

- ما بك يا قسورة؟

- لا شيء، أنا فقط متعب..

- جميعنا نشعر بالتعب، وصار الأرق ملك ليالي باري.

مدّ قسورة يده بكأسٍ تحوي شراب فاكهة. أخذه شرحبيل مستطرداً:

- ما جئت إليك إلا لاستشيرك فيما عرضه عليك الأغلبي.. إن الناس قد جمعوا أمرهم، ولن يردعهم أحدٌ مما يخططون له. أخاف أن نفترق ويدْهُب ريحُنا، وحدك أنت يا قسورة من تملك أمن سودان هو وأسرته..

- أنت معهم إذن يا شرحبيل؟

- لا تحكم عليَّ يا صاحبي. استمع لقولي، وبعدها لك الخيار.. أخاف أن يغدر أحدهم بسودان..

- وما جئت أنت إلا لطلب الغدر.

- لا تُقاطعني، فالامر لا يحتمل الجدل. إن لم ننضم لهم، لا ندرِّي ما قد يحدث لنا ولا لسودان أو لباري كلها.. انضامنا لهم سيجعلنا نؤمن خروج سودان وعائلته بسلام من المدينة..

- أنت أعلم الناس بسودان يا شرحبيل. أتعجب مما ترونـه صواباً وهو في قراره خاطئ..

- إنه يهدد بقاعنا على هذه الأرض. انظر حولك يا قسورة، ما خلقـنا لنجلس في قصورِ نداعب أثداء النساء. ليس هذا ما جتنا هنا لأجله.

- وهـل الخيانة هي ما جـنا لأجله؟ لا يا شـرحبيل. لا يستحق سـودان الخـيانة، ولا يستحق أحـدهم أن يكون محلـه.

- إنـهم سـيفعلونـها دونـنا لو تحـتمـ. واجـبـنا أن نـخرـجهـ سـالـماً، وبـعـدهـا نـرىـ ما سـيـحدثـ. إنـكـنـتـ تحـبـ سـودـانـ عليهـ أن تـنـضمـ معـيـ إـلـيـهمـ.

- لا أحب ابن هشام وذاك الصقلي سليمان..
- إن ما يقوله الأغلبي صوابٌ، وإن كان السبيل خاطئاً، ولكن علينا المضي قدماً. أريدك في ظهري، وحذك من تستطيع عزل القصبة عن المدينة، فيتم الأمر كما نريد نحن وليس هم..
- أنت صاحب الشرطة يا شرحبيل، وأنا قائد الجيش.. باستطاعتنا إيقاف الأمر.
- نعم نستطيع ذلك، ولكن لا أعلمكم عدد الموالين لهم. لا أعلم إن كان هناك أشخاص قادرون على النفاذ إلى القصر وقتل سودان ومن معه.

رحل شرحبيل تاركاً قسورة يُصارع عقله، بينما تأرجح قلبه بين حديث الأغلبي والحوار الأخير مع صاحب الشرطة، الذي اتخذ طريقه إلى باري، واثقاً أن أمير الحرب سينضم إليهم. عاد شرحبيل إلى منزله بباري، ليجدها تلقى بجسدها بين ذراعيه. تفاجأ من وجودها في هذه الساعة من النهار. احتضنته بقوّة وهي تسأله:

- توحشتك..

صفقت الباب بقدمها، وترك شفتيها تقلّعان القلق والروع عن نفسه.

مع رياح الخريف الباردة، توالت الأخبار من الجنوب. أسطول باري يهزم البنادقة من جديد بالقرب من طارنت، ويأسر سفينتين بيزنطية عظيمة. توالت الرسائل المباركة على الديوان، قرأها أبو المغوار على مسامع سودان، الذي أمر بارسال المزيد من الجنود إلى الجنوب لدعم طارنت. رسالة واحدة وضعها القاضي جانباً، انتظر حتى خلت القاعة من الجميع، وأعطتها لسودان، ختمها الأحمر يحمل كلمة "غلب"، شعار الأغالبة. فتح سودان الرسالة وقرأها في صمت. اتسعت ابتسامته وهو يمد يده لأبي المغوار بها بعد أن أنهاها قائلاً:

- الأغالبة يسعون لدخول روما هذه المرة.

ابتهج الشيخ وهو يطالع الرسالة:

- إنها المحاولة الثالثة لهم وقد تكون هي الفاتحة.

- يجب أن نتوارد هناك، ونحظى بذلك الشرف معهم.

أو ما أبو المغوار برأسه موافقاً، وسودان يستطرد:

- علينا أن نكون مستعدين لمثل هذه الغزوة. الآن فقط أستطيع أن أقول لك لما أرحت الجند في الفترة الماضية، رغم نقض بنفينتو للهدنة. كان علينا أن نلتمس بعض الراحة لما هو أكبر..

- لقد حققنا نصراً مبيناً في الجنوب على سفن البندقية، ولكن سفناً ستظل في طارنت لفترة، حتى يتم إصلاح ما أصابها جراء المعارك هناك. أتوقع أن يهجم البيزنطيون على طارنت مرة أخرى، من أجل

سفنهم التي وقعت في الأسر.

- ليسوا بهذا الغباء يا أبا المغوار.. فقط اجعل أمير يبرندizi وأوترانتو يعودان إلى الجنوب للاستعداد لهجوم البيزنطيين، فسيضربون أضعف النقاط، والمدينتان بهما الكثير من الإشاعات والثراء.

غادر أبو المغوار القصر حاملاً الأمر للرجلين، المتآمرين ضد سلطانهما، كان يعلم بكل ما يدور في منزل سليمان الصقلي. كل القرارات وكل الأخبار كانت تصله. قاده حسانه بين غاباتِ الفكر، وقد فرّ إفشل ما يمكنون، وأن يُواجههم. رحى تدور وتعود لنفس النقطة، ففي خلفون، ومن بعده مفرق، والآن سودان، وكأن الخيانة علقت بطين آدم فأورثها ذريته. عرج إلى منزله، حيث كان كاراس يُعد الغداء هو والفتى ابن الأغلبي. رأى فيه صورة سودان الصغير، وتحسّر أن أباه كان أعز صديق. اغتسل العجوز، وبذل ثيابه، وخرج من المنزل دون أن يُشاركهما الطعام.

في فناء منزل سليمان الصقلي، وقف أبو المغوار وحده، دون حرس أو سيف، يلتحف بردة بنية فوق جلباب أبيض، مبتسمًا. نزل قصورة الدرج، وعلى وجهه ابتسامة باهتة، حاول أن يُخفي بها توهره. لم تنزل عين أبي المغوار عنه، وهو يقطع الفناء قادماً إليه.

- كنت أعلم أن عينك الواحدة ترى كل شبرٍ في المدينة يا أبا المغوار، وأن البصاصين في أيامنا هذه أكثر مما كنت أتوقع في الحقيقة.

فتح أبو المغوار ذراعيه على اتساعهما في زهو:

- هذه مدینتي..

توقف قصورة أمامه وقد خفت صوته قليلاً:

- هل نذهب من هنا، ونتجه لأي مكان تُحبه في مدینتك؟

وضع يده على كتف قصورة:

- ألا تُريد أن يسمع من الداخل حديثنا؟

أو ما قصورة قائلًا:

- من الأفضل أن تكون وحدنا لنتفاوض.

مضى الرجلان ناحية السفح المطل على خليج الصيد، وتوقفا قرب الحافة وهم يُتابعان حركة الناس وانهماك الصياديـن بشباكـهم، والمزيد من القوارب تعود أدراجها قبل المغـيب. راحوا يُفرغـون السمك في سلال كبيرة يحملـها الـباعة إلى السوق، وأـبو المـغـوار يـهز رأسـه ويـبتـسم..

- أـتـعرف يا قـصـورةـ أنـ قـرارـاـ خـاطـئـاـ تـتـخـذـهـ،ـ قـدـ يـودـيـ بـحـيـاةـ المـنـاتـ،ـ وـسـتـصـبـحـ وـقـتهاـ مـسـؤـولاـ أـمـامـ نفسـكـ وـأـمـامـ اللهـ.ـ ماـ تـفـعلـونـهـ قـدـ يـطـيـحـ بـرـقـابـكـمـ جـمـيـعـاـ،ـ بـيـنـماـ جـيـوشـ الـمـسـلـمـينـ تـحـتـاجـكـمـ.ـ أـنـتـ وـاثـقـ أـنـ الصـوابـ لـجـانـبـكـمـ،ـ فـهـلـ فـكـرـتـ لـحظـةـ مـاـذـاـ إـذـاـ كـنـتـ أـنـتـ وـرـفـاقـ الـمـخـطـئـينـ؟ـ

تابع قسورة أسراباً من طير مهاجر يبحر في السماء الزرقاء، وهو يُفكِّر في المواجهة التي لم يختار موعدها. حان الوقت لتخيير أبي المغوار بين الفريقين، إما قادة باري أو سودان. نطق بلهجة رسمية، دون أن ينظر إليه:

- سيد القاضي، أرى ألا مفر مما هو محظوم.. وعليك أن تقرر إلى أي جانب أنت..

تقدَّم أبو المغوار بضع خطواتٍ، حتى صار يسند كليْه على سور الحافة:

- هكذا باتت الأمور إذن! اسمع يا فتى.. إن الحق طريقه واحد، لا لوع فيه، ومن عليه أن يختار الجانب أنت، لا أنا..

كانت كلماته صارمةً مقتضبةً، أثارت التوتر في قلب قسورة. أكمل القاضي:

- أعلم أنك رفضت في اجتماعك الأخير مقترحاً من سليمان الصقلي بقتل الأمير سودان.

اتسعت عينا قسورة.. هناك خائنٌ بينهم ينقل الأخبار للعجوز؟!

- عليك أن تختار بين ما يجب عليك فعله، وما عليك دفعه يا قسورة. الواجب يحتم علينا دوماً إزاحة العواطف من أجل مصلحةٍ عامة، وكما قلت لك، الحق طريقه واحد.. استفت قباك. ولكن أي فعل سنتخذه الآن، سيترتب عليه إما إكمال المسير، أو التوقف للأبد..

عقد قسورة حاجبيه:

- ماذا تقصد بالتوقف للأبد؟

- أقدر موقفك الرافض لخيانة وقتل سودان، وأدري أن أغلبكم مصلحون. ولكن قد يشغل ذهن المصلح إزالة الشر؛ فيغفل عن تقدير الذي يحل بعد زواله، فإن كان أكثر شرًا منه، فذلك العمل فساد في صورة إصلاح. وأعلم جيداً أن أفعال سودان قد باتت في دربٍ غير درب الآباء والأجداد، ولكن لا تخن بيته يا قسورة. لا تلق بالإمارة إلى الهلاك، فصاحبك نبيلٌ وصادقٌ، وقريباً ستحشد الجيش للتوجه إلى روما معه. وأما ما ستفعلونه أنت ومن معك، فسيجعل كليهما لا تصلانها يوماً. ربَّت على كتفه، وتنهد..

- هو صاحبك يا قسورة، فقومه واصحه قبل فوات الأوان. أعلم أن الرجال عازمون ولن يثنوهم سوى أن يعترف سودان بخطئه. فإن لم يعدل عما في رأسه، فلا تكن أنت فاعلها.. كُن إلى جانبه!

كان حديث أبي المغوار غامضاً بعض الشيء، مما جعل قسورة يسأله مجدداً:

- أيُّهزم الحق يا أبا المغوار؟

ابتسم أبو المغوار بثقةٍ وارتياحٍ:

- أبداً.

- ألم يمت أصحابُ الأخدود ولم ينج منهم أحد؟

- لقد انتصر الحق بموت صاحبه.. لم يُبدلو وثبتوا، فروي أنهم انتصروا، وبقيت قصتهم.. وصار الناس يقولون لقد مات في هذا الأمر قومٌ لم يُبدلو.

- وما الحق اليوم يا أبا المغوار؟

أشار العجوز للراية الخفافة فوق البرج البحري للقصبة:

- ما كان عليه نبينا وصحبه.

- ألم يقتل صحبه فيما بينهم؟

- كانوا بشراً. لم يختلفوا في دينه، وإنما فتنتهم الدنيا.. ثم تابوا وأصلحوا فيما بينهم. انحازت لهم الدنيا، ولم يمض على هجرة النبي مائة عام، حتى بلغ ملك أمته المشرق والمغرب. علينا أن نحافظ على الشغور الذي اخترنا أن نكون عليها.. علينا أن نوسع نفوذنا بحيث لا نهلك.. فإن انكسرت شوكتنا، سنقع في عصور مظلمة لعقودٍ لا يعلمه إلا الله. إن كنا سنعود حتماً، هذا وعد.. وفي الموقف الأخير، سنكون جميعاً بين مقربٍ وبعيدٍ، كل يبوء بيشه.

هم بالرحيل، حين جاءه سؤال قسورة كخجرٍ في ظهره:

- أيقتل الرجل صاحبه في سبيل الحق؟

توقفت قدماه عند حافة الدرج. ومضات سريعةٌ لماضٍ بعيدٍ، وذكرياتٌ لطالما أراد حذفها من عقله، ولكنها علقت به طوال سنين. كان عليه أن يُجيب، إجابةً صعبةً لم يجد لها مكاناً في أغوار صدره:

- الرجل لا يغدر بصاحبه.. حتى وإن كان الصاحب على خطأ.

(9)

أي بني.. إن الإنسان لم يخلق للهوى، وإنما هيئ لإدراك العواقب والنظر فيها. وإن كان رغد الحياة وهناؤها هما ما يملكان العقل، فلا فرق حينها بيننا وبين البهائم؛ فالبهيمة تصيب من لذة النكاح والطعام والشراب، وما لا يناله ابن آدم من عيش هني وفكراً خال. وحين تُسوق إلى النحر، تكون منهنكة على شهواتها، لفقدانها العلم بالعواقب والنظر في الاختيارات. لقد كان هنا ملوك كثيرون قبلك، أسماء عدة وألقاب كثيرة.. رجال حكموا، وأحيطت مجالسهم بجوارِ حسانٍ زينهم الذهب

والفضة، وكانت مصاجعهن من حرير. ولكنهم تركوا كل الحب وراءهم ليقودوا أنفسهم إلى الشرف والواجب. هل تظن أنك مختلف؟ لا أظن ذلك؛ فكل ما حُزت لم يكن بفعل السيف أو الرمح أو العدل أو حتى حب الناس، لقد نلت ما نلت لأن الله أراد لك ذلك. تذكر دوماً يا سودان أن من أعطاك السلطة هو الله، وله ما أعطي وله ما سيأخذ.

كلمات تردد صداتها بعقله، بينما عيناه تتبعان إبحار سفينية كبيرة أسفلت أشرعتها حالما خرجت من خليج باري، تبتعد رويداً وعلى متنها أبو المغوار، الذي قرر الرحيل فجأة. جاءه العجوز صباح اليوم، ليخبره أن الوقت قد حان للمضي إلى مكة. إحساس بالعجز أصاب سودان، حين أدرك أن من تربى في كنفه يرحل. لم يستطع إثناء عن المضي، ولكن وجع الفرقعة دب في قلبه. طمأنه أنه سيكون بخير، وأن سلامه مبلغ في مدينة النبي. قال إنه سينزل إلى مصر، ومنها إلى المدينة، ومن ثم مكة، وإن كانت في العمر بقية سيزور بغداد ويقص على الخليفة العباسي عن ثغر باري وسلطانها. سيعود إليها إن بقيت له في الحياة حياة. كان الوداع قاسياً، ولكنها الحياة. رحل القاضي، وتركه وحيداً يبارز وساوس شيطان يخبره أن العجوز تخلى عنه. ولكن الأمر ليس كذلك.. بالتأكيد ليس كذلك.

- ستفتقده جميعاً.

قالتها رملة الواقفة خلفه. صوتها تخل رياح الخريف بقلبه. حدثها دون أن يلتفت:

- لم أتوقع رؤيته يرحل هكذا.. لا أستطيع لومه؛ لقد فعل الكثير من أجل الجميع.. كل جدار في باري يدين له.

- علينا أن نعذرها. فالرجل.. كما قلت.. حمل الكثير من الأعباء، وعليه أن يستريح.

- أخشى إلا يتحمل مشقة الطريق إلى مكة.

- لقد تحمل الكثير لعقودٍ قضتها بين أسنة الرماح وصليل السيوف.. إنه أقوى منا جميعاً.

وأشار ناحية البحر قائلاً:

- أنا أعرفه أكثر من أي شخص آخر على هذه الأرض.. لطالما حلم بالشهادة والموت في سبيل الله. ما الذي أجبره على الرحيل؟

- الشوق لخلوة ربما..

صمتت لبرهة، لتقترب وتقف إلى جواره مستطردةً:

- أنت تستوحش غيابه.. أليس كذلك؟

- لقد كان أبياً لي، ربّيت في كنفه، ومنحني الكثير من العلم والعطف، وحظيت بغرفة في منزله، وطبق على مائدة بيته بين بناته.. من الصعب أن أراه يرحل عنى هكذا.

- إن الرحيل لا فرار منه.. مكتوب قبل أن يجف القلم وتترفع الصحف. ما بال الأمهات يتركن الأبناء يرثون يا سودان، ويربطن على قلوبهن. هون على نفسك يا زوجي!

التفت إليها مبتسمًا:

- الحمل ثقيل يا رملة.

قالت بنبرةٍ فقاءٍ:

- أعلم أن هناك ما يؤرق ليك ويعصف بذهنك. حدثني ماريا بأمر سهرك وخلوتك الدائمة.. كما أن لي عينين أرى بهما حالك الذي تبدل. لا تستهن بي يا سودان، إن أردت أن تُفصح عن شيء، أو أن تسمع مشورة أمينة.

نظر في عينيها السوداويّن طويلاً، وابتسم قائلاً:

- لا تقلي يا رملة، سأتدبر الأمور، قبل أن أذهب إلى روما غازياً.

- وأنا دوماً إلى جوارك.

وضع يده برفق على بطونها المنتفخ:

- اسمع يا فتى ما تقوله أمك، وامشهد على كلماتها..

- من قال لك إنه ذكر؟

- لقد رأيتما.

-رأيتما!

- نعم رأيت فيما يرى النائم ولدي.. أحدهما ذو شعر أسود كثيف وعينين سوداويّن رائعين الجمال، كعينيك.. والآخر أشقر له أنف وعينا ماريا.

صمت وتبدلت ملامحه وهو يُرسل بصره إلى الأفق، حيث صارت السفينة نقطة سوداء تكاد تخفي. ربتت على كتفه بحنانٍ:

- ماذَا بك؟

- كان ثلاثكم في جزيرةٍ محاطةٍ بالبحر من كل جانب، وكنتُ بعيداً عنكم بُعد السماء عن الأرض.

كان لرحيل أبي المغوار أثرٌ بالغٌ في نفوس الجميع، العامة والخاصة. قال إنه لربما يعود، ولكن أغلبهم شعروا أنهم لن يروه مرة أخرى، فاجأ الخبر رجال الحصن الغربي، وعلى رأسهم قسورة، وجعله ذلك في حيرة، فحواره الأخير مع الرجل ما زال يُؤرقه. لقد منحه حق الاختيار، ومن الواضح أنه لم يخبر سودان شيئاً، وإنما تُستفتي القلوبُ السليمة، ويتعين على العقول أن تجد الحقيقة. لم يكن حال محمد الأغبّي أفضل من قسورة. لقد وجد ابنه عبد الله يبكي غياب العجوز

في جوف الليل. سمع دعاءه الخافت بأن يحفظ الله القاضي الفقيه. كان لنجيب الفتى وابتهاله الصادق أثرٌ بالغٌ في نفسه، حتى إنه حاول اللحاق به عند مرسي السفن، ولكن الفلك قد أبحرت. لوح له صائحاً:

أترحل دون أن تُخبرنا يا أبي المغوار؟!..
اكتفى العجوزُ بالصمت، وعلى وجهه كان الحزنُ واضحاً، وكان السكونُ قاتلاً الأغلبي.

نهض شرحبيل عن جسدِ فيولا، التي كانت في أوج حاجتها له. جذبت ذراعه ليعود إليها، لكنه جلس على طرف الفراش مُحدقاً في العدم، بينما احتضنت جسده وراحت تتحسس صدره هامسةً بأذنه:

- هل مللت مني، أم أن هناك ما يشغل بالك؟
أجابها بصوته الخشن مبدلاً مجرى الحديث:

- كيف حال أروقة القصر ونسانه.. هل ما زال ذلك الخصي يتتردد على جناح الأميرة رملة؟
توترت وتبدل لون وجهها مع ذكره لماركو. حاولت أن تُفصح له عما طلبه منها، ولكن خرج صوتها خافتًا:

- إنه لا يقتربُ من مخادع الأميرات.. يخشى ذلك الحراس الضخم. منذ أيام جاء ومعه بعض الأقمشة لمariya، ولكنها كانت متوعكة لم تقابلة. إن وهن الحمل يكاد يسلب روحها، وصارت لا تفارق الفراش إلا قليلاً، ويزورها السلطان بين الحين والآخر، فهو يقضي معظم وقته يتحدث مع الأميرة رملة، منذ أن رحل القاضي الكبير.

- ما زلت أتعجب من رحيله المفاجئ.
تمتم وهو يُحرك عنقه، الذي أصدر طرقعةً، جعلتها تدلك أكتافه ورقبته بلطفٍ قائلةً:

- لقد زار السلطان صباح اليوم الذي غادر فيه. مكث معه وقتاً، قبل أن يذهب للمرفأ.
- هل سمعت ما قالاه؟

- لا.. فقط رأيت الحزن على وجه سودان وهو يُودعه، كما هو حال الأميرات وكاراس، وذلك الفتى الصغير ابن الأغلبي.

استدار ليواجهها. تطلع إليها طويلاً، قبل أن يقول بصوتٍ أربع نفسمها:

- منذ اللحظة، عليك أن تعرفي ما يدور في أروقة القصر.. أريد منك أن تسمعي كل همساتهم، وترأقي كل تحركاتهم.. سودان.. رملة.. ماريا، والقادة الزائرين..

قطّبت حاجبيها، وانقبض قلبها، وسألته:

- هل هناك ما يُقلقك؟
- لا دخل لك.. فقط أطيعي أو أمري، وستحصلين على النعيم.

نهض مغادراً الغرفة، وهي تتبع جسده العاري كتماثيل القدماء المقدسة شمال قريتها وبساحات روما. عشيقها القوي يُدبر أمراً ما، أو يخشى شيئاً ما له علاقة بابي المغوار وسودان.

ليل دامسْ وأجواءٌ غائمةٌ تفرض السكون على المدينة التي تغط في نوم عميق، ودببُ حوافر حصان يقتربُ من الأسوار جعل جند الحراسة يفيقون من غفوتهم. مشاعل إضافية أضاءت أبراج البوابة، وعلى صوتها تفحص الحرُس الفارس وأحدهم يُحدثه:

- من أين جئت؟

قال بصوتٍ متهدجٍ:

- من برنديزي.. معِي رسالَةٌ إلى السلطان لا تحتمل التأجيل.

- من أمير برنديزي؟

- مسلمة بن محمد القيسي..

أشار قائدُ الحرُس لرجاله، فرُفعت البوابة الحديدية ليُدخل. تفحصه الجندي على ضوء المشاعل، وأحدُهم يُناوله قربة ماء:

- لقد كان طريقك طويلاً، ويبدو أن الأمر لا يحتمل التأجيل كما ذكرت.

- لا أريد ماء، فقط فليُرافقني أحدكم إلى القصبة.

- على الأقل تناول بعض الماء!..

قاطعه الفارسُ:

- لقد سقطت أوترانتو بيد البيزنطيين يا رجل.

كلمات مقتضبة جعلت الجندي يُفلت القرابة، فسقطت وتناثرت المياه تحت حوافر الجوال، الذي أحنى رأسه محاولاً لعقها، ولكن الفارس لکزه، فرفع رأسه مطلقاً صهيلاً خافتًا، لم يكن كافياً ليفيق الرجال من صدمتهم. لم يمض الكثير من الوقت، حتى كان الحصان يقف بساحة القصبة، بينما كان صاحبه ينتظر بقاعة القصر الكبير. انتظارٌ قصيرٌ، بُرز بعده سودان بمدخل القاعة، بوجهٍ فرّ منه النوم. اقترب من الرجل، الذي خلع خوذته وخفض وجهه مُحيياً سودان، الذي تجاهل تحيته وسأله مباشرة:

- هاتِ ما عندك!

تلعثم الرجل، وتتوترت أصابعه على خوذته:

- لقد سقطت أوترانتو منذ ثمانية أيام. أسطولٌ بيزنطي من مائة سفينةٍ كان كافياً ليهرب أميرُ المدينة ابن زيان ومعه مجموعة كبيرة من الجنديين. أحرق المسجد الكبير، وقتل جمّعٌ غيرٌ من المسلمين.

قطع أذان الفجر حديث الرجل ذي الوجه الشاحب، وقد بدا له السلطان كليث حبيس، راح يقطع القاعة جيئة وذهاباً، حتى انتهى الأذان، فأشار للرجل ليكمل حديثه:

- هذا كل ما أعرفه، وما قيل لي كي أخبرك مولاي.

- اتبعني!

باقتضاب قالها سودان، وهو يمضي في طريقه لخارج القصر. تبعه الرجل إلى المسجد، وجلس إلى جواره بالصف الأول. تعجب الناس من تجهم سلطانهم، ولكن سرعان ما أقيمت الصلاة. بعدها انتهوا هم الكثير منهم بالخروج من الجامع الكبير، ولكنهم توافروا حين رأوا سودان يرتفق درجات المنبر، فجلسوا مرة أخرى وأعينهم معلقة بسلطانهم، الذي جال بنظراته في وجوههم، حتى خفت الهممات فلم تعد تسمع إلا همساً. تحدث بصوت قوي:

- كانت في القرون الماضية أممٌ مثلكما، حكموا مشارق الأرض ومغاربها، أسّسوا المدن والمنازل العاملة؛ ما زالت أطلالها شاهدة على ما صنعته أيديهم من مجدٍ. ظنوا أن لا أحد يقدر عليهم، وصار أمرُهم إلى ضعفٍ وفتور، فأصبحت لعدوهم صولةٌ وجولةٌ، وكان الجبنُ وضعفُ القلوب وحب الدنيا سبباً كافياً لينهزموا. لقد فقدنا اليوم أوترانتو..

اتسعت أعين الناس، ونبرة صوته ترتفع أكثر:

- لقد كان للكفار يوم أحد صولةٌ.. وما يوم أوترانتو إلا كيوم أحد، سيتبعة العزة والمجد. وإن أوترانتو راجعة إلينا، وسنخوض حربنا حتى نصل إلى أسوار روما. حتى وإن فقدنا كل المدن وكل الثغور، سيأتي من بعدينا من يُكمل الطريق.. وإن الجناء ومن هربوا من القتال سينالهم من عذاب أليم. إن أوترانتو راجعة إليكم يا يمانكم بأن النصر من الله وأن الخذلان من أنفسنا.

ارتفعت صيحات الرجال الهدارة، حتى طارت الحمام الساكنة بالمدينة. ضجَّت شوارع باري بالتكبير، وتناقلت الأزقة حكايات أمير أوترانتو ابن زيان، الذي هرب مع مجموعة كبيرة من الجناد، حين رأى مائة سفينة بيزنطية تقترب من الشواطئ. لا أحد يعلم مصيره، ومن استطاع النجاة من المحرقة ذهب إلى طارت وبرندizi، التي لم تستطع نجدة أختها. وفي الطريق إلى القصبة، تقابل الأغلبي وشريبيل، الذي بدا حائقاً بعد خطبة سودان في الناس، وقراره بالذهاب لاستعادة أوترانتو. كان الزحام كثيفاً على طريق القصبة، فقد تهافت المتطوعة من أهل المدينة. أفسح الرجال الطريق للأميرين، فمرا وراء الصفوف. بعد أن ترجلَا عن حصانيهما، والأغلبي يحدث شريبيل قائلاً:

- ذلك الغبي ابن زيان.. لمْ هرب وترك المدينة تسقط بيد البيزنطيين؟

ابسم شريبيل رغم أن الموقف لا يتحمل السخرية:

- خشي ألا يكون بين ظهورنا حين يتم الأمر. يبدو أنه يطمع في بعض الذهب، ومنصب أعلى من مجرد أمير على مدينة لم يكتمل بناؤها.

دلفا معًا إلى القصر، والأغلبي يتمتم:

- كل شيء انقلب رأساً على عقب، وأسطولنا ما زال في طارت، يخضع للترميم بعد معركته الأخيرة

مع سفن البنديقة. سأخبر قسورة وابن هشام وبقية الرجال أن نوجل الأمر إلى ما بعد استعادة أوترانتو..

توقف شرحبيل وأمسك بكتفه:

- مَاذَا تقول؟ بـهـذـهـ الطـرـيـقـةـ سـتـمـنـجـ سـوـدـانـ فـرـصـةـ لـيـحـشـدـ النـاسـ وـالـقـادـهـ حـولـهـ.
- إـنـ الـأـمـرـ شـورـىـ بـيـنـنـاـ،ـ لـاـ تـنـسـ هـذـاـ يـاـ شـرـحـبـيلـ.ـ مـاـ زـالـ مـسـلـمـةـ فـيـ بـرـنـدـيـزـيـ،ـ وـلـاـ نـسـطـطـيـعـ أـنـ..

قاطعة شرحبيل بعصبية:

- عـلـيـنـاـ المـضـيـ قـدـمـاـ مـهـمـاـ كـلـفـ الـأـمـرـ..ـ لـقـدـ سـقـطـتـ أوـتـرـانـتـوـ بـسـبـبـ سـوـدـانـ،ـ أـلـيـسـ هـذـاـ مـاـ سـتـقـولـونـهـ فـيـ اـجـتمـاعـكـمـ الـقـادـمـ؟ـ دـعـنـيـ أـوـفـرـ عـلـيـكـمـ الـوقـتـ وـالـكـثـيرـ مـنـ الـحـدـيـثـ..

- أـنـتـ تـشـقـ الصـفـ يـاـ شـرـحـبـيلـ!

- لـقـدـ قـضـيـ الـأـمـرـ يـاـ أـغـلـبـيـ..ـ لـقـدـ اـشـتـرـكـنـاـ جـمـيـعـاـ فـيـماـ خـطـطـتـ أـنـتـ،ـ فـلـاـ تـرـاجـعـ الـآنـ.ـ سـأـبـلـغـ قـسـورـةـ بـأـنـ عـلـيـنـاـ المـضـيـ وـعـزـلـ سـوـدـانـ قـبـلـ فـوـاتـ الـأـوـانـ.

كلماته كانت كحجر ثقيل ألقاه على صدر الأغلبي. كان شرساً هذه المرة. لقد تبدل شرحبيل عن ذي قبل. تابعه ببصره وهو يعبر بباب القاعة، بينما تبissَ قدماه ولم يستطع أن يخطو خطوة واحدة، حين رأه يقف خلف أحد الأعمدة. جفت الدماء في عروقه، وتصبب العرق من جبينه، وابنه يُحدق بوجهه غير مصدقٍ لما سمع.

قبل حلول المغيب، خرج من بوابات المدينة سبعمانة فارس، وألفان من المشاة، بقيادة قيس القيرولي. كان اختيار الأخير ليقود الجيش للجنوب مفاجأةً مدويةً ضربت عقول الرجال، دون يجد أحد هم فرصة للاعتراض. قيس القيرولي، ذو الخمسين عاماً، كان ذا حنكة، ويحظى بالكثير من التقدير بين الجنود. همس سودان بأذنه أمامهم جميعاً بشيء لم يدركوه، جعل الوجل يتلمس طريقه إلى قلب شرحبيل، فما إن انتهى اجتماع سودان بهم حتى راح صاحب الشرطة يُخبر أصحابه أن عليهم الاتجاه في منزل الصقلي الليلة. انظروا حتى ابتلع الظلام آخر أفراد الجيش المتوجه جنوباً، وتتابعوا فرادى إلى منزل سليمان، الذي أخفى قنينة خمرٍ شارت على الاتهاء قبل مجئهم..

كان الأغلبي آخر من حضر. دخل دون أن يُلقي السلام، مكتفياً بإشاره من يده لقسورة، الذي كان يجلس على طرف المائدة. تطلع بوجوههم جميعاً، قبل أن يسحب مقعداً خشبياً، ويجلس قبالة شرحبيل الذي كان يقف إلى فمه حباتٍ من عنبر تباعاً، وعلى وجهه لا مبالغة بما يعتريهم جميعاً. نهض الفقيه ابن هشام متكتناً على عصاه الغليظة، وراح يقطع الغرفة ضارباً الأرض بها، وعيناً شرحبيل الزرقاويان تتطلعان إلى حركته البطيئة. كانت طرقات العصا كمطرقةٍ تُهشم عظام رؤوسهم لتسحق ما تبقى من عقولهم.

- توقف عن الضجيج أيها العجوز، لأن ما ينقصنا هو دبيب عصاك!

نطق بها سليمان بفجاجةٍ جعلت قسورة يلتفت إليه:

- اختر كلماتك يا هذا..!

اعتدل الصقلي في جلسته، ونظر بوجهه قسورة بتحذّّ:

- وإلا ماذا؟

- كُفَا عن الشجار كالصبية، ولنجد سبيلاً للمأزق الذي وضعنا فيه الوضيّع ابن زيان.

يبدو أن كلمات الأغبى الأخيرة لم ترق لشريحيل، الذي مطْ شفتْيه بعد أن رمى بفمه آخر حبة عنْ بحوزته. رمّقه الأغبى قبل أن يستطرد حديثه:

- لقد سقطت أوترانتو بسبب تخاذل أحدنا، وإن استمرَّ الوضعُ هذا، فسنخسر كل شيء.

- سنسعد أوترانتو يا أغبى.. ألم تسمع ما قاله سلطانك!

كانت كلمات شريحيل مطعمةً بسخريةٍ واضحةٍ، جعلت قسورة ينزل عن طرف الطاولة متوجهاً بالحديث لصاحب الشرطة الساخر:

- شريحيل.. أرى أنك صرتَ تمتلكُ بعضًا من حسّ الدعاية في الآونة الأخيرة.. أهذه العاهرة الرومية هي السبب في ذلك؟

نهض شريحيل غاضبًا، واقترب منه حتى تلامس صدرهما واحتلّت أنفاسهما. بنظراتٍ تحمل الكثير تواجهها وشريحيل يقول بصوتٍ أشبه بزئير تحذيرٍ لهُرّ غاضبٍ:

- احذر غضبتي يا قسورة..!

تدخل ابن هشام في تلك اللحظة التي ابتسم فيها قسورة وهَمَ شريحيل بقول شيء آخر. صوت العجوز كان أسبق:

- لن نفترق الآن.. ليس وقتنا العصيب هذا بوقت الترهات والخلاف.. علينا البتُّ في أمرنا قبل فوات الأوان، فهناك عدوٌ يتربصُ بنا، وأخبارٌ تأتي من الشمال أن جيش ذلك الملك الكارولنجي ما زال يحتشدُ قرب ساليرنو، ولم يبق لنا سوى ليتين لتنفيذ ما اجتمعنا من أجله. سنمضي فيما نحن عازمون، ولن نتراجع. لقد أصبح أمرُ وجودنا جميعاً على المحك، وسودان ما زال يحظى بحب الناس، وقد رأيتم كيف هتفوا باسمه في المسجد الجامع. كلنا نشعر بالغضب والأسى حيال ما حدث في أوترانتو، ومن الجيد أن قيس القieroاني ذهب للجنوب، وأظن أنه لن يعود قريباً، وهذه فرصةٌ مناسبةٌ لإنهاء الأمر كما يجب..

توجه ببصره إلى شريحيل:

- الأمرُ برمته صار بين يديك. سيعزل رجالك القصبة عن المدينة مع انتصارِ الليل، وسيحدث ذلك بهدوءٍ، دون أن يشعر أحدُ. وحين يأتي الصباح، سيكون سودان وزوجاته ومن يريد الذهاب معه على ظهر سفينته تأخذهم إلى إفريقيا.

- لن يصدق، العامة أن سلطانهم هرب وتركهم..

قالها الأغلبي مقاطعاً حديث العجوز، الذي استطرد بنبرة لم تخل من الحكمة:

- فلنخبرهم إذن أنه لحق بجيش قيس القiroاني. الأمر أيسر من أن نتوقف على اختيار كلماتنا للعامة. وإن كنتم تخشون الناس، فدعوني أخبرهم بطريقتي. سننفذ ليلة الجمعة، وفي الصباح سأرتقي المنبر وأخبر أهل المدينة بما يحكي بهم من خطر، ونعلن البيعة للأمير قسورة وينتهي الأمر. هناك أي شيء تودون قوله.

جماته الأخيرة كانت موجهة إلى قسورة تحدياً. هذا شعر، حين التفت عيناه بعيني العجوز، وسلامان يقول مازحاً:

- أرى أنك الأجد يا ابن هشام.. ولكن أليس علينا أن ننتظر قدوم مسلمة من برنديزي؟

- لقد أرسلت لمسلمة بالفعل.. سيهتم بأمر قيس القiroاني، وسيساعد في استعادة ما سُلب منا. وأظنه شيئاً كافياً ليفرح الناس وينسوا أمر سلطانهم المفقود.

انتهى اجتماعهم، ومضى كل في سبيله. سار قسورة ممسكاً بجام جواده إلى جوار الأغلبي الذي فضل الصمت. لا يقطع سكون الليل سوى خطواتهم وريح راح يُبعثر أوراق الأشجار الجافة بالدرب. نجوم الليل تزاحت لرؤيتهم، وانتظرت طويلاً حتى بدأ أحدهما بالحديث، كان قسورة:

- أخشى أن نغرق جميعاً بالوحش يا أغلبي!

تمتم محمد وهو يرفع رأسه متطلعاً إلى السماء:

- لقد سمع عبد الله حديثي مع شرحبيل..

- ماذ؟!

بحروف غمست في بئر الأسى جاءت كلمات الأغلبي:

- لقد ثار الفتى عليّ، وحمل كل أمتعته إلى منزل أبي المغوار، معلناً أنه سيقف إلى جوار سودان.. وإن تحتم عليه قتلي ليبقى السلطان حياً.

توقف قسورة عن السير:

- لم يعد شيء كما كان.. رحل أبو المغوار، وسقطت أوترانتو، وابنك يعلم بالأمر وغاضبٌ منه. يا أغلبي، كذلك سيفعل كل من كان له عقل.. نحن أخطأنا يا أغلبي، علينا الاعتراف بذلك. لم أعد أستطيع النظر في وجه سودان، أخشى أنه يعلم شيئاً. لقد اختار قيس القiroاني، في سابقة لم نعهد لها..

- هل تظن أن أبي المغوار أخبره بأمرنا؟

- لقد منحنا العجوز حق الاختيار.. أحكم وثاق أرجلنا، وألقي بنا في خضم البحر، لنا حرية الاستسلام للفرق، أو نحل وثاقنا فننجو.

بدا على وجه الأغلبي الحزن وهو يُتمم:

- على الأقل تحدث معك.. لقد أوجعني رحيله دون أن يخبرني بالأمر على الأقل. لو كان هنا ما سقطت أوترانتو..

- كان الرجال يخشونه.. والآن أمسى الأمر جنونياً. لا شك أن ابن هشام وشرحبيل والصقلي قد رسموا مستقبلاً لهم منذ اللحظة الأولى لاجتماعنا.. سودان لم يخطئ بقدر خطتنا يا أغليبي.. ما زال هناك متسعاً من الوقت للتفكير، وأتمنى أن نتحلى بقدره من الشجاعة قبل المواجهة.

امتنى جواده القوي وهو يستطرد:

- اذهب وابحث عن ولدك يا أغليبي.. تحدث معه، لعل الفتى يملك خياراً آخر لك ولنا.

قال رب إن النساء كالكرمة التي تزهـر في جوانب البيت، وبنوك مثل غروس الزيتون حول مائدةك. ماريا الصغيرة.. وبهـا الرب إلى لورينزو، مـلاـك أرسلـت من المـلـكـوت لـتـعـوـضـهـ فـقـدانـ اـبـنـتـهـ. ولـدتـ منـ النـورـ، وـبارـكتـهاـ يـدـ الـبـابـاـ فـيـ روـماـ. كـانـتـ مـبـارـكـةـ كـخـالـتـهاـ، لـهـاـ عـيـنـانـ وـاسـعـتـانـ زـرـقاـوـانـ مـمـتـلـتـانـ بـالـحـيـاءـ، وـجـنـتـاهـاـ لـاـ يـفـارـقـهـاـ اللـوـنـ الـوـرـديـ. ثـمـرـةـ زـوـاجـ مـبـارـكـةـ بـيـنـ كـاتـرـيـنـاـ وـإـلـيـسانـدـرـوـ، الـذـيـ لـمـ يـرـهـ سـوـىـ مـرـةـ وـاحـدةـ.

كـانـتـ الفتـاةـ قـرـةـ عـيـنـ جـدـهاـ. صـارـ عـمـرـهـ عـامـاـ، لـاـ يـفـارـقـهـاـ، يـدـاعـبـهاـ لـتـمـنـحـهـ ضـحـكـاتـ تـمـدـهـ بـالـأـمـلـ فـيـ استـمـرـارـ الـحـيـاءـ. تـبـقـىـ إـلـىـ جـوـارـ طـوـالـ الـيـوـمـ، باـسـتـشـاءـ وـقـتـ رـضـاعـهـاـ، تـرـضـعـهـاـ كـاتـرـيـنـاـ ثـمـ تـمـنـحـهـ إـلـىـ العـجـوزـ يـهـدهـهـاـ حـتـىـ تـغـفـوـ، فـيـجـلـسـ جـوـارـ فـرـاشـهـاـ يـتـطـلـعـ إـلـىـ وـجـهـهـاـ الرـائـقـ. مـنـذـ أـنـ عـادـ مـنـ روـماـ، صـارـ أـكـثـرـ قـرـبـاـ إـلـىـ الـرـبـ، دـائـمـ الـحـضـورـ بـالـكـنـسـةـ، يـتـحاـوارـ مـعـ الـأـبـ لـيـوـ، الـذـيـ كـانـ لـاـ يـنـفـكـ عـنـ لـوـمـهـ كـلـمـاـ جـاءـ إـلـيـهـ، أـنـ أـرـسـلـ اـبـنـتـهـ إـلـىـ جـنـوبـ. يـذـكـرـهـ دـوـمـاـ أـنـ الـرـبـ نـهـيـ عـنـ زـوـاجـ غـيرـ الـمـؤـمـنـينـ، وـمـارـيـاـ اـخـتـارـتـ طـرـيقـ الـإـثـمـ حـيـنـ رـحـلـتـ لـتـلـقـيـ بـجـسـدـهـاـ بـيـنـ ذـرـاعـيـ وـثـنـيـ. لـمـ تـكـنـ كـلـمـاتـ القـسـ لـيـوـ المـكـرـرـةـ لـتـقـعـ لـوـرـينـزوـ، الـذـيـ كـانـ يـحـفـظـ عـنـ ظـهـرـ قـلـبـ قـوـلـ الـمـسـيـحـ "إـنـ مـاـ جـمـعـهـ اللهـ لـاـ يـفـرـقـهـ إـنـسـانـ". لـقـدـ اـخـتـارـتـ اـبـنـتـهـ طـرـيقـهـاـ، فـأـبـدـلـهـ الـرـبـ بـمـرـيمـ الصـغـيرـةـ.

قـرـبـ النـافـذـةـ، جـلـستـ كـاتـرـيـنـاـ تـخـيطـ ثـوـبـاـ لـلـصـغـيرـةـ. عـقـلـهـاـ شـارـدـ فـيـ زـوـجـهـاـ الـذـيـ غـابـ كـثـيرـاـ هـذـهـ المـرـةـ. مـضـىـ مـاـ يـقـرـبـ مـنـ أـرـبـعـةـ أـشـهـرـ، مـنـذـ مـرـ بـهـمـ أـثـنـاءـ ذـهـابـهـ إـلـىـ سـالـيـرـنـوـ، قـادـمـاـ مـنـ بـارـيـ كـمـاـ أـخـبـرـهـاـ. تـفـقـدـهـ، وـتـرـاـوـدـهـاـ ذـكـرـىـ نـابـولـيـ وـطـرـقـاتـهـاـ. أـيـامـهـاـ مـتـشـابـهـةـ، بـيـنـ مـسـاعـدـةـ إـلـيـنـاـ وـإـرـضـاعـ الـطـفـلـةـ الـتـيـ اـسـتـحـوـذـ عـلـيـهـاـ الـعـجـوزـ لـوـرـينـزوـ. فـرـاشـهـاـ بـارـدـ دـوـنـهـ، وـأـهـلـ الـقـرـيـةـ يـتـنـاـقـلـونـ أـخـبـارـ حـربـ تـفـوحـ رـائـحتـهـاـ مـعـ الـمـارـيـنـ بـالـمـكـانـ. الـلـيـلـ يـعـمـرـهـ ضـجـيجـ الـحـانـةـ الـبـعـيـدةـ، وـالـنـهـارـ مـرـتـعـ لـصـبـ الـعـامـةـ وـأـطـفـالـهـمـ، زـهـدـ الـرـجـلـ الـحـيـاءـ، وـصـارـتـ هـيـ مـنـ تـسـلـمـ مـنـهـمـ الـمـزـرـوـعـاتـ وـالـأـمـوـالـ، وـتـبـاـشـرـ عـمـلـ الـفـلـاحـينـ، وـتـمـنـحـ الـهـبـاتـ لـعـمـالـ الـحـظـيرـةـ. صـارـتـ صـلـدـةـ قـوـيـةـ، وـيـحـبـهـاـ الـجـمـيعـ، عـدـاـ سـبـاستـيـانـ ذـيـ الضـحـكةـ الـمـقـيـةـ وـالـأـسـنـانـ الـكـريـهـةـ. اـشـتـافتـ لـمـارـيـاـ وـمـسـامـرـتـهـاـ، وـدـوـمـاـ مـاـ كـانـ الـلـيـلـ وـنـقـيـقـ الـضـفـادـعـ وـنـبـاحـ الـكـلـبـ

الأجرب يُذكر إنها بليلٍ أوت فيها إلى حصن إيلساندرو.

جلبة بساحة القرية جعلتها تترك إبرتها وما كانت تصنع، وتلقي ببصرها من النافذة. رؤوسٌ لخيولٌ ورأياتٌ برزت بين الأجساد المحتشدة. من خلفها، جاء صوتٌ لورينزو متسائلاً عما يحدث، أجابتُه وهي تهرع إلى باب المنزل:

- يبدو أنهم جندٌ كارولنجيون بالساحة.. لقد ميزت رايهم الزرقاء ذات الورود الثلاثية الذهبية وأخرى صفراء ينتصفها نسرٌ أسود ذو رأسين..

تبعها إلى الخارج، بينما كانت تهرب يدفعها الأمل. رأته ينزل عن حصانه، وابتسامة عريضة على وجهه. لم تدر بنفسها إلا وهي تبكي بين ذراعيه. ربت على ظهرها، وهي تنهن وتقول:

- ظننتك لن تعود أبداً..

- لقد اشتقت إليك كاترينا.. واشتقت لابنتنا.

قطع حديثه وهو يتطلع إلى أبيه الذي كان يقف بالقرب منهما، وقاوم رغبته بالركض واحتضانه، فما زال قلبه يحمل البغض لما فعله والده بروما. تأبّطت كاترينا ذراعه، وصعد بها الربوة متجاوزاً أبياه، لكنه انحنى يُقبل يد أمه التي تقف بباب المنزل تبكي لرؤيتها. جذبته إلى صدرها، وانهالت عليه بالقبل، بينما كان لورينزو يُراقبهما بنظراتٍ حزينةٍ والفتى يحدث أمه:

- لن أمكث طويلاً، فقط جئت من أجل مهمّة كُلّفت بها من الملك لويس.

شهقت أمه، وأبدت دهشةً ممزوجةً بسعادةٍ على وجهها:

- هل قابلت الملك وجاسته؟

رمق أبياه بنظرةٍ ساخرةٍ:

- نعم يا أماه.. وهو من أرسلني لحشد الرجال للحرب.

عادت كاترينا حاملةً الصغيرة الناثمة وهي تقول بأسى:

- لقد وعدتني ألا تذهب للحرب مرةً أخرى..

حمل عنها ابنته برفقٍ، وتطيع إليها، ثم طبع قبلة على جبينها قبل أن يُحدث زوجته:

- الأمور تبدلت الآن، وقريباً سنتوجه إلى باري. لن أعود إلا بماريا وفيولا.

تبدلت ملامح أبيه حين سمع جملته الأخيرة. لم يكن لورينزو يعلم أن ابنه صار يملك كل هذا النفوذ، وكل ذلك الحق. صار إيلساندرو شخصاً غير الذي يعرفه.. شخصاً لن يُوقفه شيءٌ عن مسعاه.

الخل الوفي، أسطورة من وحي خيال رجل صاحب ظله في هجير الصحراء، حين نفذ طعامه وشرابه، لم يمنحه الظل سبيلاً للنجاة، وحين سقط على وجهه لم يبق له أثر، بعد أن كان عياناً، فلم يكن وفاء الخليل سوى سراب رافقه إلى الموت. "ليس من شيم الرجال الطعن من الخلف"، كلمة حفرت بقلب قسورة، الذي قبع في بئر اللوم طيلة الليل. أين كان عقه حين منح شرحبيل فرصة لاقناعه بخيانة لا عذر لها؟.. "الصاحب لا يغدر"، صوت أبي المغوار لم يفارقه أيضاً، وكل ما بُني مهدد بالدمار، ذكرى تتبع أخرى، ووجهٌ عَدَّة لا تبرح الإدبار، شعيب.. سودان.. قيس القيررواني كانت ملامحهم قاسية. نهض واضعاً رأسه بدلوا الماء، عل برونته ترطب عقله، الذي صار كقطعة من جمر. الأمر يقوده إلى الجنون، والرجال عازمون على الإطاحة بالسلطان؛ صديقه، من حمى ظهره ورافقه خلال سنوات الحرب والسلم. لم يكن أحد أقرب منه إلى سودان سوى شعيب.. رحل شعيب وحمل هو على عاتقه حماية ماريا. إن كان هناك من يجب إقاء اللوم عليه، فهو الذي أتى بها إلى باري. هو وحده من من الآخرين سبباً للبغض السلطان والتعلل بمكوثه إلى جانب نسائه. هو أيضاً له من الزوجات ثلاث، يعاملهن بودٍ ولطفٍ؛ ومن منهم لا يهتم لنسائه، ويُعطي شهوته حقها؟!.. لو أطاحوا بسودان، فحتماً سيكون الدور القائم عليه، فجزاء الخيانة خيانة مماثلة، وكل دين يُسد مهما طال أو قصر العمر. نزل من برجه قبل المغيب، فتوجَّه إلى داره، فاستقبلته زوجاته بترحاب لا يخلو من قلق على ما أصابه، إذ كان الإجهاد جلياً بوجهه. داعب البنوة الوحيدة بين ستة من الذكور، قبل أن يخرج مرة أخرى يتبعه الصغار. أفسح المجال لهم، ليروا كيف يُسرج جواده، ساعده ابنه البكر في شد الأحزنة، وما إن انتهى، أمرهم بالعودة للمنزل، مع وعدٍ أن يأتي لهم بالحلوى من باري. تطلعوا إليه بفرح حين امتطى جواده بقفزةٍ جعلت الفتاة تضحك.. لوح لهم بيده مبتسمًا، ثم لکز الفحل لينطلق إلى باب الحصن.

في الطريق إلى المدينة، قابل الطبيب كاراس وعبد الله بن الأغلبي، متوجهين إلى الحصن. أخبراه أنهما ذاهبان لمعالجة طفل بالحصن، فتمنى لهما التيسير، وممضى في طريقه إلى المدينة. طرقاً باري أضاءتها المشاعل والقandles، والجند انتشروا بكل الزوايا والأزقة، في انتظار أوامر صاحب الشرطة. كل شيء يتهيأ لما سيحدث. كانت البوابة الكبيرة مفتوحة على مصراعيها، وظلل الأبراج كغيلان عملاقةٌ تتوهج عيونها بالنيران، ودوريات الجندين تجوب الحديقة على غير العادة. ترجل، بعد أن أخذ أحد الرجال بلجام حصانه، ووقف لحظاتٍ يتطلع إلى واجهة القصر وقاديله المتراسة على الأعمدة الرخامية. عدل عمامته، وشدَّ قامته، وسار باتجاه الباب، الذي فتح بعد أن حيَّاه الحرسان ذوا الرماح الطويلة. ترك كل الأعذار وما علق برأسه من وساوس خلفه، مستقبلاً نفحاتٍ من ماضٍ تشاركه مع صاحبه، وصوت عقله يُخبره أن الثوب الدنس عليه أن يُظهره. اتخاذ القرار، ولن يتراجع عنه، حتى لو ضرب عنقه. سيخبر سودان بكل شيء، ويطلب الصدق والغفران. لن يستطيع موافقة الخيانة، ولا يقدر على أخذ مكان لا يستحقه.. فيض من الشجاعة تبخر، حين رأى سودان يُوليه ظهره بمنتصف القاعة الكبرى. كان على بعد خطواتٍ من اعترافه بخيانته لصاحبه، الذي تحدث دون أن يلتفت له:

- لقد جئت في الوقت المناسب يا أمير الحرب.. كنت أذكر قبل أن يُخبرني الحارس بمجيئك تلك القصة التي أخبرنا بها أبو المغوار يوماً.. عن أسدٍ كان ربِّياً للذئاب.. تذكرها، أليس كذلك؟

استدار سودان حين كانت إجابة قسورة الصمت. كان يرتدي حللاً سوداء أنيقةً مطرزةً بخيوطٍ فضيةٍ، والتلف حول خصره حزامٌ جلدي عريض تدلّى منه الغمد، رأسه كُشطٌ حديثاً لريما قبل سُويقات، عيناه الثاقبتان وابتسمته الواثقة بعثت في نفس قسورة هيبةً وخشيةً. من خلفه، كانت راية باري الخضراء

تتدلى على الحائط فوق الكرسي الكبير، كان يتطلع إلى نقوشها البيضاء حين جاءه صوت سودان مستطرداً:

- لم يشفع للأسد أن تربى بين القطيع. اعتبره أفراده دخيلاً عليهم. كان أكثرهم شجاعةً وقوةً ومهارةً، فاستحق أن يصل إلى سدة القيادة. ورغم أن الأسد وفر لهم الكثير من العون والأمن والطعام، إلا أنه كان في أعينهم غريباً، ليس فقط لكونهأسداً وهم ذئاب، بل لأنهم كانوا يخشونه، فحسبوا أنه قد يفتك بهم يوماً، إن جاع ولم يجد ما يأكله. أو أنه سوف يركن إلى الخمول، بينما يخاطرون، ليأكلوا أولاً ويترك لهم البقايا، كما تعودت كل الذئاب من الأسود. ولكن هذا الأسد تربى بين القطيع، وترسخ بداخله أنه واحد منهم. وفي قطيع الذئاب، لا يأكل الأخ شقيقه، بل يحمي ظهره ويسانده في الصيد. يتقاسمان الطعام القليل في الشتاء البارد. تعلم كل هذا، ولكنهم لم يتعلموا.

ولكن دعنا من الحديث عن الحيوانات وقصص الأطفال تلك.. قلت لك قبل قليل إنك جئت في الوقت المناسب. في الصباح، ستأخذ سرية من رجالك وتتوجه إلى الشمال.. هناك أخبار عن تجمع جديدٍ قرب بنفينتو، على الأرجح معسكرٌ للدوقيَّة، يحتشد فيها خيالة ومشاة.

جمح عقل قسورة، بينما أخذ سودان في استكمال حديثه عن تحالفٍ بين الكارولنجيين والبيزنطيين. ولكن قسورة كان بعيداً كل البعد عن مجرى الحديث، ومئات الأسئلة تغرس بصدره، ورأسه كدمية التدريب على الرمي. هل يبعده سودان عما سيحدث، أم أنه يحتاج عونه؟ لماذا تلك القصة القديمة؟ وإن كان ما زال يثق به، فلماذا ولـيـقـيـسـ القـيـرـوـانـيـ قـيـادـةـ الـحـرـبـ جـنـوبـاـ؟ هلـ السـلـطـانـ يـعـلـمـ بأـمـرـ اـجـتمـاعـهـ عـلـيـهـ؟ ولـكـ حـدـيـثـهـ الـآنـ مـخـتـلـفـ.. غـمـضـتـ عـلـيـهـ نـفـسـ صـاحـبـهـ. هلـ يـخـبـرـهـ الـآنـ عـنـ خـيـانتـهـ، أمـ يـنـتـظـرـ حـتـىـ يـنـهـيـ السـلـطـانـ حـدـيـثـهـ. أـفـاقـ عـلـىـ وـكـزـ سـوـدـانـ لـهـ؟

- ما بك يا رجل، لم تسمع ما أقول؟

انتبه، فقال متلعثماً:

- عفواً أمير باري.. نعم سمعت كل ما قلته، وسأعود إلى الحصن وأجمع الرجال وأذهب في الحال.

- ما الذي جاء بك يا قسورة؟ يبدو أن الأمر مهم، أليس كذلك؟

شيء ما أطبق على لسانه، لم ينطق بما أراد قوله، بل وجد نفسه يقول:

- جئت لأخبرك بما أفصحت أنت به الآن.. إن الناس قد جمعوا أمرهم لحربنا، وستتصدى لهم مهما كلف الأمر..

نظر سودان في عينيه وهو يتمتم:

- أتفق في ذلك.. كما أتفق أنك ستقوم بالصواب يا صاحبي.

ابتسم قسورة لكلمة سودان الأخيرة، وأومأ برأسه وهو يتمتم:

- سأمر ببيت الأغلبي قبل العودة إلى الحصن..

استدار سودان ليغادر القاعة قائلاً:

- أخبره أن يستعد لحملتنا على روما، فالأغالبة يجهزون الأساطيل للغزوة الكبرى. أعلمه أن ما زال في العمر دربٌ نحوه بما تعاهدنا عليه يوماً.

غادر قسورة إلى منزل محمد الأغلبي، ليُخبره بما حدث، وليخبره أن كل شيء خططوا له يجب أن يُلغى. ولكن الأغلبي لم يكن بالمنزل. أخبرته زوجته أنه خرج قبل المغيب ولم يعد. أثار الأمر فلقه، وراح يبحث عن الرجل في أرجاء المدينة، ولكن لا اثر له. حتى شرحبيل اختفى هو الآخر. مرّ بمنزل الفقيه ابن هشام، فاستقبله ابنه بوجهٍ شاحبٍ. كان ابن هشام طريح الفراش، يُنازع مرضًا مفاجئًا، زانع العينين لا يقوى على الحراك والحديث. هلع قسورة مما أصاب الرجل الذي كان معافى في الأمس. طلب أن يكون معه وحدهما، فخرج الابن تاركاً كليهماً. أمسك قسورة يده برفقٍ، وقال بخفةٍ:

- لا أعلم ما أصابك يا أبي رشيد، ولكنني جئت لأخبرك أننا كنا مخطئون بشأن سودان.

تررق الدمع بعيني العجوز، وقبضت يمينه على يد قسورة، الذي تابع:

- لن أتم الأمر. بحثت عن الأغلبي وشرحبيل لأخبرهما بذلك، فلم أجدهما.. وسليمان الصقلي يجلس وحيداً قرب البحر، سأخبره.. أظن أن الوقت حان لنعاود الاصطفاف مرة أخرى، وإن الحق في تجمعنا والخلدان في تفرقنا. أعلم أنك قد راجعت نفسك مراراً، ولا أدرى ما أصابك.. وأمل أن يكون قرارك هذه المرة صائبًا.

أجهش الرجل، وانساب الدمع من عينيه ليروي تجاعيد وجهه. كان ضعيفاً، يفيض وجهه بالحزن، والوجع يشد به. أومأ برأسه لقسورة الذي ابتسم:

- حيَاتُنَا زائِلَةٌ وَأَعْمَالُنَا باقِيَةٌ. أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُرِيحَ صَدْرَكَ وَيُعَافِيكَ مَا أَصَابَكَ.. سأطلب الطبيب كاراس، لعل عنده ما يخفف عنك، وسأمر مرة أخرى على منزل الأغلبي وشرحبيل لعلي أجدهما. سأزورك إن شاء الله بعد عودتي من الحرب. نسيت أن أخبرك، لقد عقد لي سودان اللواء، وسأذهب في الصباح إلى مشارف فوجيبيا.

الظلم في منزل أبي المغوار هذه المرة، أخبره بأن كاراس لم يعد بعد. تأخر الوقت، ولا بد له من العودة إلى الحصن. سيُكلف أحد رجاله بالمجيء برسالته إلى شرحبيل والأغلبي المختفين. غادر المدينة النائمة، واتخذ طريق العودة. كان النسيم يُحرّك الأغصان، والجواب يحث الخطى على الدرب الرملي، وهلالٌ ضئيلٌ فرش الأرض بضوءٍ شحيحٍ، لم يبدد عتمة الليل. انتصبت أذنُ الأكحل ودارت. شعر قسورة بتوتره، فربت على عنقه قنائلاً: لا عليك يا فتى.. إنها الرياح تعبث بالأشجار.

اجتاح كتفه الأيسر ألمٌ مفاجئٌ. سهمٌ قصيريٌّ غليظٌ كان يستقر بكتفه، ففجّر الدم، وصهل الجواب. لم يرَ من فعلها، فالظلم يُغرق كل شيء. سهمٌ آخر استقرَّ بصدره هذه المرة، فدارت الدنيا به، وهاج الجواب وأسقطه أرضاً غارقاً في دمائه. رأى حصانه يبتعد، وصوتِ دببه يرج الأرض، وشخصٌ يتّشَّح بالظلم يقترب منه ممسكاً بقوسٍ قصيري.. وأظلمت الدنيا.

بعد شروق الشمس، عاد محمد الأغلبي إلى منزله. ليلة طويلة قضتها باري بين الصلاة والتفكير. كان يُحاول أن يجد سبيلاً لما هو مُقبل عليه. رأى قبل أن يلتجئ إلى الجامع تجهيزات الجندي، الذين أخذوا في الانتشار حول سور القصبة. سُويّعات وينتهي كل شيء. نفسه تحدثه أنها مجرد البداية. تذكر حديثه مع قسورة وخصام ابنه له. أيامه مع سودان منذ أن رأه لأول مرة، غرّ صغير حظي بحب الناس والقيادة، لا يستحق كل هذا. وجد سيراً من الأذار لما هو مقبل عليه، وأقطع نفسه أن ما كتب سيكون. فتح الباب، ليجد امرأته تنتظره، والقلق ياد على وجهها، وهي تتفحصه سائلاً عن ليته أين قضتها ومع من؟ تشممت ملابسه حين مر إلى جوارها. تبعته وهي تصرخ في الفتيا أن أصعدن إلى غرفك أو اهتممن بفعل أي شيء. تبعته إلى الغرفة وقد زاد تجاهله عصبيتها، فأغلقت الباب خلفها وهي تحدثه:

- أين كنت يا أبا عبد الله؟

شرع في تبديل ملابسه وهو يتطلع إليها ببرودٍ، فعاودت السؤال مرة أخرى. كان عليه أن يجيبها حتى تصمت:

- لقد كنت بالمسجد يا رقية.. أرجو ألا يُوقظني أحدٌ حتى أستيقظ وحدي.

لم تشف الإجابة غليها، همت بالحديث مرة أخرى، ولكنه أوقفها بإشارٍ من يده قائلاً:

- لا مزيد من الحديث.

- أنت لا تُبالي بقلقي عليك.. إن الأمير قسورة مر علينا في جوف الليل مرتين. أليس هذا كافياً لإشعال نيران القلق بداخلي؟

تمتم عاقدا حاجبيه:

- قسورة؟!!

- نعم.. كما أن ابنك عبد الله لم يأت للمنزل منذ أمس.. هل هناك ما تخفيه عنِي؟

- هل قال قسورة أي شيء؟

حملقت بوجهه لبرهة، واحتقن وجهها. لأن حديثها عن ابنه لم يشغلها!

- يقول لك إنه ألغى فكرة الخروج إلى الصيد..

تجاوزها متوجهًا إلى باب الغرفة، فتبعته غاضبةً، وأخذت تتمتم بكلماتٍ مبهمة. غسل وجهه بحوض الماء الذي يتوسط الفناء، ثم التقط حذاءه وصوتها يُداهم عقله:

- ألم تكن تنوي النوم؟! هل ستخرج مرة أخرى؟

لم يكن في حال يسمح له بحديثٍ وجداول آخر. توجَّه إلى باب المنزل، وقبل أن يفتحه فتح. كان عبد الله يقف أمامه مرتبًا، وقد بدا على وجهه الاستغراب والقلق. رماه الأغلبي بنظرٍ طويلٍ، قبل أن يمضي في طريقه. ترك الفتى لينال قسطاً من الحديث المتواصل مع أمه القلقة، أما هو فأمامه طريقٌ طويل

إلى الحصن الغربي، لمقابلة أمير الحرب.

عاد الجواد الأكحل دون صاحبه. حالة من الهلع عمّت بيت الأمير الغائب، زوجاته وأطفاله لا يكفون عن البكاء، والجند في حيرة من أمرهم. استجوب الأغليبي من كانوا يقومون بالحراسة أثناء الليل، ولكن لا إجابة شافية حصل عليها. تفحص حوافر الجواد، ولم يُبال بتحية ماركو الذي مرّ بجانبه جاذبًا بغلة محملة بالأقمشة. أربك وجود الأغليبي الناس جميعاً. أعطى أوامره لقائد الجند، ثم امتطى حصانه يتذبذب طريق العودة إلى المدينة، يجر خلفه جبالاً من القلق. وعيّناه تفحصان جوابن الطريق، وبداخله يقين أن قسورة أصابه مكرورة. توقف عند بقعة مكتظة بالحشائش المرتفعة على الجانبين. ترجل وراح يبحث بنظره في الأرض.. آثار حوافر الخيل كثيرة ومختلطة، ولكن هذه غائرة، يبدو أنها للأكحل الفزع. توقف أمام قطرات من دماء، وآثار أقدام عدٍ. تحسّس الثرى بأصابع مرتجفة وعقله يحاول تخيل ما حدث.. طال بحثه بين الأ杰ام وجذوع الأشجار، ولكن لا شيء. عليه العودة لباري، ووقف كل شيء حتى يتأكد من سلامته قسورة.. يجب ألا تُنفذ خطتهم قبل معرفة ما حدث لمن كان يجب أن يولوه أميراً.

فيما يلي، كان يقف بحديقة القصر مع شرحبيل.

- أخبرني الرجال أن قسورة كان هنا يتحدث مع سودان.

مرر الأغليبي يده على رأسه، ومسح جبينه المُتعرّق قائلاً:

- علينا أن نلغي الأمر.. على الأقل حتى يظهر قسورة، أو نعرف ما أصابه.

امتلأت عينا شرحبيل بالغضب:

- ماذا تقول يا أغليبي؟ أتريد أن يُصيّبنا ما أصاب صاحبنا؟!

- لا نعرف ما أصابه.. لقد قلت لك إنه مرّ على منزلِي مرتين في جوف الليل. لا أعرف السبب، ولا أعرف ما دار بينه وبين سودان ليأتي في وقتٍ متاخرٍ باحثاً عنـي.

اقترب منه شرحبيل هاماً:

- أنت قاتلها.. لا نعرف ما دار بينه وبين سودان.. لقد قتله سودان.

وكان رمحًا عرس بصدر الأغليبي حين سمع الكلمة الأخيرة. راح عقله يعيد عليه صوت سودان هناك في الخيمة، حين كانوا يُحاصرُون نابولي.. يوم هدده بقطع رأسه. مشهدٌ رحيل أبي المغوار والسفينة تبتعد. لقد أخبره العجوز حتماً بالأمر. ولكن لماذا لم يقبض عليهم جميعاً، أو يقتلهم جميعاً كما قتل قسورة؟! لا، إنه لم يقتل قسورة.. لن يجعل سودان هذا. شرد بوجه شرحبيل الذي أشار نحو القصر:

- إن سودان سيقتلنا جميعاً، علينا أن نُباغته. لقد جاء ابنك منذ قليل، ودخل عبر هذا الباب. قد لا يخرج مطلقاً، أو لعله يُفرق بينك وبينه. لا مجال للعودة يا أغليبي.. لا مجال للعودة يا رجل.

كاد أن يقول شيئاً، حين رأى ولده يخرج. تطلع إليه الفتى، ثم امتطى فرسه ومضى. تبادلا النظاراتِ

قبل أن يقول محدثا شرحبيل:

- أوقف كل شيء يا صاحب الشرطة..!

- ولكن..

- لن نقوم بالأمر إلا إذا كان قسورة معنا. سأذهب الآن لمنزل ابن هشام، وسأأمر بسلامان الصقلي، لأخبرهما أن الأمر سيُوجل.. بث جندك ليبحثوا عن أي أثر لأمير الحرب يا صاحب الشرطة.

حين تصطدم الأماني وما نظمح إليه بمخططات الآخرين، لا يبقى أمامنا سوى التمسك والمقاومة من أجل تحقيق مُرادنا. وعندما يهدم شخص ما بنيناه، يكون البكاء على النبيذ المسكوب أمراً لا نفع منه. احترقت حانة سbastian بأمر الرب، كما قال إيساندرو. أكلت النيران السقف الخشبي، وتهافت الجدران لتصير ركاماً. لم يفارق الرجل مكانه، وظللت عيناه تتطلعان إلى أعمدة دخان أسود، صارت بيضاء حين خمدت النيران، ولكن الحريق لم ينطفئ بقلبه. كل ما حدث أنه اعترض طريق النبيذ الشاب، ذلك المغدور الذي عاد للقرية ليجمع شبابها وشيوخها للحرب عنوةً. وحين رفض سbastian الانصياع، وجُمع الرجال عنده بالحانة يُحدثهم ويحثّهم على عدم الذهاب لحرب لا دخل لهم فيها، فوجئ به يقف على باب الحانة، مع زمرة من حرس الملك الكارولنجي. حديث قليل، وثلاثة قتلى، وفي النهاية أشعلت النيران باسم الرب..

الكلب العجوز دسَ أنفه بالرماد، واضعا ذيله بين فخذيه، حزيناً لحزن صاحبه. مشهد يجلس ضاماً ركبتيه إلى صدره أثار نظرات الشفقة من نسوة القرية وأطفالها. لم يكن يأبه بهم، بل يُريد أن يصرخ معنناً عن كرهه وبغضه لهم جميعاً، لا يُريد منهم شفقة أو عطفاً. الملعون إيساندرو هدم مملكته الخاصة، التي بناها من عرق الرجال، وتنعم فيها بفروج نسائهم. انهار كل شيء، واحتراق كما لم يكن. جمع عقله، بينما جمع الناس بالساحة، الرجال والشباب مكبلين، تحيط بهم الحراب والدروع، وعلى رأسهم يقف إيساندرو يُحدثهم عن الحرب المقدسة الواجبة، فتروغ عيونهم. بعد خطبة قصيرة، أمر رجاله بأن يفكوا الوثاق عنهم، ومنهم حتى الصباح ليجهز كل منهم للذهاب.. فرصة الأخيرة لوداع الأهل، قبل المضي إلى بنفيتو.

حل الليل بقلب سbastian، رغم الهلال الذي يتوسط السماء. القرية تغط في النوم، وطنين الباوعض يُعمر الخواء، وشبح بين الأكواخ يتحرك بحذرٍ ويراقب تحركات من بقي مستيقظاً من جند إيساندرو، قرب منزل كاراتس. كانوا يتحدون مولين ظهورهم إلى الساحة، التي قطعها ركضاً. أخذ يُسرع كمجنون، ينشر العشب الجاف حول أبواب منزل لوريينزو ونوافذه، ثم أفرغ زيت القناديل على العشب، عند الباب الخشبي. جذب مشعلاً من على حائط المنزل، أضاء نصف وجه شيطان يحمل ابتسامة عريضة، وما عاد يهمه أن يراه أحد. اقترب من الباب، لتقبّل النيران الباب الخشبي، ثم ألقى بالجذوة فوق المنزل، بعد أن مررها فوق العشب الجاف. اندلع الحريقُ والصرخات معاً، واستيقظ أهل القرية، وركض الجنُ نحو منزل لوريينزو، بينما اختفى سbastian تماماً. انهمك الجنُ في إطفاء الحريق، وإذا بسيوف أهل القرية وشوك الحراثة تحاصرهم من الخلف. كانت فرصة الثأر من قتلوا الشباب

بالأمس. معركة دارت رحابها حول منزل لورينزو المشتعل، بينما كان سباستيان يحرق منزل كاراس، ومن بعده حظيرة النبيل. كان في حالة نشوى، وضحكاته ترتفع مع ألسنة النار، التي لم تكتفي بأعداء كاراس، بل صارت تمتد من منزلٍ لآخر، وتسرى كما نهرٍ من نيران يحرق سان فيلي التي كانت يوماً هادئةً.

في وقتٍ متأخرٍ من الليل، دخل سَوْدَان إلى غرفةِ ماريا، بعد أن أخبرتهُ الجارية أنَّ الأميرة أصابها الإعياءُ بينما تَجَولَت بالحديقة. شعرت بتأفسدهِ حين أزاح خصلات شعرها جانبًا، ولثم جبَّنَها وتحسَّسَ وجنتها.. فتحت عينيهَا الناعستينِ:

جلس إلى جوارها محتضناً كفَّها بيديه:

- كان هناك الكثير من الأعمال وجب إنجازها.. أخبريني ماذا حدث، ولماذا لم يُرسل أحد في طلب عملك كاراس؟

رفعت رأسها قليلاً، لتريه على فخذه، فربت على شعرها راسماً ابتسامةً على وجهه..

- لا تقلق، أنا بخير.. يبدو أن ابنك يستعجل المجيء.

- حسناً يا أميرتي، أخلدي للنوم الآن، وما عدتِ ترهقين نفسك بالتجوال.

دائمها الناعسٌ وخرجت كلماتها كمهماً مبهماً. هم بالنهوض، فتشبت بيده قائلةً بصوتٍ حافٍ:

- لا تفأّلي.

مكث إلى جوارها حتى غفت. عقله يُعيد عليه ما حدث اليوم..

كان غاضبًا من قسورة، الذي لم يخرج بالرجال إلى الشمال، فأرسل في طلبه، ولكن لا أثر للرجل. غلبته الحيرة، حتى جاءه عبد الله بن الأغلبي، ليُخبره أن الطبيب كاراس يطلب منه الحضور في الحال، دون أن يراه أحد. رسالة مقتضبة جاء بها الشاب، كانت كافية لتشير مخاوفه، التي تغلب عليها وذهب متخفيًا بزي أحد الجن. في منزل أبي المغوار، استقبله كاراس وعلى وجهه مسحة من قلقٍ:- سيدى، اعتذر عن الطريقة التي استدعيناك بها، ولكن كان يجب أن ترى هذا.

تبعه سَوْدَان إلى حيث توجه. صعدا الدرج، بينما بقي ابن الأَغْبَنِ يُرَاقبُ الطَّرِيقَ مِنَ النَّافِذَةِ. فِي الطَّابِقِ الْعُلُويِّ، كَانَتْ غُرْفَةُ القَاضِي العَجُوز.. يَعْرُفُهَا جِيدًا. فَتَحَ كَارَاسَ الْبَابِ بِرَفِقٍ، يُسْبِقُهُ ضَوءُ الْقَدْرِيلِ، وَاتَّسَعَتْ عَنْا سَوْدَانٌ مِنَ الْمَفَاحَأَةِ.

كانا عائدين من الحصن الغربي، حين مرّ بهما جواد الأمير قسورة، يركض تجاه الحصن دون صاحبه، الأمر الذي أثار ريبةهما، حثا حصانيهما تجاه باري، وسرعان ما شاهدا ظلاً يقف بمنتصف الطريق، ركض حين رأهما نحو الآجام المرتفعة. طارده عبد الله، بينما اهتم كرارُس بالأمير قسورة،

الذي كان غارقاً في دمائه، وقد استقر بكتفه وصدره سهمان قصيران. نادى كاراس عبد الله أن يدع الفار ويعود إليه، فتردد لحظة، ثم كرّ إليه، فحملاه عائدين إلى باري، وحمد الله أن لم يلحظ الجن ما يحملان، حيث كانت العتمة والضباب قبيل الفجر. من حُسن حظه أن السهم الذي ضرب صدره منعه صديرية من زرٍ أن يخترق قلبه. كان قسورة يغط في النوم حين دخل سودان عليه.. أراد أن يوقفه، ليسأله إن كان قد رأى من حاول قتله، ولكن كاراس منعه. غادر المنزل، بعد أن طلب منها عدم البوح لأي شخصٍ بالأمر.

طرق الباب، فنهض متوجهًا إليه، ليجد رملة، التي ابتهجت لرؤيتها، ولكنها تفاجأت من ملابسه، وهمسَت:

- أين كنت؟ لقد أفلقتنا عليك. وما بال كل هؤلاء الجن حول القصبة؟ يقولون إن قسورة اخترق أو قُتل.
خرج إليها وأغلق الباب خلفه، لتنعم ماريا بنومٍ هادئٍ، وسار مع رملة قائلًا:
- تعالى لنتحدث بغرفتك!

حين دخل إلى الغرفة، سألاها عن الطفلين عمر وعلي، فأخبرته أنهما نائمان بغرفتهما. ساعدته في خلع زي الحرس الذي يرتديه. كان جسده دافئاً. تحسست آثار الجروح القديمة وهي تقول:

- ما الذي يحدث في باري؟
- كل شيء انقلب منذ رحيل أبي المغوار.. جاعني قسورة في الليلة الماضية، وكلفته بالذهاب إلى تخوم بنفينتو. ولكن هناك من غدر به. لقد وجده الطبيب كاراس وعبد الله بن الأغلبي.. وإنما هو بمنزل أبي المغوار فقد الوعي..
بصوتٍ بلغ ذروة الارتياح سأله:
- من الذي فعل هذا؟

- لا أعلم. ولكن الرجال كانوا يحيكون شيئاً صدي، ولقد أخبرني مسلمة أمير برندizi قبل رحيله بما يحدث في منزل سليمان الصقلي. هذا كل ما أعرفه. رحل أبو المغوار دون أن يقول شيئاً عن ذلك، رغم علمه به، وهو ما كوى قلبي.

- لماذا لم تقبض عليهم جميعاً؟ إن كنت تعلم بما يُدبرون لنا؟
- لقد جاعني قسورة ليُفصح عن الأمر، ولكن منحته ستراً. كنت أعرف أنه جاء من أجل ذلك، وأعرف أنه استشَف من حديثي معه علمي بالأمر. قسورة ذكي، ذو فراسةٍ ونجابةٍ، ولقد فطن للأمر، ولكن يبدو أن أحدهم قرر مbagتته قبيل الذهاب للشمال..
- إن الأمر يزداد سوءاً يا سودان.

- لا عليك، ستسير الأمور بخير.. ولكنهم يتهمون بأنني فاعلها..
اتسعت عيناها وهي تتطلع بوجهه، بينما يستطرد:

- هل تظنين أني قاتل صاحبي؟.. لا والله، لو أردت لجعتهم جمّعاً، وألقيت بهم من فوق السفح إلى البحر. ولكن ليس سودان مَنْ يقتل أصحابه.

- أنت حليم يا سودان.

لم يُرُق له وصفها. كاد أن يقول شيئاً، ولكن طرقاتٍ بالباب جعلته يتطلع ما كان ينوّي قوله. نهض متوجهاً إلى الباب، ممسكاً بخنجر خلف ظهره:

- من؟

جاءه صوت حارسه:

- سيدتي، لقد مات الفقيه ابن هشام، وستكون صلاة جنازته بعد صلاة الظهر.

هرولت إحدى الفتيات إلى حيث تجلس رفيقاتها. مالت الروؤوسُ واتسعت العيون جراء همساتها، وعلى مقربةٍ منها كانت تقف فيولاً. كانت تعلم أن أكثرهن ما عُدْن يحببنها، لكنها زينت وجهها بابتسامةٍ وهي تتوجه إليهن، وتسألهن عما يتهمسن به، وتلك الدهشة الممزوجة بالفرح. أجابتها كبيرتهن مبتاهجةً:

- سمعنا أنهم وجدوا الأمير قسورة.. وأنه مازال حياً.

ذكرت تلك الليلة، كانت تمر بالقرب من إحدى نوافذ القاعة الكبرى حين رأته مع السلطان، يتبدّل أن حديثاً لم تسمعه، ثم كان غيابه واختفاؤه حديث الجميع. مجل الترشّة الآن أنه حي، ولم يُقتل كما أشيّع منذ اختفائه. لهجات عدة تداولت حديثاً ضجّ منه رأسها، وشعرت بتجمد الدماء في عروقها. انسلت من بينهم، وقلبها يُخفق بقوّة، وهي تمر إلى الرواق المؤدي إلى الحديقة. اصطدمت بجسده قوي، أفرّعها حين أمسك ذراعها بقوّة آمنتها، وإنغرست أصابعه بلحمها الأبيض. تبيّنته على ضوء النهار البعيد، ودفعها أمامه إلى غرفةٍ خاويةٍ إلا من نافذةٍ ضيقةٍ يتسرب منها شعاع للشمس. كانت تتذكرة قسمه جيداً.. حين جاءته بخبر وجود قسورة مع سودان استنشاط غضباً، وظل يُردد أن قسورة خائن. وعدته بأنها ستمنحه ما لا يتوقع، فقط لأنها تحبه. يستحق ما تفعله من أجله، أو ربما هي تستحق. كادت أن تمنحه عرش باري، ولكن أحلامها انهارت، لتجده يلصقها بالحائط، ويضغط عنقها حتى جحظت عيناها، وانساب الدمُّ من عينيها والهواء أصبح مستحيلاً المنال، بينما هو بارد الملامح عازمٌ على أن يبر بقسمه، فقسورة مازال حياً! لقد سبقها أحدُ أعينه إلى إخباره. زاغ بصرُّها.. وراح العالم يتلاشى، ثم فجأةً أفلتها متراجعاً، لتسقط أرضاً ينتابها السعال، وبين صدرها بنشيج متلاحق. تحسست رقبتها الساخنة وقد تركت أصابعه الغليظة حفراً غائرةً في مسامها، كانت حيةٌ لسببٍ ما.. لم ترفع رأسها، وقالت منتحبةً:

- أقسم لك أنه سيموت الليلة. سأثبت لك كم أنا مخلصة لك، وسأفعل لأجلك أي شيء.

قال بنبرةٍ غاضبةٍ أمرةٍ:

- إنه في منزل أبي المغوار.. عند الفجر، إن لم تأتني برأسه، سيكون رأسك معلقاً على رمح بباب القصبة، إلى جوار بقية الخونية.

لامست طرف حذائه حين تحرك إلى الباب. كان غاضباً حدّ الوجع. كان عليه إنتهاء الأمور مبكراً، ليته كان أكثر حسماً من الأغلبي الذي أصرّ على تأجيل موعد خطتهم، حتى التأكد من مصير قسورة. عاش الوهم أياماً كأمير باري القادم. تعقد الأمر على يد فيولا، والآن ليس أمامه سواها ليستعين بها مرة ثانية. امتنى جواده، وراح يسير في طرقات المدينة بين زحام الذاهبين إلى جنازة ابن هشام. كانوا يفسحون له الطريق، خشية وربه لطته، ويتندرون بأن خطوات مطيته معتمدة بنفسها أصحابها. سيصبح أمير هذه المدينة، حتى وإن قتل الأغلبي وبقية الرجال.

الشرُّ يستتر بالظلم، تخدمه الظلال ويحميه السكون عند منزل أبي المغوار. دارت بنظرها في أرجاء المكان، قبل أن تقترب بحذر من الباب، فطرقته. كانت متوتة، وب مجرد أن انفتح الباب، ورأت وجه الطبيب كاراس، على ضوء قديل يحمله بيده، أسرعت تخبره:

- الأميرة ماريا مريضة، وتطلبك على الفور.

- هل أصحابها مكرودة.. ماذا حدث لها؟..

- لم أفهم.. إنها فقط تُربك محادثتك على عجل.

- محادثتي! ادخلني، ريثما أرتدي ثيابي.

تركها الطبيب ودخل إلى غرفته، فعادت تفتح الباب لرفيقها. تحركا على أطراف أصحابهما بسرعة، يفتشان أرجاء المنزل. استترت بالحانط عند رواق به بابٌ وحيدٌ، وتقدمت إليه. بضع قطرات من دماء جافة كانت كافية لتتوقع أن قسورة وراء هذا الباب، فأشارت إليه أن يتبعها. كافعى مجلجة تترబص للدغ فريستها، وضعت خدها على الباب الخشبي البارد.. لحظات، ثم دفعت الباب برق، وبخفة دلفت إلى الغرفة الواسعة. صوتٌ من خلفها جعلها تنقض فزعاً..

- ماذا تفعلين هنا؟

كان ذلك عبد الله بن الأغلبي. استدارت، لتجده يقف عند باب الغرفة، يكرر سؤاله..

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

انتظرت حتى اقترب منها، ولم تمهله ليكمل كلماته. اندفعت نحوه مسرعة، تشهر خنجرها، فأخذته المفاجأة، واستطاعت أن تضرب رقبته عند حبل الوريد. حاول أن يمسك بها لا أن يقتلها، ولكنها كانت في حالة من الجنون، اخلت توازنه مع الدِّم المندفع من عنقه، وكانت فرصتها لتدفعه عنها بكل ما أوتيت من قوة، وفي نفس اللحظة أنتهت طعنة أقوى من حيث لم ير صاحبها. تشبث بيدها كي لا تفر، لكنها قاومت كذببة شرسة، فدفعها بما تبقى له من قوة لترتطم بالمنضدة وتسقط أرضاً، ولكنها نهضت تلملم ثوبها، بينما كان عبد الله يغرق في دمائه، وقد بدأ يفقد وعيه وهو لا يتبيّن شخص من طعنه في ظهره. همت للاجهاز عليه بخنجرها، ولكنها سمعت صوت كاراس ينادي:

- عبد الله!

تراجعت مغلقة الباب خلفها، وتركت رفيقها يتم المهمة، وعادت مسرعةً إلى حيث تركها، فوقفت في ركن مظلم، كيلاً يتبين الدماء التي لوثت ثوبها. نزل الدرج، وهو يُحدق بوجهها وقد اجتاح القلقُ مفاصلهِ:

- هل سمعتي الصراخ؟

أومأت برأسها وأشارت باتجاه الغرفة:

- أتى من هذا الرواق.

تفحصها متوجساً، ثم أسرع نحو حجرة قسورة..

- انتظريني قليلاً!

كانت قد اتخذت القرار بطبعه هو الآخر، فما إن ولّاها ظهره، حتى تبعته مشهراً خنجرها. ولكن بنهاية الرواق، كان عبد الله يتند على الجدار، مشيراً نحوها. هال كاراس ما رأى، واستدار ليجدها خلفه مباشرةً وخنجرها يستقرُّ بقلبه. تناثرت الدماء من فمه، وجحظت عيناه وحملقت في الفراغ. حاولت نزع الخنجر، ثم تركته يسقط مع كاراس وبصقت عليه. بإصرار اتجهت نحو الفتى، الذي سقط أرضاً، وهي تتسائل كيف. رغم ذبح وريده. تغلب على فارس من المحاربين! لقد خارت قواه، وأن لها أن تزهق روحه، ولكن لتركه الآن فلا خوف منه، ولنتم ما جاءت لأجله، قسورة.

دخلت إلى الحجرة، فوجدت الجندي الذي رشته بالمال مضرجاً في دمائه، فبصقت عليه أيضاً، وانحنت عليه تأخذ صرة المال التي لم يهنا بها فعلقتها في نطاقها، ثم فكت كفه عن خنجره الطويل، فقبضت عليه واتجهت إلى فراش قسورة، الذي لم يدر بشيءٍ من كل هذه الجلبة والدماء. رفعته للأعلى، وجزت على أسنانها، وعرش باري يتراءى لها.

و قبل أن تهبط به إلى قلبه، أفرزها صهيلٌ خيلٌ ووقع حوافر تتوقف بباب الدار. قفزت بسرعةٍ وراء ستار النافذة الصغيرة، فرأت شخصين يتحادثان ويُقبلان على الباب، يتقدمهما ضوء المشاعل. لم تكن بحاجةٍ لتبيئهما.. جرت كفار حاصرته الهرر، فتخبط يدور حول نفسه، ولا يجد المفر. الهرب أو الموت.. لا تُريد أن تموت، وليدهب قسورة وشرحبيل معًا إلى الجحيم.

دخل الرجال إلى دار أبي المغوار شاهرين سيفهم، وقد توجسوا شرّاً من الباب المفتوح. انتشروا في الدار، بالمشاعل الموددة وصاح أحدهم حين دخل إلى الرواق الجانبي، فهرعوا إليه. انحنى الأغلبي على الجسد الملقي، فوجد الطبيب الرومي قد فارق الحياة، وفي صدره خنجر لم يُقتلع. مذ بصره إلى نهاية الرواق، فوجد ما ظل يخشاه طيلة حياته..

صرخ:

- عبد الله!

كان الشاب يستند إلى الجدار يتتنفس بصعوبةٍ، سقط السيف وقد خلع عمامته وضغط بها رقبته، فتلونت بدمه. احتضن محمد ابنه باكيًا: عبد الله! من فعل بك هذا.. عبد الله، أجيبي يا ولدي..

فتح الفتى عينيه، وابتسم لأبيه، وحدثت نظرته الأغلبي بما لم يستطع لسانه قوله.

- لا تتحدث يا عبد الله.. ستشفى يا ولدي، وسأثار ممن فعلها بك؛ أقسم لك.

سعٌل عبد الله، قبل أن يُجاهد للكلام:

- وددت أن أكون معك في كل غزواتك يا أبتي. وددت أن تعرف أن كل شيء إلى نهاية.. لم تدعني اختيار موتي.

- لن تموت يا ولدي..

ابتسم بصعوبةٍ:

- ستفخر بي، لأننا أنقذنا الأمير قصورة.. السلطان أفضل من يجمع شمل باري يا أبي، لا تخذله، لا تخذل باري..

- يا بني لا تتكلم، سأستدعي الطبيب.

سعالٌ مزق صدر الفتى، قبل أن يتمتم:

- فيولاً من غدرت بنا.

اتسعت عيناً الأغلبي، وانتابته موجة عارمةٌ من الدهشة والغضب:

- أقسم أن أقتلها قبل أن تصعد الشمس إلى سمائها.. لكن لأطلب لك الطبيب أو لا!

قبض عبد الله على يد أبيه بيديه الملطختين بالدماء، وتعلقت عيناه بوجهه:

- سلام عليك يا أبي عبد الله.. أقر أمي وإخوتي السـ..

لم يُكمل الفتى كلمته الأخيرة.. أخذ محمد يهز جسده منتحباً:

- عبد الله، يا ولدي لا ترحل.. عبد الله!!

لم يُجب الفتى أباًه. رجَّ صراغُ الأغلبي جدران منزل أبي المغوار، حتى ضاع صوته، بعد أن أقسم ألف مرّةٍ أن يثأر لابنه. عاد صاحباه إليه بأيدٍ خاويةٍ، ولم يعثرا على أثرٍ لفيولا، عدا خنجرها الذي تركته في صدر كاراس.

- كان علينا التأكد ما إذا كان قصورة حيًّا، أم أنها مجرد كذبةٌ أطلقها شخصٌ ما لغرض في نفسه. امتطينا الخيل وتوجهنا إلى منزل القاضي. كان حديث الأغلبي يفيض باللوم على ابنه، الذي لم يُخبره بالأمر، ثم يعود للقول بأن عليه أن يتتأكد أو لا من صدق الخبر. حين وصلنا إلى باب مفتوحاً، دخلنا وتوّجَّه كل واحدٍ منا إلى ركنٍ يبحث فيه، وسرعان ما سمعت صراغ الأغلبي، فنزلنا ركضاً، ووجدنا جسد الطبيب كاراس مطعوناً بخنجرٍ، وفي آخر الرواق كان الأغلبي يحتضن عبد الله الذي كان

يُحضر. بعدها، حمل هو جسد ابنه إلى منزله، وجدنا نحن بجسده الطيب الرومي إلى هنا.

أطال شرحبيل النظر بوجه الرجل، ثم اقترب منه قائلاً:

- هل عرفتم من القاتل، أو وجدتم أي أثرٍ يدل عليه؟

- لا سيدِي، وجدنا الموت والدماء فقط.

- حسناً، اذهب أنت الآن، فخذ مجموعَةً من الجند، ولا تدعوا الأغلبي يخرج من منزله..

- مغفرةً يا سيدِي، لا أفهم ما....

قاطعه شرحبيل بحزمٍ:

- على الرجل أن يبقى في منزله، ولا يسعى لانتقام.. لو منحنا كل مكلوم فرصةً للقصاص بنفسه، لصارت المدينة كلها عبئاً وفوضى.. أليس كذلك؟

أوْمَ الرَّجُلُ بِرَأْسِهِ، وَرَحِلَ عَنِ الْمَكَانِ. أَطْلَقَ شَرْحَبِيلَ زَفْرَةً طَوِيلَةً، وَعَضَّ شَفَتَهُ السُّفْلَى، يُحَاوِلُ تخْيِلَ مَا حَدَثَ، وَمَا إِذَا كَانَتْ فِيهَا وَرَاءُ الْأَمْرِ. فَيُولَا لَمْ تَعُدْ إِلَى الْقَصْرِ، وَمِنْ حَدِيثِ الرَّجُلَيْنِ، لَمْ يَذْكُرْ قَسْوَرَةً. تَجُولُ بِسَاحَةِ الْقَصْبَةِ، يُعْطِيُ الْأَوْامِرَ لِرَجَالِهِ بِالْأَنْتَشَارِ فَوقَ الْأَسْوَارِ وَبِالسَّاحَةِ، وَمَا إِنْ جَاءَ سَلِيمَانُ الصَّقْقِيُّ، أَخْبَرَهُ بِأَنَّ الْلَّيْلَةَ سَيُقْتَلُ سَوْدَانٌ، لَقْتَلَهُ قَسْوَرَةُ وَابْنُ الْأَغْلَبِيِّ. لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ لِإِنْهَاءِ الْأَمْرِ.

ريح بارد يُلْاعِبُ الْبِيَارِقَ، فَتَتَمَاهِيْلُ فَوْقَ جَدَانِ الْقَصْبَةِ الْمَكْتُظَةِ بِالْمَشَاعِلِ وَالْجَنْدِ. كُتِبَ عَلَى بَارِيِّ أَنْ تَشَهِّدَ خِيَانَةً تَلَوَّ الْآخِرَى، مِنْذُ قُتِلَ خَلْفُونَ وَمِنْ بَعْدِهِ مِفْرَقُ، وَالآنْ جَاءَ الدُورُ عَلَى سَوْدَانَ. لِحَظَاتٍ تَفَصِّلُ شَرْحَبِيلَ عَنْ مُلْكِ بَارِيِّ وَسَائِرِ الْجَنْوبِ الإِيطَالِيِّ، وَهُوَ الْآنْ يَسِيرُ بَيْنَ اثْنَيْ عَشَرَ رِجَالاً مِنْ حَمْلَةِ الرِّماحِ الطَّوِيلَةِ، مَنْ يَتَقَوَّنُ بِهِ وَيُثْقِبُ بِهِمْ، وَإِلَى يَمِينِهِ سَلِيمَانُ الصَّقْقِيُّ يَعْتَصِرُ مَقْبِضُ سَيْفِهِ، وَعَلَى يَسَارِهِ ابْنُ زِيَانَ، الَّذِي وَصَلَ قَبْلَ الْمُغَيْبِ مَعَ مَجْمُوعَةً مِنْ رِجَالِهِ. لَمْ يَكُنِ الْجَنْدُ الْمُنْتَشِرُونَ بِالْفَنَاءِ وَعَلَى الْأَسْوَارِ يَعْلَمُونَ مَا يَحْدُثُ، فَتَابَعُتْ أَعْيُنُهُمْ شَرْحَبِيلُ وَزَمْرَتُهُ يَدْلُفُونَ عَبْرَ الْبَابِ الْكَبِيرِ بِخُطُوطٍ مِنْتَاسِقَةٍ تَضْرِبُ الْأَرْضَ لِتَصْطُكُ الدَّرُوْعَ. كَانَ عَلَيْهِمُ الْمَرْوَرُ بِالْبَهُوِ الْكَبِيرِ، قَبْلَ الْوَصْوَلِ إِلَى مَضْجَعِ سَوْدَانِ، فَتَوَقَّفَ شَرْحَبِيلُ لِحَظَاتٍ أَمَامَ الْبَابِ الْخَشْبِيِّ الْمُرْصَعِ بِالْحَدِيدِ وَالنَّقْوَشِ، وَقَبْلَ أَنْ يُفْتَحَ الْبَابُ أَشَارَ سَلِيمَانَ، الَّذِي هَمَسَ بِالرِّجَالِ:

- لا تَقْتُلُوا الصَّغَارَ وَلَا النَّسَاءِ.. فَقْطَ سَوْدَانُ وَمَنْ يُقاوِمُ مَعَهُ.. مَا إِنْ نَعْبُرَ الْبَابَ، سَيَبْقَى أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ قَرْبَ الْعَرْشِ، وَالآخَرُونَ سَيَتَبعُونِي إِلَى الْمَهَاجِعِ، حِيثُ يَقْبَعُ الْخَانِ سَوْدَانُ.

تَبَادَلُوا النَّظَرَاتِ مِنْ خَلْفِ الْخُوذَاتِ، وَأَطْبَقَ صَمْتُ مَهِيبٍ عَلَيْهِمْ، قَطَعَهُ صَرِيرُ الْبَابِ الَّذِي دَفَعَهُ شَرْحَبِيلُ بِيَدِيهِ، وَعَيْنَاهُ تَنْتَظِرَانَ أَنْ تَنْتَعِمَ بِرُؤْيَةِ كَرْسِيهِ. قَدِمَ الرِّجَالُ رَمَاحَهُمْ فَوْقَ الدَّرُوْعِ الدَّائِرِيَّةِ الصَّغِيرَةِ، فِي وَضْعٍ دَفَاعِيٍّ يُسْتَخدَمُ لِلْأَمَاكِنِ الضَّيْقَةِ، وَانْفَرَجَ الْبَابُ..

كَانَ سَوْدَانُ مَتَكَنًا عَلَى كَرْسِيهِ، بِاسْمِ الشَّغْرِ. أَرْبَكُوهُمْ وَجُودُهُ وَهِيَتِهِ، فَتَقدَّمُوا إِلَى الْقَاعَةِ بِحَذْرٍ،

وسلیمان الصقلي ينقل بصره بالأرجاء متوجسًا، وابن زیان يقبض على سيفه بعصبيةٍ وهو يتخذ موضعه خلف شرحبيل، الذي أیقن أن لا تراجع الآن. بخطواتٍ ثابتةٍ، وصل إلى منتصف القاعة، وعيّناه لا تفارقان وجه سودان الساخر. رفع قبضته، فتوقف رجاله، وقد صارت ابتسامة سودان أكثر وضوحاً..

- لقد أحسنت تدريبهم يا شرحبيل.. أشهد لك بذلك.

حاول شرحبيل إخفاء توتره، ليقول بحزنٍ:

- لقد انتهى الأمر يا سودان.. ترجل عن كرسيك، ولا داعي لأن يتلوث بالدماء.

- لقد نطقت بالحق دون أن تدري.. قلت "كرسي" وهو بالفعل كذلك. ولكنني لست أعجب بما يفعله ذلك الشيء بعقول الرجال.. تُراق الدماء لأجله.. يخون الرجل صاحبه.. ويُحاول قتل الأقربين للحصول على كرسبي!

- لسنا هنا لخوض حديثٍ..

قاطعه سودان بغضبٍ:

- حين أتحدث عليك أن تنصت ولا تُقاطعني. لقد توقعت خيانتك، ورأيتها في عينيك يوم الغابة. كذبت نفسك حين رأيتكم ترمي بالرمح لصدر الرجل. كنت أعلم كل شيء تفعله.. (تغيرت نبرته إلى النعومة وهو يُكمل) وموافقتك لفيو لا في قصري. إنها لم تعد إلى القصر، أقتلتها؟

هيمن الصمت لبرهة، قبل أن يغلق الباب خلف شرحبيل ورجاله. توتر الرجال ودارت رؤوسهم في المكان، وابن زیان يُخاطبهم: الثباوا!

ضحك شرحبيل، وردت جدرانُ بهوِ ضحكاته. نظر إليه سليمان، الذي ظن أن صاحبه قد جُن، وحين عاد ببصره إلى سودان كان صاحبُ الشرطة يشير إليه بالسبابة:

- هل تظن أنك أوقعت بنا، بجعل أحد الحمقى يُغلق الباب؟ إن الرجال يُحاصرُون القصبة، وقد عزلت تماماً عن بقية المدينة. لن تخرج حياً يا سودان.. لقتلك قسورة وابن الأغلبي وذلك الطبيب الرومي.. لقد قضي الأمر.

تراجع سودان في كرسيه، وتكلم بنبرةٍ أهداً..

- نعم لقد قضي الأمر يا هذا. ولعل أمير الحرب يود قول شيء لك.

وجم شرحبيل وكاد يشيق، حين بُرِزَ في نفس اللحظة قُسورة التميي من خلف الستار إلى كرسى سودان. كان ظهوره كبرق غشى الأعين، سليمان مُعافي، وإن شحب وجهه وأحاط عينيه السواد. بدا للرجال بأنه عاد من الموتِ ليقف إلى جوار سودان..

- الحكم نافذ في كل من تلوث يده بالدماء. يا شرحبيل، لطالما كان السيف والخنجر أفضل أصدقائك، فتُب إلى الله وكفاك آثاماً!

سحب شرحبيل سيفه بعنف زاد من توتر رجاله وهو يصبح:

- إذن، هلموا لمعانقة صاحبي البراق..

هم قسورة، فرفع سودان يده ينهاه، ونهض محافظاً على هدوئه:

- كم وددت أن تتراجع يا شرحبيل، فلك في الجهاد تاريخ لا أنساه... لن ألوث قاعة وسيف السلطان العادل بدمائكم.

مع إشارته، تحولت الأعمدة إلى فرسان.. خرج من ورائها رجال الكتيبة السوداء، ليحيطوا بالقاعة وكل من فيها. ما أبعد الواقع عن حلم شرحبيل ورجاله، الذين تراجعوا والتصقت ظهورهم ببعض، فاحتكت دروعهم في رعبٍ. تعلقت عيونهم بسودان، الذي جلس على كرسيه وزفر قاتلاً:

- من سيُلقي سلاحه سننظر في أمره.. ومن يريد القتال فليثبت حتى يرى ذووه جيفته معلقةً على جذوع النخل.

ألقى الرجال دروعهم ورمادهم أرضاً، وشرحبيل غير مصدقٍ أن برج طموحه ينهار ويتحول إلى قبر. صاح بهم في جنونٍ:

- أيها الجن——اء..

حاول أن يطعن أحدهم، ولكن رجال الكتيبة السوداء أنهوا محاولته، ومحاولة ابن زيان وسليمان للمبارزة. لم يستسلم شرحبيل إلا بعد مقاومة يائس عرف أنه ميت لا محيس، وظل سودان يُراقبه صامتاً، مت候ساً على شرحبيل المُحارب القوي، الذي ضربه مقبض سيف أحد الفرسان على رأسه، فخرّ ساجداً، وكان أولى به كرامة السجود لله، ومشاركة جيش باري غزواته.

في الأفق البعيد، كان خيط الفجر يفصل زرقة السماء عن عتمة البحر، وشرحبيل ورجاله يُساقون إلى سجن القصبة مُكبلين بالسلاسل، تحيط بهم أعينُ أهل القصر والجند المذهولين مما يحدث. والجواري يتسائلن عن علاقة غياب فيولا بكل هذا الدم واللغط. طفل شعيب وقف بجانب أمهما يغالبان النعاس وهي تصر أن تفيقهما ليشهدما ما يحدث. تركت رملة ضرتها ماريا في فراشها، وأوصت الجواري أن يدعنها لا تدري عن كل ما يحدث شيئاً، فكفاها متاعب حملها، الذي أوشك أن يتمخض عن بشرى ابن جميل للسلطان. خرج قسورة مع سودان، ووراءهما الكتيبة السوداء في زهوها وهيبتها، يتبعون جميعهم السلطان لوجهه غير معلومة.

وبين نحيب وعويل النساء، قبع محمد الأغلبي مُجبراً، بناته الأربع لم يتوقفن عن البكاء، وزوجته صارت عيناها كأسين من دماء، لا تكف عن تردید "إنا لله وإنا إليه راجعون"، وجسد الفتى يرقد بالفراش ملطخاً بدمائه الجافة الباردة، وقد ابيض وجهه. أحداث وأحداث مررت بعقل الأغلبي وهو يحمل ابنه من بيت أبي المغوار إلى منزله، أمور لا تكف عن ضرب رأسه وقد زاده النحيب قوةً، نهض مغادراً الغرفة إلى حيث يحتفظ بدرعه، سحب السيف الكبير وثبت الغمد بخصره. تبعته امرأته مرتاعاً:

- إلى أين ستذهب يا محمد؟! أما يكفي أن خسرنا ابننا؟!

قال وعيناه تحملان غضباً يكفي لإزاحة مدنٍ كاملة عن وجه الأرض:

- سأقتل تلك العاهرة ومن وراءها..

أمسكت بذراعه، ولكن نظرةً في عينيه كانت كافيةً لتركه يرحل. فتح الباب، ليجد فرقةً من رجال شرحبيل يحيطون بالمنزل، ويسيدون الحرارة الضيقة. دار ببصره في وجوههم، وهُم بالخروج ولكن قائدُهم أوقفه بحركةٍ من يده، وكان بركان الأغليبي ينقصه تلك الفعلة. سحب سيفه، فتراجع الرجل خطوةً للخلف قائلاً:

- سيدِي، نحن هنا لحمايتك، ولدينا أمرٌ بعدم خروجك من المنزل.

- من سيحاول منعي سائره هنا، وبعد أن أنتهي منكم جميعاً، سأقتل صاحبكم الخائن.

عقد الرجل حاجبيه في عدم فهمِ الجملة الأخيرة:

- لا داعي لهذا سيدِي.. أرجو أن تتحلى بالصبر، فما.....

"السلطان العادل سودان الماوي"

صيحةً جلجلت عند مدخل الحارة، أفسح معها الرجال الطريق، ودقت رماحهم الأرض، وسودان يدخل الحارة على فرسه. وعلى ضوء الفجر والمشاعل، رأى الأغليبي سودان، فكاد يبكي، ولكنه لمح إلى جواره قسورة، فتجدد مذهولاً. نزل الجميع عن خيولهم، والأغليبي ما زال متجمداً على وضعه، شاهراً سيفه، فتح قسورة الخطى باتجاهه، ووقف أمامه برده، ثم فتح له ذراعيه. ابتسم سودان، ثم أشار للجند قائلاً:

- من تتبعون؟

قال قائدُهم:

- نحن من رجال الشرطة سيدِي.. وقد أمرنا مولاي شرحبيل بحراسة منزل الأمير محمد الأغليبي، ومنعه من الخروج حتى الجنازة في الصباح.

ظهر الأسني على وجه سودان وهو ينقل بصره إلى الأغليبي وقسورة، اللذين دلفا إلى الدار، ثم عاد ببصره إلى الرجل:

- عودوا إلى القصبة وسلموا أسلحتكم..

توجه بالحديث بعد ذلك لأحد رجاله:

- رافقوهم إلى هناك، واحرص على تسجيل أسمائهم وعناوين منازلهم.

انتظر حتى رحل الجميع من المكان، ولم يبق سواه وأربعة من حرسه الخاص، أمرهم بانتظاره. دخل بخطواتٍ ثقيلةٍ إلى منزل الأغليبي.. الحزن يحيّthem على الدار، والصغيرات يستندن بعضهن إلى بعض. توقف بالفناء حتى مررن إلى غرفهن، وغضّ بصره حين مررت رقية زوجة الأغليبي وهي تقول له

بصوتٍ يفيض بالألم:

- لقد أحبك عبد الله كثيراً.. لقد كان حلمه أن يكون مثلك يا سودان.
- إن مُصابكم هو مُصابي، وأقسم أن أضرب عنق قاتله بسيفي أمام الأشهاد.
- إن من قتله وصيفة زوجتك الرومية.
- أحسّ سودان بجبلٍ من ثلجٍ يهبط فوق رأسه. رفع عينيه إليها مُتراجعاً..
- **فِيولا؟!**

لم تُجبه. اكتفت بنظرة لوم، وتبعطت خطى بناتها. لن يخطر بعقل أحد أن تكون تلك الجارية الغنجة هي القاتلة. ما السبب؟!.. دخل إلى غرفة الفتى، حيث قسورة والأغليبي والصمت. اقترب سودان من الفراش، وانحني يلثم الجبين البارد، ثم تتمم بعدها بالدعاء وعيناه لا تفارقان وجه عبد الله، وتترقرقان بدمٍ يُكابر النزول. رب قسورة على كتفه قائلًا:

- هل نذهب؟

استدار سودان لينظر بوجه الأغليبي:

- إنما لفراقَ مَنْ نُحِبُ لمحزونون. لقد افتدى هو وكاراس قسورة. نقلاه سرّا إلى القصبة بأمرِي، وكانا يجمعان أدويتهما وأدواتهما، حين باعثهما القاتل الذي كان يسعى لقتل قسورة لما علم بأمر نجاته.

قال الأغليبي باقتضابٍ:

- قتاله عاهرة شَرَحْبيل الصهباء.
- ولكنَّ مَنْ حاول قتلي رجلٌ نحيفٌ طویلُ القامة.
- جاءت كلماتُ قسورة لتُكمل مفاجآتِ الساعات الأخيرة المشحونة.

نقل سودان نظره بينهما، ثم أومأ برأسه:

- واضح أن الخونة كثُر، وعلينا أن ننكافِ لنقتصر لأحبائنا.. شَرَحْبيل وابن زيان وسليمان الصقلي ستُضربُ أعناقهم بعد الجنائز..

قاطعه الأغليبي بعصبيةٍ:

- الفتاة ليست سوى خنجر بيد صاحبها. رغم ذلك، سنجدها ونثار لعبد الله.. أعدك يا صاحبي أن نجدها، وستدفع ثمن فعلتها.

قرب مذبح الكنيسة القديمة، رقد تابوت خشبي يحتضن جثمان كاراس، يرتدى أفحى ثيابه، وقام الأسقف بتعطيره، بينما تلت مجموعة كبيرة من أهل باري المسيحيين صلواتهم. ففتح الباب الكبير، لتدخل الأميرة ماريا تسندها الوصيفات. كان الإرهاق بادياً على وجهها إلى جانب الحزن. نهض الجميع حين رأوها، فمررت بينهم وعيناها المجهدتان لا تفارقان التابوت. تركتها أيدي الفتاتين حين صارت أمام جثمان عمها. كان كما النائم وقد ارتاحت ملامحه. مررت أصابعها على وجهه برقة، وأجهشت بالبكاء. حياتها كلها كانت معه. ساعدتها كثيراً وعلمتها كثيراً، وعطف عليها أكثر. كان أباها الحقيقي، الذي لطالما جاد عليها بالنصائح والعون. استندت إلى التابوت والألم يغزو صدرها، فهرعت خدمتها بسرعة نحوها، قائلة بخفة:

- مولاتي، عليك بالراحة.. إن سيدك كاراس كان طيباً وسيحظى بمكانته في الملائكة. ما كان ليُرضيه إلا أن يراك في حال حسن.

تماسكت ماريا، وتمتت بصلواتٍ طلبت فيها الغفران لعمها الطبيب الصالح، وعينا الأسقف تتبعانها بأسى. أو ما لها برأسه حالما انتهت من صلاتها، وتقدم هو ليقف أمام التابوت وبيداً الصلاة. في نفس تلك الأثناء، كانت الصلاة قائمة على عبد الله بن الأغلبي، وخرجت جموع المصليين، يتقدمهم نعش الفتى، يحمله أبوه سودان، بينما لم يستطع قسورة أن يُكمل السير في الجنازة، فاكتفى بالبقاء في المسجد بعد أن صلوا على الشهيد المغدور. التقت الجنائزتان بوسط المدينة، فانصرف المشيعون، وتجاور المعلم وتلميذه محمولين على أكتاف المدينة إلى مثواهما الأخير.

انقضَّ الجمعُ، وبقي الأغلبي قائماً على قبر ولده، لا يُحدث أحداً، وكذلك فعلت ماريا عند قبر عمها، حتى جاءها سودان. احتضنها، فدقفت رأسها في صدره، وراحت تبكي.

- كان كاراس عزيزاً يا ماريا. لولاك.. بعد الله.. ما كان سودان يحكم باري الآن.

وأشار لحملة الهدوج ليحملوها إلى القصر، أما هو، فعاد إلى قبر عبد الله، ليجد قسورة يقف خلف الأغلبي، الذي ما زال جاثياً على ركبتيه.

- يا محمد.. إن البقاء هنا لن يجدي نفعاً. علينا العودة للقصبة، وتدار أمر القصاص.

رفع الأغلبي رأسه ليستطيع بوجه سودان:

- وماذا عن تلك الرومية؟!

- حتماً سيجدوها الرجال.. أرسلت فرق بحثٍ تجوب الأحياء. أظنها لم تبتعد كثيراً.

نهض الأغلبي، بعد أن ربت على القبر موعداً. قال قسورة محدثاً سودان:

- على العودة إلى الحصن لرؤية زوجاتي والأطفال..

- أظن أن عليك البقاء هنا، لنتأكد من خلو المكان من الخونة.

- أثق في أهل الحصن.

قاطعه سودان:

- ولكنني لا أثق في أحدٍ.

- فكيف إذن نرتّب الأمور هناك، قبل التوجّه للشمال، كما أمرت سابقاً؟

رده كان غالباً، فلم يكن من مجال للجدال. مضى الأغبى دون أن ينطق كلمة، قسورة اتجه إلى حصنه، واتخذ السلطان طريقه إلى القصبة. كانت باري مختففة عن الأيام والسنوات الماضية. كانت الوجه حزينة، والحوانيت راكرة. تجول بالطرقات دون حرس، يتفقد أمور الناس، كما كان يفعل أبو المغوار. ليته بقي، لكان كل شيء تبدل الآن. كان يقترب من القصبة، حين ظهر فارس يقترب في سرعة منه. تحسّس مقبض سيفه وضاقت حدقاته حتى جذب الفارس اللجام، ليقف الحصان بعثة أمامه، والرجل يشير ناحية البحر:

- سيدِي، أسطولٌ بيزنطي ضخمٌ يحتل الأفق!

(10)

حلقت النوارس بعيداً عن الدخان الأسود ودمامة الطبول. أعينها الصغيرة ترصد تحرك رماة يأخذون مواقعهم فوق أسوار القصبة. قرب باب البحر، انتشر المشاة يثبتون المتراس بالمرفأ، وقارب البيزنطيين تقترب أكثر فأكثر، تشق الموج باتجاه الخليج الصغير. داهمت الالم الوضع ماريا، كما داهمت الحرب مدinetها. أيام بعد موتها لم تغادر الفراش إلا مضطراً. اشتد مرضها، وكانت رملة دوماً إلى جانبها، أما سودان فانشغل بالحرب. ترتجف كلما سمعت دوي الفدائي، وتطمئنها رملة، بينما تهرب إحدى الفتيات إلى النافذة، وتعود وتخبرها أنه بخير. لا شيء يهدى من روتها سوى رويتها يدل على هذا الباب. تقبض على يد رملة، والعرق يتصلب من جبينها رغم برودة الأجواء، وتحاول إلا تصرخ، ولكنها فشلت. امتنجت شهقاتها بصليل السيوف وصيحات الرجال، وارتجمت الغرفة بصراخ ميلادٍ تزامن مع دوي قذيفة منجنيق ضربت حائط القصبة الخارجي، وبين الألم والفرز كانت القابلة تحمل بين يديها صبياً عمر المكان ببكاء الحياة. الدموع والفرح افترنا بوجوه كل من بالغرفة، ودموع ماريا بلل خديها، غير مصدقة لتلك اللحظة التي تمنتها كثيراً. "ولد كبدر التمام" قالتها القابلة وهي تمسح جسده بخرقة مبللة بماء دافى، بعد أن قطعت حبله السري. لفته بقمash مخمرلي، وأخذته رملة برفق تتطلع إليه بشغف، مغمض العينين يتثاءب ويضم قبضته الصغيرة. لثمته بقلبة رقيقة على شعره البني الخفيف، واقتربت من ماريا وناولتها إياه بلطف، فتأملته وعياناً تفيضان بالدموع، فما كان من القابلة إلا أن نهرتها من أجل الصغير. قبلت جبينه ثم قالت محدثة رملة:

- يُشبه أباه، أليس كذلك؟

- نعم.. سيكون شجاعاً، لا يهاب أي شيء.

قالت رملة مبتسمة وهي تجلس جوارها، وذكرى ماضٍ قريب تُداهم عقلاها.

خريفٌ طويلٌ ليس كسابقيه، تكالب الأعداء فيه على التغور، وكان الخيانة والدم أصابا المدن والقرى بغضب الأقدار. يبست الأشجار، كأهل المدينة الذين ضاقوا ذرعاً بما يحدث. توقفت قوارب الصيد عن

الإبحار ، وأسطول البيزنطيين لا يكُف عن محاولات اقتحام المدينة من ناحية القصبة القوية. سُفن الشوانى المُعدة للحصار كانت تحمل على متنها أبراجاً خشبية ضخمة، وبعضها يحوي مقلاعاً لا يتوقف عن رجم المدينة، معارك ليلية قادها سُودان لصد الهجمات المتالية، ونجح في إحرق وإغراق عدّة سفن بمساعدة رجاله. شهران وبضعة أيام والحصار يشتَد على باري، مع الآباء الآتية من الجنوب حيث تُقاوم برنديزى بقيادة قيس القيروانى، بعد مقتل مسلمة، وفي الشمال تساقط المحاربون كأوراق الأشجار، وتهاوت المدن تباعاً، حصارٌ هنا ومحرقة هناك. قاد قسورة رجاله شمالاً، ليحاول وقف تقدُّم جيش الملك الكارولنجي قدر الإمكان، فكانت فرصةً مثاليةً لدولية بنفيتو التي جاءت بالعتاد والرجال لحصار الحصن الغربى، وصار الإيمان بالأمل كريشة طائرٍ تتقاذفها الرياح. بَرَد الليل اختار جانبه أيضاً، فراح ينخر عظام ثكالى لا ينتظرن رحمة من دُوَّاغادِر يُحاصر الحصن منذ ثلاثة أسابيع. باري منهكـة في فك الحصـار البحـرى عنـها، بينما يمـوت في الحـصن كـل يوم بـضـعـة أـنـفـس، ويـوم تـلو الـآخـر تـختـفي وـجـوهـة مـائـوفـة، وـالـأـحـيـاء أـصـبـحـوا أـكـثـر شـحـوبـاً مـنـ الموـتـى، وـكـلـما جـاء الـهـجـوم ظـنـوا أـنـهـا النـهاـيـة. بـسـالـة المـدـافـعـين تـقـلـ يومـاً بـعـد يومـ، وـالـإـيمـان بـالـنـصـر صـار مـجـد عـلاـج لـا يـدـوـم مـفـعـولـه طـوـيـلاً. لم يـبـق لـهـم سـوـى طـلـب النـجـدة مـنـ السـمـاءـ، فـي دـعـاء حـجـبـه غـيـوم شـتـاءـ قـرـيبـ.

لم تعد الفرحة تعم المدينة عند التصدي لهجوم بحري، فقد صارت صفحة الخليج من دماء وأخشاب وجثث طافية. فشل البيزنطيون مرة أخرى في الدخول إلى الميناء، وقرب باب البحر انهمك الجندي في انتشال موتى البيزنطيين وحملهم إلى قوارب تلقى بهم على الشاطئ، لتناولهم عليهم مجموعات من أهل المدينة يحملونهم على العربات المتوجهة إلى خارج الأسوار لدفنهم. أما قتلى باري، فيُدفنون بعد أن يصلى عليهم في المسجد الجامع. في الساحة، سبق عشرات الأسرى يحيط بهم جند الأغلبي، الذي يقتادهم إلى سجن القصبة حيث القبو المظلم. كان كلما نزل بعض الأسرى للقبو، توقف عند بوابة مفتوحة على مصراعيها، وراءها هشم شرحبيل رأس ابن زيان بضربيها في الحائط الحجري، ومنها سُحب سليمان الصقلي على وجهه باكيًا، أما شرحبيل فخرج معتقداً بنفسه، يسير بخطى ثابتة، بعد أن دفع الجندي بعيداً رغم الأخلال. كان يعرف أنها النهاية، فلم يطلب الصفح، كان يوماً مشهوداً في ساحة المدينة، المحاصرة من أسطول يقوده بطريرك بيزنطي، وقد أجمع أولو الأمر في المدينة بحقيقة قتل الخونة قبل أن تشهر السيف في وجه الأعداء. انتشله أحد الرجال من شروده، بإخباره أنهم أودعوا الأسرى في أماكنهم، فجاوبه بإيماءة، ومضى عائداً إلى القصبة، حيث سرى بين الجنديين خبر ولادة الطفل.

جاءت سُودان البشرى، بينما كان يتبع الرجال وهم يملأون جرار الزيت. حثّ الخطى مبتهاجاً نحو القصر، وسط مباركاتٍ من العامة والخاصة. كان سعيداً رغم ما يحدث في الآونة الأخيرة. طرق الباب، ففتحت رملة مبتسمة، وأفسحت له الطريق وهي تتطلع إلى وجهه الذي عمر بالغبطة. ما إن رأته ماريا، حاولت الاعتدال في الفراش..

- حمدًا لله على سلامتك.. حالما أخبروني جئت فوراً.

تطلع للصغير النائم إلى جوارها، مقطب الجبين، دُثر برداء من مخمل ليقيه البرد. ولده، من محبوته التي غامر من أجلها بكل شيء، وحسب في وقت ما أنه فقدها وانتهى الأمر. ها هو ذا يتطلع إلى ثمرة الصبر والحب. كان هائماً في وجه الصغير المنير بالبراءة، لم تجرحه خيانة أو شقاء بعد.

- أي اسم اخترت يا سلطان باري؟

- عبد الله سأسميه عبد الله.. فالحمد لله على ما رزقني.

قالت رملة قبل أن تتوجه لمغادرة الغرفة:

- بارك الله فيما رزقك وجعله خير خلف لك يا أمير باري.

قبل رأس الأم منهكة، التي حملت الصغير ومدّت يدها به نحوه، ولكنه لم يمد يديه، فعقدت حاجبيها مستغربة، فقال ضاحكاً:

- أخشى أن تولمه يدي.. أخاف عليه من قسوة ساعد محارب.

- المرة الأولى التي تُفصح عن شيء تخاف منه..

- لكل منا مخاوف يا ماريا.

نظرت بعينيه السوداويين:

- لقد خلعت مخاوفي يوم رحلت عن روما وجئت إليك.. لا أخشى شيئاً وأنا جوارك وبين يديك.

ابتسم وهو ينظر إلى ولده:

- أسمعت هذا؟ أمك تتغزل في أبيك يا فتى.

مررت لحظات وهي صامتة تتأمل وجهه، فسألها عاقدا حاجبيه:

- ماذَا بك؟

- أحب صحتك.. ولا أشبع من رؤيتك.

قد تكون باري تحت الحصار البحري، ولكن المولود جاء بالأمل. كان موقفنا أن كل ضيق نهايته فرج، وأن المحن تأتي قبل المنح. احتضنها، فأودع رأسها في صدره، وشيء من خوف يلامس قلبها..

- سنهاجم قوات بنفينتو، ونرفع الحصار عن الحصن الغربي..

نطق بها سودان، وهو يشير إلى المجسم الصغير للحصن على طاولته. كان رجاله يرون أن هذا القرار تأخر كثيراً، فقابلواه بارتياح..

- قوات قسورة لم تعد بعد، وأعداد المتقطعة من الجنوب تتناقص، وال الحرب قائمة في برنديزي وسلامة ما زال صامداً. إن أفلحت خطتنا، سنكسر الحصار على البرج الغربي، وسنحرق أكبر عددٍ من سفن بيزنطة، ولنزينن البحر بمصابيح وقودها أسلاء بنى الأصفر.

قاطعه الأغلبي بصرامته المعهودة:

- ليس بالنيات يا سيدى، اشرح لنا كيف لنا ذلك!

نظر إليه سودان لبرهٌ.. الأغلبي يقول الحق، ولكنه لا يتفهم أهمية بث الحماسة وعلاج ضعف النفس. أكمل يشرح:

- ما إن نرفع الحصار عن الحصن الغربي، ستنفذ هجومنا الثاني على القطع البحريه الأكبر حجمًا. مجموعات من السباحين المهرة يتسللون إلى السفن، ويضرمون النيران بها. لتنفيذ خطتنا يجب أن ننتظر المحاق، وحتى هذه اللحظة سيقوم الأغلبي بالإشراف على إعداد السباحين..

- ولكنني أود الذهاب لفك الحصار عن الحصن الغربي.

- ومن سيبقى ليُدير أمور باري في غيابي؟ سأقود المعركة بنفسي هذه المرة.. ولتبق أنت وصيًّا على باري ريثما أعود.. أليست قسمة عادلة؟

تبادل الرجال النظارات وقد توجّسوا شيئاً لم يدرکوا ماهيته. هم الأغلبي بالكلام، ولكن سودان تابع:

- ابن الرشيد، أريد منك جمع كل فرسان باري في ساحة القصبة قبيل ظهر الغد.. وأعلن في المدينة أننا ذاهبون للحرب.

انتهى الاجتماع، ومضى كل بما حمل من أوامر. بقي في الغرفة سودان والأغلبي، تفصل بينهما المائدة الطويلة، تطلع كل منهما إلى الآخر لبرهٌ، تحدث بعدها محمد قاتلا:

- لم فعلت ذلك؟

- لأنني أثق بك يا أبا عبد الله..

تجمد الأغلبي أمام ابتسامة سودان، الذي اتجه بخطواتٍ بطئٍ نحو الباب:

- على الناس أن تؤمن بما نستطيع تحقيقه، لذا سأقود الهجوم على الحصن الغربي. أنا أولى الناس بفعل ذلك، ولن يسبقني أحدٌ لنصرة إخواننا المحاصرين هناك.. كما فعلت يوم ذهبت إلى سان فيلي لاحضار كاراس لعلاجك. ذهبت لأجل إنقاذه يا أغلبي، وليس من أجلها.. والآن عليك أن تحميها هي وعبد الله الصغير.

ترك سودان رفيقه الأغلبي منقبض الصدر غير متفائل. لعل كل ما يحدث الآن هو مجرد وهم. استند إلى الطاولة، وعيناه لا تفارقان صورة باري على الخريطة الممتدة أمامه.

لم يجد بنفيتو جراحهم وقتلامهم من أمام بوابة الحصن، بعد يوم آخر يفشل فيه هجومهم ومحاولتهم تسليقهم للأسوار على سالم خشبية، سرعان ما يحرقهم اللهب معها، أو تكسر فيسقطون من على

تزداد المحاولات صعوبة مع هطول الأمطار، لتحول ساحة المعركة لبركةٍ من الطمي، فخُـ مناسبٌ ليصطادهم رُـماة متحصنون بالأسوار القوية. أنهكهم القتال، وحيـشـهم يتناقص عـدهـ كلـما طـالتـ أيامـ الحصارـ، لكنـهمـ مـطـمـئـنـونـ أنـ لاـ أحدـ سـيـبـاغـتهمـ، فـبارـيـ مـحاـصـرـةـ منـ حـلـافـهـ الـبيـزنـطـيـنـ.ـ يـبغـضـونـهـ،ـ وـلـكـنـ يـبغـضـونـ عـدوـهـ المـشـترـكـ أـكـثـرـ.ـ الدـوقـ إـدـيـلـكـيـ يـريـدـ نـصـرـاـ يـمنـحـهـ المـزـيدـ مـنـ الـامـتـياـزـاتـ،ـ وـذـكـرـ الحـصـنـ هوـ جـائزـتـهـ فـيـ الطـرـيقـ إـلـىـ بـارـيـ،ـ وـعـلـيـهـ دـخـولـ الحـصـنـ قـبـلـ وـصـوـلـ جـيشـ مـلـكـهـ الـكـارـوـلـنجـيـ.ـ إـنـهـ يـلـومـ نـفـسـهـ عـلـىـ دـعـمـ اـصـطـحـابـ الـمـنـجـنـيـقـاتـ وـقـادـفـاتـ الرـمـاحـ إـلـىـ الحـصـارـ.ـ يـحـسـيـ شـرـابـهـ،ـ وـعـيـنـاهـ لـأـ تـفـارـقـانـ خـوـنـتـهـ الـذـهـبـيـةـ التـيـ وـضـعـهـ أـمـامـهـ عـلـىـ الـمـنـضـدـةـ،ـ يـتأـمـلـ رـأـسـ خـنـزـيرـ بـرـيـ،ـ هوـ شـعـارـ دـوـقـيـتـهـ التـيـ يـتـمـنـيـ أـنـ تـصـيـرـ مـلـكـةـ فـيـ يـوـمـ مـاـ.ـ صـرـخـاتـ هـلـعـ وـفـزـعـ جـذـبـتـهـ مـنـ حـلـمـ يـقـظـةـ لـمـ يـكـتمـلـ.ـ زـلـزـلـتـ الـأـرـضـ،ـ وـحـمـمـ الـخـيلـ وـالـزـبـدـ يـسـيـلـ مـنـ أـشـدـاقـهـ،ـ مـعـ هـجـومـ سـوـدـانـ الـمـبـاغـتـ،ـ وـسـرـعـانـ مـاـ اـشـتـعـلـتـ النـيـرـانـ فـيـ الـخـيـاـمـ،ـ وـذـعـرـ الجـنـدـ الـمـنـهـكـونـ.ـ فـرـسانـ بـارـيـ اـقـتـحـمـواـ الـجـانـبـ الـأـيـسـرـ مـنـ الـمـعـسـكـرـ،ـ يـفـتـكـونـ بـمـنـ يـصـادـفـهـ،ـ تـرـتـطـمـ نـوـاصـيـ الـخـيلـ بـالـراـكـضـينـ،ـ وـتـنـغـرـسـ الـرـمـاحـ بـالـصـدـورـ وـالـأـعـنـاقـ،ـ وـقـائـدـهـ يـرـاقـبـهـ رـاضـيـاـ،ـ قـبـلـ أـنـ يـرـخـيـ لـجـامـ فـرـسـهـ،ـ مـطـلـقـاـ صـيـحةـ جـعلـتـهاـ تـسـرـعـ كـسـهـمـ بـيـنـ الـأـجـسـادـ الـمـتـدـافـعـةـ،ـ وـرـمـحـهـ يـسـبـقـهـ لـلـنـيـلـ مـنـ رـجـالـ بـنـفـيـنـتوـ.ـ خـطـطـهـ تـسـيـرـ كـمـ أـرـادـ،ـ قـسـمـ قـوـاتـهـ إـلـىـ فـرـقـتـيـنـ،ـ يـقـودـهـ إـحـدـاهـمـ مـخـتـرـقاـ مـيـسـرـةـ جـيشـ بـنـفـيـنـتوـ،ـ بـيـنـمـاـ الـأـخـرـىـ تـدـوـرـ حـولـ تـلـ الـحـصـنـ وـتـنـقـضـ عـلـىـ الـمـيـمـنـةـ،ـ إـعـصـارـ مـنـ خـيلـ وـنـارـ مـرـيـدـةـ بـالـخـيـاـمـ..ـ وـفـوـقـ أـسـوـرـ الـحـصـنـ اـتـسـعـتـ عـيـونـ الـحـاضـرـينـ،ـ فـقـدـ جـاءـ المـدـ أـخـيـرـاـ بـعـدـ الـمـغـيـبـ.

بين الفوضى السيف والصيحات، كان حملة الرايات ينفذون أوامر أديلكي، فاتخذ المشاة وضعـاـ دـفـاعـيـاـ،ـ رـافـعـينـ دـرـوعـهـ لـأـعـلـىـ،ـ يـتوـسـطـهـمـ الدـوقـ الـذـيـ حـثـ مـاـ تـبـقـىـ مـنـ خـيـالـتـهـ عـلـىـ التـقـدـمـ مـنـ الـجـانـبـيـنـ،ـ لـلـتـصـدـيـ لـلـهـجـومـ الـجـارـفـ.ـ سـقطـتـ الـرـاـيـاتـ وـدـهـسـتـهـ سـنـابـكـ الـخـيلـ،ـ وـكـانـ خـنـزـيرـ بـنـفـيـنـتوـ الـبـرـيـ اـعـتـادـ أـنـ يـصـرـعـ.ـ هـرـبـ الـمـرـتـزـقـةـ أـوـلـاـ أـمـامـ عـيـنـيـهـ الـفـانـضـتـيـنـ بـالـغـلـ وـالـاحـتـقـارـ لـوـضـاعـتـهـمـ.ـ رـأـيـ وـجـوهـ رـجـالـهـ مـكـسـيـةـ بـخـوفـ مـنـبـعـهـ الـقـلـوبـ،ـ فـأـشـارـ لـقـادـتـهـ بـالـإـسـحـابـ،ـ فـدـوـىـ بـوـقـ الـفـرـجـ،ـ لـيـرـكـضـ مـنـ بـقـيـ حـيـاـ إـلـىـ الـغـيـاضـ الـكـثـيـفـةـ.

أصعب المعارك هي التي تخوضها ضد أنفسنا. نفعل أي شيء من أجل الحياة وما نشتري، وتبقى الآثام أيسـرـ الـطـرـقـ لـنـمـنـحـ أـنـفـسـنـاـ ماـ تـطـمـحـ،ـ بـمـجـرـدـ أـنـ نـجـتـرـىـ عـلـيـهـاـ لـلـمـرـةـ الـأـوـلـىـ.ـ الشـعـورـ بـالـذـنـبـ أـوـ اللـوـمـ لـمـ يـعـدـ يـجـدـيـ نـفـعـاـ تـحـتـ وـطـأـةـ الـحـصـارـ.ـ كـلـ مـاـ يـرـيدـهـ هـوـ الـحرـيةـ..ـ أـنـ تـفـتـحـ أـبـوـابـ الـحـصـنـ لـيـخـرـجـ وـلـاـ يـعـودـ،ـ فـقـدـ اـكـتـفـيـ مـنـ كـلـ ذـلـكـ.ـ لـمـ يـصـدـقـ صـيـاحـ الـجـنـدـ،ـ حـتـىـ صـعـدـ إـلـىـ السـوـرـ لـيـجـدـ كـلـ شـيـءـ حـقـيقـيـاـ،ـ وـسـلـطـانـ بـارـيـ أـنـهـيـ الـحـصـارـ بـمـعـرـكـةـ وـاحـدـةـ.ـ تـأـخـرـ كـثـيـرـاـ،ـ وـلـكـنـهـ قـدـمـ بـالـنـهاـيـةـ حـامـلـاـ الـفـخرـ.ـ اـضـطـرـبـتـ مـشـاعـرـهـ،ـ وـتـأـرـجـحـتـ بـيـنـ الـفـرـحةـ وـالـخـوـفـ.ـ اـنـدـسـ بـيـنـ حـشـودـ الـجـنـدـ وـالـنـاسـ،ـ لـيـرـىـ الـمـرـةـ الـأـوـلـىـ التـيـ تـفـتـحـ فـيـهاـ الـبـوـاـبـةـ مـنـذـ مـاـ يـقـرـبـ الشـهـرـيـنـ.ـ مـجـمـوعـةـ خـيـولـ قـوـيـةـ اـنـدـفـعـتـ لـتـجـوـبـ جـنـبـاتـ الـحـصـنـ،ـ وـمـنـ خـلفـهـاـ دـخـلـ سـوـدـانـ يـمـتـطـيـ فـرـسـهـ الـبـيـضـاءـ فـيـ درـعـهـاـ الـجـدـيدـ.ـ اـسـتـقـبـلـ بـهـتـافـاتـ النـصـرـ وـالـتـكـبـيرـ،ـ وـتـرـكـ رـجـالـهـ يـفـرـحـونـ بـحـصـادـ غـائـمـ جـيشـ بـنـفـيـنـتوـ الـهـارـبـ..ـ

وـبـيـنـ الضـجـيجـ وـالـفـرـحـ،ـ كـانـ مـارـكـوـ يـتـطـلـعـ إـلـىـ سـوـدـانـ.ـ غـرـيـبـةـ هـيـ تـصـارـيـفـ الـقـدـرـ.ـ لـوـ كـانـتـ فـيـوـلاـ قـتـلتـ الـأـمـيـرـ،ـ لـمـ جـاءـ أـحـدـ لـنـجـدـهـمـ.ـ ذـكـرـيـ فـيـوـلاـ جـعلـتـهـ يـرـجـفـ.ـ دـارـ بـعـيـنـيـهـ باـحـثـاـ عـنـ شـخـصـ مـاـ،ـ وـحـينـ

النقت عيناهما، تعمد أن يراه السلطان مبتسمًا، قبل أن ينسأ من بين الحشود عائداً إلى منزله. وقف لبرهه يُحدق بجدار الغرفة، التي أخذت تضيق عليه أكثر فأكثر. وكان كل الحلول والأفكار رحلت من رأسه، لم تبق سوى ذكري ذلك اليوم الذي ذهب فيه للمدينة، وكان سَوْدان يجتمع بقصورة، حين رأها تقف مع صاحب الشرطة، وحين وقعت عيناهما عليه لثمت قلبة على شفاه شرحبيل، في رسالة واضحة المغزى. بعدها أتت إلى مكمنه لتُقايده، حياة مقابل حياة، ودماء مقابل دماء. امتلكت من السلطة ما يكفي لقطع رأسه، ولكنها لن تفعل مقابل أن يقتل من أجلها، كما ستفعل هي من أجله: أقتل قصورة، وسأمنحك انتقامتك يا ماركو!

في صباح اليوم التالي، سار المُنادون يُبلغون الناس بأمر الأمير بحزم أمتعتهم للرحيل إلى باري، فلن يبقى في الحصن إلا الجندي ومن أراد التطوع للقتال فقط. سَوْدان ذهب إلى بيت قصورة يصطحبهم بنفسه، فسألته إداهن عن زوجها مستريبة، فدعا الله جهراً أن يكون بخير هو ومن معه. زوجات قصورة لسن إلا كثيارات ينتظرن عودة أزواجهن، وهذا هو ذا الشتاء يُوشك على النهاية، ولم يعد قصورة وجيشه بعد، ولم يأت عنه خبر. خرج إلى ساحة الحصن، ليتابع ما وزع من مهام، فلم يجد ماركو يقف أمام منزله، فاتجه نحوه. كان يُوليه ظهره حين حدثه:

- هل تملك دابة تنقل بها بضاعتك إلى باري؟

انتقض الولد، وقد فاجأه صوت سَوْدان. خفض رأسه:

- إنه لكرم بالغ سيدى السلطان.. ولكن لا بضاعة لدى الآن، فقد قُمت بتوزيعها على أهل الحصن، حين اشتد الحصار والبرد.

ابتسم له سَوْدان، في ودّ لم يره منه من قبل..

- أرى أخلاق شعيب فيك.

اعتصر ماركو قبضته، وكظم ما جاش به صدره. كيف له أن يكون مثل شعيب، وهو خائن لشعيب. كيف له أن يكون دمثاً وهو قاتل؟ ليته رحل حين حانت له الفرصة. لا يدرى أصار يبغض تلك المرأة، أم ما زال حبها جاثماً فوق صدره. مشاعره متضاربة، والواقع صار أعقد من أن يرحم عقله. منذ صادف ذلك الشيطان المدعو إلیساندرو، انبسط أمامه طريق جهنم.

استدار سَوْدان ليمضي في طريقه، فناداه بلهفةٍ:

- سيدى، لا أريد العودة إلى باري.

قفز الأمير إلى فرسه قائلًا:

- لا أظن أنك تستطيع القتال!

- بل أستطيع الرمي.. لقد تدربيت كثيراً في الآونة الأخيرة.

سكت سَوْدان يُفك لبرهه، قبل أن يقول له بابتسامةٍ مشجعةٍ:

- أفعل ما يحلو لك. ولكن عليك أن تعلم بأن الحرب لم تنته، وسيكون هنا بأسٌ حقيقيٌّ، طالما ظلل هذا الحصن قائماً، وعليكم الصمود، عسى صاحب الحصن يعود، فيقوى شوكتكم. لا نعلم ما تُخفي الأيام

لنا.

- هل هناك أخبار عن الأمير قسورة؟
كاد صوته يرتعش، لو لا أنه الأمير المحارب. رد بقوه:

- حتماً سيعود.. لا شيء سيُوقفه عن العودة.. هذا صاحبي وأعرفه جيداً.

ابتسامةً باهتةً ارتسمت على شفتي ماركو، الذي تابع سَودان وهو يلکز فرسته لترحل عن الساحة. كان يصارع وسواساً بداخله. سيرحل حالما تنتهي الحرب، ويتوجه إلى روما ليبدأ حياة جديدةً هناك. كان قد تيقن أن عليه فعل ذلك. إن السلطان لا يعرف بأمر أي شيء شارك فيه، ولن يعرف قسورة بالأمر أيضاً، وعليه لا يتعرّض في ظلمات الذكرى، وكل من يعرف بأمر ما حدث قد دفن.

في كوخ صغير، ينفك دخان أبيض من مدخنة سوداء، يحيط به سياج يمنع بعض عذات من الخروج إلى غياب الغابة، كان العجوز مقرضاً، والصغيرة بين ذراعيه، لا تكف عن البكاء منذ الليلة الماضية. غرس الجوع مخالفه بأحشائها، وهو قد طاف بها على قدميه بحثاً عن شيء يُؤكل أو يُشرب، فحسانه مات منذ أسبوع. أهل القرى يستقبلونه بتوجس وريبة، ولكن الشفقة غلت قلب إحدى القرويات، فصاحت بجرأة في وجه زوجها، وأخذت ماريأ فأرضعتها حتى شبت، لكن أهل القرية أجبروه بعدها على الرحيل. رحل يجر قدميه، ويربت ظهر الرضيعة النائمة على كتفه، حتى وجد ذلك الكوخ، فوقف أمام السياج يتطلع إليه والثتج الخيف يتطاير من حوله، واليأس من أن يترافق بهما ساكنه يأكل قلبه.

هل صفح عنه الرب، أم هي بركة ماريا الصغيرة الطاهرة؟ لقد فتح الباب دون أن يطرقه، لتخرج منه عجوز تحمل جرة لا تناسب مع حجم جسدها، بكت الصغيرة في هذه اللحظة، فتوقفت العجوز والتقت ناحيتها، وأخذت عيناهَا تتفحصانه.

داخل الكوخ جلس لورينزو يتابع المرأة التي تعرف له الحساء الساخن. خوفها على الرضيعة الجميلة هو ما منحه الدفء والمأوى. وضعـت الطبق أمامه، وأخذـت الطفلة منه لترضعـها حليب الماعز. نام كالميـت من شدة الإـلـهـاق، تارـكا حـفـيـدـته لـصـاحـبـةـ الكـوـخـ، حتـىـ استـيقـظـ علىـ يـدـ العـذـراءـ توـقـظـهـ، ليـجدـ أنـ النـيـرانـ التـهـمـتـ كلـ ماـ بنـاهـ، وـسانـ فيـليـ تـحرـقـ، وـصـرـخـاتـ زـوـجـتـهـ إـيلـيـناـ وـهـيـ تـهـرـولـ، وـكـاتـريـنـاـ تـأـكـلـهاـ، وـيـقـزـ منـ النـافـذـةـ المشـتعلـةـ. رـأـيـ رـجـالـهـ صـرـعـىـ، وـخـيـلـ تـرـكـضـ مشـتعلـةـ فـزـعـةـ، وـالـصـراـخـ يـمـلـ سـانـ فيـليـ.

فتح عينيه على وجه صاحبة الكوخ، وهي تهزه بيدها بقوه..

- لقد كنت تهذي وتصرخ. أهم السراسنة من حرقوا قريتك؟
اكفر وجهه، واختلطت كلماته ببكائه..

- لا، لم يكن السراسنة من فعلوها..

هددت الصغيرة تعيدها للنوم، وسألته:

- أنتمي لعائلتك، أم أنقذتها؟

- اسمها ماريا، حفيدي، وكل ما تبقى لي بهذه الدنيا. لن نطيل عليك مكوثنا يا سيدتي، فأنا أنوي بلوغ روما بها قبل أن تترافق التلوج بالطرقات.

- يمكنك المكوث هنا حتى ينقضي الشتاء. كما ترى، الكوخ واسع، أنا وحدي فيه، ليس معى سوى بعض عنزات وحقلٍ الصغير خلف الكوخ.

- إنه لطفٌ منك أن تؤوي غريبًا لا تعرفين اسمه.
ابتسمت..

- أوصى المسيح بضيافة الغرباء.. ولعله هو من قادك إلى هنا لحكمةٍ ما.. امكث، فالصغيرة تحتاج للدفء والرعاية.. نحن بعيدون عن طريق الجيوش وأرض النزال. الجنوب مستعرٌ، ومدن السراسنة تتهاوى، وفلول الجيوش تقتل، ومن الخطأ أن تسير وحدك في تلك الأحاء.

كانت صاحبة المنزل تُطيب خاطره بقلبِ مؤمن، جعله ينظر في قلبه بندم وحزن. لقد خسرت البنت ثم الولد، ثم العشيرة والأملاك.. لم يبق له سوى حفيدةٍ جميلةٍ واهنةٍ، لا يعلم إن كانَ الرب سيُنعم عليه بالعمر ليراها تكبر أمامة. يد الحزن الشرير تخترق صدره وتتلذذ بعصر قلبه، ولكن وجه العذراء ينتشله ويُهون عليه الألم، فقد جاءته يوم ميلاد ابنته وجاءته توقيته يوم الحريق، والآن لا تفارق ذهنه هي وابنته ماريا. فكر كثيراً في الذهاب إلى باري بدلاً من روما، فربما هي الأولى برعاية ماريا الصغيرة. ولكن أخبار الحرب اللعينة تمنعه من كل شيء عدا أن يبقى في هذا الكوخ.

في تلك الأثناء، وعلى بعد مئات الأميال، كانت باري تستقبل الغيوم الرمادية الكئيبة. ورغم الحمى، وبرودة الجو، إلا أنها نهضت من فراشها حين أخبروها بعودته من الحصن الغربي منتصراً. قبلت جبين رضيعها، ثم دثرتة بالفراش، وتطلعت بوجه رملة مبتسمة في وهن، قبل أن تتجه صوب الباب وهي تعدل وضع حجابها. هرولت إحدى الفتيات نحوها قائلةً:

- مولاتي، لا تخرجني، فالبرد قارس، وأنت محمومة!

- أريد رؤية سودان.

رمقت رملة الفتاة، ففتحت جانبًا، فوضعت رملة على كتفي ماريا عباءةً من فراء. ربّت رملة عليها وقالت:

- لا تبكي بالخارج كثيراً!

- شكرًا لك رملة.. شكرًا على كل شيء. سأراه فقط، وأعود.. ألم تأتي؟
نظرت إليها رملة في إشفاق، ثم ابتسمت لها وقالت:

- هيا يا ماريا، أدركني رجلك قبل أن يشغل!

ابتسمت لها ماريا ممتنةً، واتجهت إلى الباب، ففتحته الجارية، فلفح الصقيع جسدها المحموم. بخطواتٍ مرتجلةٍ بطيئةٍ سارت عبر الحديقة تتكئ على ذراع جاريتها، فتابعتها أصواتُ الجند، والهواة يتلاعب براية باري فوق البرج الكبير، وهي تتجه إلى الساحة، حين رأها الأغلبي، فهمس بأذن صاحبها. انتفض سودان واستدار، ليجدّها تعبر حديقة الحصن الجرداء، فنزل الدرج بوثباتٍ سريعةٍ، حتى صار أمامها..

- ماريا! ما الذي جعلك تنهضين من الفراش؟ أنت تحتاجين للراحة!

غبلها الإعياء، وخانتها ساقاها، فكادت أن تسقط، لو لا أن أدركها. كانت سعيدة، ثغرها انفرج ببسملة. بخفوتٍ قالت:

- كان لا بد أن أراك قبل أن تنشغل.

- مجنونة أنت.

- لقد كان كل شيء يستحق المجازفة والجنون، والموت أيضاً.

- ماذا الذي تقولين؟! اشتدت عليك الحمى حتماً، سأحملك إلى غرفتك، وإياك أن تغادرها ثانية.

- دعني إلى جوارك يا سودان!

أتبعـت كلماتها الخافتـة بشهـقـة آلمـتهـ، فـانتـفـضـتـ مـحملـقاـ في وجـهـهاـ الشـاحـبـ وهي تستـطـرـدـ بصـعـوبـةـ:

- عـرفـتـ السـعادـةـ بـهـذـاـ القـصـرـ.ـ أـحـبـكـ يـاـ سـوـدـانـ وـلـطـالـمـاـ فـعـلـتـ..ـ اـبـنـاـ سـيـحـكـيـ قـصـتناـ دـوـمـاـ.

- سـتـقـصـيـهاـ عـلـىـ مـسـامـعـهـ كـلـ يـوـمـ حـتـىـ يـنـامـ،ـ وـسـيـكـبـرـ عـلـىـ عـيـنـكـ..ـ

ارتـسـمـتـ عـلـىـ وجـهـهاـ جـديـةـ لـمـ يـعـتـدـهاـ عـلـيـهاـ..ـ

- سـامـحـنـيـ إـنـ خـذـلـتـكـ يـوـمـاـ..ـ أـنـاـ لـمـ أـسـامـحـ نـفـسـيـ مـنـذـ ذـلـكـ الـيـوـمـ،ـ حـتـىـ بـعـدـ أـنـ جـنـتـكـ.ـ لـقـدـ كـنـتـ...ـ

قاطـعـهاـ سـوـدـانـ :

- عـلـيـنـاـ العـوـدـةـ لـلـدـاخـلـ،ـ بـعـيـداـ عـنـ هـذـاـ الصـقـيعـ.ـ هـيـاـ تـعـافـيـ بـسـرـعـةـ يـاـ مـارـياـ،ـ فـهـنـاكـ الكـثـيرـ مـنـ القـصـصـ وـالـأـحـلـامـ أـنـتـظـرـ أـنـ سـمـعـهـاـ مـنـكـ..ـ

تشـبـيـثـ بـذـرـاعـهـ:

- أـنـتـ الـحـلـمـ وـالـوـاقـعـ يـاـ سـوـدـانـ.ـ أـنـتـ الدـرـعـ التـيـ تـحـمـيـ الـآـلـافـ مـنـ النـاسـ.ـ سـيـحـكـونـ الكـثـيرـ مـنـ القـصـصـ وـالـبـطـوـلـاتـ عـنـكـ،ـ وـلـكـنـ سـتـبـقـيـ أـنـشـوـدـتـيـ وـحـدـيـ.

تـبـيـسـتـ عـلـىـ وجـهـهاـ اـبـسـامـةـ شـاحـبـةـ،ـ وـارـتـخـتـ جـفـونـهاـ الذـابـلـةـ بـعـارـتـهاـ هـذـهـ.ـ حـدـقـ فـيـهاـ كـثـيرـاـ،ـ قـبـلـ

أـنـ يـهـمـسـ بـاسـمـهـاـ مـرـةـ..ـ اـثـنـيـنـ..ـ ثـلـاثـاـ..ـ وـلـمـ تـجـبـهـ!

الغيمُ، والليلُ، والرُّبُّ، وموتُ النقاع.. وصمتت ساحةُ الأحزانِ، والسماءُ تبكي شذراتٍ من ثلج بيضاءً كقلب ماريا. حملها بين ذراعيه، ولم يستحي من دمعه.. أراد أن يصرخ وأن يسمع العالم وجع قلبه. أخذ يحدثها..

- إنها تُثلج يا ماريا، كيوم مجيئك إلى باري..

اختلطت الصورُ في ذهنه.. أبو المغوار وهو يبتسم له ويقول له: أحبب من شئت فإنك مفارقته.. سودان الصغير في ليلةٍ شبّيهٍ يجلس على سور النافذة يُشاهد هطول المطر في صمتٍ وقد ماتت أمّه.. عبد الله بن الأغلبي مُسجى في فراشه.. أبو المغوار على السفينة راحلا بلا رجعة.. ماريا.. ماريا.. كل المشاهد صارت ماريا، حتى ليكاد يرى روحها تطل عليه من السماء.

يده المرتجفة أزاحت خصلات شعرها جانبًا، يهدّدها بين ذراعيه باكيًا، نشيج ونحيب وألمٌ يغزو صدور الحاضرين، دمعٌ دافئٌ انساب من أعينهم أنهارًا.. يُباغتنا الفراق دومًا، وحين ندرك أن لا عودة للذى فارق نحترق. يكتوي الوجدان ويستعر الفؤاد، وعندما نعي أنه لم يعد بالإمكان أن يُجمع بيننا بعد الآن نهزم، ينتصر الحزن ويتملك من جوارحنا. تتاجج النيران بداخلنا تحيل القلب إلى رمادٍ، نعلم جيدًا أن البكاء لا يُداوي جرحًا ولا يُحيي ميتًا، ولكننا نبكي... لأن الوجع أقوى من قدرتنا على التحمل... تمنى أنها لم تأت يومًا للمدينة، لعل الموت لم يكن ليمر بها، لو بقيت في سان فيلي ما مات بين ذراعيه... كانت دومًا الأمل حين انقطع الأمل... كانت حبيبته... كانت ماريا.

عنفت رملة ولديها ليتوقفا عن الضجيج. لم تكن هذه عادتها أبداً، نادتها وربت عليها معذرةً، وشرحـت لهاـما بقدر ما تستوعـب طفولـتهاـماـ أنـ السـلطـانـ ماـ زـالـ فـيـ حـدـادـهـ، وـعـلـيـهـماـ اـحـتـرـامـ حـزـنـهـ. أمرـتـ المـرـبـيـ أنـ يـشـغـلـهـماـ بـدـرـوـسـ الـكـتـابـةـ وـالـخـطـ، ثـمـ تـرـكـتـهـماـ إـلـىـ غـرـفـتهاـ لـتـتـفـقـدـ الرـضـيـعـ النـائـمـ فيـ فـرـاشـهـ. لمـ يـفـارـقـ مـضـعـهـ مـذـ وـفـاةـ أـمـهـ. فـيـ اللـيـلـةـ الـأـوـلـىـ، وـبـعـدـ أـنـ دـفـنـتـ، عـادـ سـوـدـانـ إـلـىـ غـرـفـةـ مـارـياـ، وـأـوـىـ إـلـىـ فـرـاشـهـاـ مـحـتـضـنـاـ الصـغـيرـ، وـظـلـ يـنـهـنـهـ حـتـىـ بـعـدـ أـنـ غـلـبـهـ النـوـمـ. كـانـ أـكـثـرـ أـهـلـ الـأـرـضـ حـزـنـاـ. مـرـ عـلـىـ وـفـاتـهـاـ شـهـرـ، صـارـ فـيـهـ أـكـثـرـ صـمـتاـ، لـكـنـهـ يـشـارـكـ فـيـ كـلـ الـمـعـارـكـ بـيـنـ الـخـلـيـجـ وـالـمـرـفـأـ، وـلـمـ يـدـعـ قـدـمـ عـدـوـ تـطـأـ أـرـضـ بـارـيـ إـلـاـ وـقـطـعـهـاـ. بـعـدـ صـلـاـةـ الـعـشـاءـ، كـلـ يـوـمـ يـزـورـ قـبـرـهـاـ، فـيـبـكـيـ، تـظـلهـ غـيـومـ رـمـاديـةـ كـثـيـرـةـ لـمـ تـفـارـقـ سـمـاءـ بـارـيـ، تـذـرـفـ مـعـهـ قـطـرـاتـهـاـ، لـتـغـسـلـ عـنـ قـلـبـهـ الـحـزـنـ وـعـنـ دـرـعـهـ الدـمـاءـ. يـسـنـدـ ظـهـرـهـ إـلـىـ شـجـرـةـ لـوـزـ تـظـلـلـ الـقـبـرـ، وـإـنـ تـرـعـتـ أـغـصـانـهـاـ، وـيـرـبـتـ بـيـدـهـ عـلـىـ لـحـدـهـ، يـقـضـيـ دـقـائقـ يـلـصـقـهـ بـقـلـبـهـ.

حاولـتـ رـمـلـةـ أـنـ تـحـيـطـهـ بـدـفـهـاـ، لـعـلـهـ تـعـوـضـهـ عـمـنـ فـقـدـ، وـلـكـنـهـ فـشـلتـ. لمـ تـجـدـ سـوـىـ رـعـاـيـتـهـ الـفـانـةـ لـابـنـهـ الرـضـيـعـ موـاسـاـ لـهـ. صـارـ موـعـدـ مـخـاصـهـ بـيـنـ يـوـمـ وـآـخـرـ، وـرـاحـ عـقـلـهـ يـرـأـوـدـ ذـلـكـ الـوـسـوـاسـ أـنـ يـصـبـحـ مـصـيرـهـ كـمـارـياـ، وـتـرـكـ أـطـفالـهـ الـثـلـاثـ. تـحـسـسـ بـطـنـهـاـ الـمـنـفـخـ مـتـمـتـمـةـ:

- لا أـدـريـ إـنـ كـنـتـ صـبـيـاـ أـوـ جـارـيـةـ، وـلـكـنـ أـعـلـمـ أـنـيـ أـحـبـكـ، وـأـنـ أـبـاكـ لـنـ يـتـخـلـيـ عـنـ وـجـودـكـ أـنـتـ وـإـخـوـتـكـ مـهـماـ حدـثـ.

...

فوق البوابة الرئيسية للمدينة، كان الأغلبي يقف بين زمرة رجاله، يُنهي حديثه معهم، ليتوجه كل منهم إلى ما وكل به. أما هو، فقد استند بكلتي يديه على حافة سور، متطلعاً إلى الحقول الممتدة، وقد أهل الربيع عليها بكساء أخضر. لم يُهمل أهل باري أراضيهم، رغم الحصار البحري. يخرج أغلب الرجال للحرب، ولكن بقائهم، ومعهم النساء يرعنون الحقول بين المدينة والحصن الغربي، الذي تخلص من الحصار. عقد حاجبيه وهو يُحدِّق بشيءٍ ما. لم تُوقِّد الشعلة الكبيرة منذ عاد سودان برجاله من الحصن. تجَّمَّد مكانه، بينما يتهدافت الرجال لحافة السور، ليُشاهدو ما يحدث، ثم بدأت مهماتُ، ثم أتبعتها الضحكات، وصاروا يُلوّحون للقادمين من بين الأشجار، يتقدمهم الفحل الأسود ذو السرج الأرقط.

في كل مرةٍ تكتب لنا النجا، نعرف أن شيئاً جديداً ينتظرنَا في الأيام المُقبلة، مدَّت أعمارنا لنكونَ من يقوم به. هكذا كان يُفكِّر قسورة، حين دخل المدينة المبهجة لعودته. التهليل عمَّ المدينة، والفرحة خرجت على استحياءها الطويل، مع عودة فرسان الكتبية لمنازلهم. أما قسورة، فتوجَّه إلى القصبة، وقابلَه الأغلبي عند بوابتها، فعانقه مكبراً، وبقيمة القادة. أخبره الأغلبي بانتقالِ أسرته إلى باري بأمر سودان، لكنَّ كان عليه أولاً أن يحكي للسلطان أنباء رحلته.

- ثلاثة أشهر قضيناها في معارك لا تتوقف، ضد قوات الملك الكارولنجي، وبين الكر والفر كانت لنا الغلبة. استطاع حشد المزيد من المرتزقة من شتى أنحاء أوروبا، فلم يكن من سبيل للنصر التام أمام جيش يتضخم أكثر في كل يوم، فاخترت بعد مشورة الرجال أن نخلي القرى الواقعة على طريق الحرب، حتى نُجنب الناس الهلاك مع تقدُّم جيش الإفرنج. خرج الركب من سفيناؤ ولا متوجهًا إلى أعماق كالابيرا، بغالٍ وخيوٍّ تحمل متعال الراحلين عن ديارهم، يطمئنُهم الرجال، ولكن قلوبهم كانت معلقة بمنازلهم، يرجون العودة يوماً. وبعد أن تم الإخلاص، أقمنا المثاريس، وتربصنا بجيشه الإمبراطور على الطريق المؤدي للجنوب. لم يأت، فأرسلنا الكشافة، الذين عادوا ليُخبرونا أنَّ جيش الإفرنج اتخذ طريقةً آخر، فعرفت أنه لا يريد كسب المزيد من القرى والمدن، بل إن هدفه القلب.. كان يريد باري.

سرت مهماتُ في القاعة الكبرى، وبدا الوجوم على وجه سودان، الذي سأله بصوتٍ مرتفعٍ:

- كم بقي معك من الرجال؟

- ألف فارس، وثلاثة آلاف من المشاة، هم من تبقى من جيشِ كان قوامه سبعة آلاف رجل.

ساد الصمت لبرهةٍ، قبل أن يسأل سودان:

- وهم.. كم عددهم؟ ومن قائدتهم؟!

بدا الحنقُ في وجه قسورة، بينما يقول:

- أربعون ألفاً، يزيدون أو ينقصون قليلاً، وعلى مقدمتهم إمبراطورهم المقدس لويس الثاني. الأسرى أخبرونا أنه يقود حلفاً مع البيزنطيين الجاثمين بالبحر أمام باري. علينا حشد الجنوب، والإسراع في طلب العون من الأغالبة وإقريطش.

زفر سودان تعبه، وقال بنبرةٍ باردةٍ..

- لقد مات مسلمة في حصار برنديزي، والآن قيس يحاول المقاومة.. الأغالبة يجهزون حملتهم إلى روما، والتي كان من المفترض أن نلحق بها.. وسفن إفريقيا لم تأت بعد. كان من الخطأ الاعتماد على إسرايا فقط في الصيف الماضي.. لقد أخطأ في تقدير الأمور، حين حسبت أن راحة الرجال فرصةً جيدةً لشق طريقنا إلى روما مع الأغالبة، ولكن حدث ما حدث.

طلع الرجال لوجه سودان، الذي سار بينهم مستطرداً:

- كم يبتعدون عن باري؟

- خمسة أيام عن الحصن الغربي.

قالها قسورة وهو ينظر بعينيه سودان، الذي وجه حديثه لقادته:

- والآن، الأمر شوري بيننا.. ربما يبدو أن لا خيار سوى المواجهة هنا، أو في السهل الممتد بين الحصن والمدينة.. ولكنني أقترح أن نتخلص من البيزنطيين أولاً..

تبادلوا النظارات دون أن يبادر أحدهم بالحديث. تعلقت العيون بسودان في صمتٍ لم يدم طويلاً، قطعه الأغليبي بصوته الأخش:

- الرجال جاهزون منذ فترة، وينتظرون إشعال المصابيح بالبحر.

أشار سودان له بأن يكمل حديثه. وقف الأغليبي يواجه الرجال، وأخذ في شرح خطة الحرب، ثم انتظر لبرهة، ونظر إلى سودان، الذي قال:

- لم يعرض أحدٌ على بركة الله إذن.

مضى سودان إلى خارج القصر، تاركاً الرجال يتناقشون فيما بينهم. وقف عند حافة البركة، التي لطالما أحبتها ماريا، ينظر إلى أول زهرة تفتح حولها منذ رحلت من كانت ترعاها. خرير الماء يُضفي صفاء على المكان ذكره بصفاء صاحبته. كان شارداً، حين سمع صوت قسورة الممتنئ بالأسى من خلفه:

- إنما البقاء والدوام لله يا صاحبي. والله إنني حزينٌ لما حلّ بساحتك، اللتو أخبرني الأغليبي، وقد كنت أتساءل عن السبب الذي اغتال الحماس الذي اعتدنا على وجهك. عجيب أمرُ القدر وتصاريفه، ولكن لا مرد لقضاء الله.

أومأ سودان برأسه، وباح لصاحبِه، تفصح نبرته الحزينة مواجهه:

- أفقدها يا قسورة. كانت نسمةً عبرت صحرائي، وما منحتها مني ما تمنت. مال الفقد يُصاحب أيامِي يا قسورة؟!

لم يملك قسورة ردًا على صاحبه، فما اعتاد منه إلا قوة القائد، وفاجأه منه هذا الإنسان المحب الحزين، الذي كان يجب أن يعرف بوجوده ويرعاه من قبل، فهو الصديق الأقرب له، ولكن كم يغفل الصديق عن غياب صديقه، ويكتفي بـاللـا يـرى إـلا كـما يـرى الأـبعـدون. التفت إليه سودان، يرسم ابتسامة باردة على شفتيه..

- هي إرادة الله يا قسورة.. قرباً ستلد رملة، وسأصير أباً لاثنين، وهذا كرم من الله.

ابتسم قسورة، حين شعر بأن صاحبه قد سكنت جواره، فوكزه مازحاً:

- إذا كان صبياً آخر، ستسميها قسورة؛ أليس كذلك؟

- ولربما كانت فتاة.. لقد رأيت في منامي أبي المغوار يحمل رضيعاً جميلةً يُناولها لي..

- أشتق لأبي المغوار.. ترى كيف حاله، وأين حط؟

- جماعنا نشتاق لذلك العجوز، حتى جدران باري وبحرها. يعلم الله أنه لو كان هنا، لتركت له الأمر، وأخذت الجيش واخترقت الجموع، حتى أضع رايتي فوق بوابات رومية..

ربت قسورة على كتف سودان وهو يقول بصوت خافتٍ:

- سنفعلها معًا يا صاحبي..

سكت لحظةً، ثم قال:

- على الذهاب للبيت القديم لرؤيه زوجاتي والصغرى.. سودان لك الشكر الجليل على ما فعلته لأجل أسرتي وعائلات الحصن الغربي. لو كان أحد غيرك ما فعلها.

حمل الرجال الأشداء القوارب جديدة الصنع، المطلية بالأسود، ذات ثلاثة أزواج من المجاديف، والأغليبي يُشرف على مرور آخر قارب، أسفل سقالة تحمل قوساً حجرياً كبيراً من بناء لم يكتمل بعد في ظل الحرب. كان المكان ضيقاً جداً، فتعثر أحد الرجال ليترطم بعمودٍ خشبي، فاختلَّ توازنُ القارب ليضرب العارضة الكبيرة، وقبل أن ينتبه الأغليبي وبقية الرجال، كانت الأحجار تتلهى فوق الرؤوس. ترك الرجال قواربهم، وهرعوا عائدين لتفقد رفاقهم، وقد ثار غبارٌ وجبلةٌ وحصيلة من خمسة مصابين وسادسهم الأغليبي، الذي جرح رأسه وسالت الدماء على وجهه. بلغ سودان الأمر، فأسرع برفقة قسورة إلى المكان. توثر الجندي بعد إصابة قائدتهم، الأغليبي، الذي كان يشعر بحرارةً تحرق جوفه، وقسورة يشير للرجال بحمله مع المصابين إلى القصر، وعلى حافة الشاطئ حل محله سودان، يتبع نقل جرار الزيت إلى القوارب.

فوجئ سودان بعودة الأغليبي وقد ضمد رأسه، فضحك وهو يقول له:

- يا أبي عبد الله، ارفعْ بنفسك، فال مهممة جسيمة، تحتاج عافية.

مر الأغليبي بجانبه متوجهاً إلى القارب:

- أوقفني إن استطعت.. والله لن يُشعِّل القناديل بالبحر سوالي.

فوق البرج الكبير، وقف سودان وقسورة يتطلعان إلى باري، التي أمرت منازلها بإطفاء المشاعل، في ليلة ظلماء، اختفت فيها القوارب السوداء في سواد البحر. طال الترقب، ومراقبة سفن بيمنطة الرابضة في الأفق، والحديث موصولٍ بين الصاحبين عن الأغليبي، والذكريات الطويلة. هل أحُد الجند فرحاً، وتبعه كل من وقف يُراقب حاملاً الر جاء، وتوجهت الليلة الظلماء بقناديل الأغليبي ورجاله.

احتقرت سفن بيزنطة، وشاهدوا الشواني الكبيرة تغرق، ووصل الصراخ إلى أسماع الواقفين على الشاطئ، وأضيئت باري من جديد.

وما زال سودان عاقداً ذراعيه أمام صدره يرقب البحر.. حين توقف الضجيج، مع نداء الخطر..
الحصن الغربي يستغيث! استدار سودان، ليرى منارة الإنذار مشتعلة، ومن بين الظلام الدامس، بدأت آالف المشاعل تظهر رويداً بالافق البعيد.

أخلف الإبل تتهاوى فوق الرمال الناعمة، في قافلة كبيرة شقت طريقها بصحراء قاحلة، وفي مقدمتها تجاور راكبان يتبدلان حديثاً عن أحد المسافرين معهم، ذلك العجوز ذي العين الواحدة، الذي أرهقة هجير القبيظ، وتسلل الإعياط لجسده. أشهر مرّت، ورحلة طويلة قطعها بصحراء محاطة ببحر سراب، يتوسطه مشهد الرحيل وأسوار باري العالية والمئذنة الشامخة تبدو صغيرة عند الأفق، قبل أن يبتلع البحر ذكرياتٍ تخطت ستة عقود من الحرب والقضاء. رحل وترك كل شيء خلفه، حاملاً في نفسه سراً أثقل كاهله. مشقة الرحلة لم تُنتهِ عن إكمالها، فقد آن الوقت المناسب للرحيل، ولم يبق من العمر سوى خريف النهاية، وبقاوه سيُجبره على الميل إلى أحد الجانبين، وكأن الماضي يأبى إلا التكرار.

بعد الظهيرة، توقفت القافلة، وأناخ الغلام الجمل، فترجل أبو المغوار متطلعاً إلى واحة ذات نخيلٍ كثيفٍ وأشجار ملتفة على صخور ضخمة، قابعة عند السفح الرملي. الخيالة ترجلوا يتشارون مع قائد القافلة، وأنزلت الهوادج عن ظهور الأبغرة، وأخبره أحدهم:

- سنُخيم هنا للراحة، وبعدنا نُكمل رحلتنا.

وأشار أبو المغوار نحو الواحة القريبة:

- أليس من الأفضل أن نُخيم هناك؟

- أنت بعيد جدًا عن ديارك يا رفيق الدرب، وأظننك تجهل الكثير من أمور الصحراء. منذ أن خرجنا من الفسطاط لم تتحدث كثيراً، هيئتك وملابسك يُوحيان لي أنك من سادة القوم، ويبدو أنك من ثغر ما يُطل على بلاد الروم، لم تتحدث طوال الطريق مع أحدٍ سوى سائق دابتكم، الذي أخبرني أنك وعدته بأن تمنحك ثمن ناقةٍ حين تصل إلى مكة.. وما المقابل من ذلك، لماذا تركت رحل البساطة بدلاً من البحر.

ابتسم أبو المغوار بهدوءٍ وصوته الرخيم يخترق أذن الرجل:

- لم تُجبني عما سألك..

أثار هدوؤه حنق صاحب القافلة، فردَّ بتأففٍ:

- تلك مأسدةٌ، من الخط الاقتراب منها. سُبْت هنا، وستبعد النيران السّبّاع عن مخيمنا.. الخيالة والصقارون وحدهم من سيدّهبون للصيد وملء القرب.

التفت لينصرف عنه، فقال أبو المغوار:

- جُزِيتْ خَيْرًا.. أَرَأَيْتَ أَن إِجَابَةَ السَّائِلِ خَيْرٌ مِنَ الْخُوضِ فِي حَدِيثٍ لَا نَفْعَ مِنْهُ.. مِنْ حِثْ جَئْتَ، يُوقَرُ النَّاسُ شِيخًا مَثْلِي.

تلعثم الرجل محرجاً:

- عَفُوا أَيُّهَا الشَّيْخُ.. اعْذُرْ مَا بَدَرَ مِنِّي، وَلَكِنَّ الْفَضْولَ يَنْتَابُ قَلْبِي مِنْذَ رَأَيْتَكَ لِلْمَرَةِ الْأُولَى فِي الْفَسْطَاطِ.. بَحْثُكَ عَنْ قَافْلَةِ حَجَّ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمُبْكِرِ لَا يَقُولُ بِهِ سُوَى الْبِسْطَاءِ، مَنْ لَا يُسْتَطِعُ تَحْمِلُ نَفْقَةَ الْبَحْرِ..

ربت أبو المغوار على كتفه مبتسمًا:

- لَا عَلَيْكَ يَا رَجُلَ، سَأَسْأَمُكَ بِشَرْطٍ.. أَنْ أَذْهَبَ مَعَ الصَّقَارِينَ لِلصَّيْدِ.

أَوْمًا الرَّجُلُ بِرَأْسِهِ ضَاحِكًا:

- عَلَيْكَ أَنْ تُرْيِحَ جَسْدَكَ، فَقَدْ كَانَتْ رَحْلَتَنَا شَاقَةً.

- قَدْ أَبْدَوْتُ شِيخًا، وَلَكِنْ هَلْ رَأَيْتَ قَامَتِي مَحْنِيَّةً؟! لَقَدْ امْتَطَيْتُ ظَهُورَ الْخَيْلِ أَكْثَرَ مَا وَطَنَتِ الْأَرْضَ.

تعجبُ الْخِيَالَةُ مِنْ عَجُوزٍ يَمْتَطِي جَوَادًا يَقْفُ عَلَى قَانْمَتِيَ الْخَلْفَيْتَيْنِ، يَصْهَلُ ثُمَّ يَعْدُو فَوْقَ الرَّمَالِ النَّاعِمَةِ، خَطْوَاتِهِ تُثْبِرُ الْأَرْضَ.. كَانَ أَبُو الْمَغَوارَ فَرَحًا بِمَا يَفْعُلُ، كَيْفَ يَمْتَطِي الْخَيْلُ لَأَوْلَ مَرَةِ.. أَطْلَقَ الْعَنَانَ لِيُسْبِقُهُمْ نَحْوَ الْوَادِيِّ، رَغْمَ تَحْذِيرِهِمْ لَهُ بَعْدَ الْاِقْتِرَابِ، وَرَاحُ يَدْنُو مِنَ الْوَاحَةِ، قَبْلَ أَنْ يَنْتَبِهِ لَوْقُ حَوَافِرِ حَصَانِ آخَرَ يَقْتَرَبُ مِنْهُ بِسُرْعَةٍ، وَفَارَسُهُ يَصِيْحُ:

- تَوْقِفٌ يَا سَيِّدِي.. تَوْقِفٌ!

جَذْبُ الْلَّاجَامِ لِيُبَطِّئَ مِنْ سُرْعَةِ الْجَوَادِ، تَوْقِفٌ، فَاقْتَرَبَ مِنْهُ الْفَارَسُ وَهُوَ يَشِيرُ إِلَى الْأَشْجَارِ الْقَرِيبَةِ:

- لَيْسَ عَلَيْنَا الدُّخُولُ إِلَى هَذَا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ.. فَتَلَكَ عَرِيسَةَ سَبَاعٍ.. انْظُرْ هَنَاكَ بَيْنَ الْأَشْجَارِ الْكَثِيفَةِ..

نَظَرَ أَبُو الْمَغَوارَ حِثَّ أَشَارَ إِلَيْهِ الْفَارَسُ، فَمَا رَأَى سُوَى أَغْصَانَ مُتَشَابِكَةَ، وَظَلَالَ كَثِيفَةَ.. أَطْلَقَ الْفَارَسُ صَفِيرًا، فَارْتَفَعَتْ رُؤُوسُ ذَهَبِيَّةٍ مِنْ بَيْنِ الْحَشَائِشِ.. جَحَّذَتْ عَيْنَهُ الْوَحِيدَةَ.. كَانَ يُحْدِقُ فِي زَمْرَةِ مِنَ السَّبَاعِ، تَرْبَضُ عَلَى مَسَافَةِ مِنْهُمَا.. لَبَوَاتٌ ذَهَبِيَّةُ الْفَرَاءِ، لَهَا عَيْنَانِ جَمِيلَةٍ وَحَشِيفَةٍ تَأْسِرُ الْقَلْبَ.. لَمْ يَرِ هَذَا الْجَمَالُ بَيْنَ الْضَّوَارِيِّيِّ مِنْ قَبْلِ.. لَمْ يُصَادِفْ فِي حَيَاتِهِ أَسْدًا حَيَّا، فَقَدْ أَتَى مِنْ بَلَادِ بَعِيْدَةِ، الْأَسْوَدِ فِيهَا كُنْيَةُ الْبَشَرِ.. خَطَرَ مُعْلَمَهُ أَسْدُ بْنُ الْفَرَاتِ فِي بَالِهِ.. وَلَكِنْ مَهْلَأً.. أَينَ كَبِيرُهُمْ؟ جَالَ بَعْينَهُ فِي الْمَكَانِ بِحَثَّا عَنْهُ.. ارْتَطَمَ بَصَرُهُ بِهِ تَحْتَ نَخْلَةَ مَائِلَةَ الْجَذْعِ، يَقْفَ فِي تَحدِّ بَلْبَدَةِ ذَهَبِيَّةِ كَثِيفَةِ، وَعَيْنَيْنِ بِلُونِ شَمْسِ الصَّبِيْحَةِ، وَاسْعَتِيْنِ تُحْدَقَانِ فِيهِ بِتَحدِّ.. وَقَدْ انْتَصَبَتْ أَذْنَاهُ وَبِرْزَتَا مِنْ بَيْنِ شَعْرِهِ الْغَزِيرِ.. كَانَ لِقَلْبِ أَبِي الْمَغَوارِ نَصِيبٌ مِنَ الرَّهْبَةِ فِي تَلَكَ الْلَّاحَةِ.. وَجْهٌ لَوْجَهٌ أَمَامِ لِيَثٍ حَقِيقِيِّ.. أَقْصَى مَا رَأَاهُ مِنَ السَّبَاعِ كَانَتْ ذَنَابَ غَابَاتِ فُوجِيَا قَرْبَ بِنْفِيَنْتُو، وَيُذَكِّرُ أَنَّهُ رَأَى يَوْمًا وَشَقَا مَقْتُولًا بِسُوقِ بِنْفِيَنْتُو.. اِنْتَشَلَهُ الْفَارَسُ مِنْ جَمْوَدَهُ هَامِسًا:

- سَنَكْتَفِي بِصَيْدِ طَيرِ الْحَبَارِ الْيَوْمَ، وَغَدَّا نَرِى أَمْرَ الْمِيَاهِ.. فَلَنْرَحِلَّ الْآنَ.

نَيرَانُ الْمَخِيمِ أَضَاعَتْ تَلَكَ الْبَقْعَةَ مِنَ الصَّحَراءِ، وَنَامَتِ الْقَافْلَةُ إِلَّا مِنْ تَكَفَلُوا بِالْحَرَاسَةِ، وَبَعْضُ

الساهرين تجتمعوا في حلقة حول نيران تدفق أجسادهم. الصقىع تملأ الصحراء في غياب الريح. آلاف النجوم تجتمع بالسماء، منذ بدء الخليقة تضيء دروب السالكين، وشهدت على أخبار السابقين. تُشبه نجوم باري وإن اختلفت الأرض. جلس أبو المغوار بين المتسامرين، الذين يُترثرون عن كل شيء، حتى سأله أحدهم: من أي النواحي أنت؟

- لقد قضيت ثلثي عمرِي بالقرب من رومية. ملكتا تلك الألحاء من البر الطويل، وكان مقامي بإمارة باري، التي لا مثيل لها بين البلدان، ويُسمى بها أهلها بارة. كانت زاد عيني الواحدة، وقد اجتمع الحسن فيها. مدينة قديمة على سيف بحر، تتكسر أمواجه على سورها بديع البناء. في أيام الجزر يظهر بأحد خلجانها كهف يتصل بالقصبة، ومنه دخل الأمير الفاتح خلفون ورجاله، أحببت مئذنة المسجد الجامع المهيءة، وأسوارها المحاطة بنخيل، استجلبه سودان من مصر والقيروان، إن السفن لا تتوقف عن الإياب والذهاب، وقرص الشمس يطفو كل يوم على بحرها، وفي المغيب ترى ظلال حصن قسورة التميمي تتوسط حمرة السماء، بينما في الشتاء تتشبه قمم الأشجار بالجبال البعيدة، وتعطوها ثلوج ناعمة كرمال الصحراء.

طال حديثه عن بارة ونابولي وسايليرنو.. عن جبل فيزوف والتلال الخضراء.. أخبرهم عن بلاد لم يتخيلوا ما بها، وشغور بعيدة، وقلاع مكسوة بثلوج الشتاء.. موانئ طارنت وبلزم ومياه الخلجان الصافية، وأمراء الحرب المراطين هناك. أسهب في وصف الحروب، ويوم فقد عينه عند أسوار رومية العظيمة. كانوا شغوفين بحكاياته، فطالما سمعوا عن قصور صقلية وعظمة رومية،وها هم أولاء الآن يجلسون إلى رجل يُخبرهم عن إخوة يُشاركونهم نفس الدين واللسان بها رغم البعد.. ظلت الحلقة تتسع للساهرين، ثم بدأوا يُبادرلونه الحكاية بحكاية، ذاك يقص عن بغداد، وهذا يتعقى بعزم دمشق. حين شعر بالنعاس، استأنفهم ليُقيم ليله قبل أن يخلد للنوم بقرب النيران. وضع جانبه الأيمن على فرش خشن، وأرخي جفنه، فمررت بعنته وجوه وذكريات، ولكن شيئاً واحداً استقر أمامه ليزيح البقية.. وجّه الليث الذي قابله اليوم.

بعد يوم وليلة من الراحة، حزمت القافلة متاعها من جديد، يُثرثر أفرادها عما دار عند بركة الماء، وكيف أصاب أحد الغلمان أسدًا كبيراً بسهمه. كان أبو المغوار يستمع لحديثهم، فامتنع وعياه ترقبان السهل المنبسط إلى الواجهة. رب قائد راحلته على كتفه، وقام الجمل به ليتحرّك مع الركب. قبل أن يتركوا مكانهم، رجّ الزئير ما بين السماوات والأرض، فتوترت الخيل والإبل، واشتعل لهيب الحرب في الوادي. ثلاثة أسود كبيرة تقاتل بشراسةً أسدًا أكبر منها حجمًا، لبده ذهبية لا يشوبها سواد. رغم جراحه كان صلداً، أسلح دماء ثلاثتهم بضرباته. إعصارٌ من غبار عم المعركة، وضربات الأسد لا ترحم، تنغرس المخالب باللحم، وأنيات تمزق العضل، شهق الشهود عجباً حين استطاع الأسد الكبير أن يعقر أحد مهاجميه، لم يتركه، فإذا بالآخرين يستكينان فجأة، ويختضعن بعد رؤية أصحابهما يُمزق.

سكن كل شيء، وظل الجمع يتبع الأسددين يت shamman صاحبهما، وكأنهما سيتخذانه طعام اليوم. لم يمهلهم قائد القافلة لمعرفة ما سيكون، وصاح بهم لمواصلة الطريق. مضى الركب وما زالت عين أبي المغوار ترسم على السراب أمامه مشاهد المعركة.

.....

يومن من المسير في رحلة تبدو كأن لا نهاية لها، والليث لا يفارق رأس أبي المغوار، حتى صار

شغله الشاغل أن يتمناً بما حدث له. لم يعد يُفكّر بشيء سواه تقريباً، حتى كان ذلك اليوم، حين رأه، يتبع القافلة! أغمض عينه وفتحها، فلا بد أن كثرة تفكيره فيه رسمت له وهم وجوده. لكن خطواته اللوحقة وراءهم أخبرته أنه ليس وهماً، وأكد له صهيول الخيل وتوتر الإبل أن الأسد أتاه حقاً.

كانت خطوات الليث تشي بعظم إصابته. لماذا أتى؟ لعله فتك بمنافسيه، وجاء ساعياً خلف من تسببوا في ذلك! مرة أخرى صهلت الخيل وأسرعت الجمال، وصاحب القافلة يتحدث بلسان من يعلم كل شيء:

- لا تخافوا، واصلوا المسير.. سيرحل ذلك الهر قريباً، إنه فقط يطمئن أننا خارج أراضيه.

ولكن العجوز كان يحمس أن الأمر ليس كذلك. عينا السبع كانتا تحملان شيئاً آخر غير ما يقوله الأعرابي. غربت الشمس، ولم يرحل الليث. بقي جاسماً فوق تل قريب، يتابع تحركهم، وهو يحاولون إلا يُبالوا بوجوده. أشعلت نيران التخييم، وانتشر الرجال للحراسة متآهفين. كان الجميع نياماً حين فرغ العجوز من قيامه. جال ببصره في الصحراء الشاسعة، متعجبًا كيف قطع هذا الأسد كل تلك المسافة! بحث عنه بعينه، ولكنه لم يجده. أوى لفراسته متطلعاً لسماء عامرة بالنجوم حتى غفا. غزته رائحة ثقيلة، وشعر بصدره لا ينفتح للهواء، ففتح عينه لا يعلم كم استغرقت غفوته، ليتفاجأ به يقف فوقه! أضاءت النيران حواف لبدته الذهبية. ارتجف العجوز بينما أخذ الأسد يتطلع إليه غير مهاجم. كان نحيلًا عن ذي قبل، جلد متيسساً وقد انتشرت فيه الجروح وآثار الدم المتجلط. قرب أنفه من لحية أبي المغوار، ثم تهاوى على صدره، وانقض كل شيء!

استيقظ على جلبة، وشمس حارة لم يعتد لها تجلده.

- قم يا شيخ، فصديقك الأسد هنا.

قام من مرقده، غير مستوعب أكان ما رأه حقاً أم حلمًا.. رأى الرجال يتحلقون حول السبع المحضر الذي كان زئيره أشبه بمناجاة، أو ربما كان نعيًا. كالمسحور تقدم منه، فشهق الرجال ونادوه، فلم يستمع. جلس إلى جوار الأسد على ركبتيه، وراح يمشط لبدته الكثيفة بأصابعه. كان يشعر بنبضات جسده الدافيء، وعينا الوحش الواهنتان كشمس توشك على الرحيل. ربت على رأسه محدثاً إياه ينهنه، وقد حط الذهول على الرجال حولهما:

- ها أنت وحيدٌ مثلي تماماً. لا أعرف قصتك، وكيف كانت حياتك. لكنني كنت مهيباً مثلك، محاطاً بجمعٍ يتملقوني مثلك، ورحلت الآن بعيداً عنهم، مثلك تماماً. سأفضي لك يا صديق الروح سرّاً لم يعلمه أحد، ولا يكف عن مطاردتي. كنت في قومي تراافقني روح صديق لي، لا تنفك تذكرني بما افترفت يداي. والله إنني لم أفعل سوى مارأيته الصواب حينها.. لا أجزم الآن أنه كان صواباً، ولكنني فقدت صديقاً أنقذني من الموت مراراً. حاولت بكل السُّبُل أن أنتبه، ولكنه أبى إلا أن يقتل الأمير خلفون، فكان سيفي أسيق إليه. لقد كرهتُ الخيانة، وكرهتُ ما فعلت. بعد موتي صاحبي، كذبت حتى لا يتذكره الناس بالسوء، وصار شهيداً بطلاً، لأنَّه افتدى الأمير. أسطورة أطلقتها بين العامة، الذين كانوا سيهلكون لرواية رأسه إن قلت إنه خائن. شيء ما بداخلي جعلني أحافظ ذكره الطيبة، وكان عليَّ رد جزء مما فعله صاحبي لي. اعتنيت بابنه، وقربته حتى غار الأقرباء. دربته وعلمته وأحاطته بالنصيحة، حتى صار أمير باري.

صمت لبرهةٍ يبتلع دموعه، ثم أكمل وهو يرتجف غضباً:

- الخيانة إبليس اختلاف الرؤى يا صديقي.. المبرر ما أسهله عند الاختلاف، كما خبرت نفسك أيها الليث العظيم. كان الأمر أثقل على روحى التي لم تعد كما أيام خلفون. اخترت الرحيل وترك الأمر

لهم.. فلم أكن أستطيع قتل أحدٍ أحبه ثانيةً. لقد أحببتهم جميعاً، وأعلم أنما تحرّكهم النوايا الصالحة. حكمة سودان، وعزم قسورة، وتأنّي الأغلي.. ثلاثة رجال يستطيعون فعل أي شيء إن اجتمعوا.. حدثت سودان قبل رحيله، وقبلها تكلمت مع قسورة.. لم أودع الأغلي.. وحزين إلى الآن لذلك. لطالما كنت أمني النفس بالموت في باري، أو على أسوار رومية، ولكن لا تدري نفسك بأي أرضٍ تموت. صمت العجوز، في نفس اللحظة التي همدت أنفاسُ الليث، وأغمض كلاهما عينيه، ووجه الرجال!

سقط الحصن الغربي، وتوجهت كل القوات لتقاتل على أسوار باري. إنزال بحري كبير قام به البيزنطيون بغضب اليائس جنوب المدينة، بعد حرق سفنهم. صارت باري محاطة من كل الاتجاهات، ولكن أسوارها ما زالت صامدة، ويُقاوم أهلها بشراسة لا تفني. كانت المرة الأولى التي يراها منذ رحيله عنها، يقف ومن خلفه مئات من الجندي جاء بهم إلى هنا بأمر البابا. حيث ماركيزيو جواده العربي للتقدم، ومن خلفه رجاله رافعين رايات لومبارديا وشعار نبالته، الحمل المجنح. في معركة الحصار، كانت لا تزال هناك معركة قائمة على أسوار المدينة، اشتدت سواعد جنودها بالحماسة حين وصلت الإمدادات بقيادة الدوق. قاد جواده إلى حيث خيمة القيادة، والبوق يعلن وصول شخصية بارزة. خرج إديلكي من خيمته ليرى من القادر، فأخذته الدهشة، وتبادل النظارات مع وزير الملك الكارولنجي وبقية القادة. بعد الترحيب، انضم ماركيزيو إليهم في جولة بالمعسكر، وكانت فرصة ليسلم الوزير رسالة من البابا، فتحتها الرجل وطالعها بعينيه الزرقاويين، ثم منحها لإديلكي قائلًا:

- أرى أن الدوق جاء ليحظى ببعض غائم الحرب..

- لقد كلفت من البابا بتولي شؤون الأسرى والتأكد من سلامتهم.

ضحك الرجال حين ضحك الوزير، بينما يدفع إديلكي بالرسالة لصدر ماركيزيو قائلًا:

- إن كان سبب وجودك الأسرى، فلا أسرى لدينا.. لقد تكفلت جارية رومية بتسميمهم وفتح أبواب الحصن لنا، وتمت مكافأتها على ذلك، وتهريبها إلى روما. اسمع، إن كنت جئت للحرب فيها هي ذي قائمة، وإن كنت جئت للاطمنان على الأسرى من رفاقك الوثبيين، فأنت غير مرحب بك هنا أيها الدوق اللومباردي.

قطع الوزيرُ حديث إديلكي بحزمٍ:

- لا تأخذ كلام إديلكي على محمل الجد سيد ماركيزيو. إننا قد أشرفنا على النهاية هنا، تستطيع أن تنظر إلى ساحة المعركة. كل هذا سيتهي قبل أن يمضي هذا الشتاء. لقد جئت بالمدد في وقت المناسب، فها نحن أولاء نتشاور في موعد للاجتياح الكبير. لقد تركنا أبناءنا في الشمال لأشهر طالت، وفقدنا الكثير من الرجال. الملك أقسم ألا نعود حتى نسترد باري، وسنفعلها.

سرت الهمماتُ بين الرجال، وحاول ماركيزيو الحفاظ على هدوئه وهو يتحدث في وقارٍ:

- ما زالت هناك رسالة على توصيلها إلى داخل باري.. بأمر من البابا.

رمه الوزير بنظره غاضبة، قائلاً وهو يُكمل المسير:

- اذهب.. ها هي ذي المدينة، فادخلها إن استطعت.. ولكن إن أصابتك سهامهم قبل أن تصل، لن يذهب أحد لجلب جثثك.

...

أصبحت باري على غيم كثيفٍ، زاد الكآبة والحزن على وجوه المنازل، وأحاطت برودةُ الخريف بطرقاتِ خاويةٍ إلا من دورياتِ الجندي تطوف بالأحياء لتلبية متطلباتِ الناس، يوزعون الطحين واللحم. لم يبالوا بماهية اللحم الجديد على القائمة، فالمدينة تحت الحصار منذ عام. قرب الأسوار كانت قدورُ الجندي تفوح بالرائحة الرذيلة، وكل واحد منهم قد حصل على قطعة من لحمٍ خيلٍ وحساءٍ ساخن. منعوا أيضاً برداتٍ جديدةً خضراء، لا تدفعهم ولكنها تمنحهم مظهراً جيداً رغم شهور الحرب المتواصلة. وجوههم صارت إلى الشحوب، اختفت خلف لثام لا يُظهر سوئي عيون متحفزةٍ، يقاتلون على الأسوار وخارجها، وعدهم يتناقص كل يوم، ينتظرون المدد من إقريطش، وقد تأخر كثيراً، كما بدا أن الأغلبية لم يسمعوا بأمرهم.

في الأيام الأخيرة، كانت المدينة تُتصف بالمنجنيق بعد كل أذانٍ فجر وعصر. اليوم، لم يهجم الإفرنج - الكارولنجيون - وحين أمر محمد الأغلبي بذبح الخيول، كان الجندي في حالةٍ من الدهشة، زادت بعد أن وزعت عليهم سيوفٍ وتروسٍ جديدة، كما أن تجار باري وزعوا عليهم الأقمصة الجديدة. لم يفهم أحد ماذا يحدث.

صاح جندي من برج البوابة أن هناك فارساً يقترب من البوابة. فارسٌ على جواد أحمر قوي كان يركض نحو بوابة باري الغربية، حاملاً راية بيضاء. انتظروا أن يأتي الأمرُ من خيمة الأغلبي، الذي خرج متوجهًا أمراً الجندي بالانتشار، فراحوا يتراصون كما يأمرهم قادتهم، ثم اعتمر الأغلبي خوذته وهو يصيح في جند البوابة أن افتحوا الأبواب.

حمل مجموعةً من الرجال عارضةً خشبيةً، وفتحت البوابة بصرير شديدٍ، وكانت الدهشة من نصيب الفارس القادم للمدينة. ضرب الجواد حوافره بالأرض، بعد أن جذبَ ماركيزيو لجامه. وقف برهاة، قبل أن يحيث الجواد للتقدم بحذر. بوابة المدينة التي خرج منها خانقاً تُفتح له مرة أخرى. عبر تحت البوابة وعيناه تدوران في الجندي. ملابسهم نظيفة، وقدور الطعام خلفهم تفوح برائحة المرق. كان الأغلبي يقف بالقرب من البوابة، عاصفاً حاجبيه متبعاً تقدم الدوق، ولسان حاله يترنّج بفراسة ودهاء سودان. أمسك بخطم حصان ماركيزيو حين اقترب منه:

- يبدو أن باري قد راقت لك أيها الدوق.

حيّاه ماركيزيو بإشارةٍ من يده:

- الأغلبي.. توقعت أن يستقبلني شخصٌ آخر.. ولكن على كلّ، لقد جئت هذه المرة إلى باري من أجل السلام.

- أي سلام في إبادة قرى ومدن كاملة؟

- أود مقابلة السلطان سودان.

لم يرق للأغليبي جملة الدوق الأخيرة. كظم غيظه وهو ينظر في وجه الدوق، وأشار إلى ثمانية فرسان أحاطوا بماركيزيو، عبر الدروب المؤدية للقصبة. لم تكن هذه باري التي رحل عنها منذ أكثر من عامين. كانت الجدران كثيبة، أحواض الزهور خاوية إلا من طين. لكن سوق المدينة كان مزدحماً، والباعة ينادون على بضائعهم، كال أيام الخوالى، حين كان يجوب طرقاتها مع حارسين عيئهما أبو المغوار عليه، لم يُحدثهما طوال فترة أسره. شعر بحماسة لمقابلة ذلك القاضي الهرم. كان يحترمه، ولا ينسى أنه اعتقله من القتل، ثم منحه حياة جديدة، حين أذن له بالرحيل عن باري. طوال الطريق إلى روما كان خائفاً من أن يُغدر به، ولكنها هوذا يعود إلى باري مطمئناً، في محاولةٍ باسئةٍ قرر أن يخوضها وحده.

فتحت البوابة الحديدية للقصبة، على ثلاث نخلاتٍ باسقاطِ سودان يقف مرتدياً درعاً من زرد ذهبي، تتدلى عن كتفه حرملة من مخمل أسود، كعامتها التي تحتضن الخوذة. عن يمينه كان يقف حارسه ضخم الجثة، وخلفه صفوفٌ من جندٍ يُسكنون برماح طويلةٍ ودروع دائريّةٍ صغيرةٍ. نزل ماركيزيو عن جواده، احنى رأسه قليلاً للأمام قائلًا بالعربى: السلام عليكم يا سلطان باري.

- وعليك السلام أيها الدوق.. أرى أن رياح الحرب حملتك إلى باري متاخرًا.

- لقد جئت ضمن فرقة الملك لويس الثاني لمباشرة الحصار.. ولكن ما فاجأني حقاً أن أحظى بذلك الاستقبال المعد مسبقاً..

قاطعه سودان بثقةٍ:

- إنه أمر متوقع أن تأتي إلى آسرك، لترى خصوصه وخوفه.. كنت أعلم أنك ستعود إلى باري يوماً ما..

صمت ماركيزيو لبرهةٍ، ثم قال في هدوءٍ:

- بل إن الأمر ليس كذلك.

لوح سودان للجند، فتحوا عن الطريق إلى مدخل القصر. سار وخلفه الأغليبي وماركيزيو عبر الرواق الطويل، وتوقفوا قبالة شرفة تطل على البحر الهائج، وترى الأسطول البيزنطي في الأفق. لحظاتٌ من صمتٍ قطعها ماركيزيو:

- أنت تُزهق الأرواح دون فائدة يا سودان.. انظر لرجالك.. يحتاجون إلى الحياة، وأنت تُجرهم على حرب خاسرةٍ.. أستحق هذه الأرض كل هذه الدماء؟

- نحن لا نقاتل من أجل الأرض أيها الدوق، بل هو شيء أكبر من أن يعيه عقلك.. أسألكم ما أقصى طموحهم. لا أظن أنك جئت لتهتم بأمور الجند!

تنهد ماركيزيو:

- حسناً، لقد جئت للتفاوض، واستسلام يعقبه سلام.

آخر سودان الصمت وانتظار تتمة الكلام، بينما اكفره وجه الأغلبي، وبدا أنه يُجاهد ليكظم غيظه. كان ماركيزيو متربداً بعض الشيء..

- لقد تبدلت الموضع الآن، عليكم الاستسلام. الأعداد تتزايد في الخارج، والإمبراطور البيزنطي بأسيل الأول عازم على الدخول إلى باري بحراً. والملك لويس الكارولينجي ينوي اقتحام المدينة براً. لقد صار الأمر سباقاً بينهما لمن يرفع رايته فوق مدينة أولاً.. انتهى الأمر يا سلطان.

ابتسم سودان وهو يلتفت للدوق قائلاً:

- أي أمر الذي انتهى إليها الدوق؟! يوسفني إياك أن لا خيار لدينا يدعى استسلاماً، وأن ملكيك إن أرادا باري فعليهما القتال من أجلها.

أطال ماركيزيو النظر لهذا القائد، الذي - وإن كان عدوه - فهو يحمل له الاحترام..

- سيدى السلطان، لقد قلت لي ذات يوم إن القائد الحقيقي من يُجنب الأبراء القتل.

- سيد ماركيزيو.. منذ أشهر، وقبل مجيئك، طلب بعض أهل الذمة المغادرة، ومعهم نفر من المسلمين. ولكنهم ذبحوا بدم بارد، وألقيت رؤوسهم علينا بالمنجنيق. إن أهل المدينة أقسموا على الدفاع عنها.. يهودها ومسيحيوها سيفون أمام حصاركم إلى جانبنا. تستطيع أن تزور الكنيسة، وتسأل الأب بروسيدس عن كل تلك الأمور وحدكما.. إننا عازمون على المقاومة حتى ينكسر آخر سيف.

- أنت تُعقد الأمور يا سودان.

كانت المرة الأولى التي يُخاطبه فيها باسمه دون لقبه، مما جعل سودان يبتسم وهو يشير إلى الفأك المنتشرة بالبحر:

- لقد هزمنا إمبراطوركم في البحر، وأغرقت معظم حوارقه وقواديسه، بفضل ثلاثة صغيرة من الشجعان.

هز ماركيزيو رأسه في أسف..

- ولكنك خسرت معظم سفنك أيضاً. ولن يأتيك أي مدد، فإنريتش تخوض حربها الخاصة مع البيزنطيين أيضاً.. لقد تحالفت أوروبا ضدك يا سودان.. وأقسم الإباطرة والملوك ومن خلفهم البابا على اقتلاعكم من الجنوب الإيطالي.

- أرى أن علاقة البابا أصبحت قويةً بما يكفي ليخوض حرباً مع حليفه فيغضه.

- إنها السياسة كما تعلم.. وكان على الفرقاء توحيد الجهود لإزاحتكم عن الخارطة.

- اسمع يا ماركيزيو.. أقدر لك ما فعلته في روما من أجل ماريا.. وأقدر لك مجيئك إلى هنا للبحث عن سبيل لوقف الحرب كما تدعى.. ولكن على حلفائك أن يعوا شيئاً مهماً.. إننا باقون هنا حتى النهاية.

- لست هنا يا سودان إلا لأنني أرد قدرًا من كرم ورحمة أبي المغوار. وكنت أود أن يكون حاضرًا هنا، لعله يكون له رأي آخر..

قاطعه سَودان غاضبًا:

- لقد رحل أبو المغوار عن باري.. ولا تنس أنك تُحدث سلطانها.
- لم أنس سيدِي، ولم أقصد ما ورد بعقلك. ولو لا أني خبرتُ ما لك من حكمَة في النصح بما لا ينساه عقلي، لما حدثتك هكذا. ادرس الواقع حولك يا سلطان باري، فإني- أقسم بالرب- أخشى عليكم الأسر والقتل.

- يبدو أنك لم تعرفنا جيداً أيها الدوق، رغم إقامتك بيننا. نحن قومٌ لا نستسيغ المهانة، وكل النهایات بالنسبة لنا نصرٌ. ستذكروا المعاصي كل وقتٍ على طول الحياة إلى الممات، فذاك الذكر باقي ليس يفنى، ومدى الأيام ماضٍ وآتٍ..

تعجب ماركيزيو من حديث سَودان، وكيف يستطيع الثبات هكذا، رغم الحصار الشديد والمعارك. تأكد له أن إقتحام الرجل بالإسلام مجرد أضغاث أحلام، فها هو ذا متماضٍ، يتحدث من موضع قوةٍ خفيةٍ لا يعلم مصدرها. تبادل النظارات مع الأغلبي الصامت قبل أن يتمتم:

- وددت المساعدة فقط، وألا يوردم العناد التهلكة.

أومأ له محمد برأسه، بينما حدّثه سَودان:

- وقد أسعدي ما رأيت منك أيها الدوق. سيرافقك الرجال إلى بوابة القصبة.

...

في الطريق إلى بوابة المدينة، صادف ماركيزيو قسورة، الذي كان يقف بين رجاله. تبادل معه التحية، واقترب أمير الحرب من الجواد ممسكاً بـلجامه قائلاً:

- لم أصدق حينما أخبروني أنك هنا.. كنتُ حريصاً على لقائك أيها الدوق.

- سعيدٌ لرؤيتك يا فارس باري.. كنتُ أتمنى أن ألقاك في وضعٍ غير هذا.

ربت قسورة على رقبة الجواد، وعيناه لم تنزلَا عن وجه الدوق قائلاً:

- في الحقيقة، ما جعلني أنتظرك وأستوقفك ليس أن نتبادل كلمات التحايا، بل لأسائلك عما حدث في الحصن الغربي؟

بملامح جامدةٍ، تطلع ماركيزيو إلى قسورة الذي ينتظر إجابته. فكر لحظات مرت قبل أن يقول: لقد سمت جاريتك الرومية طعام رجالكم، فدخله الدوق إديلكي دون قتالٍ.

بُهت قسورة غير مصدق. لقد اختفت فيولا ونسوا أمرها وسط المعمعة. كيف تسللت إلى مطابخ الجندي في الحصن، كانت طوال الوقت بين ظهورنا؟! أفلت قسورة لجام الجواد، ليمر الدوق بجانبه متوجهًا إلى البوابة، بينما كان عقل أمير الحرب يُعيد عليه ذكريات المؤامرة.

لم تقم صلاة الجمعة في ذلك اليوم. كان أشرس هجوماً منذ بدأ الحصار الكبير. استمر رجم المدينة من الظهيرة حتى المغيب، وقبل أن ترحل الشمس شهد أهلهما انهيار جزء من سور الجنوب، واقتحم جند بيزنطة السور المُدعّي. تدفقوا كسيل جارف يكتسح كل شيء. الرایات القرمزية اندفعت في الشوارع والأزقة، وفرسان باري يسابقون الريح إلى الجهة الجنوبية من المدينة، والأغلبي يركض تجاه منزله، ويبحث كل من صادفهم على الذهاب إلى القصبة. هدير المعركة ازداد أكثر فأكثر، وأخرج الأغلبي زوجته وبناته البالغيات من المنزل، ليحتموا في القصبة ثم مضى في أثر الرجال. كان رجاله يتمترسون خلف ترسos كبيرة، شاهرين رماحهم، فنظر في وجوههم صائحاً:

- هل سنبقى هنا حتى يأتوا إلينا؟ لا والله، لن نترك رجالنا عند الأسوار يموتون، بينما نحن هنا ننتظر الدور. إن كانوا قد دخلوا إلى مدينتنا، فلن يخرج أحد منهم حيًّا.. إلى القتال!

ركض، ومن خلفه الرجال نحو المعركة الدائرة قرب السور الجنوبي، وعند الفجوة الكبيرة في السور، كان الرماة يُلْقون بأقواسهم، ليحمل كل منهم سلاحاً للنزال. نجوم السماء شهدت على قوة المهاجمين واستماتة المدافعين. التفت سَوْدَان وقد صرَع مبارزه، ليجد الأغليبي ورجاله قادمين، والنيران تلتهم المنازل، والدماء تجري أنهاراً. حارت بصيرته بين صرخات الألم وصليل السيوف ومشهد قسورة يُقاتل بسيفه كاعصار لا يُوقفه شيء، خفيف الحركة يميل ليتفادى طعنة، بينما يصد أحد سيفيه ضربة من آخر. كل هذا من اختيارك يا سَوْدَان. أكان الأمر يستتب لو رضيت أن يصير هذا المقاتل العظيم سلطاناً مكانك؟ أكان الحق أم فتنة السلطان ما حرك قرارك؟.. تکالب على قسورة سبعة رجال، فركض سَوْدَان بالهجان نحو صاحبه، تطيح بمن يقف في طريقها، ورمح صاحبها يفتك بجند بيِّزنطة. مع وصول الأغليبي ورجاله، أمطرت المدينة بالقذائف المشتعلة، وبدأ الكارولنجيون يهجمون أيضاً. مرَّت جمار النار فوق الرؤوس، لتصطدم بالمباني والبيوت، وعلى وجه النيران كان سَوْدَان يُقاتل ببسالة، حين أصاب سهمه صدر الهجان، سمع صوت اخترافه للحمها، صهلت متآلة، ووقفت على قائمتها الخلفيتين، ورأى الجميع السلطان يكاد أن يسقط! نزلت بقائمتها الأماميين فوق جندي بيِّزنطي تعيس الحظ، وراحت تدهسه وسَوْدَان يتراجُل من فوقها، ويهاجم عليه زمرة من الرجال،

— ك أيامنا الخواли، يا أخلص، الرفة، —اع.

والسهم في صدرها، قفزت به فوق المهاجمين، تلقي الطعنات كدرع حية، ثم سقطت مطلاقةً خواراً منزق قلب سودان. علقت ساقه تحتها، فأسرع نحوه أحد المشاة وعلّى شفتيه ابتسامة فوز شرهة، شاهراً سيفاً عريضاً تتموج عليه ضياء النيران و.. فصلت رأسه عن جسده، وسقط الرجل ليظهر خلفه قسورة باسم الثغر، وسيفاه يقطران دمًا. ساعد قسورة سودان على النهوض، في اللحظة التي انهار فيها جزءٌ من الجدار الشمالي، وما زال الهجومُ حيث يقفان قائمًا. ألقى سودان نظرةً على الهجان، فربت قسورة على كتفه وجذبه من مكانه، فأصاب المكان في نفس اللحظة رمحٌ مسنون.

النيران تأكل باري، وفوج جديد يقتحم المدينة في صفوفِ مرصوصةٍ، يرفعون تروسهم فوق الرؤوس، ورماة باري لا يتوقفون عن الرمي. أعاد سودان وق索رة ترتيب الصدفوف في انتظار البيزنطيين، وفي الجانب الآخر كان الأغلبي ورجاله يخوضون معركة ضارية، لا يتغير فيها النصر، بل يمنح العامة سبيل الفرار إلى القصبة التي تخرج منها تعزيزات الجند إلى حيث سودان.. في وسط

كل هذا الدم والهرج والحزن، كانت ابتسامة أهل باري لرؤيه ابن ميمون الحداد اليهودي يحمل ترساً وسيفًا، لطالما تفاخر على الناس بصنعهما، ليقف بين الصفوف. مسح قسورة سيفيه في جثة جندي بيزنطي وهو يُحدث صاحبه:

- لم يكن ليخطر بعقولي أن نوضع في هذا المأزق.. ولم أتخيل أن يحدث لباري كل ذلك على أعيننا.

أجابه سودان في هدوء من يرى النهايات..

- ولكنها قد حدث، وهذا نحن هنا.

- والله لا أُبرح حتى أردهم إلى خارج مدینتنا، وأجعلهم يتذكرون تلك الليلة.

ابتسم سودان لقول صاحبه، وعاد يُفكِّر ثانية فيما لو كان قد نزل له عن الإمارة، فربما لم يكن ليحل بباري هذا البلاء .

...

ليلة مشهودة، على طول الحروب لم تر باري مثلها قط. مات خلقٌ كثيرٌ، وتكونت الجثث واختلطت الأبدان والرايات، والسيوف تأبى أن تتوقف، حتى فرَّ عددٌ كبيرٌ من الجندي البيزنطي والكارولنجي، وسيطر على الساحة جنُد باري المنهكون. قرب الفجوة بالسور الجنوبي، كان قسورة سودان لم يزال يقاتلان إلى جانب بعضهما البعض، يفتكان بمن يصادفهم، ظهراً هما يتلاصقان أحياناً، ويتبادلان الأدوار كثيراً، قسورة وسيفاه، وسودان ورمحه، وما عادا يريان من جيشهما أحداً سواهما، فاحتسبا أنفسهما، وقررا أنه أحد خيارين يليق بهم رضي الله عنهم ووعدهم خيراً.

انهمك سودان بقتال رجلين، بينما قسورة يُحاط بثلاثة. صرع الأول، حين ضربه الآخر بضربةٍ مبالغةٍ، صدتها قسورة بأحد سيفيه، بينما دار حول نفسه ليطعن الثالث، فلمح سودان يجهز على أحد مبارزيه، وحين التفت ليعاود القتال، شعر بذلك الوتد الذي اخترق عضلات فخذه اليسرى، فانتشر ساقه، وسقط أرضاً. سهم آخر انغرس بالأرض جانب رأسه، وصاحبته يركض نحوه، ليصطدم بوابل من الضربات، استطاع قسورة التصدي لها، قبل أن يأتي سودان ليطيح بالرجل بعيداً، لينهض قسورة وقد فقد أحد سيفيه. عاد الرجل مرة أخرى، ليتصدى له سودان، وقسورة يقطع من ثوبه ليربط على جرح فخذه النازفة، بعد أن كسر السهم. حين رفع بصره، جحظت عيناه وهو يرى أحد الجندي يجذب قوسه ويسدد نحو سودان، فصاح لينتبه سودان، الذي باعث مبارزه وأمسك بعنقه جاعلاً منه حائلاً أمام السهم، الذي استقر بصدر الرجل. بسرعة أفلت سودان القتيل من بين يديه، وسحب الخنجر من حزامه، في الوقت الذي شد النشاب قوسه ليظفر بالسلطان.. ورمى كلهم.

تلقي قسورة السهم بدلاً عن صاحبه. رمى جسده، ليعرض طريق الموت. هُل سودان لما أصاب صديقه. ألقى نظرة على الجندي الرومي، الذي كان يزحف بعيداً بعد إصابته، وعاد ببصره إلى قسورة، الذي كان يبتسم رغم ألمه. أصاب السهم الغليظ أعلى صدره، مما جعله يتفس بصعوبةٍ:

- اللعنة على تلك السهام القصيرة.

قبض على يد سودان الذي بدا في صوته الارتفاع:

- لم فعلت هذا يا صاحبي؟

- ألم تكن لتفعلها إن كنت مكانك؟.. إن الأخلاع لبعضهم لمفتدون، وإنك لسلطان باري وصاحبها.. عاهدتك لا أبرح حتى أخرجهم خارج السور.

رفع سودان عينيه وجاب أنحاء المدينة:

- لقد فعلتها يا قسورة.. لقد أخرجناهم من مدينتنا.

شعر برجفةٌ تسرى بجسد قسورة، الذي قبض على يده، ولفظ فمه القليل من الدماء. تتمم بكلماتٍ لم يُفسرها سودان، ثم استكان بين يديه. أغمض سودان عيني قسورة، اللتين لن ترعيانه بعد الآن، ثم نهض متوجهاً حيث ما زال الجندي الرومي المُصاب يزحف، فغرس الرمح في قفاه ليقضي عليه، ثم عاد إلى حيث جثمان قسورة، فحمله على كتفه، وسار بدربٍ اشتغلت منازله على الجانبين.

اشتدت برودة الشتاء، وتزاحت المشاعر باحثةً عن الدفء، كما الأجساد المتراءكة بساحة القصبة. كل ناج من المدينة يسكن الآن القلعة والقصر، يفترشون الحديقة التي صارت مخيماً يأوي من بقي حياً من أهل باري. المكان مكتظ، غرف القصر منحت للنساء والأطفال، وصار الأمر إلى حصارٍ أضيق، ولم يبق لهم ملاذ سوى هذه الجدران ومن خلفها البحر والسماء.

وبين البرد والألم، يتتحى الانكسارُ جانباً، مفسحاً الطريق لحنينٍ يُسيطر على الوجدان، ينبش الماضي منقباً عن ماضٍ مستتر في ثنيا العقل، ويزير الغبار عن ذكرى حفرت بالفؤاد. شابٌ يقص على مسامع الرجال قصة منزله القديم بحار الصباغين الضيقة، حيث كانت جدران البيوت الحجرية تحتضن الأطفال وغنائمهم، وعلى ناصية الدرج كان هناك كهلٌ يتسم دفء الشمس. قصص أمه عن خلفون ورفقته. بدا على وجهه الأسى وهو يذكر أمه وعائلته ورفاقاً كثراً يتسلّك معهم ويقطفون ثمار البرتقال. حديث لا يتوقف عن الحب والحب ومدينة طاف بها الموت. يقولون إن ما بين الحرب والحب حرف، وكلهما سيئ بقدر الآخر، فالحرب كما الحب تسلب الأرواح وبينهما تنبت الآلام. رماد المنازل المحترقة جراء الحرب ما زال يحتفظ بقصص عن الحب، بقيت رغم برودة شتاء بعد شتاء، وتلك الريح الباردة تطوف بالطرقات. لعلها أطياتٌ من الماضي تتهماسُ في أركان الضاحية المهدمة. شخص آخر كان يقف أعلى الأسوار، يتطلع إلى المئذنة الشامخة، التي بقيت رغم تهدم أجزاء كبيرة من المسجد، ورغم كل شيء بقيت رانحة الريحان في أنفه، تذكره ببائع ورد مات يوم الاحتياج الكبير. ما زال يذكر العجوز وهو يُقاتل بعصاه الغليظة. وهو هي ذي المدينة قد أنهكتها الحرب وصارت أطلالاً يسكنها الخواء. إخلاء من بقي حياً كان ضرباً من الخيال. تقطعت بهم السبل، فوجدوا في وعد السماء خلاصهم. منحوا الحياة مقابل حياة أمير الحرب الذي قاتل حتى رد الروم خارج الأسوار. ما زال الجندي يقصون كيف افتدى السلطان بنفسه، وكيف كان أثر ذلك على سودان، الذي يقف كل ليلة فوق القصبة وحيداً ومعظم القرىبيين من قلبه رحلوا وتركوه. كانت المدينة تستعد للاحتفال بموالدته الجديدة، حين حدث الهجوم الكبير. فارقنا من نحب عنوة، وسنكم ما بقي من حياتنا عنوة، نبحث عن أملٍ في كومة رمادٍ بلالتها دموع العين. أيام مررت وأخرى ستمر، ولا نملك سوى ذكرى لكل لحظاتنا سواء حلوة كانت أم علقتا، ستذهب معنا على كل حالٍ، فهذه هي الحياة، كل

شيء إلى نهاية.. وفي كل نهاية بذلة جديدة.

حملت رملة رضياعتها تُهددها، وإلى جانبها كان على يُلاعب ابن ماريا الصاحك، أما الصغير عمر فكان يُغَالب النوم. النسوة يتهمسن في زاوية الغرفة، وطفل آخر يبكي وقد فقد أمه وأباه في المعركة الأخيرة، الحزن أحاط بمجلس الأميرة، التي كانت تقص عليهم قصة من هُجروا من الإسكندرية إلى البحر دونما أمل..

- احتفى شاطئ الإسكندرية رويداً، والمنارة أصبحت مجرد شبح رمادي تبخر مع الوقت. أبحروا في رحلةٍ إلى قرص الشمس الغarb بالافق، أربعون سفينة لم تلحق بالضوء الأحمر الفاصل بين البحر والسماء، التهم ليلهما فوق الرؤوس الخائفة. كتب عليهم الرحيل، وفي كل مرة كان البحر ملاذهم، لا يعلمون على أي شاطئ سيُلقي بهم الموج. وعلى متى إحدى السفن، وقف جدها الفقيه أبو حفص البلوطى، ليُعلن عن وجهة جديدة، فقد صافت بهم أرض الإسلام والمسلمين. وفي اليوم الرابع، أشرق شمس أقريطش من بعيد. جزيرة تتوجه بحمرة شمس الصبيحة. الفاك طيور عملاقة بيضاء تبرز في الأفق، تشق المياه باتجاه الشاطئ الرملنى، وخفقت الأشريعة. فزروا حاملين أسلحتهم، يهلكون ويُنكرون على مرأى وسمع حامية بيزنطية تسكن قلعة مهترئة الجدران. كان وقع الصدمة كبيراً على الفرقة البيزنطية، والسفن تتراص تباعاً على الشاطئ كحيتان البحر في موسم الانتحار، بقرت بطونها ليخرج البشر بكثافة. اختلط الجميع نساء وأطفالاً وشيوخاً وشباباً، الأعداد تتزايد والرعب تمتلك القلوب على الجانبين، أحد هما أدرك أنه مهزوم لا محالة، والآخر لم يعد هناك ما يخسره. أقريطش هي ابنة قرطبة والإسكندرية، جزيرة عمرت بالمطرودين، سوراً ممهدة وبيوت بلون البحر والسماء، أبواب ونوافذ ونقوش زرقاء تمنح المنازل البيضاء رونقاً خاصاً مع أحواض الأزهار. قتوأت المياه والحقول الخضراء والبساتين المثمرة تحيط المدينة من كل جانب..

توقفت عن الحديث، وأرهفت السمع. توترت الوجوه وتبادل النساء النظرات. كان شيء ما يحدث خلف جدار القبو. جلبة ومهماضات خافتة.. ناولت رملة طفلتها إلى الصغير عمر، واتجهت إلى الحائط لتصفع أذنها عليه، وأصابعها تقبض على خنجر كان يوماً لشعيـب. هـمـسـتـ إـحـدـاهـنـ: سـاذـهـبـ لـأـخـبـرـ الجنـدـ يـالـأـمـرـ. أـوـمـأـتـ لـهـاـ رـمـلـةـ وـقـدـ عـقـدـ حـاجـبـاهـاـ. إـزـادـ الضـجـيجـ خـلـفـ الجـارـ.. ثـمـ انـزـاحـ فـجـأـةـ، مـثـيـراـ عـاصـفـةـ منـ غـبـارـ يـتوـهـجـ بـنـيـانـ مـشـعلـ يـحملـهـ رـجـلـ طـوـيلـ القـامـةـ يـقـولـ بـصـوـتـ أـجـشـ:

- لكم الأمان يا أهل باري من عبد الله طلحة السكندري.

...

على ضوء المشاعل، كان لقاء طلحة وسُودان بالقبو، بعد أن أفرغ من النساء والأطفال. حديثه كان مقتضياً لبُهُ هو إخلاء القصبة سرّاً والهرب. كان سُودان متوجهًا وهو يستمع إلى البحر الذي خاطر بكل شيء من أجل إنقاذه هو ومن معه. سقطت برنديزى، وقتل قيس القيروانى وكل رجاله، والسفينة قادمة من كرواتيا والبنديقية لتضم إلى الحرب المقدسة، كما أسموها. الخبر الوحيد المُبهج أن إقريطش تجهز حملة ضخمة للمجيء، ولكنها قد تتأخر لما بعد الشتاء. لم يكن هناك وقت للتفكير في حل آخر. البحر منبسط تماماً، والليلة مناسبة للإبحار دون أن يشعر الأسطول البيزنطى. غابت الرياح، كما اختفى القمر..

- لا وقت لدینا يا سلطان باري، عليك إخلاء أهلك ورجالك.

- كم سفينة لديك؟

- سفينتان.. ولا أظنهما تستطيعان حمل كل من بالقصبة والقصر.

قطع دخول الأغلبي شرود سودان. انتظر حتى تبادل الرجال السلام، ليقول محدثاً من جاء أخيراً:

- أبا عبد الله، أخبر أهل القصبة أن علينا نقل النساء والأطفال على الفور.

حاول طلحة أن يعترض على ما قاله سودان الذي رمه مستطرداً:

- أظن أن السفينتين تستطيعان حمل عدد من الناس.

- ولكن يا سلطان.

- كل ما يُقال بعد "لكن" هو مجرد هراء.. سأبقى في باري أنا ومن يريد البقاء، سننتظر أن تأتي سفن إقريطش أو نفني ونحن ندافع عن مدینتنا.

...

ودع الرجال عائلاتهم بدموع حارة وأمل باللقاء. ستنقل القوارب النساء والأطفال إلى السفينتين، ثم تبحران إلى إقريطش. خطب سودان في الناس، بأن من يريد الرحيل فليذهب، أما هو فسيبقى في باري، حتى لو ظل وحده، فشجعت كلماته الرجال على البقاء. وعلى ظهر أحد القوارب، كانت عائلة قسورة تشاهد باري تختفي وسط الظلام.. وفي غرفتها، كان سودان يبحث عن شيء ما، حين فتح الباب من خلفه. لم يلتفت، وواصل بحثه في صندوق ماريا. لحظات مررت قبل أن تنطق رملة الواقفة خلفه:

- لن أرحل دونك.

استدار قابضاً على شيء ما بيده، تطلع إليها:

- سالحق بكم إن شاء الله.

- أريد البقاء..

قاطعها بصرامةٍ:

- يجب أن ترحل..

دمعت عيناهَا واقتربت منه:

- إذن ارحل معنا..

- رملة، لا أستطيع الرحيل، هذا واجبي وما كلفت به.. أحمل على عاتقي سلامتكم وحماية مدینتي..

- لم يبق شيء هنا سوى الموت يا سودان.. أطفالك بحاجة إليك.

- علىي أن أحميكم جميعاً.. سيصل بكم طلحة إلى إقريطش. لقد أخبرني أن أسطولنا قادمٌ من طارنت.

سال الدمع بلون كحلها من طرف عينيها. بدا جاماً، ولكن قلبه كان يتمزق. حاول أن يكون صلداً ليمنحها قوة يحتاجها هو. وضع يده على كتفها، فارتلت بصدره.. احتضنها، واعتصرت بذراعيها. أجهشت بالبكاء.. المرة الأولى التي يرى فيها كل هذا الضعف. مُجبرة هي على الرحيل، كما أجبرت على البقاء في السابق. ربت على ظهرها برقة، محاولاً التخفيف عنها:

- سأتي إلى إقريطش قريباً، وسنعود مع أطفالنا إلى باري.. أعدك.

وَعْدٌ أملت أن يتحقق وهي ترفع رأسها نحوه. ابتسمت وعيانها السوداوان تتطلعان إليه، فما كان منه إلا أن لثم شفتيها بقبلةٍ رقيقةٍ، ثم أمسك بكفها ليضع دميه لحصان خشبي قائلًا:

- هذه لعبد الله من أمه.. احفظيها له. أما الصغيرة مريم، فستكون أميرةً جميلةً مثلك.

لفَ وشاهاً أخضر، بلون علم باري حول الصغيرة المتثنية مستطرداً:

- أعلم أنك لن تفرقني بين أربعتهم.. قد يكون الوقت ضيقاً لاعترافِ أخرين، ولكن وجب علىي أن أخبرك بأنك امرأة عظيمة يا رملة.

...

أبحر آخر القوارب عن الخليج الصغير، حاملاً على متنه رملة والصغر. وداع لم يدم طويلاً، تماسك فيه سودان وهو يُقبل ابنه بين عينيه، وحوال سریع دار بينه وبين أطفال شعيب، وهو يُداعب فتاته الصغيرة. كان يلوح لهم وقلبه ينزف ألمًا. رُزق بالأطفال كما تمنى، ولكن ها هم أولاء يبتعدون، بينما يقف هو على الشاطئ يُراقبهم في صمتٍ ووجعٍ.

أضاء بدرُ تمام ما تبقى من المدينة.. قصبة متآكلة الجدران، تراكمت الثلوج على أسطحها، والرياح تعبث بالرایة الكبيرة فوق برج باب البحر، وساحتها تعج بالفوضى وكومات من حجارة غطاها النج. المشاعل وزعت على الأسوار، كانت من قبل تاجاً من نور يسطع في ظلام البحر. مضى شهرٌ على رحيل آخر قارب، حمل على متنه رملة وأطفالها مع نساء وأطفال المدينة التي صارت أطلالاً مدمرة. غطاها الشتاء بلون الحداد الأبيض. منذ ذلك الحين والمعارك لا تتوقف، يُحاول البيزنطيون اقتحام الأسوار يومياً، وعدد المحاربين بباري يتقلص يوماً بعد يوم. لم يتبق سوى الأغلبي وسيعين رجالاً، صدوا الكثير من الهجمات بحراً وبراً، واستبسلاوا رغم الجراح والدماء، ولم تأت سفن إقريطش. في كل ليلةٍ يجتمعون في حلقاتٍ حول النيران، يشاركون قصص حياتهم وأحلاماً تتحققت وأخرى لم تتحقق. ينتظرون الموت، لا يعلم أحد متى تحين لحظته. كان الأغلبي يستمع لحواراتهم دون الخوض في الحديث. هذه الليلة، انتابه شعورٌ أن ذلك البدر هو الأخير. ظل يصدق سيفه بحجر وعيانه لا تفارقان القمر المتواري خلف البرج. رأى في ضيائهما زوجته وبنته، وارتজفت يداه حين خيل إليه عبد الله يبتسم له، وصوته يسري بعروقه:

"ودت لو أرافقك في كل غزوتك يا أبي"

يتذكر اليوم الذي قالها له، وخرج غاضباً، بعد أن أصرَّ محمد أن يُودعه بيت أبي المغوار لتعلم الطب.

أشاح بنظره عن القمر، واستمر في صقل سيفه، ولكن النصل عكس الضياء وصوت الفتى يتردد برأسه مرة أخرى:

"لقد قال لي أبو المغوار إن الأسود لا تتنازل عن مبادئها، وإن رأت صوبها المنون".

ليت الخنجر غرس بجسده هو بدلاً عنه. سيطر الحزن على الأغلبي وهو يتذكر لحظات ابنه الأخيرة. ارتعشت يده، فترك الحجر وأعاد السيف لنعده، وسار بعيداً عن تجمع الرجال متوارياً بالظلال، حتى لا يرى أحد وجهه، صعد الدرج الزلق إلى سطح القصبة، حيث جند الحراسة فقط يقفون خلف المتاريس المتجمدة، لكل واحد منهم قديل، بالكاد يضيء الشقوق التي يقفون بها. حياهم، ولم ينتظر من الواهنين جهد الرد، وتوجه إلى تلك البقعة الخاوية قرب البرج الكبير. بردته تطايرت بفعل الهواء، فدسَّ يده بين طيات ملابسه، ووقف يرمي صفحة البحر الهائج، تتارجح عليه سفن البيزاطيين والبنادقة، بعد أن كان يوماً عرین أسطول باري، القابع معظمُه في قاع البحر والميناء. لم يخطر بعقله يوماً أن يحدث هذا.. أن يبقى وحيداً مع ثلاثة لا يعرف معظمها، وأن يكون رفيقه إلى الموت سودان الماوري. شرد بالغيوم التي تجتمع في الأفق البعيد، فإذا بالهواء البارد يثأج صدره، وسکينة اجتاحت فؤاده لا يعرف سببها..

- لطالما كان مشهدِي المفضل.. هنا على حافة العالم، كما أسميهَا

نطق بها سودان، الذي كان يقف وراء الأغلبي مستطرداً:

- لم أتوقع أن يكون المشهد كما هو اليوم.. مثالك يا أغلبي.

ردَّ الأغلبي ساخراً:

- هل علىَّ أن أذكر دوماً أن لا أحد مثلي.

تقدَّم سودان حتى وقف إلى جانبه:

- أعلم ذلك يا صاحبي.. أن لا أحد مثالك.. علىَّ الاعتراف بذلك.. أتعرف يا محمد، كنت دوماً تُسيء الظن بي.

خط الأغلبي شفتيه:

- نعم هذه حقيقة.

- ولكنني لم أفعل.. لم أsei الظن بكم، حتى حين عرفت بما يدور في منزل الصقلي.

- أبو المغوار من أبلغك؟

- لا، بل رحل دون أن ينطق بكلمةٍ، وهو ما أحزنني كثيراً. لكنني فهمتُ فيما بعد أنه أراد منحنا جميعاً حق الاختيار. مسلمة هو من أخبرني بعد أول اجتماع لكم، قبيل رحيله إلى برنديزي، وتمنّيت حينها ألا تكون أيديكم ملوثة بدمائي يوماً.. وحده شرحبيل من واجهني، بعد أن كون مجموعته الخاصة. ولكن دعني أسألك؛ هل كنتم تننون فعلها حقاً؟!

- لم يستأجر قابيل قاتلا ليقتل أخيه..

طال صمتهما بعد كلمات الأغبى الموجزة. الغيوم تقترب أكثر، والموج لا يكف عن الارتطام برأس الخليج القريب، وأغرق المدى خليج خلفون، حيث دخل الفاتحون أول مرة، وحيث كان خروج طلحة السكندرى ومعه من تبقى من أهل المدينة. حلق نورس بالقرب، يُراقص ضياء البدر، يتهدى مع الريح، وحيداً كعقولهم الممتلئة بغمار حياة قصيرة ربما. سؤال ملح راح يضرب عقل الأغبى، فقطع حال الذكريات ليسأل صاحبه الشارد بالآفاق:

- لماذا عفوت عنا؟

- لأنكم إخوتي..

- ولماذا لم تعرف عن شرحبيل؟!

- لأنه قاتل.. تمادى في الكِبر، وانغمس في الغدر.

قضيا ليتلهمًا يتسامران مع الجند، وللمرة الأولى يسمع الجند ضحكات الأغبى. كان سودان يقص موقف طريفة، ويقوم بتقليل صوت أبي المغوار، يوم جعلهم يقفزون في مياه البحر الباردة. عقابه كان درساً في تحمل الألم والصبر، قصورة تعل بالمرض حينها، إذ كان يخشى لا يعود لزوجاته الثلاث كسابق عهده. على ذكر قصورة، توّفوا عن الحديث مرة أخرى، ليخوض كل منهم رحلة في نهر الذكريات المتدفع من وجادتهم، في ليلةٍ تأخر بزوج فجرها. حلت الغيوم السوداء أخيراً، ولم يلم القمر حبات نوره، وتدثر بالسحب.. لامس قلوبهم صقيع احتضن القلعة بمن فيها، مئذنة باري كفت عن الأذان منذ ما يناظر الشهرين، تتف باكيّة على أطلال مدينة احترقت، تُناجي أبراج الحصن الأخير حين يسمع فيه أذان فجر النهاية. استدار الأغبى:

- الصلاة جامعة يا أباً أحمد.

كان سودان يقف باسطاً يده أمامه:

- يبدو أنها ستطرأ.

- مع المطر يأتي النصر.

مضى سودان في أثر الأغبى إلى الساحة، حيث الجند يستعدون للصلاة. توضأ كلاهما من نفس الإناء بماء دافئ، وتقدم سودان للإمامية، داعياً جنده أن تكون تلك صلاة موعده، ثم كَبَرَ وصلّى. أطّال في سجوده، ولما فرغ من الصلاة، أشار للأغبى الذي قام يخطب في الجند، يحثّهم على الصبر والجلد، ترك سودان الساحة المكتظة بالفوضى متوجهاً إلى الأروقة الخاوية إلا من صفير الريح، فضاق صدره، وأخذته خطواته إلى قبرها، حيث كانت حدائق القصر. عند قبرها، جثا على ركبتيه، يلامس بأنامله الثرى المخلوط بالثلج الهش. عجز عن النطق أو التعبير، وسرت رجفة بجسده، فرفع رأسه نحو غيوم تحارب ضوء الشروق، والثلوج تهبط من السماء حوله، وصوتها يغمره: إنها تثلج يا أميري.. أبتسّم وهو يتمتم: أميرتي..
نهض مُعتمرًا عمامته، وعيناه لا تريان مفارقة القبر. زفر..

- يوم صعب آخر علينا خوضه.. لن يأتي أي مدد، ولم يبق منا إلا ثلاثة قليلة.. لن يكون هناك من يتغنى بأنشودة تحمل اسمي يا ماريا.. كنت أحلم بالذهاب إلى روما فاتحًا.. مُنْيَة ستحققها غيري ربما.. سأدفع عن مدينتي حتى آخر قطرة من دمائي.. أسأل الله أن يثبت قلوبنا وأن يغفر لنا تقديرنا وما اقترفناه من ذنب.. ماريا، كم أشتاق لرفقك يا حبة القلب.

ارتدى درعه، ولف الوشاح القرمزي حول رقبته، يستنشق فيه رائحتها. شد على خصره حزام سيفه، وتحسس المقبض البارد وصوت حارس البرج يصل إلى مسامعه:

- قوارب بيزنطية تقترب من باب البحر.

خرج غير متجل، ليجد الأغلبي يوزع الرجال فوق البوابة، ومن بعيد يأتي صوت دبيب جند الكارولنجيين. إنها لحظة الحسم. لم يأت مدد من إقريطش أو من صقلية، انشغل كل بحريه، وتنافص الرجال، وربيع باري انقضى سريعاً. الحياة وإن طالت قصيرة، كان يأمل أن تصير الإمارة لسلطنة كبيرة يحيى عنها العرب والعلم، وأن تصبح روما العظيمة مجرد مدينة تحت سلطان دولة تضاهي عظمة ملك بنى أمية في الأندلس، ويكون لها نصيب كما لبغداد ودمشق من العز. الأماني كثيرة، كلها رحلت كما رحل الأحبة، تحرك بخفة باتجاه سور البحر، فصعد الدرج الحجري ليرى الأوضاع. قوارب البيزنطيين بالعشرات ترصع سطح البحر، يحيط بها ضباب خفي، يجذبون بحماس المنتصر، ويتقدمون بسرعة نحو الشاطئ. أعداد غفيرة راحت تجتمع في الشمال والجنوب من القصبة. ومن الغرب كانت ضربات المنجنيق تدق السور. بضع قوارير من زيت هي كل ما تبقى، والرماة يجهزون سهاماً من صنع أيديهم، صامدون ليوم آخر، لعل طلحة يأتي بسفنه ورجاله. انهار جزء من برج البوابة، وأطاحت كرات النار بالأجساد، وأختلط الدخان بالثلج. نادى الأغلبي على الرجال، للنزول إلى الساحة ودفع مزيد من المتأريسين إلى البوابة.

وصلت الدبابة الخشبية يدفعها الجندي. القصيبة الخشبية ذو الرأس الضخم من الحديد يدفعه الرجال ليضرب البوابة الحديدية، حتى انبعثت وصوت ارتظامهما يصم الآذان. كان سودان يدفع السلام، ويقاتل بضراوة اليائس فوق السور، حتى ضربت السور قذيفة أطاحت به مع رجاله. يد امتدت بين الركام لتجذبه. كان الأغلبي يبتسم على غير العادة. لعلها المرة الأولى التي يراه مبتسمًا. الضجيج خفت، إلا من صوت الموج وارتفاع البوابة. خلع سودان خوذته المنبعجة وألقى بها وهو ينهض. سحبه الأغلبي، فتماس درعاهما. رب سودان على كتف صاحبه، الذي أومأ برأسه قائلًا: إنها النهاية على ما يبدو.

اخترق سودان صفوف رجاله ليتقدمهم، وألقى نظرة طويلة على البوابة المرتجفة، استدار بعدها لينظر في وجوه رجاله محدثا إياهم:

- سيقص التاريخ دوماً صمودكم وبسالتكم، وكيف لفنة صغيرة أذاقت أكبر جيوش الأرض هزيمة نكراء. وقد لا يذكرون أحد على الإطلاق، ونصبح في طي النسيان، ولكننا حاولنا. خضنا الحرب، انتصرنا وهزمنا.. وهذا هو الحال دوماً، وإن نسي البشر، فتراب باري سيشهد على ملاحمنا وحضارتنا.. يكفي ثراها فخرًا أننا سنُدفن بها.

كسر الباب الذي لطالما صمد. اندفع جنود الغزاة عبر فجوة أخذت في الاتساع، ودروع رجال باري تصدتهم وترجعهم للخلف؛ ولكن لكل درع أجلًا. مشاة الكارولنجيين خلخلوا الحائط الدفاعي لجند باري القليلين، ولكن سودان صاح برجاله، فانزاحوا جانبًا، ليندفع الكارولنجيون بين فكين من السيفوف،

يفتكان بهم. توقف فيضانُ الجيش بفعل ثلةٍ صغيرةٍ، تقاتل بضراوةٍ لم تعهد لها حربٌ من قبل. مرة أخرى يُغير سَودان ورجاله التشكيل، وبين الحين والآخر يسقط أحدهم، وبين التقدم والتراجع تأرجح الموقف. أصيب الأغلبي، طعن أحدهم فخذه، بينما كان يُقاتل آخر، لكنه لم يسقط. ظل واقفاً مكانه، يصرع من يلقاءه، كان سَودان يُقاتل بشراسةٍ، فلمح الأغلبي لا يتحرك من وقته، فشق طريقه في ساحة الوعى كإعصار شديد البأس، ليتوقف عند الأغلبي الذي كان يلتقط أنفاسه:

- مَاذَا بِكَ يَا أَبا عَبْدِ اللَّهِ؟

رفع الأغلبي رأسه:

- مَا زَالَ أَمَانُنَا الْكَثِيرُ لَنْخُوضُه مَعًا يَا صَاحِ.

دار سَودان ببصره في المكان، مشيراً لرجاله بالتجمع مرةً أخرى قائلاً:

- عَلَيْنَا غُلَقَ تِلْكَ الْبَوَابَةَ بِأَيِّ شَيْءٍ.

لم يكُنْ يُنهي جملته، حتى رأى الفوج الثالث يدخل عبر البوابة المُحطمة.

...

فوق تلٌ مرتفع خارج المدينة، كان ماركيزيو يقف صامتاً، يتابع اندفاع الجندي إلى المدينة. قشريرة سرت بجسده وعمَّ صدره الحزن. باري مدينة لا تستحق الدمار والموت. تمنى ألا يموت سَودان ورجاله، ولكن بدا أن الأمر قد حسم، وهو هي ذي المعركة تضع أوزارها بعد عام من الحصار برأ وبحرًا. قتل خلقٌ كثُر، واستطاع سَودان أن يخرج النساء والأطفال أحياء. سَودان عدوٌ نبيل، يحزن الدوق أن يفقد إحساسه بوجود مثله في الحياة. ألحان الأشودة التي سمعها بسان فيلي تسربت إلى مسامعه، والدخان يُعْنِق السماء، والسفن البيزنطية تتَّرَجح فوق الموج بالافق البعيد، ولربما سَودان وحيدٌ بالداخل. لو كان من خراف الرب، لخلدته ترنيمة ما، ولبنيت كنيسة تحمل اسمه مع لقب قديس. شعورٌ بالخزي لامس قلبه، وهو لا يستطيع فعل شيءٍ. خلع الدوق عباءته، لتسقط تحت قدميه، ومن بعدها درعه. أطال النظر إلى باري مودعاً، ودار بجواره ليرحل متقدماً.

...

علقت كسارة الأبواب الكبيرة بالسلسل الحديدية التي تدعم البوابة، فهلل رجال سَودان. لم تعد المعركة أكثر من جيش كثُرته غلب شجاعة القلة، ولكن أولئك القلة لم يخلقاً للهزيمة، وخيارهم إن لم يكن النصر فهو الشهادة. ألقى سَودان برممه، ليستقر بصدر من كاد يفتك بالأغلبي، وراح يبارز وكان جسده فقد كافة أحاسيسه من كلٍّ ويسِّرٍ ووَجْعٍ، وما عاد إلا أداة حرب مشهورة لا تنكسر.

ارتوى السيفُ حتى الثمالة، وشيناً فشيناً خفت صليل السيف، حتى صمت، وحل محله الآلين والحدائق، ولم يبق من البيارق والرایات إلا كل مُمزق.. دماء وأشلاء، خوذاتٌ منبعثة، ورؤوسٌ دامية، ورایة النسر ذو الرأسين الصفراء سقطت.. انتهت المعركة مع انتصاف النهار. نحر سَودان مبارزه الأخير، وسقطاً معاً. ترك جسده يتهاوى بين القتلى، يلهث وعيناه ترقبان السماء الرمادية فوقه، والجوارح تطوف في انتظار وليمة من الجثث. وجذ التعب والألم سبيله إلى جسده أخيراً. نهض جالساً، ثم التقط سيفاً مُلقى إلى جواره، فتوكاً عليه ليقف. جال بعينيه في الساحة المكتظة بالقتلى، وأنين الجروح والاحتضار، فرأى الأغلبي يستند على الجدار مُتعيناً فناداه:

- يا أبا عبد الله.. أما زال هناك الكثير لخوضه؟

استدار محمد ببطء، فتهاوى. سقط أرضاً ويداه تحاولان الإمساك بأمعانه. أسرع سودان ناحيته، وجثا إلى جواره، فنظر الأغلي إلى نظره الصادم:

- تمنيت أن يطول أكثر من هذا.. أجلسني يا سودان، لا أريد الموت راقداً.

أسند سودان ظهره إلى صدره، فدار الأغلي بعينين نصف مفتوحتين يتفحص جروح جسده، وضحك في تهمم وهو ينظر إلى أحشائه التي خرجت من بطنه. انتزع سودان قربة الماء من حزامه، وقربها إلى شفاه الأغلي، الذي أزاحها قائلاً: أعطها لذلك الرجل!

استدار سودان، ليجد أحد الجرحى الكارولنجيين، وجهه مغطى بالدماء، وعي睛اه ويداه يترجيان قربة الماء. لم يجد ما يقول، فهذا هو الأغلي كما عرفه عمراً طويلاً زخر بالمواقف والمعامع. أسند ظهره صديقه إلى الجدار، وذهب إلى الرجل، فأسند رأسه وسقاوه حتى ارتوى، ثم عاد ببصره إلى الأغلي، الذي كان باسم الوجه وعي睛اه متعلقتان به، ولكن قد فاضت روحه وما عاد هنا.

رحل الصديقُ الأخيرُ، وما زالت راية باري تخفق أعلى البرج، لم ينتزعها أعداؤها بعد، وصوت الـوق تردد الجبال والجدران، يُعلن عن بدء الهجوم الثالث. الرأية لا تزال تخفق، والـحرب قائمة، وقسمٌ يسري بوجданه، لن يبرح باري إلا للسماء. كان وحيداً، وعيناً الأغلي الجامدتان لا تزالان ترافقانه. انتزع رمحاً من صدر أحد القتلى، ودبّيب أقدام الجندي يرج الأرض رجأ، وقد أفلت من بين الغيم شعاعٌ من شمس أصرَّ أن يشهد النهاية، غمر الساحة التي يقف بمنتصفها وعي睛اه تجولان بأرجاء القصبة.. فوقَّي بابي المغوار يقف مهيباً، يومئذ برأسه قائلاً:

- قُم يا آخر الأبطال، إنني علمتك لا تكل ولا تنام.

بالقرب منه، كانت سليمية تحمل الرضيع، وتتفق إلى جوار والدتها. وعلى الدرج، كان شعيب بشعره الأشقر الكثيف وعي睛اه الزرقاويان، يجلس مبتسمًا مرتدياً درعه الأسود المذهب، وقد وضع سيفه على ركبتيه. وفي الساحة، كان عبد الله بن الأغلي يدور حول نفسه، مستعرضاً برمح صقل نصله. ومسلمة يمسك برأية مخضبة بالدماء، بينما قيس القيرولي يشد قوسه مستعداً. شذرات برد ذهبية تساقط ببطء، أحاطتهم جميعاً، وفوق برميل كبير جلس كاراس ضاحك الوجه، وهذا هو ذو قسورة يخرج من خلف أحد الأعمدة، ممسكاً بسيفه والرياح تعثُّ بخصلات شعره الفاحم. وعند حافة البركة المجمدة، كانت هي.. ماريا تبسم له، وعي睛ها تغدقان عليه بالشوق. تركهم على الأرض، ورفع عينيه إلى راية باري فوق البرج الكبير، تخفق بأمل آخر مع ريح بارد أثليج صدره. قبضت أصابعه على الرمح، مع بدء دخول الجندي عبر البوابة، يركضون صارخين نحوه، بينما يقف ثابتاً في مكانه متطلعًا إليهم بهدوء، وعلى شفتينه ابتسامة ظفر.

تمَّت بحمد الله

جزى الله خيراً كل من ساعد في خروج هذا العمل إلى النور... شكرًا لكل من اقتطع من وقته جزءاً ليقرأ ويُقيّم حروفي.. لولاكم ما كانت (باري) لخرج بأبهى صورة لها... وستبقى أنشودة سودان شاهدة على ما قدمتموه لي من دعم.

